ميشيل هيلير

السكرتير السابع والأخير

نشوء وانهيار الإمبراطورية الشيوعية









١٩٨٥ ١٩٩١ — ١٩٨٤ ١٩٨٥ — ١٩٨٢ ١٩٨٤ — ١٩٦٤ ١٩٨٢ — ١٩٥٣ ١٩٦٤

ميشال هيلر

السكرتير السابع والأخير

غورباتشيوف من العظمة إلى البؤس

نشؤ وانهيار الأمبراطورية الشيوعية

ترجمة

الدكتور نظير جاهل

الدكتور حسن الضيقة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بيروت ـ لبنان

ص . ب ـ ٨٣٧٥

هاتف: ٣٥٣٠٠٠ ـ ٣٥٠٧٢١ ـ ٣٥٠٧٢٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ـ ٣٤٥٤٦٠

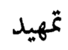
تلكس ـ ٢٢٦٦١

فاكس ـ ٠٠٣٥٧٩٥٢٢١٠٧

بناية الوهاد ـ شارع جان دارك ـ بيروت

الطبعة الثانية

١٩٩٢م ـ ١٤١٢هـ


تمهيد

ينطلق هذا الكتاب من نظرة جديدة إلى ما يحدث اليوم من تغييرات كبرى في الاتحاد السوفييتي. فبعكس معظم من كتب في هذا الموضوع، يرى ميشال هيلر أن الخطّ الذي يتبعه غورباتشيوف لا يشذّ من حيث منطلقاته العامة عن الأصول الشيوعية، بما هي سياسة سلطوية عملية، بدأت تترسخ مع لينين إثر انقلاب أكتوبر عام ١٩١٧.

وهو يدلل على مقولته هذه بأسلوب بديع يجمع بشكل رائع بين السيرة والتحليل التاريخي، متخطياً التسلسل الحدثي حيناً، مكثفاً الزمان أحياناً، متنقلاً في الفترة نفسها بين عهود الحكم السوفييتي، دامجاً بين صور الزعماء السوفييت المتعاقبين، حتى ليظهر غورباتشيوف بشارب ستالين، ويتكلم بالدفق الخطابي الذي يتميز به لينين. . .

من هو غورباتشيوف؟؟ وراء فرادة الشخص وأبهته يختفي بؤس النظام السوفييتي. والمبدأ الذي لم تشذّ عنه أية مرحلة من مراحله: السلطة قبل أي شيء وفوق أي شيء، من برست لينين إلى تنازلات غورباتشيوف، يظهر الحزب منفصلاً عن المجتمع، وكأنه دائم الإستعداد للمقامرة به ـ المجتمع ـ حفاظاً على موقفه.

إننا نشهد هنا قراءة موضوعية داخلية لتاريخ الإتحاد السوفياتي بوصفه حقبة من تاريخ روسيا العظيم. قراءة نقدية قاسية تركز على مساوىء سلطة الحزب، أو حتى على الشرور التي لا تخلو منها فكرة الحزب بحد ذاتها.

الحزب/ الجهاز السلطوي الذي أتلف نسيج المجتمع، ودمّر الريف محدثاً مذابح فلاحية لا مثيل لها، فاصلاً الفلاح عن أرضه وحيواناته الأليفة، ليجعل منه عبداً جديداً في الكولخوز. . . الكولخوز، ما هو هذا الكائن الجديد؟ كيف يعمل؟.

إن قراءة فصول هذا الكتاب حول اقتصاد الريف تعطي انطباعاً بأن علم الإقتصاد الإشتراكي ينكشف هنا في سياق، إيقاعات الحياة الريفية التي تبرز في ثنايا النص، وكأنه حجاباً يتمزق أمامنا.

الحزب/ الجهاز الذي يمنع الكلام الحي من خلال الدعوة ـ الغلاسنوست إلى الحديث عن الحقيقة، حقيقة تُقال بأمر السلطة. . . ليست الغلاسنوست جديدة، إنها تقنين دائم لكلام الناس الذين عليهم أن يتكلموا بحرية.

إن الكلام عن الحزب الشيوعي هو هنا، في هذا الكتاب، كلام عن كنه أي حزب/ جهاز سلطوي بما هو شرٌّ يتعارض مع حرية الإنسان فرد ومجتمع. . . شرٌّ يفسّر البلاء الذي منيت به الشعوب في التاريخ السياسي الحديث.

إنه الكتاب الذي يفسر نشوء وانهيار آخر الأمبراطوريات في القرن العشرين، بحيث يظهر فيه غورباتشيوف لا كصاحب خط جديد (إيديولوجياً، سياسياً، اجتماعياً) بل كمحاول لإلباس زي جديد لإيديولوجيا ظهرت أوائل هذا القرن، وكأنها لم تزل صالحة لأواخر هذا القرن. . .

إن هذا الكتاب يُرينا كيف أطلق غورباتشيوف «عجلة» البريسترويكا والغلاسنوست لتحديث الحزب/ الجهاز، وكيف خرجت هذه العجلة عن السكّة. . فكان السقوط العظيم للفكرة/ الإيديولوجيا. . . وللرجل.

الناشر

الجزء الأول

رسول القدر

«وأتى رسول القدر»

اسكندر بوسكين

الفصل الأول

الموتى الثلاثة

«الأخ الأكبر يأبى أن يموت»

جورج أورويل

واحد تلو الآخر، اختفى ثلاثة أمناء عامين: بريجنيف في تشرين الثاني ١٩٨٢، أندروبوف في شباط ١٩٨٤ وتشيرنينكو في آذار ١٩٨٥. فهل من شهادة أفصح وأجلى عن الأزمة العميقة التي يمر بها النظام؟ لقد أصبح ملحاً وحيوياً إيجاد مرشد جديد يتمكن من إثبات أنَّ هؤلاء العُجّز الذين يبدون بوجوههم الشمعية على شفير الموت والذين يزيّنون منابر المؤتمرات وشاشات التلفزيون ليسوا إلا امارات تدل على أفول الدولة الاشتراكية الأولى في العالم، أو على سقوط آخر الامبراطوريات في عصرنا. ويفسر ثقل الانتظار وكثافته ـ الانتظار الذي بدأ مع الوفاة الأولى ـ الاستقبال الذي خُصَّ به يوري أندروبوف. وبصورة أخرى كيف نفهم أن يثير مجيء رجلٍ الى الحكم في الاتحاد السوفياتي، كان طوال خمس عشرة سنة رئيس أقوى استخبارات عرفها التاريخ، رجل قام بتنظيم حملة قمع لا تعرف الرحمة وكان دون شك وراء إنشاء الامية الارهابية، أن يثير موجة من الحماس العام خاصة في الغرب؟ فالأصوات النادرة التي ارتفعت آنذاك لتحذر أو تنتقد، خنقت سريعاً تحت وطأة جوقات المديح.

ولكن أندروبوف لم يتأخر عن مغادرة المسرح، إلا أن الأمل لم يتبدد برحيله. فقد بقي ما تركه من مشاعر قوياً واستمر محرّك الدعاوة في جهوزية عالية بانتظار أية إشارة، لا بد من أن يأتي مخلص. وقد أتى.

الكتابة الأولى عن سيرة ميخائيل غورباتشيوف نُشرت في نيويورك في اليوم نفسه الذي انتخب الى منصب الأمين العام. وقد توالت كتابات أخرى بوتيرة متسارعة.

ونجد بين معدّي هذه السيّر صحافيين (ألمان، هنود، فرنسيين) وعالم بيولوجيا، وعالم اجتماع . . . وهي قد نشرت تحت عنوان ثابت «غورياتشيوف»، في هامبورغ ولندن وباريس ودلهي وفي جميع أنحاء العالم. وحده ألكسندر زينوفييف شذّ عن القاعدة منتقياً، بعد تفكير بهذه الظاهرة، عنواناً لمؤلفه «الغورباتشيوفية أو سلطان الوهم».

أما مؤلفو السيّر فلم تتيسر لهم سوى مصادر شحيحة وظلت معلوماتهم هي نفسها محدودة جداً دون أي تنوع، إضافة إلى أن النغمة العامة التي بدت متعاطفة، كانت تتلاءم تماماً مع سيرة المخلّص «المقدسة».

ويمكن تفسير الفعالية المدهشة لهذه السيّر من خلال ما تلجأ إليه من منهج صحافي: يحرص مؤلفو «النسخات الغورباتشيوفية» المختلفة على إبراز «الجديد المستحدث»: شباب الأمين العام الذي يستتبع مباشرة نظرته الجديدة الى العالم. الاجراءات الأولى من نوعها التي تحمل آمالاً كبرى، حس متطور جداً بأهمية التبادل والتواصل. . . وسوف يطبع هذا الاتجاه الصحافي المقالات والتعليقات التي لا تحصى والمخصصة لغورباتشيوف. وكونهم اختصاصيون في السبق الصحفي»، لم يهتم الصحافيون إلا باللحظة الراهنة دون الالتفاف الى الماضي الذي غالباً ما كان كفيلاً بتغيير دلالة الأحداث وما تحمله من معانٍ.

غير أن مقاربة مختلفة لظاهرة غورباتشيوف تبدو ممكنة، وهي المقاربة التاريخية. حيث تسمح من خلال تبديل زاوية الرؤية بالتبصر بهذه السنوات الخمس الأخيرة في إطار السنوات السبعين من تاريخ الاتحاد السوفياتي. فلم تمضِ ثلاث سنوات على تولي غورباتشيوف السلطة حتى نشر عنه اثنا عشر كتاباً. كانت النسخة الأولى عن سيرة ستالين قد ظهرت عام ١٩٣١ أي بعد تسع سنوات على انتخابه الى منصب الامانة العامة.

غير أن الاختلاف هنا لا يعني أن حياة وإنجازات «الجيورجي»، كما كان يقول لينين، كانت أقل أهمية أو شأناً من تلك التي ميّزت الطالب السابق في كلية الحقوق في جامعة موسكو. إذ أن الأمر يعود ببساطة إلى أن الشغف بالاتحاد السوفياتي لم يكن قد وصل الى ما وصل إليه عام ١٩٨٥.

إن لميخائيل غورباتشيوف أهمية بذاته، إلا أن دوره هو الذي يحمل قبل أي شيء

دلالة مميزة. وذلك لأنه السكرتير السابع. رغم أن هذا العدد قد يكون موضع تشكيك وإن من موقع متكلف، ذلك أن لينين لم يكن في أي وقت سكرتيراً، إذ كان داخل الحزب مجرد عضو في اللجنة المركزية حيث يضطلع الأمناء بوظائف إدارية، فلينين بصفته مؤسساً للحزب لم يكن بحاجة إلى أي صفة رسمية. أما شرف تحويل هذه الوظيفة التي حددها لينين بمراقبة نشاط الأمناء الآخرين الى مرادف لمهمة مرشد الحزب والدولة، فيعود لستالين الذي انتخب الى منصب الأمين العام المستحدث آنذاك.

ولحظ كارل رادك، وقد كان سليط اللسان، أن تاريخ البشرية الذي كان يُقسَّم حتى الآن الى مرحلتين بات الآن يتميّز بثلاث: أمومية، أبوية، سكرتيرية.

وهكذا ولد علم «السكرتيريولوجيا». ولئن لم يكن اسمه لائقاً، فمن المؤكد أنه سيجد لنفسه اسماً آخر، أما فتوته فتفسر بسهولة: لم يعرف الاتحاد السوفياتي طوال خمس وستين سنة أي من تشرين الأول ١٩١٧ حتى تشرين الثاني ١٩٨٢ إلا أربعة أمناء عامين. وهذا يعني أن المادة المتوفرة للباحثين قليلة جداً. وفجأة تتسارع الأمور وفي سنتين ونصف يتعاقب ثلاثة رجال على كرسي الأمانة. ثم يستحوذ السابع على السلطة.

وفي أي حال فإن فترة لا تتجاوز الخمس سنوات تعتبر قصيرة جداً لحل جميع المسائل التي يواجهها مهندسي «البيريسترويكا» أي التفكير الجديد وفي الواقع لم يمضِ إلا القليل من الوقت ليصبح الحكم على نجاح أو فشل غورباتشيوف ممكناً. حتى أن المعارمات المتوفرة تبدو غير كافية لكتابة سيرة حقيقية. فحياة غورباتشيوف قبل دخوله المسرح العالمي تبقى مجهولة أكثر بكثير مما كانت عليه سيرة لينين الذي ولد عام ١٨٧٠. فهل سيرته الخاطفة، التي ظهرت في الغرب لا تصل إلا إلى شفافية خادعة؟.

وبالمقابل فإن خمس سنوات تكفي لإظهار النقاط المشتركة في سلوك جميع الأمناء القابضين على السلطة العليا في الاتحاد السوفياتي، ولتحديد أوجه التماثل والاختلاف في مقاربتهم للأزمة التي واجهها كل منهم دون استثناء، إثر انتخابه. وتكمن الخطيئة الأصلية التي لا تنفك عن الآلة السياسية السوفياتية منذ أن بناها لينين. في التعريف المعطى للسلطة العليا والذي أريد له أن يظل غامضاً فضفاضاً. فالدستور السوفياتي الأول (١٩١٨) أشار في آن معاً إلى مؤتمر السوفيات لجميع روسيا وإلى السوفياتات

المحلية وإلى ديكتاتورية البروليتاريا. وبوصفه المفسر الرئيسي للدستور، أشار لينين إلى ضرورة ديكتاتورية الحزب وواحدية السلطة: «لا بد بطريقة أو بأخرى من الطاعة غير المشروطة لإرادة أوحدية. . .»[1].

أما تحديد هذه الارادة التي على البلاد أن تخضع لها، فلا يثير أي تساؤل بالنسبة لقائد الثورة الذي أناط بنفسه مباشرة منصب رئاسة مجلس مفوضي الشعب وتولى رئاسة الحكومة، وقد تولى أيضاً وبصورة شرعية تماماً، قيادة الحزب: ألم يكن هو الذي خلقه على صورته ومثاله؟ أنه لا يحتاج إذن، الى إشغال منصب محدد داخل هرم مراتبه. فهو عضو في اللجنة المركزية ثم ابتداء من ١٩١٩ في المكتب السياسي. ليس للينين أخصام. وعندما بدأ ستالين «صعوده» بعد أن انتخب عام ١٩٢٢ أميناً عاماً بناء على اقتراح لينين الذي رفض ترشيح سميرنوف، احتاج لبعض الوقت كي يمسك بجميع مقادير السلطة التي يعطيه إياها هذا الموقع.

وقد أصبح «تشريع» سلطة الأمين العام، وترسيخها ضمن المعايير الدستورية، المآل الشكلي الذي يصبو إليه الصعود نحو القمة. حيث ان سيرة الأمناء السبعة تظهر ان همهم الأساسي يتمثل بالاستيلاء على السلطة.

وقد أشار ماكيافلي إلى أن الأنبياء المسلمين وحدهم نجحوا بتحقيق أفكارهم. وبرر الأمناء العامون سعيهم إلى السلطان بضرورة الحصول على أداة لإجراء الاصلاحات. وبقدر ما تكون هذه الاصلاحات مهمة يحتاجون إلى المزيد من السلطة. وللقيام «بثورة من فوق» كما فعل ستالين في أواسط الثلاثينات أو غورباتشيوف في النصف الثاني من الثمانينات كان لا بد من سلطة مطلقة. وهكذا أصبحت الاصلاحات تبريراً للتسلط ووسيلة للاستيلاء على السلطة. وها أننا نشهد تشكل بنية متكاملة: السلطة ضرورية لانجاز الاصلاحات ولا بد من الاصلاحات لتفعيل السلطة.

في ١١ آذار ١٩٨٥ انتخب ميخائيل غورباتشيوف أميناً عاماً. وهكذا أصبح السكرتير السابع على عتبة السلطة.

الفصل الثاني
لماذا هو؟

إليكم هذا القياس: «أنا إنساني إذن أنا محبوب، وإذا كنت محبوباً، فلأن الناس تسلفني ثقتها» ف. دوستويفسكي، قصة محزنة.

هناك احتمال ضئيل جداً أن تكون «المحبة» قد دخلت في عداد المعايير التي أخذها بالحسبان أعضاء المكتب السياسي بوصفهم «كبار الناخبين»، عندما اختاروا في ١١ آذار ١٩٨٥ خليفة لتشيرنينكو غير أن الأمر يختلف دون شك، بالنسبة «لسلفة الثقة». ولكن يبقى سؤالاً: من يثق بمن؟ عندما ضبط لينين آلته السياسية التي كانت من «نمط جديد» لم يضمنها أوالية لانتقال السلطة. إذ ربما كان مقتنعاً بخلوده. وقد كان له حين حصول انقلاب تشرين الأول، ٤٧ سنة من العمر ولم تكن مسألة خلفائه مطروحة. وهي لم تبرز إلا في ١٩٢٢ حين أصابته شدة المرض. حينها نص رسالته الى المؤتمر الثاني عشر للحزب. التي عرفت باسم «الوصية». مستعرضاً واحداً تلو الآخر، ستة من بين أبرز قيادات الحزب. أصدر لينين على كل منهم حكماً سلبياً مركزاً على هذه النقطة: ليس فيهم من يستطيع أن يحل بمفرده مكان الأب المؤسس. وكما يشير خروتشوف، عرف ستالين كيف يستفيد من ذلك ليمسك بزمام المناورة. وقد ردد مرات عديدة «لقد أفسد لينين حين كتب وصيته كل شيء بيننا وشوّشنا جميعاً»(١).

بعد وفاة ستالين جرى انتخاب الأمين العام على مستوى المكتب السياسي. وكلمة انتخاب هنا يجب فهمها بدلالتها السوفياتية. فليس ها هنا اقتراع حقيقي، إذ يتوافق الناخبون على اختيار مرشح من بين هؤلاء الذين يحملون في المدوّنة السوفياتية لقب «سكرتير أول» أي أمناء اللجنة المركزية الذين هم في الوقت نفسه أعضاء في المكتب السياسي.

وبعد وفاة تشيرنينكو فقد جرت الانتخابات بسرعة البرق، حتى قبل أن يكون جثمان السكرتير المتوفي قد برد.

أما بعد وفاة أندروبوف، فقد دامت المشاورات ثلاثة أيام. ومعلوم أن اختيار أندروبوف قد تم ضد إرادة بريجنيف، الذي كان قد عَيّن، قبل موته، تشيرنينكو خليفة له. وفي عام ١٩٨٨ نشرت الصحافة السوفياتية رسائل من القراء تحمل السؤال الآتي: كيف أمكن تسمية رجل مثل تشيرنينكو سكرتيراً عاماً؟ سؤال بليغ، دون شك، ولكنه لم يلق من يجيب عليه. ذلك أن الجواب سلم به: وهو عدم صلاحية النظام الانتخابي. فهذا النظام جُرِّب للمرة الأولى عام ١٩٢٤. وقد كان المرشحون بعد موت لينين كثراً: إنهم الأعضاء الستة الذين تلحظهم الوصية، وهم الكوادر المجربة في الحزب الذين صنعوا الثورة وانتصروا في الحرب الأهلية، وباشروا بعملية إعادة بناء ا لبلاد «البريسترويكا»[٢] (هكذا أطلق عليها في ذلك العصر). أما التجربة الثانية فجرت عام ١٩٥٣.

أما المرشحون الى عرش ستالين فكانوا رفاقه الأوفياء في السلاح. وهم قد أداروا معاً التأميم والتصنيع وقادوا الحرب ضد ألمانيا وأعدموا خلال عملية بناء الاشتراكية عشرات الملايين من الأشخاص. وبعضهم بدأ بخدمة الحزب إبان مرحلة لينين (مولوتوف، ميكويان) فيما تولى البعض الآخر الحكم مع ستالين (مالنكوف، بيريا، خروتشوف، بولغانين). أما «حرب الخلافة» الثالثة فتتميز عن سابقتيها بانخفاض فظ في مستوى المرشحين وارتفاع فظ هو الآخر في أعمارهم.

لم يكن لينين في ١٩١٧ قد بلغ الخمسين. وقد انتخب ستالين أيضاً أميناً عاماً في الواحدة والأربعين، فيما بلغ خروتشوف هذا المنصب في التاسعة والخمسين وبريجنيف في الثامنة والخمسين. ثم تدهورت الأمور: فأندروبوف لم يحظَ بالسلطة إلا في الثامنة والستين وتشيرنينكو في الثالثة والسبعين.

أما في ١١ آذار ١٩٨٥ فكان عدد المرشحين ضئيلاً وإذا أخذنا بالاعتبار المبدأ الذي يوجب انتخاب الأمين العام من بين «الأمناء الأول» فإن مرشحين فقط كانا ممكنين: ميخائيل غورباتشيوف وغريغوري رومانوف. ورومانوف الذي استدعي إلى موسكو من قبل أندروبوف كان سيء السمعة: ففي لينينغراد حيث كان يحتل منصب السكرتير الأول

لم يكن مشهوراً فقط بقساوته ودوغمائيته بل أيضاً بعربدته. وإن شائعات الفساد كانت لا تفارقه أبداً. وقد أتى به أندروبوف، بطل الدسائس السياسية في الاتحاد السوفياتي، الى موسكو، ولكن دون السماح له بأن يختار، كما جرت العادة شخصاً ينوب عنه في لينينغراد، وهو امتياز أتاح «للمعلم» الحؤول دون نبش الجثث وانكشاف الفضائح بعد رحيله. والواقع أن أرشيف اللجنة الحزبية لمنطقة لينينغراد كان يحتوي على عدد من الوثائق الكفيلة دون أدنى شك بإحراج السكرتير الأول، الذي لم يفسح له المجال لفرزها. وقد ذهب غورباتشيوف الى لينينغراد لانتخاب خلف لرومانوف واقترح اسم ليف زايكوف، الذي كان يشكل المرتبة الثانية في مدونة المدينة. انتخب زايكوف. وسوف لن يخرج بعد ذلك في إدائه لمهمته عن فلك غورباتشيوف.

وفي أجواء التطهير التي فرضها أندروبوف والتي ظلت مطروحة حتى بعد أن خرج تشيرنينكو عنها، لم يكن لرومانوف الذي تفح منه رائحة الفساد أي حظ في النجاح. وكان هناك أيضاً مرشح ثالث: فيكتور غريشين السكرتير الأول للجنة الحزب في مدينة موسكو. وهو لم يكن عضواً في اللجنة المركزية، غير أنه كان يدير تنظيم الحزب في موسكو منذ ١٩٧١. ولد غريشين سنة ١٩١٤. وكان انتخابه يؤمّن استمرار خط بريجنيف ـ تشيرنينكو، ويؤمن أيضاً احتفالاً جنائزياً قريباً في الساحة الحمراء. وكان ذاك إبان انتشار هذه المزحة في موسكو: «هل حضرت الجناز في الساحة الحمراء؟» نعم لدي «اشتراك».

ورغم أن انتخاب غورباتشيوف بدأ مضموناً ـ ولم يبق أحد غيره ـ لم تكن الأمور بديهية الى هذه الدرجة. فصغر سن المرشح كان عقبة أساسية. إذ أن متوسط الأعمار الخاص بأعضاء المكتب السياسي يبلغ سبع وستين سنة وعند الأمناء أعضاء اللجنة المركزية سبعين. فالقانون الفيزيائي الأعظم الذي يُسيّر نظام الحزب الواحد كان يعمل بكل طاقته: بغياب الحوافز الخارجية والداخلية (الحروب، الثورات) يستمر القادة في السلطة حتى موتهم البيولوجي. وهو موت يؤجله العلم باستمرار. وهكذا في عام ١٩٨٥ بدت قيادة البلدان الاشتراكية بوصفها الأكثر هرماً في العالم. ومن المؤكد أن أندروبوف كان يرى بغورباتشيوف مرشحاً مستقبلياً للأمانة العامة غير أنه كان يأمل، باعتباره لم ينضج بعد، أن يشرف على تنشأته خمس أو عشر سنوات إضافية.

إلا أن انتخاب غورباتشيوف من قبل المكتب السياسي كان سريعاً. وهذا ما يفسر

جزئياً بغياب ثلاثة أعضاء مهمين: السكرتير الأول الأوكراني فلاديمير شتشربيتسكي وكان في بعثة إلى سان فرانسيسكو والسكرتير الأول عن كازاخستان ديموخامد كوناييف الذي لم يتسنَّ له المجيء من «ألما ـ آتا» وذلك لضيق الوقت، وفيتالي فورتنيكوف الذي كان اثناءها في يوغوسلافيا. غير أن الاعلان عن ترشيح الأمين العام الجديد لم يكن يخلو من نباهة لم تخفَ على العارفين بشؤون الكرملين. وقد روى أندريه غروميكو في مذكراته أنه «. . . مباشرة (بعيد وفاة تشيرنينكو) طرحت مسألة انتخاب السكرتير العام الجديد للجنة المركزية. وكان المكتب السياسي أول المدعوين الى قول كلمته بهذا الشأن. وقد قالها: قُبل ترشيح غورباتشيوف بالاجماع[٣]. وهو إجماع أدهش الخبراء. ذلك أن البيان الرسمي حول انتخاب أندروبوف وتشيرنينكو (صدّقت اللجنة المركزية بصورة آلية على قرار المكتب السياسي) قد تكلم هو أيضاً عن الاجماع غير أنه استخدم عبارة «edinoglasno»[٤] أما إثر انتخاب غورباتشيوف فإن العبارة المستخدمة كانت «edinodouchno»[٥]. وهذا يعني أن المنتخبين قد دعموا المرشح الشاب «من كل قلبهم وروحهم».

بعد موت تشيرنينكو لم يعد المكتب السياسي يضم أكثر من عشرة أعضاء. ثلاثة منهم كانوا، كما رأينا، غائبين. فبقي سبعة. وكما كانت هي الحال في «عشرة عبيد صغار» لاغاتا كريستي فمن لا يؤيد غورباتشيوف يختفي. وفي آذار ١٩٨٧ صرّح الكاتب المسرحي ميخائيل شاتروف، وهو قد ألف سبع مسرحيات حول لينين ويعتبر من أبرز أبطال البريسترويكا، للصحيفة الفنلندية سيومين كوواليهتي أن الأصوات كانت في البداية متعادلة بين غريشين وغورباتشيوف. ومن الصعب أن يتخيّل المرء كيف يمكن أن تقسم ٧ أصوات قسمة متعادلة. ومهما يكن، فإن غروميكو ودائماً حسب شاتروف جيّر في نهاية المطاف صوته لصالح غورباتشيوف، مائلاً بذلك كفة الميزان الى جانبه. أما الصحافي الهندي ديف موراكا، المراسل منذ زمن طويل، في موسكو، وجوريس ميديفديف عالم البيولوجيا والمؤرخ الذي يقيم في لندن، فيؤكد أن من جانبهما أن الصوت الحاسم كان ذاك الذي أدلى به رئيس الـ كا. جي. بي فيكتور تشيبريكوف. ولكن هذا الأخير بوصفه عضواً احتياطياً في المكتب السياسي لا يحق له أن «يصوّت» ولكن بإمكانه أن «يسمع صوته». و «صوته» هذا قد كشف عدة وقائع أطاحت نهائياً بغريشين.

إذ تتواتر أقوال مؤلفي السيرتين على أن تشيبريكوف كشف لأعضاء المكتب السياسي عن زواج ابن غريشين (بعد أن أقدم على الطلاق) من ابنة بيريا غير الشرعية.

وفي الأول من تموز ١٩٨٨ وأثناء المؤتمر التاسع عشر للحزب سوف يعطي ليغاتشيف بعض الدقائق الإضافية: «لا بد من الاعتراف بالحقيقة: كانت أيام صعبة (إشارة الى المرحلة التي أعقبت وفاة تشيرنينكو)... فقد كان ممكناً أن تتخذ قرارات مختلفة تماماً. ولا بد لي من الاشارة الى أن الحل الصحيح لم يعتمد إلا بفضل الموقف الصلب الذي اتخذه بعض أعضاء المكتب السياسي وهم الرفاق تشيبريكوف، سولومانتسيف، غروميكو ومجموعة مهمة من الأمناء الأول للجان الاقليمية في الجلسة المكتملة للجنة المركزية،» وكما سبقت الاشارة، فإن تشيبريكوف لم يكن حينها من أعضاء المكتب السياسي. ركّز ليغاتشيف على كونه قد دعم غورباتشيوف، وقد أكد على أن غروميكو وسولومانتسيف قد أعطيا صوتهما للمرشح الشاب. وليغاتشيف لم يلقِ خطابه هذا ليقول ما يعرفه الجميع. بل أنه، ببساطة رأى من الضروري أن يذكر غورباتشيوف بأن العرفان بالجميل فضيلة. فبالأمس القريب أي في ٣٠ حزيران، كان ميلنيكوف المندوب الى المؤتمر يصر «على استجواب هؤلاء الذين ساهموا بنشاط بسياسة الركود...» وبناء على طلب ملح من غورباتشيوف، الذي أقدم حتى على مقاطعته وهو يقوم بمداخلته سمّى «في المقام الأول» سولومانتسيف ثم غروميكو، ورئيس تحرير البرافدا أفاناسييف ومدير معهد الولايات المتحدة آرباتوف.

وفي خريف ١٩٨٩ لم يبق أحد من هؤلاء، في موقعه باستثناء آرباتوف. وهكذا اتبع غورباتشيوف قاعدة الطغاة الذهبية: وهي أن لا يشرك المرء بالحكم أولئك الذين أعانوه للاستيلاء على السلطة. وقد حرص ليغاتشيف على تحذيره من مغبة مثل هذا التصرف.

بناء على دعوة عاجلة عقدت اللجنة المركزية جلسة بكامل أعضائها وصادقت على «توصية» المكتب السياسي. وهذا ما يشير إليه غروميكو في مذكراته «أثناء جلسة اللجنة المركزية التي انعقدت مكتملة، في آذار (١٩٨٥): أخذت الكلام بناء على طلب من المكتب كي أقترح انتخاب ميخائيل سرغيفيتش غورباتشيوف لمنصب الأمانة العامة ولتعليل هذا الاختيار. وقد نشرت الصحافة مداخلتي هذه...»(٦). غير أن خطاب

غروميكو وبعكس العادة الجارية . لم ينشر في أي جريدة يومية . وكان لا بد من انتظار أسبوعين لقراءته بنسخته «المنقحة» في مجلة كومونيست ثم في كرّاس خاص . لقد قام غروميكو، كما يشير هو نفسه، بتعليل انتخاب غورباتشيوف. وهنا أيضاً وخلافاً لجميع الأعراف لم يمتدح الخطيب إنجازات المرشح المقترح والواقع أنه لم يكن ها هنا ما يُمتدح : فالزراعة التي كان غورباتشيوف يديرها بين ١٩٧٨ و١٩٨٣ ، بوصفه أميناً في اللجنة المركزية، عرفت خلال هذه الفترة أزمة عميقة لم يشابهها شيء سوى كارثة التأميم. ولم يكن من الممكن، هذه المرة، درء المجاعة إلا من خلال استيراد كثيف للحنطة من الخارج. قدّم غروميكو مرشحه بوصفه «رجلاً عملياً مميّزاً» وأعلن عن «إعجابه الشديد بقدراته»، ولم يوفر غروميكو ثناءه على الرجل نفسه : فالمرشح لمنصب الأمين العام، كان لامعاً بإظهار مواهبه حين تولى رئاسة جلسات المكتب السياسي بغياب تشيرنينكو، وهو لا يضاهيه أحد في إيجاد الحلول الأشد تلاءماً مع خط الحزب. وهو أيضاً يعرض بوضوح وجهة نظره بصراحة تليق بلينين. وهو ذو ثقافة رفيعة جداً، ولديه ملكة مقاربة المسائل بطريقة تحليلية، مما يسمح له بدراسة مختلف العناصر قبل أن يصل إلى أي استنتاج(٧). إلا أن أبرز إطراء وجهه غروميكو لغورباتشيوف لم يرد في نص خطابه المنشور. ولكن جميع كاتبي سيرة الأمين العام قد أشاروا إليه إضافة الى ذيوعه في أرجاء موسكو يوم الانتخاب نفسه . «رقيق الابتسامة ولكن أنيابه من حديد» هذا ما قاله غروميكو. وكما يقول الطليان : إن لم يكن قولاً صحيحاً ، فإنه اختلاف حسن.

ويورد أشهر الديبلوماسيين في القرن العشرين، في مذكراته تفصيلاً طريفاً. قبل وفاته بثلاثة أيام اتصل به تشيرنينكو هاتفياً «أندريه أندريفيتش، حالتي سيئة وأتساءل إن لم يكن من الأفضل أن أطلب إحالتي الى التقاعد . . . أريد رأيك . . . . ـ كان جوابي مقتضباً ولكن واضح : هل أن هذا لا يدفع بالأحداث في وجهة مناقضة للحالة الموضوعية؟ فعلى حد علمي أن الأطباء ليسوا على هذه الدرجة من التشاؤم؟ . . ـ إذن بنظرك الأمر ليس. . . مستعجلاً؟ ـ كلا الحالة ليست مستعجلة، والتسرع غير مبرر. . .(٨)» كان غروميكو حريصاً على ألاّ يتسرّع تشيرنينكو إذ لم تكن جميع الأمور التي تسمح بانتخاب غورباتشيوف قد نضجت بعد.

وفيما بعد سوف ينقض خليفة غروميكو أدوار شيفرنادزه، الذي كان يوم انتخاب غورباتشيوف عضواً احتياطياً في المكتب السياسي، الرأي القائل «بأنه كان لا بد، في

آذار ١٩٨٥ ، من اتخاذ قرارات مختلفة تماماً». كان شيفرنادزة حاسماً: «ببساطة، لم يكن من خيار بديل، وكان ذاك خيار الحزب برمته»[٩].

الجواب على السؤال «لماذا هو؟» بديهي جداً: لأنه شاب، موهوب وفيّ لخط الحزب متعاون مع الآخرين. . .

بُعيْد طرد غريشين من المكتب السياسي بدأ الكلام علناً عن فساد الجهاز الحزبي في موسكو. وبدا حينها أن هناك أسباباً جدية (عدا علاقته الغامضة بالفقيد بيريا) تحول دون إيصاله الى كرسي الأمانة العامة. وقد كشفت انتخابات ١٩٨٥ ، حيث كان اثنان من المرشحين الثلاثة متورطين بقضايا غامضة تتصل بفساد النظام وانحلاله. وهذا الفساد ليس وليد البارحة بل أنه قد بدأ مع استيلاء البلاشفة على السلطة. فخلال العشرينات أشار كريستيان راكوفسكي الى «مرض الحريم والسيارة» الذي أصاب أبرز القادة السوفيات. أما بشأن بريجنيف فقد شاع الحديث حتى في حياته عن إجرام بطانته.

أما غورباتشيوف فيبدو على هذا الصعيد نظيف الكف. غير أن مجرد الاضطرار للاشارة الى نزاهة المرشح الى موقع الأمانة العامة يكشف بوضوح ما آلت إليه أوضاع الدولة التي ولدت من ثورة أكتوبر.

الفصل الثالث
نشأة البطل : الطفولة والشباب

تميزت سيرة السكرتير العام الجديد التي بثّت الى الشعب السوفياتي بإيجاز لا يصدق : ولد في ٢ آذار ١٩٣١ في ستانيستا دي برفولنوي، إقليم ستافروبول، ذهب لمتابعة دراسته في موسكو عام ١٩٥٠، وبعد أن نال شهادة في الحقوق عاد الى ستافروبول حيث اضطلع ببعض المهام في إطار الشبيبة الشيوعية والحزب، حيث شغل بين ١٩٧٠ و١٩٧٨ منصب السكرتير الأول في لجنة المنطقة، ثم استدعي الى موسكو وانتخب سكرتيراً للجنة المركزية، ليصبح بعد ذلك (بعد انقضاء سنة واحدة) عضواً احتياطياً في المكتب السياسي وبعد سنة أخرى عضواً أصيلاً.

إن البساطة والاستقامة اللتين تميزان حياة ميخائيل غورباتشيوف هما بوضوح الشمس، وكذلك صمت كتاب السيرة الرسميين وإخفائهم لبعض التفاصيل التي تسمح بإلقاء الضوء على طباع الرجل الذي يمركز في قبضته سلطة هائلة.

وعندما التقى الرئيسان ريغان وغورباتشيوف في ٨ كانون الأول ١٩٨٧ في واشنطن إستشهد الأول بقولٍ لإيمرسون : «في الواقع التاريخ غير موجود، ليس لدينا إلا السّير». وهنا يشدد رئيس الولايات المتحدة بصورة واضحة على دور الفرد في التاريخ. غير أننا لا نجد في الاتحاد السوفياتي، رغم أن عبارة السكرتير العام تصل حد التأليه، أيّ سيرة تتناول حتى هؤلاء الذين تكرس شعائر العبادة لهم. لا توجد سيرة حول لينين أو ستالين (الذي طلب خروتشوف أو بريجنيف . . . والواقع، كيف يمكننا أن نتوقع خلاف ذلك في بلد حيث جرى رسمياً إلغاء وجود التاريخ (ألغيت الامتحانات في هذه المادة التي كانت تجري في نهاية المرحلة الثانوية)[1].

نلحظ في حياة ميخائيل غورباتشيوف ـ قبل المنصب الأعلى ـ عدة أحداث تساعدعلى تحديد مزاجه. وذلك ابتداء من تاريخ ومكان ولادته.

ولد ميخائيل غورباتشيوف في ٢ آذار ١٩٣١ في قرية بريفولنوي التي كانت في تلك الآونة تابعة إدارياً لمنطقة القفقاز الشمالية. وتعيش في هذا الاقليم الشاسع المترامي بين الفولغا وبحر آزوف والبحر الكاريبي وكتف جبال القفقاز، شعوب أوكرانية وروسية، والكوزاك من الدون والكوبان، والترك والتشيشين والآدغيين والايغوش والكاباردين والشركس وشعوب قفقازية أخرى. وكانت قد تميزت من حيث شدتها المقاومة ضد التأميم التي انطلقت من هذا المنطقة.

كما أن ذكرى الحرب الأهلية التي وضعت قسماً كبيراً من الكوزاك في صراع ضد الحمر ما تزال حية. وكما أن شعوب القفقاز ما تزال تتذكر الغزو الروسي الذي استمر في القرن التاسع عشر لعدة عشرات من السنين.

وقد تم إنشاء الكولخوزات في هذا الأقليم بمساعدة الجيش النظامي. إذ أرسلت كتيبتان من المشاة الى شمال القفقاز منذ ١٩٢٩ وذلك لدعم الميليشيا(٢) . وفي ربيع ١٩٣١ ٩٠٪ بالمئة من الفلاحين ضموا الى مزارع جماعية، وقد نظم جد غورباتشيوف كولخوزاً في قريته. وهكذا يمكننا القول أن «ميشا الصغير» ولد في عائلة كولخوزية، وهو يروي أن «جدي أبو أمي كان أحد منظمي «رفاقية» العمل الزراعي الجماعي ثم للكولخوز... فيما عمل أبي طوال أربعين عاماً كميكانيكي...»(٣) وقد أظهر أول خريف كولخوزي الأهمية الكبيرة لتجمع الفلاحين: إذ يصبح من السهل أن تأخذ الدولة محصولهم من القمح. وحينها انطلقت المقاومة في شمال القفقاز. وقد تم قمعها بقسوة لا مثيل لها. وقد قاد حملة القمع هذه السكرتير الأول في لجنة المنطقة بوريس شليبولدابيف. وباعتبار أنه غير راض عما يحصل من إرهاب غير كافٍ، أرسل ستالين لجنة خاصة بقيادة كاغانوفيتش.

وقد عين في كل منطقة مسؤولاً عن التصدي للأعداء، وأعطي صلاحيات كاملة. وجرت مصادرة كل ما هو موجود من حنطة: وهكذا خطط للمجاعة بشكل منتظم ومنظّم.

وإننا نجد اليوم عدة كتابات تصف هذه المجاعة التي كانت، دون شك، أهم ما شهده التاريخ من حيث عدد ضحاياها، والتي يقيّمها فاسيلي غروسمان على النحو الآتي: «كان شبح المجاعة والموت يجوب القرية. في البداية مات الأطفال ثم الشيوخ

وأخيراً الكهول. وفي المرحلة الأولى دفنت الجثث ثم عدل الناس عن الأمر. كان الأموات يرقدون في الشوارع والساحات ثم تركت ممددة في البيوت الخشبية (الإسبة). وخيّم الصمت. لقد ماتت الأرياف. ولا أعلم من كان آخر الأموات. فلقد كنا من الذين قادتهم الادارة الى المدينة. وقد أطلقت السلطة على ذلك اسم «مقبرة المدرسة القاسية»[٤].

في ١٩٣٠ كان شمال القفقاز يعد ما يقارب التسعة ملايين نسمة[٥]. ولقد مات مليون من الجوع بين ١٩٣٢ و١٩٣٣[٦]. وهذا ما لم تصل إليه كلفة أي حرب في عصرنا.

لم يشهد ميخائيل غورباتشيوف الشاب عملية التأميم و «الارهاب ـ المجاعة»، كما أسماها روبير كونكست. غير أنه سمع أهله يتحدثون عنها. وبطلة القصة التي كتبها غروسمان، وهي ترمز الى الريف الميت. لا تشدد صدفة على كون الناس قد قضوا جميعاً إلا «القادة». وجميع الشهود يتفقون على هذه النقطة: إن العاملين في الكولخوزات حصلوا على دعم من الدولة، على الخبز وظلوا أحياءً. وقد أشرنا إلى أن جد غورباتشيوف كان منظم الكولخوز وأول رئيس له. ووالده كان ميكانيكي يعمل على جرافة. أي أنهما من الأعيان الجدد في الريف. إنهم من النخبة خاصة، إن الميكانيكيين لم ينتسبوا الى كولخوزات حتى حين كانوا يعيشون في القرية. إنهم ملحقون بمحطات الآليات والجرافات (M.T.S)، التي ترتبط بدورها بأجهزة الدولة، وقد أنشئت لضبط إنتاج الكولخوزات. وتعتبر أقسام الـ M.T.S السياسية بمثابة أجهزة تابعة فعلياً للبوليس السياسي. إنها تضبط أنفاس الكولخوزيين وروحهم. إذن لقد ولد ميخائيل غورباتشيوف في عائلة من الأعيان السوفيات.

كان سكرتير المستقبل في الحادية عشرة والنصف عندما اخترق الجيش الألماني، خلال صيف ١٩٤٢ الجبهة وخط الدفاع السوفياتي ليتدفق وينتشر في القفقاز. وقد انسحبت الفرق السوفياتية من روستوف ـ سور ـ لو ـ دون Rostov-Sur-Le-Don خلال تموز ومن ستافروبول في ٥ آب. أما الاحتلال فدام خمسة أشهر. ولما كان من المتعثر على الألمان أن ينشروا وحداتهم في كل النقاط التي تشهد كثافة سكانية، فالمرجّح أن أهالي بريفولنوي لم يشاهدوا فرقاً ألمانية إلا نادراً.

ومما لا شك فيه أن حادثة الحرب قد لعبت دوراً مميزاً في حياة غورباتشيوف، فمن المؤكد أن والده كان على الجبهة، ذلك أن العائلة كانت شديدة الولاء للسلطة السوفياتية. غير أنه كان على ميشا الشاب أن يجيب في كل التحقيقات، التي كان عليه أن يخضع لها في بداية كل مرحلة جديدة من حياته، على هذا السؤال المخيف: هل تواجدت في المنطقة المحتلة؟ ذلك أن القول بأن لشمال القفقاز سمعة سيئة يظل دون الواقع. فمباشرة بعد تحرير الاقليم من قبل الجيش الأحمر بدأت موجة نفي نحو سيبيريا وكازاخستان وآسيا الوسطى طالت شعوباً بأكملها، ونجد في عداد هذه الشعوب «المعاقبة»، لنستخدم عبارة ألكسندر نكريتش(٧)، شعب منطقة الكاراتشاييس ـ الشركس المستقلة التي تشكل جزءاً من إقليم ستافروبول (المفصول عن شمال القفقاز). إلا أنه من المؤكد أن غورباتشيوف الشاب لم يشهد عملية نفي الكاراتشاييس. وهي لم تستثنِ أحداً: الأطفال والشيوخ والرجال والنساء، لقد جرى شحن جميع الناس. ولكنه شاهد بالمقابل دون أدنى شك عودتهم في ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩. وكان قد أنهى حينها دراسته في موسكو وأصبح زعيماً للشبيبة الشيوعية في ستافروبول.

لقد أبطأ الاحتلال الألماني الوتيرة العادية للحياة الدراسية. فقد أنهى ميخائيل دراسته الثانوية في ستافروبول عام ١٩٥٠. وتبقى طفولته ومراهقته مجهولتين الى حد ما. فما من زميل له في الدراسة كتب مذكرات حول طيشهما الطفولي أو نزهاتهما أو صيدهما بالصنارة... ولكن بفضل مجلة تايم التي تحظى برعاية غورباتشيوف، حصلنا على صورة لميشا وهو في التاسعة عشرة من عمره: وجه مستدير، شفتان مشدودتان بقوة، وطاقية منخفضة بفخر لتغطي الأذن وتتجاوز الذؤابة الكوزاكية العادية. أما المجلة الايطالية جانت Gente فقد نشرت في تشرين الثاني ١٩٨٩ صوراً أخذت من «ألبوم» غورباتشيوف العائلي، ثلاث منها تظهره في أدوار مسرحية. فميخائيل المراهق كان شغوفاً بمسرح الهواة.

وهكذا خلّده المصور في دور الأمير زفزديتش (حفلة ليرمونتوف للرقص التنكري) ودور ليل LeL (في سنيغوروتشكا Snegourotchka لاوستروفسكي). وتشهد مجموعة مسرحياته على موهبة مبكرة في مجال التمثيل.

ونذكر هنا أن ستالين قام هو الآخر وبعد أن أصبح أكبر عبقري عرفته الأزمنة

والشعوب بعرض صورته وهو شاب، حيث ظهر مرتدياً جبة الطلبة الأكليركيين محدقاً بالناس بشيء من الريبة: مثل هذه الصور لا يتم اختيارها صدفة. وإننا نقرأ في النبذة المقتضبة عن حياة غورباتشيوف التي أعدت بعيد إنتخابه كعضو إحتياطي في المكتب السياسي عام ١٩٧٩ فقرة ملفتة: «كان بين ١٩٤٦ و١٩٥٠ مساعد سائق لحصّادة دارسة في«Mts» في منطقة ستافروبول»[٨] ومعلوم أن ميخائيل كان خلال هذه الفترة في المدرسة ولكنه شعر ببساطة أنه بحاجة الى إبراز ماضيه كعامل. ويروي الأمين العام في خطاب القاه في حزيران ١٩٨٨، أمام مؤتمر الحزب مشيراً الى المحاولة الأولى بعد ستالين لاصلاح الزراعة: «لقد كنت حينها ميكانيكي في الـ«M.t.s» غير أن غورباتشيوف كان بين ١٩٥٠ و١٩٥٥ يتابع دراسته في جامعة موسكو. وهو يحدد في «صفحات من سيرة ذاتية» : « لقد عملت أجمالاً خمس سنوات في الـ «M.t.s» جامعاً بين الدراسة وأعمال الحقل»[٩].

إن السكرتير العام لا يتوخى الكذب في سيرته الذاتية. إنه فقط يبدل مواضع الدلالات وأوزانها. والواقع أنه قد عمل أثناء سني دراسته في المدرسة والجامعة، ولكن خلال العطلة حيث كان يساعد والده سائق الحصّادة الدارسة. ولما كان الحصاد عملاً شاقاً في سُهب ستافروبول فيحق عندها لغورباتشيوف أن يتفاخر به. خاصة أنه قد حظي في الريف «بحصة الأسد». ففي ١٩٤٩، نال مع مجموعة من نخبة العمال الزراعيين وسام العلم الأحمر للعمل. ولا يكفي لكي يصل المرء الى مثل هذه الأوسمة الرفيعة أن يكون «ستاخانوفيتس»، ذلك أن لوائح الشرف تُعد من قبل اللجنة الحزبية في المنطقة. التي تختار الأشخاص الموثوق بهم بدون قيد أو شرط. وفي ١٩٨٨، وأثناء سفره الى سيبيريا، عاد غورباتشيوف ليتحدث «عن لقمة العيش الصعبة سنة ٤٨»، مستحضراً الأيام حيث كان يساعد والده على الحصّادة. وقد تَشكّل فريقان عائليان: والدان وابنان «وقد تم حصاد ٨٨٨٨ رطلاً وهو رقم لا يصعب حفظه، وقد نال الوالدان وسام لينين والابنان وسام العلم الأحمر»[١٠] وإننا نلحظ في تنظيم العمل لمسات معلمي الدعاوة من رجال اللجنة المركزية للمقاطعة.

ويعتبر وسام العلم الأحمر بطاقة مرور جيدة، وهذا ما سمح لميخائيل بالدخول الى جامعة موسكو، والمؤسسات التعليمية الأكثر هيبة في البلاد. والواقع أن امتحان الدخول لا يترك لانتقائيته المفرطة أي أمل بالنجاح لطالب آتٍ من مدرسة ثانوية في

ستافروبول. وكما يتبيّن من شهادة غورباتشيوف الثانوية (التي نشرت مجلة جانت Gente صورة عنها) فإن علامات ميخائيل كانت ممتازة جداً في كل المواد ما عدا اللغة الأجنبية حيث لم ينل إلا ٤ (١١). وقد ختم دراسته الثانوية بميدالية فضية، وليس بالميدالية الذهبية التي كانت لتعطيه حظاً أكبر كونها تعفي حامليها من امتحان الدخول الى مؤسسات التعليم العالي. فإذا لم يتمكن ميخائيل رغم التنويه به أن ينتزع ميدالية ذهبية فإننا لا نفهم جيداً كيف استطاع الحصول على معدل كافٍ للدخول الى الجامعة. لا بد إذن من الاستنتاج أن أحداً قد ساعده. غير أننا لا نعلم من تحديداً. بعض الكتاب يتحدثون عن توصية من لجنة المقاطعة للشبيبة الشيوعية التي كان ينتمي إليها منذ سن الرابعة عشر، وآخرون عن توصية من الـ «M.T.S»، وربما كان ها هنا توصيتان. غير أننا نعلم بالمقابل، ومنه هو بالذات، أن هذا «الستافروبولي» الحديث النعمة (ذا الغنى المشبوه) حاول الدخول الى كلية الفيزياء: «أنا مثلاً دخلت الى كلية الحقوق، كما صرح لجريدة أونيتا Unita الايطالية، ولكنني في البداية كنت أطمح الى كلية الفيزياء»(١٢). كانت الفيزياء في السنوات التي تلت مباشرة الحرب مطابقة للدرجة: فقد كانت بداية ظهور الطاقة النووية: وكان الالمام بأسرار القوة النووية يعتبر إمتيازاً عظيماً. وفي هذه الفترة كتب بوريس سلوتسكي قصيدته الشهيرة بعنوان الفيزيائيون والشعراء وهي تبدأ بهذا البيت: «العز للفيزيائيين والبؤس للشعراء». ويمكننا أن نفترض أن غورباتشيوف بعدأن فشل في الدخول الى كلية الفيزياء تدبر أمره لمتابعة دراسته القانونية.

في إحدى السّير الأولى عن غورباتشيوف يفترض جوريس ميدفيدف في معرض سؤاله عن الدوافع التي وجهت سكرتير المستقبل الى الاهتمام بالحقوق، إن العامل الحاسم ربما كان القمع الرهيب الذي سببته سياسة التأميم، والذي وصلت أخباره الى مسامع الطفل عبر أهله(١٣). وربما وجد القارىء الانكليزي الذي يتوجه إليه كتاب ميدفيدف أنه من الطبيعي جداً أن ينشأ لدى طفل حساس مثل هذه الرغبة بالعدالة وأن يكرّس لها حياته. غير أن المشكلة تكمن في أن غورباتشيوف التحق بكلية الحقوق في بلد حيث لمفهوم العدالة طابع خاص جداً. إضافة الى أن الشاب قبل دخوله الجامعة، ولم يبلغ الثامنة عشرة بعد، كان قد قدم طلب انتسابه الى الحزب، حيث قبل سريعاً بصفته عضواً احتياطياً.

وربما كانت كلية الحقوق في تلك الآونة الأقل وهماً في جامعة موسكو. فهي بداية

أصغر الكليات سناً، ذلك أن الجامعة لم تكن قبل الحرب تخرّج حقوقيين. أما المدعون العامون وقضاة التحقيق والقضاة السوفيات فكانوا يتابعون دروساً لمدة أربع سنوات في معاهد قانونية خاصة. أما في الجامعة فتدوم الدورة الدراسية خمس سنوات. ولم يقرر ستالين إلا بعد الحرب أن يزوّد العدالة في الاتحاد السوفياتي برجال قانون من ذوي الثقافة الجامعية. ولرغبته بإعلاء شأن «القانون» أدخل الى إدارات العدل اللباس الموحد والرتب. (والواقع أن هذا التدبير شمل معظم الوزارات). إلا أن عدد طلبات الانتساب الى هذه الكلية ظل رغم ذلك أدنى من الكليات الأخرى. فلا بد إذن من الاعتقاد بأن البلاد ليست بحاجة، في نهاية المطاف الى الحقوقيين. ففي الخمسينات لم يصل عدد طلاب كليات الحقوق إلا الى خمسة وأربعين ألفاً وهي نسبة ضئيلة جداً إذا ما علمنا أن عدد الطلاب الجامعيين السوفيات بلغ في تلك الآونة مليون ومئتي ألف.

إن سنوات الدراسة التي أمضاها غورباتشيوف تظل غير معلومة جيداً. فشهادات الناس الذين عرفوه في هذه الفترة تظل نادرة. والواقع أن هؤلاء الشهود يعيشون في الغرب. ولم يحن الوقت بعد للجوء الى مذكرات السوفيات: إذ ما يزال الأمين العام على سكة السلطة العليا. غير أن ما يلفت، رغم ذلك، في هذه الفترة من حياة ميخائيل غورباتشيوف هو أنه لم يولِ دراسته سوى أهمية ثانوية. فما إن وصل الى الجامعة حتى سعى الى الانخراط في الشبيبة الشيوعية. وقد انتخب مسؤولاً لتنظيم جماعة من الطلاب طوال سنة بأكملها. لذلك احتاج الى توصية من الشبيبة الشيوعية في الجامعة، وخاصة الى إرادة تتيح له تكريس وقته للنشاطات الاجتماعية والى مزاج يخوله تولي المهام القيادية. في ١٩٥٢ وبعد أن أصبح عضواً أصيلاً في الحزب، انتخب ميخائيل غورباتشيوف مسؤولاً عن الشبيبة الشيوعية في كلية الحقوق. وكان لا بد له هذه المرة من توصية من لجنة الحزب في الجامعة.

ويتذكر فريدريش نيزنانسكي الذي تابع دراسته مع غورباتشيوف وعمل لاحقاً في مفوضية منطقة ستافروبول أن ميشا حصل على أول موقع له في الشبيبة الشيوعية بعد أن أسكر خلفه واتهمه بالادمان على الكحول. وقد رسخت في ذهن نيزنانسكي الذي يعيش اليوم في الغرب، صورة عن زميله القديم تظهر طموحه القائم على الانتهازية.

أما ليف ايودوفيش الذي غادر هو الآخر الاتحاد السوفياتي فقد أنهى دراسته في

الحقوق قبل غورباتشيوف بسنتين، فيرى في غورباتشيوف منظماً نشيطاً جداً للشبيبة الشيوعية قام بين أشياء أخرى بالمساهمة بحماس في حملة ١٩٥٢ المعادية للسامية. وتكشف شهادات نيزنانسكي وايودوفيتش أن سكرتير المستقبل لم يكن يتميز عن سائر العاملين الناشطين إلا ربما بوصولية متطورة بامتياز.

غير أن زدينيك ميلنار المبعوث من تشيكوسلوفاكيا لمتابعة دراسته في موسكو يصور غورباتشيوف بصورة مختلفة جداً. وما من سيرة لغورباتشيوف إلا وتستشهد بذكريات ميلنار عن أيام دراسته في كلية الحقوق في موسكو. وهذا الأمر كفيل لوحده بشد الانتباه الى ما يقول. غير أن المهم يكمن في مكان آخر. فبعد أن عاد الى تشيكوسلوفاكيا أخذ ميلنار موقعاً داخل الحزب، فيما وجد زميله غورباتشيوف موقعاً حزبياً له في الاتحاد السوفياتي. ومن الواضح أن ميلنار كان أسرع من غورباتشيوف، وذلك بغض النظر عن كونه مكث في عاصمة بلاده بعكس ميخائيل الذي عاد الى ستافروبول أي الى أقاصي الريف. عام ١٩٦٨ شارك ميلنار بحماس «بربيع براغ». وقد أنتخب عضواً في المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكي. غير أن نهاية «الربيع» العنيفة واحتلال البلد أنهيا احترافه. وفي عام ١٩٧٠ طرد ميلنار من الحزب، ثم هاجر في ١٩٧٧.

كل منا يتذكر قصة «تطويب» يوري أندروبوف، فما أن أصبح سكرتيراً عاماً، هذا الذي تحكم لسنوات طويلة بمصير الكا. جي. بي، والذي كان تبعاً لذلك قائداً مشرفاً على آلة بوليسية جبارة، حتى قدمته وسائل الاعلام كرجل يحب رقص التزيفان والويسكي والأميركيين البولار والمنشقين، الذين يمضي معهم السهرات أمام الموقد يناقش حول وجود الروح والاصلاحات الليبرالية. إثنان من عملاء الـ كا. جي. بي، من الذين اختاروا الحرية ويعيشون الآن في الغرب، هما مصدر هذه المعلومات الموثوقة، إذ في اللحظة المطلوبة استعادا من خلال الغوص في الذاكرة كل ما يتشوق الغرب الى معرفته حول زعيمهما.

يستعيد زدينيك ميلنار صداقته مع غورباتشيوف زمن الدراسة، في مقالة نشرتها بداية الأونيتا الايطالية، ثم نقلها عدد هائل من المجلات والماغازين بجميع لغات البشر.

ويروي ميلنار خاصة إنه كان بين ١٩٥٠ و١٩٥٥ في كلية الحقوق في موسكو، وانه أصبح الصديق المقرب لسكرتير المستقبل الذي كان هو أيضاً يتابع دراسته فيها، وإنه تقاسم وإياه غرفة واحدة في بيت الطلبة (السترومينكا). أي أنه بكلمة كان أول أجنبي التقى الشاب الذي ترعرع في بريفولنوي.

وتبدو مذكرات ميلنار حول صديقه إيجابية دون قيد أو شرط: «لم يكن الطالب غورباتشيوف مقتدراً فقط بل أيضاً رجلاً متفتحاً ذكياً وغير معتد بنفسه يعرف كيف يستمع الى الآخرين ويسعى الى ذلك»[١٤]. هذا الرجل أقدم لظروف شتى على البوح الى صديقه التشيكي بأمور عدة. فهكذا أسرّه ميشا، عندما كان يدرس «قانون الكولخوزات»، أنه ليس للقانون أي معنى في إطار هذه الكولخوزات حيث لا يفلح إلا الوازع القمعي. وعندما شاهد الصديقان معاً الفيلم، الشعبي جداً، «كوزاك الكوبان» حيث تعرض الوفرة في الكولخوزات من خلال الموائد التي تنوّ من كثرة الأطعمة والمشروبات. فضح ميشا، الذي يعرف الحقيقة، كذب الفيلم مبيّناً له أن فلاحي الكولخوز يعيشون حياة الكفاف. وكذلك يروي ميلنار أن غورباتشيوف حين كان يدرس الفلسفة وجد عند هيغل عبارة كان يحب أن يرددها: «الحقيقة هي دائماً عيانية»، وبخلاف معظم الطلاب السوفيات، لم يكن غورباتشيوف يعتبر الماركسية كمجموعة من القواعد التي لا بد من حفظها غيباً. في هذا اللحاظ يبدو أن غورباتشيوف كان يقتفي أثر ستالين الذي كان يؤكد «أن الماركسية ليست عقيدة جامدة بل مرشداً للعمل». يبدو ميلنار حاسماً: كان غورباتشيوف وهو طالب يفهم ما لم يستطع أو لم يرد الآخرون فهمه. فهكذا شكك في هذه الفترة بعصمة ستالين. وأشهر القصص التي يرويها ميلنار تتعلق بحديث أخذه عنه جميع كتاب سيرة السكرتير العام دون استثناء. فقد قال غورباتشيوف أثر درس تناول أعداء الحزب الذين صُفوا وشطبوا من التاريخ «ليس الى هذه الدرجة، فلينين لم يأمر بالقبض على مارتوف لقد سمح له بالهجرة». قيل هذا الكلام في ١٩٥٢. وقد علق ملينار: «اليوم، مثل هذا التصريح لا يبدو هرطقة حتى داخل الاتحاد السوفياتي. ولكنه سنة ١٩٥٢ كان يعني أن غورباتشيوف قد تساءل إذا كان الناس ينقسمون فعلاً الى مناصرين لخط الحزب أو مجرمين. وقد أدرك أنه من الممكن أن يوجد معارضون ومنتقدون ومصلحون دون أن يكونوا مجرمين، وإن هذا ينطبق أيضاً على الاشتراكيين والشيوعيين»[١٥].

من الطبيعي أن يتذكر المرء باطراء صديقاً أصبح ذائع الشهرة إلا أنه من جهة أخرى، من العسير أن يجد المرء العيب الكامن في مذكرات كاتب يستعيد حواراً جرى دون أي شهود وقبل ثلاثة وثلاثين عاماً. ولكنه حوار جوهريّ، ذلك لأن كلام غورباتشيوف حول لينين الشجاع الذي ترك صديقه القديم وخصمه السياسي يغادر الى الخارج، يثبت أن بذرة الاصلاحات التي ستحصل مستقبلاً، كانت كامنة في خلال السنوات الستالينية الأولى.

غير أن هذا الكلام، وهو حجر الزاوية في أسطورة «غورباتشيوف المصلح» منذ ريعان شبابه (دون أن يبوح بذلك إلا لصديقه التشيكي) يثير بعض الشكوك الحقيقية وذلك لأسباب عدة. الأول وهو أن قصة ترحيل مارتوف الى الخارج عام ١٩٢٠، تدخل في عداد «اللطخات البيضاء» الشهيرة الخاصة بالتاريخ السوفياتي والتي سيتردد الحديث عنها بكثرة في إطار «الفلاسنوست». وكان لا بد للمرء ليعثر على أثر لهذه القصة أن يتمكن من الوصول الى الصحف القديمة المحفوظة في صناديق خاصة في الأرشيف والتي تتطلب مطالعتها إذناً خاصاً. وإذا كان بإمكاننا أن نتصور ـ رغم أن الأمر يبدو مستحيلاً عام ١٩٥٢ ـ أن مؤرخاً متمكناً يعمل على فضح الأخصام المانشيفيك استطاع الحصول على مثل هذا الاذن فهل يمكننا بالمقابل أن نصدّق أن طالباً عادياً في كلية الحقوق اسمه غورباتشيوف قد تمكن من ذلك؟ لم تكن «قضية مارتوف» من اختراع ميلنار، بل أنه ببساطة لجأ الى تعديل في التواريخ، وهكذا تبدّل كل شيء.

ـ في ٢٠ نيسان ١٩٦٢ نشرت الازفيستيا عن كزاكيفيتش تحت عنوان الأعداء. وقد أثارت اهتماماً كبيراً وعرضت فيما بعد على الشاشة. لأنها مرحلة «إزالة الجليد» وإزالة «اللطخات البيضاء» عن التاريخ. ويروي كازاكيفيتش أن لينين قرر في ربيع ١٩٢٠ مساعدة الزعيم المنشفي مارتوف للذهاب الى الخارج. فقد بعث برسالة الى مارتوف الذي كان يختبىء من «الفيتشيكا». يحدد له فيها المسار الذي عليه أن يتبعه للهرب من الجمهورية السوفياتية. وقد نبّه لينين حامل الرسالة أن عليه أن لا يدع أحداً ـ دون استثناء ـ يعلم بمخبأ مارتوف حتى مجلس مفوضي الشعب، لأن بينهم في تلك الآونة، كما يلحظ لينين بشيء من التهكم، من هو لينين أكثر من لينين.

ويمكننا الافتراض أن ميلنار علم بهذه القصة في ١٩٦٢. وكان آنذاك قد عاد الى

تشيكوسلوفاكيا، ولم يلق غورباتشيوف إلا مرة واحدة، وأخيرة، عام ١٩٦٧. فهل تحدّثا عن لينين ومارتوف بمناسبة عرض الفيلم؟ من يعلم؟ ولكننا نعلم بالمقابل أن القصة التي رواها كازاكيفيتش مليئة بالنزوات والموهومات. إذ يروي رفائيل ابراموفيتش في رسالة الى نيويورك تايم، وهو أيضاً قائد منشفي غادر الجمهورية السوفياتية بالتزامن مع مارتوف، وذلك خلال صيف ١٩٢٠ (وهو لم يزل على قيد الحياة)، إن مارتوف لم يكن مختفياً في تلك السنة وإن عملاء الفيتشيكا غالباً ما كانوا يزورونه. وقد أعطي الاثنان إذناً بالهجرة بعد أن بُعثا للإشتراك في المؤتمر الحادي العشر للكومينترن الذي انعقد وقتئذٍ في موسكو ـ ثم ما لبث لينين أن أعطي موافقته معللة بهذه الحجة: ماذا نجني من استشهاد مارتوف في سجن بوتيركا؟ الأفضل أن ندعه يذهب(١٦).

لنضف أن رواية كزاكيفيتش حيث يبدو لينين رجلاً شهماً لا يقضي على أعدائه، نشرت في الصحافة السوفياتية عقب المؤتمر الثاني والعشرين للحزب (تشرين الأول ١٩٦١) حيث أقدم خروتشوف أثنائه على تدمير أخصامه دون شفقة أو رحمة. غير أنه كان من المستحيل سواء على غورباتشيوف أو ميلنار أن يعرفا ما سوف يبتدعه كزاكيفيتش عام ١٩٦٢(١٧).

ولا تخلو مذكرات زيدينيك ميلنار من فائدة إضافية، وذلك بالمقارنة مع «رياح الكرملين الباردة» التي كتبت بداية الثمانينات. وقد يبدو غريباً أن لا يكون أي من كتاب سيرة غورباتشيوف قد اهتم بها، رغم أنهم يصفون بصورة حية جداً كلية الحقوق حيث درس زيدينيك وميخائيل معاً.

وهذا ما يعود، دون شك، إلى أن ميلنار لا يذكر في مؤلفه الأول رفيقه غورباتشيوف. ويمكننا أن نميّز الفروقات بدقة. فقد كتب ميلنار في ١٩٨٥ أنه قد تقاسم الغرفة مع غورباتشيوف فيما ورد في الصيغة الأولى أنه كان يعيش مع «ستة من قدماء المحاربين على الجبهة»(١٨). إذن لم يكن غورباتشيوف في عداد هؤلاء. عام ١٩٨٥ أشار ميلنار الى الحوارات الجريئة والخطيرة التي تبادلها مع غورباتشيوف حول بعض الموضوعات السياسية. أما في الصيغة الأولى فهو يعترف أنه كان . في هذه الفترة «ستالينياً صادقاً وراسخاً»(١٩) وهذا ما كان يشدد عليه في جلساته العامة. فكيف يمكننا أن نتصور والحال هذه أن يفتح طالب سوفياتي قلبه لزميل ليس أجنبياً فقط بل

ستالينياً أيضاً. فمن نافل القول إن العلاقات مع الأجانب لم تغب أبداً عن أعين «الأجهزة» التي كانت تفرض تزويدها بتقارير منتظمة. ويروي أندريه سينيافسكي تفاصيل ذلك في قصته «تصبحون على خير يا أولاد» بأسلوب حي ولاذع. هذا إضافة الى أن ميلنار لو علم(وهو كان يعلم دون شك) أن رفيقه كان يبعث بتقارير عن حواراتها الى الجهات المختصة لكان وجد في ذلك أمراً طبيعياً جداً. فهو ما أن وصل الى موسكو حتى بعث بكتاب - وشاية حول قادة الحزب الذين أوقفوا في تشيكوسلوفاكيا[٢٠].

إذن تبدو الصيغة الأولى لمذكرات ميلنار ثمينة جداً، وذلك لأنها تستعيد بدقة أجواء كلية الحقوق في جامعة موسكو بين ١٩٥٠ و١٩٥٥ «لم يكن للدروس التي كانت تعطى فيها أي علاقة بدراسة القانون أو بدوره في المجتمع. فالعلم الستاليني للقانون - وهو ما يزال سائداً حتى اليوم - لا يعترف مثلاً إلا بمعيار قانوني واحد: فالعدالة هي ما تعتبره الدولة (أو بدقة أكثر أجهزة الدولة) كذلك»[٢١] ثم يتابع ميلنار «إن كليات الحقوق في الجامعات السوفياتية لا تعلّم طلابها التفكير على أساس المقولات القانونية. إنها تعد اخصائيين بأحكام القضاء، تلقنهم كيف يتقيّدون بما تقرره السلطة في هذه الحالة أو تلك وكيف يتصرفون أمام هذه الواقعة أو تلك ويمتنعون عن المحظورات»[٢٢].

عام ١٩٥٥، أنهى غورباتشيوف دراسته ونال شهادته الجامعية. ومعلوم أن طلاب الحقوق يختارون بعد ثلاث سنوات اختصاصاً، ويتابعون على هذا الأساس اعداداً خاصاً يؤهلهم لكي يصبحوا، كل حسب رغبته، قضاة أو مدعين عامين أو محامين، وهو الخيار الذي يلقي الاقبال الأضعف، واستناداً الى ميلنار الذي أختار أن يصبح مدعياً عاماً، وإلى كون غورباتشيوف كان في مجموعته نفسها، يمكننا أن نفترض أن سكرتير المستقبل قد اختار الاختصاص نفسه. وهذا ما كان يتطلب منه نظرياً أن يتابع تدرجه في مفوضية موسكو، غير أنه ظل، كما يشهد فريدريش نيزنانسكي، في الكلية حيث كانت تظهر مواهبه وحيث كان غالباً «ما يرتفع صوت سكرتير الشبيبة الشيوعية الفولاذي، منزلاً عقوبة الطرد لأخطاء طفيفة، ابتداء من إثارة مسألة سياسية في غير محلها أو حتى حركة تحريضية ضد العمل الاجباري في الكولخوزات»[٢٣].

تعتبر نهاية الدراسة بداية للانخراط في الحياة العملية. وهنا لم يكن لغورباتشيوف

أي خيار، مثله في هذا المجال مثل جميع الطلاب السوفيات. الامكانات المفتوحة كانت التالية: إعداد أطروحة، ثم العمل في البحث أو التدريس، أو أن يتعيّن في موسكو العاصمة مع كل ما تمثله من سحر وإغراءات. أو أن يتعيّن في الريف، وهو خيار ملتبس إذ أن الاتحاد السوفياتي شاسع والمواقع المؤرقة المعدة للمتخرجين الغضّين كثيرة جداً.

لقد عُيِّن غورباتشيوف في ستافروبول، المدينة التي أتى منها الى موسكو. ويبدو أن كتاب سيرته يجهلون أسباب هذه العودة الى الجذور. الواقع أنه لم تكن لديه الحماية أو القدرات الكافية لاعداد أطروحة. وربما لم يكن راغباً في ذلك. فتقدمه بلا كلل في صفوف الشبيبة الشيوعية يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأنه كان راغباً البقاء في موسكو للعمل من أجلها ومن أجل الحزب. والاختصاصيون بالمؤامرات التي لا تنتهي داخل الجهاز الحزبي يفترضون أن غورباتشيوف قد أزعج أحدهم وخسر بذلك موقعه في موسكو، فعاد الى بلده، وقد حصّل معارف متنوعة في ميدان القانون السوفياتي، والماركسية اللينينية وتاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي. وهو درس اللاتينية خلال فصل جامعي. كما اكتسب أيضاً مبادىء الخطابة الضرورية لأي وكيل في النيابة. ويعتبر رواة سيرته الأميركيون: «أنه، بعد لينين، الخطيب الأكثر تأثيراً بين القادة السوفيات»[٢٤] كما يعتبر جوريس ميدفيدف أنه أفضل خطباء الحزب «بعد تروتسكي»[٢٥].

في موسكو عام ١٩٥٤ تأهل غورباتشيوف من رايسا تيتورينكو، طالبة فلسفة مختصة بالماركسية ـ اللينينية، وهو يروي: «بعد أن أنهت دراستها الثانوية... التحقت رايسا ماكسيموفنا وهي تحمل ميداليتها الذهبية بكلية الفلسفة في جامعة موسكو... حيث تابعت تدريباً في التربية في مؤسسة للتعليم العالي، وناقشت أطروحة حول فلاحي الكولخوزات وأصبحت أستاذة في الجامعة. وقد درَّست الفلسفة لأكثر من عشرين عاماً...»[٢٦].

الفصل الرابع
توقف في ستافروبول

«كان لتلك السنين اهمية كبرى في حياتنا»

ميخائيل غورباتشيوف.

خلال صيف ١٩٥٥ وصل ميخائيل ورايسا غورباتشوف الى ستافروبول. بعد واحد وثلاثين عاماً سيتذكر السكرتير العام بسرور شبابه ورحلته من ستافروبول الى موسكو: «شاهدت البلاد مدمرة. ولكن لابد لي من القول إن منظمة الشباب الشيوعي كانت مقاتلة وكانت تعرف في ذلك العصر كيف تبرز انيابها. لقد أنجزت الشيء الكثير الكثير.. وكذلك كانت اجتماعات الشبيبة الشيوعية بطاشة هي ايضاً...»(١).

وقد تقصد غورباتشوف التذكير بظالم العصر الستاليني الرهيبة، أي باجتماعات الشبيبة الشيوعية «المقاتلة البطاشة، حيث كان يكشف الغطاء عن «الكوسموبوليتيين»، و «المجرمين ذوي القمصان البيضاء»، وعملاء السي. أي. أي، والعديد من الاعداء من كل الاصناف. اذن لايبدو ان رحلة العودة من موسكو الى ستافروبول قد ايقظت الذكريات الطيبة لدى السكرتير العام. وعليه فإنه لم يعلن عن ذلك حتى الآن. لقد عاد مزوداً بشهادة جامعية ويصطحب امرأة شابة وجميلة، ولكن الى مدينة صغيرة في الريف. وهو قد غادر في خضم المرحلة الستالينية وعاد في بدايات العصر ما بعد الستاليني أي العصر الخروتشوفي.

وهاهنا علامة دقيقة في سيرة ميخائيل غورباتشوف تبدو لافتة جداً وهي ذات اهمية اكيدة: فهو لم يعمل ولو ليوم واحد، خلال حياته كرجل راشد، الا للحزب.

وكل شيء يجعلنا نعتقد انه كان مقدراً له ان يؤمن احترافه عبر الحزب فالبكاد بلغ الرابعة عشرة، وهو السن الادنى المقبول، حتى انتسب الى الشبيبة الشيوعية، غير ان ذلك لا يدهش ابداً: ففي المدرسة يتم الدخول الى الشبيبة الشيوعية بصورة شبه آلية.

وما ان بلغ الثامنة عشرة حتى اصبح عضواً احتياطياً في الحزب. وهو امر اشد ندرة، اذ جرت العادة ان يتم الانتظار لفترة اطول، اضافة الى ان الامر يتطلب عدة توصيات وموافقة الحزب الذي ينتسب المرء اليه. وهكذا اندفع ميخائيل في الجامعة الى النضال وسط الشبيبة الشيوعية، قاطعاً هكذا الخطوة الاولى من احترافه في نادي الاعيان «النومانكلاتورا».

إن كتاب سيرة غورباتشوف والاعلاميين السوفيات يهتثون النفس ومعهم الشعب السوفياتي لوجود رجل قانون للمرة الاولى بعد لينين على رأس الدولة. ومعلوم ان لينين كان طوال اربعين عاماً (١٨٩١ـ١٨٩٥) مساعد محام محلف. حتى انه تولى الدفاع لعدة مرات امام القوس، رغم أن «فلاديمير ايليتش لم يهتم الا قليلا بالممارسة القانونية، اذ لم يكن يجذبه الا العمل الثوري»(٢) اما ميخائيل غورباتشوف فلم يهتم من جهته ولو لدقيقة واحدة بمثل هذه الممارسة. وهو يبقى، في اي حال، غائماً جداً بالنسبة لهذا الموضوع: «جرت الامور على نحو لم يجعلني أمارس أي عمل ضمن اختصاصي. وقد كلفت باكراً بالعمل في إطار الشبيبة الشيوعية(٣) وبهذا الصدد نلحظ في سيرته الرسمية واقعة مميزة: «بين ١٩٤٦ و ١٩٥٠ عمل مساعد سائق على حصادة دراسة في ال"mts" التابعة لمنطقة ستافروبول. وابتداء من ١٩٥٥ بدأ يعمل في اطار الشبيبة الشيوعية والحزب»(٤).

إن كل طالب يتخرج من مؤسسة تعليمية عالية يعطي وظيفة في اختصاصه. وهو يدين بالعمل ثلاث سنوات للدولة التي سمحت له باتمام دراسته.

وقد نجح غورباتشوف بصورة واضحة بان يتعين في اللجنة البلدية للشبيبة الشيوعية في ستافروبول. وقد بدأ كرئيس قسم. وهي وظيفة غير مهمة، خاصة بالنسبة لخريج من جامعة موسكو. وقد أختير من قبل سكرتير اللجنة البلدية للشبيبة الشيوعية في عهد فزيفولود مورا خوفسكي. وبعد فترة عندما سيتخطى غورباتشوف معلمه الاول لن ينساه. اذ سيصبح موراخوفسكي نائب ـ رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي.

لقد بلغ غورباتشيوف الرابعة والعشرين. وبدأ صعوده باصرار وإن ببطء. بداية؛ في اطار الشبيبة الشيوعية. ثم اصبح عام ١٩٥٦ السكرتير الاول في اللجنة البلدية. وفي ١٩٥٨ مسؤولاً عن قسم الدعاية، ثم سكرتيراً ثانياً في لجنة المنطقة للشبيبة الشيوعية، وحينها وصل السكرتير الاول فيودور كولاكوف الى موسكو، الذي سترتبط به مهمة غورباتشيوف طوال ثماني عشرة سنة. تستعيد بنية السلطة السوفياتية بصورة كاملة النظام الاقطاعي في القرون الوسطى، فالاقطاعي بحاجة الى اقنان وهم بدورهم بحاجة مماثلة اليه. وقد ارسيت هذه البنية منذ السنوات الاولى للثورة. ويمكننا تفسير الطابع المكثف للارهاب طوال الثلاثينات تخصيصاً بسيادة هذا النسق. فبعد القبض على الاقطاعي بدأ الاقنان يتساقطون الواحد تلو الآخر من اعلى السلم الى اسفله. ومع بريجنيف اكتسبت البنية بعض الميزات الجديدة : فقد انعقدت علاقات، على كل المستويات مع عالم الجريمة والمافيا.

وتوصف الآن مرحلة بريجنيف رسمياً «بمرحلة الركود». وواضح ان هذا الركود لم يطل السياسة الخارجية. فخلال السبعينات تحول الاتحاد السوفياتي الى امبراطورية. ولم يكن على هذه الدرجة من السكينة التي يقدمها البعض اليوم للقابضين على السلطة العليا. فعندما امسك بريجنيف بزمام الامور اجرى تطهيراً في المناصب العليا لا يقل اهمية عن ذاك الذي قام به خروتشيف، فمع سقوط اعضاء المكتب السياسي او امناء اللجنة المركزية المغضوب عليهم تساقط جمع من اتباعهم (الذين اما ارسلوا كسفراء الى بلاد بعيدة واما احيلوا الى التقاعد). وبالمقابل فان المسؤولين الذين رضي عنهم بريجنيف لسبب او لآخر رفع عنهم العقاب كلياً، ولم يتأخروا عن التحول الى بذاحنين من الصنف الرديء. وكذلك قام بريجنيف، كما يروي فلاديمير سيميتشاستني رئيس ال.كا.جي.بي، بين ١٩٦١-١٩٦٧ «بتكنيس» الشباب جميعاً من المناصب الاعلى للسلطة: شيليبين، بوليانسكي، فورونوف. فقد كان من عادته ان ينتقي الاشخاص الطيّعين، الذين يعرفون كيف يتملّقونه، ويلبون أصغر طلباته ورغباته(٥).

وقد لحظ مراقب مرهف بصورة نادرة « ان البيروقراطية الروسية كانت تعوّم نموذجين اساسيين من الرجال: الذين يبرزون الى السطح لانهم يعرفون السباحة والذين يسبحون في الفراغ»(٦).

اما البيروقراطية السوفياتية من جانبها، فتطلب من السباح مواصفات أخرى،

ومزاج آخر ومركب مختلف. غير ان القدرة على السباحة والتفكر يظلان من شروط النجاح الاساسية. إن ميخائيل غورباتشيوف ينتمي دون أدنى شك الى فئة السباحين النادرين.

يعتبر عام ١٩٦٠ تاريخاً مفتاحاً في سيرة غورباتشيوف لقد بلغ التاسعة والعشرين من العمر واصبح سكرتير لجنة الشبيبة الشيوعية في منطقة ستافروبول. وهو يحتل المرتبة السادسة في لائحة أعيان الحزب المحلية.

إن سكرتير المستقبل يقف على مفترق طرق: فمتابعة احترافه في الشبيبة الشيوعية تسمح له بالعودة الى موسكو، ولكن أمامه أيضاً إمكانية أخرى، وهي أن يترك عمله في الشبيبة ويلتحق بال ـ. كا. جي. بي.

هذا الجهاز الذي قرر خروتشيف خلال تصفيته لتنظيمات الجهازية الستالينية ان يجدده باستدعائه «للشباب». وهكذا أخذت الشبيبة الشيوعية بناصية ال. كا. جي. بي.، من خلال شخص الأمين الأول للجنتها المركزية الكسندر شيليبين الذي عُيّن لاحقاً رئيساً لها. وكان ايضاً امام غورباتشيوف احتمال ثالث يبدو انه كان يراوده بشكل خاص وهو ان ينتقل الى جهاز الحزب. وقد وجد فرصة لذلك في عام ١٩٦٢.

ففي هذه السنة وخلال الاجتماع المكتمل للجنة المركزية، اطلق خروتشيف خطة جديدة تهدف الى حل مشكلات التموين في الاتحاد السوفياتي. وقد قرر، بهدف زيادة الانتاج الزراعي إعادة بناء نظام الادارة في قطاع الزراعة. وخروتشيف الذي يخوض منذ آذار ١٩٥٣ صراعاً ضارياً على السلطة، يسمح له بإجراء الاصلاحات الضرورية، لم يتوقف عن توجيه الضربات التي كانت تهز الاجهزة (السياسية والاقتصادية)، آملاً تدعيم نفوذه من خلال آلية اعادة البناء هذه، (البيريستريكا). وقد اقترح خروتشيف هذه المرة (وقد قبل اقتراح السكرتير الاول للجنة المركزية مباشرة) إنشاء إدارات للكولخوز والسوفخوز في الارياف، تشمل مساحة عدة مقاطعات.

وقد فكر في ان يضع على رأسها مفتشين خاصين يمثلون الحزب ويتمتعون بصلاحيات هائلة. وهكذا يمكنه اضعاف المناطق الحزبية، ملغياً علة وجودهم نفسها: ادارة الزراعة. وقد تبين أن مجمل هذه الترسيمة التي اطلقها خروتشيف اضافة

الى مشاريع اعادة التنظيم الاخرى لا تعدو كونها عبثية. ذلك أنها بعيداً عن تقليص الالة البيروقراطية ساهمت على العكس من ذلك بتضخيمها، واضافت الى نظام الادارة تعقيدات جديدة. واننا لا نورد هذه المسألة الا لان غورباتشيوف قد عين مفتشا في احدى ادارات منطقة ستافروبول، وحصل بذلك على وظيفة داخل جهاز الحزب. وفي كانون الاول ١٩٦٢ قام السكرتير الاول للجنة المنطقة كولاكوف بنقله من هذا المنصب الذي لا يعد بمستقبل هام، وتعيينه مسؤولا عن الكوادر في اللجنة الحزبية للمنطقة. وهكذا اصبح يتحكم بكل التعيينات في المواقع التابعة للجنة المنطقة. وبتصرفه على هذا النحو لم يتح السكرتير الاول لغورباتشيوف ان يتسلق درجة اضافية، بل انه أعرب أيضاً عن ثقته به.

لقد وجد غورباتشيوف سيده الاقطاعي، اي امن الشرط الاساسي لنجاحه في حال تكللت جهود السيد نفسه بالنجاح.

في حزيران ١٩٦٠، جاء فيودور كولاكوف الى موسكو ليحتل مواقع الامين الاول في لجنة المنطقة الحزبية. وبالنسبة لهذا الرجل الذي ناهز الثانية والخمسين تبدو ستافروبول مصيبة او منفى. وفي ١٩٥٩ اصبح وزيراً للمنتوجات من الحنطة. غير انه بعد عام اقدم خروتشيوف، غير راض عن حالة الزراعة على طرد الوزراء المعنيين ومن بينهم كولاكوف. وبصفته مهندسا زراعيا كان كولاكوف يضطلع منذ ١٩٤٣ «بمسؤوليات على مستوى الحزب والسوفيات والاقتصاد»[٧]. وقد قال فيه جوريس ميد فيديف الذي استمع الى بعض مداخلاته في الاكاديمية الزراعية (تيميريازيف) «انه النموذج المثال للزعيم الحزبي، الشديد البأس، الذي يفرض هيبته وسلطته». واضاف «لا حد لطموحه»[٨].

وهو يقيمه هكذا من خلال نظرة غير متسامحة، وذلك دون شك، لان كولاكوف سيشترك بدافع الحقد في المؤامرة ضد خروتشيوف. وانطلاقا من شهادة روي ميدفيديف سوف يجتمع في ستافروبول خلال ايلول ١٩٦٤، عدة اعضاء في مجلس رئاسة اللجنة المركزية، بدعوة رسمية من كولاكوف الى رحلة صيد. وقد طرح مسألة إقصاء خروتشيوف[٩]. ومن غير المستبعد ان غورباتشيوف كان في اجواء اسرار الالهة. والشيء الاكيد: انه كان يتفاهم بصورة رائعة مع كولاكوف.

في تشرين الاول ١٩٦٤ عزل خروتشيوف وتوجه كولاكوف مباشرة الى موسكو . ووجود سيد في موسكو يعتبر نقطة انطلاق رائعة لاحتراف متألق. وقد عين في ستافروبول في موقع السكرتيرية الاولى للجنة المنطقة ليونيد افريموف، وهو موظف محنك من الحزب جاء من موسكو وكان قد أدار لجان محلية في كويبيشيف وكورسك وغوركي. ولحظة سقوط خروتشيوف كان ايفريموف عضوا احتياطيا في بريزيديوم (مجلس رئاسة) اللجنة المركزية (استعاد في ١٩٦٦ تسميته بالمكتب السياسي) وسكرتيراً ثانياً في اللجنة للمركزية rsfsr (السكرتير الاول كان خروتشيوف نفسه). الا ان افريموف لم يستطع بعد انتخاب بريجنيف الحفاظ على وضعه في موسكو فطرد الى الارياف. واصبح غورباتشيوف تابعا لقائد جديد. وقد رأى جوريس ميدفيديف في ليونيد افريموف «رجلاً مثقفاً، ليبيرالياً» «اشد ذكاء وخبرة من كولاكوف». اضافة الى انه في معهد المكننة الزراعية في فوروينج»(١٠).

ومن جهته يشير ميشال تاتو ان ما علق في ذاكرة الناس في ستافروبول هو ان ايفريموف رجل «مثقف»(١١).

لما كانت شخصية افريموف وصفاته الانسانية لتهمنا بصورة خاصة لو لم يكن الرجل طوال سنة ونصف رئيساً مباشراً لغورباتشيوف. وما من شك ان الرجلين قد اعتادا سريعا على العمل معا. فغورباتشيوف الذي اعجب كولاكوف عرف ايضا كيف يُحظى ايضا برضى افريموف. ونشير هنا الى أن سير غورباتشيوف تدع جانباً النقاش «السريع جداً من جهة والاستثنائي بالمقابل» ؟والتعبير هنا للاعلامي يوري تشير نيتشنكو) حول سبل تطوير الزراعة السوفياتية. هذا النقاش حصل في ١٩٦٧، بين الاقتصادي والاعلامي غينادي ليسسيتشكين من جهة ولونيد افريموف من جهة أخرى . وقد وصف ليسيتشكين في احد مقالاته الحالة كما تمكن من معاينتها في شمال القفقاز، او بكلمة أخرى في مقاطعة كانت خاضعة لسلطة افريموف «ففي هذه الناحية (التي توازي بلداً من بلدان اوروبا الغربية) حيث تسطع الشمس على تربة سوداء وحيث الرطوبة كافية تماماً كان مربحا بالنسبة للكولخوز الاهتمام بزراعة القمح . . . وليس بتربية الاغنام والبقر الحلوب، اما من ناحية المراعي الطبيعية الجميلة فكانت الوضعية مختلفة: كان من المربح الاهتمام بتربية الماشية وليس زراعة القمح. خاصة ان سعر الخبز كان مرتفعاً.

والواقع انه حيث كان القمح مربحا اعطيت تعليمات للكولخوزات بتطوير مكثف لتربية المواشي وتطوير زراعة الحنطة الى أقصى حدود حيث كانت مردودية تربية المواشي مرتفعة. . . ولم يكن ذلك ضرباً من الحماقة بل، وكما يشرح الاعلامي «مبدأ تخطيط»، وقد اقترح غينادي ليسيتشكين تغيير «اوالية الزراعة» وتطوير تبادل السلع والشراء الحر. اما ليونيد افريموف فرفض ذلك رفضاً قاطعاً، منتقداً بعنف«فيتيشية العلاقات القائمة على المال ورواج السلع»(١٢).

والواقع انه لم يكن بامكان غورباتشيوف ان يدعم الرأي المناقض لرأي رئيسه. ولكن هل موقفه الفعلي غير ذلك؟ هو وحده الذي يملك جواباً عن هذا الامر. اما المؤرخ فلا بد له ان يكتفي بتسجيل ان افريموف استمر في دعمه لغورباتشيوف . وفي هذه المرحلة اصبح ميخائيل، على عزار رئيسه، خبيراً بالشؤون الزراعية. فقد اخذ دروسا بالمراسلة من المعهد الزراعي في ستافروبول. وهكذا خضع عورباتشيوف هنا للدرجة الجديدة. فالارستقراطية العليا في الحزب كانت تركض وراء الشهادات. وكان امناء لجان الجمهوريات والمناطق واعضاء اللجنة المركزية يتابعون دراستهم العليا بالمراسلة. وقد سمح لهم ذلك اجمالا بان يزينوا سيرة حياتهم بشهادات التعليم التقني العالي, وغورباتشيوف الذي كان يعمل في الحقل الزراعي في اطار منطقة ستافروبول اختار الزراعة.

وغيدار آلييف الذي يتولى رئاسة ال. كا. جي. بي. في اذربيجان اصبح مؤرخا متخرجا. ويمكننا ان نتصور العلامات التي نالها غورباتشيوف الذي شارك في الامتحانات بصفته السكرتير الاول في اللجنة الحزبية للمدينة.

اعطى ليونيد افريموف دفعا قوياً لغورباتشيوف: في ايلول١٩٦٦ اصبح سكرتيرا اولا للجنة المدنية، وفي آب ١٩٦٨ سكرتيراً ثانيا للجنة المنطقة التي سيصبح سكرتيرها الاول في حزيران ١٩٧٠ . وقد استدعي افريموف الى موسكو واقترح تعيين غورباتشيوف مكانه. غير ان توصية السكرتير الاول السابق لم تكن كافية، اذ كان لابد من موافقة موسكو، ذلك ان التعيين في هذه الوظيفة يعود لاعيان المكتب السياسي.

تعتبر منطقة كُراج اهم الاقسام الادارية من R.S.F.S.R وهي تتألف من اراض شاسعة تقع على تخوم اتحاد روسيا (ومن هنا اسمها). وهناك ست مناطق: آلتاي،

كرانودار، كراسنويارسك، الساحل (بريمورسكي) خاباروفسك وستافروبول. ويتمتع امين لجنة منطقة RSFSR بنفس حقوق امناء مناطق الاتحاد الاخرى (اوبلاست oblast، الوحدة الادارية الاساس في الاتحاد السوفياتي)، غير ان المساحة التي يمارس عليها سلطته هي اكبر بكثير. وتكمن خاصية هذا القسم الاداري في أنه يضم مناطق مستقلة ذاتياً، ولكنها لا تحتوي الا على عدد قليل جدا من الاقوام لا يسمح لها ان تشكل كجمهوريات مستقلة. فهكذا تضم منطقة ستافروبول المنطقة المستقلة كاراشايس ـ شركس وهو اسم الشعبين اللذين يشكلان القسم الاعظم من سكانها. (وتعطي وظيفة السكرتارية الاولى للجنة منطقة rsfsr موقعا في اعلى هرم السلطة. فالسكرتير الاول للجنة المنطقة ينتخب تلقائيا كعضو في اللجنة المركزية، ويصبح نائبا في السوفيات الاعلى لـ rsfsr وللاتحاد السوفياتي. والاهم هو انه يتمتع بسلطة هائلة. تغطي منطقة ستافروبول مساحة تبلغ أكثر من ثمانين الف كيلومتر مربع(اي مايعادل مساحة بلجيكا، وسويسرا و٣ اضعاف اللوكسبورغ. وتعد(احصاء الاول من كانون الثاني ١٩٨٢) ٢,٦٤٢,٠٠٠ نسمة.

راغبا في ايجاد تمثيل ما بين النظام السوفياتي والغرب، يقارن الاختصاصي الاميركي بالشؤون السوفياتية جري هووغ jerry hough امناء المناطق (في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية والRsfsr بالمفتشين(١٤). ويدعم ميشال تاتو هذه المقارنة قائلا «دام نشاط المفتش غورباتشيوف في ستافروبول ثماني سنوات»(١٥) ويلحظ محررو التايم في سيرتهم عن السكرتير العام «ان تسمية غورباتشيوف كأمين أول لمنطقة ستافروبول جعلته عمليا حاكما على هذه الناحية، الا ان السلطة التي يملكها تضاهي تلك التي يمارسها حاكم ولاية أمريكية.»(١٦)

مفتش، حاكم، نائب الملك، مرزبان، كل هذه التمثيلات قد تعطي فكرة عن وظيفة السكرتير الاول ولكنها تحول في الوقت نفسه دون التقاط خصوصيتها.

إن «مزجة» المرحلة «السكرتيرية» التي تعقب المرحلتين الاومية والابوية تكشف الى حد بعيد هيكلية النظام السوفياتي التي تتشكل من الامين العام وامناء الحزب الاول في اربع عشرة جمهورية(١٧) الامناء الاول لمئات اللجان الاقليمية(اوبلاست وكراج) واخيرا الامناء الاول لالاف لجان المقاطعات.

أما ممثلو الحزب الذين يمسكون بمجمل السلطة في البلاد فهم أسياد مطلقون على إقطاعاتهم.

وتبدو بنية أي لجنة محلية نسخة تستعيد بنية اللجنة المركزية. اما اللجان الاكثر اهمية(لجان الجمهورية او المنطقة) فهي نسخة طبق الاصل عنها. وتنقسم اللجان الى الاقسام نفسها: الاجهزة الادارية، الزراعة، البناء، الثقافة، النقل، الدعاية والتعبئة، العمل داخل الحزب. . .

ويهتم السكرتير الاول بجميع المسائل وتعود له كلمة الفصل بما يتعلق بالحلول المقترحة. وفي هذا اللحاظ لا تكتسب ثقافة الامين العام التقنية وطبيعة تخصصه اهمية خاصة. وحده ليونادر دي فانشي كان مختصا بكل شيء. ويقال في اللغة السوفياتية إنه الامين الاول متخصص بالمسائل العامة.

وميخائيل غورباتشيوف كان امينا اولا لمنطقة معينة، وفي جيبه شهادتان جامعيتان، وهما تعطيانه شيئا من الهيبة الا انهما لا تبدوان كافيتين لحل المشاكل لو لم يكن يملك النفوذ والسلطة. وليس صدفة ان يطلق على السكرتير الاول لقب «المعلم» وهو لقب استخدام باستمرار وما يزال حتى اليوم اضافة الى كونه ممسكا بالسلطة الايديولوجية، وذلك لأن الحزب «متسلحا بتعاليم الماركسية اللينينية»، يضفي على نضال الشعب السوفياتي من اجل الشيوعية(١٨) «طابع ما هو مخطط له ومترسخ علميا». يملك الامين الاول ايضا السلطة الادارية. ولكي نستعيد عبارة ستالين، فهو ضمن «عقاره»الاب والسيد في آن معا. تتحكم موسكو عن بعد بنشاط السكرتير الاول واذا لم تقع في نطاقه كارثة ملفتة فانه يحكم وفقا لأهوائه وقدراته او بكلمة يفعل ما يشاء.

ميخائيل غورباتشيوف هو الاول بين سبعة قادة سوفيات الذي انخرط في تجربة طويلة ـ ما يقارب الثماني سنوات ـ في السلطة وذلك من خلال مواقع الامانة العامة لمنطقة من الحجم المتوسط. فلينين قد انتقل مباشرة من ادارة اللجان الصغيرة الى أعلى موقع في السلطة. وستالين الذي نعم بسلطة غير محدودة بصفته مفوضا اثناء الحرب الاهلية تتحكم فيها بعد «بالمعلمين» من خلال الجهاز. وبريجنيف وخروتشيوف شغلا قبل أن يصلا الى قمة الهرم منصب الامانة العامة على مستوى الجمهوريات. اما اندروبوف وتشيرنينكو فلم يديرا قبل وصولهما الى القمة أي لجنة حزبية. فالجدة في سيرة

غورباتشيوف تكمن في أنه حكم طويلا ما يقارب ثلاثة ملايين نسمة. غير أنه ليس لذلك أية علاقة بالمئتين والثمانين مليون نسمة الذين يحكمهم الآن فسلطته اليوم تبدو مجردة فيما بالامس كانت عيانية وملموسة الى أبعد الحدود. فمتجولا في منطقته كان الامين الاول قادرا على التعرف الى مجمل مرؤوسيه تقريبا. اي انه كان بامكانه ان يلتقي شخصيا عددا كبيرا منهم. وكانت حياتهم رهنا به في مجالات عديدة. وكان قادرا على اقامة علاقات مباشرة معهم كما كانوا قادرين على إقامة هذه العلاقات معه. لقد كان معلما حقيقيا او المعلم الكلي القدرة بلحمه وعظمه. ان تجربة ستافروبول توضح الى اقصى درجة معنى «اصلاح نظامنا السياسي» (١٩) الذي اضطلع به غورباتشيوف. وهوكان يعرف جيدا ما يتكلم عنه عندما اقترح فجأة في المؤتمر التاسع عشر ان يجمع مهام السكرتير الاول الى تلك العائدة لرئيس سوفيات نواب الشعب. فقد اضفت الخطوة الاصلاحية نوعا من الشرعية على جبروت السكرتير الاول الذي تحول رسميا الى تعبير عن الدولة وليس عن الحزب فحسب. وهكذا اعطت تجربة ستافروبول للامين الاول السابق للمنطقة الاطمئنان الذي لا يتوفر الا «للمعلم» وقناعة بان على الحاكم القوي ان يقود الجماهير وراءه وانه قادر على ذلك.

في نيسان ١٩٧٠، وبعد ان بلغ الثالثة والثلاثين أصبح ميخائيل غورباتشيوف سكرتيرا اولا في لجنة منطقة ستافروبول. ولن يغادرها في تشرين الثاني ١٩٧٨ الا «ليصعد» الى موسكو. وهنا خصوصية لا يلحظها غورباتشيوف في هذه الفترة التي تمتد ثماني سنوات ونصف. فجيرانه ومنافسوه، الامناء الاول في منطقة كراسدونار (سيرغي ميدونوف) وروستوف (ايفان بوندارينكو) لا يتوقفان عن الكلام في المؤتمرات، ويتباهيان علنا بنجاحهما. وشائع ان يحب امناء المناطق وهم الاسياد على ارضهم ان يتميزوا بأية طريقة: فهذا يرعى الفنون (طبعا في اطار الواقعية الاشتراكية) وذاك يدعم المسرح وثالث يحتضن حفنة من الكتّاب. اما في منطقة ستافروبول فلا شيء متميز يثبت ذوق السكرتير الاول، اذ انه اثناء وجوده كسكرتير اول في اللجنة البلدية لستافروبول لم يقم غورباتشيوف الا بتنظيم سيرك في مدينته. وكان ذلك فقط ما تركه من بصمات.

إن منطقة ستافروبول هي في الاساس زراعية. فنجاح او فشل السكرتير الاول فيها مرهونان، اذن، بغلال الحصاد. وقد اولى غورباتشيوف جل اهتمامه لهذا القطاع.

فكان يطوف على الكولخوزات والسوفخوزات، مشجعاً اعتماد اشكال جديدة لتنظيم العمل: فريق عمال مستقل، نظام يحاول الجمع بين الانتاجية والأجر، ترسيخ الالفة بين الكولخوزي وارضه، وتحضيره للعمل غير ان هذه الطرق ظلت على مستوى الجراحة التجميلية، ودون اي اثر على الغلال التي تتفاوت بعنف من عام الى آخر. وبدءاً من ١٩٧٠ ادار فيودور كولاكوف الزراعة بصفته سكرتيراً للجنة المركزية. وقد عزا الى نفسه المواسم الجيدة (١٩٧٣، ١٩٧٦) وفسر حصول الرديئة منها (مثلا المحصول الكارثة عام ١٩٧٥) برداءة وزير الزراعة. وسمح انتخاب كولاكوف (بعد بعض النتائج الجيدة) الى المكتب السياسي بدخوله نادي المرشحين الى السكرتيرية العامة. وقد بحث عن أي وسيلة للحصول على نتائج ايجابية ثابتة، وهو ما يزيد من حظوظه في صراعه ضد اخصامه في المكتب السياسي. وقد وجد «الطريقة»: إن جميع الوصفات الهادفة الى تثبيت وتنظيف الزراعة السوفياتية من امراضها القاتلة التي اصابتها منذ التأميم، استطاعت تأمين شفاء عاجلا وطويلا ولكن دون تغيير النظام. فكل واحدة منها كانت بمثابة جرعة سحرية. فقد اقترح ليسينكو ترياقه، ثم اتى حزام ستالين الحرجي الذي كان يدرأ من الرياح ويؤمن محاصيل جيدة، ثم دزة خروتشيوف، وبعدها أسمدة بريجنيف الكيميائية... ومن هنا تأتي طريقة كولاكوف كعلاج سحري جديد. ملاحظاً مثل الجميع ان ٢٠و٣٠ بالمائة من الانتاج تهدر اثناء الحصاد نفسه (والحال ما تزال سائدة حتى اليوم)، امر كولاكوف العلماء بان يجدوا اسلوباً يؤمن حصاداً سريعاً. وقد اعد معهد مكننة وكهربة الزراعة في روستوف مشروعاً بهذا الصدد. واقترح انشاء مفرزات خاصة تتألف من ١٥ حصادة دارسة و١٥ شاحنة تؤمن فرق خاصة تزويدها بالنفط ومهمتها الحصاد، وجمع التبن، والتحضير المسبق للحقول... ويحق لكل مفرزة ان تستعين في سبيل تماسكها الايديولوجي بمحرضين من لجنة الحزب وثمانية متفرغين جزئياً وباربعة مثقفين سياسيين وبقارىء. والى جانب ذلك أنشئت «منظمات حزبية متحركة» و«جماعات متحركة من الشبيبة الشيوعية»، مهمتها التنقل مع الآلات[٢٠].

ورغم ان الوصفة كانت من ابتكار معهد روستوف، عهد كولاكوف اختبارها عملياً الى السكرتير الاول لمنظمة ستافروبول. وقع الاختيار للقيام بالتجربة الاولى، على مقاطعة ايباتوفكا: سهل منبسط مثل الكف مزروع بالقمح الشتوي ولمحصول واحد.

ونجحت التجربة. وظهر اسم غورباتشيوف للمرة الاولى، في البرافدا: وفي ١٦ تموز ١٩٧٧ نشرت الصحيفة مقابلة معه، وفي الوقت نفسه قراراً من اللجنة المركزية يدعو الى تطبيق «طريقة ايباتوفكا في جميع انحاء البلاد. وقد نال غورباتشيوف الى جانب بعض «المبدعين في حقل الزراعة» وساما رفيعا: وسام ثورة اوكتوبر. الا انه إتضح سريعاً، فيما بعد وقد كشفت المسألة بصورة علنية عام ١٩٨٤ ان «طريقة إيباتوفكا» ليست الا خدعة إضافية وذلك لكونها باهظة الكلفة ودون نتائج تذكر.

إن نجاح الزراعة في المنطقة هو الشرط الضروري ولكن غير الكافي للاحتراف الجيد. غير ان حلم تشيخوف الجميل الذي يراود أخواته الثلاث: هو «موسكو!». هذا الحلم يدغدغ سراً جميع الامناء الاول، غير انهم بالمئات. فما هي الوسيلة اذن للبروز ولفت الانتباه؟ الجواب بديهي: بتحقيق النجاحات، وإنجاز الاعمال الباهرة وتخطي الخطة الموضوعة، ولكن هناك ايضاً وسائل اخرى. فمنطقة ستافروبول تضم ينابيع شهيرة للمياه المعدنية ومنتجعات للعلاج: كيسلو فودسك، جيليز نوفودسك. وبعض القادة السوفيات يأتون اليها للعلاج بصورة منتظمة. «ومعلم» المنطقة السكرتير الاول يلتقي بهم بطبيعة الحال. والقرم والبحر الاسود هما ايضا من مناطق الاصطياف. والواقع ان هذه الناحية أسميت «بسانا توريوم الاتحاد»، وهي تقع في محيط مقاطعة كراسنودار. وفي خلال السبعينات زارها كل من سوسلوف وكوسيغين واندروبوف وكولاكوف للاستفادة من العلاج في كيسلو فودسك. فيما بريجنيف كان يفضل القفقاز. وكان من أقرب «محاسيبه» السكرتير الاول للجنة الاقليمية لكراسنودار سرغي ميدونوف. ويسمح مقر الاصطياف اضافة الى الاذواق والامراض والمزاج بقسمة القادة السوفيات الى مجموعتين: الاولى تفضل المناخ شبه الاستوائي وما يتيحه من تذوق للنبيذ، والثانية منطقة ستافروبول ومياهها. وهذا ما لا يخلو من التذكير باول لقب اعطي لغورباتشيوف بعيد إنتخابه للمنصب الاعلى: «السكرتير المعدني». في ١٧ تموز ١٩٧٨ مات فيودور كولاكوف فجأة. وهكذا غادر أصغر اعضاء المكتب السياسي «٦٠ عاماً» العالم بصورة فظة. وهو كان يأمل للخريف المقبل بحصاد لم ير من قبل (التوقعات الاميركية لتموز اعطت رقم ٢٤٠ مليون طن؛ الرقم القياسي سنة ١٩٧٢ بلغ ٢٢٣,٨ مليون)، ولم يسبق له ان عرف المرض ابداً. وقد أعلن في بلاغ مقتضب موقع من قبل طبيب بريجنيف الشخصي، الاكاديمي تشازوف، الذي يشغل اليوم منصب

وزير الصحة «ان قلب كولاكوف توقف عن الخفقان». وقد تم دفنه في مأتم كبير. الا ان بريجنيف وكوسيغين وسوسلوف لم يشاركوا في الجنازة. وتولى ميخائيل غورباتشيوف تلاوة الكلمة التأبينية في الساحة الحمراء: لأول مرة (دون شك) يشاهد الشعب السوفياتي قائده المقبل.

(اما أسباب وفاة كولاكوف (انتحار، اغتيال) فتبقى «لطخة بيضاء» في التاريخ السوفياتي. وقد فتح غياب معلم غورباتشيوف وحاميه فصلاً جديداً في حياته. وفي آب - ايلول ١٩٧٨ جاء سوسلوف كوسيغين واندروبوف الى منطقة ستافروبول للاستشفاء بالمياه المعدنية. وفي ايلول وفيها كان بريجنيف وتشيرنيكو في طريقهما الى باكو توقفا في كراسنودار. وخلال مرورهما السريع في مينيرالني فودي أجريا محادثات مع غورباتشيوف. وهذا ما لم تتأخر احدى الصحف عن نشره (وكذلك اللقاء مع ميدونوف). وفي تشرين الاول وصل الى ستافروبول اندري كيريلينكو عضو المكتب السياسي وسكرتير اللجنة المركزية والذي يعتبر بمثابة الرجل الثاني.

في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ سجلت الجلسة المكتملة للجنة المركزية تغييرات في المكتب السياسي. بريجنيف وضع تشيرنينكو في هذا المكتب، وكذلك انتخب تيخونوف رئيس الوزراء المقبل الذي يبلغ ٧٣ عاماً كعضو احتياطي، واخيراً اصبح ميخائيل غورباتشيوف سكرتيراً للجنة المركزية مكان كولاكوف. ويمكننا ان نفترض بسهولة ان بريجنيف كان يفضل سيرغي ميدونوف. الا ان ترشيحه ألغي نظراً لبروز وثائق مشبوهة، سوف تكشف للرأي العام بعد بضع سنوات، مما اجبر ميدونوف على الرد على تهمة الافساد الموجهة اليه. (وصل غورباتشيوف اذن الى موسكو. وانتهت بذلك مرحلة ستافروبول التي إمتدت مايقارب ربع قرن. عاد الى العاصمة، بعد ان قفز درجات عدة على سلم الشهرة.

الفصل الخامس
عودة الى موسكو

السؤال الاول الذي يتبادر الى الذهن: لماذا هو؟ . . في قصته «كيف كانت تجري الامور في اوديسا» يطلب اسحاق بابل من الحكيم آريه ـ لبيب كيف تمكن بينيا كريك في الصراع الذي دار بين اشرار اوديسا من احتلال المركز الاول، معددا مآثر المتنافسين الرهيبين. سأل بابل: «لماذا كان بينيا كيرك وحده الذي بلغ قمة سلم الجبل فيما بقي الآخرون معلقين في الاسفل على درجاته المترنحة؟» السؤال نفسه يطال ميخائيل غورباتشيوف. (يروي ميشال تاتو انه شاهد في ستافروبول صورة فوتوغرافية لغورباتشيوف يبدو فيها محاطاً بالجماهير. كان ذاك عام١٩٧٠، أي، والامر واضح هنا، بعد انتخاب ميخائيل سيرغيفيتش اميناً اولاً للمنطقة: « لم أميزه الا بصعوبة، لقد كان سميناً اكثر بكثير من اليوم، وقد بدا منذ تلك الفترة نصف اصلع، كان يرتدي طقما رديء التفصيل، من القماش السميك، ولم يكن يبدو شاباً على الاطلاق وكان يشبه رجل الجهاز القروي النموذجي»[1].

هل انه فعلا رجل جهاز قروي نموذجي؟ أم انه مصلحاً سريا يختفي متلبساً دور رجل الجهاز؟ بهذه الدقة ولهذه المدة الطويلة؟ هذا ما اكده بعض كتاب سيرة غورباتشيوف وفي مقدمهم زدينيك ميلنار: كان غورباتشيوف يدرك كل شيء الا انه كان يحتفظ بذلك لنفسه وينتظر الساعة.

وتحضرنا هنا قصيدة ميكيويكزكونراد فالنبرود الدرامية، حيث ينتحل البطل، وهو شاب بولوني هوية رجل الماني وينتسب الى أخوية الفرسان التوتونيني (نسبة إلى جنس جرماني) ويصبح معلمها الأكبر وذلك ليتمكن من تدميرها بشكل أفضل بهدف تحرير بلده. يعيد علماء السياسة السوفيات إلى الذاكرة اليوم أن ستالين كان يرى الحزب شبيهاً

«بأخوية بورت ـ غليف»[٢] في قلب الدولة. غير أنه لا يمكننا هنا أن ننسخ بطل ميكيويز الرومانسي.

فليس لأحد أن يصل الى أحلام أمين ستافروبول الاول وأن يدرك مشاريعه وأمانيه إلا إذا أفصح عنها هو نفسه في مذكرات لاحقة. وتبعاً لذلك لا بد للمؤرخ من الاكتفاء بمعاينة الاحداث.

وبدءاً من اواخر عام ١٩٧٨، باشر ميخائيل غورباتشيوف بعد إنتخابه سكرتيراً للجنة المركزية بادارة الزراعة. وشكلت محاصيل عام ١٩٧٩كارثة كبرى. كان لابد من استيراد ٣١مليون طن من الحنطة، وهو رقم قياسي في تاريخ الاتحاد السوفياتي.

الا ان هذا الفشل لم يؤذ غورباتشيوف، وهذا ما يحصل إجمالاً بالنسبة للقادة السوفيات، حتى انه كان على العكس من ذلك عاملاً مساعداً: ففي تشرين الثاني ١٩٧٩ انتخب عضوا احتياطيا في المكتب السياسي. وفي ١٩٨٠ استمرت المحاصيل سيئة وقد جرى استيراد ٣٥ مليون طن من القمح. الا ان غورباتشيوف اصبح في اواخر شهر تشرين الاول من العام نفسه، اي بعد اعداد ميزانية الانتاج الزراعي، عضوا اصيلا في المكتب السياسي . لم تعرف البلاد مثل هذه النتائج الردئية منذ عهد التأميم، ولكن رغم ذلك ما من مسؤول عن الزراعة عرف مثل هذا الاحتراف اللامع. ففي خلال سنتين عبر رجل الجهاز السابق القروي الصغير الى قدس الاقداس، دخل هذا النادي الضيق المقصور على قادة الحزب والدولة واصبح امينا رئيسيا دامجا بين مهامه كعضو في المكتب السياسي وموقعه كسكرتير للجنة المركزية.

هذا الرجل الذي كان بالامس القريب سكرتيرا اولا لمنطقة ستافروبول اصبح مرشحا محتملا لمواقع الامانة العامة. انه الاكثر فتوة بين القادة. فسوسلوف من مواليد ١٩٠٢ وبريجنيف وكيريلينكو ١٩٠٦، وتشيرنينكو ١٩١١، فيما ولد غورباتشيوف في ١٩٣١.

يمكننا ان نتخيل بسهولة كيف كان غورباتشيوف يبرر فشله في ميدان الزراعة بنقص في صلاحياته. فلادارة الزراعة التي تضم ثلاث عشرة وزراة ولجنة دولة تتولى شؤون فروعها المختلفة لابد واقعا من سلطة هائلة. وقد حصل غورباتشيوف على ما كان يتمناه: لم يعد فوقه الا الامين العام. الا ان محصول ١٩٨١ كان هو بدوره كارثة

كبرى جديدة. (تشير الارقام الاميركية الى ١٥٥ مليون طن). وتلحظ الخطة الخمسية التي تبدأ تحديدا تلك السنة بالذات محصولاً سنويا وسطا يتراوح بين ٢٣٨و٢٤٣ مليون طن. وهذا يعني ان الاستيراد ارتفع الى ٤٦ مليون طن من الحبوب. وتبعا لذلك اتخذ قرار ـ لم يكن غورباتشيوف، بالطبع،آخر من يعلم في هذا المجال ـ بعدم نشر الاحصاءات الخاصة بالانتاج الزراعي.

اوائل الثمانينات اقدمت قيادة الحزب، مرة أخرى على صياغة حل نهائي للمسألة الزراعية. وقد شارك ميخائيل غورباتشيوف بهذه الصياغة بنشاط وفعالية. وذلك من موقعه كمسؤول عن الزراعة. وكما كتب اعلامي سوفياتي: «فإن برنامج التغذية في الاتحاد السوفياتي فريد من نوعه، اذ لم يطبق بلدنا أو أي بلد في العالم مثيلا له من قبل. والواقع ان احدا في المجتمع الرأسمالي لم يشترط مثل هذه المعايير العقلانية التي يتطلبها العلم ونموذج التغذية، مع ما تؤدي اليه من مفارقات لا مفر منها في مجال انتاج السلع المادية بما في ذلك التموين[٣].

ويتوقع البرنامج ان تلبي «الخطة الخمسية الراهنة» (أي بين ١٩٨١ و ١٩٨٦)، حاجات السكان من منتوجات الخبز والمعجنات، ومن البطاطا والسكر والسميد والحلويات والمارغرين والبيض والسمك. اما اللحوم والحليب والزيوت والخضار والفاكهة فقد ارجئت الى الخطة القادمة (١٩٨٦ ـ١٩٩٠)، ويقترح البرنامج كل هذه المشكلة «الفريدة من نوعها» ـ تموين السكان ـ سلسلة من التغييرات في نظام ادارة الزراعة.

اهمها انشاء مجمع زراعي صناعي Apk («الاغروبروم» كما يسمى) وهو كناية عن آلة بيروقراطية معقدة بشكل مرعب، تضم اضافة الى الزراعة جميع الصناعات التي تتفرع عنها ومهما كانت درجة قربها منها: صناعة الجرافات والآلات الزراعية، معدات تربية الدواجن وصناعة العلف، الصناعات الخفيفة والغذائية، شق الطرقات واصلاح الاراضي، صناعة الاسمدة المعدنية... وجميع الفروع المتعلقة بتحضير ونقل، وحفظ وتحويل المنتجات الزراعية اضافة الى تصريفها... دون ذكر المواصلات والتوقعات والميزانيات واجهزة الطب البيطري... ومن الاسهل تعداد ما لا يشمله الاغروبروم مما يقع في دائرة صلاحياته.

ما يزال البعض اليوم يستشهد بالبرنامج الغذائي، رغم ان ما من احد الا ويعترف بفشله المطلق. اما الفائدة منه فلا تكمن الا في كونه نموذجا من الحلول للمشاكل الزراعية بالطرق التقليدية وكوثيقة تحمل طابع افكار غورباتشيوف ابان «البريجنيفية المتوهجة».

إن ربع قرن او ما يقارب من العمل في الريف لحساب الحزب زود غورباتشيوف بتجربة ثمينة في العمل السياسي ولكن على مستوى المراتب المتوسطة. فقد تآلف بوصفه امينا اولا للمنطقة وعضوا في اللجنة المركزية مع قمة هرم السلطة. الا انه لم يتدرب على دهاء ودقة الصراع السياسي داخل الكرملين الا بعد ان اصبح سكرتير اللجنة المركزية، ثم عضوا في المكتب السياسي. وقد كتبت تاتيانا زاسلافسكايا انه «من السذاجة ان نعتقد ان الصراع على السلطة (بما في ذلك الصراع الشخصي) الذي طبع مجمل تاريخ الانسانية فقد جذوره في ظل الاشتراكية ولم يعد موجودا[٤].

لقد وصل غورباتشيوف الى موسكو في فترة حيث دخل هذا الصراع المستمر مرحلة جديدة. الامين العام يتآكل اكثر فأكثر تحت وطأة المرض. وقد بدأت مشادة لا هوادة فيها، نوع من الصراع حتى الموت على كرسيه. وتذكر هذه الوضعية بتلك التي كانت سائدة في بداية العشرينات: لينين مصاب بمرض قاتل ، وقد دخل «الداتشا» حيث يرقد بين الحياة والموت مشلولا، وورثته يناورون كل من موقعه ليقفز ويملأ الكرسي. ولا يختلف ورثه الثمانينات عن ورثة العشرينات من حيث قدراتهم ونطاق مناورتهم ابدا، وإن كان يسود ميك اليوم الى تضخيم مآثر منظمي الثورة ومنشئي الدولة السوفياتية. اذا، الاختلاف الحقيقي بين الوضعيتين يعود الى تفاوت حجم الارث: ففي العشرينات كان الارث كفاية عن دولة دمرتها الحروب والثورة. اما في الثمانينات فيشمل قوة نووية عظمى.

محللة تراتبية المجتمع السوفياتي عاينت تاتيانا زاسلافسكايا احدى عشرة جماعة. وتضم الاخيرة أي الحادية عشرة القادة السياسين. وقد كتبت، وهي عضو في الاكاديمية، «لاتكمن الميزة الكبرى لهذه الجماعة في ارتفاع مستوى الاستهلاك بل في مدى اتساع سلطاتهم بشكل مذهل ليشمل مختلف مدارات الحياة الاجتماعية، وهو سلطان بحكم الوقت لا حدود له بالنسبة للتمتع بخيرات المجتمع وحق التقرير بشأن

الملايين من البشر»[٥]. وفي ١٩١٨ كان لينين يفكر بهذا الامر عندما شرح: «ان المفهوم العلمي للديكتاتورية لا يعني شيئا آخر سوى سلطة لا يحدها اي قانون او قاعدة وقائمة مباشرة على الوازع القهري»[٦].

ابتداء من سنة ١٩١٨، بدأ لينين ببناء هذه السلطة غير المحدودة. اما في الثمانينات فإن «كامل الصلاحيات» في التمتع بالخيرات الوطنية وتقرير مصير ملايين الناس هما واقعا حقيقياً. ولهذا فهو موضع صراع عنيف.

في ٢٠ تموز ١٩٧٨، نشرت البرافدا على صفحتها الاولى صورة فوتوغرافية: القادة السوفيات وهم مجتمعون على منصة الضريح لالقاء النظرة الاخيرة على فيودور كولاكوف. انها الصورة الاولى لغورباتشيوف على ضريح الزعماء. ويحتل المكان الاخير، الخامس الى يسار الشخصية المحورية، المتمثلة باندرية كيريلينكو عضو المكتب السياسي وسكرتير اللجنة المركزية. وفي تشرين الثاني حل غورباتشيوف مكان كولاكوف في موسكو. اما الان فهو مدعو فقط لالقاء كلمة التأبين. وكان رابع المتكلمين اي قبل الاخير وكان شبيهاً بالآخرين سوى انه اصغرهم سناً.

وفي قلب عقدة التيه هذه حيث تشابك مصالح الجماعات المتصارعة نجح غورباتشيوف بكسب ود الامين العام (وهو لم يكن دون ذلك ليصل الى الاحتراف بهذه السرعة)، وبالمحافظة في الوقت نفسه على دعم حماته من «المعدنيين» سوسلوف واندروبوف. فالفشل من جديد في ميدان الزراعة والمحصول الرديء مجدداً في ١٩٨٢، اي بعد اعتماد البرنامج الغذائي الذي قدم بمثابة الترياق، كانا من الممكن ان يجعلا من غورباتشيوف، كما جرت العادة دائما بالنسبة للعديد من مسؤولي هذا القطاع وكبش محرقة. اضافة الى ان عام ١٩٨٢ قد شهد موت سوسلوف في ٢٥ كانون الثاني، وهي خسارة جرى تعويضها بنقل أندروبوف من الكا. جي. بي. الي الامانة. وهكذا فتح باب الحظ امام الرجل المقرب منه: في ١٠ تشرين الثاني توقف قلب ليونيد ايليتش بريجنيف عن الخفقان. في ١٢، خلفه يوري أندروبوف. فما كان من غورباتشيوف الا ان تسلق درجة. فلقد ترك الزراعة ليدخل القطاع الاهم وذا المردودية الاعلى: الايديولوجية. اذ بدونها لا وجود للنظام السوفياتي. وهذه المردودية لا تقاس بالمعدلات المئوية ولا بالاطنان او بالامتار بل تدار على ذمة من يديرها واستنادا الى ما يقول.

وتعتبر الايديولوجيا مدرسة ممتازة للمرشد كونها تكسبه شهرة المنظر في الماركسية اللينينية.

وقد أتم غورباتشيوف «صفوفه» باشراف «الاستاذ» اندروبوف. ثم شارك في عملية تطهير الكوادر، التي تمت اثر انتخاب الرئيس السابق للـ. كا. جي. بي. الى منصب الامانة العامة. وقد اكتشف الوضعية الواقعية السائدة في البلاد وعمق الازمة التي تتخبط فيها. وعندما نرجع الى ما أعلنه غورباتشيوف، خاصة في المؤتمر التاسع عشر للحزب، أنه كان يجهل اشياء كثيرة في هذا المضمار، لا بد لنا من تصديقه. فمنذ العهد الستاليني تبدو المهام داخل المكتب السياسي محددة بدقة صارمة. أي أنه يمكن لاعضاء هذا الجهاز الاعلى في هرم السلطة أن يطلعوا على الخطوط الرئيسية للمشاكل التي لا تعنيهم مباشرة ولكنهم يجهلون تفاصيلها (وغالباً اهمها) وهم لا يصرون على معرفتها. وهذا من باب عدم التدخل بشؤون الزملاء. اذ وحده الامين العام له الحق بمعرفة كل شيء.

قام غورباتشيوف بوصفه مسؤولا عن الايديولوجيا بعقد علاقات مع عالم العلم والثقافة، وهو ما سوف يرد عليه لاحقا فائدة كبرى. وقد أولى إهتماما شديداً بالاقتصاد وبافكار دعاة الاصلاح في هذا الميدان:

زاسلافسكايا، واغانبيغيان.

في ٩ شباط ١٩٨٤، مات يوري اندروبوف. «الغرفة رقم ١» أو «نادي الأبوات» تضم ثلاثة مرشحين: غورباتشيوف ٥٢ عاماً غريغوري رومانوف ٦١، قسطنطين تشيرنينكو ٧٣. هذا الاخير انتخب غير أن غورباتشيوف لم يفقد اياً من امتيازاته. واكثر من ذلك، بدا مسؤول الايديولوجية السوفياتية بالمقارنة مع هذا القائد الرازح تحت الشيخوخة والمرض شاباً وديناميا بصورة خاصة.

تستدعي عادة اللعبة السياسية المعقدة التي تتمثل بايجاد المزيد من الحلفاء وتحييد الاخصام في السباق الى الكرسي معركة خفية. وهنا الابطال معروفون سلفاً وكذلك اهدافهم. ويبقى التكهن باتجاه الضربات ومصدرها وبالوعود... يمكننا بكل ارتياح ان نفترض ان الصراع على السلطة يجري دائماً بالاساليب نفسها والوسائل نفسها التي

تستخدم في المعركة على الوظيفة الاولى في الحزب والدولة. إن غورباتشيوف لم يجدد الا في نقطة واحدة: لقد جذب الغرب الى موقعه.

قام غورباتشيوف برحلته الاولى الى الخارج ابان وجوده في ستافروبول. عام ١٩٦٦ زار المانيا الشرقية ثم فرنسا في السنة نفسها(٧). وفي ١٩٦٩ ذهب الى تشيكوسلوفاكيا بعد «تطبيعها».

وسنة ١٩٧٢ نجده في بروكسيل ثم ١٩٧٥ في المانيا الغربية و١٩٧٦ مجدداً في باريس. ولم تعرف سفراته هذه الا بعد إنتخابه الى موقع الامانة العامة. وهذا ما يمكن تفهمه جيداً: فقد تنقل غورباتشيوف بصفته عضواً في بعثات، وهو يرى ما يراه الجميع ويبقى رجل جهاز سوفياتي غير معروف.

في ربيع ١٩٨٣ سوف يتغير كل شيء. سيذهب غورباتشيوف الى كندا من ضمن بعثة من مجلس السوفيات الاعلى وقد بدا بوصفه عضواً في المكتب السياسي الشخصية الابرز في المجموعة. اضافة الى انه لفت الانظار لحسن تصرفه: انه يهتم بشغف بما يعرض امامه، يدافع بحزم عن آرائه الشيوعية، ولكنه رغم ذلك يستمع الى محاوريه. وهو قد اكتشف جهله بالقضايا المحلية. وهكذا مثلاً عندما زار مزرعة لتربية الدواجن، طلب الالتقاء بالعمال ودهش عندما علم ان جميع المهام يقوم بها المزارع مع عائلته. وقد نقل عنه مرافقوه تعليقه في هذه اللحظة: «عندنا، هذا لن يحدث قبل خمسين عاماً» (٨).

في حزيران ١٩٨٤، وبعد ان انتخب رئيسا للجنة الشؤون الخارجية في السوفيات الاعلى، ذهب غورباتشيوف الى ايطاليا للمشاركة بمراسم دفن انريكو بيرلينغوير. وقد ادهش محاوريه باعترافه العلني ببعض الشوائب في الاتحاد السوفياتي. وقد اعلن رئيس قسم الخارجية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الايطالي، انطونيو روبي، وكان يتكلم الروسية، انه لاول مرة في حياته يلتقي قائدا سوفياتياً يسمح لنفسه بان يوجه ملاحظات نقدية تطال بلده.

وقد اثبت غورباتشيوف موهبته كمحاور في كانون الاول ١٩٨٤ اثناء زيارة قام بها الى بريطانيا. فالصحافة الانكليزية التي كانت تنتظر رجل جهاز عادياً اصيبت بصدمة وقد كتب مدونو السيرة الاميركيون، عندما خرج غورباتشيوف ورايسا سويا من الطائرة

هو بثوبه الانيق، بابتسامته القريبة من القلب وهي متألقة وتقف فعليا الى جانبه، ذهل الناس في فليت ستريت وحدقت الاعين حتى نهاية الزيارة.(٩) وفي حين لم يكن لخطب غورباتشيوف اي تأثير على البرلمانيين الانكليز الذين ظلوا يرون فيه «نموذجا للموظف السوفياتي وإن اكثر اناقة واشد جاذبية»، بادرت مارغريت تاشر الى تلميع سمعته معلنة: «السيد غورباتشيوف يروق لى. يمكننا القيام ببعض المشاريع سوياً»(١٠).

وما لفت محاورو الامين العام المقبل، تمثل بتلك الصورة البدائية التي يكونها عن الولايات المتحدة. فقد تحدث اليهم عن «المجمعات العسكرية الصناعية» وكان مقتنعا ان رئيس الولايات المتحدة يتلقى التعليمات مباشرة من صانعي الاسلحة.

وقد صرح بهذه الفكرة نفسها في كندا. ويشير رواة سيرة غورباتشيوف الى اهمية لقائه في اوتاوا بالسفير السوفياتي الكسندر اياكوفليف. والواقع ان غورباتشيوف ما ان احتل موقع الامانة العامة حتى استدعى الكسندر اياكوفليف واوكل اليه ادارة الايديولوجيا.

شكل وجود زوجة غورباتشيوف الشرعية الى جانبه عنصرا مهما آخر في زيارته الى بريطانيا العظمى وقد وصفتها المجلة الالمانية الغربية دير شبيغل التي خصصت لها صفحتها الاولى. «بسلاح الكرملين السري»(١١). ومن ذلك الحين ترافق رايسا الامين العام في كل رحلاته الى الخارج وحتى داخل الاتحاد السوفياتي. وربما كان ما يثيره وجودها من حماس في الغرب تعويضا لتأثيرها السيء على رصيد غورباتشيوف في الاتحاد السوفياتي حيث كان يؤخذ عليها إفراطها في الظهور. والواقع ان ذلك لم يكن مألوفا، وربما كان ذلك ما يعطي للسكرتير السابع طابعه المميز. إن ناديجدا كروبسكايا كانت الى جانب لينين، بوصفها بولشيفية عريقة بقدر ما هي زوجته، اما القادة الآخرون لم يكونوا يصطحبون زوجاتهم في المناسبات العامة. إن مرافقة رايسا الدائمة لزوجها اثناء تنقله في ارجاء الاتحاد السوفياتي تدل على الدور الذي تلعبه في حياته، وبما يختص به على ارادة القطع مع التقاليد السوفياتية.

عندما وصلت رايسا غورباتشيوف الى موسكو، بعد ستافروبول حصلت على موقع في الجامعة، حيث بدأت بتعليم الفلسفة. وهي يحق لها ان تطمح الى هذا المنصب كونها

ناقشت اطروحة عام ١٩٦٧ في المهد التربوي في موسكو. وقد كتبتها في ستافروبول حيث كان ميخائيل سكرتيرا اولا في لجنة المدنية. وقد انكبت عليها طوال اربع سنوات، وعنوان اطروحتها: «ظهور خصائص جديدة في الحياة اليومية الخاصة بفلاحي الكولخوزات : ويستدل من مناقشة اطروحتها في المعهد التربوي وليس في جامعة موسكو ان مستواها كان وسطا. إلا أن الكاتب الالماني لسيرة غورباتشيوف الذي اطلع على «ملخص» للاطروحة(١٢) أثنى عليها ثناء عظيماً. وقد كان حاسما: ان مستوى الاطروحة أعلى بكثير من الوسط ويكشف الذهنية المستنيرة التي تتمتع بها المؤلفة، اضافة الى ذهنية زوجها الذي عرف كيف يشجع زوجته لتنجز عملها»(١٣). غير ان الباحث الاميركي ويليام شين الذي قرأ المؤلف الذي طبع منه ١٥٠٠ نسخة في ستافروبول اعتبر «ان اسلوب رايسا ماكسيوفنا دوغمائي وتلقيني الى حد مخيف. وهي تسعى الى تبيان ان مستوى معيشة الفلاحين الروس لم ينِ يرتفع منذ ١٩١٧»(١٤). ومما لاشك فيه ان اطروحة رايسا غورباتشيوف تحفظ الآن مثل العديد من الاطروحات والمؤلفات التي تناولت الحياة والتاريخ في الاتحاد السوفياتي في خزائن المكتبات حيث سيبحث عنها المؤرخون المقبلون في سياق تفتيشهم عن الوثائق. وحاليا ليس لجودة هذه الاطروحة اية اهمية. اذ ما يهم هو كون المؤلفة قريبة من السكرتير العام ولها بعض التأثير عليه. وتثير نكتة سوفياتية هذا التقارب المدهش والمعبر بين الزوجين: ففيما كان يتجول بسيارته في موسكو، رأي غورباتشيوف سكيرا في الشارع. طلب من سائقه ان يتوقف. هز السكير وبدأ يكلمه عن البيريسترويكا. مغتاظا لكون هذا الاخير لم يتكرم ولو بنظرة اليه، صرخ غورباتشيوف بوجهه: «الا تعرف من يقف أمامك؟» إستفاق السكير عندها وقال «لاتؤاخذني ميشا بدون زوجتك لم اتعرف اليك!».

يلحظ موظف في وزارة الخارجية الكندية رافق غورباتشيوف خلال زيارته، ان ضيفه السوفياتي يتعاطى بسهولة مع النساء والاطفال(١٥) إننا لا نملك معلومات خاصة بالنسبة للاولاد، ولكن هنا فيض من الشهادات فيما يتعلق بسطوته على النساء وحسن طالعه معهن. فمنذ اللقاء الاول اعجبت مارغريت تاتشر بالسكرتير العام اعجابا مطلقاً. وفي مقابلة مع مجلة تايم، روت زاسلافسكايا (عضو الاكاديمية) مشيرة الى لقاءاتها بغورباتشيوف في بعض اللجان: «حصل ان جلست الى جانبه. ولا يمكن ان يتخيل الانسان مدى القوة والطاقة اللتين تنبثان منه. انه يتمتع بحيوية استثنائية.

ورغم ان توتره الدائم يبقى ملموساً، يبدو مستمعا جيدا وينتظر بان ينتهي محدثه من الكلام.[١٦] كما ان احدى الفرنسيات التي تتولى مهمة في موسكو اعلنت لمجلة سوفياتية» «إن نساءنا لا يكنن الاحترام له بوصفه فقط رجلا سياسيا»[١٧]. اما دينيس هيلي فيستخدم من جانبه عبارات شاعرية ليصف محاوره. «انه رجل يتمتع بسحر لا مثيل له، صاحب نكتة ، غالباً تطاله هو نفسه. وتمر المشاعر في تعابير وجهه وكانها ريح صيفية على صفحة خليج . وقد بدا خلال المناقشة منفتحا ولينا يحافظ على برودة اعصابه التي تدل على قوة هائلة في سريرته» [١٨]. عندما قدم غروميكو، امام اللجنة المركزية، ترشيح غورباتشيوف الى الامانة العامة، شدد على الميزة المهمة الاتية: قدرته على ايجاد لغة مشتركة مع الناس «وهذا ما لا يملكه جميع الناس كما اشار هذا الذي شغل لسنوات مديدة منصب وزير خارجية الاتحاد السوفياتي. وربما كان الامر مبالغا به. فهو ايضاً يتمتع بهذه الصفة»[١٩]. وفي ١١ آذار ١٩٨٥ ، انتخب ميخائيل غورباتشيوف امينا عاما للجنة المركزية. متحملا «هذه المسؤولية الصعبة»، تعهد السكرتير السابع بان يعمل المستحيل لكي يخدم باخلاص الحزب والشعب والقضية الكبرى التي ناضل لينين من اجلها[٢٠].

إنها بداية عصر جديد. في حزيران ١٩٢٦ ، عندما كان يتكلم ستالين امام عمال سكك الحديد في تيفليس روى سيرة حياته. فهنا في تيفليس كان قد ادار عام ١٨٩٨ نادي للعمال. «هنا. . . اصبحت تلميذ الثورة» وبين ١٩٠٧و١٩٠٩ في باكو وعلى رأس الجماهير العمالية العريضة «اصبح متدرجا في الثورة» ثم اخيرا عام ١٩١٧ «في روسيا وتحت قيادة لينين» اصبح «واحداً من معلمي الثورة»[٢١]. وهكذا بتواضعه رسم الرجل الذي لم يسبقه احد رسميا على لقب الامين العام السبيل الذي اتبعه: تلميذ في تيفليس، متدرج في باكو، معلم في لينينغراد. اما السكرتير العام الحالي فقد إتبع سبيلا آخر للوصول الى القمة: فالنظام السوفياتي يتيح نوعين من الاحتراف. الاول يتقيد بخط مستقيم: انه يسمح للفرد بالتسلق دون ان يغير ميدان نشاطه. اما الثاني فمتعرج.

فقد يبدأ الاحتراف مثلا داخل الحزب، ثم يستكمل في المدار الاداري او الاقتصادي، او في الديبلوماسية. . . إن احتراف اندروبوف مثلا يدخل في النموذج الثاني، حزب، شبيبة، ديبلوماسية، كا.جي.بي.، عودة الى الحزب. اما احتراف غورباتشيوف فمثال عن المسار المستقيم.

مشير الى «تجربة غورباتشيوف الضخمة» في العمل الحزبي عدد غروميكو: «بداية على صعيد المنطقة ثم هنا في اللجنة المركزية كسكرتير في بداية الامر، ثم كعضو في المكتب السياسي»(٢٢). على التوالي اميناً في اللجنة البلدية عن الشبيبة الشيوعية، اميناً للجنة المدنية في الحزب، اميناً للجنة الاقليمية واخيراً اميناً عاماً، وصل هذا النتاج المثالي الصادر عن آلة الحزب التي ابتدعها لينين وطورها ستالين. الى سدة السلطة في آذار ١٩٨٥، اي ٦٨ عاماً بعد الثورة.

الجزء الثاني

الأزمة

«اننا نواجه ازمة داخلية كبرى

من روسيا السوفياتية وربما كانت الاكبر دون شك»

لينين، ١٩٢١

«إن فساد الوضع الداخلي قد يؤدي، ولنقل ذلك بوضوح، الى انفجار ازمة عميقة تطال المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي».

غورباتشيوف، ١٩٨٧

عرض لينين في المؤتمر العاشر اعمق ازمة مر بها النظام السوفياتي مبيناً ضرورة اعتماد سياسة اقتصادية جديدة، اما غورباتشيوف فيبرز البريسترويكا بخطر الازمة الداهم. والواقع انه لا يشير الى هذا «الخطر» الا في كتاب مخصص للخارج.[1] الا انه في الخطاب الذي القاه بعد انتخابه تحدث ايضاً عن «الوضعية التي تسبق الازمة». وبعد ذلك سوف يتحدث هو ومعه العديد من الاعلاميين عن ازمة فعلية عميقة ومفجعة.

الازمة والتاريخ السوفياتي مترادفان فالازمة هي حالة النظام المزمنة، لا لأن هذا الاخير يبدو عاجزاً عن حل المسائل الحيوية فقط، بل ايضاً لان «حالة الحصار» هي الشكل الوجودي الوحيد لنظام الحزب الواحد. ان الارادة القسرية (الارادوية) تتناسب تماما مع الازمات، والمرض المزمن الذي يعاني منه النظام السوفياتي يشرئب عند كل تغيير للامين العام. فالازمة ضرورية للمرشد ليثبت سلطته: عندما بدت الوضعية في البلاد سوية في منتصف العشرينات افتعل ستالين كارثة باجرائه «ثورة من فوق». كانت تلك وسيلته الوحيدة ليصل الى السلطان المطلق.

وتتصف كل من الازمات الداخلية التي تمر بها البلاد (عدا الحرب مع المانيا) بميزات مخصوصة: ١٩٢١، شهدت حرب الفلاحين وقد اضطر الحزب الى التراجع امام غالبية السكان؛ ١٩٢٩ـ ١٩٣٣، شهدت مذبحة الفلاحين اي تصفية آخر الطبقات التي لا يمكن استتباعها بصورة كاملة للدولة، واستكمال استعباد المجتمع. ١٩٥٣ـ ١٩٥٦ تميزت بالبحث عن وسيلة للحفاظ على النظام الستاليني بدون ستالين. ١٩٨٥ـ؟ تشهد محاولة اعادة تشغيل الآلة التي تعطلت. غير ان كل ازمة هي سعي الى تحقيق الهدف الاسمى: تدعيم سلطة الحزب.

وتتميز الازمة التي تؤول الى ميخائيل غورباتشيوف بانها جاءت نتيجة لمرحلة كانت الاهدأ في التاريخ السوفياتي. فخلال ثماني عشرة سنة لم يعرف الاتحاد السوفياتي اي صراع داخلي وقد تمكن من التطور بهدوء نحو القرن الواحد والعشرين. وبالمقابل تميزت هذه المرحلة على الصعيد الخارجي بنزعة توسعية نشيطة جداً. فقد تكونت خلال بضع خمس عشرة سنة «امبراطورية ثالثة» حقيقية. ولم يكن قد تبين قبل هذه المرحلة، حيث

إنتشت القيادة بانتصاراتها وظنت أن بامكانها الدخول الى افغانستان، أن هذا التوسع باهظ للغاية. فحتى ذلك الحين لم يكن قد كلف اي حياة بشرية.

شاكراً اللجنة المركزية على اختيارها له، حيا غورباتشيوف تشيرنينكو «اللينيني المخلص، العضو البارز في الحزب الشيوعي السوفياتي والشخصية المهمة في الدولة والحركة الشيوعية العالمية، الرجل ذو الروح الحساسة والمنظم الماهر. وقطع وعداً على نفسه بان يتابع السياسة نفسها: «لقد ظل الخط الستراتيجي الذي حدد خلال المؤتمر التاسع عشر اثناء الجلسات المكتملة التي تلت ظل وسيظل دون أي تعديل»(٢).

وبعد اسابيع في الجلسة المكتملة التي عقدتها اللجنة المركزية تكلم الامين العام عن ضرورة تخطي الازمة. مما لا شك فيه انه من المستحيل عقد الجلسة قبل شهر نيسان. غير أن هذا التاريخ جاء ولا احسن: اذ لن تتأخر المقارنة بين برنامج نيسان المقدم من غورباتشيوف واطروحات نيسان العائدة للينين والواقع ان لينين صرح بعد عودته الى روسيا في ٤ نيسان ١٩١٧ انه لا بد من الثورة في ظل قيادته. وقد انتظر غورباتشيوف بعض الوقت ثم وصف برنامجه بالثورة.

في٢٣ نيسان ١٩٨٥ آخذا للمرة الاولى الكلام في الجلسة المكتملة للجنة المركزية بصفته اميناً عاماً انتهز غورباتشيوف المناسبة لاظهار مواهبه السياسية، وقد عرض الخطوط الكبرى لاستراتيجيته. وقد أعاد أسلوب التقرير الذي قدمه الى الذاكرة بصورة عجيبة خطب «ستالين الشاب». وكان بوخارين في العشرينات قد لقب السكرتير العام المعين حديثا «الموازن الاكبر». فما من احد كان يعرف كيف يوازن بين الترهيب والترغيب مثلما كان يفعل ستالين في سعيه الى السلطة المطلقة. وغورباتشيوف يقتفي هنا اثره بامانة. فهو يرمي كلمات رهيبة حول ضرورة «ان تتحلى كوادرنا القيادية بمزيد من الدينامية» ولكنه ما يلبث ان يضيف «ان المكتب السياسي يعتبر انه من الضروري لابل من الجوهري الاستمرار بضمان ثبات قيادة الحزب والدمج بشكل متناسق بين المناضلين الشباب والعمال من ذوي الخبرة».

وقد اعرب عن تصميمه على تطوير مبدأ المركزة متمنياً المضي قدماً وبجرأة نحو توسيع نطاق حقوق المؤسسات وطلب التركيز على المبادرة الخاصة غير انه خاف مباشرة «يجب ان لا يخرج اي تنظيم او أي مناضل في الحزب عن دائرة الضبط والمراقبة»(٣).

من الممكن ان يلخص القادة السوفيات البرنامج السياسي الداخلي الذي قدمه غورباتشيوف على النمو الاتي: ١٠ بالمائة تخويف و ٩٠ بالمائة تهدئة وتسكين.

وقد اجرى السكرتير العام جردة حساب مدهشة حول مرحلة بريجنيف، مستخلصاً انها فتحاً تاريخياً: لقد تمكنت الدول الاشتراكية الشقيقة من اقامة توازن عسكري إستراتيجي مع الدول الاعضاء في كتلة الحلف الاطلسي المعادية». وقد القى المسؤولية الكاملة عن التوتر في العالم على «الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة» وعلى الامبريالية التي لجأت هذه السنوات الاخيرة الى تكثيف عملها التخريبي وقامت بتنسيق الجهود ضد الدول الاشتراكية.» وفي الوقت نفسه اتبع غورباتشيوف سياسة اليد الممدودة معلناً» ان المجابهة بين الدولتين «اي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي» ليست قدراً مطلقاً.

اما بالنسبة للشعب، فقد قطع غورباتشيوف هذا العهد على نفسه: «من المهم ان يشعر السوفيات بالتحسن في المستقبل القريب» كما انه اطلق ايضاً اولى شعارات العصر الجديد. وقد نشرت الصحف تقديره تحت عنوان: مبادرة، تنظيم، فعالية. وتظهر في النص بعض النماذج المنمطة التي تكشف طموحاً شخصيا عالياً: اعادة البناء (بريسترويكا) العامل البشري، التسريع... وتعليقاً على ذلك نذكر ان السكرتير العام المساعد الاسبق للامم المتحدة اركادي شفتشنكو الذي اختار الحرية في الولايات المتحدة كتب يوماً في مذكراته: «القطيعة مع موسكو»، انه لو كان ماكيا فيللي يعيش اليوم وسط النخبة السوفياتية لكان تلميذاً وليس استاذاً[٤]. والواقع ان للسكرتير العام الجديد جميع مزايا المعلم.

وتدريجيا قام غورباتشيوف، متدبراً امره دائما ليكون وراء الاعلاميين والخبراء، بالكشف عن عمق الازمة واتساعها الهائل. ملقياً كلمة في ايار، أمام الحفل المجتمع بمناسبة الذكرى الاربعين للانتصار على المانيا، صرح غورباتشيوف انه ما يزال راضيا عن انجازات الشعب السوفياتي. وقد اورد بعض الارقام التي سيسخر منها الصحافيون بعد بضعة اشهر: «إن دخل الفرد ارتفع ستة اضعاف عما كان عليه قبل الحرب. وكذلك اتسعت شبكة المستشفيات والعيادات المتعددة الاختصاصات ودور الحضانة وحدائق الاطفال. اضافة الى كل ما يتعلق بالخدمات العامة... فالمجتمع السوفياتي

اليوم مجتمع ديموقراطي اصيل يقوم على الحفاظ على كرامة المواطن واحترام حقوقه. . .»[٥] وفي الخطاب نفسه قام غورباتشيوف بالثناء على مآثر ستالين ومقدراته العظيمة في خلال الحرب العالمية الثانية، وهذا ما قبض ثمنه مباشرة عاصفة من التصفيق من قبل شخصيات الكرملين.

بدت «الظواهر السلبية»، وهذا ما اطلق على الازمة في بداية الامر ، واضحة بالنسبة لجميع السكان في الاتحاد السوفياتي. ولكن لما كان الكلام المسموح به يقتصر على الانجازات، صورت الازمة بشكل منتظم بمثابة ظاهرة محلية محصورة، ولم يتضح اتساعها الا بعد ان رفعت التحريمات مما ساعد على وضع الاصبع على جرح النظام العميق. وكانت «السوفيتولوجيا» الغربية احدى الضحايا غير المتوقعة لهذا النقد المكشوف الذي يتناول«النواقص» فنادرة هي الكتب التي اعدت عن الاتحاد السوفياتي من قبل اختصاصيين غربيين التي تصمد امام اختبار الغلاسنوست. فحتى الآن كان تقرير خروتشيوف «السري» الى المؤتمر العشرين قد نجح بالقيام بما لم يستطع العديد من الشهود التوصل اليه: الاقناع بانه توجد في الاتحاد السوفياتي معسكرات، وامبراطورية تركز السلطة وان ستالين (فقط ابتداء من ١٩٣٤ بناء على كلام لخروتشوف) اقترف العدد من الجرائم وادى تدفق الوقائع والارقام والشهادات التي بدأت منذ صيف ١٩٨٥ تملأ صفحات الجرائد والمجلات السوفياتية الى تسفيه اعمال الاقتصاديين الغربيين المرتكزة الى ارقام رسمية خاطئة. واقدم بعض علماء السياسة على رفض مفهوم «التوتاليتارية» الذي يستخدمه اليوم الباحثون السوفيات مفضلين مفهوم «المجتمع الاشتراكي التعددي» واشار علماء الاجتماع الى حسنات الطباعة المجانية والمكتسبات الاجتماعية الاخرى. كما اعتمد بعض علماء الجغرافيا الخرائط السوفياتي[٦]. . . ويمكننا ان نضاعف الامثلة. ويصف المؤرخ الاميركي آدم اولام الوضعية بصورة رائعة: «لكل منا نحن الذين ندرس الاتحاد السوفياتي هيكل عظمي مخبأ بين بطاقاته. ولتعريف هذا الهيكل لا بد من ان نتصور شخصين ولا يسعيان الى مزيد من المعرفة حول الاتحاد السوفياتي، اما X فلا يقرأ حول فترة ١٩٣٠و١٩٥٠ الا لمؤلفين محترمين غير شيوعيين. فهو يدرس، بالطبع، تفصيلا اعمال الزوجين ويب webb وجون ماينارد كيينز john maynard keynes. ومتوجهاً نحو الباحثين الاميركيين ينكب على المؤلفات حول القانون في الاتحاد السوفياتي، القانون الجزائي ومختلف اوجه المجتمع السوفياتي،

والمعدة من قبل اساتذة جامعات شيكاغو، هارفارد كولومبيا، ولیامس. وهو يكمل هذه الادبيات الكالحة بقراءة للخبراء بالشؤون الروسية، الاكثر موضوعية من خارج الجامعيين اضافة الى تحقيقات لصحافيين موضوعيين خاصة هؤلاء الذين عاشوا طويلا في الاتحاد السوفياتي. اما زميله Y فهو يشعر برغبة مماثلة للثقافة والعلم غير ان ذوقه مختلف، فهو اقرب الى الميلودرامامنه الى العلم، لذلك فإنه يبحث غير مبالٍ بالموضوعية عن مفاتيح السياسة السوفياتية في نصوص الاعداء المعلنين للنظام، من امثال المانشيفيك القدماء. وهكذا يلتهم بفرح شهادات كوستلر او فيكتور سيرج بما لها من اسلوب روائي، وسابراً اكثر بواطن الامور فإنه يقرأ ايضاً القصص المثيرة البخسة الثمن مثل «كنت ضحية الارهاب الاحمر». وهكذا يخرج عن روعه، مدعيا انه من السهل التقاط بعض ابعاد السياسة السوفياتية من خلال دراسة النزاع بين آل كابوني ودان توريو وهي انجح من التعمق في الصراع الذي دار بين لينين ومارتوف او النقاشات حول «الاشتراكية في بلد واحد». ايهما من هذين الشخصي المفترضين يحتل الموقع الافضل لفهم السياسة السوفياتية ابان حكم ستالين(٧)؟ إن ادم اولام يصف وضعية قديمة. غير ان معاينة المؤرخ الاميركي تبدو اليوم اقرب الى الحقيقة مما كانت عليه قبل ثلاثين عاماً. فمهما بدا الامر مفارقاً، فمن بين هذه الاكداس من الكتب التي تتناول الاقتصاد السوفياتي في العشر سنوات الاخيرة وحده (اويكاد) كتاب آلان بيزانسون صمد اما اختبار الارقام السوفياتية، وذلك لان هذا المؤلف الذي لم يكن عالم اقتصاد اقدم على نقض الاحصاءات السوفياتية(السابقة على عملية كشف الارقام) بوصفها كاذبة وغير عملانية. فهكذا بدا ان خطباء المؤتمر التاسع عشر يستشهدون ببيزانسون عندما تساءلوا مرعوبين: اذا كنا (احصائياً؛ نملك كل شيء لماذا (واقعاً) لا نملك اي شيء؟.

سوف نعود فيما بعد الى الاسباب التي دفعت غورباتشيوف للجوء الى «الغلاسنوست»، هذه الكلمة المفتاح بما يتعلق بالاصلاحات الكبرى التي اجراها القيصر اسكندر الثاني. هاهنا شيء اكيد: ان ما نتج قبل اي شيء عن الغلاسنوست كان الافصاح عن الازمة. فهكذا ظهرت هذه الازمة فجأة وتم الاعتراف بوجودها ـ في كل مجالات الحياة الحاضرة والآتية. ولكن قبل اي شيء في مجال الميدان الاقتصادي.

الفصل الفصل السادس
ماذا نفعل بالاقتصاد؟

«. . . الا في حال حصول تغيرات جذرية، فان اقتصادنا سينهار في اواسط التسعينات، مع كل النتائج التي ستترتب عن ذلك سواء على الصعيد الاجتماعي او العسكري او على صعيد السياسة الخارجية»

فاسيلي سيليونين(١)

بعد موت ستالين، كان انبعاث الادب الدليل الابرز على تحرر النفوس الذي انطلق مع الاذابة الاولى للجليد. وهي ما تزال تغذي عملية الاذابة الثانية في مرحلة الغلاسنوست، غير ان رمز هذه المحاولة التحريرية الجديدة هو من صنع الاعلاميين وقبل اي شيء صنيعة علماء الاقتصاد. إن الصحافيين والباحثين والجامعيين يدفقون الارقام والوقائع والتحليلات على الشعب السوفياتي، ثم تظهر تدريجياً لوحة تبرز كارثة لا سابقة لها وما يذهل اكثر هو ان الازمة تطال بعمق مجمل ميادين الحياة وانها تأتي اثر اربعين عاما لم تشهد اي حرب ولم تكن الازمة التي كشفها ميخائيل غورباتشيوف من حيث اتساعها وعمقها اقل هولا من تلك التي برزت في ١٩٢١ كنتيجة للثورة والحرب الاهلية والسياسة التي اتبعها لينين الذي أراد «بقفزة كبرى» قذف روسيا الى الشيوعية، وتبدو الازمة الحالية من جوانب عدة اخطر من الوضعية التي مر بها الاتحاد السوفياتي بعد انتصار هيتلر وحيث كانت البلاد مدمرة بعد حرب سببت خسائر بشرية هائلة.

اذن اعترف السكرتير العام الجديد ميخائيل غورباتشيوف بالازمة تقريبا بعد

انتخابه مباشرة، وهكذا فتح بعد ان اعطى الضوء الاخضر لاثارة الاوضاع السائدة في البلاد، الباب امام سيل من الارقام والوقائع والافكار. غير انه بدأ برسم الحدود، معينا التأريخ حيث بدأت الامور بالانهيار. ولم تكن هذه المسألة واضحة امامه، والواقع ان حكمه ظل تقريبيا جدا. «الكل يعلم، صرح الامين العام ستة اسابيع على انتخابه، انه في موازاة التقدم في مجال التنمية الاقتصادية في بلادنا، تفاقمت الاتجاهات المعيقة خلال هذه السنوات الاخيرة. . .»[٢] لم يكن غورباتشيوف قد تجرأ بعدعلى القدح بسلفه. ولكن بعد فترة وجيزة بدأ التأريخ يتوضح: « منذ اوائل السبعينات اصبحت الصعوبات ملموسة اكثر في مجال التنمية الاقتصادية»[٣] ثم استخدمت العبارة الاتية: «على المفصلة بين السبعينات والثمانينات»[٤]. وبعد ذلك مستخلصاً الجردة حول سبعين عاما من الحكم السوفياتي، شعر السكرتير العام نفسه مخولا باتهام سلفه بانه مصدر جميع السيئات: «في السنوات الاخيرة من حياة بريجنيف ونشاطه. . . شهدنا تعمق الهوة بين الكلام والافعال وتزايد الآليات السلبية في الاقتصاد التي ولدت وضعية تنذر حقيقة بالازمة»[٥]. ولقد استهل غورباتشيوف كتابه «بيرسترويكا» بنفي ان تكون البريسترويكا قد اتت نتيجة « للكارثة التي وصلت اليها حالة الاقتصاد السوفياتي. . . او لخيبة الامل بالاشتراكية او لازمة الافكار التي تدعو اليها»[٦]. غير انه اعترف بعد ذلك بان البلاد وجدت حوالي الثمانينات في «وضعية لم تكن بسيطة»[٧] وان وتائر النمو بدأت في النصف الثاني من السبعينات تضعف بصورة جدية، وفيما كان الاقتصاد يقترب اكثر فاكثر من التيار الذي يشده الى الهاوية كانت المصاعب تزداد عدداً وحدّة اضافة الى المشاكل غير المحلولة التي لم تتكاثر[٨]. وبعد عام صرح غورباتشيوف منوهاً بضرورة «اعادة بناء تطال اسس العلاقات الاقتصادية في الارياف»: «اننا نعاني هنا من تأخر يصل الى عدة عشرات من السنين»[٩].

إن تأريخ بداية الازمة هو الشرط الضروري لوعي اسبابها والوسيلة الوحيدة لحل «المشاكل العالقة». لقد اختار غورباتشيوف بداية الحل الاسهل، الحل التقليدي بالنسبة لجميع الامناء العامين: تحميل مسؤولية كل شيء للامين العام السابق. في الوضعية الحالية يبدو هذا الحل جذابا خصوصا انه يطال جانبا من الحقيقة. فمن السهل على المرء انتقاد سياسة بريجنيف، ان يحاكمها ويتنكر لها، خاصة ان هذا الامر لا يتجاوز اطار التقنية السائدة. فستالين اتهم رفاق لينين بخيانة المعلم. وخروتشيوف

اخذ على ستالين كونه ارسى «عبادة الفرد» ، فيما نال بريجنيف من خروتشوف متهماً إياه بالارادوية. وبدوره بريجنيف هو الآن موضع الاتهام ، لسياسته التي ادت الى «الركود» ولا يسمح اتهام السلف بتحميله جميع المشاكل المزمنة التي تنخر البلاد فقط، بل باقحام رفاقه ايضاً باعتبارهم لم ينجزوا عملهم كما يجب أولم يكونوا على مستوى المسؤولية. ويشكل ذلك بالنسبة للخلف سلاحا فعالا، او أداة «للتطهير» ولاستبدال كل هؤلاء الذين اصبحوا بلا رأس، «بأصدقاء موثوقين». ولهذا النظام شائبة واحدة. وهي أن السكرتير العام الجديد كان لزمن طويل خادماً اميناً للسكرتير السابق الذي يتعرض الآن للاهانات. فهكذا عمل خروتشيوف مثلا لعشرات السنين مع ستالين وبريجنيف مع خروتشيوف وغورباتشيوف مع بريجنيف. غير ان هذه الشائبة تبقى على المستوى الاخلاقي، ويسهل لذلك تجاوزها. لقد انتقد غورباتشيوف، مثلا، بجرأة عالية «العلاقات الاقتصادية في الارياف» متناسيا هكذا انه بين ١٩٧٨و١٩٨٥ كان مسؤولا بصفته امينا للجنة المركزية، عن الزراعة، وانه كان راضيا تماما عن هذه «العلاقات».

لقد اعطى خروتشيوف تفسيرا مقنعا جدا عن اخلاصه لستالين عازياً اياه الى الخوف. فأقل كلمة تنال من سياسة ستالين ـ هذا ناهيك عن الاتيان بأية حركةـ كان ثمنها المحتوم المعتقل او الموت اما غورباتشيوف من جانبه فلم يشرح ابداً سبب اخلاصه لسياسة بريجنيف. وقد تطرأ بوريس يلتسن، «الرجل الجديد» لغورباتشيوف الذي اتى به هذا الاخير من سفردلوفسك الى موسكو، الى هذه المسألة في مؤتمر الحزب السابع والعشرين، فمنتقداً دون رحمة الوضع السائد في البلاد والحزب ـ نتيجة ادارة بريجنيف. وقد اشار بحق الى أن «المندوبين ربما سيسألون لماذا لم أقل كل هذه الامور اثناء المؤتمر السادس والعشرين للحزب؟» وقد اجاب عن ذلك «بصدق» (وقد شدد على هذه الصفة) «بصراحة لم تكن لدي الجرأة. . . »[١٠] والواقع ان هذا الجواب صادق دون اي شك. فقد كان مثل غورباتشيوف يخاف بريجنيف. لا لأن توجيه النقد الى سياسته كان ليجلب لهما النفي او الموت، بل لانه كان ليؤدي حتما الى خسارة موقعهما، اي الى نهاية احترافهما. إن تأريخ بداية الازمة يظل عنصرا مهما لفهمها، ولكنه لا يكفي. فالنقطة الاساسية الاخرى تكمن في تعيين ماذا حصل تحديداً. لقد عدد غورباتشيوف مؤشرات الازمة، علائم هذه الوضعية التي، ولنستخدم هنا تعابيره، « قد

تؤدي الى انفجار ازمة عميقة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي»[١١].

وقد أشار الى بروز «ظواهر ركود»، و«آلية كبح للعنصر الاجتماعي ـ الاقتصادي» واعترف بأنه «قد حصل شيء شديد الابهام لا يمكن تفسيره من النظرة الاولى»[١٢] الا ان التفسير الذي يعطيه بعد «نظرة ثانية» اي بعد تفكر ناضج يبقى بدوره ملغزا» كنا نعتقد اننا ندير الوضع بينما الذي حصل في الواقع هو ما كان لينين قد حذرنا منه: فالآلة لا تتجه الى حيث يتصور من يقودها»[١٣]. ويبدو الرجوع الى لينين في هذا الاطار ذا اهمية استثنائية. فغورباتشيوف لا يورد قوله بدقة. وقد كان من السهل ايجاد عبارة لينين رغم ان احدا لم يشر اليها منذ عشرات السنين. لقد اكتشف لينين فجأة بعد عام تماما على اعتماد السياسة الاقتصادية الجديدة {N.E.P}، في المؤتمر الحادي عشر للحزب، ان آلة الدولة السوفياتية لا تسير بالاتجاه الصحيح» «الآلة تنفلت منا. فكما أن رجلا يقودها وهي لا تسير بالاتجاه الذين يريد. إن شيئاً ما يسيرها بطريقة مشروعة او غير مشروعة، شيء ما لا نعرف من اين اتى... الآلة لا تسير تماما كما يجب، واحيانا بصورة مختلفة كليا عما يتصوره من يمسك بالمقود»[١٤]. ويأخذ هذا الاعتراف اهمية اكبر عندما نعلم ان صورة هذه الآلة المجنونة، التي تسير الله اعلم الى اين وبمشيئته ارادة عجيبة، او يد غير شرعية، تبادرت الى ذهن مرشد الثورة خلال قراءته لمقالة بعنوان «وضعية مأساوية» نشرت عام ١٩١٥. وقد كان لهذه المقالة اثر عميق وقد ذكرت مرات عديدة. اذن فان يتذكرها لينين بعد سبع سنوات لا يعتبر امرا مدهشاً. اما مؤلفها فاسيلي ماكلاكوف وهو محامي شهير واحد قادة الحزب الدستوري ـ الديموقراطي فقد كتب: «تجري في سيارة على طريق ضيقة متعرجة، انحراف واحد... وهي النهاية... وفجأة تكتشف ان سائقك لم يعد قادراً على القيادة اما لانه لم يتحكم بالسيارة او لان التعب قد اضناه الى درجة انه بات لا يدرك افعاله وفي الحالين فهو يقودك الى الهلاك، واذا استمر على هذا النحو فإن الموت يصبح محتوماً»[١٥].

هكذا في خضم الحرب، في زمن اكبر الهزائم التي عرفها الجيش الروسي كان فاسيلي ماكلاكوف يتساءل عن كيفية السلوك في ظل «وضعية مأساوية»: هل من المفروض ان يؤخذ المقود من يد السائق. بعد ان اصبح عاجزا عن التحكم بالسيارة؟ لقد تذكر لينين هذ الصورة عندما كان هو نفسه على المقود ولم يفهم لماذا ترفض الآلة اطاعته وتخضع ليد عجيبة «غير شرعية». ونحن نعلم انه استخلص وجوب استبدال هذه اليد الخفية بيد

ظاهرة شرعية. في الجلسة المكتملة التي تلت المؤتمر الحادي عشر انتخب جوزيف ستالين امينا عاماً. وبعد ستين سنة سيفتح امين عام جديد عينه ليرى ان الآلة التي ما تزال بقيادة الحزب ما تزال ايضا على شفير الهاوية.

واذا كان ماكلاكوف ولينين قد تصورا «الوضعية المأساوية» على هيئة «سيارة فلتانة» فان لغورباتشيوف رؤية اخرى. «ان لوحة غريبة جدا بدأت ترتسم ، كتب عام ١٩٨٧ في «بيريسترويكا»، إن الدولاب الضخم يدور في الآلة الجبارة غير ان «ناقل الحركة» يتزحلق، او ان الاحزمة ضعيفة جداً»[١٦]. إن صورة «الدولاب» و«الاطار» اللذين يؤمنان الاشتغال المنتظم للمجموع تلاحق ميخائيل غورباتشيوف. ففي تشرين الاول ١٩٨٥ ، واثناء زيارته لمسرح الفن قطع السكرتير العام المنتخب لتوه وعداً للمخرج اوليغ افريموف قائلا: «انتظروا قليلا ساطلق العجلة وحينها. . .» وفي تموز ١٩٨٦، وخلال دردشة مع سكان منطقة ساحل بريمورسكي قال غورباتشيوف شارحاً: «على كل منا من موقعه ان ينمي روح المسؤولية والانضباط والابداع والانتاجية. حينها يمكننا تحرير عجلة المحرك السوفياتي»[١٧] وفي خريف ١٩٨٧ ، بادر الامين العام الى تشجيع سكان مورمانسك: «اننا نعترف بصدق بان الامور ستكون صعبة لبعض الوقت. ولكن اذا استطعنا ان نحرر الآلية، حينها، واقولها لكم، سوف يعود ذلك على بلادنا بفوائد عديدة»[١٨]. وفي نفس الحقبة تقريباً ،كتب غورباتشيوف تعبير بيريسترويكا حيث كان عنوان أحد الفصول «عجلة البريسترويكا تتسارع»[١٩] وفي اواخر ١٩٨٧، بدأت العجلة تدور في البيريسترويكا. وفي ربيع ١٩٨٨ وبمناسبة الذكرى الثالثة لتسلمه السلطة سيجري غورباتشيوف جردة حساب حول انجازاته في خلال حديثه مع بعض عمال موسكو: «لقد مر ما يقارب الثلاث سنوات منذ جلسة نيسان. كانت الاوضاع قاسية. ولكن عندما سيتحرر الدولاب سوف ينطلق كل من جديد. .[٢٠]».

هذه العجلة الوسواس التي تبرز وكأنها لازمة في خطب غورباتشيوف، تجعلنا نفكر بان السكرتير يتخذ في مواجهة «الوضعية المأسوية» موقفاً مختلفا عن موقف لينين سنة ١٩٢٢ فمرشد الثورة صعق من جراء ما اقدمت عليه السيارة التي يقودها من تصرفات عجيبة، وهو لم يكن يفهم لماذا كانت تعطي اوامره. وحينها اي قبل اشهر على تحكم المرض نهائيا به، بدأ لينين يشكك بالسائق نفسه. اما غورباتشيوف فمقتنع انه سائق جيد. وهويتسأل فقط لماذا يجري نقل الحركة ببطء في «الآلة الجبارة». فهو لا

يضع اذن قوة الآلة او امكانياتها غير المحدودة، على بساط البحث. اذ يكفي ان تحرر الآلية كما يقول، اي المسألة تحل «بالدفع»و«التسريع». كان لينين يشكك بنفسه، اما غورباتشوف فمقتنع ان الذنب يقع على الآخرين.

غير ان شيئا يبقى واضحا بالنسبة له وهو ان «الوضعية مأساوية». وقد اثيرت هذه المسألة مباشرة بعد موت بريجنيف. لقد كان اندروبوف اول من تكلم عن «المشاكل العالقة» التي لا تحصى، والتي تراكمت في ظل ادارة سلفه. اما غورباتشيوف فيذهب الى ابعد من ذلك.

هذا الرجل الذي تميّز بصغر سنه كان يحدث احد الصحافيين عن« الصدمة» التي اصيب بها جيله عندما اعلن ستالين في ١٩٣٦ ان الاشتراكية «قد انجزت بخطوطها العريضة في بلادنا» وقد كشف الرجل قائلا: «حتى انا، ورغم اني لست حساساً، انفجرت بالدموع» ـ من الفرح؟سأل الصحافي ـ من الفرح! قالها الرجل مستنكراً. كنت عائدا من الريف. مررت بمنطقة فياتكا، وهي قرية منسية في عمق الغابات دون طريق، قرية مقطوعة عن العالم. في الاسبة (البيوت الخشبية) كان الوسخ ملكاً، و«الصراصير» تسرح وتمرح، ولفقدان النفط كان لا بد من العودة الى مشغل النشارة. والواقع اني لم اعر ذلك اي انتباه اذ كانت امامي منارة وهي هذا المستقبل المشرق الذي نبنيه بايدينا. ولا بأس اذا كان علينا ان نعمل من كل قوانا لخمس او عشر سنوات: سوف نصل الى اهدافنا! وفجأة قيل لي ان كل ما يحيط بي هو الاشتراكية طبعا التي ما تزال في مستوى «الخطوط العريضة» لم اشعر ابداً في حياتي سواء قبل ذلك او فيما بعد بمثل هذه الخيبة، وهذا الاسى الذي اصابني»(٢١).

لقد مضى نصف قرن. وقد بنيت الاشتراكية بصورة نهائية. وقد اصبحت، انطلاقا من تحديدات خبراء الماركسية اللينينية، «متطورة»، «ناضجة»، في تموز ١٩٨٨ لاحظ غورباتشيوف ان التغير في الريف لم يشمل الا اشياء قليلة. «الواقع هو اننا نحتاج الى برنامج وطني لبناء المساكن والمدارس والمستشفيات والطرقات والخدمات البلدية واليومية في الارياف وهي التي لا يمكن للانسان الحديث ان يعيش بدونها او ان يعمل بصورة طبيعية»(٢٢). والمشكلة هي ان الوضع في المدينة لا يقل سوءاً. ويأخذ تعدد التغيرات والسيئات، والنواقص، وقلة المواد. وفقدان السلع، في خطب

غورباتشيوف ابتداء من الخطاب الاول الذي القاه بصفته امينا عاما حيزا يتسع بشكل متزايد. وهو يحاول ان «يوزن» الامور، مستحضرا النجاحات الحقيقية (التعادل الاستراتيجي العسكري مع الولايات المتحدة او الموهومة ازدياد استهلاك اللحوم). غير ان ضرورة البريسترويكا التي يبشر بها ويجعل منها محورا لسياسته، تبطل اية محاولة لتبيان نوع من التعادل بين المنافع والمضار. ويلخص المؤرخ يوري افاناسييف الوضعية على النمو الآتي: «ليست قضية سهلة ان نصل الى استنتاج يقول إنه لا بد لنا بعد٧٠ عاماً من البناء، من اعادة بناء تبدأ من الاساسات»[٢٣].

تبدولائحة السيئات التي ذكرها الامين العام وكأنها لا نهاية لها، فهي تطال فعليا جميع ابعاد الحياة والانشطة السوفياتية. تبدو البنية الانتاجية بالية: «معلوم مثلا اننا اهم منتجي الصلب غير اننا نعاني من نقص مزمن في المعادن... كما ان حصة الانتاج من المواد البلاستيكية والسيراميك والمواد الحديثة الاخرى غير المعدنية ليست كبيرة جداً...»[٢٤].

والانتاج الفعلي لا يبدو صالحا، إنه من نوعية ردئية جداً: «فاننا نعاني من تأخر فعلي من ناحية الصلاحية خاصة فيما يتعلق بما يسمى اجمالاً بالنوعية...»[٢٥] وكذلك فأن التجهيزات «لا تتناسب مع المتطلبات الحديثة للتقدم»[٢٦]. في ١٩٨٨ أدلى غورباتشيوف بتصريح جاء فيه: «آخذين بالاعتبار الدخل القومي، يمكننا القول إن بلادنا ما تزال اليوم تسرف في استهلاك المحروقات والطاقة الكهربائية والمعادن»[٢٧] وقد شدد على «ما تزال اليوم» كونه بدأ باثارة هذه المسألة منذ خطبة الاولى. وهكذا فإن غورباتشيوف لم يتوقف عن تكرار لائحة المساوىء التي تصيب البلاد متنقلاً من الاقتصاد حيث الامور سيئة، الى حياة العمال حيث تبدو اسوأ: «لم نستطع تحقيق الطاقة الكامنة في الاشتراكية سواء في مجال تحسين اوضاع السكن والتموين وتنظيم النقل والعناية والتعليم او بالنسبة لحل المسائل الحيوية الاخرى». وهذه «المسائل الحيوية الاخرى»[٢٨]. نجدها منفصلة في خطب اخرى: تمييز في تطبيق القوانين، إفساد، إدمان على الكحول، «الظلامة الاجتماعية» التي تقضي الى إزدياد البؤس وتعميق الهوة بين الاغنياء والفقراء.

وضمن هذه الاجواء كان علماء الاقتصاد يتزاحمون على ابواب الامين العام المفتوحة على مصراعيها، يأتون مزودين بالتفاصيل لتقديم وصف جذاب عن الاقتصاد

السوفياتي. وتبدو ارقامهم الشديدة البلاغة مرعبة الى درجة ان السي. اي، اي، التي تؤسس تحليلاتها وتوقعاتها على الاحصاءات الرسمية لم تجد فيها اية مصداقيه متينة. ويستند تقريرها في هذا المجال على حكم آبل اغانبيغيان ـ احد مستشاري الامين العام بان الاقتصاد السوفياتي لم يعرف اي نمو في خلال ١٩٨٠ ـ١٩٨٥، مبالغ فيه ويأخذ التقرير على الارقام التي يقدمها اغانبيغيان كونها ذات «صبغة سياسية»، وهي وليدة رغبة «بالتشديد على غورباتشيوف مقارنة مع اسلافه[٢٩] ولكن لما كان لكل شيء في الاتحاد السوفياتي صبغة سياسية فإن الاشارة الى هذه الناحية لا تأتي بجديد. بل ربما كان بإمكاننا هنا ان نتكلم عن الصبغة السياسية التي تلون احكام السي. اي. اي. CIA. ذلك أن ابل اغانبيغيان بدأ بالاشارة الى تأخر الاقتصاد السوفياتي منذ ١٩٦٥، الا ان آراءه لم تكن متداولة الا ضمن حلقة ضيقة من ذوي الاختصاص[٣٠]. وفي ظل غورباتشيوف لم يطرأ على الوضعية اي تحسن: عام ١٩٨٧ بلغ نمو الدخل القومي ٣,٢٪ مقابل١,٤ في السنة السابقة[٣١]. اما في الفصل الاول من١٩٨٩ فيبدو انها تجاوزت ب ٥٪ ما كانت عليه في الفصل نفسه من ١٩٨٨، وب ١,٢ للفصل الثاني وبصفر بالمائة للثالث. وقد علقت الايكونوميست اللندنية على هذه الارقام الرسمية مشيرة الى وجوب الاخذ في الحسبان المبالغة التقليدية في التقدير، والتي تتراوح بالنسبة للاحصاءات السوفياتية، التي تأخذ في الاعتبار التضخم الخفي، بين ٢ و٣ بالمائة[٣٢].

وخلال صيف ١٩٨٩ ابدت البرافدا الملاحظة الآتية: «البريسترويكا الاقتصادية في بلادنا منذ خمسين شهرا. وهي فترة يفترض ان تكون كافية لاستنهاض بلد دمرته الحرب، وللتغلب على الازمات الكبرى ولانتشال نظام التسليفات من غرق مميت. الا ان نظامنا المالي والازمة الاقتصادية في بلادنا يتعايشان مع الكارثة»[٣٣]. وفي خريف العام نفسه اقر نائب رئيس الوزراء، المسؤول عن الاصلاح الاقتصادي ليونيد ابالكين بأن: «الوضع الاقتصادي (في بلادنا) لم يزل يتفاقم شهرا بعد شهر»[٣٤]. واليوم يتحدث علماء الاقتصاد عن الوضعية الواقعية السائدة في البلاد. يلحظ مثلا نيكولاي شميليوف «ان الاقتصاد السوفياتي لم يتقبل بعد التقدم العلمي والتقني. فالصناعة ما تزال تلفظ ٨٠٪ من القرارات والابتكارات التقنية المعتمدة»[٣٥]. ويروي احد اكبر علماء الفيزياء السوفيات الاكاديمي فيتالي غينزبورغ قصة تشبه قصص الجن وهي انه

خلال احدى زياراته للولايات المتحدة رأى في سيارة احد اساتذة شيكاغو التي كانت تقله هاتفاً يؤمن الاتصال بأي نقطة من اوروبا او الولايات المتحدة. «رأيته بأم العين»، قالها الاكاديمي مؤكداً انطلاقا من سلطته العلمية حدوث الاعجوبة[٣٦] ربما كان المواطنون السوفيات يجهلون الارقام التي تبين تناقص انتاج المواد الاستهلاكية، الا انهم كانو يعيشونها كل يوم على حساب رفاهيتهم. اما الان فتتوفر لهم الاحصاءات: في ١٩٢٨، كان نصيب المواد الاستهلاكية من الانتاج الاجمالي ٦٠,٥٪ اما في ١٩٤٠، فتدنت الى ٣٩٪ وفي ١٩٨٠ الى ٢٦,٢٪ وهي ما تزال في تدن مستمر[٣٧].

الا ان الصناعة السوفياتية يمكنها، رغم مرضها الخطير، ان تتباهى ببعض النتائج: مثلا بنجاحاتها الباهرة في مجال الفضاء، رغم الاكلاف الهائلة التي يتطلبها هذا المجال والتي تبقى طي الكتمان، لا يشير اليها حتى اشد الاعلاميين جرأة. او بانها اكبر منتج للأحذية في العالم، حتى وان «لم يكن، كما يلحظ احد علماء الاقتصاد، شيء في المخازن يمكن شراءه»[٣٨]. اما الزراعة السوفياتية المصابة بمرض مميت فليس لها ما تتفاخر به. ورغم ذلك، وبمناسبة الذكرى الستين للثورة، لم يمتنع ميخائيل غورباتشيوف عن الاعلان عن رضاه: «لقد نجحنا في حصاد اكثر من ٢١٠ مليون طن من الحبوب. انها نتاج الجهود الهائلة التي بذلها شعبنا، هذه الجهود التي عرف حزبنا كيف يوظفها باسلوب جديد!»[٣٩] الا اننا حين نتذكر ان البرنامج الغذائي في الاتحاد السوفياتي الذي أقر في ١٩٨٢ يقضي برفع المحصول السنوي، خلال الخطة الخمسية الحادية عشرة الى ٢٣٨ ـ٢٤٣ مليون طن والى ٢٥٠ ـ٢٥٥ مليون[٤٠] خلال الخطة الثانية عشرة (١٩٨٦ ـ ١٩٩٠)، نكتشف ان ما حققته «جهود» الشعب والحزب الهائلة، يبدو نسبيا متواضعا، خاصة اذا اخذنا في الاعتبار، انطلاقا من كلام السكرتير العام نفسه، الخسائر الناتجة عن نقل وتخزين وتحويل المحاصيل والتي تصل الى ٢٠ أو ٣٠ بالمئة[٤١]. والواقع أن رغيفا من اثنين يستهلكان في الاتحاد السوفياتي ـ هذا البلد الذي يتصرف باكبر مساحة من الارض الصالحة للزراعة في العالم والذي ينتج ١٦ ضعفا من الحاصدات ـ الدارسة اكثر مما تنتجه الولايات المتحدة ـ «تأتي من الخارج»[٤٢] في حزيران ١٩٨٩، اعلن الوزير الاول ريجكوف في مؤتمر منتدبي الشعب، ان الاتحاد السوفياتي سينفق ٨ مليارات دولار لشراء ٤٤ مليون طن من الحبوب، و ٢٥ بالمائة من حاجة البلاد الى الزيوت النباتية.

الجزء الثالث

وضع ثوري

« لن يكون هناك ثورة ، لأن ثورتنا كانت الأخيرة» .

ايفني زمياتين ، نحن الآخرون .

عندما كان بطل الحكايات الروسية الشهير إيفا نوفيتش الغبي يجد نفسه في مواجهة وضعيةصعبة، قد تدفعه الى السقوط، كان يأتيه أحد الحكماء ليمد إليه يد المساعدة، قائلاً له: إن تعاستك ليست إلا نصف تعاسة. فالوضع المأساوي للاقتصاد السوفياتي، الذي جعله متخلفاً عن ركب القرن الحادي والعشرين، ليس إلا «نصف تعاسة»، أي مجرد مظهر خارجي لأزمة بنيوية عميقة.

ففي صيف عام ١٩٨٦، شبّه غورباتشيوف، مدفوعاً بضغط الظروف التي تزداد تعقيداً، «البريسترويكا» بالثورة: «أضع علامة تعادل بين كلمتي بريسترويكا وثورة، هذا ما أعلنه في كاباروفسك»[١] فخلال نصف قرن، لم تكن كلمة ثورة ترد في القاموس السياسي السوفياتي إلا للتدليل على انقلاب قام به الحزب الشيوعي في بلد رأسمالي. أما بالنسبة للنظام السوفياتي، فإن الكلمة استخدمت آخر مرة من قبل ستالين، للاشارة الى «المنعطف الكبير» الذي تمثل في عملية التأميم باعتبارها «ثورة من فوق». أما غورباتشيوف، فقد تكلم عن «ثورة حقيقية في نظام العلاقات الاجتماعية، في العقول والقلوب، في سيكولوجية وفهم طبيعة المرحلة الراهنة، وقبل كل شيء، طبيعة المشاكل الناجمة عن التطور العلمي والتقني»[٢]. إن التحديد الذي أعطاه للتغيرات الآتية بقي غائماً ويطرح كمية من الاسئلة. فمن الواضح، أن السكرتير العام لا يدرك حقيقة ما هو عليه. فبعد كاباروفسك، يبدو أنه قد تراجع، مكتفياً بالحديث عن« التحولات النوعية العميقة الجارية في مجتمعنا»[٣]، ويمكتنا القول الثورية أي إننا نستطيع استخدام هذه الصفة، كما نستطيع استخدام صفة أخرى. وبالرغم من ذلك، تصدح في كل مداخلة للأمين العام «موسيقى الثورة». ولا يكف عن ترداد: «ان البريسترويكا، هي ثورة دون طلقة نار، ولكنها عميقة، وجدية»[٤]؛ يلزمنا «تحولات ثورية»[٥]؛ «أملنا في التطهير الثوري والنهضة»[٦]. وهو يعلن مناشداً «جميع البلدان والعالم»: «إن البريسترويكا هي الثورة»[٧]. ويطمئن الجمهور قائلاً: «إنها الأكثر سلماً والأكثر ديمقراطية»[٨]، ولكنها ثورة.

يدرك الأمين العام أن تعبير الثورة يرعب المواطنين السوفيات، الذين اعتادوا منذ

زمن طويل على أن فكرة حدوث ثورة في الاتحاد السوفياتي غير ممكنة، لأن الثورة الأخيرة والناجحة قد حدثت. كذلك فإن كلمة إصلاح تثير الخوف: فتعبير «التيار الاصلاحي» من التعابير الأشد مقتاً في القاموس السياسي؟ فمنذ عشرين عاماً، حدد موجز القاموس السياسي التيار الاصلاحي باعتباره «تياراً في الحركة العمالية، انتهازياً، اشتراكياً يمينياً، معادياً للماركسية اللينينية وللمصالح الأساسية للبروليتاريا...»[٩]. ولستة أعوام خلت، بقي التيار الاصلاحي عبارة عن «اتجاه داخل الطبقة العاملة، يرفض ضرورة الصراع الطبقي... ويهدف الى تمويل الرأسمالية الى مجتمع، الرفاه المصمم»[١٠]. وفي عام ١٩٨٧، اكتشف غورباتشيوف أن لينين لم يكن يخاف من استخدام هذه الكلمة، بل أوصى بها البلاشفة، «عندما تشترط تطورات القضية الثورية ذلك في ظروف جديدة»[١١].

إذاً الثورة دون طلقة، هي عمل جاد. والأسباب الموجبة متوفرة لقيامها. فالثورة تتلازم مع حدوث أزمة اجتماعية عميقة. ففي عام ١٩٨٤، وبعد انتخاب ك. تشيرنينكو الى منصب الأمين العام، نشرت مجلة فوبروسي ايستوري (قضايا تاريخية) مقالة حلل فيها إ. امباركزوموف أسباب الأزمة في البلدان الاشتراكية، كذلك الوضع في الاتحاد السوفياتي. فقد رأى الكاتب أن السبب الرئيسي من بين هذه الأسباب (منذ عام ١٩٢١، حيث وجد لينين مخرجاً في سياسة NEP) يكمن في أزمة السلطة التي ترتكب الأخطاء أو تمارس عن وعي سياسة معادية لمصالح العمال[١٢]. رداً على هذه المقالة، أدان العضو المنظر في اللجنة المركزية للحزب بشدة، «أخطاء» أمبارتزوموف، واعتبر كافة الأزمات في البلدان الاشتراكية (بدءاً من أزمة ١٩٢١) مجرد نتيجة لأعمال «عناصر يمينية إنتهازية»، مدعومة عادة من قبل «الرأسمالية العالمية». حتى إن مجلة كومونست رفضت تعبير «أزمة في ظل الاشتراكية»، معتبرة «أن لا وجود لأزمة اشتراكية» بما هي «نظام اجتماعي مكتمل»[١٣]، في الاتحاد السوفياتي منذ عام ١٩٢١، وفي هنغاريا منذ عام ١٩٥٦، وفي تشيكوسلوفاكيا منذ عام ١٩٦٨، وفي بولونيا منذ عام ١٩٨٠، لقد كانت الحجج المعروضة مقنعة الى حد أن مجلة فوبروسي ايستوري اعترفت بصحة النقد وبالتالي بأخطائها[١٤]. وبعد ثلاث سنوات، قبل غورباتشيوف بأن «المجتمع الاشتراكي عرضة، هو أيضاً، لظهور وتراكم عناصر ركود، أو لأزمة اجتماعية سياسية عميقة»[١٥].

لقد أضحت الثورة التي أطلقها غورباتشيوف ضرورية، على حد تعبيره، من أجل تجاوز الأزمة. مقتنعاً بقدرته على حل جميع المشاكل، ما أن يباشر بتنظيم «ثورة من فوق»(١٦) وتضمنت المقالات التي كتبها نيكولاي شمليوف أفكاراً عديدة، استعادها غورباتشيوف وطورها لاحقاً، وهي ترسم وضعية الاتحاد السوفياتي في بداية العام ١٩٨٨، وفق صورة مقلقة: «أن وضعاً ثورياً قد اكتملت عناصره في البلد. و «القمة» لم تعد تستطيع أن تحكم، و «القاعدة» لا تريد أن تستمر بالعيش وفق ما كان سابقاً»(١٧).

يحتل تعبير «وضع ثوري» مكانة رئيسة في القاموس السياسي للينين. فهو يشير الى مجموعة الشروط الموضوعية، الضرورية لأحداث ثورة اجتماعية. فقد ميّز لينين بين ثلاثة مؤشرات دالة على «وضع ثوري»: «القاعدة لا تريد» و «القمة لا تستطيع» العيش كما في السابق؛ وبذلك نشهد فجأة تفاقم بؤس وفقر الطبقات المغلوبة؛ والجماهير، المدفوعة للعمل، إما بسبب ظروف الأزمة أو من قبل «القمة»، تجد نفسها في حالة حركة فعلية. ولكن لينين يضيف، معتبراً أن «الوضع الثوري» لا يؤدي الى حدوث الثورة بشكل آلي. فهناك الشروط الذاتية، وقبل كل شيء، قدرة «القاعدة» على القيام بالأعمال الثورية المناسبة من أجل تحطيم آلة الدولة القديمة(١٨). ولا بد بالمحصلة، وعلى ضوء الوضع، من استباق الثورة: لتنجز «من فوق»، قبل أن تبادر «القاعدة» الى اطلاقها. فعندما وصل ألكسندر الثاني الى العرش في عام ١٨٥٥، برر ضرورة تحرير الفلاحين وإجراء الاصلاحات بالرغبة في تجنب ثورة «من تحت». ونجد أن غورباتشيوف قد استعاد الحجة ذاتها، ففي مقابلة أجراها معه المؤرخ الأميركي جايمس بلنغتون في حزيران ١٩٨٨، أشار الى بطرس الأول وألكسندر الثاني، معتبراً أن ما قاما به من إصلاحات يشكل نموذجاً ممكناً لبرنامجه الخاص(١٩).

الفصل السابع
«القمة لم تعد تستطيع».

شكّل الوضع الراهن لـ «القمة» المؤشر الأول لوضع ثوري، كما صاغه لينين: عجز الطبقات القائدة عن الحفاظ على سلطتها، أزمة في «القمة» تأخذ أشكالاً مختلفة، أزمة السياسة التي تمارسها الطبقة القائدة.. وسواء استعملنا تعبير «طبقة» أو «نومانكلاتورا»، كما يفعل اليوم الناشدون السوفيات، فإن ذلك لا يمس صحة الصيغة: فالمجموعة الحاكمة في الاتحاد السوفياتي لم تعد قادرة على «الحفاظ على سلطتها». فمسألة السلطة، التي بدت منذ زمن طويل وكأنها قد وجدت حلاً نهائياً لها في الدولة الاشتراكية الأولى في العالم، حيث تنص المادة السادسة من الدستور على اعتبار الحزب الشيوعي السوفياتي «القوة القائدة»، و «نواة النظام السياسي» التي توجّه وتشرف على كل شيء، قد أصبحت فجأة مطروحة على بساط البحث.

تكمن خصوصية الأزمة في استمرار الحزب بامتلاك اليد العليا في البلد. ففي عام ١٩٨٥، لم يكن هناك من وجود لمن يطرح «الدور القائد» للحزب للنقاش؛ ذلك أنه يمثل «نواةالنظام السياسي». ان انتخاب تشرنينكو المريض، لمنصب الأمين العام، ثم انتخابه سريعاً كرئيس لمجلس السوفيات الأعلى، وأفول نجمه بطرفة عين، أدّى الى نوع من استفاقة وعي. فجأة تم اكتشاف أن الحزب الكلي القدرة، تقوده ومنذ عشر سنوات مجموعة من المسنين المرضى والشائخين. وخلال سنوات كان التلفاز السوفياتي، بإظهاره قائد المرحلة يبرز دون أن يدري، إحدى ركائز صنيعة لينين: «القمة لم تعد تستطيع». نظرياً، فإن بريجنيف، وأندروبوف، وتشيرنينكو، يستطيعون القيام بكل شيء؛ ولكن في الواقع، كانت امكانياتهم جد متواضعة. فهم يستطيعون قيادة القاطرة السوفياتية المتوقفة، ولكن دون أي تعديل في النموذج الاقتصادي الستاليني؛ أضف الى

ذلك أن غياب أية مقاومة، سمح لهم بتوسيع حدود تملكهم ـ الفعلي أو المتخيل ـ في كافة القارات. بالمقابل، لم يكن باستطاعتهم منع تحول القوى السوفياتية العظمى الى دولة عالمثالثية مزودة بالصواريخ.

لم يتوقف غورباتشيوف عن ترداد الأمر التالي: إن حزبنا هو «القوة القائدة». وهذه النقطة ليست موضع شك. في حين أن علماء السياسة السوفيات، الذين سمح لهم مجدداً بالكلام، يصفون النظام ـ قبل غورباتشيوف ـ بالـ «توتاليتارية»، ويعتبرون ذلك من البديهيات. هذا التعديد، المرفوض من قبل المختصين الغربيين بدراسة الاتحاد السوفياتي، يفضلون عليه، منذ موت ستالين أو مع مجيء بريجنيف للسلطة، تعبير «ما بعد توتاليتاري» الذي أصبح جزءاً من القاموس السياسي الخاص بأنصار «البريسترويكا». كذلك فإنهم يلجأون أحياناً الى تعبيرات شبيهة: «اشتراكية دولة»[١]، و «اشتراكية سلطوية بيروقراطية»[٢]، أو «اشتراكية الثكنة»[٣]. وتتحدث تاتيانا زاسلافسكايا، عن مجموعة من القياديين السياسيين الذين يستحوذون على «قدر كبير من السلطة في مختلف دوائر الحياة الاجتماعية، يتيح لهم التصرف الواسع بالممتلكات الوطنية والتحكم بمصير ملايين الأشخاص»[٤]. كما يشير أحد الكوادر العليا للحزب الى هذا التعريف الأقل تعقيداً: «لقد تكوّن عندنا، وفي ظل ستالين، نظام سياسي تحكمي، لم نشهد له مثيلاً حتى في ظل نظام الملكية المطلقة»[٥]. ويكتب المدير العام المساعد لوكالة تاس، مقارناً، فيقول: «لقد تم قيام نظام في الاتحاد السوفياتي، أعدم من الشيوعيين أكثر مما أعدم منهم هتلر، وموسوليني، وفرانكو، وسالزار مجتمعين في بلدانهم»[٦]. . . وشيئاً فشيئاً، بدأنا نشهد استخدام صيغ أكثر مباشرة: الاشارة الى «الوظيفة الشاملة للحزب»[٧] أو «السيادة الشاملة للبيروقراطية»[٨]. مع التنبيه الى أن هذه التعابير تختص بـ «مرحلة الجمود»، وبمعنى آخر بالماضي السوفياتي القريب، أي بعصر بريجنيف، الذي يعتبر في الغرب «ما بعد توتاليتاري» وترى فيه موسكو اليوم التجسيد الكامل «لمشروع يهدف الى فرض وحدانية فكرية كاملة في روسيا»، كان قد أشار إليها الكاتب الروسي الساخر كوزما بروتوكوف في ستينات القرن التاسع عشر[٩].

يكتب المؤلفون السوفيات قائلين بأن «النظام السياسي المعمول به يتميز بقابليته لتقليد الديمقراطية»[١٠].

وكما يقول إيوري أفناسييف: «نطلق تعبير الديمقراطية على التوتاليتارية»[11] هذا التعبير ولج القاموس السياسي عندما حاول أ. غوروف، اختصاصي «الجريمة المنظمة» ـ التسمية الرسمية للمافيا السوفياتية ـ، تحليل طبيعة هذه المافيا، معيداً نشأتها الى سنوات الخمسينات، معتبراً «أن الدولة التوتاليتارية لم تكن لتتسامح معها»، أي أن ستالين لم يكن ليسمح بها. ومن أجل توضيح فكرته. يضيف اختصاصي الجريمة قائلاً: «من المعلوم أن هتلر أو موسوليني قد أقدما على تصفية الجريمة المنظمة في بلديهما»[12]. أي أننا نستطيع راهناً، ونحن بصدد نشوء المافيا السوفياتية مناقشة الأمر أخذاً بعين الاعتبار لوجود الجريمة المنظمة في ألمانيا النازية أو إيطاليا الفاشية. المهم هنا، أن مقدَّماً في الميليشيا، يرى من الطبيعي مقارنة ستالين بهتلر أو موسوليني. أي أن السمة التوتاليتارية لنظام ستالين ليست موضع شك. وعلى هذا الأساس، يرى أن ظهور المافيا هو بمثابة مؤشر لتحول النظام، إذ أن ظهورها ملازم لدخول النظام في طور الفساد: «أن مجتمعاً إجرامياً لا يتحول الى مافيا إلا في ظل الفساد: إذ أنها بحاجة الى علاقات وثيقة مع ممثلين جهاز الدولة، الذين يضعون أنفسهم في خدمة المجرمين»[13].

ينظر الاعلاميون السوفيات، الذين يحللون طبيعة النظام إنطلاقاً من ضرورة تطويره، الى الحقبة الستالينية بإعتبارها ذات طابع توتاليتاري أكيد؛ البعض يرى أن هذه التوتاليتارية استمرت مع بريجنيف. ولكن مع توسع النقاش حول طبيعة النظام والوعي المتزايد بسقوط البريسترويكا، فإن مقولة التوتاليتارية تمتد لتغطي مرحلة ما بعد بريجنيف. ففي حفل تشييع الأكاديمي زخاروف، أشار غافرييل بوبوف الى ميزة الفقيد الذي استطاع أن «يرى، وقبل الجميع بمدة طويلة، ضرورة تحقيق المهمة الكبرى في زماننا: تصفية الاشتراكية التوتاليتارية»[14].

تكمن إحدى معضلات «الفكر السياسي الجديد» في استخدام تعبير «التوتاليتارية» أو مرادفاته دون المساس بمبدأ «الحزب الواحد» القائد. وهذا ما يوضحه رئيس تحرير البرافدا في معرض حديثه عن: المذهب: «عندنا، الحزب هو القائد، ويجيب على كل شيء: الاقتصاد، النظام السياسي، الحياة الاجتماعية، حياتنا الروحية، العمل التربوي»[15]. لقد تم استبدال رئيس تحرير وسيلة الأعلام المركزية للحزب الشيوعي في عام ١٩٨٩، ولكن غورباتشيوف استمر يؤكد: نحن الحزب القائد.

يمارس الحزب، الذي يستطيع الاجابة على كل شيء، سلطة توتاليتارية على البلد. فالمناظرات الغربية حول التوتاليتارية تستند، في الواقع، الى تعريف للظاهرة يعود الى سنوات الأربعينات والخمسينات أي الى فترة شبابها الدامي. ومن الأنسب اليوم التحدث عن «التوتاليتاريةَ الناضجة»[١٦]، بدل الحديث عن «ما بعد التوتاليتارية» ويُعتبر المؤرخ الايطالي فيتوريو سترادا من الباحثين النادرين الذين نبهوا الى القيمة النظرية لمفهوم «التوتاليتارية»، عندما تناول «نظام الحزب الواحد والايديولوجية الواحدة، الهادفين الى استيعاب كافة أشكال الحياة المدنية ضمن مبنى السلطة، والساعي أيضاً الى اخضاعها لخطط التحول الجذري للمجتمع، وما يتطلبه ذلك من تعبئة كثيفة ودائمة»[١٧].

إن مقولة «الحزب يجيب على كل شيء» ليست صيغة بلاغية، مدونة في الدستور. فالمسؤولية ـ بتعبير آخر السلطة المباشرة ـ تنهض بها أجهزة الحزب، بشكل ثابت وشامل. فبمناسبة عيدين وطنيين ـ الأول من أيار والسابع من تشرين الثاني ـ تصدر اللجنة المركزية للحزب ـ «أوامرها للبلد وللعالم. وهذا ما درجت عليه منذ سبعين عاماً. وإذا كان مضمون «الأوامر» عرضة للتغيّر، إلا أن دلالة العملية تبقى هي نفسها: تأكيد الوجودالكلي القدرة للحزب.

تتصف أوامر اللجنة المركزية بالتجريد. وهي تشبه من أحد أوجهها صوت سينا: «أيها المواطنون السوفيات! ليكن همكم اليومي الحفاظ على البيئة! إستخدموا الثروات الطبيعية بعقلانية». كذلك فإن التوجيه العملي تتولاه أيضاً اللجنة المركزية، «بإعتبارها البرلمان الكبير للحزب، وانطلاقاً من الدور القائد لهذا الأخير، فإن البرلمان الكبير يقرر كل شيء»[١٨]. ان الحلول التي تقرها الحكومة تحمل توقيعيْن بشكل منتظم: توقيع اللجنة المركزية، توقيع مجلس الوزراء. وقبل كل دورة «برلمان مكتملة»، لمجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي تجتمع اللجنة المركزية وتتخذ القرارات التي تصبح أساس النقاش بالنسبة لمجلس السوفيات.

ان المعلومات التي تنشر في الصحف تحت عنوان: «جلسة اللجنة المركزية» أو «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي»، تظهر بأن هذا «البرلمان الكبير»، يقرر في الواقع جميع الأمور ويغطي كل الميادين. فبالنسبة لكل المسائل، تعطي هذه اللجنة

التعليمات المناسبة، والتوجهات، والحلول الأنسب. أما إبان الفترات الفاصلة بين الجلسات العامة للجنة المركزية، يُؤمَّن العمل من قبل سكرتاريا الحزب والمكتب السياسي وهو مصدر السلطة العليا، التي تتجسد بكبار القادة، هؤلاء الذين يتجلون من خلال صورهم من على منبر مجلس السوفيات الأعلى. إنها القمة، حيث كل صورة تمثل رمزاً جامداً، انه نظام رموز، لا يملك مفتاحه سوى علماء الكرملين: ثلاثة صفوف من المقاعد في القاعة الكبرى، خمسة مقاعد من كل جانب على طول الممر الذي يحدد إطار المشهد. عشرة مقاعد في كل صف. كلها في مقابل «صف» القائد. إن أقل تعديل في توزيع المقاعد يعطي للخبراء الغربيين الفرصة لتشغيل المخيلة الى ما لا نهاية.

يوري أندروبوف الذي يؤمن الصلة مع التقليد المتبع بغية إعلان بلاغ رسمي حول اجتماعات المكتب السياسي - البلاغ يكون جاهزاً ينتظر التوقيع - يهتم بكل شيء، ويراقب كل شيء، ويوجه كل شيء. وبذلك يستطيع المواطنون السوفيات أن يستعلموا كل نهار جمعة، عن طبيعة مشاكلهم وطريقة حلها. وحتى بعد الاصلاح الذي صدق عليه في الجلسة المكتملة التي عقدت في أيلول ١٩٨٨، بقيت بنية اللجنة المركزية تعكس الطابع التوتاليتاري للسلطة التي يمارسها الحزب. فقد تم تجميع الشُعب العديدة التي تدير كافة جوانب الحياة في البلد، ضمن سبع لجان: قانونية، وايديولوجية، ودولية، وزراعية، وصناعية، واجتماعية، يضاف إليها لجنتان مختصتان بأنشطة الحزب والصناعة العسكرية. ويتفرع عن كل لجنة منطقة خمس شُعب (هنا أيضاً، نشهد تجميع الشُعب على شكل لجان): شعب تنظيم، ودعاية وتعبئة، وصناعة ونقل، واقتصاد ومال، وشعبة عامة. وتدير لجنة المقاطعة، وفقاً لمستواها المتدني - كافة الشؤون المتصلة بالمقاطعة، كما أن سكرتيرها الأول هو سيد المقاطعة. ان لجان المناطق، والمدن، والمقاطعات وصولاً الى اللجان القاعدية للحزب تجعل من هذا الأخير «نظام سلطة شديد التحكم».

تكون السلطة الشاملة، مضافاً اليها الخوف من ضياعها، نواة مآلها انعدام القوة. ففي كل وقت، نجد أنفسنا أمام الثنائية نفسها: الرغبة في امتلاك السلطة المطلقة والعجز عن تحقيق ذلك. ووجد لينين الدواء في الخوف. الذي وجد تجسيداً له في البوليس السياسي الذي أنشأه الزعيم الثوري والمتمثل باللجنة فوق العادة لعموم روسيا (فيتشيكا)، جرياً على ذلك، تم توكيل لجان فوق العادة مهمة معالجة المشاكل

المطروحة. أن التسمية تبدو وكأنها تأكيداً لضمانة الوصول الى الحلول المناسبة. فمن أجل النهوض بإقتصاد البلاد إبان سياسة (NEP)، تمت تسمية رئيس الفيتشيكا أي دزرجنسكي، رئيساً لسوفياتات الاقتصاد. وهو التكتيك الذي لم يكن ستالين ليجهله. فعندما واجه البلد مشاكل نقل حادة إبان الحرب، أقدم مسؤول النقليات العسكرية على تقديم تصور في إحدى جلسات المكتب السياسي، يقضي بضرورة إنشاء «لجنة نقليات كاملة الصلاحيات» تمركز بيدها كافة الوسائل التي تمتلكها البلاد. وعندما استمع ستالين لهذا التصور، بادر قائلاً: «كاملة الصلاحيات كما يقول كوفاليوف. كيف نفهم ذلك؟ من جهتي لا أرى. إلا فهماً واحداً: أقترح إنتخاب الرفيق ستالين رئيساً للجنة النقليات»[١٩]. ان اسم ستالين يضمن الصلاحية المطلقة.

شكل غياب ستالين، وتراجع حالة الخوف، منذ أن تم التخلي عن سياسة الارهاب المعمم، التي لم تعد ذات نفع في ظروف التوتاليتارية المتحققة، سبباً لتراخي العلاقات بين صاحب الأمر والمنفذ. ومع ذلك، بقيت حقول معينة تنفذ فيها الأوامر دون نقاش، خاصة في ميدان السياسة الخارجية. فقد قرر خروتشوف شخصياً إرسال الصواريخ الى كوبا. كما أقدم المكتب السياسي الذي يرأسه بريجنيف، على إرسال الجيش السوفياتي الى افغانستان. ان الصعوبات لا تطل برأسها إلا عندما تسود إرادة التحكم بكل شيء. فخلال ندوة حول «طاولة مستديرة» نظمتها جريدة البرافدا، أعلن الليتواني كوبيليوس بمرارة: الى متى بإمكان إيغان ايفانوفيتش أن يقرر، من مكتبه ـ رقم ٤٢١ ـ إن كان هناك مثلاً من ضرورة لانشاء حمامات عامة في أحدى المدن الليتوانية التي لم يستطع الاعلان عن اسمها[٢٠].

ان الصراع بين المبدأ والممارسة، بين الأمر والتنفيذ، وبين المركز والطرف، تفاقم عن طريق نقيصة أصلية للنظام السوفياتي: فالسلطة الشاملة للحزب لا تتحقق مباشرة عبر أجهزة الحزب، بل عبر الادارة ـ وزارات وسوفياتات محلية. حيث يسعى كل مركز تنفيذي الى توسيع رقعة سلطته، مصطدماً هكذا بالقوة الرئيسة في البلد المتمثلة بسلطة الحزب. وعندما تسلم غورباتشيوف رأس السلطة أدرك فجأة، بأن الوزارات المركزية، وأحزاب الجمهوريات ـ التي تسعى الى أضعاف علاقتها بالمركز ـ تشكل قوى منافسة فعالة. لقد وجد بريجنيف حله الخاص لهذه المشكلة، مكتفياً بضرورة تطبيق توجيهاته الأساسية، ذات الطابع الحيوي، تاركاً بعد ذلك للوزارات والجمهوريات حرية

التصرف. لقد كان بريجنيف يدرك أن ما أطلق لاحقاً على مرحلة حكمة أي «الجمود» كان بمثابة الضمانة لاعادة إنتاج النظام، دون هزات أو صراعات تضع النظام موضع الجدل. فالوزارات كانت تقف حجر عثرى أمام أية محاولة للتغيير. أما في الجمهوريات، فإن مسؤولي الحزب المحليين كانوا يجهدون لتدعيم استقلالهم عن موسكو، ولكن فقط فيما يتعلق بسلطتهم الشخصية، فالسكرتير الأول للحزب في أوزبكستان شرف رشيدوف، الذي استطاع خلال ربع قرن، أن ينجح في تحويل جمهوريته الى عقار خاص ليصبح «عراب» مافيا قوية، لم يثر أبداً حفيظة موسكو. فقد تجنب مواجهة سياسة المركز التي رمت الى تحويل أوزبكستان الى حقل ضخم لانتاج القطن. فقد كانت المدفوعات المتوجبة تدفع بالقطن يضاف إليها هنا وهناك (وبشكل شخصي) بعض الهدايا للسكرتير العام ولحاشيته، الأمر الذي سمح لرشيدوف بتأمين سيطرته المطلقة في حقله. هذا النموذج يعتبر المثل الأكثر سطوعاً للنمط الجديد من العلاقات التي ظهرت مع نضوج النظام التوتاليتاري.

لقد بلغ التمركز حده الأعلى، بحيث أصبح من الآن فصاعداً غير محدود. حتى في ألمانيا الشرقية، الشديدة التمركز، تشير البرافدا، الى أن ما نسبته ٣٥٪ من المؤسسات بقي تحت اشراف محلي، مقابل ٥٪ في الاتحاد السوفياتي[٢١]. بمعنى آخر، فإن ما نسبته ٩٥٪ من مؤسسات الاتحاد السوفياتي كان يخضع للمركز، أي مرتبط بهذه الادارة أو تلك، ومنطقياً بهذا المستوى أو ذاك من مستويات الحزب، لقد بدأت السلطة المركزية تخسر من قوتها، لأنها إستهدفت التحكم بكل شيء. الأمر الذي يتجاوز إمكانياتها، معلناً توقف جريان الدم في العروق.

يرى أحد أشد أنصار «البريسترويكا» مستنداً الى فكرة «ثبات النظام السوفياتي واستمراره»، بما هو نظام الحزب الواحد، أن غياب «القيادة الفعلية للحزب» سبب «للمأزق المأساوي الذي تتخبط فيه البلاد. ويضيف موضحاً فكرته: «أن الحزب الشيوعي السوفياتي ليس في السلطة». وبالمحصلة، ان النظام السوفياتي عاجز عن الاستمرار في ظل الأوضاع القائمة[٢٢].

ان السوفيات الذي يحللون الأزمة التي يمر بها النظام، والوضع الثوري، يتفقون الى حد بعيد مع التطور الغورباتشيوفي حول «المقود الجامد». وبالامكان القول بأن

غورباتشيوف قد استعار من الاقتصاديين وعلماء السياسة المقربين فكرة آلية القيادة العاجزة، أو «الآلة» السوفياتية التي كانت تعمل في ظل ظروف النمو التوسعي، إبان المراحل الأولى من بناء الاشتراكية، ولكنها غدت غير فعالة في مرحلة الانتقال الى النمو الكثيف. والنتيجة، تتمثل بضرورة إصلاح الآلة، وتحسينها وتحرير المقود من أجل الحصول على النتيجة المطلوبة: إعادة تشغيل الآلة وتسريع إيقاعها.

ولكن مع ذلك يبقى هناك سؤال: لماذا استطاعت الآلة التوتاليتارية أن تعمل بشكل دقيق في سني الشباب، أي سنوات الستالينية؟ ولماذا توقف «طيران السنوات الشابة» كما تقول أغنية في ذلك العصر، ولماذا خسر النظام حرارته مع موت القائد الكبير؟ أن الأسباب المفسرة لذلك متعددة الأوجه. بداية، هناك غياب القائد الملهم، بما هو عنصر أساسي في النظام التوتاليتاري: وهناك أيضاً نضوب حالة الاندفاع التي ولدّتها الثورة. كذلك فإن من بين الأسباب الرئيسية، نلحظ التطورات السريعة، وغير المتوقعة، لصيرورة تكوّن «الانسان الجديد».

فالبريسترويكا، ومشاريع الاصلاح التي وضعت من أجل تجاوز الأزمة، اكتشفت الكلفة المترتبة من جراء ظهور هذا «الانسان الجديد». لقد تبين بسرعة، وبالرغم من تجنب إعلاميو «البريسترويكا» الاشارة الى ذلك، أن العدو رقم واحد للـ «بريسترويكا» لا يتمثل في «البيروقراطية»، و «المحافظين»، والأعداء الآخرين للأمين العام. فالعدو الأكبر هو الانسان السوفياتي الذي يرفض، لأسباب عديدة، التغييرات التي يفرضها الخط العام للحزب. يرد إسم هذا العدو ضمن قاموس غورباتشيوف تحت عنوان «العامل الانساني». وفي السنوات الأولى من عمر الثورة، كان الحديث عن «المادة الانسانية»؛ وقد استخدم هرزن، تعبير «لحم الرفاه العام»، و «لحم للتحرير»، بتعبير آخر: لحم بشري والمطلوب تحريره.

تنطوي صيغة هوزن على عنصرين: فمن جهة، هناك اللحم والمطلوب تحريره، أي الشعب، أو «القاعدة»، وبالمقابل هناك اللحم الذي يحرر، أي القيادة، أو «القمة»، أي الكوادر. أما بعد الثورة، فقد برز الحزب البلشفي، بإعتباره المحرر الأكبر، الذي وضع يده على السلطة بهدف تحرير الطبقة العاملة، ان لم يكن «القاعدة» ككل. هذه الطبقة الأخيرة التي ظهرت على مسرح التاريخ من أجل وضع حد

للتاريخ، ووراثة ماضي الانسانية. لقد تحول الحزب، خلال سبعين عاماً. وبدأ برسم خط فاصل ودقيق بين الكوادر والجمهور. فمن المؤشرات البارزة والدالة على الأزمة العميقة الراهنة، أو الوضع الثوري الذي يمر به الاتحاد السوفياتي، إنما السؤال الفجائي الذي يطرحه الاعلاميون السوفيات: من يمثل الحزب، وما هي «حقيقة رسالته في المجتمع الاشتراكي»[٢٣]؟ كيف نحفظ له سمته الطبقية، وإلى أين يتجه؟ والاشخاص الذين يطرحون هذه الأسئلة، لا يساورهم الشك حول ضرورة بقاء الحزب بمثابة القوة القائدة الوحيدة؛ ولكنهم يعرفون أن قيادة الحزب تمر بأزمة عميقة.

يعتبر كل بالغ من أصل عشرة، وكل مواطن نشط من أصل تسعة، وكل مهندس أو تقني من أصل خمسة، وكل اختصاصي زراعي من أصل أربعة، وقرابة مدرس أو طبيب من أصل ستة، ونصف الكتاب تقريباً، وثلث الموسيقيين والسينمائيين، وثلثي الصحافيين أعضاء في الحزب الشيوعي. كما يمكن إحصاء ما نسبته ٧١٪ من دكاترة العلوم وقرابة ٥٢٪ من الجامعيين الذين ناقشوا رسالة حلقة ثالثة، من أعضاء الحزب. كذلك فإن الغالبية العظمى من موظفي جهاز الادارة هم أعضاء في الحزب[٢٤]. أي إننا بصدد، جيش حقيقي، يقوده الكوادر، الذين تطلق عليهم راهناً أسماء مختلفة: القلة مثلاً[٢٥]؛ كذلك فإن تعبير «نومانكلاتورا» دارج الاستعمال. هذا التعبير الذي ولد في سنوات العشرين وكان يشير الى لائحة الوظائف المتصلة بمراتب الحزب ـ من المكتب السياسي وصولاً الى لجان المقاطعات ـ ، حمل في السبعينات، معنى آخر في الغرب، إذ أصبح يشير الى المجموعة التي تقود الاتحاد السوفياتي. وحلّ بذلك مكان التعبير الذي صاغه ملوفان دوجيلاس حول «الطبقة الجديدة». أما اليوم، فإن الاعلاميين السوفيات، يستخدمون تعبير الـ «نومانكلاتورا» بمعناه الغربي. وتتحدث عالمة الاجتماع الأولى في الاتحاد السوفياتي تاتيانا زاسلافسكايا، عن «مجموعة من المسؤولين السياسيين»، الذين يكونون «النواة الحقيقية التي تقود الحزب الشيوعي والدولة السوفياتية»[٢٦]. في حين يفضل غورباتشيوف استخدام تعبير «جسم كوادر الحزب»[٢٧]. أما ستالين وقبل خمسين عاماً، فقد تحدث عن «كوادر قيادة الحزب»، مقسماً. إياهم الى «جنرالات حزبنا»، و «ضباط حزبنا»، و «صفوف ضباط الحزب»[٢٨].

ردّ غورباتشيوف، في تقرير خاص حول «البريسترويكا وسياسة كوادر الحزب»،

أسباب «الوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي والسياسي» الذي ظهر في مفصل سنوات السبعينات والثمانينات ـ بتعبير آخر الأزمة المتوجب تجاوزها ـ الى «حالة الحزب وجسم كوادره»(٢٩). وتمثل المقارنة بين تقريرين ـ الأول أعلنه ستالين في ٣ آذار ١٩٣٧ والثاني أعلنه غورباتشيوف في ٢٨ شباط ١٩٨٧ ـ عملاً كبير الفائدة. فقد واجه الأمينان العامان أزمة وضعت الحزب والدولة في حالة خطر. وكلاهما حاول تحليل ما وصل إليه وضع قيادتها. وكلاهما استنتج عدم قابلية هذا الجسم للحياة. ومن غير المفيد أن نشير الى اختلاف الظروف، فالمهم أن نوضح تماثل التكتيكات واستعادة الصيغ عينها.

يحمل التقريران، في الواقع، العنوان نفسه: فتقرير ستالين يشير الى «عدم كفاية عمل الحزب»، في حين يثير غورباتشوف «سياسة الكوادر». والاثنان يظهران عدم قدرة «القمة» على الخروج من أي وضعية إستثنائية. يكشف الأمين العام في الحالةالأولى، التهديد الذي لم يسبق له مثيل، والذي يواجه الدولة السوفياتية: اختراق «عملاء القوى الاجنبية»، بمن فيهم التروتسكيون، لـ «تنظيماتنا الاقتصادية والادارية وللحزب». ومما يضاعف الخطر أن هؤلاء «المخربين، والمضللين، والعملاء، والمجرمين الآخرين» قد نجحوا في إحتلال «مراكز مسؤولة»(٣٠). يتحدث الأمين العام في الحالة الثانية، عن «عناصر الجمود وعن الغرباء عن الاشتراكية»، الذين لهم «تأثير هام على الاقتصاد والحقل الاجتماعي والروحي». ومما يزيد الأمر خطورة، حسب تعبير ستالين، «أن رفاقنا المسؤولين... يتصفون بسذاجة لا تصدّق وعمى حاد...»، وحسب تعبير غورباتشوف، «... أن اللجنة المركزية للحزب، وقيادة البلاد... لم يستطيعوا أن يحددوا في الوقت المناسب ضرورة التغيير إضافة إلى الخطورة المتعاظمة لظواهر الأزمة في المجتمع».

يطرح الأمينان العامان السؤال حول الأسباب. ويجيب ستالين: «أن كل هذه الأخطاء، إضافة الى العمى، والاهمال، والتساهل» تشكل الوجه السيء، أو الجانب الخفي للنجاحات الاقتصادية. لقد أشار ستالين في كتاباته، عام ١٩٣٠، الى «نشوة الانتصار». وبعد سبع سنوات، أشار الى إنجازات جديدة أحدثت «دواراً في الرأس» بالنسبة لكوادر قيادة الحزب. كذلك يؤكد غورباتشوف النجاحات قائلاً: «بنى الشعب السوفياتي، تحت قيادة الحزب، الاشتراكية وحقق النصر على الفاشية إبان الحرب الوطنية الكبرى، وأعاد بناء الاقتصاد وتدعيمه وحوّل الوطن الى قوة جبارة»

ويضيف: لقد برزت لاحقاً «عوامل ذاتية»، منعت بروز الوعي بضرورة التغيير.

يتكلم ستالين عن «العمى، والاهمال، والتساهل» ويجيب غورباتشوف متحدثاً عن «انعدام المسؤولية الذي يؤدي الى الاجرام، والانحلال». وهما ما تم السعي لاخفائه في جميع الحالات «عن طريق خلق جو من الاعتداد. المفعم بالنشوة، والتبجيل، والاستعراضات، والمجاملات المتبادلة»، حسب ستالين، «وعن طريق الاحتفالات، وتنظيم المظاهرات الانتصارية، وإحياء اليوبيلات العديدة، في المركز أو على المستوى المحلي»، إذاً حسب غورباتشوف.

يقع الخطأ على القيادة، وبنسبة أقل طبعاً، على الأمين العام. فستالين يظهر «عمى وسذاجة» رفاقنا المسؤولين». وغورباتشوف يعلن: «أن أعضاء قيادة الحزب والدولة، يتحملون مسؤولية ما يحصل». من هنا ضرورة الاستعجال في اتخاذ الاجراءات المناسبة. ويؤكد ستالين في معرض تحديده «للمهمات التي تقع على عاتقنا»، على ضرورة «رفع العمل السياسي للحزب الى المستوى المطلوب»، وقبل كل شيء رفع «المستوى الايديولوجي والبنية السياسية لكوادر القيادة». ويلتقط غورباتشوف أهمية هذه الوصفة بشكل كامل فيقول: «علينا أن لا نسمح بإهمال التكوين السياسي والنظري، والبنية الايديولوجية والاخلاقية للكوادر».

ولكن «بنية» الكوادر لا تكفي. وهذا ما يعيه الأمينان العامان. فيرى ستالين ضرورة بث «قوى حية»، داخل كادر القيادة، عن طريق الترفيع، الأمر الذي يتيح توسع مجال الكوادر القيادية، وتلك هي مهمتنا». ويجيب غورباتشوف بعد خمسين سنة، وكأنه الصدى: «من الضروري معالجة المشكلة الموجعة للكوادر داخل اللجنة المركزية للحزب، ولمكتبه السياسي، عن طريق تجديد القيادة، وبث القوى الحية. . .»، مع الاشارة الى اختلاف المزاج بينهما. فقد فرض ستالين على كافة مسؤولي الحزب اختيار مساعدين لكل منهم. بينما اكتفى غورباتشوف بهذه العبارة: «. . . إن ثبات الكوادر يفرض نفسه. ولكن يجب ألا ندفع بذلك الى الحدود القصوى، أو إذا أردتم، الى حدود العبث».

يخلص غورباتشوف في تقريره الى تأكيد قناعته، التي يتقبلها حتى أكثرهم شكاً: «نعم، البلاشفة قادرون على كل شيء». بالمقابل يؤكد ستالين، المتفائل الكبير، هذه

القناعة من خلال جملته الشهيرة: «لا وجود لقلعة تقف في وجه البلاشفة». إن مفتاح النصر هو الحزب. ومفتاح الحزب، هم كوادر القيادة. إن التماثل المدهش بين الطرق المختارة والقاموس الذي استخدمه التقريران، لا يتأتى فقط عن كون كاتبي مداخلة غورباتشوف قد قرأوا بإمعان النص الذي حضّر لستالين. فالهدف، والمهمة المطروحة متماثلتان. فمع وصول كل منهما الى رئاسة الحزب، كانت تبرز الحاجة الى جهاز مطيع، وجسم قيادي مخلص. أي أن الهدف الأول والدائم هو خلق حزب مخلص لشخص الأمين العام، كإحتياط في مواجهة الجهاز. إلا أن هذا الهدف ينطوي على صعوبات لم تغب عن منشىء الحزب ومؤسسه: لينين. وخصوماته التي لا حدود لها، وطريقته في إبعاد من يطرحون الشروط، سمحت بخلق «حزب لينين». ويعطي تقرير ستالين، في آذار ١٩٣٧، الاشارة للبدء بالتصفية النهائية لما تبقى من حزب لينين، كشرط لخلق «حزب ستالين» ويقي خروتشوف حتى يوم إبعاده يقاتل الحزب الذي ورثه، ولا يتردد بإتخاذ أي إجراء صارم، بإستثناء التصفية الجسدية لخصومه المهزومين.

أما بريجنيف فقد وجد أسلوبه الخاص من أجل خلق حزبه: رشو الجهاز. فقد اشترى إخلاص الجهاز، عبر إباحته للنهب وضمانة الوضع الثابت. ولكن عدة حالات موت غير عادية على مستوى «القمة» زرعت بزور الشك حول طيبة قلب بريجنيف. فقد أشار العديد من كتاب المذكرات، ممن كانوا من قدامى رفاق السلاح الذين أزاحهم بريجنيف (أعضاء المكتب السياسي ك. مازوروف و ب. شيليست، والرئيس السابق للـ كي. جي. بي.، ف. شاستني، وآخرون)، الى القساوة الشديدة التي عامل بها الأمين العام من اعتبرهم مصدر خطر. أياً يكن الأمر، فلقد كان الثبات العملة التي يتعامل بها على مستوى الكوادر. هذا الوضع ترافق مع نجاحات ملحوظة على صعيد السياسة الخارجية، مما أثار لدى «الكوادر» موجة من التفاؤل الجامح، ويذكر السكرتير الأول لإحدى لجان مقاطعة في إقليم فولوكدا ما سمعه من موظف حزبي كبير من قوله: «أيها الرفاق، في العام ٢٠٠٠، ستعم الشيوعية العالم بأسره! ويجب أن تكونوا مستعدين لتبوء مراكز قيادية في أوروبا، وآسيا، وافريقيا، وأميركا!»(٣١).

اصطدم غورباتشوف: كما اصطدم سائر الأمناء العامين من قبله، بمقاومة الجهاز. طبعاً ليس الجهاز بأكمله، إذ بدونه لن يكون للحزب (والدولة السوفياتية) أي وجود، بل بالكوادر القيادية التابعة لسلفه، الذين يعلمون أنهم قد خسروا الرهان وأن

«قوى حية» تنتظر الحلول مكانهم. يذكر غورباتشوف في تقريره حول سياسة الكوادر هذه الكلمات للينين: «جهاز في خدمة السياسة... وليس سياسة في خدمة الجهاز». إن الأمين العام الجديد بحاجة «لجسم قيادية» جديد؛ وبواسطته يستطيع تحويل الحزب، وبالتالي تأهيله للقيادة من جديد. عندما يؤكد سياسي سوفياتي أنه «في ظل الظروف الراهنة، لا يمكن للنظام السوفياتي أن يستمر»، فإنه يكرر التعريف الذي أعطاه لينين للوضع الثوري: إن الطبقات القائدة أضحت عاجزة عن الحفاظ على سلطتها.

في ضوء ما تقدم، فإن استنتاجاً سياسياً يفرض نفسه: أن «تغيير الظروف الراهنة»، يفترض في المقام الأول تغيير جسم الكوادر. إذ هنا تكمن، في نظر الأمين العام، علة الأزمة الأولى التي تعني أن «القمة لم تعد قادرة...» إلا أنَّ التحليل التاريخي لأزمة «القمة» يتيح الوصول الى استنتاج مغاير.

فالنظام التوتاليتاري هو صنيعة الثائرين الذين يعتنقون مشاريع ذات طابع طوباوي؛ إنها طوبى يجهلون طبيعتها، في الوقت الذي تسودهم القناعة بمعرفتها. فالنظام الذي عملوا على وضعه موضع التنفيذ، استهدفت بناء الانسان الجديد. وقد ترسخت القناعة لديهم بأن هذا الانسان هو ما يحتاج إليه النظام التوتاليتاري. ولقد نجحوا في بلوغ هذا الهدف الى حد بعيد. تكمن معضلة التوتاليتارية إذاً، في أن الأفراد الذين صنعوها، وفي طليعتهم «الكوادر» و «القمة»، قد فقدوا الدينامية والحماس الذين وسموا البناة الأوائل، وبالتالي لم يعد بإستطاعتهم تأمين شروط استمرار حياة النظام الذي إحتضنهم. فالآلية التكوينية للتوتاليتارية، تحرك لدى الانسان، قوى هي في أساس الظواهر التي يرى فيها غورباتشوف «تآكل المجتمع».

يعتبر بطل ألكسندر بيك في روايته: «التصنع الجديد، والمكتوبة في الستينات، والمنشورة في الاتحاد السوفياتي في عصر «الفلاسنوست»، النموذج المثالي لداعية التوتاليتارية. فالعملة التي يتداولها هي: «لا نقاش!»[٣٢] وقاعدته الذهبية: «نعطي أمراً ويكفي»[٣٣]. فهو يعتبر نفسه جندياً عند ستالين. ووزير النصاعة الثقيلة، ينفذ بلا تذمر، وكجندي، كافة أوامر القائد: «ان سلوك ستالين بالنسبة له، يعتبر نوعاً من القانون الأعلى القاطع»؛ و «فوق كل انضباط، هناك الاخلاص لستالين، ولأي من كلماته، وتوجيهاته»[٣٤].

إن بطل بيك «قد دخل النظام من الخارج» (بتعبير آخر، تلقى تربية ثورية)، ويعلق ج. بوبوف بأنه «طالما أن النظام عرف كيف يحافظ على هذه الكوادر (مع ما يحملون من قواعد أخلاقية)، فإن ذلك سمح له بالعمل»[٣٥]. ان أخلاقية «دعاة التوتاليتارية» حفظت نوعاً آخر من الأخلاقية تتمثل «بالديانة القديمة»، وإنبنت على الايمان بالعقيدة الجديدة. وبإسم هذه العقيدة، فإن «الدعاة» لا يجاملون أنفسهم ولا الآخرين، بل أنهم ينفذون فقط أوامر حامل العقيدة: الزعيم. ولا يوازي قساوتهم إلا إخلاصهم للزعيم. وهم لا يتورعون عن الضرب بلا هوادة حتى أكثر الناس قرباً منهم، وذلك بهدف بناء العالم الجديد، وتحقيق العقيدة التي يؤمنون بها من أجل الأجيال القادمة.

ان ستالين وقبل أن يقدم على تصفية الدعاة، باعتبار أن النظام الذي بنوه لم يعد بحاجة الى إيمانهم، سعى الى إيجاد البدائل. ولكن البحث الآن لا يتم عن أصحاب العقيدة، بل عن المنفذين. فالدعاة تساورهم الشكوك عندما تصطدم المعايير «الأخلاقية القديمة» مع الأوامر المعطاة. هذه الشكوك يتجاوزها الأتباع بكبرياء. فالدعاة يتصفون بالزهد والتعصب. في حين أن من حل مكانهم عرف كيف يتمتع جيداً بامتيازاته. يعلن نيكيتا خروتشوف بدء مرحلة جديدة من التوتاليتارية، مستخدماً اللغة التصويرية التي اشتهر بها فيقول: «إنَّ أفكار ماركس جيدة، ولكن إذا دهنت بالسمن تصبح أفضل»[٣٦] هنا يتصدى خروتشوف لمسألة تطوير مستوى حياة الشعب؛ غير أن «القمة» كانت مشغولة على الدوام بترتيب أوضاعها قبل وقت طويل من التفكير بترتيب أوضاع الشعب. لقد ذاعت نكتة لاذعة تتصل بهذا الوضع وتقول: «إن الطبقة العاملة تشرب الشمبانيا بفم قيادتها». لقد ترك الدعاة الشعب يموت من الجوع، مستغنين هم أنفسهم عن الدهن. في حين وعد الأتباع الشعب بالدهن، وهم متخمون. إن الاعتراف بضرورة مسح العقيدة بشيء من الدهن أو، على الأقل، تمني ذلك، كان مؤشراً لدخول التوتاليتارية في مرحلة جديدة. لقد تم تشريع حالة الالتباس، كنتيجة لا مفر منها لاصطدام الواقع بالعقيدة ـ لأن الواقع يستمر داخل جنبات الطوبى المتجسدة ـ . يكتب أحد الفلاسفة السوفيات قائلاً: «يتعايش في وعينا عالمان، عالم الوقائع اليومية وما يفرضه من توجهات عملية؛ وعالم موهومات الرفاهية وما تطرحه من آمال بحياة أكثر كرامة في المستقبل... إن تداخل هذين

العالمين يؤدي الى تقوية التفكير المزدوج»[٣٧].

لقد تم كشف ظاهرة «التفكير المزدوج»، على يد بعض المفكرين الثاقبي النظرة، ففي عام ١٩٢٠، أشار إ. زيماتين الى ظاهرة «اللغة المزدوجة». كما أعيد تحليل الظاهرة لاحقاً من قبل أورويل ومتتبعي سير الشيوعية الأكثر جرأة واستقلالية. أما اليوم، فإن الاعتراف الصريح بهذا «لتفكير المزدوج»، بما هو جزء لا يتجزأ من «الفكر الدوغمائي»، أو بتعبير آخر من الايديولوجية السوفياتية، يعتبر علامة هامة تدل على أزمة «القمة». وإن وجود وعي نهاري وليلي يمنع إمكانية اشتغال التوتاليتارية وفق صورتها الصافية: أمر/ تنفيذ. وقد كتب أ. بيك، أن في وعي بطله تضطرم عدة «صدمات»: دافعان يتصارعان داخل عقله، فمن جهة هناك أمر الزعيم، وبالمقابل هناك سلطة «القاعدة الأخلاقية». أما في وعي خلفاء «جنود ستالين»، فإن التنافر، وفق تعبير خروتشوف، يقع بين العقيدة والذهن. فالمصالح الشخصية تلعب دوراً متعاظماً في سلوك ممثلي «القمة».

يتمتع تعبير «الاغتراب» اليوم، وهو الصيغة المشهورة لماركس، بشعبية متزايدة. فالاعلاميون يتكلمون عن الماضي بإعتباره الزمن الذي كان فيه الفلاحون يعيشون حالة «الاغتراب» تجاه الأرض والعمال، والانتاج. دون أن ينسوا حالة «الاغتراب» التي يعيشها جهاز الحزب تجاه جمهور الأعضاء. وترتفع عدة أصوات، في معرض الحديث عن أزمة «القمة»، من أجل إعادة طرح السؤال حول ضرورة الـ «نومانكلاتورا»: هل هي ضرورية في ظل البريسترويكا»؟ يجيب ج. ك. كريوتشكوف مساعد مسؤول شعبة تنظيم العمل في الحزب داخل اللجنة المركزية قائلاً: «إن المفهوم السياسي للنومانكلاتورا يعني أن أعضاء الحزب يجب أن يحتفظوا ضمن حقل رؤيتهم ببعض الوظائف الأساسية في المجتمع. والحقيقة، هي أن الحزب يجب أن لا يتخلى، بل لا يستطيع أن يتخلى عن مسؤوليته في توجيه هذه العملية. ثم هل يوجد في عالم التنظيمات السياسية من يستبعد من ترسانته، سياسة الكوادر، بما هي رافعة تسمح بتطبيق الخط السياسي الذي تم إختياره»[٣٨]؟.

والنتيجة واضحة. فالكوادر هم بمثابة وصفة للخروج من الأزمة. غير أن موت بريجنيف وضع حداً لذلك. فخلفاؤه ورثوا نظاماً مريضاً؛ حيث يصدر دماغ الجسم

أوامر معينة، تعمل العضلات على تنفيذها وفقاً لمزاجها وأهوائها. لقد شرع غورباتشوف بالـ «بريسترويكا»، وثورة الكوادر، مستهدفاً تبديل سلسلة الاتصال التي تنقل بأمانة الأوامر الصادرة عن «الرأس» أو تشوهها الصعوبة الكبرى التي واجهها في «ثورته» متأتية من إفتقاره «للوازم» ما خلا بديلاً واحداً، ذلك من أجل استبدال الكوادر القديمة: فالكوادر الجديدة تم انتاجها من «لوازم القاعة التوتاليتارية» عينها. وإن دراسة التغيرات الحاصلة في المناصب الوزارية تؤكد ذلك. ففي أقل من ثلاث سنوات، تم استبدال ستين مسؤولاً وزارياً وإدارياً، أي ما نسبته ٧٠٪ من هؤلاء. ولقد أمضى كل منهم ما متوسطه ثمانية عشر عاماً في وظائف من هذه الدرجة. لقد رحلوا الآن، ولكن من حل مكانهم؟ إن نسبة ٥٠٪ من الخلفاء هم من مساعدي الوزراء السابقين، فيما كان ٢٥٪ من الوزراء المعينين يشغلون مناصب قيادية في أجهزة الحزب[٣٩]. وهكذا نجد الجهاز المركزي ـ وفي هذه الحالة الخاصة، الجهاز الاقتصادي، كذلك الأمر بالنسبة للجهاز الرئيسي، أي الحزب ـ يعيد إنتاج نفسه.

تعبر أزمة «القمة» عن أزمة نظام السلطة الذي بدا فجأة غير قادر على تولي مسؤوليات يعتبرها في نطاق اختصاصه ويرى أحد علماء السياسية في «الصعوبات» الراهنة، برهاناً على أن «مؤسسي الماركسية قد أولوا القليل من الاهتمام للمشاكل المترتبة على تكون آليات السلطة السياسية في المجتمع الاشتراكي بعد الثورة»[٤٠]. ويكتب أحد المؤرخين قائلاً: «إن مسألة الوسيلة الديمقراطية والعملية لبناء السلطة ما زالت مطروحة على جدول أعمال الاشتراكية[٤١]. يؤكد أحد قياديي الحزب بأن تقوية «الدور الطليعي الذي ينهض به الحزب الشيوعي السوفياتي» يضمن «إعادة تجديد المجتمع»[٤٢]. ولكن عملية التقوية هذه لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق تقوية سلطة رئيس الحزب. بهذه الوسيلة يتم السعي لتجاوز أزمة «القمة»، إننا أمام طرق جديدة تستخدم من أجل تشغيل آلة قديمة.

أولاً بأول، وكمحصلة «للبريسترويكا، فإن الأزمة تتجه للتفاقم في شتى الميادين، وتغدو التشققات وحدة الحزب أكثر بروزاً. لذا لا يستطيع الجهاز إلا أن يظهر امتعاضه من الاصلاحات، التي لا ينتج عنها إلا المزيد من الفوضى وخسارة سلطة الحزب. ولم تؤد زيادة رواتب مستخدمي الجهاز في خريف ١٩٨٨، الى تحسن إداء العمل «التربوي للحزب»، وبالتالي لم تضف شيئاً الى هيبة الحزب الشيوعي السوفياتي. وكان من المنتظر

أن تشحذ، انتخابات عام ١٩٨٨ الخاصة بمجلس السوفيات الأعلى، حماس الجماهير وتفسح في المجال أمام الكوادر الجديدة، بما يسمح بـ «تطهير» ديمقراطي للجهاز القديم. إلا أن الذي حصل هو أن سلطة الحزب قد منيت بضربة إضافية. إن انهيار الأحزاب الشيوعية في بلدان «الكتلة الشرقية» سوف يؤدي من جهة، الى إطلاق ردات فعل دفاعية عند الجهاز، وبالمقابل فإن التفكير سينصب على مصير الحزب في الاتحاد السوفياتي. ففي مؤتمر نواب الشعب، دعا أندريه زخاروف الى ضرورة إلغاء المادة رقم ستة من الدستور، التي تنص على الدور القيادي للحزب في البلاد، وقد أثارت هذه الدعوة الاستنكار ولكنها ما لبثت أن أضحت شعاراً شعبياً دفع غورباتشوف الى التخلي نهائياً عن الصيغة القديمة. طبعاً، إن الغاء هذه المادة، لا يغير شيئاً بحد ذاته. وقد أشار ميخائيل غورباتشوف الى أن دستوري الاتحاد السوفياتي (١٩٢٤، و١٩٣٦)، لم يشرا الى الحزب. غير أن دوره، حسب تعبيرات لينين، كان مضمراً، وإن التخلي من قبل الحزب الشيوعي عن احتكاره لسلطة البلاد، سمح بإنعاش النقاش السياسي وإفساح المجال أمام ظهور العديد من الأحزاب التي رغم صغرها غالباً ما تحدث ضجيجاً، من الاتحاد الفوضوي ـ النقابي وصولاً الى الحزب الملكي الدستوري الأرثوذكسي. كذلك كان بالإمكان رؤية تظاهرات الشيوعيين الاصلاحيين؛ وإن الأمور قد وصلت بالبعض منهم الى ترك الحزب غير أن المؤتمر الثامن والعشرين رفض أية صيغة تمس طبيعة الحزب وعلى الخصوص المبدأ اللينيني المتعلق بالمركزية الديمقراطية، وأعاد انتخاب غورباتشوف في منصب الأمين العام.

تشكل أزمة «القمة»، و «القمة لم تعد قادرة»، أحد عناصر الوضعية الثورية. أما العنصر الثاني فتلخصه الصيغة التالية: «القاعدة لم تعد تريد».

الفصل الثامن
القاعدة لم تعد تريد

«... تفور داخل أزمة الطبقة المسيطرة نقمة وسخط الطبقات المخضعة». لينين.

إن التاريخ السوفياتي لا تنقصه الشواهد التي تسمح بالتأكد من صحة الملاحظة التي أبداها لينين: فبداية تظهر أزمة «القمة»، ثم يليها سخط «القاعدة». وبالامكان الوصول الى النتيجة عينها بالرجوع الى مادة تاريخية مختلفة. فقد اظهر تاريخ المعسكر الاشتراكي في مناسبات عدة وجود هذه الظاهرة ضمن حيز من الوقت، القصير نسبيا. فكل من «ازمات القيادة»، التي كانت مرتبطة حتى الآن بتغيير الفريق الحاكم في الكرملين، ترافقت مع السماح بإثارة النواقص. هذا الوضع أدى في مرات عديدة الى تفجير موجات من السخط إتخذت أشكالا مختلفة: بدءا من انتفاضات الأرياف مع موت ستالين وصولاً الى اضراب نوفوتشير كاسك، الذي قمع بقسوة من قبل السلطات عام ١٩٦٢؛ وبدءا من الاضطرابات العمالية عام ١٩٥٣ في برلين«الشرقية» وصولا الى ربيع براغ عام ١٩٦٨ و«تضامن» بولونيا عام ١٩٨٠.

إن نقمة وسخط «القاعدة» في الاتحاد السوفياتي، نادراً ما اتخذا شكل احتجاجات مفتوحة. فقوة جهاز القمع البوليسي وذكرى الرعب الستاليني تفرض النظر بإمعان واحتراس. ففي مقابلة اجرتها ليدي أستور مع ستالين ذات يوم، سألته وبصراحة الاميركيين المعهودة: «متى تتوقفون عن قتل الناس؟». اجاب ستالين وبشكل اعتيادي: «عندما لا يكون هناك ضرورة لذلك». يصعب الجزم فيما اذا كان الامين العام يدرك انه بقتله لملايين المواطنين السوفيات، يترك للورثة سلاحا غريبا، هو الخوف الذي

سيضمن لعشرات السنين إستقرار النظام. يقول بطل أ. أفينوغينوف في مسرحيته وتحت عنوان (الخوف) في عام ١٩٣١ ما يلي: «نحن نعيش زمن الخوف الكبير» وفي عام ١٩٨٨، يستعين بطل روايته بعض ذكرياته قائلا: «لقد ضربت عدة مرات: والكثيرون من عائلتي، ولأجيال تعاقبت، ضربوا ايضا. ان ضرب الرأس بهراوات الحديد!... يصعب النجاة منه. لقد رسخ ذلك فينا ولأجيال ... الخوف الاجتماعي. إنني مصعوق بالخوف الاجتماعي»[1].

يجد سكان مملكة الخوف طرقا خاصة للتعبير عن نقمتهم وسخطهم. فهم يتوقفون عن العمل. لقد طور الاشتراكيون في القرن التاسع عشر اسلوب «الاضراب العام»، كسلاح فعال في مواجهة الرأسمالية: فتشابك أيدي العمال يجبر الرأسماليين على تقديم التنازلات. إن حلم «الاضراب العام» تحقق لاول مرة بشكل كامل في الدولة الاشتراكية الاولى في العالم. «فالشعب فقد ايمانه، الشعب توقف عن العمل»، هذا ما عبر عنه احد مندوبي المؤتمر التاسع عشر للحزب، ف. ستارو دوبتسيف في معرض تشخيصه للوضع[2]. الشعب توقف عن العمل! وهذا ما لم يجرؤ إشتراكيو القرن التاسع عشر على الحلم به. تذكر مقالات عديدة في الصحف والمجلات امثلة مذهلة ولكنها لا تثير الدهشة باعتبارها امرا عاديا تظهر ان الجميع، في كل مكان، يعملون بقلة اكتراث شديدة. فإنفجار تشيرنوبيل، و منازل سبيتال التي بنيت على الرمال، وليس على الاسمنت، والتي انهارت كقصور من الورق ليست الا شواهد معبرة.

يعلن احد مندوبي مؤتمر الحزب أن «الشعب توقف عن العمل». ولكن من هو هذا الشعب؟ ممن تتكون هذه «القاعدة» التي «لم تعد تريد» وتعبر عن موقفها هذا برفضها للعمل؟ تعرض تاتيانا زاسلافسكايا «استراتيجية تسيير اجتماعي للبريسترويكا»، ترتكز الى تحليل دقيق لبنية المجتمع السوفياتي. وتميز بين احدى عشرة فئة اجتماعية. تمثل «القوى الكبرى للبريسترويكا»: ١ ـ الشريحة «المتنورة» أخذا بالاعتبار التأهيل المهني وعلى المستوى الاجتماعي والسياسي للطبقة العاملة؛ ٢ ـ الشريحة القاعدية، الاكثر عددا، من العمال المتوسطي الكفاءة؛ ٣ ـ شريحة العمال المفسدين بمداخيل يحصلون عليها منذ مدة طويلة ولا يستحقونها ويقدمون للمجتمع اقل مما يأخذون منه؛ ٤ ـ فلاحو الكولخوزات؛ ٥ ـ الانتلجنسيا العلمية والتقنية (اختصاصيو الاقتصاد، باحثو علوم وتقنيات)؛ ٦ ـ المسؤولون الاقتصاديون عن انتاج السلع

المادية؛ ٧ـ العمال المسؤولون عن التجارة والخدمات المخصصة للشعب؛ ٨ـ صغارة المقاولين الاشتراكيين؛ ٩ـ الانتلجنسيا الاجتماعية والانسانية (مربين، اطباء، صحافيين، كتاب، فنانين، باحثو علوم اجتماعية وانسانية)؛ ١٠ ـ العمال المسؤولون عن جهاز الادارة السياسي، بتعبير آخر الاجهزة الاجتماعية والدولة؛ ١١ـ القادة السياسيون للمجتمع. وتضيف عالمة الاجتماع الى هذه اللائحة، محاولة عدم نسيان اي قوة، «فئات الجريمة المنظمة، والتي تضم موظفين فاسدين في جهاز الادارة، اصحاب اعمال في اقتصاد الظل، عمال مسؤولون عن التجارة والخدمات، وفئة من العمال والمستخدمين الذين خرجوا عن الطريق المستقيم»[٣].

بإستثناء «مجموعات الجريمة المنظمة»، او المافيا كما درجت العادة على تسميتهم في الاتحاد السوفياتي، فإن كافة الفئات الاجتماعية التي ذكرت تعتبر ساخطة، وغالبيتهم الكبيرة تعمل بشكل سيء. إرتكز التفاؤل التاريخي الذي إتسمت به الايديولوجية السوفياتية ولسنوات خلت الى الشعار اللينيني المشهور: «ان الانتاجية، هي في التحليل الاخير، العامل الاكثر اهمية، بل أساس انتصار النظام الاجتماعي... وبالامكان الانتصار على الرأسمالية كمحصلة، لأن الاشتراكية تخلق انتاجية جديدة اكثر إرتفاعاً...»[٤] يكتب أحد مفكري الاستراتيجية الاقتصادية للبريسترويكا، في صيف ١٩٨٦، أبيل أغنبيغيان قائلا: «ان مستوى الانتاجية عندنا، هو أقل من نصف مثيله في الولايات المتحدة»[٥]. ووفقا لبعض المصادر الاكثر جدة: فإنه الانتاجية السوفياتية تمثل قرابة ثلث المردودية الاميركية، وفي المجال الزراعي لا تتجاوز نسبة ١٥٪»[٦].

ان الانتاجية متدنية الى حد كبير. كذلك الامر بالنسبة لنوعية المنتوجات الرديئة الى حد ان السوفيات رفعوا هذا الشعار الغريب: «النضال من أجل النوعية». «ما قيمة السلعة دون نوعية جيدة؟» يشير الكاتب الهزلي ميخائيل جفانتسكي. و«ما هي هذه الجبنة الرديئة النوعية؟ أليس هناك جبنة؟ أم إنه لم توجد جبنة بعد»؟ كما نشرت جريدة البرافدا إفتتاحية تحت عنوان: «تجربة في المواصلات. الهدف: سلموا البضاعة المطلوبة في الوقت المحدد ودون خسائر»[٧]. هذا الهدف الذي كان في اساس انشاء السكك الحديدية منذ مائة عام، أضحى موضع تجربة في بلد الاشتراكية الناضجة. وتكتب الجريدة ذاتها وهي وسيلة الاعلام المركزية للحزب، «وتشكل نوعية اجهزة التلفزيون الملون نقطة ضعفها». وهي تتجنب الاشارة إلى مميزات هذه الاجهزة، ولكنها تعلن ان

وزير صناعة وسائل الاتصال، المسؤول عن انتاج اجهزة التلفزه، بمضاعفة متانتها ٣٠٠٪ في علم ١٩٨٥ ، ولكنه لم يتحقق من وعده الا ما نسبته ٣,١ مرة[٨]. وفي عام ١٩٨٩ ، تم عرض مجموعة من السلع الرديئة في معرض إنجازات الاقتصاد السوفياتي الذي دشنه ستالين ووضع فوقه تحت حماية العامل والكولخوزية، منحوتة العامل الشهير لفيرا موخينا لم يثر ذلك دهشة الزائرين، لانه ما وجدوه في المعرض هو ما يرونه يوميا في المحلات. الشيء الوحيد الذي اعطى بعض الدينامية للجمهور، تمثل في اكتشاف فأرة في إحدى زجاجات المياه المعدنية؛ وهذا ما يصلح لانه يكون شعار المعرض.

تنطبق مقولة«النوعية الرديئة» على نشاط كافة الفئات الاجتماعية: العمال، الكولخوز، الموظفون، الاطباء، المعلمون، الكتاب، البحاثة، الذين يعملون ببطء وبشكل سيء. يكتب قارىء لصحيفة ازفستيا قائلا: سحقت المانيا تحت الدبابات، ودمرت اليابان بالقنابل الذرية، ونحن، بلد النظام الاجتماعي المتقدم ، الذي يملك موارد طبيعية وانسانية ضخمة، البلد المنتصر، نعيش وضعاً أدنى من الآخرين »[٩].

يعيش الشعب السوفياتي بشكل سيء. هذا التأكيد، سمح، المختصون الغربيون حديثا به لأنفسهم دون الخوف من إتهامهم « بمعاداة السوفيات»، و«بمعاداة التقدمية»، وتخريب «التعايش». فقد أدى السماح بذكر بعض الارقام الحقيقية عن وضع المواطنين السوفيات، بعد اعلان «الغلاسنوست»، بدفع عدد كبير من كتابات الخبراء الى هامش المكتبات. على سبيل المثال ، كتب في عام ١٩٨٠ سوران بيالير، وهو من أبرز المختصين الاميركيين بالاتحاد السوفياتي، مقيما عصر بريجنيف قائلا: «انني أرى في سنوات الستينات والسبعينات مرحلة مميزة في التاريخ السوفياتي. ومن المرجع ان يعتبرها المؤرخون في المستقبل من افضل المراحل التي مر بها البلد وأكثرها اشراقاً. اذ انها المرة الاولى التي استطاع فيها هذا المجتمع ان ينتج المدافع والزبدة، ويرفع مستوى المعيشة وان بشكل محدودة ويبلغ مرتبة التوازن العسكري مع الغرب. واذا كان صحيحاً ان هذا البلد يواجه جملة من المشاكل، غير ان أي منها لم يؤد الى توليد أزمة مع النظام. بالاجمال، انها مرحلة مميزة في تاريخه، وغير قصيرة. فقد استمر بريجنيف في مركزه لفترة اطول من تلك التي امضاها روزفلت، إنها عصر بكامله»[١٠].

لقد أصاب المختص الاميركي بشؤون السوفيات جانب الحقيقة في تأكيد لبلوغ

الاتحاد السوفياتي مرحلة التوازن العسكري مع الولايات المتحدة، خلال حكم بريجنيف. وكان باستطاعته ان يضيف بان في هذا «العصر» حقق الاتحاد السوفياتي «إمبراطوريته الثالثة»، في آسيا، وافريقيا واميركا اللاتينية. اما فيما يخص باقي ادعاءته فانها مجرد تصورات غذتها الاحصاءات السوفياتية المرفوضة بدورها، من قبل احصائيي الاتحاد السوفياتي انفسهم. خاصة ذلك الادعاء الاشد غرابة والذي يشير الى حل الاشكالية الابدية «الزبدة والمدفع».

في عام ١٩٢٨، طلب بطل رواية (المنتحر) نيكولاي إردمان من السلطة السوفياتية السماح له بالقول: «إننا نعيش بصعوبة». ويضيف مؤكدا بان «الحديث عن حياتنا الصعبة يجعل سبل العيش اكثر سهولة» وان هذا الالتماس لم يسمع الى بعد ستين سنة. فإمكانية التحدث عن الصعوبات فتحت الباب أمام الانتقادات: ففي أعمدة الجرائد والمجلات، والراديو، والتلفزيون، ويطرح فيض من الوقائع، والارقام، والشواهد حول الحياة في الاتحاد السوفياتي. وكل منها يرمي الى تعرية كافة التأكيدات الرسمية السابقة، فكل كلمة سبق ان تفوه بها سوفارين عام ١٩٣٨، وجدت ما يؤكدها بعد نصف قرن: ان الخطط الخمسية، والاحصاءات، والحسابات، الختامية، ما هي الا اكاذيب. كذلك الارقام والبيانات، والسلف، والاكتتابات، حتى الصور هي اكاذيب. اما بالنسبة للشهود والشهادات فإننا امام شهود غير صادقين يدلون بشهادات زائفة...»(١١).

من الوهم أن نعتقد اليوم، في عصر «الغلاسنوست»، بأن ما يقال هو الحقيقة، كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. لقد تم ترتيب كل شيء بهدف عرقلة سيل المعلومات الصحيحة، ومزجها بالباطل، وتكييفها مع متطلبات اللحظة. فمن الوسائل الفعالية للحد من «النقاش» الدائر حول المصاعب اليومية، تبرز وسيلة السماح بمنشورات معينة في الصحف والمجلات، والنشريات الظرفية، ومنع ظهور الاعمال المنفصلة. كذلك فإن المكتب غالباً ما تلقى مصير النشرة الاحصائية المعنوية: السكان ١٩٨٧. فلأول مرة منذ ستين عاماً، يتم السماح بنشر مؤلف يعنى، بجدية كبيرة، بمعالجة المشاكل الديموغرافية في الاتحاد السوفياتي ويقدم مجموعة من المعلومات حول نسب الولادات، والوفيات، والسكان، الخ. غير ان المعدلات السكانية جرى احتسابها على قاعدة الاحصاء السكني الذي تم في عهد ستالين، عام ١٩٣٩، هذا الاحصاء الذي

نعلم انه مزور. على ضوء ذلك فإن كافة المعطيات المرقمة تفقد معناها. كما يسجل فقدان الارقام المتعلقة بالاعوام: ١٩٢٥، و ١٩٢٧ ـ ١٩٣٨، و ١٩٤١ ـ ١٩٤٩.

بالرغم من التعقيدات الحاصلة، فإن سيل المعلومات المعلنة، وان كان لا يضيف شيئا بالنسبة لما هو معروف في الغرب، فإنه يؤكد وجود الأزمة. «بعد كل حساب، يؤكد احد الاقتصاديين، من غير الممكن القبول بهذه الوضعية، حيث البلد الاكثر غنى في العالم بموارده الطبيعية يعيش في ظل ظروف من الندرة الدورية ويتصف بإحدى أدنى مستويات المعيشة في اوروبا»[١٢].

لا يعتبر مستوى المعيشة في الاتحاد السوفياتي من ادنى المستويات في اوروبا وحدها، بل في العالم كله. فعلى قاعدة حجم المواد الغذائية والخدمات الموضوعة بتصرف المستهلك، فإن بلد «الاشتراكية الناضجة يحتل المرتبة الخمسين او الستين (وذلك وفقا للعناصر المعتمدة كنقاط مقارنة)[١٣]. ويبدو ان قاعدة الاقتصاد السياسي الاشتراكي المعتمدة في كافة بلدان المعسكر الاشتراكي قد صيغت في نفس الوقت: يتظاهرون بالدفع لنا ونحن نعطي الايحاء بأننا نعمل. ان صوابية الشق الأول يؤكدها احد الاقتصاديين السوفيات، عندما يشير الى حصة حجم الاجور من الناتج الوطني في البلدية المتطورة. ففي الولايات المتحدة، بلغت ما نسبته ٦٥٪ عام ١٨٧٠ و ٦٤ ٪ عام ١٩٨٠. اما في روسيا فقد بلغت قرابة ٥٤,٨٪ عام ١٩٠٨ و ٥٨,١٪ عام ١٩٢٨ السنة الأخيرة من سياسة الـ NEP، ثم تراجعت عام ١٩٨٥ لتقارب ما نسبته ٣٦,٦٪[١٤]. ويبرر وزير المال في الاتحاد السوفياتي بوريس غوستيف، معارضته للتعاونيات، حيث يمكن كسب قرابة الالف روبل في الشهر بواقعه: «ان العامل الذي يشتغل لمدة عشر ساعات في اليوم لا يتجاوز أجره الشهري مائتي روبل»[١٥]. يبالغ الوزير قليلا بالنسبة للساعات العشر ولكنه يقول الحقيقة بالنسبة للأجر. فمتوسط الاجر مع الاتحاد السوفياتي كان بحدود ٢٠٥ روبل عام ١٩٨٨؛ وفي صيف ١٩٨٩، إرتفع الى ٢٣٦ روبل. في الفترة نفسها إرتفع دخل أجراء الكولخوز من ١٥٣ روبل الى ١٦٦ روبل في الشهر. ويبدو، والحالة هذه، ان لوحة الاوراق المالية تعمل بوتيرة متسارعة.

وبإمكاننا ان نفهم شكل افضل ما يمثله متوسط الأجر السوفياتي، اذا عرفنا ان

عتبة الفقر في الثمانينات، او «الرفاه الضعيف» وفق اللغة السوفياتية، كان بحدود ٧٠ ـ٨٠ روبل حسب الخطة وبأنه سيبلغ ١٠٠ روبل في الشهر وللشخص الواحد في المدى القريب. وتشير الارقام الاكثر جدة الى وجود«عشرات الملايين من الاشخاص» (لا وجود لرقم دقيق) الذين يحصلون على دخل اقل من ٧٥ روبل في الشهر[١٦]. وتضم البلاد ٨٥ مليون متقاعد. وينال العامل المتقاعد او المستخدم ٨٤ روبل في الشهر، اما في حالة الكولخوز فإن الدخل يهبط الى٥٣ روبل. جميع هؤلاء يعيشون دون حافة الفقر، او في أحسن الاحوال على حدودها. في الأول من تشرين الاول عام ١٩٨٩، ارتفع المعاش التقاعدي من ٤٥ الى٦٠ روبل، ووفقا للمعطيات الرسمية. فإنه ما نسبته ٤١ مليون شخص، في عام ١٩٨٩، من سكان الاتحاد السوفياتي ينالون أجوراً شهرية أقل من الحد الأدنى الضروري (٧٨ روبل)[١٧]. بالمقابل وفي الولايات المتحدة، حيث تبلغ عتبة الفقر السنوية ١١٦١٢ دولاراً لعائلة مؤلفة من اربعة أفراد فإن عدد الاشخاص الذين تشملهم هذه الوضعية بلغ عام ١٩٨٧، ما مجموعه ٣٢,٥ مليون شخص[١٨].

تخفي المتوسطات الرقمية أكثر مما تظهره من الوقائع فهناك عائلات سوفياتية لا يتجاوز مدخول الشخص فيها، شهرياً، الـ ٤٠ و٣٠ واحيانا الـ٢٠ روبل[١٩].

مضى وقت، كان فيه السوفيات يضحكون من هذا التعبير: في الاتحاد السوفياتي، لا يوجد شيء ولكنه لاشيء غالي الثمن؛ وفي الغرب، يوجد كل شيء، ولكن ثمنه يساوي العينين. وتظهر الاحصاءات الراهنة، ان لا وجود لشيء، ولكن هذا اللاشيء يساوي ثروة. يظهر احد الاقتصاديين السوفيات، ان العائلة الاميركية تصرف ما نسبته ١٥٪ من ميزانيتها ثمن غذاء، أما العائلة الفرنسية فتصرف ٢٥٪، فيما تصرف العائلة السوفياتية ما نسبته ٧١٪ من دخلها ثمن الغذاء[٢٠]. في مناسبة الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية، تم الدخول المدوي لكلمة «عجز» الى القاموس السوفياتي. إذا كانت ملكة فرنسا ومنذ مائتي عام تستحق لقب السيدة عجز، الا يستحق اليوم الامين العام لقب الرفيق عجز. تطاول الندرة في البداية، السلع الغذائية. بالاضافة الى ذلك، وبشكل غامض، يلحظ ان أزمة التموين تزداد تفاقما منذ خمسة اعوام. والدليل الابرز توفر في خريف ١٩٨٨، عندما كان غورباتشيوف في زيارة الى سيبيريا، حيث استقبل من المواطنين المطالبين بالنقانق. وفي الأزمنة القريبة، لا يتوقف غورباتشيوف مرتبكاً

عن ترداد ما يلي: «لماذا إحتفظنا في ذاكرتنا بصورة الوفرة في المخازن، في حين اننا اليوم لا نرى الا نقص المواد الغذائية في كل مكان؟ في تلك المرحلة [٢١]، كنت الامين الثاني للجنة الحزب في منطقة ستافروبول، وبتعبير أدق مسؤول الصناعة الخفيفة والغذائية. ويتذكر السوفيات المشاكل التي كنا نواجهها على الجبهة الاقتصادية: لم نكن نعرف ماذا نصنع بالزبدة. . . في ضوء ما تقدم أسألكم ايها الرفاق! ماذا جرى؟»[٢٢]. ونستطيع ان نرد له السؤال: بعد كل هذا، فإنه هو الذي كان يشرف لسنوات خلت على الزراعة السوفياتية، وهو الذي يتولى مقاليد البلاد منذ خمسة اعوام. ولكن الأمين العام يطرح السؤال على «الرفاق». وبدورهم يجيبون بأشكالٍ مختلفةٍ. خلص المعهد الوطني للعرض والحال الاقتصادية، في دراسة أجراها حول اوضاع الصنف الاول من عام ١٩٨٨، الى الاتي: انه المستوى الحقيقي لاستهلاك المنتجات الغذائية أقل بكثير مما هو مطلوب ومتخلف كثيراً بالنسبة للبلدان المتطورة. . . ومتوسط سعر الخبز بالمفرق، واللحم، والفواكه والخضار يتجه نحو التصاعد. . . كما ان نقص المواد الغذائية والفروقات في كمية الاستهلاك (حسب المنطقة والفئات الاجتماعية) يتصف بالسلبية بشكل متزايد. . . وتصيب حالات الندرة الحادة في المواد الغذائية المدن الصغيرة التي تشكل ٧٥٪ من اماكن السكن في البلاد. اما حالات الندرة الاقل فتصيب المدن الكبرى (اكثر من ١٠٠ الف مواطن)، اي ما نسبته ١٣٪ من اماكن. السكن فقط»[٢٣]. ويلاحظ المواطنون ان المواد الغذائية الاساسية ـ لحم، زبدة، سكر ـ يستمر بيعها، بعد اربعين سنة من الحرب، بواسطة بطاقات التموين. هذه البطاقات تغطي ثلث مناطق جمهورية روسيا بالنسبة للحوم، وحيث لا تستعمل، فإن ذلك يعني انعدام وجود اللحوم. وفي مدينة موسكو نفسها اعطيت بطاقات للحصول على السكر[٢٤].

تصوغ «ألقمة» رداً على سؤال غورباتشيوف، اجوبة عادية. ففي مقابلة اجرتها الكسندرا بيريوكوفا، أمينة اللجنة المركزية المكلفة بشؤون التموين، مع مراسل البرافدا تؤكد: ان اللجنة المركزية للحزب والمكتب السياسي لديها النية الاكيدة في تأمين احتياجات السكان. وتضيف: «اننا نعالج المشكلة بيد قوية»[٢٥]. بعض الاخصائيين يؤكدون ان سبب الندرة مرده الى غياب «البنية التحتية: المخازن، والباعة، ولهذا السبب، نلحظ طوابير الانتظار الكبيرة. وتظهر بعض المعطيات الحديثة ان المواطنون السوفيات يخسرون في هذا السباق ما مجموعة ٦٥ مليار ساعة في السنة[٢٦].

ويعرض البعض ومنهم غورباتشوف ان السوفيات يأكلون كثيرا، الامر الذي يؤدي الى حدوث الندرة. ويرى الامين العام ان في أساس الازدياد المفاجيء للاستهلاك، نمو القدرة الشرائية وميل «الملايين من الاشخاص راهنا، نحو استهلاك سلع ذات نوعية عالية (لحوم، حليب، زبدة)، كانت فيا مضى محجوبة عنهم». والارقام الدالة على ذلك هي: يستهلك الفرد في عام ١٩٨٧، قرابة ٦٤ كلغ من اللحم، و ٣٤١ ليترا من الحليب، ١٨ كلغ من السمك و٢٧٢ بيضة[٢٧]. يكشف ان أندريه أورلوف، مدير معهد الطلب والحالة الاقتصادية، زيف هذه «المتوسطات الرقمية» بإظهاره للفوارق الكبيرة بين استهلاك «الاغنياء» (دخل أعلى من ٢٠٠ روبل للشخص) و«الفقراء» (اقل من ٥٠ روبل)، ويضيف قائلا: «يوجد عندنا ١٠ ملايين شخص، لا يستهلكون إلا ٢٠٠ غرام زبدة في الشهر، ١,٧ كلغ من اللحوم، و٣٠٠ غرام من السمك، و٦ بيضات و ٥ ليتر من الحليب»[٢٨].

تتسم هذه التفسيرات بالعقلانية الى حد ما: و «البنية التحتية» هي في الواقع ضعيفة، وآلية التحضير سمحت لسكان المدن الجدد أكتشاف وإختيار منتوجات غير معروفة في الارياف. غير ان هذه «العوامل الموضوعية» لا تفسر تدهور الاوضاع منذ عدة سنوات واتجاهها للتفاقم يوما بعد يوم، ففي مطلع السنة الجديدة ١٩٩٠، كتبت الصحف: لا وجود للسكر، أوالمقانق، ولا للبطاطا، أما الصابون ومسحوق الغسيل فقد إختفيا من السوق، كذلك الامر بالنسبة لـ «لمبات» الكهرباء ومعجون الأسنان. . .

في ضوء الأسباب العديدة التي أدت الى تفاقم مشاكل التموين، لننظر في الاجراءات التي اتخذت من أجل المعالجة. لم تؤد الاوامر المعطاة بشكل غير مدروس الا الى مزيد من الفوضى المعروفة في الادارة السوفياتية. وليس مصادفة ان يكون التعريف الاكثر دقة للجهاز السوفياتي، مع زمن البريسترويكا، هو بيت عام يندلع فيه الحريق في أيام الفيضان. فالاصلاحات يتم التحضير لها وتطبيقها دون يقين. فلا يتم الافتراض بان النتائج قد تكون سلبية. وعندما يحصل ذلك تتضاعف الشكوك حول فائدة الاصلاحات. طبعا، يدرك الاقتصاديون ان لا مناحة من احداث اصلاح جذري للأسعار من أجل مواجهة التغييرات الضرورية، ولكنهم يخافون ان يؤدي ذلك الى انهيار مريع لمستوى المعيشة عند شرائح «الرفاه الضعيف» من السكان. تعتبر العصا والجزرة

الوسيلتين الأساسيتين لدفع الانسان نحو العمل. لقد تخلت البريسترويكا عن العصا، ولكن الجزرة لم تزرع بعد.

يشكل تدهور الوضع الغذائي العلامة الاكثر وضوحاً الدالة الى مقاومة النظام للبريسترويكا. ويشخص الفيلسوف فياتشيسلاف كاربوف المسألة قائلا: «تعتبر الندرة بكافة اشكالها، ضرورية لمجتمع راكد، لانها تمنع الوعي المتحرر من ضعضعة القاعدة»(٢٩). هذه الملاحظة لا تحمل الا خطأ واحداً خاصاً بمرحلة بريجنيف. ولكن تاريخ الاتحاد السوفياتي يبرهن ان الندرة هي معطى ملازم للاقتصاد السوفياتي وللايديولوجيا ايضاً، بإستثناء بعض سنوات الـ NEP. لنستعيد العبارة التي قالها الفيلسوف البولوني ليسيك كولا كووسكي: «ان البؤس هو الروح القاتلة للشيوعية» فمقاومة اقتصاد البؤس المراقب، أو اقتصاد الندرة كما يقال اليوم، لاصلاحات غورباتشيوف، لا تعود الى كون هذه الاصلاحات جذرية بل لكونها سطحية ولا تمس بنى النظام. فضعف الاصلاحات هو القوة المتحركة للمقاومة. كما ان رفض الندرة يعني تأكيد ارادة التغيير الشامل. غير ان «القمة» لا تريد تغيير نظام يسمح لها بالبقاء في «القمة». ولا ترغب ايضا في اجراء اصلاح جزئي، لأن نظام القيادة قد ضعف. بالمقابل، تقاوم «القاعدة التغيير، لخوفها من ازدياد الوضع تدهوراً. وفي دراسة اجرتها زاسلافسكايا حول موقف الفئات الاجتماعية الاحدى عشرة من «البريسترويكا»، إستنتجت ان القاعدة الاجتماعية لـ«البريسترويكا» محدودة جداً. والطبقة العاملة، كما ترى عالمة الاجتماع تمثل «الفئة القائدة الاكثر عدداً في مجتمعنا»(٣٠). و «البريسترويكا» تستجيب بشكل اجمالي لمصالحها. ولكن الاوجه السلبية للتغيير والمتمثلة بارتفاع الاسعار، ونقص الاستخدام الناجم عن الغاء مراكز وظيفية غير مربحة او غير مفيدة، يؤدي الى تقلص إنصار البريسترويكا الى حدود الشرعية «المتنورة» من الطبقة العاملة: فالتحولات الجارية تؤذي بشكل محدود « العمال المؤهلين، والمنتجين، القادرين على اطلاق المبادرات والنشيطين سياسياً». في حين ان الشريحة الاكثر عددا بين العمال، من ذوي التأهيل المتوسط أو «مستخدمي المؤسسات والادارات صاحبة الأمتيازات» (خاصة الصناعة العسكرية)، الذين يحتلون وظائف غير مربحة، وبإمكانهم الحصول على مداخيل غير شرعية، او انهم قد إعتادوا على العمل غير الجاد، فإنهم ضد «البريسترويكا»، لما تسببه من خطر على إستقرار حياتهم وتدهور في

أوضاعهم(٣١). تشير زاسلافسكايا الى ان فلاحي الكولخوزات، يجنون مكاسب هامة في ظل «البريسترويكا. وبالرغم من ذلك فإن «البريسترويكا تثير مخاوف جدية لدى البعض منهم». فالتقارير الاقتصادية الراهنة لا تساوي شيئا، لانها لا تعطي لفلاحي الكولخوزات أية حقوق. بالمقابل، فإنهم يتمتعون ببعض الضمانات الاجتماعية، على محدوديتها، فهم ليسوا مسؤولين عن نتائج عملهم وبالتالي يجهلون المخاطر الاقتصادية(٣٢). أما بالنسبة للانتلجنسيا العلمية والتقنية، أهل «التقنوقراط»، الذي يعلق عليهم الجزاء الغربيون الكثير من الامال، فإنهم وفق ت. زاسلافسكايا يحصلون على مكاسب هامة في ظل «البريسترويكا». غير ان الوعي الاجتماعي لهذه الفئة «شديد الشكوك»، فالعديد من الاختصاصيين «لايعتقدون بأن من الممكن كسر آلية الكبح»(٣٣). فجزء لا يستهان به من الانتلجنسيا العلمية والتقنية «إعتادت على الجلوس في أماكن دافئة وان كانت صغيرة، والحصول على مداخيل ثابتة، وعدم تحمل المسؤولية عما تقدمه من عمل».

اما فيما يخص موقف فئة المسؤولين الاقتصاديين، اي مدراء المؤسسات، وتجمعات الانتاج، وتنظيمات البناء والنقل، والسوفخوزات، والكولخوزات، وبإختصار، كافة المشرفين مباشرة على تسيير الحياة الاقتصادية للبلاد، فهم بغالبيتهم ضد «البريسترويكا». وتفرض زاسلافسكايا نتائج إستطلاع رأي حول السؤال: ألى اي حد يمكننا الاقتناع بإمكانية الوصول الى نتائج ايجابية من خلال الاصلاح الاقتصادي؟ فقط ٩٪ من الاشخاص الذين طرح عليهم السؤال، أجابوا «مقتنع الى حد بعيد» و ٤٩٪ اجابوا بانهم مقتنعون «جزئيا»، و٢١٪ اجابوا «بلا» و٢١٪ ايضا لم يعطوا رأياً. كما ان ما نسبته ٨٢٪ من ممثلي هذه الفئة يعتبرون ان مشاريع الاصلاح على مستوى المؤسسات تم تحضيرها بشكل سيء أو أنها لا تنطوي الا على خطوط عامة(٣٤). بموازاة ذلك، فإن المسؤولين الاقتصاديين ينالون اليوم رواتب جيدة ويتمتعون بمروحة واسعة من الامتيازات. في حين أن الاصلاحات تعني ضرورة تغيير عاداتهم، وان يظهروا مبادرة أكبر، ويتحملوا المخاطر وتزداد المسؤولية الملقاة على عاتقهم.

يظهر العمال المسؤولون عن التجارة، والتموين الاجتماعي والخدمات، عدائية صريحة ضد البريسترويكا، فهذه الفئة، هي التي تقود، في الممارسة، سياسة الندرة وتستعيد بشكل واسع لمن الامكانيات التي يوفرها البؤس المراقب من يراقبونه، اما

فئة«صغار اصحاب الاعمال الاشتراكيون» فهم ثمرة «البريسترويكا»، التي أجازت «النشاط الفردي والعائلي »، او التعاوني. لذا نجد فيهم حلفاء «البريسترويكا». كما تؤكد ت. زاسلافسكايا. مع تمييزها داخل هذه الفئة « جناح يطمح الى الفن السريع ، والذي غالبا ما يكون على حساب القانون والاخلاق»(٣٥).

بالانتقال الى دراسة موقف الانتلجنسيا الانسانوية والاجتماعية(مربين، اطباء، عاملين في حقل الفن والثقافة، بحاثة في العلوم الانسانية والاجتماعية) نجد انفسنا امام فئة من المفترض ان تشكل دعامة قوية للبريسترويكا». الا أن ت.زاسلافسكايا تستنتج ان لهذه الفئة عدة نقاط ارتباط مع «الزمن السابق للاصلاح». فالشيء الذي لم تتم الالتفاتة اليه، هو ان عمل الاطباء والمدرسين كان من نتيجة في «مرحلة الركود»، بروز ظاهرة الفساد: فالخدمات المقدمة لا تتم دون مقابل كما لو أنها عمل خاص. الامر الذي سهل نشوء «نسق منظم للابتزاز، يقضي بفرض رسوم للاستشفاء، والامتحانات، والعمليات الجراحية، الخ. . .»(٣٦) وغدت الطبابة السوفياتية المجانية بشكل علني ـ وان كان غير رسمي ـ مدفوعة الثمن. هذا «النسق المنظم للابتزاز» نجده في المدرسة ايضا. بالمحصلة ، لا تنسى هذه الانتلجنسيا انها مسؤولة جزئيا عما آلت اليه «الوضعية الراهنة للمجتمع»، كما ان قسماً منها لا يريد ان يغير شيئا. اما بالنسبة لـ «البحاثة في علم الاجتماع واولئك الذين يعملون في المجالات الايديولوجية، فإنهم مشدودين الى تصرفات وكتابات سابقة. وهذا ما يبني، كما ترى ت.زاسلافسكايا «احد العوامل الاساسية المفسرة لنزعة المحافظة التي تبديها شريحة هامة من الانتلجنسيا الانسانوية والعلمية»(٣٧).

تحيا فئة العمال المسؤولين من الادارة والجهاز، أي من جرت العادة على تسميتهم بالـ«نومانكلاتورا، «بطريقة أفضل من غالبية السكان»، وتتمتع بـ«امتيازات مادية ، واجتماعية، وثقافية هامة». فضلاً عن ذلك، «فإن رجال الجهاز كانوا ابان مرحلة الركود يستحوذون على سلطة سياسية كبيرة». أخيراً، فإن العمال المسؤولين عن الجهاز هم بلا شك « المدافعين الاشداء عن الافكار التي كانت مسيطرة في مرحلة الجمود»(٣٨). فالجهاز لا يستطيع إلا ان يعارض الـ«بريسترويكا»، التي تهدده بإنتزاع جزء من إمتيازاته. ناهيك عن طمأنينته، هذا دون الكلام عن خطر رجال المعلم الجديد الساعين الى احتلال مراكز شغلها آخرون لمدة طويلة.

تنتقل ت. زاسلافسكايا، بعد استنتاجها بأن غالبية الفئات المكونة للمجتمع السوفياتي لا تريد التغيير، الى تحليل موقف الفئة الاخيرة (الاولى؟)، والمتمثلة بالمسؤولين السياسيين وممثلي السلطة العليا وقادة الحياة السياسية. وتميز عالمة الاجتماع بين المجموعات التالية: الاعضاء الاصليين والاحتياطيين للجنة المركزية، نواب مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي، والوزراء، الجنرالات، طبقة الدبلوماسيين ـ العليا، مسؤولي الحزب والسوفياتات في مختلف الجمهوريات، والمناطق والمدن الكبرى. وبكلمة مختصرة تضم هذه الفئة كافة المواقع (نومانكلاتورا) التابعة للجنة المركزية والمكتب السياسي الى هؤلاء تعود سلطة قيادة البلاد.

هل يطمح هؤلاء للتغيير؟ وهل لهم حاجة «للبريسترويكا» التي اطلقتها «القمة»؟ تكشف ت. زاسلافسكايا وجهي سلوك اعضاء المجموعة القائدة: المتغير الاجتماعي والمتغير الشخصي. فالمصلحة الاجتماعية تقضي بضرورة «اخراج المجتمع السوفياتي من الركود، وتسريع نموه الاجتماعي والاقتصادي، ومضاعفة قوته وتأمين قدرته على الدفاع». في حين ان المتغير الشخصي يدفع بأتجاه «الحفاظ على مراكزهم وسلطتهم والعمل على تقويتها»(٣٩).

من المنطقي والحالة هذه ان يحصل التعارض بين من يضعون المصلحة الاجتماعية مع المرتبة الاولى وبين من يدافعون عن مراكزهم. وبتعبير آخر، بين الثوريين والمحافظين. الامر الذي يعني فتح باب الصراع من اجل السلطة. هذا الواقع أوحى لزاسلافسكايا بإكتشاف: ان الصراع من اجل السلطة (بما في ذلك بين الاشخاص)، الذي يخترق تاريخ الانسانية، لا يتوقف مع بلوغ مرحلة الاشتراكية، وفي هذا الصراع، نجد ان المصالح الاجتماعية يحملها «م. غورباتشيوف، ومستشاروه الاقربون، وبعض القادة الآخرون.». وهم يمتلكون، بإعتراف الشعب نفسه»، صفقات مميزة: «إحاطة معرفية عالية في الميادين السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وشجاعة مدنية كبيرة، وارادة حازمة وقناعة راسخة بان «البريسترويكا» هي ضرورة تاريخية»(٤٠).

كتب لينين، في بداية القرن قائلا: ان دائرة الثوريين ضيقة جدا. ويستخلص من تحليل ت. زاسلافسكايا، ان دائرة الثوريين الذين اطلقوا البريسترويكا هم اليوم قليلو العدد. انهم قمة «القمة». وبين الصفات التي يملكونها او التي يملكها (لانه الوحيد

الممكن تسميته)، نتذكر المعارف العليا، والشجاعة الكبيرة، والقناعة الراسخة، والارادة الحازمة. وتطرح الصفة الاخيرة. فائدة أكيدة، لانها من الصفات الاساسية لامين عام سابق. فقد أعلن غوركي ، في آب ١٩٣٤ ، إبان انعقاد المؤتمر الاول لاتحاد الكتاب ما يلي: «نأخذ الكلام في بلد . . . حيث تعمل، صانعة المعجزات التي لاتكل: الارادة الحديدية لجوزيف ستالين».

واذا كان«م. غورباتشيوف، ومستشاروه الاقربون، وبعض القادة الآخرون» يشكلون قمة الهرم السوفياتي ، فإن المنطق السليم يفترض ان كافة المجموعات الاخرى، تحتل المراتب الادنى وتمثل «قاعدة» الهرم. واذا ما قلبنا راهناً الهرم، فإن القمة تصبح هي القاعدة، اي اساس البريسترويكا، كما يشهد تحليل زاسلافسكايا في الواقع، لا يمكننا الاقتناع بهذه اللوحة، فمن المبالغة، التأكيد بأن جزءا اساسياً «من النواة القائدة للحزب الشيوعي والدولة السوفياتية»[٤١]، تعي ضرورة تغيير اساليب الحكم وما اصاب السلطة المركزية من ضعف. اي ان الخلافات لا تتجاوز حدود إيقاع التغييرات، التي يفرضها الصراع من اجل السلطة قبل اي شيء آخر.

بالمحصلة: يسود الإستياء المجتمع ككل. هذا ما أعلنه غورباتشيوف في بداية عام ١٩٨٨ قائلا: «يحب البعض البريسترويكا خاصتنا. فهم يضعون امامها العراقيل. ويجهدون لزرع بذور الشك في الضمائر: هل بنا حاجة لهذه «البريسترويكا؟» فنحن نفرض على الطبقة العاملة التمويل الذاتي وتحمل المسؤولية تجاه الدولة. ونقنن مبيع «الفودكا». ونسيء للانتلجنسيا باخضاعنا العلم للتمويل الذاتي. ونقلص جهاز الادارة[٤٢]. الجميع مستاء، و«القاعدة لم تعد تريد».

نرى في العودة الى الصيغة المشهورة لجورج أورويل، الوسيلة الفضلى لتحديد «القاعدة» في الاتحاد السوفياتي، مع شيء من التصرف: جميع الناس، في الاتحاد السوفياتي في القعر، ولكن رغم ذلك هناك تفاوت بين البعض والبعض الاخر. ويندر ان نجد بلداً في العالم تظهر الفروقات الاجتماعية فيه بهذا الجلاء، ولا تتوقف «عن التجوف»[٤٣]. اشار غورباتشيوف في إحدى خطبه الاولى الى«ضرورة رسم سياسة متماسكة بهدف تعميق العدالة الاجتماعية»[٤٤]، اثر ذلك بدأ الاعلاميون السوفيات بالحديث عن «غياب العدالة الاجتماعية» التي تجد تعبيرا عنها في المروحة الواسعة

للأجور. فقد سقط متوسط الأجر، عام ١٩٨٨، دون الحد الذي يشكل حافزا للعمل، كما ان الامتيازات المرتبطة بالوظيفة المشغولة في السلم الاجتماعي تلعب دوراً هاماً. والحالة هذه، ليست «القاعدة» الحقيقية الا ذلك الجزء من السكان (الغالبية العظمى) الذي لا يحصل فقط على اجر متوسط وغالباً دون المتوسط، بل يجد نفسه مجبرا على الركض وراء الطبابة المجانية، والسكن في الشقق الشعبية، واستخدام النقل المشترك، وشراء حاجياته من مخازن الدولة.

شكلت الطبابة المجانية، ولعشرات السنين الماضية، أحدى المؤشرات الأكثر أقناعاً بالنسبة للأسئلة التي نملكها من وضع الأنسان في الأتحاد السوفياتي، وميزة الاشتراكية الكبرى على الرأسمالية. كشفت الهزة الارضية التي وقعت في ارمينيا الواقع الفعلي للطبابة في الاتحاد السوفياتي امام العالم تظهر الارقام، والوقائع، وبيانات وزير الصحة، والتقارير، والادبيات أن الوضع في ارمينيا لا يخرج عن المعيار السائد في الاتحاد السوفياتي، واذا كان ما هو أساسي معروفاً (كما في باقي الميادين)، فإن العبرة تبقى في التفاصيل كما كانت تقول كاترين الثانية، هذه التفاصيل التي تثير الفزع. في نيسان ١٩٨٧، تسلم الاكاديمي تشازوف، والذي تولى لعدة سنوات مهمة طبيب القلب الشخصي لبريجنيف، مهام وزير الصحة. اعطى عدة مقابلات لصحافيي البرافدا، ونوفال دي موسكو، وليتراتورنايا غازيت ولمجلات وصحف أخرى، أعاد فيها بشكل اجمالي الخطاب نفسه حول الطبابة السوفياتية. في المستشفى، لا تتجاوز الميزانية المخصصة للمريض ٦٠ كوبيك وروبل واحد لمريض الجراحة[٤٥]. والمساحة المقررة لكل سرير ٤,٢ متر مربع كمتوسط، في حين ان المقياس العام يبلغ ٧ أمتار مربعة[٤٦]. ومع آسيا الوسطى على سبيل المثال، لا يمتلك العديد من المستشفيات الماء الساخن أو نظام إمدادات أولي. لا يذكر الوزير اوضاع آسيا الوسطى الا على سبيل المثال: فالوضع مشابه في الجمهوريات الاخرى. كما ان النقص لا يشمل فقط «الوسائل التقنية المعقدة»، «فعلى اطباء الجراحة ان يشحذوا المبضع بعد اجرائهم عمليتين، وقبل الشروع في اجراء الثالثة». وهناك نقص في الادوية: فالسكان لا يستطيعون الحصول الا على نسبة ٨٥٪ من حاجتهم و٤٠ الى٦٠٪ بالنسبة لادوية القلب والشرايين والمضادات الحيوية[٤٧]. يرى الاكاديمي تشازوف، ان الطبابة في الاتحاد السوفياتي كانت تفتخر، حتى لزمن قريب، بالعدد الوفير من الاطباء: النسبة

المئوية الاكثر إرتفاعاً في العالم. اما اليوم، وكما يلحظ الوزير، فإن المستوى المهني للاطباء السوفيات أصبح متدنياً: «اذ غالبا ما يعجزون عن اجراء عملية ولادة، أو عمليات أخرى بسيطة، ويرتبكون امام مخطط قلب كهربائي»[٤٨]. هذه الوقائع لا تشير الى الاسوأ، لأن الاطباء، حتى اكثرهم كفاءة. مجبرون على الالتزام بتنفيذ البرنامج، والحديث هنا عن برنامج المعاينة الطبية: على الطبيب ان يعاين ٨ حالات في الساعة، اي ٧,٥ دقائق لكل حالة، منها لملء الاستمارة[٤٩]. واذا علمنا ان العديد من الاطباء يتجاوزون البرنامج الموضوع، فبإمكاننا التأكيد على ان الطبابة السوفياتية هي الاسرع في العالم.

مهما كانت الارقام صريحة فإنها لا تستطيع ان تنافس الكلمة الادبية. يروي الكسندر بيلكين، في قصته القصيرة «حامل الجرحى»، ببساطة ودون تكلف أحداث يوم في حياة طبيب إسعاف في موسكو، حيث يعطينا صورة مخيفة عن وضع المريض السوفياتي. مع العلم ان الرواية لا تتجاوز حدود الوضع الطبي في موسكو العاصمة. فلا وجود للأدوية، ولا للوسائل التقنية الأولية، كذلك يلحظ النقص في عدد الاطباء والسيارات. ويلجأ الاطباء الى حقن المرضى بكميات وافية من الادوية بغرض تسكين آلامهم بسرعة. وذلك إما لأنهم مرهقون أو قليلو الاكتراث. اما المرضى المعالجون فلا يبدون أية مقاومة، إذ لاخيار امامهم. «فمن يتولى الدفاع عن المسنين المسالمين؟» يسأل بطل القصة «ومن يحميهم من الفظاظة والكلام القاسي، وإنعدام ـ الضمير المهني؟»[٥٠]. ولا يجد المؤلف أجوبة على ذلك، فهو لا يعرف. واذا كان من الصعب ان تكون بصحة جيدة في الاتحاد السوفياتي، فإن من الاصعب ان تكون مريضاً.

يجد وزير الصحة في غياب الوسائل السبب في كل ما تحمله الطبابة السوفياتية من شوائب وأخطاء. يخصص اليوم في الاتحاد السوفياتي للصحة، ما نسبته ٤٪ من الدخل الوطني، ويضيف تشازوف، بأن هذه النسبة «تميل للانخفاض»[٥١]. وهذا يعني، في ضوء المعطيات المطلقة ـ المعطيات السوفياتية ـ ان الاتحاد السوفياتي قد خصص للصحة ٢٢ مليار روبل في أواسط الثمانينات، مقابل ١٧٤,٨ مليار دولار في الولايات المتحدة. في ظل هذه الظروف، ليس من المفاجأة بشيء، ان يشحذ الجراحون مباضعهم بأيديهم. كما لا نفاجىء عندما نعلم ان الاتحاد السوفياتي يخطط لانتاج الحقنة «السيرانك» التي ترمى بعد استخدامها في عام ٢٠٠٠. حتى وقت قريب، لم يكن هذا

الوضع يطرح مشكلة. بسبب تعقيم الابر. ولكن عندما نعلم ان الماء لا يغلى بشكل كافٍ، أو إن الممرضات مستعجلات، فإن النتائج تصبح غير محسوبة.

في المحصلة، فان نسبة ١٣٪ من سكان مولدافيا (قرابة ٢,ط مليون نسمة) مصابون باحد أمراض الكبد. وتضيف صحيفة «سوفتسكايا مولدافيا» التي اوردت الرقم، بأن العدد الاجمالي لمرض الاتحاد السوفياتي هو بحدود ٣,٨٪ من عدد السكان (قرابة ١٠ مليون شخص) (٥٢). كما ان اثارة معضلة الحقنة «السيرانك» التي ترمى، لا تعود الى امراض الكبد، بل الى اكتشاف مرض السيدا في الاتحاد السوفياتي. هذا المرض الذي أقلق الاطباء السوفيات أكثر من مرض «اليرقان» الشعبي.

في عام ١٩٧٨، نشرت صحيفة «وال ستريت جورنال» مقالة موقعة من قبل الاقتصادي البريطاني كرسيتوفر ديغيس وعالم السكان الاميركي موراي فيشباش. كشفا فيها معدل وفيات الاطفال في الاتحاد السوفياتي، حيث تم التوقف عن تقديم أرقام رسمية حول هذا الموضوع منذ عام ١٩٧٢. استنتج المؤلفان ان معدل وفيات، الاطفال الذي بلغ ٢٢,٩ بالألف بالنسبة للمواليد عام ١٩٧١، ارتفع الى ٣١,١ بالألف عام ١٩٧٦.. هذه الارقام اثارت امتعاض العديد من الخبراء الغربيين، الذين عبروا عن موقفهم هذا في عدة مقالات، حملت العناوين التالية: «وفيات الاطفال في الاتحاد السوفياتي: النزعة المعادية للسوفيات في الولايات المتحدة»، او «استخدام معلومات مشوهة بهدف استعادة الحرب الباردة: الصحة في الاتحاد السوفياتي». يعلن كريستوفر ديفيس حديثاً، بأنه كان «دائما يتهم بمعاداة السوفيات» (٥٣) ويأمل التوقف عن لصق هذه التهمة به، بعد نشر المجموعة الاحصائية السوفياتية «سكان الاتحاد السوفياتي ١٩٨٧». إذ تشير الأرقام الرسمية الى ان نسبة وفيات الاطفال في الاتحاد السوفياتي بلغت عام ١٩٧٦، ٣١,٤ بالألف، أي أكثر من الرقم الذي حدده «المعاديان للسوفيات»، وهو ٣١,١ بالألف(٥٤). تعترف السلطات اليوم، بأن الاتحاد السوفياتي يحتل في هذا المضمار الدرجة الخمسين اي بعد جزيرة موريس وبارباد، كما يحتل المرتبة الثانية والثلاثين بالنسبة لمتوسط مدى العمر. عام ١٩٧٩، تم احصاء ١٠٢,٤ حالة اجهاض لكل ١٠٠٠ امرأة في سن الانجاب. اما الارقام الموازنة بالنسبة لألمانيا فهي بحدود ٥,٩، و١١,٤ في بريطانيا، و٢٧,٥ في الولايات المتحدة(٥٥). وتظهر المجموعة الاحصائية ان العام ١٩٧٩ لا يمثل القمة: ففي ١٩٧٦ تم إحصاء ١٠٧,٤

حالة إجهاض لكل إمرأة. وفي ١٩٨٦ تراجع عدد حالات الاجهاض الى ١٠١,٢ حالة(٥٦).

يدرس علماء الاجتماع اليوم، البنية الاجتماعية للاتحاد السوفياتي، مستعينين بأفضل المناهج العلمية المعاصرة. فمن السهل التمييز بين «القاعدة» و«القمة»، أقله بالنسبة للوضع الغذائي كل منهما. يذكر بوريس يلتسين بأنه بعد طرده من «قمة القمة»، درج على تناول النقانق العادية، ولكن «مغمضاً عينيه»(٥٧)، لأن منظرها (المقانق المسلوقة والمعدة للبيع في موسكو لها لون أزرق) يثير الاستمئزاز. مع العلم، ان بوريس يلتسين يبقى رغم كل شيء في المرتبة العليا من الهرم، فهو احد اعضاء اللجنة المركزية ووزير سابق. بالامكان ايضاً، استخدام «النقل»، من اجل دراسة التراتب الاجتماعي في الاتحاد السوفياتي. اذ يدرك كل من أقام في الاتحاد السوفياتي، مدى الصعوبة للركوب في الحافلات الكهربائية، و«المترو»، والسيارات الكبيرة. كما تجدر الاشارة الى ان كلفة صيانة ٦٥٠ الف سيارة في الخدمة، تصل الى ٤ اضعاف ميزانية النقل العام، أي ما يقارب ٤,٥ مليار روبل. أخيراً، تشكل الخدمات الطبية مؤشراً يسمح بالتمييز بين وضع «القاعدة» ووضع «القمة». ويلحظ وزير الصحة وجود ١٧ إدارة معينة بهذه الخدمات. غير ان الادارة الرابعة ، وتسمى عادة «خاص بالكرملين »، تستهلك بمفردها ٥٠٪ من الميزانية المخصصة(٥٨). ويستطيع تشازوف، بوصفه مديراً سابقاً للادارة الرابعة، وفي معرض كلامه عن صغر حجم ميزانية وزارته، ان يوضح ما يلي: ٥٠٪من الميزانية «القمة» والـ٥٠ المتبقية لـ «القاعدة». لقد تم افتتاح «الصيدلية الدولية» في موسكو أواخر عام ١٩٨٨ : حيث بإستطاعة الرعايا الاجانب. مقابل الدفع بالعملة الصعبة، الحصول على الادوية التي لا توجد في الصيدليات العادية (بإستثناء صيدلية الكرملين). سأل احد الصحافيين رئيس هذه الصيدلية التعاونية: «لنفترض ان احد المواطنين السوفيات احتاج لدواء نادر، لا يجده الا في صيدليتك ؟» على هذا السؤال أجاب المسؤول: «بكل أسف، في هذه الحالة، نحن عاجزون»(٥٩). في ٢٢ تشرين الاول ١٩٨٨، تم في باريس توقيع اتفاقية من أجل انشاء شركة مساهمة فرنسية سوفياتية تهدف الى بناء مجمع استشفائي في موسكو، في صيف ١٩٩٠. والمتوقع إستقبال ٤ آلاف مريض أجنبي(٦٠) في السنة.

من المستبعد ان نجد بلداً آخر في العالم، يؤمن للأجانب («ما فوق القمة؟»)

خدمات طبية لا يستطيع المواطنون الحصول عليها . والمقارنة الوحيدة التي تحضرنا ترجع الى القرن السابع عشر، حيث كانت تخصص موسكو للمدعوين الأجانب حيا خاصاً، مثال «حي الألمان»(٦١).

اذاً أجور منخفضة، نقص حاد في السلع الغذائية، أزمة سكن، خدمات طبية سيئة. أضف الى ذلك عشرات السنين من التخطيط الاشتراكي المركزي الذي وجه ضربة قاسية للبيئة، نجم عنها إحدى أشد الأزمات وطأة في الاتحاد السوفياتي. ويعطي وزير الصحة تشازوف تعريفاً جلياً لها: «ان تركز مواد التلوث في ١٠٤ مدن من البلاد يصل على الاقل الى ١٠ اضعاف المعايير الصحية المعتمدة»(٦٢).

وعندما يتم التحدث عن نسبة ١٠ اضعاف على الاقل، فإنه هذا يعني ان التنفس مميت والمياه ملوثة، والمنتجات الغذائية فاسدة في ١٠٤ مدن. ولكن الوزير لم يحدد المدن التي عناها. فإذا كان الاتحاد السوفياتي يضم عام ١٩٨٧، ٢٦٢ مدينة (٥٠ ١٠٠ يوردها تشازوف تشهد على كارثة حقيقية. مع العلم أن التلوث لا يصيب المدن فقط. فالصحافة السوفياتية مليئة بالرسائل والتقارير الحسية والمقالات العلمية التي تتحدث عن التدمير الكامل للأنهر والبحيرات والبحار الداخلية والغابات، ناهيك عن دمار التربة في آسيا الوسطى، ومناطق البلطيق، وسيبريا، وروسيا الوسطى. تحدثت «اغنية الوطن» الشهيرة قائلة: «واسعة مواطن ولادتي»، «عديدة هي الغابات والحقول والأنهر». أما اليوم فبإمكاننا ان نضيف: «كل شيء في بلدي قد تلوث، الغابات، الحقول والأنهر». يعتبر استخدام الـ«بوتيفوس» في اوزبكستان من الامثلة الصارخة الدالة على هذا التدمير المنظم للطبيعة وعلى حساب الحياة الانسانية. لقد أدى استخدام الجيش الاميركي لمواد كيميائية ـ بكميات محدودة ـ في فيتنام الى إدانته من قبل العالم المتحضر بأكمله. وتشبه ماده «بوتيفوس» مثيلتها الاميركية الـ «فولكس» او «DEF» «مادة فوسفورية ـ عضوية مسممة» ـ منذ ١٩٦٤، نشهد طائرات سوفياتية ترش المادة على نباتات القطن، كي يبدأ الحصاد، ما ان تتساقط الاوراق. وإذا كان عذر الاميركيين انهم في حالة حرب. فإن القادة السوفيات هم ايضاً بحاجة للقطن. ويدرك العلماء الآثار الناجمة عن استخدام هذه المادة: «التي ينجم عن ملامستها للكائن العضوي، اتلاف الجهاز العصبي المركزي، والقلب، والكبد، والكلى، كما ان لها آثار سلبية على المناعة (عند الاطفال خاصة). . . ، كما تؤثر على خصوبة المرأة، وتضاعف أمراض

الحمل والولادة»[٦٤]. وليس مصادفة ان تتم الاشارة الى النساء والاطفال ، فالنساء هم الذين يقومون بقطف القطن، وفي اثناء العطل الصيفية، يمد الأطفال يد المساعدة. واذا لم تتساقط الاوراق كاملة بعد البدء بالحصاد، فمن الممكن اللجوء مرة أخرى الى مادة الـ «بوتيفوس» لرش النباتات. لقد منع وزير الصحة، في آذار ١٩٨٧، استخدام هذه المادة. ولكن في غياب مستحضر بديل، فإن الشكوك تبقى قائمة حول فعالية هذا المنع.

واعلن بوريس يلتسين: «اننا نواجه الأزمة وبعدها نصل الى الهاوية»[٦٥]، والازمة، تعبير عن استياء «القاعدة» التي «لم تعد تريد». أما «الوضع الثوري» لسنوات الثمانينات في الاتحاد السوفياتي، فتكمن خصوصيته، في اننا اذا عرفنا لماذا «القمة لم تعد تستطيع»، فإن من الصعب معرفة لماذا «القاعدة لم تعد تريد». من العلوم، ان الناس يفضلون العيش ضمن شروط أكثر إنسانية. ولكن في العقد الاخير من القرن العشرين، لا نجد دائما البرنامج الذي يسمح بتحول الاتحاد السوفياتي الى بلدٍ سويّ - وهذا عائد الى تعدد الشرائح المكونة للـ«قاعدة»، «بدءاً من المتقاعدين التعساء الذين ينالون ٢٠ روبلاً في الشهر» وصولاً لفئة الـ «بيروقراط» التي ترتجف خوفاً على مراكزها. ان الاستياء الحاد الذي أثارته الأجور المتدنية، وظروف العمل القاسية، وصعوبات التموين وكل ما يتصل بالحياة اليومية السوفياتية، التي أضحى تحملها أصعب من الرعب لكونها بدت وكأنها راسية الى الأبد، كل هذا وجد امكانية التعبير عن نفسه في السنوات الاولى للـ«بيريسترويكا»، في الشكاوى التي أغرقت أجهزة الصحافة، وفي المنشورات التي أبرزت النواقص بصراحة نادرة، وفي النقاشات المفتوحة أو المداخلات العامة خلال الاجتماعات والندوات.

يجد الاستياء العام تعبيراً له في لغة «القوميات»(وهذه المسألة لنا عودة إليها)، وفي لغة البيئة، فإنتصار المدافعين عن «بايكال» (انتصارغيرمكتمل) والمقاومين لسياسة تحويل انهر الشمال الى آسيا الوسطى يذكون هذا الاستياء. كذلك فإن كارثة تشيرنوبيل تلعب دوراً هاماً في ولادة «الوعي البيئوي».

ان في تعليق ساخر لمارك توين: ان الانسان لم يخلق من اجل ان يعمل؛ ودليل ذلك، يكمن في ان العمل يتعبه، ان الموقف من العمل في الاتحاد السوفياتي، هو من

المسائل التي يمتاز بها، ولا نجد وجه شبيه لذلك مع أي بلد نامٍ، على الاقل مع المجتمعات الحرة.

وتمثل ظاهرة الغياب عن العمل حالة نافرة. فقد أحصى الاقتصادي ف. سيليونين غياب ٤ ملايين شخص يومياً عن العمل، مقابل ١,٤ مليون شخص في الولايات المتحدة[٦٦]. مع العلم انه لا صلة لذلك بالاضرابات. وتستنتج صحيفة البرافدا بأن الصناعة خسرت عام ١٩٨٧، قرابة الـ ٦,٢٤ مليون ساعة عمل، في حين بلغت الخسارة عام ١٩٨٦، ٢٢ مليون ساعة[٦٧]. ولم يتوقف هذا الرقم عن الارتفاع من السنوات اللاحقة. وعندما لا يتغيب السوفيات عن العمل فإنهم يمارسونه ببطء، وتبعاً لذلك فأن الانتاجية لا تتجاوز ثلث مثيلتها مع الولايات المتحدة، وفي الزراعة لا تتخطى حدود الـ ١٥ ٪ من المردودية الاميركية[٦٨]. هذه الارقام تكتسب أهمية فائقة ما قورنت مع تلك التي تغطي عام ١٩٢٩. ففي السنة الأولى من الخطة الخمسية، كانت مردودية العامل السوفياتي والعامل الاميركي كالآتي: الفحم: ٢٤٠و٩٢٩ طن؛ الترابة: ١٤٠و٨٣٤ طن؛ الورق ١٣ و٨٥,٧ طن، الأحذية: ٢٤٠ و١٧٣٧ زوج[٦٩]. وفي ١٩٣٦، تحسنت الوضعية وان كان بشكل غير كاف: «تشتكي إحدى الصحف، من ان الانتاجية في الولايات المتحدة تبلغ ضعف ما هي عندنا»[٧٠] هذا يعني ان الانتاجية مع الاتحاد السوفياتي، لخمسين سنة خلت، كانت بحدود الـ ٥٠٪ من مثيلتها في الولايات المتحدة. أما اليوم فإنها لا تتجاوز حدود ٣٣٪. ويجب ان نضيف بأن المصانع والفبارك كانت تستخدم في السنوات الأولى من الخطط الخمسية، العديد من الفلاحين الذين لا يجيدون العمل الا في ظل ضربات العصي وإعقاب البنادق. أما اليوم، فإن العامل السوفياتي، حسب التصريحات الرسمية، يعتبر من اكثر عمال المعامل تأهيلاً.

لا يذهب السوفيات الى العمل. وعندما يحضرون، فإنهم يعملون ببطء وبشكل سيء، ونستطيع اليوم ان نكون مكتبة كاملة من رسائل القراء، وتقارير الصحافيين، وتحليلات الاعلاميين حول النوعية الرديئة للانتاج السوفياتي. اما شعار الأمس: «شيء رائع ان تكون سوفياتياً»، فإنه يثير اليوم عند مواطني الاتحاد السوفياتي مشاعر ممزوجة من الضحك، والاشمئزاز، والقرف، والشفقة على انفسهم. لسنوات خلت، يؤكد البولونيون وبسخرية على ضرورة إضافة عنصر رابع على أفعال التفضيل الثلاثة التي

تملكها اللغة الروسية وهو: السوفياتي! أما اليوم، وخلال «دائرة مستديرة» نظمتها «ليتراتورنايا غازيتا»، فقد أعلن المهندس يوري بروفكو على ضوء الأرقام المعروفة ما يلي: «ان التسيب وانعدام المسؤولية، والسرقات، والنوعية الرديئة للانتاج مع ما يترتب عليها من نتائج مختلفة» قد كلفت البلاد في عام ١٩٨٦ خسائر توازي تلك التي حصلت في السنوات الاربع من الحرب العالمية الثانية. والامر الملفت ان هذه الأرقام لم تدهش المشاركين. فقد إكتفى محرر الشؤون الاقتصادية في الصحيفة المذكورة، فلا ديمير سولوكوف بالسؤال: هل نحتاج الى سنة أو إثنتين أو «ثلاثة كي توازي الخسائر تلك الناجمة عن سنوات الحرب؟ لقد بدا له وللأشخاص المشاركين (بينهم نائب رئيس لجنة الدولة للأسعار ونائب رئيس لجنة الدولة للأحصاء) ان حجم الخسائر في الحالتين متقارب(٧١).

تكمن وراء موقف السوفيات تجاه العمل أسباب تحديده. ففي الخطة الأولى هناك «ادلجة» العمل، والقناعة التي ترسخت لدى الانسان السوفياتي بأن أي مسمار يضعه، أو كلغ من الفحم يستخرجه، واقل ورقة يوقعها ما يسهم في تحقيق خطوة الى الامام نحو تحقيق الهدف الكبير(٧٢). أما اليوم، فإن الاقتصاديين السوفيات يركزون على عاملين. الاول يتصل بموضوع الاجور المتدنية: «:... لقد سقط المستوى الحقيقي للأجور... دون الحد الذي يؤدي تجاوزه الى إبطال الوظائف الاقتصادية الكبرى للأجور: تشكيل حافز لنوعية العمل ومضاعفة الانتاجية؛ تأمين قاعدة يبنى على أساسها تمايز المداخيل؛ توفير احد الأسس التي تقوم عليها أخلاقية العمل»(٧٣). أما فيما يتصل بالحافز الايديولوجي، ففقد الكثير من قوته، لأن الهدف أو الأفق يزداد بعداً كلما اقتربنا منه. كذلك فإن الحافز الاقتصادي قد إختفى، وتوقف عن ملء وظائفه، خاصة تلك المتصلة بتماسك اخلاقية العمل، والرضى عن العمل المنجز بشكل جيد، فسواء حسُن العمل أو تدنت نوعيته فإن العائد هو نفسه، ويبقى سيئاً في كل الاحوال. ترى ت. زاسلافسكايا في إحدى مداخلاتها الأولى الموجهة للجمهور حول «استراتيجية البريسترويكا»، في «الامكانية الحقيقية في انجاز عمل رديء دون العيش بنفس المستوى من الرداءة» (٧٤)، سبباً هاماً يفسر ضعف المردودية.

شكل الاتجاه «التسووي»، واعطاء عوائد متعادلة (تقريباً) للعمل، الفني وغير الفني، ذي النوعية الجيدة او الرديئة، إحدى المعضلات الكبرى التي واجهها أنصار

«البريسترويكا». من زاسلافسكايا الى غورباتشيوف، ومن الكتاب الى الاقتصاديين، الجميع يتحدث عن ضرورة التخلص من هذه السياسة «التسووية». الامر الذي يعكس إحدى مشكلات النموذج الاقتصادي السوفياتي: «فالتأكيد على الطابع الايديولوجي للعمل، والوعد بالمساواة، والعجز عن تحقيقها، من قبل الثورة؛ كل ذلك جرى استبداله بمساواة كاذبة تحت عنوان الاجور المتعادلة. لقد كان ستالين، بما عهد عنه من جرأة، أول من نعت شعار المساواة الذي رفعته الثورة، بأنه لغة برجوازية صغيرة، وبأن مضمونه الحقيقي والصحيح، هو الاتجاه «التسووي». ان وطأة هذا التعبير تجعله ممقوتاً، وتظهر اننا أمام ظاهرة ضارة. الجهاز الاقتصادي والاداري، نضالاً ضارياً ضد الاتجاه «التسووي». الامر الذي أدىّ الى ولادة نظام مكافاءات خاضع كلياً لارادة السلطة. بعد تبني «الدستور الستاليني»، كتب مؤلف «اغنية الوطن» التي غدت نشيداً غير رسمي، مضيفاً مقطعاً الى هذه الأغنية: «الكل مكانة على الطاولة، وكل واحد يكافأ وفق من يستحق». لقد غنّى السوفيات بفرح هذه الكلمات في عام ١٩٣٦، في الوقت الذي كانت تجري فيه عملية تعميم الرعب؛ ورغم ان ما كتب بين السطور، يصعب التقاط ما يشكله من خطر. فإن بالامكان ان نفهم بأن كل شيء ملك الدولة التي تكافىء او تقتص وفقاً لمشيئتها. فقانون الحياة الكبير لم يعد العمل، بل السعي من اجل تنفيذ خطة الدولة، الذي لا يجد ترجمة له على شكل زيادة أجور، بل «مكافاءات» خاصة بأنصار ستاخانوف. ويمتدح بوخارين «الثوابت الوطنية» «المؤتمرات» انصار ستاخانوف التي عقدتها اللجنة المركزية، قائلاً: «إن الانتخابات في هذه المؤتمرات، هي شيء مميز بل فارق: انها تشهد وبوضوح عمل إستثنائي. فالطن، والقطعة المصنعة هما اللذان ينتخبان مندوبيها...» ويضيف بوخارين قائلاً: «لأول مرة في التاريخ، تبنى ديمقراطية حقيقية، لاصلة لها بتلك التي تصنعها البرجوازية»[٧٥]. لقد بتنا نعرف اليوم وبشكل رسمي، ما كان يحصل منذ نصف قرن: لقد جرى استخدام أبطال العمل وفق اخراج مدروس، وملفق بالكامل. «فالأبطال» جرى إنتقاءهم بدقة، وبموافقة اللجنة المركزية على اختيارهم.

قادت الديمقراطية «الصريحة»، وافساد العمل، الشغيلة السوفيات نحو «الاضرات العام». وأضحى التخريب المعيار الأول، وتبدو المفارقة واضحة من خلال اجراء المقارنة، ذلك اننا نلحظ وجود نقاط مشتركة بين تدمير الاقتصاد السوفياتي عام

١٩١٨، وما جرى سبعين سنة بعد ذلك التاريخ. «في الواقع، اننا نواجه راهناً عملية تخريب واسعة، ينظمها ملايين الاشخاص، وهذا ما استنتجه ألكسندر غاستيف في المؤتمر الأول للسوفخوز (المستشارون الاقتصاديون)، في آيار ١٩١٨. أنني اضحك، عندما اسمع الحديث عن عملية تخريب برجوازية... لأننا في الواقع أمام عملية تخريب وطنية، وشعبية، وبروليتارية»[٧٦]. في عام ١٩١٨ كما في عام ١٩٩٠، يعود رفض العمل، الى كون النقود قد فقدت وظيفتها كحافز مادي، وذلك الى زمن جد بعيد. لقد كانت الحجة في عام ١٩١٨، تلصق بالتضخم، وبإرادة السلطة السياسية التي تريد القطع مع المال، نقيصة الرأسمالية. أما في عام ١٩٩٠، فإن الأصابع تومي الى الندرة، اي استحالة الحصول على السلع الضرورية حتى لو توفر المال، وهناك أيضاً نظام الامتيازات الذي قوّض «سلطة النقود». يكتب أناتولي ستريلياني! «... اذا كان أحدهم يستطيع بماله ان يشتري هذا الشيء او ذاك، واذا كان الآخر لا يستطيع ذلك، بكمية المال نفسها، فهذا يعني اننا لانكافىء فقط العمل، وانما نكافىء أيضاً أمراً آخر». ويستنتج الاعلامي: «عندما لا يحمل الروبل القيمة نفسها بالنسبة للجميع، فإن ذلك يسبب انعدام الرغبة بالعمل»[٧٧]. وفي النهاية، يقال: «من الأفضل ان تربح ١٥٠ روبل دون ان تعمل، من أن تعمل وتربح ألف (روبل)»[٧٨]. أو ولنستعيد احد تعابير شاعر مشهور، يكشف بإختصار غير خافٍ سيكولوجية الانسان السوفياتي وهو يقارن بين الرأسمالية والاشتراكية: «لا أحب الحقائق الجاهزة. فأنا أحب الحصول على أجر يعادل ما عندهم، دون القيام بأي عمل هو جارٍ عندنا!»[٧٩].

تكشف عملية «التخريب» العامة، ان «القاعدة» ترفض الواقع الاشتراكي، وفي الوقت نفسه، تستطيع التكيف مع الحياة في ظل «الاشتراكية الناضجة». هي لا تريد ما هو موجود، ولكنها تعارض «الثورة من فوق». انها تواصل عملية التخريب. لانها لا ترى أية امكانية لتحسين وضعها، بل لديها قناعة راسخة بأن ما يحصل قد يؤدي الى تدهور أوضاعها. وتظهر الطبيعة الخاصة للعلاقات بين «القمة» و«القاعدة»، من بين أشياء أخرى، في الاتفاق الضمني الدائم المشروعية، والمتصل بالموقف من إمتيازات الـ«نومانكلاتورا». فالاستياء المحدودة الذي تثيره هذه الامتيازات، والذي أدانه بوريس يلتسين (فيكونت نوواي السوفياتية)[٨٠] بضجيج، لا يمكن مقارنته بمثيله الذي تطلقه المداخيل العالية لمسؤولي التعاونيات. فقد استيقظت الرغبة في المساواة الراقدة في

نفس كل سوفياتي، وبحدة غير متوقعة. عندما أبيح إنشاء التعاونيات، لقد برر بوريس غوستيف، وزير المال (جرى استبداله لاحقاً)، ضرورة فرض ضرائب عالية (٧٠٪ أو أكثر من الدخل، انطلاقاً من ١٠٠٠ روبل وما فوق)، بالرغبة في تحقيق العدالة الاشتراكية والمساواة: «ان شريحة صغيرة من الاغنياء آخذة في التشكل في المجتمع، الأمر الذي قد يقود الى حدود إنقسامات إجتماعية، وبالتالي نتائج مدمرة». ويستحضر الوزير فزاعة الثورة قائلاً: «لا استطيع ان أضمن عدم نزول العمال الى الشارع...»[٨١]. متوقعاً بذلك حدوث إضطرابات، عائدة الى ظهور شريحة من «الاثرياء»، من خارج النومانكلاتورا. ان شدة الاستياء الذي يثيره «الاثرياء الجدد»، يثبت صحة موقف الوزير، كما ان التجربة التاريخية تضيف تأكيداً آخر. ففي سنوات العشرين، إبأن زمن سيآ الـNEP، كان بإمكان أصحاب المؤسسات الخاصة، ان يثروا، ولكن كانت تلصق بهم شارة مهينة (عناصر معادية للاشتراكية)، ويرسلون بتصميم الى «محكمة الشعب» ليلقوا عقابهم. ان النقابات السوفياتية، تجد انه من العبث الدفاع عن مصالح عمال الدولة العمالية، لذا تصرف إنتباهها للاهتمام بوضعها داخل المؤسسات الخاصة، منظمة الاضرابات، عندما لا تتم الاستجابة لمطالب البروليتاريا.

إتسم صيف ١٩٨٩ بالانفجار المفاجىء للتحركات الاجتماعية في الاتحاد السوفياتي: فقد قام عمال المناجم في غربي سيبريا، وفوركوتا، ودونباس، بإضرابات حاشدة. كما ان المطالب إتخذت عناوين متعددة، من المطالب الاقتصادية (خاصة، تحسين نوعية الصابون الموزع عليهم) وصولاً الى المطالب السياسية. ولكنهم كانوا يطالبون قبل أي شيء بإغلاق التعاونيات «النهائية». وشكلوا لجان الاضراب، وفقاً للنموذج البولوني في عصر «التضامن».

في تشرين الأول ١٩٨٩، وبعد حدوث موجة ثانية من الاضربات في الخريف إثر اقتناع عمال المناجم بأن بعض وعود الصيف التي قطعت لهم لم تنفذ. أقدم مجلس السوفيات الأعلى على إعادة فرض النظام، عن طريق اصدار قانون يتطلب الاذن المسبق لنقاشات العمل الجماعية. ولا يستثني هذا القانون الاضرابات في حال لم تتم تسوية الصراعات سلمياً؛ كما يحظر على بعض فئات العمال والمستخدمين اللجوء الى الاضراب، خاصة الاضرابات التي تتم «من اجل دوافع ومطالب تهدف الى قلب نظام الدولة والمجتمع السوفياتي...» ان هذا التحديد يشمل كل اضراب ترفع فيه شعارات

سياسية. كما يحظر هذا القانون انشاء لجان الاضراب، التي تحولت في المناطق المنجمية الى لجان عمالية.

رأى فاسيلي سليونين، بعد زيارة له الى كوزباس (سيبريا الغربية)، في تجربة هذه اللجان نموذجاً للسلطة البديلة في البلد بأكمله[٨٢]. ويشاركه هذا الرأي أناتولي ستريلياني، الذي زار المناطق البعيدة من المتروبول: «ان الجبهات الشعبية في البلطيق، «وكاراباخ» أرمينيا، وحاضراً لجان الاضراب كل ذلك يكون جهازاً جديداً قادراً على العمل لأنه يشعر انه ضمن اطار حقوقه، ولانه يعي سلطته»[٨٣]. هكذا يجري استخدام الحركة العمالية، ذات الطابع الجنيني الآخذة بالنمو، كلما كان ذلك ممكناً، في مواجهة أية محاولة لاصلاح النموذج الاقتصادي السوفياتي. فالجبهة الموحدة للعمال التي تأسست في لينغراد أخذت على نفسها النضال ضد «توجهات الملكية الخاصة، والربح، والسوق، التي قد تقود الى الانقسام الاجتماعي...»[٨٤]. فبرنامج الجبهة هو «الدفاع عن مصالح العمال». يورد أناتولي ستريلياني، وجهة نظر ممثلي «القاعدة» الذين إلتقاهم إبأن زياراته لهم في صيف ١٩٨٩، «الارجح انه صيف السلم الأخير»، والجميع متفقون على ضرورة: «تصفية مضارب التعاونيات»، من أجل ان يستقيم الوضع؛ و«نحن لا نريد الرأسمالية»[٨٥].

ان الدعوة التي اطلقها اندرية زخاروف، للقيام بإضراب تحذيري لمدة ساعتين، وذلك عشية المؤتمر الثاني بنواب الشعب (كانون الاول ١٩٨٩)، من أجل دفع النواب إلى الغاء المادة السادسة من الدستور، لم تلق أي صدى»[٨٦]. ولكن في صيف ١٩٩٠، أعلن عمال المناجم اضراباً سياسياً في عدة مناطق من البلد، وذلك عشية المؤتمر الثامن والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي، طالبوا فيه برحيل حكومة ريجكوف. ان فكرة الاضراب السياسي لم تعد تثير الخوف، فقد جمعت اضرابات صيف ١٩٨٩ ٥٠٠ الف عامل منجم تقريباً. وفي بداية عام ١٩٩٠، بذلت اللجان جهوداً جبارة من أجل توحيد صفوفها. ان الحركة العمالية الوليدة لم تتوصل بعد الى صياغة في برنامج محدد ودقيق. كما ان بعض المطالب لها طابع محافظ، وتستخدم من قبل جهاز الحزب. ولكن هناك شيئاً واحداً مؤكداً: لقد بدأت الطبقة العاملة ترمي نفسها كقوة سياسية وتناضل من اجل حقوقها.

الجزء الرابع

ما العمل؟

«على السؤال «ما العمل» اعطى العالَم القديم ٢٨٨ جواب»

القديس اوغسطين

ما يزال السؤال «ما العمل؟» يحفر في الفئة المثقفة الروسية منذ ولادتها. هكذا عنون نيقولاي تشرنيشفسكي الرواية التي الفها عام ١٨٦٣ في قلعة بطرس وبولس. والمثقفون الروس، وهم معلمو الفكر، ديموقراطيون ثوريون، لم يعطوا، جيلاً بعد جيل، الا جوابا واحدا عن هذا السؤال الكبير: لا بد من القيام بالثورة. وفي ١٩٠٢ كتب لينين بدوره «ما العمل» الخاص به، الا انه اعطى جوابين: انشاء حزب من الثوريين المحترفين ثم التقدم على رأسه للقيام بالثورة. اما غورباتشيوف فبعد ان اشار الى ان وضعية البلاد قد اصبحت في بداية الثمانينات مقلقة، فقد دفع بمن حوله الى الاجابة (قبل جلسة نيسان المكتملة ١٩٨٥ حيث تم اعتماد برنامج غورباتشيوف)عن السؤال المضني نفسه. وقبل انعقاد اللجنة المركزية المكتملة هذه، «صيغت مئة وعشر وثائق»[1]. ١١٠ اقتراحات واستنتاجات من قبل اكاديميين، كتاب، واختصاصيين من الدرجة الاولى، ومسؤولين سياسين، ١١٠ اجوبة على سؤال: «ما العمل؟» وقد استخدمت النتائج التي توصلت اليها هذه التحليلات، كما يشرح غورباتشيوف، كقاعدة ارتكزت عليها البريسترويكا بوصفه نقطة إنطلاق «الثورة من فوق».

محاولة فهم ظهور غورباتشوف، إتخذت الفئة المثقفة السوفياتية من اصلاحات الستينات في القرن التاسع عشر، مرجعا لها، مكتشفة نوعا من التقابل بين «الركود» في روسيا في ظل نيقولا الاول و«الركود» في الاتحاد السوفياتي ابان حكم بريجنيف. اما مقارنة «النظام القديم» في روسيا (الذي كان في منتصف القرن التاسع عشر يحمل تاريخا من ٢٥٠ سنة، خاصة تاريخ سلالة الرومانوف) والنظام السوفياتي الذي اصبح باليا تماما بعد مضي ستين عاما فقط على الثورة، هي فكرة بالغة الدلالة. فإيجاد نوع من التمثيل بين هذين النظامين الآفلين يبقى مفيدا، وذلك لان هيرزن وباكونين كانا يتصوران في القرن التاسع ان روسيا امام خيار بين قيصر جيد وثورة راذيكالية يقوم بها بعض الضباط وانتفاضة فلاحية، اي بمعنى اخر بين رومانوف وبيستل وبوغاتشيف.

وتبدو صيغة هيرزن ـ باكونين وإن روسية بالشكل، عالمية من حيث المضمون: فدائما عندما يستنزف النظام امكانياته ينتهي بالانهيار اثر ثورة يقوم بها المضطهدون أو

تحت وطأة إنقلاب عسكري في حال لم تتحقق «من فوق» الاصلاحيات الضرورية. الا انه لم يكن في خزانة التاريخ السوفياتي بعد الحرب الاهلية ما يشبه «بيستل» او «بوغاتشيف»، واننا نجد فيها بالمقابل نماذج من «رومانوف». في ١٩٢١ أقدم لينين على الانعطاف الكبير الـ N.E.P وفي السنوات بين ١٩٢٩ـ١٩٣٣ بادر ستالين الى انعطاف آخر لا يقل اهمية، كما يمكننا ايضا أن نقارب عهد بريجنيف من زاوية «الثورة من فوق»: ففي زمن «الركود» سخرت وسائل مدهشة ـ في الواقع كل ما تملكه البلاد ـ للصناعة «الدفاعية». إنها المرحلة التي شهدت تنظيم قوات عسكرية هائلة، اضافة الى اندفاعة توسعية لا مثيل لها. ومما لا شك فيه ان المؤرخين سيلحظون كون الامبراطورية السوفياتية بلغت خلال «الركود» حدودها القصوى التي لا يمكن الا ان تتقلص فيما بعد. وفيما بلغ التوسع حده الاقصى اكتشف القادة السوفيات الازمة. والواقع ان نقاط الضعف في النظام السوفياتي برزت مباشرة بعد موت ستالين. اما اصلاحات خروتشوف فاعطت بعض النتائج التي سمحت لبريجنيف، في كل الاحوال، بان يقود «زحف الشيوعية المظفرة» في أرجاء المعمورة. ففي أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية تولى السلطة أتباع «الاشتراكية العلمية»، مقيمين أنظمة تعتمد حكم النظام الواحد على الطريقة السوفياتية، والواقع ان غياب المقاومة قد شجع موسكو: إن نفوذها ينتشر في كل مكان وكأنه بقعة زيت. انه السباق بين التوسع السوفياتي ويقظة العالم الغربي. ولا بد من بعض الوقت لادراك العنصر الذي لعب دورا حاسما في هذه الوضعية: انه صدمة فيتنام التي لم يخرج منها الاميركيون الا ببطء، مقاومة المجاهدين الافغان، اتفاق اوروبا الغربية حول الصواريخ العابرة القارات. انهيار «تضامن» الذي اعتبر من قبل موسكو بمثابة تحذير. افهل ان عيوب النظام السوفياتي الداخلية تفاقمت وتعمقت تحت تأثير التوتر التوسعي؟ مما لا شك فيه هو انه كان لمجمل هذه الاسباب دورا حاسما.

لقد حاول خروتشوف حل المسألة الكبرى التي وجد نفسه في مواجهتها: كيف يمكن تشغيل النظام الستاليني بدون ستالين؟ «متعطشا الى التغيير»، برأي راوي سيرته[٢]، سعى خروتشوف الى هدفين: تحقيق جميع الامكانيات التي يوفرها له منصبه كأمين عام، اثارة حماس الشعب الذي لا يمكن الاستغناء عنه لردم الهوة الناتجة عن التأخر الاقتصادي الذي اصبح جلياً ابتداء من النصف الثاني للخمسينات. اما الاول

فلن يتحقق الا جزئياً. فبعد ان نجح خروتشوف بانتزاع الموقع الاول بين القادة بدأ باقامة طقس لعبادة شخصيته هو، حتى فصل من السلطة: لقد اخطأ بتقدير قوة اخصامه. فقد كان من السهل كما يقول سيرغي خروتشيوف احباط المؤامرات المدبرة ضده لما كان يعوزها من دقة ومهارة. اضافة الى انه اعلم بها في الوقت المناسب، غير انه لم يقتنع بان الخطر فعلي[٣]. وسوف تكون تجربة غورباتشوف عبرة لخلفائه في محاولتهم فرض «عبادة شخصهم» دون اللجوء الى الاساليب الستالينية. تحضهم على الحذر من مؤامرات الاصدقاء ورفاق النضال. اما الهدف الثاني فسوف يحققه خروتشوف بصورة افضل تماما. فالبرنامج الجديد للحزب، الذي اقره المؤتمر الثاني والعشرون (١٩٦١) يعد باستكمال بناء الشيوعية في خلال عشرين عاما تحديدا. ويؤكد برنامج الحزب الشيوعي السوفياتي، الذي يرتكز الى تعاليم ماركس ولينين ـ وهي وحدها علمية لانها وحدها مظفرة، وهي وحدها مظفرة لأنها وحدها علمية ـ ان الاتحاد السوفياتي سوف يلحق عام ١٩٨٠ بالولايات المتحدة في مجال التنمية الاقتصادية ورفاهية السكان او انه سوف يتخطاها. ومهما بدا ذلك غريبا اليوم فان الجميع يعتقد به. غير ان الدورة كانت قد وصلت الى قلب الثمرة. إن الادارة المجنونة التي تسعى بتسرع للوصول الى الشيوعية والخطة التي تغمز وتحض كل مسؤول لما يجلبه تنفيذها من مكافآت ولدتا شبكة «المصالح والاعمال» الاولى. وقبل عشرين عاما على انهيار خطة القطن في اوزباكستان كانت خطة اللحوم في ريازان قد لاقت المصير نفسه. ذلك ان سكرتير اللجنة الاقليمية لريازان اليكسيس لاريونوف، وبهدف تخطي خطة انتاج اللحوم والتغلب على «الاميركان» امر باتلاف القطعان المحلية[٤].

اما ليونيد بريجنيف فاخترع نسخة جديدة من «النظام الستاليني بدون ستالين»، غير ان الهدف يبقى نفسه: تحقيق القدرة الكامنة التي يمتلكها السكرتير العام. ولقد اثمر درس خروتشوف حسما لدى بريجنيف جعله يتصرف بلا شفقة او رحمة تجاه اخصامه، رغم اسلوبه الاقل ضجيجا من سلفه. اما هدف خروتشوف الثاني ـ اثارة حماس الجماهير ـ فقد لقي بعض التعديلات. فبعد محاولة غائمة وفاشلة لاصلاح الاقتصاد تركزت الجهود على مهمتين: التوسع، في ميدان السياسة الخارجية من جهة، بوضعه عاملا يظهر قوة وحيوية الاتحاد السوفياتي واللجوء من جهة أخرى الى استخدام «وسائل الاتصال والدعاية الجماهير» (smip كما تسمى في الاتحاد السوفياتي)، على نطاق

لا مثيل له من قبل : صحف، مجلات، اذاعات، تلفزيون، سينما، احتكاك مباشر بالناس، وذلك من اجل اختلاف «صورة» تظهر التقدم والنجاح. الا انه لم يسبق دون شك ان كانت المسافة بين عالم الموهومات والواقع على هذا القدر. وكما قال احد علماء الاجتماع: «لقد استخدمت جميع المؤهلات لدفع المجتمع الى الاعتقاد بحقيقة ما هو موهوماً كليا ومن صنع الخيال»[٥]. هذه المسافة هي اكبر مما كان عليه في ظل ستالين حيث العديد من الناس كان يؤمن «الاختلاقات». وتفسر سماكة الكذبة وشمولها اضافة الى عمق الهوة بين الكلام والفعل الى حد كبير، النجاح الذي احرزه شعار «الغلاسنوست» والفرح والغبطة اللتين اثارهما هذا السماح المفاجيء باقامة جسر بين الكذبة والحقيقة. إن سياسة «الغلاسنوست» هي جواب اول على السؤال «ما العمل؟». جواب تقليدي: «في البدء كانت الكلمة...» فالمطروح اذن ضبط الكلمة، بهدف تحويلها الى سلاح فقال بيد السكرتير العام الجديد.

الفصل التاسع
«غلاسنوست»

حجران من الصوان موضوعان الواحد الى جانب الآخر.

إنهما هنا جامدان أبكمان، ولا يجري شيء أمامنا.

ثم يأتي رجل حاذق. يأخذ الحجرين ثم الآخر يتفحصهما بتنبه، يحك الاثنين فتندلع شرارة». ميخائيل سالتيكوف ـ شتشيدرين.

من الحسنات أو المزايا الأكيدة التي تُميّز عصر غورباتشيوف هو أنه أغنى مختلف لغات العالم بمفردات جديدة، أهمها «البريسترويكا» و «الغلاسنوست». وترجمة هاتين الكلمتين الى اللغات الرئيسية مؤمنة من قبل وكالة نوفوستي.

أما وسائل الاعلام الغربية فتحاول استخدامها مناقشة أحياناً معناها إلا أنها متفقة على أن الغلاسنوست جيدة، وإنها من نتاج غورباتشيوف والدلالة الأقوى على حدوث تغيرات جذرية في الاتحاد السوفياتي.

إن جذور كلمة «غلاسنوست» هو «غلاس» glas، غولوس golos، الصوت. ويعطي القاموس المعلل للغة الروسية لمؤلفه فلاديمير داهل، الذي ظهرت الطبعة الأولى منه في ١٨٦٣ ـ ١٨٦٦، لهذه الكلمة التعريف الآتي: «ما هو معروف، شائع، عام» وقد نشر قاموس داهل إبان الاصلاحات التي قام بها ألكسندر II، وهو يحمّل كلمة غلاسنوست دلالة سياسية. والكلمة تعبر انطلاقاً من مفرده «رأي»، عن الرغبة بالصراحة، المساهمة بنشاط البلاد، عن المداولات والنقاشات المفتوحة، العامة،

(بالروسية: غلاسني). فبعد الاصلاح الاداري وُصف أعضاء «الدوما» (الحكم الذاتي في المدن) الذين استفادوا من حق التصويت بغلاسني: شخصيات «عامة»، يمكنها التعبير عن نفسها بشكل «مفتوح». وقد حاول الكاتب الهجائي سالتيكوف ـ شتشدرين. تعيين حدود الغلاسنوست ـ هذه الحرية المقبولة ـ: وهي لا ترتكز إلا الى «حذاقة الرجل القادر على المباغتة»، «قدرته على المعاينة» و «فطنته واحتراسه» «وإن لم يكن الرجل فطناً؟ يسأل الكاتب. إذا كان أحمقاً وضرب الصوان برعونة؟ أو إذا صدف في الجوار وجود كومة من الزبل أو مواد أخرى ملتهبة فحينها سوف يُكتشف الحريق!».

في ١٩٨١ لم يعطِ القاموس النموذجي للغة الروسية تعريفاً للاسم غلاسنوست مكتفياً بإحالة القارىء على الصفة المشتقة غلاسني التي تعني: «ما يمكن أن يعرف ويناقش علناً» وأهم ما في هذا التعريف بدايته: «ما يمكن أن» وهي عبارة تبطن أن شخصاً ما يجعل المسألة ممكنة، سهلة المنال، أو يعطي إذناً أو رخصة بها. أما مختصر القاموس السياسي الصادر ١٩٨٧ فيعطي شرحاً كاملاً شاملاً حول هذه الكلمة التي تعتبر مفتاحاً «للفكر السياسي» «الغورباتشيوفي». وهي لم تكن واردة في الطبعات الثلاث السابقة من «القاموس السياسي». ففي طبعة ١٩٨٣ حيث استبدلت أقوال بريجنيف بأقوال أندروبوف كانت كلمة «فرضية» (بالروسية جيبوتيزا) متبوعة مباشرة بالصفة «شاملة» (بالروسية غلوبالني). أما في «القاموس» بالصيغة الغورباتشيوفية فقد أُدرجت كلمة غلاسنوست بين الاثنتين.

«الغلاسنوست»، يقول لنا «القاموس السياسي» هي أحد المبادىء الديمقراطية الكبرى. أنها تؤمن شفافية عمل الادارات الحكومية، وتسمح للناس بمعرفة ما تقوم به هذه الادارات من نشاط». ثم ان القاموس يكشف عن غائية الكلمة ـ الشعار الجديدة: «تمثل الغلاسنوست الشكل الأفضل لضبط أجهزة السلطة، المحلية منها خاصة، من جانب الجماهير، والشكل الأفضل للصراع ضد البيروقراطية». ويظهر الطابع الأداتي لهذه الحرية «البدل عن ضائع» بجلاء خاصة عندما يتضح أن الضبط الجماهيري للسلطة لا يطال أساساً إلا أجهزة السلطة المحلية. والواقع أن المادة المخصصة في القاموس لهذه الكلمة ترسم حدوداً لإتساعها: «لا تدخل في نطاق الغلاسنوست المعلومات التي تطال أسرار الدول والأسرار العسكرية، والعلمية والتقنية والانتاجية والحقوقية والطبية» ويحيل هنا استطراد بين قوسين القارىء الى مادة: «التنبه

الثوري» . ولم تكن هذه المادة ترد في الطبعات السابقة من «القاموس السياسي»، التي نشرت بعد ١٩٦٩ . أما طبعة ١٩٦٩ فكانت تحتوي إحد عشر سطراً لا تدع أي لبس حول صلابة الايمان المطلوب: إن «التنبه الثوري بوصفه بصيرة ثورية وملكة قادرة على كشف العدو الطبقي وإحباطه، هو إحدى الخصائص التي لا تنفك عن الشيوعيين. وهو ضروري خاصة في حالات الصراع الايديولوجي الحاد بين الاشتراكية والرأسمالية . ويعتبر «التنبه الثوري» واجباً وطنياً ومدنياً، على كل مواطن سوفياتي أن يلتزم به. وهو يساهم بتدعيم قوة أول دولة اشتراكية في العالم إضافة الى جميع دول «التحالف الاشتراكي»، إنه وسيلة فعالة للدفاع عن السلام العالمي». وفي ١٩٨٧ عالج «القاموس» هذا المفهوم من جديد في مادة أطول بثلاثة أضعاف (٣٧ سطراً) . وبالمقارنة لا تتضمن مادة غلاسنوست سوى ٢١ سطراً. ويبقى «التنبه الثوري» شعوراً وطنياً وواجباً مدنياً. وهو ما يزال بهدف الى محاربة القوى المعادية للاشتراكية، التي تمنع «توطيد النظام الاجتماعي الطليعي»، إلا أن هذا «التنبه الثوري» في صيغته الجديدة هذه، يتكيّف مع متطلبات المرحلة التاريخية الجديدة، حيث «تدرك أشرس القوى انه من المستحيل تسوية الخلاف التاريخي بين الاشتراكية والرأسمالية بالوسائل العسكرية». والآن تلجأ الدوائر الرجعية الغربية الى إضعاف الاشتراكية بالعمل على «تآكلها من الداخل». وهي تلجأ لهذا الغرض الى «المخابرات وأساليب «الحرب النفسية»، فتشنُّ حملات إيديولوجية، ساعية الى زعزعة الثقة بالنظام الاشتراكي، مقبِّحةً نمط الحياة الاشتراكية، مفككة المشاعر الوطنية. . .» ويبدو من خلال قراءة المادتين أن ضرورة «التنبه الثوري» قد أصبحت أشد الحاحاً عام ١٩٨٧ عما كانت عليه عام ١٩٦٩ . ويشدد المؤلفون على أن غياب خطر العدوان الخارجي على الاتحاد السوفياتي زاد الى حد كبير احتمالات تُعرّض الاشتراكية «للتآكل الداخلي» تحت تأثير الايديولوجيا المعادية . إذاً يبقى «التنبه الثوري» رفيق الغلاسنوست الذي لا ينفصل عنها، إنه حارسها الأمين. ومن المفيد القيام بقراءة مقارِنة للواحد وعشرين سطراً من مادة غلاسنوست وللسبعة وثلاثين من مادة «التنبه الثوري»، حينها تظهر للعيان إمكانية تحقق الغلاسنوست أو استحالتها، أهدافها وحدودها، ويتضح تماماً ما يجعلها مختلفة جوهرياً عن «حرية الكلمة».

يستحضر جاك سيغالا وهو خبير في الاعلام قاعدة في الاتصال لا تخلو من

مفارقة: «إن طريق الجماهير يمر بالنخبة». وهو يلحظ أن غورباتشيوف يحاول منذ توليه السلطة أن يفتن النخبة(١) لا يمكن للأمين العام أن يدعي الجِدَّة، ذلك أن تقنية أغواء أسياد الثقافة وفي مقدمهم الكتاب والسينمائيين، كانت قد أُعدت تفصيلاً من قبل ستالين. من موقع السلطة كان لينين يمارس تأثيره بواسطة أجهزة الحزب والبوليس. وقد أقدم في ١٩٢٢ على طرد مجموعة من الفلاسفة والكتاب والعلماء، معتبراً أنهم ينقلون الى الشعب فيروس المثالية. وقبل ذلك كان قد أجبر، في خريف ١٩٢١، ماكسيم غوركي على الرحيل، كونه قد انتقد بعض جوانب السياسة البلشفية. أما في النصف الثاني من العشرينات فقد أولى ستالين، الذي بدأ صعوده نحو السلطة، اهتماماً متواصلاً بأصحاب القلم. وهو بذل جهوداً عديدة لاقناع غوركي بالعودة الى الاتحاد السوفياتي. وقد شكلت إقامة الكاتب الروسي الشهير الأولى في ١٩٢٨، بعد ما يمكننا تسميته هجرة إجبارية بحكم الأمر الواقع (وإن لم تكن بالقانون)، انتصاراً لغوركي ولستالين في آن معاً، ذلك أن منزل وفيلا غوركي قد تحولا الى مكان للقاء الكتاب بستالين الذي كان يقوم بزيارات لمؤلف «الام». وعندما أمّم الأدب في السنوات ١٩٣٢ ـ ١٩٣٤ وأنشىء اتحاد الكتاب واعتبرت الواقعية الاشتراكية بمثابة الطريقة الوحيدة الصالحة للابداع، قام ستالين شخصياً بإدارة هذه العملية. وأصبح سكرتيره السابق ألكسندر شتشرباكوف سكرتيراً للاتحاد، حيث أصبح عين الأمين العام ويده. وقد كتب غوركي في هذه المرحلة في رسالة الى رئيس الغوزيسدات (منشورات الدولة)، أخالاتوف: «إنها لمواهب رائعة تلك التي يتصف بها ستالين!)(٢). ولم يتوقف ستالين عن الاهتمام بالأدب والسينما حتى آخر أيامه. أما الجوائز التي كانت تحمل اسمه والتي كانت تمنح وفقاً لاختياره وإرادته، فكانت تحدد السلم القيمي الستاليني ـ وهو وحده الصحيح. فالقمع الرهيب الذي كان مسلطاً على الناس وفي الوقت نفسه على الكتاب والسينمائيين والموسيقيين كان الاسلوب الذي انتهجه ستالين في إدارته للثقافة. وفي الواقع لم ينِ المسؤولون عن الثقافة عن تبخيره، وعن التعبير تجاهه عن محبتهم غير المحدودة: إنه الثمن الذي لا بد لهم من أن يدفعوه مقابل السلطة الهائلة التي منحهم إياها. فبإسم السكرتير العام وباسم الحزب يتحكمون بأرواح الناس.

تلعب اللقاءات الشخصية (مع سيرغي ايزنشتين مثلاً) والمكالمات الهاتفية

(باسترناك، بولغاكوف. . .) دوراً مهماً، في الترسانة الستالينية. وفي هذا المجال بادر الصحافي الأميركي، لثقة غريبة بالنفس مردها جهل مطبق، الى اعطاء نصيحة لريغان بالاقتداء بنموذج غورباتشيوف: «من العجيب أن نلحظ في إطار الثقافة والتاريخ في الاتحاد السوفياتي، إن غورباتشيوف قد اتصل شخصياً (بالهاتف) بساخاروف بمنطقة غوركي ليبشره باطلاق سراحه. فمنذ متى كنا نرى أن موظفاً سوفياتياً كبيراً يقدم على الاتصال بمنشقٍ زائع الصيت؟»[٣] إلا أن فاسيلي غروسمان في روايته «الانسان والقدر» لا يجيب فقط عن سؤال الصحافي الأميركي - وهو ليس بليغاً الى الحد الذي يتصوره - بل أنه يصف أيضاً مخابرة هاتفية أجراها ستالين مع أحد المنشقين.

وقد أعد غروسمان سيناريو مفصلاً عن هذه المكالمة التي سيستعيدها غورباتشيوف، بعد ربع قرن، بصورة تكاد تكون حرفية. ولا يلجأ غروسمان الى الاختلاف بل أنه يعيد تجميع عدة اتصالات هاتفية أو إشاعات عن مثل هذه الاتصالات التي أجراها القائد المرشد. إن أحد الشخصيات الأساسية. في الرواية، العالم الذري الكبير ستروم يفقد خطوته ويصبح من المغضوب عليهم. فزملاؤه الذين يفتقدون الى أي جدارة قد اعتبروا أن نظريته «مثالية». وفوق كل شيء يتضح أنه يهودي. لقد طرد من المعهد بعد أن حوكم من قبل زملائه وبات ينتظر أن يعتقل بين لحظة وأخرى. إننا في سنة ١٩٤٤. وفجأة يرن جرس الهاتف. ولم يتأخر الأكاديمي ستروم عن معرفة مكلمه. ثم ان عبقري جميع الأزمان والشعوب يبادر الفيزيائي: «يبدو لي أنك تعمل بالاتجاه المطلوب» وكل شيء يتبدّل كما يحصل في قصص الجن. وقبل أن يُعلم ستروم أي شخص بما حصل له تصله الدعوة للعودة الى المعهد، أما زملاؤه فسيستقبلونه بالتصفيق، ويحصل على كل ما يلزمه لتجهيز مختبره. وقد كتب غروسمان: «لقد كان كافياً أن يَلقى أي إنسان ابتسامة عطف ليتغير مصيره برمته: أنه ينتقل من الظلمات، حيث كان مرمياً، الى قمة المجد والشرف والسؤدد. فعشرات الشخصيات المرموقة قد بادرت الى القاء التحية على هذا السعيد المصطفى: ألم يضحك ستالين له؟ ألم يمازحه ويخابره هاتفياً؟»[٤].

من هنا فالمخابرة «التحريرية» التي أجراها غورباتشيوف مع ساخاروف لم تكن إلا محاكاة «لستالين رغم أنها اعتبرت نموذجاً عن «الغلاسنوست». وقد عادت عليه بفائدة سياسية عظيمة. أنها تعبير عن طيبة الزعيم الشخصية، ولكننا لا نعلم أبداً لماذا نفي

ساخاروف الى غوركي دون أية محاكمة؟ ولماذا لم يتطلب بالمقابل إخلاء سبيله سوى مكالمة هاتفية بسيطة؟ . كان تحرير ساخاروف هدية من الأمين العام الى الشعب أو بالاحرى الى النخبة والغرب.

ويمكننا حتى أن نجد تماثلاً بالنسبة لانتقاء اللحظة من قبل السكرتير العام لاجراء «مكالماته الهاتفية». ففي ١٨ نيسان ١٩٣٠ اتصل ستالين بميخائيل بوخالوف، التي منعت جميع مسرحياته وبات دون أي مصدر عيش. وقد عبّر القائد المرشد عن عطفه على الكاتب وأنقذ حياته. عشية ذلك اليوم كانت قد تمت مراسم دفن ماياكوفسكي الذي انتحر قبل ثلاثة أيام. وقد دفع موت ماياكوفسكي ستالين الى السماح لافغيني زامياتين بالرحيل نهائياً الى الغرب. في ١٩ كانون الأول ١٩٨٦ أعلمت لاريسا بوغوراز زوجة أناتولي مارتشنكو المدافع الشهير عن حقوق الانسان الذي زار معتقلات خروتشيف وبريجنيف، تلغرافياً بموت زوجها في سجن تشيستوبول. في ٢٣ كانون الأول غادر أندريه ساخاروف منفاه في غوركي أثر مكالمة هاتفية من غورباتشيوف. كان ستالين يخشى أن يزّود ماياكوفسكي بولغاكوف وزامياتين ببعض أفكاره. أما غورباتشيوف فكان يخشى من جهته أن لا تتحمل صحة الأكاديمي ساخاروف منفى في غوركي.

متناولاً بنظرة ثاقبة «طيبة» ستالين، يبيّن فاسيلي غروسمان أن المكالمة الهاتفية التي منحت متلقيها «المجد والشرف والسؤدد» دمرت في الوقت نفسه روحه. إن ستروس الذي كان مهدداً بالتوقيف والموت، ورافضاً القيام بنقد ذاتي، ارتكب بعد المكالمة الهاتفية ودون أن يدرك، عملاً مشيناً، تلبيةً للذين كانوا في العشية جلاديه. إذن، يبدو غروسمان سباقاً لاكتشاف النتيجة الكبرى التي تؤمنها المكالمات الهاتفية: إنها تقيم علاقة بين الجلاد والضحية وتثير لدى هذه الأخيرة شعوراً بالوداعة تجاه الجلاد. ولقد سمّى علماء النفس الغربيون الذين درسوا الانفعالات النفسية لدى الرهائن المحررة «تناذر ستوكهولم» ويمكننا بهذه الطريقة نفسها، الحديث عن «تناذر ستروم» بشأن مكالمات الأمناء العامين.

لقد نظّمت «الغلاسنوست» وكأنها حملة إضافية مفروضة من فوق بارادة من المراجع العليا. ويشبه ذلك ما قام به نقولا الثاني، بعد الهزيمة في حرب اليابان والحركات

الثورية بين ١٩٠٤ و١٩٠٥، عندما لجأ الى برنامج إصلاحي واسع، إذ أعطى لرعاياه حقوقاً مدنية شملت حرية التعبير ثم أخضعها لأحكام خاصة. إن حرية الكلمة أصبحت قانوناً حكومياً. أي أن القانون حل مكان الرقابة.

إن الرقابة ما تزال موجودة في الاتحاد السوفياتي. غير أن رئيس التحرير هو الذي يُسأل الآن عن التوجه الأساسي لجهازه الاعلامي (وهذا ما ينطبق على جميع وسائل الاعلام الجماهيرية ووسائل الدعاية). وهكذا يروي لابتيف رئيس تحرير الايزفستيا أن غورباتشيوف أثّر عميقاً عام ١٩٨٦ في مديري أجهزة الاعلام عندما أعلن في أحد اجتماعاتهم قائلاً: «حضرات الرفاق رؤساء التحرير أنكم منذ الآن من يناط بهم حق المنع وإعطاء الاذن. . .»(٥). تبدأ آلية التنظيم التي تعتمدها «الغلاسنوست» بانتقاء «منارات» الحملة: أجهزة الاعلام النموذجية ومحرريها. ويظهر الطابع المصطنع لهذه العملية بجلاء، عندما نكتشف أن الأسبوعيات الرائدة هي أخبار موسكو وأوغونيوك. إذ يمكننا أن نلحظ أنه ليس لأي منهما تقاليد تقدمية، هذا علماً أننا حين نقول جهاز إعلامي سوفياتي وتقاليد تقدمية نتكلم أصلاً عن شيئين ينفي أحدهما الآخر. ولدت أخبار موسكو في ٥ تشرين الأول ١٩٣٠، باللغة الانكليزية وباسم موسكو نيوز. أما مهمتها فنشر أفكار ستالين وسط الانسانية التقدمية. وكان يعمل فيها إلى جانب الصحافيين السوفيات، شيوعيون أجانب. وخلال سنوات مديدة عرفت هذه الأسبوعية، كرئيس للتحرير (ابتداء من ١٩٣٢) ميخائيل بورودين وهو ممثل الكومينترن لدى سان يات ـ سن، الذي كان، في العشرينات يسوّق السياسة السوفياتية في الصين. ثم حتى عام ١٩٤٩ لم تجذب أخبار موسكو إلا قراءً رديئين، تروي لهم قصصاً عن «الاشتراكية الناضجة» تجعل المرء ينام وهو واقفاً. في عام ١٩٥٦ أصبحت هذه الأسبوعية مجلة لوكالة أخبارية جديدة كل الجدة وكالة نوفوستي، التي، شكلت من حيث ارتباطها بالـ. كا. جي. بي بديلاً لوكالة تاس الرسمية. وفي ١٩٨٧ أعطى رئيس تحرير أخبار موسكو التوضيح الآتي: «لقد صممت مجلتنا لتكون بمثابة جريدة مستقلة على حدة، موجهة خصيصاً الى البلدان الغربية، وكنا نبدو هناك كصحيفة معارضة، أما الآن فهم يروننا بصورة مختلفة أي «كموصل لحركة السياسة الغورباتشيوفية»(٦).

تأسست أوغونيوك عام ١٩٢٣، وأصبحت منذ نهاية العشرينات المجلة المصوّرة

الوحيدة الواسعة الانتشار. وقد أديرت منذ ١٩٥٣ وحتى بداية الغلاسنوست من قبل الشاعر والمسرحي أناتولي سافرونوف، الذي يعتبر شخصية رجعية حتى في أوساط رؤوساء التحرير السوفيات.

وكان يكفي، لتحويل أخبار موسكو وأوغونيوك الى «عندليب» ينشد الغلاسنوست والبريسترويكا والتحوّل الى الديمقراطية، تبديل خط الحزب وتعيين رؤساء تحرير جدد. وهكذا سُلّمت أوغونيوك الى الشاعر والصحافي الاوكراني فيتالي كوروتيتش، وأخبار موسكو الى المؤرخ ايغور اياكوفليف الذي أمضى سنوات طويلة في متن جهاز اللجنة المركزية. ولم يكن كوروتيتش أو اياكوفليف معروفين بخلافهما مع خط الحزب في عهد بريجنيف. أو أنهما كانا يخفيان ذلك جيداً. وبالمقابل فإن ملاحظات كوروتيتش حول إحدى رحلاته الى الولايات المتحدة معروفة جداً وقد نشرت تحت عنوان: الوجه الحاقد. ويعمل الكاتب، في هذه الملاحظات، على وضع اليد على جروح الامبريالية الاميركية بلذة سادية، وهو لا يدع للقارىء مجالاً لأي شك حول تفضيل الاشتراكية وكونها هي العليا. في أواخر ١٩٨٨ أوضح كوروتيتش أن العديد من فقرات كتابه كتبت رغماً عنه من قبل محررين «بريجنيفيين». وقد عُيّن أيضاً بعض رؤساء التحرير الجدد في المجلات الشهرية الأدبية والسياسية وهكذا تكتمل اللعبة: ها أن طليعة الغلاسنوست قد ولدت. إن انشاء نظام التمويل الذاتي بالنسبة للأجهزة الاعلامية دفع بالمحررين الى محاولة اصطياد القراء، وهكذا بدأت تنشر مقالات مثيرة حول أسرار الماضي السوفياتي وأخرى تكشف عاهات النظام. وفي أواخر ١٩٨٨ جرت محاولات للحد من تأثير «منارات الغلاسنوست» وذلك بالحد من الاشتراكات، إلا أن زخم الاعتراضات حال دون ذلك. واستمرت أوغونيوك وأخبار موسكو ونوفي مير وزناميا (الراية) باحتلال المركز الأول في الصحافة السوفياتية وذلك من حيث عدد المشتركين. وبالمقابل فأننا نشهد هنا عطوبة الغلاسنوست وهشاشة إمكانيات السلطة. يتم تغيير رؤوساء التحرير في خمس أو ست صحف وتحديد الاشتراك إلا أن «حجري الصوان» اللذين أشار إليهما سالتيكوف ـ شيتشدرين يظلان الواحد الى جانب الآخر، والشرارة لا تندلع. ما تزال الغلاسنوست تدهش السوفيات والعالم أجمع وقد أصبحت مرادفة «للربيع الغورباتشيوفي». أما أسس هذا التكتيك السياسي فكانت قد وضعت من قبل ستالين. ففي ١٣ أيار ١٩٤٧، وخلال حوار مع الكاتبين فادييف

وسيمونوف عرض ستالين نظرة كان قد بدأ العمل بها أصلاً، وهو ما يشير إليه سيمونوف نفسه. فقد اقترح الأمين العام الذي كان يرأس أيضاً مجلس الوزراء، تثوير «الليتراتورنايا غازيتا»، التي كانت تطبع خمسين ألف نسخة كل أسبوع. أراد ستالين أن يزيد أعدادها عشرة أضعاف وتحويلها الى نصف شهرية، وقد طلب خاصة بأن لا تحصر اهتمامها بالمادة الأدبية. كان يريد صحيفة «سياسية واسعة الانتشار، جماهيرية». كل جرائدنا، أوضح ستالين «هي بمعنى ما رسمية. أما الليتراتورنايا غازيتا فهي جريدة اتحاد الكتاب، ومن هنا يمكنها أن تطرح بعض المسائل التي لا يمكننا أن نطرحها رسمياً أو لا نريد أن نطرحها. فبوصفها جريدة غير رسمية تستطيع الليتراتورنايا في تناولها لبعض الموضوعات أن تكون أكثر جرأة منا وأقرب الى المواقف اليسارية. كما يمكنها من حيث قوة موضوعاتها أن تتميّز عن وجهات النظر الرسمية، وربما دفعنا هذا الأمر الى انتقادها أحياناً، ولكن عليها أن لا تخاف، بل أن تكمل مهمتها مهما كانت الانتقادات». أما سيمونوف الذي ينقل هذا الحديث فيضيف «أتذكر تماماً أن ستالين أعقب كلماته هذه بضحكة صغيرة»، ثم أنه (ستالين) تابع قائلاً: «عليكم أن تدركوا أنه لا يمكننا دائماً أن نقول على المستوى الرسمي ما نتمّنى قوله. هذا ما قد يحصل في السياسة، وهذا بالضبط ما على الليتراتورنايا أن تساعدنا بشأنه، وليس عليها بشكل عام أن تخاف أو أن تنظر الى ما حولها بحذر شديد، أو أن تتقيد برأي وزارة الخارجية فيما يتعلق بمقالاتها التي تتناول موضوعات دولية. وليس على وزارة الخارجية أن تطلع على مقالاتها. عليها أن تهتم بشؤونها، كما على الليتراتورنايا أن تهتم بشؤونها هي الأخرى». وفي الختام أعلن ستالين أنه في حال نجاح الليتراتورنايا غازيتا الجديدة «فإننا ربما سنقترح عليكم إنشاء وكالة أنباء غير رسمية لتتمكنوا من تلقي ونشر معلومات غير رسمية»(٧).

وهكذا غدت الليتراتوريانا غازيتا نزولاً عند رغبة ستالين تعبيراً عن وجهات النظر الستالينية «غير الرسمية»، أو ولنستخدم عبارة الرجل الذي شغل فيها منصب رئيس التحرير لسنوات مديدة، ألكسندر تشاكوفسكي «الهايد بارك السوفياتي». وقد أنشئت الوكالة الصحافية غير الرسمية نوفوستي بعد وفاة ستالين، غير أنها كانت، كما أشرنا، تحت رعاية الـ كا. جي. بي إلا أن الهدف بقي نفسه: تلقي ونشر «معلومات غير رسمية».

تحقق الغلاسنوست دون أي شك مشروع ستالين: إنشاء صحافة «غير رسمية»، الى جانب الصحافة «الرسمية»، تعبر بشكل مختلف عن سياسة الأمين العام. ليس ها هنا إلا بعداً واحداً، إذ يتمثل الثاني باستخدامها كآدات سلطة أو وسيلة لضبط الحلقات الوسيطة والدنيا في الجهاز، وذلك من خلال «تنظيم» «غضب الجماهير». في العشرينات وخاصة الثلاثينات، كان للغلاسنوست اسم آخر: النقد والنقد الذاتي. في ١٩٢٩ نبه ماكسيم غوركي من مقره في كوبري ستالين إذ كتب إليه أن «إضاءة الواقع السوفياتي من قبل الصحافة المهاجرة والبورجوازية عامة تستند كلياً أو يكاد على وقائع ذات طابع سلبي تنشرها صحافتنا متوخية أهدافاً تعليمية وتعبوية ـ فهكذا في سبيل أهداف النقد الذاتي... نزود الاعداء بمادة هائلة... تطال مبدأ ديكتاتورية البروليتاريا نفسه»[٨]. وقد أجاب ستالين على هذا العالم الانسانوي الكبير والمدافع عن الديكتاتورية موضحاً له ألف باء سياسة «الغلاسنوست»: «لا يمكننا الاستغناء عن النقد الذاتي... بدونها يصبح ركود واهتراء الجهاز ونمو البيروقراطية من الأمور التي لا يمكن تلافيها، والتي تؤدي الى القضاء على مبادرة الطبقة العاملة الخلاّقة... نعم، النقد الذاتي يؤمن مادة للأعداء. هنا أنت على حق تماماً. غير أنه يعطينا أيضاً المادة والاندفاعة أيضاً لكي نتقدم. فهكذا يحجب السلبي وتعاد تغطيته بالايجابي»[٩]. وبعد ما يقارب ستين عاماً أوضح مرشح الى انتخابات نواب الشعب لمنتخبيه الى أي حد يعتبر مهماً اليوم القيام بنقد ذاتي دون شفقة أو رحمة. فوحده النقد الذاتي يعطي للحزب الحق المعنوي للتقدم على رأس البريسترويكا[١٠].

تقنين استياء الجماهير تجاه الأجهزة الادارية تلكم هي إحدى طرق الادارة الكبرى في الأنظمة التوتاليتارية. فعندما يقدم القائد هو نفسه على استثارة غضب الشعب لضبطه فيما بعد، فإنه يستخدمه لتوطيد سلطته الشخصية ولابراز الصلة الوثيقة التي لا تنفصم والتي تشده الى العمال. يصعب فهم مرحلة «الارهاب العظيم» (١٩٣٥ ـ ١٩٣٨) دون الأخذ بالاعتبار أنها كانت لحد بعيد مرحلة غلاسنوست شاملة جرى التعبير عنها من خلال التشهير ـ في العلن والسر ـ في إطار الاجتماعات أو بواسطة الرسائل الى الصحف. أما الارهاب الذي طاول مجمل طبقات المجتمع فكان يوصف من قبل الدعاية بالحرب على «القادة»، التي يقودها أبو الشعب للدفاع عن الشعب. وكذلك فإن «الثورة الثقافية» التي دعا إليها ماو وأُظهرت كضربة موجهة ضد «الأركان

العامة»، كانت نسخة لنموذج الحكم الستاليني. والواقع أن خبراء الشؤون الصينية يتساءلون إذا ما جرت ترجمة التعبير الذي استخدمه ماو لتسمية عمليته هذه، الى اللغات الأخرى بصورة صحيحة. ويبدو لي في أي حال، أن المهم هو أن «الغلاسنوست» الستالينية الأولى في السنوات ١٩٢٨ ـ ١٩٣١ أسميت «ثورة».

ويغدو الطابع المخصوص بالغلاسنوست الحالية، كأداة للسلطة، جلياً تماماً عندما نقارنها بالمراحل المماثلة في الماضي. ففي ١٨٥٥ أدى سقوط سيباستوبول وموت نقولا الأول، بعبارة أحد المعاصرين، الى استفاقة روسيا من سباتها العميق. إذ عندها طفت الى السطح نتانة نظام الحكم، وكل نتائج حالة الاختناق».[١١] ولدت الغلاسنوست، وكانت مرحلة من الكشف و «السخط اللاذع والتهكم»[١٢] وقد أنشئت مجلات هجائية ونشرت الصحافة مقالات اتهامية. في ١٨٥٦ ظهرت «صور من الريف» لصاحبها سالتيكوف ـ شتشيدرين، وهي مرآة تكتشف روسيا فيها نفسها وسط الرعب والضحك. إلا أن الصحافة «الاتهامية» لا تنشط إلا في إطار الرقابة. وهي مرخص لها من قبل هذه الرقابة. وهناك أيضاً بالمقابل نقد رسمي وهو، بالطبع، غير راضٍ: «لقد أخذ أدبنا النقدي» المتهم على عاتقه أن يعرض لتهكم العامة جميع الاسهال القابعة في كهف أصغر دائرة، أو في أقصى زاوية قذرة، أو في طرف بيت موظف بائس»[١٣]. لا تثمر الأدبيات الاتهامية إلا بقدر ما تعاملها الرقابة بتسامح. إلا أن الرقابة تكتفي بالمنع، أي أنها لا تحدد للاهجية أين توجه نظرها، وأي موضوعات تتناول. إذن، كان ناشرو المجلات اللاذعة ومؤلفو المقالات الاتهامية يتصرفون خلال ستينات التاسع عشر بشكل مستقر وإن ضمن إطار الرقابة.

أما موجة الغلاسنوست الثانية فقد ذهبت أبعد من الأولى بكثير. ففي ١٩٠٥ أقرت الأحكام التي ترعى الصحافة، ثم استكملت عام ١٩٠٦. فحقوق وواجبات الصحافة باتت محددة من قبل القانون. لقد ألغيت الرقابة المسبقة تخصيصاً. وقد أصبح لكل جهاز حزبي ـ وكانت الأحزاب كثيرة في روسيا ـ صحيفة أما حرية الكلمة فقد بدت، رغم محدوديتها بالمقارنة مع انكلترا أو فرنسا خارقة حتى بالنسبة للتقاليد الليبرالية السائدة في المرحلة الغورباتشيوفية.

لقد بدأت «إزالة الجليد» في كانون الأول ١٩٥٣ انطلاقاً من مقالة لفلاديمير

بومرانتسيف، بعنوان «الصدق في الأدب»، نشرت في مجلة نوفي مير، إضافة الى قصة لايليا اهرنبورغ بعنوان «ذوبان الجليد» ظهرت لاحقاً في نيسان ١٩٥٤. ويتحدث بومرانتسيف (مستخدماً كلمة رائجة جداً اليوم) عن «النقص» في إظهار الحقيقة في مجال الأدب والحياة. «الصدق، هذا ما تحتاج إليه برأيي بعض الكتب والمسرحيات»، ثم ان إهرنبورغ يقدم على كسر تابو آخر: إنه يتكلم عن الحب والأمراض وحتى عن الموت في زمن كان يكفي لأي رواية سوفياتية أن تتحدث عن رداءة الزمن ليعتبر مؤلفها منشقاً كريهاً. ولكن سرعان ما تم تمزيق مقالة بومرانتسيف ورواية اهرنبورغ من قبل أجهزة النقد الرسمية بعد أن أثارتا استنكار السلطة الايديولوجية.

غير أن «إزالة الجليد» وهي الآداة التي استخدمها ورثة ستالين في صراعهم من أجل السلطة بدأت تنشر الدفء تدريجاً على الأرض المجلدة. وأخذت حدوده بالاتساع حتى بات من الممكن طرح الاسئلة. وقد أعطى الأمين العام للجنة المركزية خروتشوف إذناً بهذا الصدد كما أن خروتشوف قد حدد في تقريره «السري» للمؤتمر العشرين، وهو فعلياً واسع الانتشار في البلاد، وخلال الاجتماعات «المفتوحة» أو «المغلقة»، لائحة بالمسائل التي على الشعب أن يهتم بها. وهذه اللائحة غاية في الاتساع: تاريخ الثورة ثورة أكتوبر والدور الذي لعبه ستالين، الاخطاء التي ارتكبت ابان التأميم، الارهاب والحرب العالمية الثانية. إذن في ١٩٥٦، جرى تعداد «اللطخات البيضاء» وهو الاسم الذي أطلق بعد ثلاثين عاماً على الأكاذيب حول الماضي السوفياتي. وسوف تُكمل السنوات الخمس الأولى من الغلاسنوست اللائحة بشكل مستفيض، غير أن هذه الاضافة كانت منذ فترة في طورها لتدخل في دائرة المسموحات. بعد تقاعده قرأ خروتشوف «الدكتور جيفاغو» وقد وجد رواية باسترناك مضجرة، إلا أنه ندم مع ذلك لكونه لم ينشره: «فلما كان ليحدث أي شيء» ولكن «رقيب الباطن» كان، كما يشهد الكسيس ادجوباي، قد بدأ منذ ١٩٦٣ يضايق خروتشوف: «ألم نبالغ باطلاق العنان؟ ألم نصل الى زمن الفيضانات الكبرى[١٤]؟ أو كما كتب في مذكراته «كنا نكبح بطريقة ما هذا الذوبان للجليد، حتى لا يتحول الى سيول وفيضان»[١٥].

يلجأ الأدب الى تبخير الغلاسنوست كما سبق أن فعل بالنسبة «لازالة الجليد». ففي صيف ١٩٨٥، صدرت رواية لغالانتين راسبوتين «الحريق»[١٦]، وفي كانون الثاني ١٩٨٦، رواية أخرى لفيكتور آستافييف «اليولار البائس»[١٧].

وتبقى قيمة هاتين الروايتين الأدبية موضع نقاش. إلا أن ها هنا شيئاً أكيداً، وهو أن الأدب السوفياتي الرسمي لم يعرف أبداً من قبل مثل هذه الصرخة المعبرة عن الألم والخوف واليأس. وقد تناول راسبوتين، في أدبه الريف وأستافييف مدينة ريفية صغيرة. والمشهد هو نفسه أينما كان: تدمير الطبيعة، وانحطاط الانسان. ويتلمس الكتاب السوفيات المغزى: الخير يُهزم لينتصر الشر. وقد حملت المجلات التي نشرت هاتين الروايتين بصمات الرقابة. ويمكننا الاستنتاج من كل ذلك أنه قد أذن للسوفيات بالصراخ والبكاء من الألم.

وفي أجواء «ذوبان الجليد» اخضوضرت فجأة شجرة الأدب السوفياتي من جديد ـ وبشكل لم يكن متوقعاً خاصة بعد الشتاء الستاليني الرهيب: انفجار الشعر، بروز مجموعة هامة من المؤلفين الشباب، أسماء جديدة ومن بينها اسم ألكسندر سولجينيستين، وقد شهد «الساميزدات» الذي كان يوجه إليه قسم مهم مما كتب حينها، وما تم منعه من قبل الرقابة، على وفرة الحصاد الأدبي. أما السنوات الخمس الأولى من الغلاسنوست فكانت من طبيعة أخرى. وهي لم تشهد إلا بعض الكتب التي أصبحت رمزاً «للحريات» الجديدة. وقد لفتت الأنظار، أساساً، لأن مؤلفيها سمحوا لأنفسهم باقتحام ميادين كانت حتى ذلك الحين من المحرّمات. وفي روايته «قضَمْ» يتناول تشانغيز آيتماتوف وللمرة الأولى مشكلة المخدرات ـ من وجهة نظر المستهلك إضافة الى المموِّن ـ التي اعتبرت حتى الآن وقفاً على الغرب وهو في طور الانحلال. وفي «الأثواب البيضاء» يصفّي فلاديمير دودينسف حساباته نهائياً مع ليسينكو والليسانكية. أما في «البيسون» فيرسم لدانيل غرانين صورة عن عالم بارزٍ، تيموفييف ـ ريسوفسكي وهو مهاجر يعيش في ألمانيا وقد أوقفه السوفيات في برلين عام ١٩٤٥، وبعد أن قضى سنوات طويلة في المعتقل أعيد الى دائرة النشاط العلمي إلا أن بعض القيود ظلت تفرض عليه. وفي «أولاد أربات» Les Enfants d'Arbat يصف أناتولي ريباكوف ستاليناً شيطانياً يحرّف المبادىء اللينينية للاشتراكية. وسريعاً ستخرج الغلاسنوست من إطار الأدب حيث تفتقد الى القوة. لتنخرط في «البيريسترويكا». وتجدر الاشارة هنا أنه لم يُرفد الأدب بأسماء جديدة وكتاب من الشباب (فجيل الأربعين عاماً هو الذي اضطلع بهذا الدور). ولم تبرز أية أهمية تضفي نوعاً من الحيوية الحقيقية على عصر «إزالة الجليد». وإذا اعتقدنا بما يقوله ماركس من أن البشرية تنفصل عما فيها بقهقهة عالية، لا بد لنا

من تفسير غياب الاهجية بوصفه رفضاً للتخلي عن الماضي. وهناك نقص آخر يظل ملفتاً اليوم. فخلال السنوات الأولى التي أعقبت موت ستالين برز أسلوب أدبي شيّق جداً تمثل بالعلم المخيالي، الذي غدا نوعاً من تمثل للأفكار الجديدة، والتأمّل الفلسفي والتفكر الديني. وفي الوقت نفسه يعبّر العلم المخيالي عن التفاؤل التاريخي» السائد في الايديولوجيا السوفياتية والواعد ـ في مستقبل ليس ببعيد ـ بتحقيق الحلم الأبدي، بالجنة على الأرض. ومن هنا فإن غياب العلم المخيالي في العصر الغورباتشيوفي يدل، بين أشياء أخرى، على فقدان الايمان بالمستقبل.

كان الاعلاميون والاقتصاديون سباقين للتحوّل الى طليعة الغلاسنوست. وقد تدفّق على الشعب السوفياتي سيل من الأرقام التي تتسابق على الإثارة. أما الاحصاءات وما تصطنعه الصحافة من وقائع، والبرافدا ضمناً، فإنها لا تدع أي شك: الامور من سيّء الى أسوأ، والأزمة إقتصادية واجتماعية وبيئوية وأخلاقية في آن معاً. إننا نعيش حياة سيئة على كل الأصعدة، تلك هي صرخة الاعلاميين. والبريسترويكا هي خشبة الخلاص الوحيدة، بالطبع وغورباتشيوف. أيضاً والواضح أن الأمين العام يريد إحداث صدمة كهربائية في وعي «سكان الاشتراكية الناضجة». ولِكلّ شجرة. كما يقول مثل روسي، فأسها. لقد رأى غورباتشيوف أنه من الضروري إحداث صدمة ليُبيّن أن برنامجه وشخصه يشكلان الحل الوحيد.

وتؤكد أبرز تعبيرات الغلاسنوست طابعها الأداتي. إن تكتيك غورباتشيوف يقضي بتوقيع الرغبات والطلبات. وهو يسعى إلى الظهور وكأنما يقدم عطاءات وهدايا. وقد سمح بنشر الكتب التي كانت ممنوعة من قبل. وقد علت أصوات بعض الكتاب، هؤلاء الذين احتلوا حديثاً مكانة مرموقة في دائرة الأدب السوفياتي تمكنهم من نشر وإعادة نشر «ما ينامون عليه» من كتابات، ضد هذا «العطف على الأموات»، الذي سمح لهؤلاء بالنفاذ الى عالم الأدب وتسميم وعي المواطنين السوفيات بعد أن احتلوا مساحة غير مبررة في المجلات ولوائح دور النشر. أما الكتاب من أنصار غورباتشيوف فقد أيدوا من جانبهم وبحرارة هذه «الفتحة». والأشد اغتباطاً كانوا القراء الذين اكتشفوا من جديد كتاباً كباراً (قدماء)، وعوالم مجهولة. وسادت أثر ذلك عبارة تقول: «أن يقرأ المرء في أيامنا أجمل من أن يعيش» وهكذا بتقديمه الأدب، الذي كان ممنوعاً،

هديةً للناس نجح غورباتشيوف بما عجز عن تحقيقه خلال خمس سنوات: تحسين الحياة.

ومن أشد قرارات الغلاسنوست جذرية كان ذاك القاضي بالعدول عن تشويش «الأصوات»، وهي تسمية كانت تطلق على الاذاعات الغربية التي تبث بمختلف لغات الاتحاد السوفياتي. لقد تم التوقف أولاً عن التشويش على «صوت أميركا» والـ. بي. بي. سي. «والموجات الالمانية»، ثم الاذاعة التي تطالها حملات التشنيع من قبل السلطة السوفياتية أكثر من أي واحدة سواها: «راديو الحرية». وربما كانت أكلاف التشويش الباهظة من العناصر التي استند إليها هذا القرار. إذ كانت ميزانيتها تتخطى ميزانية موازنة البث الخاصة بجميع «الأصوات» مجتمعة. غير أن الجوهري بالموضوع يكمن في مكان آخر: لقد أدرك المؤدلجون السوفيات الفائدة التي يجنونها من هذه الخطوة الليبرالية الجريئة. والسوفيات المزودين فقط بالمعلومات الرسمية كانوا «يقبضونها» لعدم توفر غيرها، غير أنهم كانوا يأولونها على سجيتهم.

أما المعلومات التي تبثها «الأصوات» فكانت تعتبر موثوقة. ومباشرة بعيد انتخابات غورباتشيوف، أخذت الاذاعات الغربية دعم البريسترويكا على عاتقها. وعدا بعض الانتقادات التفصيلية، كانت سياسة غورباتشيوف إجمالاً موضع تأييد الغرب. وقد تناوب ممثلو الطبقة المثقفة السوفياتية الذين يقيمون في الغرب على الكلام بطيبة خاطر، من إذاعات «راديو الحرية» و «صوت أميركا» والـ. بي. بي. سي، إضافة الى أن بعض المهاجرين المعروفين عادوا في زيارة الى الاتحاد السوفياتي وأعطوا بعض المقابلات ثم أثر عودتهم الى الغرب، بعض الأحاديث «للأصوات» مؤكدين عبر هذه الاذاعات الحرة دعمهم لغورباتشيوف ـ وما توفره هذه «الأصوات» من فوائد يصار الى تبيانه كل يوم. فقد نشرت البرافدا مثلاً رسالة من أحد القراء يقول فيها: «هذه الأيام سمعت على «صوت» أن عضواً هاماً في إدارة الحلف الأطلسي كان قد قدم تقريراً سرياً حول التطلعات الاقتصادية السوفياتية خلال العشرين سنة القادمة. وما يحيّر هو أنه رغم سرية التقرير جرى الكشف عن الأرقام. ماذا يعني ذلك؟ هل يكون نوعاً من «المونتاج» الغربي؟.

أما البرافدا فأجابت بدقة عن هذا السؤال، وهذا ما كان مستحيلاً بالأمس

القريب عندما كان يعتبر الاستماع الى «الأصوات» جريمة. وقد أكد الجهاز المركزي للصحافة في الحزب وجود التقرير الذي أشار إليه المكتب اللاسلكي النروجي، ثم قامت باعلام الملايين من قرائها: أنه وبناء على ماورد عن مساعد الأمين العام للحلف الأطلسي «فإنه تم الغاء مشاريع انمائية هامة من الخطة السوفياتية للسنوات القادمة» وذلك لأسباب تتعلق بالمشاكل السياسية. وقد حملت البرافدا المسؤولية عن صحة هذه التكهنات لواضعي التقرير، غير أنها لم تتحفظ عن الاعلان أنه «حسب رأي الخبراء الغربيين فإن البشائر الكبرى للنمو الاقتصادي في الاتحاد السوفياتي تتمثل بوجود ميخائيل غورباتشيوف على رأس السلطة، ومتابعة الاصلاحات التي بوشر بتنفيذها وزيادة عائدات التصدير. وغياب الاضطرابات القومية إضافة الى الأحوال الجوية المؤاتية للزراعة»(١٨). من هنا فإن السؤال المطروح لا يمكن إلا أن يكون مصطنعاً: الى من سيركن القراء والمستمعون، لاعلامييهم أم لخبراء الحلف الأطلسي؟ ويتمثل أحد أروع نجاحات الغلاسنوست في أنها حررت المراسلين الأجانب العاملين في الاتحاد السوفياتي من ضرورة التفتيش عن الأخبار. فكل «المستجدات» و «الأخبار المثيرة» تسقط عليهم مصنعة سلفاً من قبل المصادر السوفياتية. وذلك من خلال وكالة تاس ونوفوستي، و «اجتماعات التعليمات» «البريفنك» في الوزارات اثر أحاديث «بالامانات» مع القادة السوفيات. فليس من حاجة بعد الآن لأية مصادر غير رسمية. كل شيء يأتي مباشرة، كما يقول الانكليز، من «فم الحصان». فلم يسبق أبداً، حتى في ظل الرقابة الأكثر تشدداً، ان مورس مثل هذا الضبط الهائل على الصحافة الأجنبية. وتكمن أهم العناصر التي تميز الغلاسنوست أو أهم انتصاراتها الجوهرية، في أنها نجحت باشراك الغرب في عملية إعادة قولبة الوعي الاجتماعي في الاتحاد السوفياتي.

فهكذا عندما يراد مثلاً تخفيف التوتر الذي أحدثه الاعلان عن مجزرة تبيليسّي في ٩ نيسان ١٩٨٩، يصار الى جمع المراسلين الأجانب في وزارة الخارجية في موسكو. ويعرض أمامهم كاسيت فيديو تبيّن شيفارنادزه وهو يتحاور مع بعض المثقفين من جيورجيا. وهكذا حصل الصحفيون الغربيون الذين لم يسمح لهم بالذهاب الى جيورجيا على معلومات «من يد معلم». وقد لخّص مراسل اللوموند، الذي يعرف عادة عما يتكلم، الأمر على النحو الآتي: «مباشرة بعد نشرها تصبح مقالات المراسلين الأجانب مادة لاستشهادات غزيرة تبثها يومياً الاذاعات الأجنبية الموجهة الى المستمعين

السوفيات. وتصل الرسالة بسرعة أكبر وبصورة أوضح بقدر ما يرفقها الصحفيون الغربيون بتعليقاتهم. وهكذا لا يحتاج مثلاً الكرملين الى الاشارة بنفسه في صحافته الى أن القيادة المدنية أو العسكرية أو الاثنين معاً، قد عملتا بصورة اختيارية حرة ضد غورباتشيوف»[١٩].

«هل أن «صوت أميركا» قد غيرت لهجتها؟» سؤال طرحته سوفياتسكايا كولتورا. وقد أجابت الصحيفة موردة كلاماً للمسؤول عن القطاع السوفياتي في الاذاعة الأميركية يقول فيه «إنه بات بإمكاننا الافتراض أنَّ وسائل الاعلام السوفياتية لم تعد معادية لصوت أميركا بل أنها دخلت في منافسة معها» وفي الحقيقة فإن هذه الاذاعة ومجموعة هذه الوسائل تشكلان نمطين اعلاميين. ثم ان الصحيفة تصل الى استنتاج «أن المعلومات التي تنشرها «صوت أميركا» باتت شأنها في ذلك شأن مجمل السياسة الاميركانية، وبصورة واضحة أقل عداء للشيوعية»[٢٠].

في ١٩٤٧، وبعد تحقق النصر، وفيما كان الأمل بالتحرر الذي برز بعد الحرب قد تبخر، أوضح ستالين لرفاقه في السلاح «كيف يتكون عندنا الرأي العام». وتختصر فكرة ستالين بأنه «رغم استحالة أن ينشأ عندنا حزب معارض، علينا أن لا ننسى أن تكوُّن وجهات نظر وأحكام غير رسمية يظل ممكناً، وهي إن لم تعبر عن نفسها ستظل مضمرة. والواقع أنه من الضروري والمفيد أن تُعرف الحقيقة، خاصة بالنسبة للحزب القائد الذي يعبر، وحده، دون غيره، عن مصالح مجمل الطبقات والجماعات وخاصة إذا أعدنا الى الأذهان نزوع الكوادر الى الكسل والافتراضات الخاطئة والنقص في الحس النقدي، »[٢١]. مدركاً الفائدة العملية من السماح لوجهات النظر غير الرسمية بالتعبير عن نفسها، غالباً ما كان ستالين يلجأ الى هذا الاجراء ولكن دائماً لفترات قصيرة، وفي ظروف محددة تتصل بالصراع على السلطة أو بمناسبة بروز «انعطاف» جديد في الخط العام. ويظهر المثل النموذجي عن هذه الاجراءات الليبرالية التكتيكية من خلال الحملة التي نظمها ماو في النصف الثاني من الخمسينات تحت شعار: لتتفتح مئة زهرة، لتتناقش مئة مدرسة ». ولكن عندما لا تعود المدارس ضرورية تغلق فجأة ويُرسل المتناقشون الى المعتقل وتقطع الزهرة من الجذر.

ان غورباتشيوف، بعد مرور ثلاثين عاماً، أكثر حكمة من ستالين. فقد توصل

السكرتير السابع الى اكتشاف ملفت: ان أثر أسلافه على تشكُّل الانسان السوفياتي والأوضاع الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية التي تطغى على النظام تسمح له بالذهاب بعيداً أكثر بكثير مما كان يتصور، فيما يتعلق بقبول الآراء والأحكام غير الرسمية، وقد أدرك غورباتشيوف (وهو لم يكن وحده معنياً غير أنه من الأيسر أن نطلق اسمه على هذه المجموعة من الحكام الذين يشاطرونه الرأي) أنه لم يتم بعد الاستفادة من الامكانيات الواسعة التي توفرها التربية السوفياتية. وقد لحظ أنه من الممكن منح الانسان السوفياتي ثقة أكبر بكثير من التي تعطى له، ذلك أن هذا الأخير لن يقدم على الخروج من «القفص الاشتراكي»، ذلك العالم الذي يعيش في إطاره ويشكل هو بدوره عالمه الباطني الذي يعيش في سريرته.

كان الكتاب الشباب الذين دخلوا ميدان الأدب خلال سنوات «إزالة الجليد» وبعد موت ستالين والذين أدهشوا حماة العقيدة الرسمية بلغتهم ولباسهم وأذواقهم الموسيقية وشخصياتهم، يبررون تصرفهم بأنهم إنما يحاولون تبيان أن باستطاعة شاب «بالجينز» يهوى موسيقى الجاز والتكلم باللغة العامية أن يكون مخلصاً للاشتراكية تماماً كما كان والده واخوته الأكبر منه. قبل ثلاثين عاماً لم يكن لكلام الكتاب الشباب أية مصداقية. إن رسالتهم لم تفهم إلا اليوم.

خلال محادثاته مع غورباتشيوف لم ينِ الرئيس ريغان يردد، رغم انزعاج محاوره الشديد، مثلاً روسياً نال اعجابه بصورة خاصة: «الثقة أخت الحذر»* هذا المثل يتناسب تماماً مع سياسة الغلاسنوست. وضع الثقة بالمواطنين السوفيات يعني أن باستطاعتهم قراءة ما كان بالأمس ممنوعاً، والاستماع الى «أصوات» اعتبرت معادية، والاطلاع على كل المصائب والكوارث التي أصابت الاتحاد السوفياتي في زمن «العبادة» و «والارادوية» و «الركود»، ولكن الحذر يظل ميزان التعامل معهم: إذ لا بد من التنبه الى ضبط حدود «الغلاسنوست».

يتم اعداد تقنية الغلاسنوست وحساب ما يمكن التساهل به أو التشدد تجاهه في «الورشة» نفسها. أما التجربة السابقة فتؤخذ بالحسبان بصورة دقيقة غير أنه يصار الى تفهّم الأوضاع المستجدة، ويبقى شرط ملزم يحكم أصل مجمل هذا التصور: السلطة هي التي تحدد قواعد اللعبة، إنها المرجع الأعلى الذي يضمن الغلاسنوست، ويضبط

الصحافة وجميع وسائل الاعلام، ولا يتم شيء إلا من خلالها، بما في ذلك الشعارات الأكثر ثورية، والتي تحدد وجهة النقاش والتفكر والامتعاض الخاصة بالمواطنين السوفيات. وقد كتب رئيس تحرير ريفيراندم وهي مجلة مستقلة تصدر في موسكو: «تلاحظون أنه في كل مرة نتكلم عن الغلاسنوست، نستحضر في ذهننا فعلاً إرادياً: لقد سمح بالنشر سُمح باطلاع الجمهور على... ، سمح برفع هذا الجزء من الستارة»[٢٢].

إذن، من المهم جداً بالنسبة للسلطات أن تكون مبادرة، أن تستبق الطلب. أي أن الشعارات الآنية الكبرى تأتي من فوق: إقامة الديمقراطية، غلاسنوست، محاربة الظلم الاجتماعي. ومن فوق أيضاً يشار الى العدو: البيروقراطية. لقد أرسل قارىء، اسمه رودانكو، كتاباً الى ازفستيا ذكر فيه أن الغلاسنوست الحالية هي بنظره أشبه «بلعبة مخترعة ومستخدمة بشكل أوسع في المؤسسات اليابانية: وبالفعل ففي كل مشغل غرفة، حيث توجد لعب من المطاط هي نسخ طبق الأصل عن الوكلاء ورؤساء الشركة الآخرين. والمبدأ هنا هو التالي: إذا كان الوكيل لا يروق لك فيمكنك أن تذهب وتحطم رأس شبيهه المطاطي. ويستنتج رودانكو من هذه القصة أن الغلاسنوست ليست إلا نسخة باهتة عن هذه التقنية اليابانية: أيها المواطنون: البيروقراطيون الذين قادوا البلاد الى الهاوية لا يروقون لكم؟ لا شيء يحول دون تأنيبهم ووصفهم كل يوم «بأعداء البريسترويكا»[٢٣].

إن رسالة من هذا النوع تبدو للنظرة الأولى متطاولةً ومهينةً، غير أنها هي أيضاً لا تخلو من مردودية. إنها دليل على إنفتاح الصحيفة، على غياب الممنوعات، على إمكانية التوجه الى الصحافة بشأن جميع الاشكالات، وهذا ما يجذب قرّاءً جداً. إن الصحافة السوفياتية التي فقدت قراءها طوال سنوات وتحولت الى موضع للسخرية والحذر تستعيد شبابها اليوم مع بروز الغلاسنوست، كما أن أعدادها تزداد بشكل عجيب. وتظهر الى جانب المجلات والصحف المعروفة من قبل القارىء مطبوعات جديدة. لقد أستعادت أسبوعية «ارغومانتي أي فاكتي» (وقائع وبراهين) أمجادها الماضية من حيث عدد نسخها. فمنذ عشر سنين فقط لم تكن تتجاوز عشرة الآف نسخة، أما في بداية ١٩٨٩ فبلغت العشرين مليوناً ونصف وتجاوزت في بداية ١٩٩٠ الثلاثين مليوناً.

تتألف المجلة من ثماني صفحات والاشتراك السنوي لا يكلف أكثر من ٣ روبلات، والمقالات قصيرة تترك مكاناً للعديد من رسائل القراء. وقد نشرت «ارغومانتي أي فاكتي» وثائق مثيرة حول ابنة ستالين وعدد ضحايا المرحلة الستالينية، والنقص في المواد الغذائية. كما إن المجلة تنشر دورياً مقالات حول التاريخ السوفياتي، حيث حلّت بالنسبة للمدرسين مكان كتب التاريخ التي تبقى غير موجودة أصلاً. وبالكاد تقل أعداد صحيفة اللجنة المركزية للنقابات «ترود» (العمل) عن عشرين مليون نسخة، أي ضعف البرافدا التي لا تشكو من شيء بنسخها التي تبلغ عشرة ملايين. (العدد الدقيق كان أول كانون الثاني ١٩٨٩، ٩ ملايين و٠٠٠, ٦٦٤). وكذلك فإن عدد قراء الصحف المركزية التابعة للحزب في تزايد مستمر: ٤ ملايين و٠٠٠, ٢٢١ السوفياتسكايا روسيا مليون و٠٠٠, ٨٦٢ (التثقيف السياسي) مليون و٠٠٠, ٢٣١ الآغيتاتور «المحرض»، و٠٠٠, ٩٣٠ الكومونيست و٠٠٠, ٨١١ (حياة الحزب).

أما الاهتمام بوسائل الاعلام الأخرى فقد عرف هو أيضاً تزايداً كبيراً. وهذا ما يشكل نجاحاً أكيداً للغلاسنوست: إن المواطنين السوفيات عادوا ليلتحقوا بحقل الواقع تحت تأثير الدعاوة الموجهة. ومعلوم أن السلطة رفضت الترخيص لانشاء دور نشر خاصة أو لصحف خاصة أيضاً. ويكشف القرار الذي صدّق في ٢٣ تشرين الأول ١٩٨٧، والذي يقضي بمنع تعاونيات النشر مرة أخرى، أن الغلاسنوست هي قبل أي شيء آداة بيد السلطة. وقد ظل هذا القرار سرياً إلى أن أعلن عنه في نشرة مستقلة: «غلاسنوست. ويهدف هذا القرار، وفق ما أوضحه أحد واضعيه الى حماية المجتمع من الخطر الاجتماعي والايديولوجي والأخلاقي الذي تشكله التعاونيات[٢٤]».

وقد نشرت الصحافة الغربية نبأً مذهلاً ـ «فالنسخ المصورة «فوتوكوبي» والمصدّقة وعنوانها شارع غوركي في موسكو» كانت مرفقة بهذا الايضاح: «كنيغا برينت شوب»، الشركة المختلطة السوفياتية ـ الكندية، المزودة بأحدث المعدات تقوم بكل أعمال النسخ مقابل الدفع بالعملة الصعبة[٢٥].

عام ١٩٨٦، بوشر بصياغة قانون الصحافة والإعلام الذي يرسم تحديداً الاطار القانوني للغلاسنوست. وقد اصطدم هذا القانون بعوائق لا تحصى يطغى عليها التعقيد الشديد. يسعى واضعو المشروع الى تشريع الغلاسنوست محددين قانونياً الدور

المخصوص الذي تلعبه الصحافة ومحطات التلفزيون. تاركة في الوقت نفسه صلاحيات الدولة في مجال ضبط وسائل الاعلام دون أي تعديل. وفي آواخر ١٩٨٨ إتضحت المبادىء الأساسية التي يستند إليها قانون الصحافة.

وقد قيَّم الأكاديمي ساخاروف المشروع معتبراً «أنه غير مرضٍ بأي شكل، إنه يحد من مهام البريسترويكا كما كانت قد صيغت وأعلنت. إذ لم يعط حق نشر الانتاج المطبوع إلا للمؤسسات العامة المسجلة أي بمعنى آخر للتنظيمات الرسمية... ووفق هذا القانون لا يمكن أن تعود وسائل النسخ الى شخصيات ذات صفة خاصة... أما لائحة ما تمنع طباعته فواسعة وفضفاضة وتترك مجالاً لتأويلها بشكل أوسع.. لا يُعطى اذناً بالنشر لكل ما يمكن أن يكون هادفاً الى تغيير (أشدد: تغيير وليس قلب) النظام الاجتماعي السائد»، ثم إن أندريه ساخاروف يستنتج: «يمثل قانون المطبوعات خطوة الى الوراء... خطوة الى الوراء حتى بالنسبة الى ما كان سائداً بحكم الوقت زمن الركود»[٢٦]. وقد جاء إقرار هذا القانون كتأكيد على صحة الرأي المتشاءم الذي أبداه ساخاروف.

قد تبدو الغلاسنوست كآلية لا يمكن كبحها. فهكذا في المعرض الخامس للكتاب في موسكو، في أيلول ١٩٨٥، منع الناشرون الانكليز من عرض «١٩٨٤» لجورج أورويل. في شباط ١٩٨٩، بدأت مجلة نوفي مير الموسكوبية بنشر رواية اورويل. وفي ١٩٨٥، شدد باستوكوف رئيس الغوسكوميزدات (اللجنة الحكومية للنشر) على: «أننا ما نزال نعمل ذاتياً على حماية القارىء السوفياتي من المؤلفات التي قد تفرض عليه وتعكس مفاهيم إيديولوجية وأخلاقية أو جمالية غريبة عنه...»[٢٧] وفي ١٩٨٩ أعلن غورباتشيوف عن استيائه حيال «ما يحصل في بعض النقاشات حيث يُعتبر الاطار الاشتراكي ضيق جداً كي يتسع للبريسترويكا. ثم لا تلبث أن تندس تدريجاً فكرة التعددية السياسية وتعدد الأحزاب وحتى الملكية الخاصة»[٢٨].

ربما أتت الصدمة التي أحدثتها الغلاسنوست، التي فهمت بوصفها إذناً بنشر ما كان حتى الآن محظوراً، وبالتعرض لموضوعات كانت من المحرمات، من كونها بدت كهدية غير متوقعة... في ١٩٦٧ أثار ألكسندر سولجينيستين في رسالة الى مؤتمر الكتاب ضرورة الغلاسنوست التي كانت موضع اهتمام المنشقين. والكل يعلم الى ما

آلت إليه الأمور. وفجأة حدث الانفجار: كلمة واحدة من الزعيم وكل شيء قد تبدل. فما كان يبدو بالأمس القريب مستحيلاً كونه يتعارض كلياً مع الايديولوجيا المهيمنة، قد أصبح اليوم ممكناً، ولم يعد يدهش. ولم يُنشر فقط لبلاتونوف وبولغاكوف وباسترناك بل أيضاً لآرتور كوستلر وجورج أورويل، كما أنه جرى أيضاً إصدار جزء من مقالات بوخارين ولم يعد هناك أي شك في أن نصوص تروتسكي ستبلغ المطبعة في نهاية الأمر. ينصحنا مثلٌ روسي بأن لا ننظر الى أسنان الحصان الذي يُهدى إلينا. ولكن رغم ذلك لا بد لنا من تفحص أسنان الغلاسنوست هل أنها تساقطت أم ما تزال موجودة؟ وماذا تفعل الرقابة في حال ثباتها؟ وهل أصبحت الغلاسنوست آلية غير قابلة للضبط، قوة لا يكبحها إلا فقدان الورق؟.

منذ أن تفجّرت الغلاسنوست طرح السؤال الآتي: أين ستتوقف وهل لها حدود؟ في أوائل ١٩٨٩، توصل ألكسندر بوفين الى استنتاج وهو «أن كل شيء نسبي. فقياساً على ١٩٨٥ تبدو الغلاسنوست مدهشة، أما بالنسبة الى ما يتطلبه المجتمع فهي بالكاد نصف ـ غلاسنوست»[٢٩]. وفي مقابلة مع هاندلسبلاد روتردام اعترف الرقيب فلاديمير سولودين بوجود «مناطق ما تزال حساسة». غورباتشيوف هو واحدة منها». بالطبع، قال الرقيب، تناول الزعيم بالنقد يبقى ممكناً ولكن لا بد من رد الفرية. ثم يوضح أن الفرية هي «تحريف متعمد للوقائع. مثلاً إذا ادعى البعض أن غورباتشيوف يحاول أن يضع نبيذاً قديماً بقنانٍ جديدة وأن البرويسترويكا طريقة تسمح بانقاذ الستالينية من خلال تحديثها فإنهم ينذلقون إلى أرض الفرية والنميمة»[٣٠].

تبقى حدود «الغلاسنوست» بديهية بالنسبة للمواطنين السوفيات، أما المراقبون الأجانب فيمكنهم أن يلحظوها هم أيضاً إذا رغبوا في ذلك. ليس للمعجزات الكبرى قعر وهي لا تسبر. وكما كانت الحال قبل الغلاسنوست، فإن جميع قرارات المراجع العليا تتخذ في ظل التكتم الشديد. وتبقى الآلية التي تقود الى مثل هذه القرارات مجهولة تماماً. ولقد كتب المؤرخ الأميركي جوزف فايندر: «نعلم أن المكتب السياسي يجتمع كل خميس ولكننا نجهل في أية ساعة. ويقال لنا أن القرارات تؤخذ بالاجماع غير أننا نجهل ما إذا كان هناك تصويت أصلاً»[٣١].

«ليس سراً على أحد، كتبت الكومسومول سكايا برافدا، أنه توجد عندنا رقابة

مسبقة، تتمثل بالادارة الرئيسية المنوط بها حماية أسرار الدولة في حقل الصحافة. (غلافيت الاتحاد السوفياتي). إلا أن نشاطاتها قد تغيّرت اليوم الى حد بعيد، وذلك بعد أن جرى الغاء معظم القيود التي كانت مفروضة على الصحافة. غير أننا ما نزال نجد بعض الحالات. خاصة في الصحافة المحلية، حيث يمنع نشر وثائق لا تمت لأسرار الدولة بأية صلة»(٣٢).

وها هنا إحدى خاصيات «الغلاسنوست» التي تحتجب مموهةً وراء التفكر والنقاش حول الحدود والمناطق وإمكانية أو عدم إمكانية ولوجها: فنحن إذن أمام آلية يتم ضبطها بأحكام شديد. فالرقابة تستمر في إداء مهامها. يقظةً، تحذف من مذكرات فلاديمير ناباكوف، الشواطىء الأخرى، أي إشارة الى لينين والى «النظام اللينيني البغيض»(٣٣) وقد روى روي ميدفيديف: «ما إن بدأت مقالاتي تنتشر حتى اكتشفت، مذهولاً، أن المحرر ـ وليس الرقيب اي كنا ما نزال في مرحلة المحرر شَطَب الملاحظات النقدية حتى الأكثر تواضعاً منها حول لينين... وهو يردد «لن نمس فلاديمير ايليتش»(٣٤) وكما كان في السابق فإن دلالة الكلمة تحدد من قبل السلطة. وما يضير إذا كان التعريف القديم قد بطل أو إذا لم يعد قادراً على متابعة تعرّجات الخط السياسي. في «قاموس الكلمات الأجنبية»، الذي صدر في موسكو عام ١٩٨٨ اعتبرت «التعددية»: «من الأفكار الأساسية التي تعتمدها النظريات البرجوازية والاصلاحية الحديثة... التي تتعارض مع تعاليم الماركسية ـ اللينينية...(٣٥). ولكن بعيد بضعة أشهر بدأت الكلمة نفسها مقرونة بالصفة «الاشتراكية» تستخدم بالمعنى الايجابي. ومن الممكن أن يُخصص لها في الطبعة القادمة تعريف جديد. إن القبضة على «الكلمة» ما تزال قائمة. وحده أسلوب الضبط قد تغيّر. وقد تبيّن تدريجياً أن استبدال الكلام بجناسه يبدو رهيباً (وفعالاً) أكثر من أي منع.

يعرض غورباتشيوف نظرته «الجديدة» في مقابلة أجرتها معه «الاومانيته» في ١٩٨٦: باستثناء الأسرار العسكرية وأسرار الدولة، وأشكال الدعاية التي يطالها مباشرة قانون العقوبات (الخلاعة والمساس بالمشاعر الوطنية...) فإن مهام الضبط واختيار مواد النشر باتت ترتبط الآن بمحرري وسائل الاعلام ودور النشر. والمزدوجان اللذان يرافقان الصفة «الجديدة» يبدوان ضروريين، ذلك أن مفهوم «الرقابة الذاتية» كان متضمناً في الأحكام الأولى التي نظّمت جهاز الرقابة السوفياتية، وهو جهاز أعطي

صيغته الشرعية في ١٩٢٢ : «حينها استثنيت من أي رقابة، إلا الرقابة العسكرية، جميع منشورات الكومينترن، جميع الصحف والمجلات الصادرة عن الحزب، أخبار VTSIK(٣٦)، ونتاج أكاديمية العلوم، الخ. . .»(٣٧)

فاذا كان لينين اعتبر عام ١٩٢٢ أن حزبه قد بلغ من القوة ما يسمح له بعدم إخضاع مطبوعاته الخاصة للرقابة، فهل يدهشنا أن يسمح غورباتشيوف لنفسه بعد سبعين عاماً بمنح القليل من الثقة لمحرري الحزب؟ فهو يعلم أنه من الممكن الركون إليهم. ففي كتاب موجه الى غورباتشيوف بصفته أميناً عاماً للجنة المركزية ورئيساً لمجلس رئاسة السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي طالب أبرز ممثلي الانتليجنسيا الليبرالية والأكثر تعلقاً بالبريسترويكا التشدد في تطبيق النظام. وقد وقع على الكتاب: ـ رئيس تحرير مجلة زناميا غريغوري باكلانوف، كاتب المسرح ألكسندر غويلمان، الكاتب دانييل غرانين. رئيس اتحاد السينمائيين ايلم كليموف، الأكاديمي روالد ساغدييف، رئيس اتحاد الفنانين ميخائيل أوليانوف. مشيرين الى أعداء البريسترويكا ذكّر موقعو الكتاب، المرسل إليه أنه بالأمس «كان لا بد من الاجابة بدقة ودون أي تأخر عن أي تهمة بالانحراف عن التدابير المرعية الاجراء» وهم يتقبلون تماماً «أنه من غير المطروح الرجوع الى هذه العادات الماضية» ولكنهم يصرّون رغم ذلك على «أن الانضباط الايديولوجي والسياسي أمر ضروري جداً خاصة اليوم، في خلال هذه المرحلة الانتقالية»(٣٨).

في جميع المراحل ـ في ظل ستالين وخلال «إزالة الجليد» إبان حكم خروتشيوف وكما هو حاصل في إطار البريسترويكا ـ تبدو الغلاسنوست من العطايا التي تمنح من المراجع العليا، وهي منظمة ومحكمة الضبط بشكل صارم. نجد في «غرفة انتظار الجنة» لألكسندر زينوفياف الذي صدر عام ١٩٧٩ «لجنة للغلاسنوست» مكلفة بتطبيقها وفقاً للتعليمات الصادرة بحسب أحكام الوقت عن الهيئة الايديولوجية التابعة للجنة المركزية. أما أشكال الضبط التقليدية فهي الآتية: جلسات مكتملة للجنة المركزية حول المسائل الايديولوجية حيث يحدد «الخط العام» لفترة محددة من الوقت؛ مقررات اللجنة المركزية بشأن الأدب والسينما والنقد. . .، جلسات اللجنة المركزية حيث يعطي المسؤول عن الايديولوجيا (أمين سر اللجنة المركزية للايديولوجيا، رئيس لجنة الايديولوجيا) (منذ ١٩٨٨) التعليمات، مشيراً الى النجاحات والى الثغرات في العمل،

ومعيناً موضوعات وتوجهات النشاط الايديولوجي. وتلعب «تقنية الصحافة السوفياتية» في آلية الضبط في إطار الغلاسنوست دوراً مهماً لم يعطَ حتى الآن وزنه، تشير مثلاً الاختصاصية في «وسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية» في الاتحاد السوفياتي، نورا بوهكس الى وجود جيش جبار من الصحافيين السوفيات: حوالي مئة ألف، كما أنها تلحظ تجدداً في مجال التقنية والوسائل الآيلة الى ضبط المعلومات والتلاعب بالعقول بطرق أفضل من السابق. فلقد طرأ تحسن، بصورة خاصة، على نقل الرسالة الايديولوجية. إذ غالباً ما يصار الى «إخراج» هذه الرسالة. من هنا مثلاً وفرة الحوارات: تقارير، ودراسات ومقالات تصاغ بأسلوب حواري. وهكذا يشعر المستمع والمشاهد أنهما يشاركان في مناقشة هما فعلياً مبعدين عنها. وتلحظ نورا بوهكس أنه يجري في مجمل وسائل الاعلام السوفياتي توزيع الأدوار بشكل دقيق جداً. وهكذا تتحول غزارة المعلومات الهائلة الى عنصر مهم يساهم بضبطها[٣٩].

ويمتلك غورباتشيوف سلاحاً آخر يكمل به ترسانته: اللقاءات الشخصية مع هؤلاء الذين يضعون الرأي العام أو باللغة الرسمية «المسؤولين عن وسائل الاعلام والمؤسسات الايديولوجية والاتحادات الابداعية». وستالين كان يحب هو أيضاً الالتقاء مباشرة بالكتاب والسينمائيين وغالباً في حلقات ضيقة. أما خروتشيوف فاكتفى بلقاءات ثلاثة مع بعض الكتاب والرسامين والفنانين وترك لديهم ذكرى سيئة جداً بقدر ما كان فظاً وتصرف وكأنه «نبيل روسي» وسط خدّامه، وقد عهد بريجنيف بهذه اللقاءات التثقيفية الى سوسلوف. أما غورباتشيوف من جهته فقد حول هذه الحوارات مع ممثلي وسائل الاعلام الى نوع من المدرسة يعبر في إطارها عن سلطته الشخصية. ويبادر الأمين العام بنفسه الى اطلاع محرري الصحف ورؤساء اتحادات الكتاب والصحافيين والسينمائيين... بأي حدث مهم. وهو المصدر الذي تنبعث منه التعليمات والشحنات الدافعة.

في أيلول ١٩٨٨، ذكّر غورباتشيوف بأنّ على وسائل الاعلام أن تتخذ مواقف واضحة وبأن «التحليلات والأحكام، سواء في الصحافة أو في المجتمع إجمالاً، تبدو أحياناً ملتبسة. فبعض المداخلات أو المنشورات توحي بأن البريسترويكا ربما زادت في تفاقم الحالة الاقتصادية وأدت الى اختلال التوازن المالي وعقدت مشاكل التموين ومسألة السكن والمشاكل الاجتماعية الأخرى». ثم إن غورباتشيوف تابع آمراً: من الأفضل

«عدم تحميل البريسترويكا ما يرتبط فعلياً بالمرحلة السابقة». ودعا الى «الاقلاع تلقائياً» عن تجميع الوقائع «المخيفة» وتوجيه الانتباه الى الجوانب الايجابية»(٤٠). في ١٩٢٨، طلبت اللجنة المركزية، بعد أن أجرت جردة أولى بشأن سياسة النقد الذاتي أن يصار الى «تسليط الضوء على الجوانب الايجابية من ورشة البناء... والى اختيار الموضوعات بتأنٍ، وإعطاء أمثلة عن الأشياء التي تكون جيدة في الأصل»(٤١) في ٨ كانون الأول ١٩٨٩ وأثناء لقاء مع المسؤولين عن وسائل الاعلام بدا غورباتشيوف ناشفاً ومباشراً «ما من أحد في بلادنا يستطيع الخروج عن آلية الضبط... وهذا ما ينطبق أيضاً على وسائل الاعلام. إن الصحافة السوفياتية ليست دكاناً خاصاً»(٤٢) ورغم الدعوات الى توسيع نطاق الحركة التعاونية تبقى لعبارة «دكان خاص» في اللغة السوفياتية دلالة بالغة الاهانة.

وقد أثبت ميخائيل غورباتشيوف فعالية هذا النظام التحكمي الذي يسمّى غلاسنوست، بعد انتخاب نواب الشعب. وكان تصرفه ملفتاً لا بل مثيراً. الثلاثاء ٢٨ آذار ١٩٨٩، وما إن ظهرت النتائج الأولى حاملة بعض المفاجآت، وبدل أن يجمع الأمين العام اللجنة المركزية أو المكتب السياسي أو أن يتوجه الى الشعب، قام بدعوة المسؤولين عن وسائل الاعلام الى اللجنة المركزية وأعطاهم تعليماته بالنسبة للوجهة التي يجب أن تعتمد لالقاء الضوء على الانتخابات. ولا بد هنا من الاشارة الى أن المعلومة الأولى تكمن في أن مضمون مداخلة غورباتشيوف هذه، أعطاها للمراسلين الأجانب، رئيس تحرير «أوغونيوك»، كوروتيتش الذي حضر الاجتماع. وقد نشرت الصحافة السوفياتية خطاب غورباتشيوف في ٣١ آذار وهو يحدد فيه الخط الرسمي.

وإثر «الأحد الدامي» في تبيليسي (٩ نيسان) جمع غورباتشيوف من جديد (١٨ نيسان) المبدعين وأعطاهم بعض التعليمات الجديدة. وخلال الأشهر الأربعة الأولى من عام ١٩٨٩، وانطلاقاً من رؤيته لخطورة الوضع أعطى السكرتير العام توجيهاته لممثلي وسائل الاعلام لمرات ثلاث: في كانون الأول، وآذار، ونيسان.

في تشرين الأول ١٩٨٩، وأثناء اجتماعه مجدداً برجال الاعلام، وجه الأمين العام انتقادات عنيفة ضد الصحافة لنشرها مقالات «استفزازية» لا تؤدي إلا الى تفاقم الوضع السياسي. وقد لحظ بخاصة أن المجلة ارغومانتي إي فاكتي نشرت في عددها الأربعين

وثائق مغلوطة. وعندما علم بوجود رئيس تحرير المجلة في القاعة فلاديسلاف ستاركوف وجه له شخصياً كل ما لديه من مآخذ. وعندما اقترب ستاركوف، بعد الاجتماع، من الأمين العام وسأله: «ميخائيل سيرغييفيتش لماذا اتخذت قراراً بمعاقبتي؟ لماذا تريد أن «تصفّيني». لم يستطع أن يميّز الجواب بوضوح، وبعد بضعة أيام استدعي رئيس تحرير ارغومانتي من قبل المؤدلج الكبير فاديم ميدفيديف الذي صارحه بأن المجلة تتبع «خطاً مغلوطاً». ثم طلب من ستاركوف أن يستقيل من منصبه، فرفض[٤٣].

لم يخفِ غورباتشيوف السبب الرئيسي لامتعاضه. لقد نشرت ارغومانتي إي فاكتي في عددها الأربعين نتائج استقصاء للرأي يتناول رأي القراء بنواب الشعب. وقد أجاب ما يقارب ١٦٥,٠٠٠ قارىء وتمت معالجة ١٥,٠٠٠ جواب حول عمل ٦٠٠ نائب. ونشرت المجلة ترتيباً لخمسين من بينهم، وقد جاء في المرتبة الأولى ساخاروف يتبعه بوبوف. يلتسين وافاناسييف. أما غورباتشيوف فلم يرد على اللائحة. غير أنه لم يمكنه أن يتجاهل مرتبته التاسعة والتسعين بعد الخمسماية (٥٩٩) في الترتيب الكامل أي المرتبة الأخيرة بالضبط قبل نائبه في السوفيات الأعلى لوكيانوف. إذن ،فنشر هذا الاستقصاء هو بمثابة القدح بالذات الملكية.

يعمل نظام الغلاسنوست كافة مستويات آلة الحزب. «كل اثنين صباحاً، كما يروي رئيس تحرير الصحيفة الجيورجية «كومونيست» يجمع الأمين الأول للجنة المركزية في جيورجيا الأمناء المسؤولين عن الأقسام ومحرري صحف الحزب. هنا نحصل على معلومات جديدة». يضيف أحد مراسلي البرافدا: استناداً الى رسائل بعض الصحافيين «نعلم أنهم يستفيدون من لقاءات دورية مباشرة مع الأمناء الأول للجان منطقتي ريازان وكيميروفو»[٤٤]. ويتلقى محررو صحف المقاطعات «معلوماتهم» من أمناء لجان المقاطعات في الحزب. وهذا ما كان سارياً على الدوام، مع فارقِ اليوم وهو أن نظام الغلاسنوست وسّع دائرة الحقوق وزاد في مسؤوليات المحررين. لقد أصبحت تقنيات التحكم بوسائل الاعلام الجماهيري والدعاية أكثر مرونة واتقاناً، وذلك انطلاقاً من تجربة بدايات العشرينات.

وتتمثل الوسيلة الافضل للضبط والتحكم باحتكار الدولة للورق. في ١٩٨٨ احتل الاتحاد السوفياتي المرتبة الثامنة والستين في العالم بالنسبة للمعدل الفردي من

استهلاك الورق، وهذا يعني أن الانحدار يتساقط ذلك أنه احتل قبل عشر سنوات المرتبة الرابعة والعشرين(٤٥). وهذا يعني، تبعاً لذلك، أن هناك نقص في الورق شديد ومزمن جداً، ولن نطيل الكلام هنا حول أسباب هذا النقص، بل نكتفي بالاشارة الى طباعة ملايين النسخ من الأدبيات السياسية، والأوامر والتعليمات ـ ونحن نتساءل مع الصحافي السوفياتي: «ما معنى حرية الكلمة حين يحتكر ورق الجرائد والمجلات؟ ما هو الفارق بين أن يطلب المرء أذناً بنشر ما يريد(وما لا يكون ممنوعاً من جانب القانون) وأن يطلب تسليمه ورقاً لذلك؟ ما هو الفرق بين الرقابة واحتكار الورق؟(٤٦)».

تعتبر الغلاسنوست ـ هدية غورباتشيوف الى الشعب السوفياتي والى العالم ـ النجاح الأكبر للبريسترويكا. فإمكانية العودة ـ بعد ثلاثين عاماً ـ لاستنكار جرائم ستالين (وما اعتبر من جرائم بريجنيف وأخطاءه كمتفرع عنها)، وإمكانية اختراق بعض «أسرار» الماضي وأخيراً إمكانية أن تقوم الصحافة الرسمية بالاقرار بأزمة الاقتصاد السوفياتي لا تعتبر أشياء غير ذات شأن، لا وزن لها. وقد كتب تسيبكو وهو فيلسوف منذ سنوات عدة وموظف في جهاز اللجنة المركزية، أن مجرد الامكانية بأن نعتبر في روسيا رئيس الدولة انساناً مثل بقية الناس، مجرد الامكانية بأن نسمي الجريمة جريمة والعبث عبثاً كان دائماً تقدماً عظيماً»(٤٧). ومن الصعب فعلاً أن لا نوافقه الرأي، إلا أننا نشير رغم ذلك الى أن صحافة عصر الغلاسنوست بعيدة جداً عما تمتعت به الصحافة الروسية خلال السنوات ١٩٠٥، ١٩١٧. إن تسيبيكو على حق حين يقول إن تسمية العبث باسمه يُعتبر تقدماً، لا بل وضمن الأوضاع السائدة في النظام السوفياتي يبدو ذلك نصراً عظيماً. ومن هذه الزاوية يبقى مهماً على الأخص الحصول على إذن بإثارة الصعوبات المادية والثغرات الاقتصادية في الدولة السوفياتية، والانحراف في السبل المختارة للوصول الى الهدف الكبير.

وخلال سبعين عاماً عاش الانسان السوفياتي حياة ذات بعدين: بعدٌ واقعي عياني ـ في البيت الذي يسكنه، في مقر عمله، في بؤسه، وآخر غير واقعي ـ على الطريق التي تقود الى المستقبل الزاهر الى الجنة على الأرض. وكان يجري تعويض فقدان الحد الأدنى للحياة والصعوبات اليومية التي لا تطاق بتلك المسيرة الخيالية نحو الأيام الزاهية. وقد سمحت حالات المترو الرخامية الفخمة بنسيان البيوت البائسة، أي أن عظمة دول الاتحاد السوفياتي العظيمة كانت تخفف من آلام المواطن المجرد من أية حقوق. أما

الغلاسنوست فقد مدت «عبّارة» فعلية بين اللا واقع والواقع، بين الموهوم والعياني. كان المواطنون السوفيات يعلمون أن عيشتهم سيئة. غير أن وسائل الاعلام الجماهيري والدعاية كانت تقنعهم أنهم يعيشون أفضل من أي بلد آخر. كان الواقع يترنح تحت ضربات اللا واقع المستمرة. أما من خلال الغلاسنوست فإن المواطن السوفياتي علم ـ من المصادر الرسمية ـ أنه يعيش حياة رديئة. وهكذا أصبح وضعه أشد إيلاماً من ذي قبل.

وما إن رفع الحجاب عن الكذبة التي كانت تحيط بالشعب السوفياتي منذ الثورة حتى انكشف واقع رهيب أرعب حتى هؤلاء الذين كانوا دائماً على معرفة به، علماً بأن رفع الحجاب لم يفتح سوى ثغرة صغيرة في الواقع، وهاكم مثلاً الفيلسوف ايغور كليامكين: «منذ ثلاث سنوات أصبحت كلمة «حقيقة» أهم مفرد في لغتنا. ومن السهل أن نعرف لماذا رُفعت هكذا الى المقام الأول. لماذا اتضح أنها رمز التغيير وشعاره: لسبب وحيد وبسيط وهو أننا كنا في السابق نكذب (ويكذب علينا) تقريباً بشأن جميع الأمور». إلا أن كليامكين لا يدهش من كون كلمة «حقيقة» ما تزال تحتل صفحات الجرائد، والاذاعات وأنها ما تزال الشعار الأهم: «إذا كنت شبعاناً لا أذهب للمطالبة بالخبز. إذا كنت متأكداً من أن أحداً لن يخدعني أفكر بدعوة محيطي الى الصدق»(٤٨). ويؤكد الفيلسوف تسيبكو ملاحظة كليامكين: مكان الكذبة القديمة التي افتضحت ظاهراً حلت كذبة جديدة. وهو يضيف: «فالتخلي عن بعض الأساطير السياسية السهلة الكشف. يقود الى صياغة أساطير أخرى وأعلاء شأنها وهي غالباًما تكون أقرب الى التصديق وبالتالي أخطر»(٤٩).

ان عجز الغلاسنوست عن دك «حصون الكذب» «التي تزدهر مجدداً على أرض خيّل للبعض أنها سقطت نهائياً»(٥٠). يأتي من كونها لم توجّه لمحاربة الكذب، ذلك أنها تهدف بوصفها آداة للصراع على السلطة، الى استبدال طرق ضبط الواقع والمخيال التي أصبحت بالية، غير صالحة للاشتغال بطرق جديدة تماشى مع متطلبات القرن الواحد والعشرين ومعدّة للاستمرار طويلاً إن لم يكن الى الأبد. لقد عنون ايغور كليامكين مقالته بالآتي: «لماذا يبقى قول الحقيقة صعباً» والجملة ليست بصيغة السؤال. ذلك أن الكاتب يعرف الجواب جيداً: من الصعب ان تقال الحقيقة في الاتحاد السوفياتي لأن مصدر الكذب القوي، بقي دون أن يمسه أحد: أنه يكمن في سلطة

الحزب المطلقة. ومما لا يقبل أي جدل أن مثل هذا التفكير الذي يعبّر عن نفسه في نص من الساميزدات كان بالأمس القريب ليكلف بضع سنين في السجن أو في مصح عقلي. أما اليوم فإنها تنشر في مجلة تطبع ١,٥٦٨,٠٠٠ عدد. وحتى لو قبلنا، انطلاقاً من وصفة تشرشيل ـ الذي كان يعتبر أن الحقيقة إبان الحرب ثمينة الى حد أنه لا بد دائماً من أن تؤمن لها موافقة تحميها من الكذب ـ التي تقول إن المؤلف لا يفصح أبداً عن أعماق فكرته، فإن التغيير هنا يظل في غاية الوضوح. إنه بديهي. وبديهي أيضاً ما يقدم عليه مؤدلجو البريسترويكا من مخاطرة. إنهم واثقون من قدرتهم على ضبط الغلاسنوست. غير أنه من الممكن أن يكونوا مخدوعين.

لقد قبل غورباتشيوف بخطر الغلاسنوست لأن خطر حرية التعبير كان أدهى بما لا يقاس. فالغلاسنوست هي أهون الشرور، في ظل وضعية ثورية بالنسبة لقائد يعي أنه من المستحيل أن يأوي الى «حصون الكذب». لقد قام إذن بفتح ثغرة، متوقعاً إحباط الخصم عندما سيحاول أجتياح القلعة. وقد سمحت هذه السياسة للأمين العام بتوجيه ضربات قاسية جداً الى الجهاز الذي بناه سلفه طوال عشرين عاماً. وكآداة للتطهير ـ تطهير لطيف، حريري ـ تحولت الغلاسنوست الى جسر بين القائد والشعب الذي يطلب الشكر على كل الخيرات التي تمطر عليه. وأخيراً فقد تكون الغلاسنوست أعطت للعالم صورة جديدة عن اتحاد سوفياتي «جديد»، «ديمقراطي»، أو على أقل تعديل، متقدماً بخطى ثابتة بقيادة زعيمه الملهم نحو الديمقراطية وباتجاه عائلة الشعوب المتحضرة، باتجاه «البيت الأوروبي».

ومن الخطأ التقليل من خطورة مغامرة الغلاسنوست التي يخوضها غورباتشيوف وحزبه. غير أن جرأة غورباتشيوف تبقى على صورة أسلافه. فجرأة لينين كانت أعظم عندما قرر توجيه «مقود الدولة» نحو «الاقتصاد السياسي الجديد»، هذا كي لا نذكر ستالين الذي قرر في ١٩٣٤ تصفية الحزب القديم لينشىء واحداً جديداً. وكذلك فيما يتعلق بخروتشيوف، فان طاقة اليأس قادته الى أن يرفع يده في وجه الصنم الذي كان يثير الرعب حتى بعد ان رقد في قبره الضخم. وأخيراً لنذكّر بحنكة ماو الخارقة الذي دفع بالشباب ضد جهاز الحزب وأغرق البلاد والعباد طوال عشر سنوات في «الثورة الثقافية». فثورة ماو هي مثل ساطع عن الوحدة الديموقراطية بين الزعيم والشعب. وإننا ما نزال نجهل عدد ضحاياه (عشرات الملايين). إن ما يقدم عليه قادة الأحزاب

الشيوعية من أعمال جريئة جسورة تمليه دائماً ضرورات الصراع على السلطة والرغبة بالاحتفاظ بها مهما كان الثمن. تبقى حسنات الغلاسنوست بديهية فيما الوجه الآخر للعملة أقل بداهة.

وقد نشر الكاتب البولوني ويتولد غومبروويكز عام ١٩٥٦ في صحيفته: «إزالة الجليد! . . . لنعترف أنه يؤمّن لروسيا وبولونيا ـ بديلاً عن الحرية والحقيقة. ولكن ماذا؟ لو كنت معتقلاً في هذا السجن فإني سأتمسك به بيديّ ورجليّ. فاذا كان حتى الآن الخروج من الزنزانة ممنوعاً أفلن تحمل النزهة في الباحة، وتحت نظر الحارس الذي لا يغمض له جفن، سروراً عظيماً؟ من يشك بأن الاقلال من الكذب في الحياة العملية هو أفضل من الاكثار منه؟ إلا أن التحرير المشروط الذي يستلزم الحضور الدوري الى أقرب مكتب للمراقبة لن يمحي السخط الواضح المنقذ الذي يفصل حتى الآن بين «الحرية المستعبَدة» والكذب الحر. إننا ندخل في منطقة نصف ـ الحقيقة، نصف ـ الحياة منطقة الابداع الناقص حيث يُكتفى بالظاهر فإلى أين المصير؟ . . .»(٥١).

تُدرَك الغلاسنوست بوصفها نصف ـ حقيقة، نافذة نصف ـ مفتوحة ـ بإرادة من السلطة ـ على الواقع الحقيقي. وقد بدأ الأنصار الأشد حماساً «للبريسترويكا» أنفسهم الحديث، وبعد خمس سنوات من الغلاسنوست عن ضرورة حرية التعبير بحذر، ولكنهم يقولون: «في المرحلة الأولى من عملية نشر الديموقراطية تمثلت «المشكلة ـ المفتاح» بالنسبة لنا بالغلاسنوست. . .» ثم أن الخبير الأديب لألشين يتابع: «فبقدر ما تتقدم الاوالية الديموقراطية، تبرز على جدول الأعمال الحرية الاشتراكية في ميدان الصحافة، الغاء الرقابة المسبقة وإحلال رقابة بَعدية مكانها، رقابة هي في الواقع مراقبة تقوم على الضبط وعلى المعاقبة إذا لزم الأمر»(٥٢) أما الصحافي المستقل ليف تيموفييف فقد كان صريحاً حين قال: «لسنا بحاجة الى «سياسة الغلاسنوست» بل الى حرية التعبير. ان وجود الغلاسنوست يظل أفضل من عدم وجودها إطلاقاً. غير أن حرية التعبير أثمن بكثير! . . . إذ وحدها الحرية لا تنقلب الى عكس اتجاهها»(٥٣).

إن الخوف من انقلاب اتجاه عملية تطبيق الديموقراطية، الخوف من فقدان ما قد تم اعطاؤه والذكرى التي تستعيد سهولة حلول الصقيع مكان «ذوبان الجليد» يطبعان مجمل مرحلة البريسترويكا. ولهذا التخوّف أساسه الراسخ. إذ المفارقة الكبرى التي تميّز

الغلاسنوست تكمن في أن قانون المطبوعات، أي حدود الغلاسنوست يجري إعداده خارج أي غلاسنوست، في مكاتب هيئات اللجنة المركزية. في مقابلة مع غورباتشيوف في سيبيريا، أثار مراسل تلفزيون موسكو قانون المطبوعات وسأل وكأنما يتوسل: «نود أن لا تكون باتجاه واحد، أن لا تستخدم للضغط على الصحافيين، ولكن ها أنه قد تم اقتراح عقوبات وغرامات. . » وما كان من السكرتير العام إلا أن إجابه «جيد، هذا ما هو مطلوب»، مرفقاً كلامه بضحكة مرحة، جواب كان نوعاً من المزاح الصادر عن شخص بارز ما لبث أن استدرك «سنحل هذه المشكلة ديموقراطياً»[٥٤].

يُفسر الحذر تجاه «الغلاسنوست»، أيضاً، من «ترقب خطر غير متوقع»: أن تصبح «الغلاسنوست بوصفها عنصراً يحيي الركود. أي بمعنى آخر يضاف الى نسق الركود، فيحدّثه، ويجعله أشد مرونة، وتبعاً لذلك أرسخ وأخطر»[٥٥]. وقد أثبتت التشريعات التي بدأت عام ١٩٨٨ «تُطَعِّم» الغورباتشيوفي «بالغلاسنوست»، حقيقة ما كان يخشى منه المؤرخ باتكين. تَضمُّر منطقة الغلاسنوست، ببطء ولكن بصورة لا مفر منها، أنها تتقلص، تنحصر. فبعد قانون ١٩٨٨ حول الاجتماعات والمظاهرات، الذي يعطي صلاحيات واسعة للوحدات الخاصة التابعة لوزارة الداخلية، جاء مرسوم ٨ نيسان ١٩٨٩ . وقد استبق هذا المرسوم عندما عَدّل قانون « المسؤولية الجزائية المتعلقة بجرائم الدولة»، قانون المطبوعات الذي كان طور الاعداد، وذلك بتعيينه من الآن فصاعداً حدوداً له. ويلغي المرسوم مفاعيل المادة ١ ـ ١٩٠ من قانون العقوبات الذي كان موضع نقد شديد كونه يتعارض مع حقوق الإنسان، وقد كانت تعاقب «الادعاءات التي تجاهر بالكذب» والافتراءات المعادية للاتحاد السوفياتي، وتمكّن بذلك السلطات، التي كانت تستفيد منها الى أقصى الحدود، من ملاحقة كل الذين «لا يفكرون كما يجب». وقد وفرت أيضاً سلاحاً ماضياً في صراع ضد «المنشقين». أما الآن فقد استبدلت المادة ١ ـ ١٩٠ بالمادة ١ ـ ١١ وتلحظ هذه الأخيرة عقوبة السجن لمدة أقصاها ثلاث سنوات أو غرامة تصل الى ألفي روبل «لكل شخص يسيء الى الأجهزة الحكومية أو المنظمات الاجتماعية أو يقلل من اعتبارها»[٥٦].

أما صياغة المادة فقد أذهلت عدداً من رجال القانون السوفيات. ذلك أنها جاءت أقسى من سابقتها، فإذا كان من الممكن، يقول الحقوقيون، في ظل دولة القانون، إثبات في أي دعوى أمام المحكمة أن كتابات أو تصريحات المتهم لا تحتوي على أي

«ادعاءات تجاهر بالكذب» فإن مفهوم «الاقلال من الاعتبار» الذي لا وجود له في القانون السوفياتي يبقى من جهته خاضعاً لمزاج القاضي. وإقلال الاعتبار يطال هنا «أجهزة الدولة والمنظمات الاجتماعية» ـ وهو تعريف فضفاض يمكن أن يتسع لأي شيء. كما كانت الحال قبلاً فيما يتعلق بالفقرة ١٠ من المادة ٥٨، التي تعاقب التحريض والدعاية المعاديين للاتحاد السوفياتي». ومن الأمثال البالغة الدلالة على تطبيق الفقرة ١٠ كان ذاك الراعي الذي حكم لعشر سنوات سجن مع الاشغال الشاقة كونه وصف بالعاهرة بقرة في الكولخوز. وتسمح المادة ١ ـ ١١ هي أيضاً بمعاقبة الراعي الغاضب وإن، في الحقيقة لفترة أقصر، أما البرفسور نعوموف فقد أشار في مجال تعليقه على المرسوم إلى أنه «بالنسبة للقانوني المحترف لا يطرح هذا الأمر اشكالاً كبيراً». وبالنسبة للقانوني غير المحترف أو الذي يتأثر بالظرف؟ يتوجه الصحافيون بالسؤال إلى القانوني. أما هو فيجيب: «يجب طرح السؤال بهذه الصيغة: هل نظل ضمن إطار الاشتراكية أو أن هناك عملاً معادياً لها؟»(٥٧) غير أن الأمور ليست بهذه البساطة. في ١٩ كانون الأول ١٩٨٨، وأثناء «اجتماع تعليمات» في حاكمية لينينغراد سأل الصحافيون حاكم المدينة ديمتري فريوفكين: ماذا تعني لك الاشتراكية؟ إنه اليوم مفهوم غائم... بالأمس القريب كانت الاشتراكية تعني التخطيط الموجه، الأسعار المتدنية عن قيمتها، القِلة، واحتكار الوزارات، والحال أن كل ذلك يعتبر اليوم من شوائب الستالينية». أما الحاكم فاكتفى بالايضاح أن الاشتراكية تعني بالنسبة له «وجود ثروات البلد بين أيدينا... بين أيدي الشعب» وقد استحق هذا الرد: «منذ خمسين سنة يسمّى ذلك بين أيدي الشعب، فيما أن كل شيء كان يُدار من قبل طبقة تستغل على المكشوف «الشعب»(٥٨) بعد صدور المرسوم يمكن تماماً تصنيف هذه المحادثة من النوع الذي «يقلل من اعتبار» السلطة السوفياتية والاشتراكية وحاكم لينينغراد...

ورجال القانون المصنفون الذين إلتقتهم البرافدا لم يخفوا مهمة هذا المرسوم الجديد: «يُظهر إقرار قوانين عقوبات جديدة أن الدولة السوفياتية مصممة على الدفاع عن الديموقراطية، وكذلك عن الغلاسنوست من المظاهرات المتطرفة، وعلى حماية البريسترويكا من الأعمال التخريبية التي قد تقدم عليها عناصر متطرفة...» إنهم يستحضرون هكذا الأسباب التي قادت الى إصدار المرسوم في نيسان ١٩٨٩ تحديداً: «لقد كشفت الأحداث التي وقعت مؤخراً في مناطق متعددة من البلاد عن أن بعض

الأفراد أو حتى المجموعات، أرادوا استخدام عملية التحول الى الديموقراطية وتوسيع نطاق الغلاسنوست لنشر الاباحية الكاملة، واللاشرعية، وتجاهل المبادىء الدستورية المتعلقة بواجبات المواطن أمام المجتمع والقانون». ثم إنَّ البرافدا تدقق: «إن التصريحات الوطنية تأخذ أكثر فأكثر طابعاً معادياً للاشتراكية وللمعايير السوفياتية»(٥٩).

ويتبيَّن من المرسوم الجديد، وبطريقة مقنَّعة، الفرق بين الغلاسنوست وحرية التعبير. إذاً تبقى الغلاسنوست، بوصفها آداةً للصراع السياسي، تعطى للشعب في لحظة معيّنة وظروف محددة، عرضة للالغاء بصورة كاملة، للاختزال الى أدنى درجاتها أو للتحول الى نقيضها. لقد حملت مقالة الايزفستيا حول إمكانيات وحدود الغلاسنوست العنوان الآتي: «الفائدة من قول الحقيقة»(٦٠). والفائدة من «الحقيقة المفيدة» قد تضمحل عندما تستهلك جميع إمكانياتها. إن حرية التعبير هي الحق في قول الحقيقة؛ أما الغلاسنوست فليست إلا الاذن بقول «الحقيقة المفيدة».

يُشكل ظهور الصحافة «البديلة»، كما يطلق عليها، والتي لا تخضع للرقابة. ظاهرة جديدة لا بد لمؤدلجي الغلاسنوست من أن يحسبوا لها حساباً. وحتى ١٩٨٧ لم يكن عدد الدوريات غير الرسمية يتجاوز العشر أوالعشرين. أما في بدايات ١٩٩٠ فقد أحصى الصحافي المستقل ألكسندر سويتنوف ٧٨٠، فقط بالنسبة للصادرة منها باللغات السلافية. فليتوانيا، مثلاً، تعد لوحدها ما يقارب ٢٠٠ دورية مستقلة، فقط بالنسبة للمنشورات الصادرة باللغة الليتوانية. وقد قدر الصحافي أن الساميزدات تطبع شهرياً ما بين مئة الى مئة وعشرين ألف نسخة (١٠٠,٠٠٠ ـ ١٢٠,٠٠٠) دون أن نحسب جمهوريات البالطيك وهو ما يعادل الى حد ما ٤٠٠,٠٠٠ قارىء»(٦١).

يعطي فاسيلي سيليونين تعريفاً دقيقاً ومقتضباً للآداة الكبرى الخاصة بالسياسة الغورباتشيوفية: «الغلاسنوست موجودة فعلاً، ولكن ليس ها هنا أي صدى». فكل ما يقال هو صوت الشعب الذي يصرخ في صحراء الاشتراكية الموجودة فعلاً في الواقع، صوت يبقى غير مسموع من مهندسي البريسترويكا.

الفصل العاشر
قفزة فوق الهاوية:
«الزهد معيار حياتنا»

«لانجتاز الهاوية مرتين»

حكمة أزمنة «البريسترويكا».

في البدء كانت الكلمة. وكانت الكلمة موضع اجماع الناس. ثم، وكما يشير الكاتب الهجائي ستانيسلدو جيرزي ليك برز الشعار، وفي بداية البدايات لم يكن هناك شعار واحد بل ثلاثة: غلاسنوست، بريسترويكا، التسريع (بالروسية: أوسكوريني).

والواقع ان أختيار الكلمات ـ المفتاح الخاصة بالعصر الجديد يبدو بالغ الذكاء. فكل منها غائم ومتضاعف بصورة تمكنه من اطلاق كمية من التداعيات الضرورية بقدر ما هي ايجابية. واذا كانت كلمة غلاسنوست قد استعيرت من معجم الاصلاحات الكبرى في القرن التاسع عشر، فان كلمة «بريسترويكا» تعود الى اوائل الثلاثينات من القرن العشرين أي مرحلة الخطط الخمسية الاولى. وكما تشير القواميس ان بريسترويكا (اعادة البناء) يمكن ان تعني في آن معاً اعادة البناء انطلاقاً من الصفر او القيام بالترميم، اي ببعض التعديلات على النظام القديم. ويعطي قاموس ١٩٥٣ كمثل على ذلك العبارة: «من الضروري اعادة بناء الذات (بريسترويتسيا) لنقوم بصورة افضل بمهام البناء»[1] اما قاموس ١٩٨٣ فيفضل «اعادة بناء الانتاج واعادة بناء اقتصاد البلاد»[2]. وقد حمل القرار الشهير الذي اتخذته اللجنة المركزية في ٢٣ ايار ١٩٣٢

بتأميم الادب وانشاء اتحاد الكتاب السوفيات العنوان الآتي: «في اعادة بناء (بريسترويكا) التنظيمات الادبية والفنية». اما كلمة تسريع فتبدو هي الاخرى شائعة اليفة. وهي تذكر واقعاً، وعلى الارجح، بالشعار الستاليني لمرحلة التصنيع: «معدلات الانتاج تقرر كل شيء»، غير انها تتناسب تماماً مع الايقاع العادي للحياة السوفياتية، كما تقدمها الشعارات والملصقات: «بكل طاقتنا نحو الاشتراكية!» ويبرز مفهوم التسريع شوائب العصر البريجنيفي الذي يختصر بكلمة واحدة: الركود. فلا بد اذن من الخروج سريعاً وجذرياً من «الركود» وذلك من خلال «التسريع».

في ٧ ايار ١٩٨٥ اقرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي «الاجراءات الكفيلة بالتغلب على السكر والادمان على الكحول». وهذا القرار هو الاجراء الاول الذي اتخذه غورباتشيوف وذلك قبل ان يمضي على انتخابه الى موقع الامانة العامة شهران. ويمكننا اعتبار الحملة ضد الادمان التي قام بها غورباتشيوف بمثابة نموذج «للبريسترويكا» وتجدر الاشارة بداية، الى ان قرار انقاذ الشعب من هذه الآفة المتمثلة بالادمان قد اتخذ من قبل اللجنة المركزية بصفتها مرشداً اخلاقياً الى جانب كونها مرشداً سياسياً للمواطنين السوفيات. ثم ان هذا القرار قد اتخذ على عجل دون ان تجرى دراسة فعلية لهذه المشكلة القديمة والمعقدة. واخيراً، ان الوسائل التي تملكها الدعاية قد وضعت بتصرف هذه الحملة المكثفة، التي يؤمل ان تؤدي نتائجها السريعة والحاسمة الى رفع سلطات المرشد الشاب الى المقامات العليا. ولقد وضع القرار الاول الذي اتخذه غورباتشيوف موضع التنفيذ فعلياً في ٧ ايار ١٩٨٥ ثم لتتوقف مفاعيله في ٢٥ تشرين الاول ١٩٨٨ بناء على قرار آخر صادر عن اللجنة المركزية.

ما يزال الادمان على الكحول، منذ زمن بعيد، المرض الاشد فتكاً الذي يعاني منه المجتمع السوفياتي، والمختصون الغربيون يعرفون ذلك تمام المعرفة، وهم يبنون الارقام العائدة لاستهلاك الكحول ولنسب الوفيات الناتجة عن الادمان. وقد توصل الاستاذ فلاديمر تريمل وهو باحث اميركي، الى استنتاج ان نسبة استهلاك الكحول القوية للشخص الواحد في الاتحاد السوفياتي تصل الى ضعفي ما هي عليه في الولايات المتحدة والسويد، وذلك في بدايات السبعينات[٣]، علماً بانها لم تتوقف عن التزايد في السنوات التي تلت. الا ان الارقام المجردة التي تقارن كمية الفودكا المستهلكة بكمية الويسكي مثلاً لن تدل على شيء مهم بحد ذاتها، الا اذا اخذنا في الحسبان نوعية المشروب

والطعام الذي يؤكل معه. خلال مناورات القوات السوفياتية في تشيكوسلوفاكيا ـ والقصة حقيقية ـ اقدم اربعة جنود على بيع مصفحتهم مقابل صندوق (٢٤ قنينة) من الفودكا. وقد اعترف الشاري التشيكي، بعد القاء القبض عليه «انه وحباً بالشعب السوفياتي قد اضاف، «فوق البيعة»، ٢ كيلو من كبيس الخيار وكيلو رنكة مدخنة.(٤)

تحولت الحملة ضد الادمان الى أول امتحان تواجهه «الغلاسنوست»: قامت الصحافة بنشر الأرقام والوقائع التي تبين الحجم الهائل الذي تأخذه هذه الظاهرة في البلاد ، وما تسببه من ضرر ودمار في الصحة والاقتصاد. ورغم ان ما نشر لم يكن جديداً بالنسبة للباحثين الغربيين، فإن مجرد كشفه امام المواطنين السوفيات كان كفيلاً باحداث صدمة، وإن هذا ما حصل فعلاً. فقد عرض التلفزيون مثلاً اطفالاً ولدوا مشوهين بفعل ادمان اهلهم. وهكذا نظمت حملة واسعة ومكثفة جداً لمكافحة «التنين الاخضر». وربما كان للقرار الذي اتخذته اللجنة المركزية ميزة معينة ـ وهنا نكتشف خاصة مهمة لا تخلو منها «اصلاحات» غورباتشيوف العديدة ـ وهي انه منسوخ كلياً عن الاساليب التي استخدمت خلال الحملة الاولى ضد الادمان التي عرفتها البلاد في العشرينات وفي بدايات الثلاثينات. كانت جمهورية السوفيات قد ورثت «القانون الجاف» الذي فرضه نقولا الثاني عام ١٩١٤، في بداية الحرب. ولم تنته النقاشات بين القادة البولشيفيك حول مدى الضرر والفائدة من ادارة حصر الفودكا الا في كانون الثاني ١٩٢٣، أي عندما سيطرت الدولة السوفياتية على هذه الادارة. وفي ١٩٢٧ عرض ستالين المشكلة على النحو الآتي: «ما هو الافضل سِحْر الرأسمال الاجنبي او ادخال الفودكا؟ . . . طبيعي اننا اخترنا الفودكا، آخذين في الاعتبار وفي اية حال ما تزال حتى اليوم ـ انه اذا كان لا بد من اجل انتصار البروليتاريا والفلاحين ان نوسخ ايدينا قليلاً، فإننا ومن أجل القضية، سنقدم على هذا الامر»(٥). في هذه الفترة اواخر العشرينات اتخذت السلطات اجراءات للحد من الادمان المتزايد خاصة بعدما تبين انه يهدد تنفيذ الخطة بصورة جدية. وفي ٢٩ كانون الثاني ١٩٢٩ تم التوقيع على قرار، سوف تبرز مواده الاساسية من جديد في مقررات ١٩٨٥ : الحد التعسفي من انتاج المشروبات الروحية وزيادة انتاج المشروبات غير الروحية (عصير الفاكهة. . .) منع بيع الكحول في الاماكن القريبة من المؤسسات والمدارس والمستشفيات، اقتراح باستخدام «الادب والفن» للدعاية المضادة للكحول. حتى ان الشعارات الاكثر شعبية اليوم كانت قد

صيغت في سياق هذه الحملة: «الزهد معيار حياتنا» وهوشعار ظريف خاصة عندما يوضع الى جانب هذا الاعلان: «القاعدة؛ قنينتان من الفودكا للشخص الواحد». الا انه مع ذلك هناك امر مستجد في حملة ١٩٨٥ ـ ١٩٨٨ ضد الادمان: امكانية اتهام القوى المعادية بالعمل على إسكار الشعب الروسي. مؤيداً علناً «القانون الجاف» اكد البروفسور فيودو او غلوف أن «اعداء الزهد... هم اناس لا يدركون القوانين الاقتصادية في مجتمعنا او انهم غرباء عنا وعن نظامنا، إنهم اشخاص خطرون»(٦). وفي رواية فاسيلي بييلوف «مستقبلنا امامنا»، وهي من أكثر الكتب رواجاً من التي صدرت في هذه السنوات الاخيرة، ومن اشدها غرابة، يعلم القارىء، «ان الرئيس كينيدي كان يمنع الصحافيين من الحديث عن السكر في الاتحاد السوفياتي. لماذا الاسهام في ايقافه؟ كما كان يقول، ليشربوا فسوف يكون إنهيارهم اسرع. سوف ينقرضون دون حاجة الى حرب نووية...»(٧) وتبعاً لذلك كان إحجام الامبريالية الاميركية عن مناهضة الادمان على الكحول في المعسكر الاشتراكي لسبب هام لازدياده.

لقد بدأت الحملة ضد الادمان، «مطنطنة»، بسيل من التصريحات التي توضح ان المقصود ليس حملة مؤقتة ظرفية بل سياسة حاسمة ومصممة على ايجاد حل لهذه المشكلة المهمة. وقد اكدت البرافدا على ان «الحزب لن يتراجع، بل انه سيعمل كل ما في وسعه لينجز هذه المهمة الاساسية على اكمل وجه»(٨). غير انه سرعان ما اتضح ان توكيل الفرسان محاربة هذا الداء المستحكم، هذا المرض الخطير لم يكن نصيبه الا الفشل. فقد ادى تقليص ساعات بيع الكحول في المتاجر، بصورة فظة الى ظهور طوابير انتظار هائلة، وكذلك فان رفع اسعار الكحول بطريقة لا تقل فظاظة لم يؤد، من جهة الى تدني عديد هواة «افيون الشعوب»، هذا ـ وعلى كل حال ليس في المتاجر شيء آخر يمكن شراؤه ـ ومن جهة اخرى فانه لم لا يعوض عن الخسائر المالية الناتجة عن انخفاض المبيعات.

كان قرار اللجنة المركزية في ٢٥ تشرين الاول ١٩٨٨ بمثابة الاعتراف بهذه الهزيمة. اما المصطلحات المستخدمة في نص القرار فتذكر، بصورة عجيبة، بتلك الواردة في مقالة لستالين بعنوان: «نشوة النصر» نشرت في البرافدا في ٢ آذار ١٩٣٠. غير ان هاهنا حدثين مختلفين تماماً، لا تصح المقارنة بينهما: الاول ويتمثل بالتأميم مع ما أدى اليه من ملايين الضحايا وهو من اشد فصول التاريخ السوفياتي هولاً وفظاعة، فيما يتمثل الثاني

باحد فصول الاصلاحات الغورباتشيوفية. غير اننا بالمقابل يمكننا المقارنة بين وضعها موضع التنفيذ وآلية اتخاذ القرار والاعلان عن الفشل.

يبدأ مقال ستالين ونص القرار كلاهما من إثبات النجاح ببلوغ الهدف. الا انه نجاح يتحول في الحالين ومن خلال عبارة «الا أن» الى فشل. «الا اننا، يقول القرار، لم نتوصل بعد الى الحصول على التغيير الجذري». وهذا ما يمكننا تفسيره بما فرض من حظر ومنع، وبما اعتمد من طرق إرادوية، وحماس مفرط والهروب الى الامام. فقد أعلنت «مناطق زهد»، اقاليم بأكملها ومدن، دون الاخذ في الاعتبار آراء الناس. . . » وكان ستالين يبرر بالطريقة نفسها الصعوبات المعيقة للتأميم: «عدم التجاوب مع مبدأ التطوع» والهروب الى الامام، و«قرارات الموظفين»[٩].

هكذا بدأ سريعاً القرار «الارادوي»، الذي اتخذه غورباتشيوف لتحرير الانسان السوفياتي من آفة الادمان على الكحول، كخطأ اقتصادي واجتماعي ونفسي وفي آخر المطاف سياسي. وقد اطلق الارتفاع الحاد والمفاجيء للاسعار وصعوبة التزود بالكحول من مخازن الدولة المبادرات الشعبية. فقد بدأ السوفيات بانتاج كحولهم البيتية. داحضين احكام المختصين بالشؤون السوفياتية حول سلبيتهم ونقص مبادراتهم، وتحول المواطنون السوفيات الى مستقطري كحول. وفي اوائل الثلاثينات عندما التقى بطل رواية العجل المذهب «اوستاب بندر» بعض السائحين الاميركيين الذين يعانون من «تحريم» الكحول في الولايات المتحدة ويفتشون لذلك عن وصفة لصنع الكحول المنزلية، عرض لهم مئة وخمسين طريقة لصنعها: من البطاطا، القمح، المشمش، الشعير التوت، الحنطة السوداء، وحتى من كرسي تافه. اما في الثمانينات فقد اختار السوفيات السكر كمادة اولية. وهذا ما جعله يختفي سريعاً من المخازن، وينضم الى باقي المواد المفقودة في هذه الحالة من القحط الشامل. وفي ١ ايار ١٩٨٩ انزلت بطاقات تموين خاصة بالسكر. وهكذا وقع الخيار وكأنما بالصدفة على يوم عيد، على يوم مشهود في تاريخ الاتحاد السوفياتي: في الثاني من ايار ١٩٤٥ كانت جحافل القوات السوفياتية ترفع العلم الاحمر على «الرايخستاك». وبعد اربعة واربعين عاماً انتهى بها الامر الى اعتماد البطاقات التموينية. وقدرّ الخبراء أن ١,٤ مليون طن من السكر، أي ما يعادل الاستهلاك السنوي لاوكرانيا حيث يعيش خمسين مليون شخص، قد خصصت لصناعة الكحول المنزلية. كانت البلاغات الرسمية الاولى تعلن بلهجة انتصارية عن غياب

السكيرين من شوارع المدن السوفياتية وعن تناقص السكر في المؤسسات وانخفاض عدد الجرائم المرتبطة بالادمان. الا انه سرعان ما اتضح ان السكر لم يغادر الطرقات الا ليدخل المنازل: وهكذا لاحظت وزارة الداخلية في ١٩٨٨ «. . . ان ثلثي الجرائم المهمة، والعائدة للادمان، ارتكبت في الشقق والمنازل. . .»(١٠).

فالجريمة لم تكاد تتعاظم غير انها، وبعبارة لليوتنان ـ كولونيل المسؤول عن الميليشيا لوغفينوف، انتقلت الى اطار الحياة العائلية». وقد اعطى احصاءات بليغة عن عدد «الاحالات الى العدالة بتهمة تصنيع الكحول»: اكثر من ٨٠,٠٠٠ في ١٩٨٥ ومن ١٥٠,٠٠٠في ١٩٨٦، ٣٩٧,٠٠٠في ١٩٨٧، ١٢٠,٠٠٠ في خلال اول شهرين من ١٩٨٨(١١). اما الاكاديمي اغانبيغيان فقد قدر ان الخسارة المالية التي تتكبدها الدولة سنوياً من جراء حملتها لمكافحة الادمان تبلغ ١٠ ملايين روبل. وكنتيجة ثانوية لزيادة تصنيع الكحول غير الشرعي والذي شكّل مصدراً جديداً للثراء فقد وسعت المافيا إطار نشاطاتها. وقد حذر الخبراء السوفيات المختصون بمكافحة الجريمة المنظمة من عواقب «القانون الجاف» في الاتحاد السوفياتي والتي قد تكون شبيهة بما آلت اليه قوانين «التحريم» عندما أمن للمافيا ثروات طائلة. وقد نتج الخطأ النفسي الذي وقعت فيه «الحملة ضد الادمان» من ان الشعب فهم الصراع الضروري ضد هذه الآفة كتحدٍ من قبل السلطة: لقد حرم غورباتشيوف الشعب «معزيته الكبرى» الفودكا دون أن يؤمن له ما يحل مكانها.

الفصل الحادي عشر
الحركة الستاخونوفية

«سوف تعتبر الحركة الستاخانوفية من اكثر الصفحات اشراقاً في تاريخنا» ستالين، ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٥

«لقد دخلت الحركة الستاخونوفية، كصفحة مجيدة، في سيرة بلاد السوفيات».

برافدا، ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٥

ليل ٣٠ ـ٣١ آب ١٩٣٥ انتج عامل المنجم الكسيس ستاخانوف ١٠٢ طن من الفحم الحجري فيما كان المعدل ٧ طن. وفي ١٩ ايلول سجل رقماً قياسياً جديداً: ٢٢٧ طن دفعة واحدة. وهكذا ولدت حركة جديدة تهدف الى زيادة الانتاجية ورفع معدلات الانتاج الى مستويات عالية جداً. في ١٩٨٥ القي ميخائيل غورباتشيوف خطاباً تناول فيه « التقاليد التي ما تزال حية والمليئة بالمآثر في ميدان العمل»، وذلك اثناء لقاء اللجنة المركزية بابطال العمل المحنكين.

لم يكن السكرتير العام قد اصبح، الا منذ زمن قريب ـ بضعة اشهر ـ «القبطان الاكبر» في القناة السوفياتية. ومهما سيقول فيما بعد فإنه لم يكن يعلم تماماً ماذا يفعل ليعبر لجة الازمة السحيقة. انه يبحث عن شعارات، وأحد تصريحاته الكبرى تبدأ بهذا العنوان: «مبادرة، تنظيم، فعالية»، ثم إن هذه الثلاثية استبدلت فيما بعد ليصبح الشعار: «غلاسنوست، بريسترويكا، تسريع» إن السكرتير العام يفتش عن وصفات مجربة، وقد وجدها بداية عند ستالين. وهكذا يستعيد باسهاب في خطابه حول

«التقاليد التي ما تزال حية». المفردات والحجج التي نجدها في خطاب ستالين في الجمعية الاولى للستاخانوفيين في عموم روسيا، بتاريخ ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٥ . بدأ غورباتشيوف بالثناء على الحركة «التي تجسد بسالة وشرف وبطولة العامل»[١] كلمات هي نسخة طبق الاصل عن عبارة ستالين الشهيرة: « العمل في الاتحاد السوفياتي هو مسألة شرف وبسالة وبطولة » ـ وهي عبارة كانت تزين ابواب المعتقلات، التي اعتبرت منذ ولادتها عام ١٩١٨ بمثابة «مدارس عمل». ولقد قال ستالين: «لم تتطور الحركة الستاخانوفية تدريجياً بل انها شبيهة بانفجار يحطم سداً»[٢] ويشرح غورباتشيوف: «كانت الحركة الستاخانوفية تعكس موقفاً جديداً ازاء العمل، موقفاً وصفه ماكسيم غوركي بانفجار وهاج لطاقة جبارة». وربما كان ماكسيم غوركي هنا لقباً لستالين! اما غورباتشيوف فيلحظ: «ستاخانوف» «على الطريقة الستاخانوفية» ـ كلها رموز تدل على المبادرة على الصراع من اجل الافكار الطليعية ضد ما هو بالٍ، ضد ما قضى ايامه». وهذا بالضبط ما كان يروق لستالين في الستاخانوفية: «هذه الحركة تكسر المفاهيم التقنية القديمة، المعايير البالية التي كانت تطبق على التقنية. . . ».

ويمكننا ان نستمر طويلاً في مقارنة الاستشهادات: فالنسبة لغورباتشيوف يكمن ما هو جوهري في هذه الوصفة الستالينية ـ الحركة الستاخانوفية ـ او ما بدا له هكذا في ١٩٨٥ ـ في قدرتها على إيقاظ روح المبادرة وزيادة الانتاجية زيادة كبيرة، ألم يقل ستالين ان الستاخانوفية تشكل«نموذجاً لهذه الانتاجية المرتفعة التي لا تصل اليها الا الاشتراكية فيما تظل الرأسمالية دونها؟». وأُطلقت الحملة، فنشرت الليتراتورنايا غازيتا هذه الابيات «لايكاتيرينا شيفيليافا»: «لقد دقت الساعة يا عمال الستاخانوفية. . . » غير ان العملية خنقت في المهد. اذ بدا واضحاً ان العصر قد تغير. فقد ذكر غورباتشيوف «بان الحركة الستاخانوفية المأخوذة بالحماس ولدت في عصر لن يغيب عن الذاكرة. كانت الدولة السوفياتية الفتية تنجز بناء صناعتها متخطية الزمن بايقاعات مجنونة». وقد مرت سنوات عديدة قبل ان يدخل غورباتشيوف بعض التعديلات على رؤيته لهذا «العصر الذي لا يغيب عن الذاكرة» وليعترف على مضدد ان «الايقاعات المجنونة» تسببت بوقوع العديد من الضحايا. تبدو الستاخانوفية ظاهرة مرتبطة نموذجياً بمرحلة تشكل الدولة التوتاليتارية الفتية: فهذا الحماس الذي غالباً ما كان صادقاً، لم يطلق الا باعنف اشكال الارهاب ولم يدم الا بها. والواقع ان التزامن بين

«مأثرة» ستاخانوف، في آب وايلول١٩٣٥ وبدء مرحلة الارهاب الكبير في كانون الثاني ١٩٣٤، لم يكن بفعل الصدفة. وغورباتشيوف يعلم، هو ايضاً، ما يجب القيام به«علينا انزال اقسى العقوبات، كما يقال، بهؤلاء الذين يعملون من قفا يدهم، الذين ينتهكون نظام العمل ونظام التقنية، الذين لا يصلح ما ينتجونه الا لرميه في سلة النفايات». وهو يجد انه من الطبيعي «اللجوء الى اجراءات، قانونية مادية، ادارية او الى اي اجراءات، تكون اشد فعالية ضد هؤلاء الذين لا يريدون ان يعملوا بنزاهة ووفق ضميرهم». غير ان الاجراءات من النمط الستاليني لا تدخل ضمن إستراتيجية غورباتشيوف. فبالنسبة لستالين الامر كان بسيطاً. فقد اعلن في اجتماع الستاخانوفيين: «لقد اضطررنا ، فيما يتعلق بالمناهضين لهذه الحركة، ان نعطي درساً تأديبياً صغيراً لهؤلاء الاشخاص المحترمين. . . » اما غورباتشيوف فلا يصل الى هذا الحد. انه يكتفي باطلاق التحذيرات. والحال انه دون اللجوء الى القمع بوصفه عنصراً جوهرياً من الستاخانوفية، يستحيل تنظيم حركة من هذا النوع.

وهناك عنصر آخر غير متوفر ايضاً. ففي الخطاب الذي وجهه الى اتباع ستاخانوف قال ستالين هذه الكلمات الشهيرة «الحياة غدت افضل، ايها الرفاق، الحياة غدت اكثر مرحاً» واضاف «وعندما نعيش المرح يسير العمل جيداً». واذا قارنا وضعية الاتحاد السوفياتي في ١٩٣٥ بما كانت عليه في ١٩١٣ او ١٩٢٨ يتبين لنا انها زادت سوءاً، ولكن بالنسبة لبداية الثلاثينات هناك بعض التحسن: فلقد الغيت بطاقات التموين بالنسبة للخبز وكان الانطباع العام السائد ان الاسوأ قد مر. والامل يرفع الرأس من جديد. لو اننا عشنا البؤس. ولم يكن لحياتنا اية بهجة او فتنة، لما كان، كما اوضح السكرتير العام، قد نشأ عندنا مثل هذه الحركة الستاخانوفية . . . »[٣]. والواقع ان رؤية ستالين كانت صحيحة: فالحماس لا يولد في جو من اليأس والبؤس المطبقين. ومن المحتمل ان يكون غورباتشيوف قد فهم هذا الامر. غير ان هذا لم يحل دون رفض السكرتير السابع تطبيق مثل هذه الوصفة.

في المؤتمر السابع والعشرين للحزب الذي انعقد في شباط آذار ١٩٨٦، دعا بعض الخطباء الى إحياء الحركة الستاخانوفية، وفي ١٨ تشرين الاول ١٩٨٨ نشرت الكومسومولسكايا برافدا مقالة تضمنت معلومات يعرفها كل الناس منذ زمن بعيد: إن مأثرة ستاخانوف لم تكن الا احتيالاً. فلقد اعد له خصيصاً دهليز منجم ووضع بتصرفه

مساعدين. وقد جهزت العملية مسبقاً من قبل امين المنظمة المحلية للحزب، الذي استطاع ان يؤمن مستقبلاً مهنياً زاهياً»(٤). وهكذا أزيح صنم جديد من البانتيون السوفياتي، ولقد آن الاوان لصنع أبطال آخرين.

الفصل الثاني عشر
«هذه «إرواد» تفضل اقفز!»

«نريد استبدال الآلية الاقتصادية القديمة بآلية اخرى تقوم على اسس جديدة، وحيث التطور المخطط (احدى السنين الاساسية في الاقتصاد الاشتراكي) والمركزية الديموقراطية (المبدأ المركزي في القيادة اللينينية) يجريان بطريقة أخرى واساليب أخرى».

آبل اغانبيغيان

كان الجواب على متبجح حكاية ايزوب، الذي كان يتباهى بانه لا يضاهيه في قفزاته على جزيرة ارواد احد: تخيل انك الآن عليها وبيّن مواهبك. او كما كان يقول الرومان بما لديهم من ايجاز: «هيك رودوس هيك سالتا» «هذه إرواد تفضل اقفز». لقد صرح غورباتشيوف اثناء الاجتماع المكتمل الاول للجنة المركزية الذي تلا انتخابه قائلاً: علينا ان نقفز. اما آبل اغانبيغيان أحد المستشارين الاقتصاديين الرئيسيين للزعيم الجديد في بدايات «البريسترويكا» فقد حدد تماماً: «ما نريده: سكب نبيذ جديد في الجرار العتيقة»[1].

كانت الاقتراحات بتحسين النموذج الستاليني، مع الابقاء على مبادئه الاساسية، متعددة. واكثر من ذلك، فقد شهدت السنوات الاولى من عصر بريجنيف تجارب بهذا الاتجاه ـ انه عصر اصلاحات كوسيغين. لقد جرت محاولة لتوسيع نطاق استقلالية بعض المؤسسات ولتحفيز الانتاجية. . . وقد رأى اندروبوف ايضاً، ضرورة القيام ببعض التغييرات في الاقتصاد بغية زيادة مردوديته. وقد لجأ الى تدعيم الاجراءات المجربة (التي

تركت في اي حال، سريعاً)، بالتشديد الالزامي على الانضباط في العمل. اما تقرير الاكاديمية تاتيانا زاسلافسكايا، المعد في خريف ١٩٨٢ ، والذي تمت مناقشته في خلال حلقة جمعت حوالي خمسين باحثاً ونشر في الواشنطن بوست في آب ١٩٨٣، فقد شكل ، من جهته، برنامجاً إصلاحياً حقيقياً. وقد اثارت «وثيقة نوفوسيبيرسك»، كما سميت، اهتماماً عظيماً في الغرب كما انه تم الاعتراف بها في وطن واضعتها من خلال «الاصوات». وتشير هذه الوثيقة الى «أن النسق الحالي لعلاقات الانتاج عرف تأخراً هائلاً بالنسبة لمستوى تطور القوى الانتاجية. فبدل ان تسهل تطورها المتسارع تكبح تقدمها بصورة متطردة»[٢]. انه التعريف الماركسي الكلاسيكي للأزمة، التي تبرز بشكل ثابت في تاريخ البشرية وتفضي ـ حسب ماركس ـ الى اندلاع الثورة. اما الطبقة التي تكبح «الهجوم» فانها تزاح عن مسرح التاريخ. فهكذا جرى كنس الواحدة تلو الاخرى، الطبقة الاستعبادية، والاقطاعية، وفي البلدان الاشتراكية، البرجوازية. والبروليتاريا التي وصلت الى السلطة في تشرين الاول ١٩١٧ تشكل حسب ماركس ولينين ـ الطبقة الاخيرة، إن التاريخ يكتمل، انها الجنة، وجاءت استنتاجات تاتيانا زاسلافسكايا غير متوقعة، واعتبرت، في تلك الفترة، جريئة رغم انها تعكس وجهات نظر جرى التعبير عنها في اطار مناقشات بين بعض علماء الاقتصاد. وقد استندت زاسلافسكايا الى الحزب: «ان ضرورة الاستعجال باجراء بريسترويكا» في نسق ادارة الدولة للاقتصاد امر بتقبله الحزب منذ زمن بعيد»[٣] . وهكذا ادخلت كلمة «بريسترويكا» الى دائرة التداول. فأي «بريسترويكا» هي التي سيحملها خريف ١٩٨٢؟

مذكراً بمقررات مؤتمرات الحزب الشيوعي السوفياتي بدءاً من عام ١٩١٧ وبتلك الصادرة عن جلسات اللجنة المركزية المكتملة المتفقدة في تموز ١٩٧٩ وتشرين الثاني ١٩٨٠ وايار ١٩٨٢ تعتبر واضعة «تقرير «نوفوسيبيرسك» انه من الممكن التغلب على الازمة البنيوية (التنافر بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج) من خلال اصلاح نظام الادارة. وتقترح زاسلافسكايا» ان تترك للعمال، بعد أن يصار الى تنظيم النقاط الاساسية او المفاتيح التي تضبط نشاطهم الاجتماعي والاقتصادي، منطقة واسعة بما يكفي ليمارسوا استقلاليتهم الذاتية»[٤]. او بتعبير آخر: ان يجري التخلي عن الطرق الادارية في القيادة واللجوء بداية الى «حوافز تأخذ بالحسبان الحاجات الاقتصادية

والاجتماعية للعمال وتسمح بتوجيه مصالحهم بالاتجاه الذي يتطلبه المجتمع»[٥] .

لقد التقط ميخائيل غورباتشيوف كلمة «بريسترويكا» وجعل منها مرادفاً لإدارته وحلاً لجميع المشاكل أو الترياق العجائبي. وقد ترجمت «البريسترويكا» بداية بمفردات «التسريع» فالخروج من الازمة، وتحسين الحالة الاقتصادية في البلد، «والقفزة الكبرى» فوق لجة الشر ـ كل هذه الامور ستتحقق من خلال «التسريع» او «تكثيف» الانتاج. العمل اكثر، العمل افضل واسرع، ذلكم هو من الآن فصاعداً القانون الأعظم، بعد شهر على انتخابه عدد غورباتشيوف المشاكل التي لا بد من حل سريع لها: «اعادة وضع الانتاج على سكة التكثيف، تسريع التطور العالمي والتقني. ادخال تحسينات فعلية على نوعية الانتاج»[٦]. وبعد شهرين عقدت اللجنة المركزية جلسة حول «مشاكل تسريع التطور العلمي والتقني».

وقد صاغ الامين العام الشاب ما يمكن ان نسميه اليوم النسخة الاولى عن استراتيجية «البريسترويكا». والواقع انها تشبه من حيث خطوطها العريضة ـ الاستراتيجية التي اعتمدت خلال مرحلة التصنيع الستالينية: التسريع (او: «الايقاعات تقرر كل شيء»، «بناء الآلات يرسم الطريق الملكي امام تطورنا»[٧] (او: الصناعة الثقيلة هي قاعدة الاقتصاد)، ثم إن غورباتشيوف يضيف واثقاً من نفسه متفائلاً: «إن الاتجاه الرئيسي في بريسترويكا الادارة الاقتصادية واضح اجمالاً لدينا. انها تقضي باستخدام اكثف واشمل لميزات الاقتصاد الاشتراكي من جوانبها كافة. لا بد لنا من ان نختار متابعة العمل على تدعيم وتطوير المركزية الديموقراطية». كما ان السكرتير العام يتطرق إلى «التطوير الواسع لمبادرة الجماهير» غير ان ذلك لا يأتي الا في المرتبة الاخيرة، اي بعد زيادة تأثير المبدأ المركز على الادارة والتخطيط»[٨].

اكتسبت عبارة «انعطاف أثناء المسيرة» في السنة الاولى من العهد الغورباتشيوفي شعبية كبيرة. وهي تطمح الى الدلالة على أفضلية الإنعطاف، دون تغيير القواعد او ايقاف التقدم في السبيل المرسوم، الى طريق تؤدي بسرعة اكبر الى الهدف. وقد بدأت الاجراءات الفعلية، والاصلاحات العملية بتنفيذ هذا «التوجه من جديد ودون عوائق»، هذا «الخط العام». وكانت بمثابة الدلائل على التناقضات الداخلية التي يعيشها قائد «البريسترويكا». ونجد من بين القرارات الاولى قرار اللجنة المركزية ومجلس

الوزراء «حول متابعة تحسين ادارة المجمع الزراعي الصناعي »[٩] وهو ما يجب ان يتيح حلاً نهائياً لمشكلة التموين. وها انه قد تم اكتشاف دواء سحري: تجميع الوزارات الزراعية الخمس اضافة الى لجنة دولة (زراعية ايضاً) في سوبر ـ وزارة هائلة: مجمع الدولة الزراعي ـ الغذائي (آغروبروم). ويكشف تعيين موراخوفسكي على رأس الاغروبروم، وهو نائب اول لرئيس الوزراء، ومقرب من الامين العام منذ أيام ستافروبول، مدى الاهمية التي يعلقها غورباتشيوف على «الاصلاح» وبدأت موجة تطهير صارم في جهاز الادارة الاقتصادية[١٠]، وفي ايار ١٩٨٦ اقر المشروع حول مراقبة الدولة»[١١]. فكل منتوج يصدر من المصانع والمعامل يمر على مراقبين مستقلين عن المؤسسة. وكان هذا النظام سائداً منذ مدة طويلة في المؤسسات العسكرية، ويعمل، في هذا المجال، على تأمين نوعية الانتاج السوفياتي، ويعتبر قادة «البريسترويكا» انه لا يمكن الحصول على اي تحسين في نوعية الانتاج اجمالاً الا بالقوة. وقد تم التصويت على «القانون حول المؤسسة» الذي يعطي هذه الاخيرة المزيد من الحقوق ويقيم نوعاً من التمويل الذاتي. وهكذا اصبح مديرو المؤسسات والمسؤولون عن المنشآت ينتخبون الى مراكزهم: وتبقى العادة الجارية ان يتم اقتراح مرشحين لتبت اللجنة الحزبية بشأنها. ثم ان عدد المؤسسات حيث ينتخب المسؤول من قبل المجموع بدأ يزداد تدريجاً.

وقد لقيت كل هذه المقررات والقوانين والقرارات ترحيباً من قبل الصحافة التي هللت للاصلاحات الجديدة باعتبارها وسيلة تسمح بدفع «البريسترويكا» الى الامام. ولا بد هنا من الاشارة الى ان غورباتشيوف ومستشاريه لم يقترحوا اي طريقة جديدة للخروج من الازمة، فلقد تم اختبار كل شيء، خلال سنوات الـN.E.P وفي ظل خروتشيوف، وابان ما سمي «بالركود»، وبعده. وقد صرح الاكاديمي أغانبيغيان، في مقالة نشرتها البرافدا في آب ١٩٨٤ ـ اي في خضم مرحلة تشيرنينكو ـ بعنوان الخبرة والتمويل الذاتي»، ان الانتاجية قد زادت اكثر من الضعف خلال النصف الاول من العام، مقارنة مع عام ١٩٨٢. وقد اكد على ان الدينامية التي يتصف بها هذا المؤشر تبعث على السرور في الزراعة اكثر مما تبعث عليه في النقل»[١٢]. اذن، الا ان تحافظ على هذه الدينامية. غير ان الامور كانت اشد تعقيداً بصورة لا تدع اي شك.

في حزيران ١٩٨٥، اكد الامين العام الشاب على وضوح التوجه العام «للبريسترويكا»، الا انه، وبعد مضي عام اثناء رحلة الى سيبيريا عاد ليقول: «ما من

احد، ليس فقط في خاباروفسك بل في موسكو ايضاً، في الوزارات والغوسبلان والحكومة والمكتب السياسي يمتلك وصفة جاهزة تؤمن لنا التسريع»[١٣]، وهنا ايضاً يمكننا ابداء بعض الشكوك. ذلك اننا نكتشف فجأة وفي كل مرة ان اي قرار او قانون جديد يبقى في «الاصل» سيء الاعداد، متناقض وغير فعال ولا يمس بتاتاً بالنموذج القديم.

وضعت «رقابة الدولة» «هذا الاجراء المتشدد الجذري، المنتظر ان يؤدي الى تحسين اساسي في نوعية الانتاج، حيز التنفيذ، ابتداء من اول كانون الثاني ١٩٨٧، وشملت ثلث المؤسسات. وتبين في نهاية العام «ان ١٥ الى ١٨ بالماية من الانتاج الصناعي لم تمر على الرقابة، اي لم تصل الى الدرجة المطلوبة من حيث النوعية. «وقد بلغت الكلفة الاجمالية للسقط وللقطع التي تُطلب إعادة تصنيع ٦ مليارات من الروبلات»[١٥]. وبعد عام رفضت رقابة الدولة ما كلفته ٤,١ مليار روبل من المنتوجات اي ثمانية بالمئة من الحجم الاجمالي، ويمثل السقط في صناعة الآلات ١٣,٥ بالمائة[١٦]. ولسنا بحاجة الى القول بانه يجري اللجوء الى كل شيء «لكسب رضى» المراقبين اي ان الارقام التي وردت لا تمثل الا الحد الادنى مما يفترض ان يرفضه المراقبون لرداءة نوعيته. وقد صرح ميلنيكوف، امين سر اللجنة الاقليمية للحزب في جمهورية كوميس في الجلسة المكتملة للجنة المركزية في نيسان ١٩٨٩، بأن القانون الذي يرعى رقابة الدولة لا يشتغل كما يجب[١٧]. اما كابايدزه، وهو مدير عام لمركز صناعي كبير فقد كان اقرب الى الجزم: «لقد انشىء نسق غير صالح بالمطلق للاستخدام لا بل انه مضر بالنسبة للقوى المنتجة في المجتمع . . . »[١٨]. وفي تشرين الاول ١٩٨٩ تم الغاء رقابة الدولة.

والامور لم تكن افضل بالنسبة لاصلاح اقتصادي آخر ذي اهمية كبرى: القانون الذي ينظم مؤسسات الدولة. وهو بعد ان وضع موضع التنفيذ الجزئي ولم يشمل الا قسماً من المؤسسات حيث وسع نطاقه ليطال، ابتداء من ١٩٨٩، مجمل القطاع الصناعي.

وقد لحظت لجنة الدولة للاحصاءات بارتياح في النشرة التي تصدرها، واستناداً الى موازنة الفصل الاول لعام ١٩٨٩ الانتقال الى التمويل الذاتي الكامل، الا انها اشارت بالمقابل الى «انه لم تصر بعد الى بلوغ الدينامية والفعالية الضروريتين، في مجال تطور الانتاج الاجتماعي»[١٩].

في آذار ١٩٨٨، صرح غورباتشيوف امام عمال مصنع للكريات Roulements billes في موسكو» «الآن فقط يمكننا الحديث عن البريسترويكا بوصفها واقعاً فعلياً، وذلك بعد ان دخل القانون الخاص بمؤسسات الدولة حيز التنفيذ»(٢٠). وبالانتظار جرى تحريف القانون الذي يعطي - كما يقال - المؤسسات حيزاً واسعاً من الاستقلالية، بسهولة تامة. وهكذا تم تدعيم التبعية المخطط لها التي كانت سائدة بالامس بوصاية الدولة المباشرة. فمجمل انتاج المؤسسات، أويكاد، ظل - كما في السابق - خاضعاً لوصاية الوزارات وتحت اشرافها المباشر. وقد إعترف رئيس مجلس الوزراء ريجكوف «بان الوزارات والادارات كسبت من جديد وصاية الدولة مستعيدة بغلاف جديد الطرق التقليدية للتخطيط الموجه الى شخص أوهيئة (مرسل إليه) محددين»(٢١)، مباشرة بعد إصدار القانون الخاص بمؤسسات الدولة (الذي اعد سرياً في الوزارات) ظهرت المقالات والرسائل والتصريحات حول ضرورة اعادة النظر بها. وهذا من علائم زمن «البريسترويكا»، وطابع يميز جميع قوانينها. وقد بوشر باجراء بعض التعديلات. الا ان الانطباع العام ظل سلبياً. و كشف بونتيش رئيس المجلس العلمي لاكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي لشؤون التمويل الذاتي وهو خبير كبير في هذا الميدان، عن ان «النظام المعمول به يعيد انتاج شوائب اساسية»(٢٢) وقد اكد رئيس سوفيات موسكو. سايكين ما توصل اليه الخبير الاقتصادي: «يتحول التمويل الذاتي الفعلي الذي نتكلم عنه ونعلق عليه الآمال، في العديد من المؤسسات إلى اجراء شكلي اضافي ولا يعطي النتائج المرجوة»(٢٣). وفي ايلول ١٩٨٩، وبعد العديد من التعديلات على القانون، ظل ٨٠٪ من المؤسسات غير راضيةٍ عنه معتبرة انه «لا يتيح العمل ضمن شروط التمويل الذاتي»(٢٤).

وفي نهاية السنوات الاربع الاولى لم تعطِ انتخابات مسؤولي المؤسسات، هي ايضاً، النتائج المتوقعة. فقد كانت قيادة الحزب تأمل ان تدفع اعادة الاعتبار للديموقراطية، وإن في اطار الاشتراكية، العمال الى انتخاب مدراء او مسؤولين يفرضون العمل على زيادة الانتاجية وتحسين النوعية... غير ان ما حصل كان غالباً العكس تماماً فالسكرتير الاول للجنة الحزبية الاقليمية للينيغراد يشكو مثلا، بمرارة من الحالة السائدة، وذلك امام الجمعية المكتملة للجنة المركزية: «كنا نتصور ان المجموعات سوف تأتي، الى حلقة الانتاج بقيادات كفوءة خلاقة، صارمة، وان تمنحها الثقة

والولاء. ولكن ما الذي حصل؟ في الواقع العكس تماماً. حيث فضلت بعض المؤسسات، متجاهلة تعليمات التنظيمات الاجتماعية والحزب، مسؤولين سهلين مرنين وغير متطلبين، والذين بشكل ارادي ام لا يشجعون تفاقم آفة الاستهلاك والجشع والطفيلية»[٢٥]. يمكننا بسهولة ان نتفهم ما يشعر به سولوفياف من ألم: فهو «معلم» منطقة لينينغراد، والعضو الاحتياطي في المكتب السياسي، والمرشح الاوحد لانتخابات نواب الشعب الذي، لم ينتخب[٢٦]ويمكننا تلخيص كل هذه الشجون بانه اذا لم يكن كل شيء في السابق على ما يرام، فإن النظام كان على الاقل سائداً، كان الحزب هنا وعينه ساهرة. اما اليوم فكل شيء اصبح سيئاً رغم الابتكارات او تحديداً، حسب سولوفياف «من جرائها». ويؤكد هذه الملاحظات التي ابداها سكرتير لينينغراد شهود كثر من الصحافيين والعمال، والاقتصاديين: فالانتخابات في المؤسسات لم تعدل الوضعية السائدة، لا بل انها أدت احياناً الى تفاقمها.

إنه أهم الاجراءات التي اعتمدت من اجل «التسريع» كان اصلاح الآلة الادارية الهائلة التي صورت ، في جميع خطب غورباتشيوف وجميع مقالات الخبراء والاعلاميين ذات الطابع النقدي الحاد المستوحاة من الغلاسنوست، بوصفها العدو رقم واحد «للبريسترويكا». والارقام هنا تحكي ببلاغة، في ١٩٨٧ اثبت غورباتشيوف ذلك: «نجد في اطار الادارة حالياً ١٨ مليون موظف، منهم ٢,٥ مليون يشكلون طاقم مختلف أجهزة الادارة والانضباط، و ١,٥ مليون جهاز ادارة الجمعيات والمؤسسات والمنظمات، وهذا ما يمثل ١٥ بالمائة من الموارد المنتجة في البلاد. وهناك مسؤول لكل ١٧ شخصاً. . . وننفق اكثر من اربعين مليار روبل لصيانة هذا الجهاز، فيما دخلنا القومي لم يزد هذه السنوات الاخيرة، الا بالكاد عشرين مليار روبل»[٢٧].

ويعطي سيرغي اندرييف المزيد من التفاصيل: «تعد اقسام الادارة (نهاية عام ١٩٨٧) ما مجموعه ١٧,٧١٨,٠٠٠ شخص١١,٥ مليون منهم يعملون في اطار المؤسسات والتنظيمات وحوالى ٣ ملايين يشكلون جسم المهندسين، فيما يضم جهاز الوزارات والادارات ١,٦٠٤,٠٠٠ شخص»[٢٨]. ومن الواضح انه لا بد من تقليص هذه الاعداد. كان ذلك من الامور البديهية حتى في ١٩١٩، حيث اكتشف لينين فجأة النمو الغزير للبيروقراطية. والوضعية كانت نفسها في الثلاثينات حيث كان الرفيق ستالين يقود شخصياً حرباً شعواء ودون هوادة ضد البيرقراط. ويذكر اندرييف بان

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وفيها كانت في البلاد عام ١٩٥٦، ٥٢ وزارة وطنية، شددت على ضرورة اتخاذ اجراءات بهدف «تقليص العدد وتبسيط الجهاز الاداري». في ١٩٧٩ بلغ عدد هذه الوزارات ٦٤ وما يزال يزداد.

عند استلام غورباتشيوف السلطة وبدء البريسترويكا، افتتحت حملة إستهدفت طرد «البيروقراط». وقد أعلم ميلنيكوف السكرتير الاول اللجنة الاقليمية للحزب في كيميروفو، اللجنة المركزية المنعقدة في اجتماع مكتمل انه جرى طرد ٦٠٠,٠٠٠ مدير إداري واستيعاب ٧٠٠,٠٠ غيرهم[٢٩]. في رواية ايليا اهرنبورغ «الحياة الصاخبة للازيك رويتزشوانتز»، يفقد بطل الرواية عمله، وهو شخص حكيم ومضحك يواجه ما يدور في جمهورية السوفيات في العشرينات، ثم يجد سريعاً عملاً آخر. ويعلق الكاتب: «هكذا انقذ لازيك بفضل الجدلية الشهيرة: يطرد شخص من مكان ما ليوضع شخص آخر محله...»[٣٠]. اما أندرييف الذي ربما لم يعرف حياة لازيك الصاخبة فيشهد بعد ستين عاماً «ان الجدلية الشهيرة» ما تزال تعمل على احسن وجه.

وهناك اسباب كثيرة تحول دون القفز فوق اللجة، وهناك تفسيرات عديدة لهذه القفزات التي تراوح مكانها، وقد تناولها المسؤولون في الحزب والدولة والاقتصاديون والصحافيون. واننا سنعود اليها لاحقاً. اما الآن فلنتوقف عند«تقنية» الاصلاحات. تشدد مقالة في البرافدا في معرض إثارتها لبؤس الاقتصاد السياسي السوفياتي على نقص الافكار التي تساعد في الخروج من الازمة. ويبدو الكاتب جازماً: «لن نتوصل الى الخروج من هذه الدائرة المفزعة ذات الدورات الخمس: نقص الآلية الاقتصادية السائدة، اقتراح حلول لتغييرها وما تثيره فعاليتها من غبطة، الصدمة الناتجة عن حصول عكس ما كان يتوقع، ثم اللجوء الى النقد الشامل من جديد»[٣١]. في نيسان ١٩٨٩ وبعد اربع سنوات على «البيريسترويكا»، اقدم غورباتشيوف على هذا الاعتراف المدهش: «.. لم يكن احد منا(كان يتوجه هنا الى اعضاء اللجنة المركزية، اعلى هيئة في السلطة). على معرفة بالبلد الذي نعيش فيه». ولقد رفض السكرتير العام الفكرة التي كانت «تحول دون اقدامه على الفعل». واكتفى بالقول: «تبين ان كل شيء اشد تعقيداً مما كنا نعتقد اوبما بدا للنظرة الاولى»[٣٢].

«كنا نعتقد» «كان قد بدا» «لقد أخطأنا»، الندم بالنسبة لغورباتشيوف هو هنا

الثمن الذي لا بد من دفعه ليحق له القيام بتجارب جديدة. وقد أثير خطأ الاستراتيجية التي اختارها غورباتشيوف في حزيران ١٩٨٨، اثناء انعقاد المؤتمر التاسع عشر للحزب وكان كلام مدير معهد الاقتصاد التابع لاكاديمية العلوم واضحاً: «من المهم جداً ان تشير بكل وضوح الى انه لم يحصل اي انقلاب جذري في الاقتصاد، والى ان هذا الاقتصاد لم يستطع الخروج من حالة الركود». هذه الملاحظة تأتي بعد ثلاثة اعوام من الاصلاحات. ويذكر الاكاديمي «أبالكين» أن من بين اسباب الفشل، الرغبة «في حل المشاكل من خلال اجراءات وقرارات ذات طابع تنظيمي صرف، وهذا ما يزيد بخاصة عدد القرارات التي يجب اتخاذها»، الا ان الخطأ يكمن قبل اي شيء في استراتيجية التسريع. فالسعي الى حل مشكلة الندرة («الندرة» سيدة الموقف فهناك نقص بهذه المادة وبمادة أخرى وبثالثة ورابعة») بزيادة حجم الانتاج لا يؤدي الا الى تفاقم المصاعب الاقتصادية(٣٣). وقد اثارت وجهة نظر الاكاديمي أبالكين، التي تعتبر ان الاجراءات من أجل «إحلال الديموقراطية في الحياة الاجتماعية» لن تغير شيئا رغم أهميتها في النظام القائم، رداً حاداً من جانب غورباتشيوف، طالباً الكلام ثانية، على الامين العام مشتماً من مداخلة أبالكين «رائحة الحتمية الاقتصادية او ولنقول كل شيء، تقييماً يسيء الى «البريسترويكا»(٣٤).

يعطي فاسيلي سيليونين، وهو من اكثر الصحافيين الذي يهتمون بالاقتصاد، كفاءة وجرأة، تفسيراً مضيئاً يتناول حقيقة إستراتيجية التسريع. فهذا المفهوم (التسريع) يتأسس على عملية حسابية نشرت من قبل الاكاديمي اغانبيغيان، وسرعان ما اصبحت شهيرة. إننا نستخدم في السنة الواحدة، من الدخل القومي ما يقارب ٦٠٠ مليار روبل. وتذهب ثلاثة أرباع هذا المبلغ للاستهلاك، وما يتبقى للادخار. واي ارتفاع لهذا الدخل، بمعدل واحد بالمئة، سيبلغ ٦ مليارات روبل وعلينا لكي نحقق تحسناً ملموساً في مستوى الحياة زيادة الدخل العام للبلاد بنسبة٤ او حتى٥ بالمائة سنوياً(٣٥). ويبين سيليونين الاخطاء الكامنة في هذه الاستراتيجية. انه يقرر بداية بطريقة حسابية انه حتى في حال ارتفاع الدخل بمعدل ٥ بالمائة فان ذلك لن يعطي الا زيادة لا تتعدى روبلاً ونصف في الشهر، تقريباً. غير ان ما هو جوهري يكمن في مكان آخر: ففي الاقتصاد السوفياتي تتناقص حصة المنتجات الاستهلاكية من مجمل الانتاج بشكل منتظم ومنذ ١٩٢٨. اذا فان تسريع وتائر الانتاج يستتبع زيادة في الانتاج

المعادن. الجرافات، والحاصدات ـ الدارسة والآلات والادوات، وكلها من النوع الرديء اضافة الى انها تبقى غير مستخدمة. اذا فتسريع الوتائر يقود الى استنقاذ متسارع للموارد بما في ذلك، الموارد غير القابلة للتجديد مثل النفط.

ويرى سيليونين وجود ارتباط مباشر بين استراتيجية التسريع «وبريسترويكا» البنية الاقتصادية: يفترض ان يحل التسريع مكان الاصلاحات الجذرية: فاما التسريع الذي يفهم بوصفه ارتفاعاً عامودياً لمعدلات الانتاج او بالمقابل بريسترويكا البنية الاقتصادية. وليس ها هنا حل ثالث لا بد إذن من الاختيار»[٣٦].

مقيماً حصيلة ثلاث سنوات من الاصلاح، لا يلف سيليونين او يدور: «ليس للاصلاحات اي اثر، فالآلية الجديدة ليست اسوأ او افضل من القديمة. انها ببساطة نفسها...»[٣٧] اما البروفسور بوبوف عالم الاقتصاد الذي نحت في الاساس عبارة «نظام إداري» فيتفق تماماً مع ما استنتجه سيليونين: «فطبيعة الآلية القديمة ـ موضع آمرية الوزارة. وحقه في التحديد الإداري لعمر الحلقة الذاتية التمويل ـ ظلت في الواقع هي نفسها»[٣٨].

ما هي الاسباب الكامنة وراء فشل الاصلاح الاقتصادي، الذي اصبح اشد وضوحاً في ١٩٨٩؟ يشير سيليونين، قبل اي شيء، الى الخطة، اي الى الابقاء على النسق القديم للتخطيط. فالمادة ٢ من القانون الشهير حول مؤسسات الدولة الذي وضعه غورباتشيوف «بحقيقة البريسترويكا» يحدد: «تعبير خطة الدولة للانماء الاقتصادي والاجتماعي آداة اساسية لتنفيذ السياسة الاقتصادية التي ينتهجها الحزب الشيوعي والدولة السوفياتية»[٣٩]. اذا كانت الخطة آداة اساسية، يتساءل سيليونين، ما هو، إذن، دور الطرق الاقتصادية للتأثير على الانتاج؟ وخاصة دور استبدال الاساليب الادارية بطرق اقتصادية، وهو الهدف المعلن من الاصلاح؟ ولكن هذا ليس كل شيء: اذ يدخل التخطيط في تناقض مع السوق وحتى اليوم ـ وهذا ما يجعل جميع الخطب حول الاصلاح الاقتصادي متهافتة ودون اي مفعول ـ لم تجد مشكلة الاسعار اي حل لها. «الطريقة الوحيدة المضمونة لتحديد الاسعار هي السوق، ولم تخترع الانسانية حتى الآن شيئاً افضل»[٤٠]. وعام ١٩٨٩، وصف عالم الاقتصاد نيكولاي شمليوف، الذي اشتهر على اثر مقالته «تسليفات وديون»[٤١]، والتي اعتبرها غورباتشيوف،

صحيحة من جانبها النقدي وخاطئة من حيث انها برنامج، الوضعية بصيغة الخيار بين بديلين: فاما القوة واما الروبل. وهو يثير في مقالة بهذا العنوان الى النقص الاساسي في النظام: «نحن نعتقد الى ما هو جوهري، اي الى ما لا غنى عنه لأي اقتصاد طبيعي لا ينمو تحت وطأة الحوافز وبضربات العصا بل من تلقاء ذاته: اننا نعتقد الى السوق»[٤٢]. ويرتبط غياب السوق بغياب الروبل القوي القادر على ان يصبح عمله قابلة للصرف، كما كان عليه في زمن الاقتصاد السياسي الجديد N.E.P يوجد اليوم استناداً الى حسابات الخبراء الفا سعرٍ للروبل، وذلك بحسب السلع المطلوبة والشارين. اما شمليوف الذي يرى في هذا التعدد نوعاً من الجنون، يذكر بان السعر الحالي للروبل قد حدد بحرية، عام ١٩٥٠، من قبل ستالين شخصياً. فقد عرضت على ستالين حسابات بعض الخبراء التي تبين ان الدولار الواحد يساوي ١٤ روبلاً في ذلك العصر. فقام المرشد بشطب الرقم بالقلم الازرق وكتب٤، مضيفاً «هذا اكثر مما يكفيهم»[٤٣]. دون روبل حقيقي لا يمكن ان يوجد سعر حقيقي. او ان توجد اجور فعلية. ولقد اشار سولوفياف امام اللجنة المركزية الملتأمة بكامل اعضائها، ان عمال احد المصانع في لينينغراد سألوه الى متى سوف يقبضون اجرهم ببطاقات الترامواي، او اسوأ من ذلك بالبطاطا المؤرخة سلفاً! الروبل الحقيقي، السوق الحقيقي(السوق دائما على حق، يؤكد شمليوف) لا يمكن ان يأتيا الا كنتيجة لاصلاح الاسعار.

في شباط ١٩٨٩، وبعد ان انجز جردة لسنوات الاصلاح الاربع ، بدا آبل آغانبيغيان حاسماً: «. . ففي السنوات الثلاث او الاربع القادمة لا بد من ان تغيب مسألة اصلاح اسعار المفرق من جدول الاعمال»[٤٦]. فانطلاقاً من التجربة الماضية يمكننا ان نتحسب ، في احسن الاحوال، للخمس او الست سنوات القادمة. اي بعبارة أخرى تأجيل البدء باصلاح اقتصادي جدي الى منتصف التسعينات. وما يدفع للخوف من المس بالاسعار لا يرتبط باعتبارات اقتصادية فقط، بل باعتبارات اجتماعية ايضاً. وقد أجل هذا الاصلاح لمرات ومرات والارجح، ان تظل الحال على هذا المنوال، ذلك انه قد يستتبع حكماً ارتفاعاً للاسعار. والواقع ان مجرد الحديث في الموضوع يثير مخاوف المستهلكين ويؤدي الى استيائهم. ويجد الحذر الشديد من اي سياسة مالية تنتهجها السلطة ارضاً يستند اليها في الذكريات الاليمة التي تبعثها الاصلاحات المالية السابقة ١٩٤٧و١٩٦٢، حيث تمت عملية نهب الناس بطريقة مخزية. فكل تغيير

للاسعار ضد ارادة الناس يبدو مثقلاً بالنتائج الوخيمة، وكما يلحظ شمليوف«فهاهنا مثل هانغاريا الايجابي ومثل بولونيا السلبي». فولادة «التضامن» لا تنفك أبداً عن فشل الحكومة البولونية المتكرر في محاولتها تحديد «حقيقة الاسعار». كما ان شمليون يعيد ايضاً الى الاذهان التجربة الصينية، حيث لم يباشر باصلاح اسعار المفرق الا بعد ثماني او تسع سنوات، كانت الاوضاع خلالها قد تغيرت رأساً على عقب. وبعد أن أصبحت السوق الاستهلاكية مشبعة، ولكنه رغم ذلك، لم يتحقق لا بساعة او يوم بل جرى تقسيطه على خمس سنين(٤٧).

وقد وجد الاصلاح المالي، الذي كان ضرورياً نفسه امام عائق جديد وهام، في تشرين الاول ١٩٨٨ اعلن رسمياً، في الاتحاد السوفياتي، عن وجود عجز في الموازنة يصل الى حدود ٥٨ مليار دولار. ويشير عالم الاقتصاد الاميركي جودي شيلتون الى أن الخبراء الروس الذين يزورون واشنطن يسرونه بان الرقم الحقيقي يصل الى ثلاثة اضعاف ما تورده المعلومات الرسمية. في كانون الثاني ١٩٨٩صححت موسكو إحصاءاتها. ووفق الحسابات الجديدة سيبلغ العجز السوفياتي عام ١٩٩٠، ١٦٢ مليار دولار، اي ما يعادل ١١ بالمائة من الدخل القومي. فيما يقدر ان يصل العجز الى ١٤٠ مليار دولار اي٤ بالمائة من الدخل القومي(٤٨)، في الولايات المتحدة، عام ١٩٩٠.

تبدو سنة ١٩٨٧ بعيدة الآن، هذه السنة حيث كانت تاتيانا زاسلافسكايا تشدد على اهمية الزمن بالنسبة للاصلاح: «يجب ان لا تجرجر طويلاً ولكن علينا بالمقابل ان لا نسرع الامور». وبخلاف نيكولاي شمليوف ابرزت الاكاديمية زاسلافسكايا فشل التجربة الهنغارية: » «فالتغييرات التي ادخلت (في هنغاريا) على الآلية الاقتصادية لم تستند الى اي نسق وكانت متباعدة جداً في الزمن، وهي لذلك لم تسمح، برأي الخبراء، بالحصول على تحسنٍ ملموس في نظام الادارة الاقتصادية وقد انتفضت من فعالية العملية الاصلاحية بمجملها». وتصر تاتيانا زاسلافسكايا على ضرورة اجراء «تغيير شامل في نظام العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية خلال عام او اثنين او ثلاثة على ابعد حد»(٤٩). في كانون الثاني ١٩٨٩، وبعد ان لاحظ ان سنة ١٩٨٩ لم تتميز «بيريسترويكا» بنيوية في مجال الاقتصاد، اطلق فاسيلي سيليونين هذا التحذير: لقد فوتنا علينا اللحظة المناسبة «والعد العكسي هو الآن بالاشهر وليس بالسنين»(٥٠).

في شباط ١٩٨٩، قدر الاكاديمي ابالكين ان النتائج الايجابية الاولى«للبريسترويكا» لن تصبح ملموسة قبل ١٩٩٥. وهو يضيف: «اما الآن فلسنا هنا بعد»(٥١). وخلال صيف ١٩٨٩، ثبت ليونيد ابالكين، الذي كان قد وجه له الزعيم في السنة الماضية انتقادات حادة، في منصبه كنائب اول للوزير متولياً مهمة. تنفيذ الاصلاح الاقتصادي. وها هنا مؤشر على التخلي عن الاستراتيجية السابقة، اذ كما ورد عن الاكاديمي في تموز ١٩٨٩ «خلال خمسين شهراً لم نفعل اي شيء».

في نيسان ١٩٨٩ لحظت اللجنة المركزية، في جلسة مكتملة، عقدتها تماماً بعد اربع سنوات على اقرار برنامج غورباتشيوف، تحت شعار القفزة الكبرى الى الامام: انه خلال هذه السنوات الاربع لم يقفز الاقتصاد السوفياتي، في احسن الاحوال، الا مراوحاً مكانه على حافة الهاوية. اما «اعيان» الحزب، خاصة هؤلاء الذين هزموا في انتخابات نواب الشعب والذين شعروا انهم وقعوا ضحية «التطهير» الغورباتشيوفي فقد اشتكوا من الانهيار المفاجيء والحاد الذي اصاب الوضع المادي للطبقة العاملة. ويعطي بولوزكوف السكرتير الاول للحزب في منطقة كراسنودار، (الجار القديم «لاقطاعة» غورباتشيوف في ستافروبول) صورة مثيرة عن الوضعية السائدة في البلاد: أن لا توجد زبدة في المخازن، فإن الناس تفهم ذلك جيداً. ان تختفي احذية او عربات للاولاد او دراجات، قد يتفهم الناس ذلك ايضاً، ولكن ان يفتقد الصابون فهذا مالا يريد الناس سماعه اصلاً»(٥٢). يجد سكرتير الحزب اذن من الطبيعي ان «يتفهم الناس» غياب الزبدة في منطقة كرانودار هذه المنطقة الثرية حيث تجري من تحتها انهار من اللبن والعسل. وهو لا يتعجب ابداً من هذا العجز الذي تعاني منه دولة كبرى قامت بثورتها منذ ٧٢سنة والذي يحول دون ان تنتج ما يكفي اطفالها من الاحذية والعربات بل انه يشتكي من نقص الصابون، معتبراً انه مورد للاستياء الشعبي!

وفي الجلسة المكتملة وجه امناء الحزب اصابع الاتهام الى البريسترويكا التي قوضت سلطتهم، وبالنسبة لهم كان الهدف من الاصلاح الاقتصادي، الاعتداء على صلاحياتهم. وقد اعتبر ميلينكوف ان هزيمة رجال الحزب في الكوزباس هي هزيمة«جميع الممثلين العماليين لملايين الاشخاص في الطبقة العاملة»(٥٣).

إن مقاومة جهاز الحزب للحؤول دون ادخال عناصر السوق في الاقتصاد الاشتراكي

ليست جديدة. ففي منتصف العشرينات تصاعدت المقاومة، المناهضة للستالينية، في مواجهة الاقتصاد السياسي الجديد، وذلك باسم مصالح الطبقة العاملة. فالـ N.E.P كانت قد افسدت الى حد بعيد وضعية البروليتاريا، «الطبقة ذات السيادة» وهو اللقب الذي اعطي لها رسميا. فقد أدى، اعتماد التمويل الذاتي والروبل الثابت ومبدأ مردودية الانتاج الى انخفاض مستوى حياة الطبقة العاملة والى ظهور عدد كبير من العاطلين عن العمل. الى ذلك كان التململ العمالي يتغذى من رؤيتهم لتحسن وضع الفلاحين، الذين أعطوا الحق ببيع منتجاتهم في السوق ولولادة جماعة من «حديثي النعمة». «النبهان» (رجال الـN.E.P). واليوم تستعاد حرفياً الحجج التي يقدمها مناهضو اصلاح الاسعار، وهي القاعدة الاساسية لاحداث تغيير جذري في النموذج الاقتصادي، تلك التي كان تستخدمها المعارضة في العشرينات، والواقع ان الخوف من السوق التي لن تحدد فقط القيمة الحقيقية للمنتجات بل ايضاً لعمل المواطنين السوفيات والتي ستحل حرية الاختيار مكان وصاية الدولة لا يؤرق جهاز الحزب فقط. انها تعني كل الذين يبدون غير مقتنعين بحصول تحسنٍ سريع في الاوضاع والذين يصرون على عدم الاستجابة للوعود، بحياة افضل قليلاً بعد خمسة او عشرة او حتى خمسة وعشرين عاماً. لم يصدق الشعب السوفياتي ان « ارواد هي هنا» وان عليه ان يقفز. اذ كان يطلب منه العمل اكثر وافضل، اليوم، مع وعد بمكافأة بعد ـ بعد ـ غد.

لقد اقترحت الاستراتيجية الجديدة للاصلاح الاقتصادي، والتي اقرت في كانون الاول ١٩٨٩، عبور الهوة بقفزات صغيرة، وخلال فترة لا تتعدى الخطة الخمسة. «سوف يبعث ذلك على الاطمئنان، كما قال ليونيد أبالكين، اذا ما توصلنا خلال خمس سنوات الى تحرير انفسنا من عبء المشاكل المتراكمة في الماضي»[٥٤]. ويلحظ برنامج الانتقال نحو «السوق الاشتراكية» خلال خمس سنوات سلسلة من المراحل التي ستشهد تفكيك نسق التخطيط المركز، رغم انه لا بد من تدعيمه في فترة اولى للافتقاد الى اي بديل له. ويرد المسؤول عن الاصلاح ما يشهده من بطء، ومن بين اسباب اخرى، الى مقاومة الرأي العام الذي يعارض بشكل قاطع، الارتفاع في الاسعار، واتساع الهوة بين الشرائح الاجتماعية. وتبعاً لذلك فإن البرنامج الجديد يؤجل خفض دعم الدولة بالنسبة للمواد الضرورية، اي بتعبير آخر اصلاح الاسعار، الى الخطة الخمسية المقبلة.

وهكذا يؤجل ليونيد أبالكين قدوم «المستقبل المشرق» عدة عشرات من السنين.

وهو يعتبر ان الازمة السوفياتية مردها «غياب التربة الاجتماعية» أي بعبارة أخرى غياب ثقافة خاصة بالعمل بالحياة اليومية والعلاقات بين الناس تكون نتاجاً لزمن باكمله خلال عشرات من السنين، اي غياب ومعرفة ثمينة يتناقلها الناس من جيل الى جيل ثم يلخص الاكاديمي، والنائب الاول للوزير رأيه قائلاً: و«لفقدان مثل هذه التربة العضوية التي تبعث الحياة يتراكم الوحل ويتصلب»[٥٥].

الفصل الثالث عشر
حاجز الملكية الخاصة

«الملكية الخاصة هي، كما هو معلوم، أساس استغلال الانسان للانسان، وقد تمّت ثورتنا، تحديداً، من أجل تصفيتها وتحويل كل شيء الى ملكية للشعب».

ميخائيل غورباتشيوف

ليس لتعجّب السكرتير العام أي حدود. «إن الرفاق في أستونيا احتفظوا لنا بمفاجأة». كان ميخائيل غورباتشيوف يثير هنا المقررات التي اتخذها السوفيات الأعلى لأستونيا في أواخر ١٩٨٨ هذه المقررات، يلحظ غورباتشيوف في خلال اجتماع لمجلس رئاسة السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي، «تدخل في تناقض مع دستور الاتحاد السوفياتي» وتبعاً لذلك «لا بد من اعتبارها خاطئة ودون أية قيمة قانونية»[١]. لقد حاول السوفيات الأعلى في أستونيا توسيع نطاق الحقوق العائدة لجمهوريته.

وقد وجه السكرتير العام، بصفته رئيس مجلس رئاسة السوفيات الأعلى نقداً شاملاً ضد القرار الاستوني إلا أنه أبدى «قلقاً خاصاً» من إقدام الاستونيين على الاعتراف، من بين أشكال أخرى من الملكية، بالملكية الخاصة».

يشرح القاموس السياسي: «هناك شكلان من الملكية: الملكية الاجتماعية والملكية الخاصة. ويرتبط بالملكية الخاصة انقسام المجتمع الى طبقات متنازعة، وهي تسود في النظام العبودي وفي ظل الاقطاع والرأسمالية. أما الثورة الاشتراكية فقد أقامت الملكية الاجتماعية لأهم وسائل الانتاج»[٢] وينسب ميخائيل غورباتشيوف لنفسه ما ينطق به

القاموس من حكمة: «الملكية الخاصة هي، كما هو معلوم، أساس استغلال الانسان للانسان، وقد تمّت ثورتنا، تحديداً، من أجل تصفيتها وتحويل كل شيء الى ملكية للشعب. فأية محاولة للترميم تعني الرجوع الى الوراء... »(٣).

إنها لحظة الحقيقة. فلقد كشف قائد «البريسترويكا» من خلال هذا التصريح ما يكمن في أعماق الاصلاح الاقتصادي الذي يسعى الى تطبيقه. وهو يعبّر دون مواربة: تكمن مهمة «بريسترويكا» العلاقات الاقتصادية تحديداً، في الكشف عن الطاقة التي تختزنها الأشكال المختلفة للملكية الاشتراكية». هنا يقع كل ما يتصف به برنامج غورباتشيوف من التباس: انجاز «إعادة البناء» دون المساس بالأسس. أي الاكتفاء بترميم الصرح القديم.

وتظهر صعوبة الخروج من عملية تربيع الدائرة هذه ـ أي إنجاز الاصلاح الاقتصادي دون المساس باطار «الملكية الاشتراكية ـ بوضوح تام عندما نبلغ المنطقة ـ المفصل بين الملكية الاشتراكية والملكية الخاصة.

إنَّ البريسترويكا» الاقتصادية تستند الى ثلاث نقاط مهمة، الى ثلاثة قوانين أساسية: الأول حول مؤسسات الدولة، والقانون الذي ينظم التعاونيات في الاتحاد السوفياتي الذي أصدر في ٨ حزيران ١٩٨٨ وألحق بالقانون الناظم للعمل الفردي، والصادر في ١٩ تشرين الثاني ١٩٨٦. والأخير حول الاصلاح الزراعي الذي أوردت مبادئه مقررات اللجنة المركزية حول السياسة الزراعية للحزب الشيوعي السوفياتي في ظل الحالة الراهنة، وقد أقر في ١٦ آذار ١٩٨٩(٤).

لقد أثرنا بعض الصعوبات التي تصطدم بها «المؤسسة الحكومية» السوفياتية، عندما تحاول تطبيق قوانين، خضعت منذ دخولها حيّز التنفيذ لعملية تخفيف (تجميل) من خلال العديد من التوجيهات والتعميمات والتعليمات الصادرة عن الوزارات أو عن أجهزة التخطيط. ويتفق علماء الاقتصاد ومدراء المؤسسات وقادة جهاز الحزب على القول بأنه من الصعب أن نلمس نتائج التعديلات التي أجريت على نسق إدارة الصناعة. غير أنَّ الصعوبات التي واجهت تطبيق التمويل الذاتي تبقى داخلية ولا تنفك عن نطاق «الملكية الاشتراكية». أما بالنسبة للقانونين الآخرين اللذين ينتظر منهما حقن الجسم الاشتراكي المحتضر بدم جديد فوصفهما يبقى مختلفاً.

للملكية الاشتراكية كما هو معلوم (والعبارة غالية على قلب الزعماء السوفيات) شكلان: ملكية الدولة (أو ملكية الشعب بأكمله) والتعاونية الكولخوزية. الأولى هي حصة الشعب بأكمله، إنها الصيغة الأهم للملكية الاشتراكية. أما الثانية فهي تتعلق كما يشير اسمها، بالكولخوزات والمنظمات التعاونية الأخرى. وتعتبر ملكية حصرية للدولة، الأرض، باطن الأرض، المياه، الغابات، الوسائل الرئيسية للانتاج في الصناعة، والبناء والزراعة، وسائل النقل والاتصال، أموال المؤسسات الحكومية ذات الطابع التجاري العام أو غيره، عقارات السكن في المدن إضافة الى «كل مال يكون ضرورياً للدولة لتنفيذ المهام المناطة بها».

أما الكولخوزات والتعاونيات فيحق لها أن تتملك «ما يكون ضرورياً لها للاضطلاع بالمهام التي يفرضها عليها وضعها القانوني». ومن المؤكد أنه لا مجال للمقارنة بين الملكيتين. ولكن رغم ذلك وكما هو شائع منذ ١٩٨٧ «فإننا نشهد تقارباً مستمراً بين الاشكال الحكومية والاشكال التعاونية الكولخوزية من الملكية الاشتراكية»[٥]. وهذا يعني أن الدولة تبتلع ببطء ولكن بخطوات ثابتة كل ما لا تستحوذ عليه حتى الآن.

في ١٩٢١ حسّن الظهور السريع للسوق، الحالة الغذائية في البلاد فرغم المجاعة المخيفة التي ضربت مساحات شاسعة، نلحظ في المناطق التي لم تقع ضحيتها، وخاصة المدن الكبرى، وجود مواد غذائية ومنتجات مصنعة كانت قد اختفت نهائياً منذ بداية «القفزة الكبرى نحو الشيوعية». يأمل اقتصاديو غورباتشيوف بحصول المعجزة. فلقد تم إقرار القانون الناظم للعمل الفردي في ١٨ تشرين الثاني ١٩٨٦. وهي تسمح أو «تقبل» كما ورد في النص، بالنشاطات الفردية في مجال الانتاج الحرفي والخدمات وبأشكال أخرى من النشاطات التي تقوم حصراً على عمل المواطنين وأفراد عائلتهم. إلا أن اللجنة المركزية كانت قد أقرت قبل ستة أشهر مشروعاً لعنوان: «اجراءات من أجل تدعيم مكافحة المداخيل غير المرتبطة بالعمل». وبموازاة ذلك، أقدم مجلس الوزراء على إرغام جميع الأجهزة الحكومية، على اتخاذ اجراءات من هذا النوع، لاحظاً عقوبات أشد صرامة لأي مخالفة لأحكام القوانين والأنظمة الخاصة بالعمل الفردي. وقد دخل القرار حيّز التنفيذ، في أول تموز ١٩٨٦. وعندما بوشر بتنفيذ قانون العمل الفردي، في أول أيار ١٩٨٧ ارتسمت معالم الأجواء الجديدة: إنّ

التمييز بين «المداخيل غير المرتبطة بالعمل» وتلك التي تأتي من «نشاط فردي» مشروع تماماً، يبدو شبه مستحيل.

أشار تاسيت Tacite الى أنه كلما زادت الدولة فساداً زادت قوانينها. ومرحلة «البريسترويكا» تأتي كشاهد على صحة ملاحظة المؤرخ الروماني، ففي أول تموز ١٩٨٨، دخل قانون جديد ـ حول التعاونيات ـ حيز التنفيذ في الاتحاد السوفياتي. وهي تنص على تحويل التعاونيات الى «نسق واسع التفرعات، يعاد ربطه عضوياً بالقطاع الحكومي في الاقتصاد، بالعمل الفردي للمواطنين».

متناسين الاستراتيجية المستجدة والتي تعتمد «التقريب» بين هذين الشكلين من الملكية، أكد المشترعون على «أن قانون التعاونيات في الاتحاد السوفياتي يهدف الى احلال المساواة في الحقوق بين القطاع الحكومي والتعاونيات الكولخوزية في إطار الاقتصاد الاشتراكي[٦]. . .».

ثلاث سنوات من النشاط الفردي، وسنة على وجود التعاونيات، لم تعطِ أي نتيجة من الممكن مقارنتها بمرحلة الـ N.E.P ـ فالمعجزة ـ في الوقت الحاضر؟ ـ لم تحصل. وعلى غرار جميع القوانين الأخرى، أعدت القرارات التي تنص على إضافة جهاز جديد الى جسم الاقتصاد الاشتراكي على عجل، وبشيء من قصر النظر الذي يُميّز الاتحاد السوفياتي. ومرة أخرى تبرهن الوقائع على أن الاشتراكية الناضجة تعيد بناء نفسها على طريقتها التقليدية، مقيمة في البداية أكواخاً خشبية مؤقتة أعدت لتبقى على الدوام. حتى أنه يظهر في هذه الحالة المحددة أنَّ الشوائب التي لا تخلو منها القوانين الناظمة للحركة التعاونية، ربما كانت مقصودة. ذلك أن ما يجري هنا يبدو كمحاولة لتطعيم الجسد بجسم غريب.

كان المغامر التافه أوستاب بندر، يشتكي:

لا يُجبني أحد إلا قانون العقوبات الذي لا يُجبني هو أيضاً. ها هنا تحديد ولا أدق للموقف تجاه العمل الفردي (عن الخاص) والتعاونيات. «يكفي أن يُثار موضوع المبادرة الفردية، يتحسّر أحد المراقبين، حتى تبرز سريعاً ومن أعماق الوعي الاجتماعي صورة مقلقة كاريكاتورية: صورة الكولاك الجشع، أو حانوتي «أو خوتني رياد»[٧]، أو صاحب الخمارة ذو الوجه السكير المحمر، الخياط الذي يكثر من الانحناءات على

طريقة الخدم، وبكلمة صورة العدو الايديولوجي الذي يدخل في إطار هذه الكيفية النوعية: «خاص»(٨)!

تأتي الصعوبة في «زرع» الحركة التعاونية، من الضمور الكامل الذي أصاب «المبادرة الفردية». فالتمثيل بالاقتصاد السياسي الجديد (إبان لينين) N.E.P ، الذي لا يتوقف أنصار التعاونيات يتحدثون عنه، ليس إلا وهماً. ففي بداية العشرينات أعاد النظام الاشتراكي الجديد، ولم يمض عليه إلا فترة قصيرة، الاعتبار للمبادرة الفردية، أي أنها لم تكن قد خنقت بعد، وقد كانت تعود للظهور في سلوك الناس عند أية مناسبة سانحة. وهو وهم أيضاً، خاصة لأن الثورة العمالية ورغم ما مارسته من اضطهاد للفلاح الفرد لم تصل بعد الى تصفيته نهائياً، وهذا ما كان يسمح له، ما أن يعطى إذناً بذلك، بانشاء سوق. فالمشكلة تكمن إذن في أن «الخاص» و «السوق» لا يخفيان المستهلكين فحسب، بل أنهما يثيران هذا الخوف نفسه لدى القادة والمشترعين.

إن للقوانين التعاونية، قبل أي شيء، هدفاً «حكومياً»: مراقبة وضبط «الاقتصاد الموازي»، «الأسواق الملّونة»، كما كانت تسمّى، في السبعينات، وجميع القنوات التي تستخدم لرواج البضائع والمال خارج دورة الاقتصاد الموّجه. أما تحسين تموين السكان فلم يُلحظ حتى كهدف ثانوي من قبل المشترع. ففوق التعاونيات والنشاط الفردي يبقى قانون مكافحة المداخيل غير المرتبطة بالعمل مسلطاً وكأنه سيف داموكليس: وحدها إرادة أجهزة الرقابة الحسنة يمكنها حماية المرء من تهمة «المضاربة».

في التقرير حول «مهام الحزب في البريسترويكا الأساسية لادارة الاقتصاد»، الذي يحدد برنامج الاصلاح السياسي، أوكل غورباتشيوف للتعاونيات مهمة الحلول مكان «اقتصاد الظل»(٩).

في آذار ١٩٨٨ وقبل ثلاثة أشهر من وضع قانون التعاونيات موضع التنفيذ، صدر قرار يتعلق بتكليف أعضاء التعاونيات بالضريبة تصاعدياً، ففوق الألف روبل تصل الضريبة الى ٧٠ بالمائة، وفوق الألف وخمساية الى ٩٠ بالمائة. وتكشف المقارنة مع فترة الـ N.E.P صرامة القرار.

ففي عام ١٩٢٦ بوشِرت سياسة تسعى الى طرد «الخاص» تدريجاً الى خارج الاقتصاد الاشتراكي. وبغية تحقيق هذا الهدف تم اللجوء الى الضريبة التصاعدية. وإذا

كانت حصة التجارة الخاصة قد بلغت ٢٥ بالمائة عام ١٩٢٦ فإنها رغم ذلك كانت الضريبة في ١٩٢٦ أدنى بخمس مرات، مما هي عليه في النظام الذي أُقر في ١٩٨٨[١٠].

ولقد أنجز هذا الأمر بوعي كامل. فبوريس غوستيف الذي كان وزير المال في تلك الآونة، وفي مقابلة لمجلة أغونيوك الاسبوعية، لا يخفي مشاعره: «لست ضد أعضاء التعاونيات» قالها مطمئناً، إلا أنه ما لبث ان أضاف: لا تنسوا أن الناس اندفعوا في هذا المجال، قبل أي شيء، من أجل المال». فما من شك بنظره ان المال التعاوني ليس مالاً حلالاً. ويتساءل أحد الصحافيين «لماذا الحديث دائماً عن أن هذا المال لا يكسب بطرق شريفة؟»

أما الوزير فيجيب بكل بساطة «إن عملاً شريفاً لا يجعلك ثرياً»[١١] فالمشترعون يعملون، من خلال قناعتهم أن نظام الضرائب سيخنق التعاونيات المولودة حديثاً، ويساعد على تلطيف الضريبة التصاعدية، مانحين حقوقاً هائلة الى السلطات المحلية، وهم يعرفون جيداً أنَّ العداء تجاه التعاونيات يبقى شديداً جداً في المناطق.

في كانون الأول ١٩٨٨ صدر قرار عن مجلس الوزراء يحد بصورة تعسفية من حقوق التعاونيات، التي نص عليها القانون. إذن لم تمضِ ستة أشهر حتى اتخذ الحزب (المكتب السياسي) والحكومة (مجلس الوزراء) اجراءات خاصة، وذلك بدافع الخوف من المبادرة الفردية. فقد اتخذ مجلس الوزراء قراراً أشار فيه «الى أنه لا يحق للتعاونيات ممارسة النشاطات المبيّنة في الملحق رقم ١، والحال أن هذا الملحق يعود لنشاطات: النشر، والانتاج السينمائي أو الفيديو، ونسخ الأشرطة السينمائية وأشرطة الفيديو، إنشاء مدارس للتعليم العام، تنفيذ عمليات تتطلب سيولة بالعملة الأجنبية. إضافة الى أنه يُحظّر «وضع معايير صحية للبيئة المحيطة بالنسبة للمواد الكيميائية.»، وبعبارة أخرى، القيام بنشاط بيئوي محدد[١٢]. أما المكتب السياسي من جهته، فاعتمد إجراءات تهدف الى مراقبة الأسعار في التعاونيات.

والأسعار التي تتداولها التعاونيات هي فعلياً أعلى بكثير من تعريفة الدولة. وهذا بالطبع ما يفسر استياء المواطنين الذين إعتادوا وضعية، حيث مثلما تقول المزحة: «عندنا لا يوجد شيء، ولكن كل شيء رخيص.» وهذا ما يثير سخط المراجع الرسمية:

«فهل يجوز أن يكسب هذا الرفيق المغمور ستراديغاريوس، نجار الموبيليا القابع في منطقة منسية أكثر مما يكسبه وزير؟» هذا هو السؤال الذي طرحه مستنكراً عالم الاقتصاد ليسيتشكين(١٣).

هذه الأسعار المرتفعة، كانت فعلياً قد نظمت بواسطة الخطط الملحوظة في قانون التعاونيات. وبقدر ما تُحرم هذه الأخيرة، رغم تمتعتها نظرياً بنفس حقوق مؤسسات الدولة، من الاستفادة من نظام التوريد بالجملة، فإنها تتوجه الى شبكة البيع بالمفرق، وهي تشتري كل ما يمكن الحصول عليه من المخازن: من الرز والسكر وحتى المنسوجات وأدوات البناء. وهذا ما يفاقم الندرة غير المتساوية التي تسود «السوق» السوفياتية. ويمكن للتعاونيات أن تبيع إنتاجها، أو تعرض خدماتها بأي سعر تشاء. ومن المفترض مبدئياً أن تلبي التعاونيات، في المقام الأول، أصحاب الأجور المتوسطة، غير أنها في الواقع تتوجه اليوم الى المستهلكين من ذوي الدخل المرتفع.

لقد كشفت التعاونيات فجأة عن وضعية كانت موجودة منذ مدة طويلة غير أنها كانت محتجبة وراء الشعارات: وضعية تتميّز بهذه الفوارق المادية الهائلة التي تقسّم المجتمع السوفياتي. وحتى ذلك الوقت كان الناس يتقبلون امتيازات النومنكلاتورا ـ الشرعية الحاكمة ـ دون حماس خاص ولكن بالمقابل دون نقمة أو سخط. كان الأمر يبدو عادياً. أما التعاونيات فكشفت في الاتحاد السوفياتي الاشتراكي الذي كان يبدو على قاب قوسين من الشيوعية عن وجود أثرياء من أصحاب الملايين. وربما تفسر عبارة ليونيد ابالكين ـ الايديولوجيا تحوّلت الى سيكولوجيا ـ الاستياء الشديد الذي يعم أغلبية السكان، وذلك لأن قاعدة الاشتراكية ـ العدالة المطلقة ـ قد انتهكت. لقد خلقت «البريسترويكا» طبقة من المضاربين والمحتكرين وذلك من خلال التعاونيات. إنهم «علق» يمصون الدماء، هذا ما كتبه مواطن لينينغراد سيدوروف (٣٦ سنة) في إحدى الصحف. إنهم يفسدون روح الشباب وينزعون من الناس معارفهم في ميادين العمل. إننا أمام نوع من إشتراكية التجار القائمة على غرائز المالك الصغير»(١٤). أما ما يقوله بولوكتوف، عامل في تولا، فيتجاوب معه كالصدى: «إذا ظلت الحال على هذا المنوال لن يبقى شيءٌ من الاشتراكية. وهذا ما يسمونه البريسترويكا وإحلال الديمقراطية، إني ضد ذلك بصورة قاطعة. نعم في ظل ستالين لم يكن يليق بالناس أن يقتنوا شيئاً خاصاً بهم، أما في ظل بريجنيف فكان الناس يفكرون على نحوٍ ويتكلمون خلافه

ويفعلون شيئاً آخر. ولكن على الأقل كانوا يعيشون سواسية دون هؤلاء الكريهين من أصحاب الملايين، وربما كانت هناك أخطاء مردها قلة الانضباط، غير أن ذلك لم يكن يعني أن الخط كان عاطلاً. . .»[١٥] ونجد أن بعض الرسائل الى أقسام التحرير في الصحف كانت أقرب الى المواقف الجذرية: فأحد السكان في بلدة من منطقة موسكو كالينيتشيف، يروي كيف أنه «عيّد» عندما قرأ تقرير المحكمة حيث قرأ قصة العم الثري الذي نهبه ابن أخيه. وقد سأل كاتب الرسالة: باسم ماذا كان العم يقتني في شقته أثاثاً قديماً، ولوحات، وما تبقى؟ . . . وهو لا يخفي فرحه من أن ابن الأخ ورفاقه سرقوا قبل السطو على العم سيارة بائعة في كُشك للحم. فمن وجهة نظره لا يخلو هذا النوع من السرقة من «عبرة تربوية»، ذلك أن لا أحد يستطيع متكلاً على أجره أن يشتري سيارة. ومنتقداً كاتبة التقرير تشايكوفسكايا التي تقول: «لا تأخذ ما لا تملك» يقترح كاتب الرسالة أن يصار الى تخليص جميع الناهبين من غنائمهم: التجار وأعضاء التعاونيات إضافة الى الأكاديميين والأساتذة والأدباء والشعراء المشهورين والفنانين والمخرجين، والمدراء والقادة. أي بكلمة جميع هؤلاء من ذوي الأجور المسمّنة». إلا أن كالينيتشيف يتقيد بمبدأ وحيد: يجب أن لا نسرق المحتاجين، فهذا غير شرعي[١٦].

الفكرة عندما تُضبط من قبل الجماهير، تصبح، كما علمنا ماركس، قوةً مادية، وقد كان على حق، وذلك كما يتبيّن من تصرف مسؤولي الحزب في منطقة فولغوغراد، الذين تدفعهم قناعة صريحة، دون أي لبس، الى نهب الأغنياء. فهكذا شكلوا نوعاً من «البوغروم» ضد سكان منطقتهم من الذين أقاموا بيوتاً زجاجية يزرعون فيها البندورة ثم يبيعونها في السوق[١٧]. أو أيضاً لنأخذ مثل سكان مدينة صغيرة في جوار موسكو، فهم قد أضرموا النار في مزرعة خنازير، ناقمين على «البرجوازيين الجدد و «النبهان» والكولاك الذين أطلوا برؤوسهم من جديد»[١٨]، ويروي أحد التعاونيين كيف أنه بعد سرقة تعاونيته «للمرة المئة في الليل»، طلب معونة الميليشيا. فما كان من المايجور، كما هم رجال مهنته، إلا أن صدّه مباشرة قائلاً: «إنه دكانك الخاص، أحمِه بنفسك»[١٩].

في نهاية عام ١٩٨٨ أقدم معهد علم الاجتماع في أكاديمية العلوم على استقصاء رأي الموسكوبيين: «ما هي أهم المشكلات الاجتماعية التي نعاني منها اليوم»؟ كان هذا سؤال علماء الاجتماع. وقد أجابت الغالبية الساحقة من الأشخاص المستجوبين أن «أصل الشر» و «مصدر كل الشرور» و «الداء الذي يعانيه مجتمعنا» يكمن في المداخيل

غير المرتبطة بالعمل: «فاذا حلت هذه المشكلة فسوف يؤثّر ذلك على كل المشاكل الاخرى»، هذا رأي سكان العاصمة الذين كانوا على قناعة تامة بأنه «يكفي ليزدهر البلد، أن يُطرد جميع اللصوص»[٢٠].

وقد كتب اندرييف، الذي سبقت الاشارة اليه: «اننا لا نرفض الدفاع عن التعاونيين لأنه قد توجد تعليمات بهذا الشأن» ثم يوضح: «انهم يدفعون ثمن وضعية فريدة من نوعها، حيث بات ممكناً الهجوم صراحة وعلناً على الملكية ودون آية عقوبة. فقانون الارث عندنا لا يتضمن ما يحضّ على احترام ما يسمّى بالملكية. ولقد احتقرنا هذه الملكية عصراً بأكمله ورمينا بها في مزبلة التاريخ. فهل نفاجأ اليوم إذا ما بدت مزعجة، وأثارت المشاعر الفوضوية الصاخبة»؟[٢١].

إن تبني السياسة الاقتصادية الجديدة N.E.P في ١٩٢١ أدّى هو أيضاً الى تفجّر «المشاعر الفوضوية»، فبروز «النبهان» و «حديثي النعمة» الذين جرت قبل فترة قصيرة تصفيتهم بمباركة من العقيدة الشيوعية، أغرق الناس بالالتباس واليأس خاصة هؤلاء الذين اعتقدوا بضرورة بناء الجنة من أجل الانقياء وأسكرتهم «الفكرة». يصوّر أندريه بلاتونوف في روايته تشيفانغور بأسلوب عبقري هذه القفزة الكبرى نحو السعادة، التي تتحول حكماً الى قفز نحو الموت. شهد النصف الأول من العشرينات، عدا الحلقة الخاصة من أتباع الدين الجديد، جماعات ما تزال تدرك ما هي الملكية. فلا بد من أن تمضي عشرات السنين على بناء الاشتراكية لتحل عقلية «المستوى الواحد» أي ليحل نمط عام من التفكير يقوم على مبدأ:

إن كنت لا أملك شيئاً فلا بد أن لا يملك جاري شيئاً هو أيضاً.

معاينٌ من أشدهم إنتباهاً ونباهةً، يلحظ أناتولي ستريلياني: «هل هناك شيء أقوى من العقل؟ الاهواء». ولهذه الأهواء هنا اسم وهو: الحسد. أما أثر هذا الشعور بالحسد على شعبنا فيذكّرنا أكثر فأكثر بأواخر العشرينات... فلقد تفنّن ستالين وصحبه بإثارة الشعب ضد التجارة، ولكن كان من الممكن أن يوفروا على أنفسهم هذا العناء، إذ الشعب لا يحتاج الى من يدلّه على عدوه فهو يعرفه عن ظهر قلب: التاجر، البائع، التعاوني. وقد كان على استعداد للانقضاض على الـ .N.E.P وخنقها دون رحمة[٢٢].

وتسمح البلدان الاشتراكية بدراسة التحولات التي طرأت على الموقف من الملكية الخاصة، ذلك أن التطور في هذه البلدان لم يكن هو نفسه، وهو لم يحصل فيها بشكل متزامن. وهو يرتبط الى حد بعيد باللحظة التي شهدت القبول «بالدين» الجديد. ومن الممكن أيضاً أن نلحظ هذه الاختلافات داخل الاتحاد السوفياتي نفسه. فجمهوريات البلطيك، التي ألحقت بالقوة بالاتحاد السوفياتي، ما تزال. مثلها، تحتفظ في قانون الموارث بأحكام ومفاهيم إضمحلت في المناطق التي شرعت ببناء العالم منذ ١٩١٧.

وتعاني الآن الايديولوجيا التي بشرت بأفضلية «التنظيم» الاشتراكي على فوضى السوق الرأسمالية، بعض الشيء من الارتداد نحو التعاونيات. أما الاستشهادات المنتزعة من بعض مقالات لينين والتي تستعاد دوماً للدفاع عن فكرة التعاونيات فتبدو ملتبسة ككل كتابات الزعيم الثوري وتسمح بتأويلات شديدة التباين. ولحسن حظها استطاعت الايديولوجيا الماركسية أن تستعين ببعض المفكرين الروس من محافظي القرن التاسع عشر الذين كانوا يلعنون الرأسمالية، ويأملون بأن تتمكن الروسيا من تلافيها. والذين يدافعون اليوم عن فكرة فرادة روسيا أو طابعها الاستثنائي، يشددون على المعنى الاخلاقي الذي تحمله التعاونيات. وفي هذا المجال يلحظ المؤرخ فلاديمير ديمتريانكو بأسى: أن «الفائدة الوحيدة من التعاونيات، في أيامنا هذه، هي في أنها تسمح بجني الأرباح». وهو يعتبر أن هذا أمر ثانوي، أما الجوهري فيكمن في مكان آخر أي تحديداً «في هذا التناغم بين المصالح الشخصية ومصلحة الشعب بأكمله»[٢٣]. التناغم ـ هذه الكلمة ـ المحببة الى أنصار السلافية في القرن التاسع عشر ـ غالباً ما ترد على لسان غورباتشيوف.

وهي تبدو متضادة مع «الاقتصادية» والسوق، وما تقوم عليه من تسابق على المال يجعلها غير أخلاقية. «المركانتي يدفعون البلاد الى الهاوية»، هذا ما قاله ميخائيل انطونوف المؤلف المِهذار صاحب المقالات التي تشهِّر «بالاقتصادية» وبأنصارها: ابالكين وشمليوف وآخرون. ثم يضيف انطونوف أن «للمركانتي من المثقفين» وفي مقدمتهم جميع المختصين بالاقتصاد «الفعالية المشؤومة نفسها، وهي أشد تأثيراً، كونهم يملكون سلاح المعرفة». فما يحفّز على العمل، لا نجده برأي أنطونوف في المال كطُعم جاذب، أو في «فلسفة المعلف البدائية» المفسدة، بل في الحب[٢٤].

وإضافة الى ذلك ترتبط المصاعب التي تواجهها الحركة التعاونية في هذا الوسط الغريب عنها بالموقف الملتبس الذي تتخذه منها المراجع العليا ـ الأمين العام ـ فهذا الأخير لم يتوقف عن الكلام على ضرورة تنمية التعاون ولا يتأخر عن الاشارة الى دورها في تصفية ما يمكن تسميته «باقتصاد الظل»(٢٥). وهو يردد أنه لا بد من تشجيع مبادرات العمال معتبراً أن ذلك ما يجب أن يكون هدفاً للقرارات التي تتناول العمل الفردي والتعاونيات، غير أنه مع ذلك لا يفوته التحذير من «هؤلاء الذين يرون في التعاونيات والعمل الفردي ما يشبه العودة الى ممارسة الاقتصاد الخاص»(٢٦) وبمناسبة الذكرى الرابعة للبريسترويكا، اضطرّ غورباتشيوف للاستماع الى اتهامات من العيار الثقيل موجهة ضد الحركة التعاونية: «زيادة المداخيل غير المرتبطة بالعمل، والتي باتت تتفلت من أية رقابة، مضاربة أصبحت شرعية بحكم الوقت. . .» «والأجور في التعاونيات تتسلق صعوداً باندفاع أشد مما هي عليه في القطاع العام الحكومي. ولهذا السبب بالذات نرى أن اليد العاملة الماهرة تغادر المؤسسات الصناعية وورش العمل والفروع الأخرى من الاقتصاد الموجه لتتدفق على التعاونيات»(٢٧).

وعندها اعترف الأمين العام بالأخطاء «التي ارتكبناها» وتعهّد: «كان علينا أن نتنبه الى كل توسيع لنطاق الديموقراطية، كل أنسنة للحياة لا بد من أن يترافق مع حرب دون هوادة ضد العناصر المجرمة. . . علينا جدياً أن نصوّب الرماية».

وقد تبيّن من تجربة العشرينات أن التعاونيات كانت «هدفاً عجيباً للكراهية»، وأنها مشروع دائم لكبش محرقة مثالي، تضحي به السلطة عند الحاجة. وإمكانية تحويل التعاونيات الى قرابين غفران تذبح بين أرجل المستهلكين الساخطين، تبقى واردة من خلال ما يعتمده الحزب والحكومة من أحكام ترعى نشاطها.

تثير التعاونيات حقد المستهلكين عندما تتسبب بارتفاع الأسعار، وهي تثيره أكثر عندما تتسبب بانخفاضها، وذلك لأنها تصبح والحالة هذه منافسة للدولة. ويستنتج الخبير الاقتصادي غفرائيل بوبوف من ذلك، أنه «إذا كانت أسعار التعاونيين أدنى من أسعار الدولة. . . فحينها يتعرض النظام برمته للخطر». إذ الأسعار التعاونية المنخفضة تُبيّن أن الجهاز الذي يضبط اقتصاد الدولة، عديم الجدوى. ويعتبر بوبوف أن الجهاز يقود حرباً دون هوادة ضد أية محاولة من قبل التعاونيين لتثبيت الأسعار المتدنية، وهو

يشجع على «إخفاء» السلع الرخيصة، ويرى في ذلك إحدى المشاكل الأساسية التي تطرحها البريسترويكا»(٢٩).

إن النتائج الأولى التي توصلت إليها جهود الحزب والدولة لانماء التعاونيات بقيت ممهورة بالالتباس نفسه. فمن جهة نلحظ نمواً سريعاً لعدد التعاونيات، الذي زاد بين تموز ١٩٨٧ وتموز ١٩٨٨ عشرة أضعاف: من ٣,٧٠٩ الى ٣٢,٥٦١(٣٠). وفي ١ تشرين الأول ١٩٨٩، كان قدد إزداد أكثر من ثلاثة أضعاف في سنة واحدة، أما عدد مستخدميها فقد ضُرِب بخمسة.

أما حصة المداخيل (أعمال، خدمات)، من الناتج الوطني غير الصافي فلم تكن في ١٩٨٨، تتخطى واحد بالمائة. أما في ١٩٨٩ فقد بلغت استناداً الى المعطيات الرسمية ٥ الى ٦ بالمائة(٣١). ومن جهة أخرى، فإنه نمو موهوم، إذ أربعون بالمائة من التعاونيين المسجلين في نهاية ١٩٨٨ لم يكن لهم وجود إلا على الورق. والواقع أن التعاونيات المسجلة كانت بغالبيتها التعاونيات الصغيرة التي تجاوزها الزمن من الناحية التقنية، والتي لا تمتلك أي وسائل مالية أو أية اعتمادات، وهي تعاني من اضطهاد السلطات المحلية والمؤسسات التي ترتبط بها. أما تلك التي تعمل في ميدان التجارة وإعادة البناء فلا تتجاوز ١٩ بالمائة، معظمها في خدمة الدولة(٣٢). مشيراً الى أحد محاوريه، يلخص أناتولي ستريلياني المناقشات حول التعاونيات بالآتي: «أن نقرر، حتى وإن ديموقراطياً وبمشاركة النواب والنقابات ماهية التعاونيات التي نحن بحاجة إليها، هو أشبه بأن نقرر عن زوجين شابين ـ وبصورة ديموقراطية جداً مع زملاء العمل ـ حول عدد الأطفال الذين سينجبانهم لنا: جنسهم، مزاجهم، لون عيونهم وشعرهم، ومتى...»(٣٣).

هناك مأخذ يوجه باستمرار الى التعاونيات لقد أدّى ظهورها «الى أشكال جديدة من الجرائم الدنيئة، وهي أشكال لم تكن موجودة عندنا في الفترة السابقة. إنها المافيا والابتزاز والحرائق الاجرامية المفتعلة، والمال «المبيّض» <blanchi>»(٣٤).

ومن الواضح بالفعل ـ ويأتي العديد من المجلات والمقابلات مع الخبراء لتأكيد ذلك ـ إن التعاونيات قد أعطت للجريمة المنظمة إمكانيات جديدة. غير أن الجرائم كانت موجودة أصلاً قبل انطلاقة الحركة التعاونية. ولكنها لم تتخذ شكل المافيا المنظمة

إلا منذ ثلاثين عاماً. ولقد أدخلت الغلاسنوست الى المعجم السوفياتي مفاهيم لم تكن ترد في السابق إلا في الافلام التي تظهر فساد الرأسمالية وتحللها: مافيا، ابتزاز، عصابات لصوص. وقد لحظ أحد الصحافيين الذين ينكبون على هذا الموضوع الذي أصبح ذا شعبية واسعة: «عندما كنا أطفالاً، عرفنا أن العصابات لا يمكنها أن تتواجد إلا وسط غابة الباطون في شيكاغو. وها اننا علينا القبول ـ بصعوبة ـ ان مجتمعنا لا يمتلك مناعة طبيعية ضد المافيا أو أن الأمر قد يكون على العكس من ذلك» هذه الـ «على العكس» تعني أن «مجتمعنا» أي النظام السوفياتي حيث الحزب والإقتصاد لا ينفكان عن بعضهما، وهو يضبطه ويقوده، قابل للافساد بسهولة فائقة وهو يتحول الى مافيا.

إن الجهاز القائد بات على علاقة بالجريمة المنظمة. في أواخر ١٩٨٨ كان يوجد، وفق الاحصاءات الرسمية، «ما يقارب الثلاثين جهازاً لمراقبة التجارة»، وكذلك يوجد عدد أكبر لمراقبة وضبط التعاونيات ومكافحة «المضاربة» و «الجرائم» المتعددة الناتجة عن القحط وعن القوانين السوفياتية. وفي بداية ١٩٨٩ أضافت النقابات حلقة جديدة على «النسق الموحّد للتدقيق»: الرقابة العمالية. ويُلحق المراقبون العمال (ما يقارب الأربعة ملايين)[٣٥] بمجالس النقابات أو المجالس المستقلة في الادارات الرسمية. وهم يتعاونون مع وزارة الداخلية ويتولون السهر على العدالة الاجتماعية، وفي العشرينات كان هذا النوع من الرقابة مؤمناً من قبل «وحدات الخيالة الخفيفة» المؤلفة من أعضاء الشبيبة الشيوعية والتي تعمل بناء لأوامر الحزب.

إن ضرورة تدعيم الرقابة والضبط واضحة جداً. هذا الاكتشاف يعود للينين: «مراقبة الناس وضبطهم والتحقق من التنفيذ ـ في الواقع ـ تلكم هي، أيضاً وأيضاً، محور عملنا ومرتكز كل سياستنا». مشيرة الى هذه العبارة، أكّدت البرافدا على الضرورة المطلقة للتوفيق بين «الغلاسنوست وفعالية الرقابة ـ الضبط» وأيضاً على «العودة الى مبادىء لينين للرقابة من قبل الشعب بأكمله[٣٦]».

الشعب بأكمله يراقب الشعب بأكمله. تلك هي الوصفة الجديدة الشائعة لزيادة مردودية النسق السوفياتي، وصفة اكتشفت بعد خمس سنوات من ممارسة «البريسترويكا».

الفصل الرابع عشر
الجدار الزراعي

«لقد دمرنا الفلاحين»

ميخائيل غورباتشيوف

تدمير الفلاحين يثير هنا آلية لتمدين البلاد لا تترافق مع تقدم حضاري، يعترف ميخائيل غورباتشيوف بالـ «نحن» وهذه «النحن» تعني الحزب، الحزب الذي قضى على الفلاحين بوصفهم صِنف (أهل حرفة) له علاقة خاصة بالأرض، وفهم خاص للطبيعة.

جاء هذا التصريح، وليس بدون مصاعب، بعد سنتين على بدء الاصلاحات. أن تدمير الفلاحين يعني تحويلهم الى كولخوزيين أي الى عمال زراعيين لا علاقة لهم بالفلاحين الغابرين.

غير أن ميخائيل غورباتشيوف لم يكفّ عن اعتبار التأميم كإجراء بالغ الأهمية وذات منافع عظيمة، ثم ان السكرتير العام، بعد أن أقام جردة حساب لسبعين عاماً من عمر السلطة السوفياتية، صرح بأن «نهج الصراع ضد الكولاك صحيح بذاته». غير أن الخطأ الوحيد الذي ارتكب كان في «تأويله من خلال تحميله معنى واسع جداً الى حد جعله يتضمن أيضاً قسماً مهماً من الفلاحين المتوسطين». إلا أنه، رغم ذلك، وبعد تقييمه «أجمالاً دور التأميم في تدعيم الاشتراكية في الريف» رأى غورباتشيوف في هذا التأميم «انعطافاً أساسياً. فلقد غيّر التأميم جذرياً نمط حياة الجماهير انطلاقاً من المعايير الاشتراكية. كما أنه أرسى القاعدة الاجتماعية الضرورية لتحديث القطاع الزراعي، الذي وضع من الآن فصاعداً على سكة الاستثمار الحضاري، إضافة الى كونه سمح برفع الانتاجية وتحرير جزء هام من اليد العاملة التي تبدو ضرورية في المدارات الأخرى لعملية البناء الاشتراكي»[1]، إلا أن غورباتشيوف وبعد سنة على هذا الكلام،

وإقرار الاجراءات الجديدة التي تهدف الى تحسين وضع الزراعة السوفياتية، سيلجأ في الحديث عن التأميم الى لهجة تكاد أن تكون رثائية: «مر زمن حيث كان من الضروري تاريخياً أن «نضغط»، كما يقال، على القرية، أن نستخدم جميع مواردها لخلق طاقة صناعية»[٢].

ان الثناء على التأميم والرفض الحاسم لادانة، ليس ما ارتكب باسمه من تجاوزات، بل حتى السياسة التي ينتهجها الحزب للقضاء على الفلاحين، كانت تتنازع في وعي الأمين العام، مع ما يجب اتخاذه من اجراءات. في أواخر ١٩٨٧ كان لم يزل بامكانه أن يصرح بلهجة الرضى: «لقد نجحنا بحصاد أكثر من ٢١٠ مليون طن من الحبوب، تلك هي ثمرة الجهود الهائلة التي بذلها شعبنا وما قام به حزبنا لتثميرها بطرق جديدة!»[٣] ولكل واحدٍ أن يضيف من جانبه: ثمرة القيادة الدينامية الجديدة! ولكن بعد مضي سنة واحدة سوف تنحسر موجة الرضى هذه وتزول: فمحصول ١٩٨٨ قدد تدنّى الى ١٩٥ مليون طن.

ونكتشف الدلالة الحقيقية لمفهوم «تدمير الفلاحين» من خلال رأي هذا الأميركي الذي يبيع الحنطة للاتحاد السوفياتي. وهو على اطلاع عجيب على كل ما يتعلق بنظام الكولخوز والسوفخوز. فرداً على السؤال الذي طرحه عليه رئيس أحد الكولخوزات: «هل سنستمر طويلاً بشراء الحبوب من الولايات المتحدة؟» أجاب: «نعم، دائماً!» ثم انه استدرك، حرصاً منه على عدم جرح شعور مكلمه، وشرح له «أنه من مصلحة الروس أن يشتروا ما ينتجون بشكل سيّء، ليتخصصوا بما ينجحون في صنعه»[٤].

إن البلد الذي يتصرف بأكبر مساحة صالحة للزراعة في العالم مضطر الى الأبد لشراء حنطته من الخارج.

وفي آذار ١٩٨٩، أي أربع سنوات على توليه السلطة لحظ غورباتشيوف: «هذا هو الواقع: إنَّ إنتاجنا الزراعي غير كافٍ»[٥].

في الستينات حيث كانت «الاذاعة الارمنية» المعلق الأفضل على ما يدور في البلاد، راج هذا الحوار في الأوساط الشعبية الى أقصى حدود: «هل يوجد مخرج لوضع بلا مخرج؟ ـ لن نجيب على الأسئلة المتعلقة بالزراعة».

والمشكلة لا تبدو بذاتها معقدة بصورة خاصة. إنها كما يتبيّن من التاريخ غير قابلة للحل. وبالفعل كيف يمكن التوفيق بين المصالح الجماعية والمصالح الفردية، كيف يكون الكولخوزي المستعبد قادراً على تغذية الدولة دون أن يموت هو نفسه من الجوع؟ إن تحويل الفلاحين الى أعضاء في الكولخوز حلَّ الشق الأول من المشكلة: فالدولة تحصل الآن عيناً على منتجات زراعية هي فعلياً ما تحول إليها من كل ما يمكن أن تنتزعه من أعضاء الكولخوز. وتبقى الاجابة عن الشق الثاني من السؤال: ما هي الكمية التي لا بد من تركها لهم ليبقوا على قيد الحياة؟.

عام ١٩٣٥ أشار ستالين، وهو يبشّر بالنصر ـ ٩٠ بالماية من الفلاحين يعملون في الكولخوزات ـ إلى أنه لا بد من الأخذ في الحسبان «عدا المصالح المشتركة بين أعضاء الكولخوز، المصلحة الفردية...»

وكان الرفيق ستالين يشعر بالاستياء إذ البعض يرى أنه لا يجب اعطاؤهم بقرة والبعض الآخر أنه من غير المناسب أن يقتنوا خنزيرة. والواقع أنكم اجمالاً تريدون سحق الكولخوزي. لكن ذلك لن يمر، أنه غير عادل».

وهكذا دون توجيه صريح صادر عنه. كان يكشف عن مبدأ جوهري في النظام السوفياتي: إن إرادة الزعيم هي التي تحدد السياسة بما فيها السياسة الزراعية. فمنذ سنيّه الأولى في السلطة لطّف نيكيتا خروتشيوف كثيراً حياة الكولخوزيين. إلا أنه عندما تبيّن له أن ذلك لم يدفعهم أبداً الى زيادة الانتاج، وهو ما كان يأمله، إستنتج أن قصع الأرض الفردية هي التي تعيق عمل الكولخوزات. وهكذا أقدم خروتشيوف على منع اقتناء البقر والخنازير التي سمح ستالين بها. أما بريجنيف فترجّح بين المنع والترخيص.

ان لكل زعيم وصفته للاجابة على تربيع الدائرة الزراعية. وتسمح التصاريح العديدة التي أدلى بها ميخائيل غورباتشيوف بتكوين فكرة عن وجهة نظره بهذا الموضوع. إن رأيه يثير الاهتمام. وذلك، من ناحية، لأنه يتولى الآن، بعد أن أصبح زعيماً، تحديد السياسة الزراعية، ومن ناحية أخرى كونه خبيراً في هذا المجال: ألم يتولّ إدارة منطقة زراعية ـ منطقة ستافروبول ـ طوال ما يقارب التسع سنوات، ثم ألم يكن مسؤولاً خلال أكثر من ست سنوات بوصفه أميناً للجنة المركزية عن الزراعة في كل البلاد؟ وأكثر من ذلك، فهو عندما كتب سيرة حياته متوجهاً الى قراء الازفستيا لم تفته

الاشارة الى: «عندما وجدت نفسي مضطراً الى التعاطي بكثافة بالشؤون الزراعية، تابعت بالمراسلة الدروس التي تعطيها كلية الاقتصاد في المعهد الزراعي، وهذا ما شكل استكمالاً جيداً لدراستي القانونية»[٦] فما من أحد بين أسلافه كان له مثل هذه المؤهلات لمواجهة وحل المسألة الزراعية في الاتحاد السوفياتي.

ولا تدع النصوص والخطب العائدة لميخائيل غورباتشيوف، قبل انتخابه لمنصب الأمين العام أي شك: هذا الخبير الكبير في شؤون الزراعة السوفياتية راضٍ تماماً عن الوضع. وقد أعلن في نيسان ١٩٧٨ أن عمال الأرياف راضين: «فالسياسة الزراعية التي صاغها الحزب خاصة انطلاقاً من اجتماع اللجنة المركزية المكتملة في آذار (١٩٦٥) أثبتت فعاليتها»[٧]. ومرت السنون، وقد دفع الركود، حتى بعد أن أصبح اليوم عرضة للتهزيء، الوضع الى قاع الهزال؛ غير أنَّ الأمين العام اعتبر رغم ذلك، عام ١٩٨٢، أن الكولخوزات والسوفخوزات تؤمن الشروط الضرورية لاستخدام فعّال للأرض ولوسائل الانتاج الأخرى، وبخلق الشروط الملائمة للعمل، وللحياة، وللنمو الروحي لدى عمال الريف[٨]. ثم يشدد: «لقد أثبتت الحياة فعالية السياسة الزراعية التي أنتهجها الحزب»[٩].

يمتلك ميخائيل غورباتشيوف حجة رائعة للتدليل على ما حققه القطاع الزراعي من انجازات في إطار اقتصاد البلاد: الاحصاءات. ويكفيه أن يقيم بعض المقارنات: «ان معدل نمو الانتاج الزراعي هو أعلى في بلادنا من البلدان الرأسمالية المتطورة، (بالنسبة للسنوات ١٩٦١ ـ ١٩٦٦٥ يمكننا اعطاء الأرقام التالية العائدة للسنوات ١٩٧٦ ـ ١٩٨٠: ١٥٠ بالمائة للاتحاد السوفياتي، ١٣١ بالمائة للولايات المتحدة، ١٢٥ بالمائة لألمانيا الاتحادية، ١٢٧ لانكلترا»[١٠].

ولا بد هنا من التذكير مرة أخرى، بأن هذا الارتفاع الذي لا مثيل له قد حصل في فترة الركود. والأرقام المشار إليها قدمّها غورباتشيوف في إطار حلقة دراسية للعمال الايديولوجيين انعقدت في موسكو في نيسان ١٩٨٢. وهو سيعطي، في مقالة نشرتها مجلة (مشكلات السلم والاشتراكية) خصيصاً للرفاق الأجانب، احصاءات أفصح وأبلغ: «خلال السنين الخمس عشرة الأخيرة زادت المحاصيل السنوية الوسطية من الحنطة ٥٧ بالمائة في الاتحاد السوفياتي وتخطى معدل نمو الانتاج الزراعي مرة الى مرة

ونصف مثيله في بلدان السوق المشتركة والولايات المتحدة»(١١). ففلا عجب إذن من أن يعتبر غورباتشيوف البرنامج الغذائي في الاتحاد السوفياتي كإسهام هام «في حل المشاكل الغذائية في العالم»(١٢).

هكذا استمر غورباتشيوف في نظرته الوردية الى الزراعة بعد انتخابه الى موقع الأمانة العامة. وقد أوضح في أيلول ١٩٨٥ «أن تفاؤلنا يقوم على ما يحتويه نسق الاقتصاد الاشتراكي من إمكانيات هائلة. هذا النسق يسمح لنا بطريقة موجهة، بحل المشاكل الاقتصادية المطروحة وأن نلعب بمواردنا، أي أن نركزها ونوجهها في خدمة المهام التي تقتضيها اللحظة الراهنة. هكذا نتصرف في هذه السنوات الأخيرة عندما نقوم بتطبيق سياستنا الزراعية، وعلنيا مستقبلاً أن نستمر في ممارستنا لهذا الخط عملياً»(١٣). هل يبدو هذا التفاؤل الغورباتشيوفي، الذي لا يتزعزع، طبيعياً: ألا يتكلم فعلياً عن نفسه وعن قيادته؟ أنه هو الذي «يلعب»، «يركز»، «يحل». غير أن هذا لا يبدو كافياً. ذلك أن ها هنا يوجد لازمة في تصريحاته حول الزراعة: أنه متيقن تماماً من إمكانيات النسق الاشتراكي، ومن إمكانيات الكولخوز والسوفخوز. وهو لم ينِ يردد: إن جميع المسائل، جميع المشاكل التي تطرح، من الممكن أن تحل من خلال زيادة الاستثمارات الزراعية وتحسين سبل التخطيط على «قاعدة علمية صارمة» ومن خلال تطوير الاستصلاح والسبل الكيميائية. وقد قام غورباتشيوف في مذكرة وجهها الى اللجنة المركزية في أيار ١٩٧٨ ـ وهي. ربما كانت وراء ترسيخ قناعة بريجنيف بوجوب تعيين سكرتير ستافروبول سكرتيراً للجنة المركزية في موسكو ـ بصياغة برنامج «لبعض الاجراءات لوضع أسس ملائمة لتنفيذ سياسة الحزب الشيوعي الزراعية في الظرف الراهن». وتهدف جميع هذه الاجراءات الى تحسين سياسة الحزب من خلال «تحسين التخطيط الزراعي»، وذلك من خلال استخدام أكثر عقلانية للأرض والماء والتقنيات والأسمدة المعدنية والموارد من اليد العاملة وغيرها... في إطار الكولخوزات والسوفخوزات نفسها»(١٤).

في ١٩٨٠ تكلم غورباتشيوف من على كرسيه كمسؤول عن الزراعة في جميع أنحاء البلاد مظهراً رضاه «لما عرفه استخدام الوسائل الكيميائية في الزراعة، من اتساع» إضافة الى التطور الهائل والبالغ الأهمية الذي تميّزت به القوة المنتجة في الزراعة، والى «برنامج إستصلاح الأراضي»(١٥). في ١٩٨٥ لم يكن غورباتشيوف قد بدل رأيه: «إننا قطعنا

مسافة لا بأس بها من الطريق عندما طبّقنا البرنامج الاستصلاحي العظيم في الميدان الزراعي. وسوف تستمر هذه الأعمال في الاتساع على قاعدة الخطط التي تم تصميمها وإقرارها»(١٦) عام ١٩٨٢ اعتبرت السياسة الزراعية للحزب ـ بما في ذلك التعديلات التي اقترحها غورباتشيوف وأتى بها ـ كمرحلة جديدة من تطبيق خطة لينين التعاونية»(١٧) وقد تحول البرنامج الغذائي للاتحاد السوفياتي الذي أعد تحت إشراف غورباتشيوف وأُقر في ١٩٨٢ في أحد تصريحاته (نيسان ١٩٨٣) الى «التجسيد الحي لأفكار لينين حول صلابة المخزون الغذائي في البلاد وتقدم الريف على جميع الأصعدة»(١٨). في شباط ـ آذار ١٩٨٦، انعقد المؤتمر السابع والعشرون للحزب، وكان الأول حيث قدم الأمين العام الجديد برنامجه. إن السياسة الزراعية للحزب، التي تمت صياغتها في أيار ١٩٨٢، وعكسها بأمانة البرنامج الزراعي، لا تحتاج لأي تعديل. يكتفي غورباتشيوف، إذن، باقتراح بعض الاجراءات الجديدة التي تهدف الى «حل المسألة الغذائية» ضمن مُهل قياسية. وقد قرر المؤتمر بداية انشاء سوبر ـ وزارة تكون مسؤولة عن الزراعة وتجمع حوالي عشر وزارات، إنها اللجنة الزراعية ـ الصناعية الشهيرة التي يديرها زميل غورباتشيوف القديم في ستافروبول موراخوفسكي، الذي كان حينها نائب رئيس الوزراء، ومن مهام اللجنة الأولى أن تهتم باستخدام «التقنيات المكثّفة»، والتقليل من خسائر الانتاج أثناء عمليات الحصاد، والنقل والتخزين والتحويل» ويقدر أن هذه الخسائر تصل الى ٢٠ أو حتى ٣٠ بالمائة بالنسبة لبعض أنواع الحنطة. ويكمن الجديد، ولنستخدم هنا الصيغة الواردة في تقرير غورباتشيوف، في «تطبيق المفهوم اللينيني للضريبة العينية ضمن الأوضاع الراهنة».

والواقع أن لينين أسس عام ١٩٢١ الـ N.E.P انطلاقاً من رفض مصادرة إنتاج الفلاحين مفضلاً فرض ضريبة معينة، وكل ما يتبقى بعد أداء الضريبة كان من الممكن بيعه في السوق الحرة. وتفترض الضريبة العينية الجديدة، كما يعرضها الأمين العام، إعداد خطة صارمة وثابتة لكل عام من الخطة الخمسية لشراء الانتاج. وكانت خطط الشراء توضع قبل هذا القرار الذي اتخذه المؤتمر السابع والعشرون على أساس المواسم التي يتم الحصول عليها: فكلما كانت مهمة في كولخوز معيّن كانت خطة الشراء مهمة هي أيضاً.

الآن فصاعداً كل شيء بدأ يتغيّر. أي أن كل ما يفوق ما هو ملحوظ في الخطة

يمكن استخدامه كما يحلو للكولخوز: أي أنه يمكن لهذا الأخير أن يقرر أن يبيع هذا الفائض للدولة أو في السوق أو توزيعه بين الكولخوزيين. وقد أشار موراخوفسكي في مداخلته أثناء المؤتمر الى دور السوق الاشتراكية في زيادة حجم الانتاج وتحسين نوعيته. وقد طمأن المندوبين: «ليس ها هنا ما نخشاه. فحدود السوق تبقى مرسومة في إطار النظام الاشتراكي والموقع ـ المفتاح الذي تحتله الدولة في الانتاج والتوزيع»(١٩).

في حزيران ١٩٨٧ استمر ميخائيل غورباتشيوف بالتأكيد على: «اننا نمتلك إمكانيات فعلية تسمح لنا بتغيير الوضعية التموينية بصورة جدية في خلال السنتين أو الثلاث المقبلة»(٢٠) غير أن تلك الفترة هي التي شهدت بداية البحث عن اجراءات إضافية «لتنظيف» القطاع الزراعي. وهذا ما كان ضرورياً بقدر ما تبيّن أن المداخيل، إذا ما لُحظت عن قرب، ليست غير فعالة فحسب بل مشؤومة، وقد أشار رجال الاعلام إلى الخراب النهائي الذي أصاب التربة من جراء برامج الاستصلاح الضخمة»، إضافة الى الكميات الهائلة من المواد الكيميائية المستخدمة. وعندما نعلم أن الصناعة السوفياتية تنتج عدداً من الحصّادات ـ الدارسة يفوق بست عشرة مرة ما تنتجه الولايات المتحدة منها، و ٦,٤ مرات من الجرافات، فإن الدعوات الى تكثيف المكننة تصبح ضرباً من العبث(٢١).

تصوّر أسلاف غورباتشيوف بدءاً من ستالين، أن الاستثمارات الفردية الملحقة التي يقوم بها الكولخوزيون قد تكون متممةً للانتاج الزراعي. ورغم تقلب مواقف الأمناء العامين من هذه الاستثمارات ـ فمرة يسمح بالاستثمارات الفردية ثم تمنع مرةً ثانية ليمدُّ منها مرة» أخرى ـ فإنها كانت مصدراً لجزء مهم من كميات البطاطا، والخضار ومختلف أنواع الحنطة. أما غورباتشيوف فلم يكن ينظر أبداً بعين الرضى الى هذه الاستثمارات الفردية.

إلا أنه عاد واعترف في عام ١٩٨١ بأنها لا تخلو من «بعض الأهمية» حتى أنه تقبّل أن تتعاون الكولخوزات والسوفخوزات معها. «لأنها تستطيع بهذه الطريقة أن توفق بصورة إيجابية بين مصالح الدولة وإنتاج الكولخوز والسوفخوز من جهة والمصالح الفردية للكولخوزيين وللعمال المستخدمين»(٢٢). وإن هذا ما كان يدركه ستالين وهو الذي كان يعلّم أن «التوفيق بين مصالح الكولخوزيين الشخصية ومصالح الكولخوزات

الجماعية هو باستمرار المفتاح الذي يسمح بتدعيم الاستثمار الجمعي»[٢٣]. أما غورباتشيوف فرغم اعترافه بأهمية الاستثمارات الخاصة فإنه يشدد على كونها غير كافية، وهو قد أكد في ١٩٨٣ : بديهي أنه لا يمكننا القبول بما يشاع في الغرب من تنظيرات حول فوائد الاستثمارات الخاصة الملحقة». ثم يضيف: «ان إنتاجيتها لا تتعدى نصف الانتاجية المعهودة في الكولخوز كما أن مؤشراتها تبقى مرهونة بالاستخدام المجاني للأرض والمياه العائدة للكولخوزات . . .»[٢٤]

في تشرين الثاني ١٩٨٨ وبعد شهرين على سفره الى سيبيريا حيث أغرقه الناس بشكاويهم المتعلقة بفقدان الحنطة من المخازن، إنتقل غورباتشيوف الى أوريل. وقد ظهر في البرنامج التلفزيوني المسائي «فريميا» (الزمن) وهو يدردش مع الناس على قارعة الطريق. وقد أكد الشعب للأمين العام أن التموين قد تحسن. مرتاباً من الأمر، أصرّ غورباتشيوف: «حقيقية»؟ بشرفكم؟» وتعالت الأصوات بين الحشد: «كلام شرف، الأمور أصبحت أفضل» يعلم ميخائيل غورباتشيوف أن كل ذلك ليس صحيحاً. وهو لم يتمهل في التحضير لجلسة مكتملة حول المسائل الزراعية.

في ١٦ آذار ١٩٨٩ إتخذت اللجنة المركزية في جلستها المكتملة قراراً «حول السياسة الزراعية للحزب الشيوعي السوفياتي في ظل الأوضاع الراهنة» وكان، قبل سبع سنين، قد اعتمد البرنامج الغذائي للاتحاد السوفياتي محدداً الخط العام للحزب في المجال الزراعي. وقبل أربع وعشرين سنة في آذار ١٩٦٥، دخلت السياسة الزراعية ما ـ بعد ـ الخروتشوفية حيز التنفيذ. كل هذه البرامج انبثقت عن «الانعطاف الكبير» الذي حدد ستالين بايجاز الهدف منه، في كانون الأول ١٩٢٩ : التأميم الشامل وتصفية الكولاك. وقد طبع هذا «المنعطف» «نهاية السياسة الاقتصادية الجديدة» N.E.P، التي أعلنت عام ١٩٢١، والعودة الى السياسة القديمة ـ «الشيوعية الحربية» التي وضعها لينين وفُرضت ما أن أخذ البلاشفة بزمام السلطة.

إلا أن تعدد السياسات الزراعية العائدة للحزب الشيوعي ليس إلا ظاهرياً. والواقع أن ها هنا سياستين، وقد رفض لينين الأولى، وقام بصياغة الثانية، أما ستالين فقد عاد الى سياسة البدايات. ويتضح أنه لم يكن للتحولات المختلفة الطارئة على النموذج الزراعي الذي ولد في زمن ستالين إلا طابعاً «جمالياً» صرفاً، أي أنها لم تكن

تغيرات في العمق، وكذلك هي بالنسبة لاصلاحات خروتشيوف وبريجنيف. وفي تقريره حول السياسة الزراعية الجديدة يقوم غورباتشيوف، متسائلاً «لماذا لم تؤدِ جميع الاجراءات التي إتخذناها . . . الى النتائج المرجوة أو الى إحداث التحولات الضرورية في الأرياف»(٢٥)، باستعادة سريعة لتاريخ مواقف الحزب من «مسألة الفلاحين» وبعد أن حيّا دون مواربة «السياسة الاقتصادية الجديدة» للينين، إنتقد الأمين العام، هذه المرة، التأميم الذي رأى فيه عودة الى «أساليب الوزائع غير الاقتصادية التي كانت سائدة في مرحلة «الشيوعية الحربية». وفي ٢ تشرين الأول ١٩٨٧ اعترف غورباتشيوف في التقرير الذي قدمه بمناسبة الذكرى السبعين لثورة أكتوبر بوقوع «تجاوزات خلال النضال ضد الكولاك» وهو «نضال محق بذاته»، مؤكداً بعد ذلك على أن التأميم قد شكل «منعطفاً أساسياً» ذا «نتائج تاريخية»(٢٦).

في آذار ١٩٨٩، عدّل غورباتشيوف نظرته بعض الشيء: «نجد أنفسناعندما نقيّم أحداث هذه السنوات الأخيرة مرغمين على استحضار المأساة الانسانية»، إذاً المأساة الانسانية تأتي لتكمل الكارثة الاقتصادية. ودون أن ينكر ضرورة محاربة الكولاك يأسف غورباتشيوف «لاستخدام وزائع الضغط والارغام تجاه غالبية جماهير الفلاحين المتوسطين وحتى الفقراء». وهكذا نجد أنه يتم الحفاظ هنا على التمايزات الدقيقة بين الناس ـ كولاك، فلاحون متوسطون فلاحون فقراء ـ . وللمرة الأولى يعطي غورباتشيوف رقماً تقريبياً: لقد اقتلع ملايين الفلاحين من أرضهم، ومن مسقط رأسهم ووجدوا أنفسهم مجردين من أي شيء وقضوا في المعتقلات أو في المنفى:»(٢٧) وفي تشرين الثاني ١٩٨٧ كان ما يزال يتكلم عن «الألوف المؤلفة من أعضاء الحزب ومن خارج الحزب» الذين وقعوا ضحية حملات القمع المكثّفة. إلا أن غورباتشيوف عاد حتى في آذار ١٩٨٩، ورغم تبيانه «للمنحى الخاطىء الذي اتخذه تطبيق التأميم»، ليركز على أنه من غير الصواب «أن ننكر ضرورة التحولات الاشتراكية في الريف» وإنه من غير المشروع «أن نستنتج عدم فعالية النظام الكولخوزي» ثم إنه شدد قائلاً: «كلا، فالاستثمار الجمعي يحتوي من حيث طبيعته على طاقة هائلة . . . »

ولما كانت هذه الطاقة قد بقيت دون تفعيل في حياة ستالين، فقد جرت محاولات لتحقيقها ابتداءً من ١٩٥٣. وتبعاً لذلك اتخذت «إجراءات اقتصادية سياسية تنظيمية بالغة الأهمية تهدف الى تدعيم الزراعة». غير أنها لم تعطِ أية نتيجة. ثم بوشر «بمحاولة

جديدة لصياغة سياسة زراعية فعالة في الجلسة المكتملة للجنة المركزية في آذار (١٩٦٥)» إلا أن المقررات الصادرة عن هذه الجلسة «لم تطبق، كما يشير الأمين العام مربكاً، هي أيضاً، وقد جرى فيها بعد تشويه الخط الذي حددته».

وحوالي عام ١٩٨٠ كانت الكولخوزات والسوفخوزات كما يلحظ غورباتشيوف تعاني إجمالاً من العجز. وهذا ما كان عليه أجمالاً وضع الزراعة السوفياتية. والحال أن غورباتشيوف كان بوصفه أمين اللجنة المركزية، مسؤولاً عن القطاع الزراعي. وهذا ما ساهم بتوطيد البرنامج الغذائي، «وهكذا، كما أعلن غورباتشيوف، توصلنا بطريقة ما الى إيقاف زحف عناصر الأزمة والى تحسين الوضع الزراعي». وهكذا يعرف الأمين العام كيف يختار عباراته: «توصلنا بطريقة ما». . . وهو لا يعرف تحديداً أية طريقة أو أي من توجيهات اللجنة المركزية كانت فعالة إضافة الى أنه يقر بأن «مقرارات الجلسة المكتملة (في أيار ١٩٨٢) حملت بصمات عصرها وكانت ذات طابع خلاسي، هجين.

في آذار ١٩٨٩ قدم ميخائيل غورباتشيوف سياسته الزراعية الجديدة. وقد كانت طور الاعداد منذ زمن بعيد. وفي البداية طرحت دعوة اللجنة المركزية (البيلنوم) الى اجتماع مكتمل في شباط، والواقع أنه تم في ١٥ آذار، أما موضوعه فلم يتغيّر: «علينا ترسيخ سياسة زراعية، تسمح عندما تنفذ، بالتخفيف من خطورة مشكلة التموين، وأن نؤمن، من خلال الخطة الخمسية الثالثة عشرة (١٩٩١ ـ ١٩٩٥) كمية ونوعية من المنتجات الزراعية تكفي للتزود منها بشكل منتظم». لقد أمضت الدولة السوفياتية كل الوقت ومنذ إنشائها، محاولة حل «مشكلة التموين الخطيرة». وغالباً ما عرفت البلاد المجاعة ولم يفارقها القحطُ أبداً، إضافة الى فقدان المواد الفائقة الضرورة. بعد ستة أشهر من الاستيلاء على السلطة في تموز ١٩١٨، صاغ لينين ما يمكن اعتباره قانون الاشتراكية الأكبر: «طريقتان للنضال ضد الجوع: الطريقة الرأسمالية والطريقة الاشتراكية. أما الأولى فتتمثل باعطاء الحرية للتجارة. . . أما نحن، السلطة العمالية، فلن نسلك هذا السبيل. سبيلنا نحن هو إحتكار القمح»[٢٩]. القانون الأكبر في الاشتراكية ليس اختيار طريقة اليوم، ثم أخرى غداً. إنه يكمن في كوننا «نحن، السلطة العمالية» نطعم الشعب. أي «نحن» الذين نقرر إذا كان جائعاً أم لا، وكذلك كمية الطحين التي يحصل عليها. ومنذ تشرين الأول ١٩١٧ تحوّلت مشكلة التموين (وما تزال) الى مشكلة سياسية، أن الدولة ـ الحزب تضطلع بتقسيم جميع الخيرات.

وفي هذا المجال لا تتميز السياسة الزراعية الجديدة التي اعتمدها ميخائيل غورباتشيوف بشيء عن تلك التي سبقتها. فمرة أخرى يقرر الحزب الاجراءات الضرورية لتلبية حاجات الناس الحيوية، مع فارق دقيق وهو أن الأمين العام يبدو فجأة وكأنما فقد تفاؤله الجميل، ونسي ما ردده حول نجاحات الزراعة السوفياتية التي تتخطى، من حيث وتائر نموها، الولايات المتحدة وبلدان السوق المشتركة. ولكنه ببساطة لم يعد قادراً على التراجع، لأن «القحط الغذائي بات يوّلد توتراً اجتماعياً فهو لم يعد يثير فقط الانتقادات بل تململ الناس. والحال أن هذه الوضعية التموينية قائمة منذ عدة سنين»(٣٠).

لقد بدأت السياسة الزراعية الجديدة بالاعتراف بفشل الاجراءات الأولى التي اتخذها غورباتشيوف بعد توليه السلطة: ألغيت اللجنة الزراعية ـ الصناعية التي ترأسها موراخوفسكي؛ وقد استبدلت بلجنة حكومية منبثقة عن مجلس الوزراء، ومكلفة بشؤون التموين وشراء الحنطة. ولم يكن هذا الاستبدال إلا خطوة أولى. أما مفتاح مشكلة التموين، أو الخط العام الجديد فيتمثل بالإجازة.

لقد اعتبر غورباتشيوف دائماً، عدم فعالية الزراعة السوفياتية كأمر بديهي. وقد بحث، عن وسائل لمعالجة هذا الوضع أو كما يحلو له أن يقول عن «مقاربات»، وذلك سواء بصفته أميناً لمنطقة أو أميناً للجنة المركزية. إلا أن السبل التي اختارها، كانت تقليدية، وقد جربت طوال عشرات السنين، وجميعها تهدف الى زيادة انتاجية الكولخوزات والسوفخوزات، من خلال إتقان الادارة، والاستثمارات الاضافية، وزيادة إنتاج الجرافات والحصادات الدارسة، وتطوير استصلاح الأراضي، والطرق الكيميائية.

وجرت محاولات لاعطاء ما يشبه الاستقلال الذاتي للعمال الزراعيين، وذلك من خلال إقامة فرق مستقلة. إضافة الى أنه سمح بإنشاء مؤسسات.

وفي آذار ١٩٨٣ بدا غورباتشيوف حاسماً: «تعتبر المؤسسة الجماعية في متن الفرقة أو الفريق أو المزرعة، الشكل الأكمل للعلاقات الاقتصادية ذات التمويل الذاتي في إطار الاستثمار...»(٣١) في ١٩٨٨ لم يعد الشك يضنيه: لقد اكتشف الترياق: الاجارة. ولقد كانت قبل ذلك موضع تداول ولكن دون ثقة كافية بالنفس.

ففي ١٩٨٧ كان «القاموس السياسي» يشير: «تعتبر الاجارة الفلاحية للأرض نوعاً من بقايا الاقطاع فالأرض تؤجر لسد الحاجات الحيوية لدى الفلاحين الصغار والمتوسطين وعائلاتهم. كل هذا يعطي لعلاقات الاجارة طابع العقد التحكمي»[٣٢]. في ١٢ تشرين الأول ١٩٨٨ ألقى غورباتشيوف خطاباً في اللجنة المركزية أمام خبراء الزراعة المختصين بالشؤون النظرية والتطبيقية. وما قاله هنا سيشكل الصيغة الأولية لسياسته الزراعية الجديدة التي سيعلن عنها بعد خمسة أشهر. أما رسالة الأمين العام فهي التالية: تطوير الإجارة، الشروع ببريسترويكا على صعيد العلاقات الاقتصادية في الأرياف، لقد حقق غورباتشيوف بعض التقدم منذ ١٩٨٣ . في تلك الآونة كان يرى في المؤسسة الشكل الأقرب الى الكمال. أما بعد خمس سنوات فقد بدا له أن المؤسسة هي في الحقيقة «خطوة كبيرة غير أن الإجارة هي أيضاً نوع من المؤسسة العليا، المؤسسة ـ الإجارة حيث يأخذ الانسان الأرض لفترة من الزمن، إضافة الى وسائل الانتاج، وحيث منذ تلك اللحظة تربطه العلاقات الاقتصادية بالاستثمار وبمن أعطاه الأرض.

هذه المرة الأمر يتعلق بالاصلاح، أي بتغيير العلاقات الاقتصادية في الريف، أو إحلال الروابط الاقتصادية مكان الوزائع الادارية الإلزامية. وهذا ما جعل الاعلاميون السوفيات يعودون بالذاكرة الى ألكسندر الثاني محرر الفلاحين من القِنانة، الى بيوتر ستوليبين الذي قام سنة ١٩٠٦ بتغيير جذري للعلاقات في الريف الروسي. ويبدو أن الاصلاح الذي قام به ستوليبين معطياً الفلاحين حق ترك القرية (أوبشتشينا) ليأخذ مزرعة صغيرة (كوتور)، هو الذي أوحى بحركة غورباتشيوف الاصلاحية، التي سمحت بتفضيل الاجارة على الكولخوز. ولم يمضِ وقت طويل حتى أعلن العديد من المعلقين الغربيين عن نهاية النظام الكولخوزي في الاتحاد السوفياتي.

إلا أن الاصلاح الزراعي جاء، على غرار مجمل الاصلاحات الاقتصادية في إطار البريسترويكا، هجيناً وملتبساً .

وكان الاستوني سالدري، الوحيد خلال جلسة اللجنة المركزية في ١٢ تشرين الأول ١٩٨٨، الذي تميّز عن جمهرة الخطباء. فبعد أن قدم للحضور بصفته مؤجراً للكولخوز «كولدره» أعلن سالدري أنه ليس كذلك بل «مزارع عادي جداً بالمعنى السائد للكلمة»[٣٤] وما كان من غورباتشيوف إلا أن تدخل ليطمئن الحضور «حسناً،

حسناً، بالأمس كان أميناً لتنظيم الحزب. مزارع جيد. من جماعتنا». ثم ان هذا «المزارع من جماعتنا» لم يتردد عن الايضاح بأنه ينتفع الآن من الأرض بشكل دائم، وانه يزرعها ويقتني ماشية خاصة به، وعندما أشار الى أن ذلك لا يعتبر مشروعاً إلا في جمهوريته، نظراً لأن قانون الاتحاد لا يسمح بالتنازل عن الأرض بشكل دائم رد عليه غورباتشيوف: سوف نشرّعه.

غير أن قرار مجلس رئاسة السوفيات الأعلى حول الإجارة وما يتفرع عنها من علاقات، والذي وقعه غورباتشيوف بعد ستة أشهر، لم يشرّع التنازلات الدائمة، بل أنه اكتفى بالسماح بالانتفاع المؤقت الذي يتراوح من خمس سنوات الى خمسين كحد أقصى»[٣٥]. ولكن سواء كان بشكل دائم أو لأجل، فالمسألة قد لا تكون إلا لعباً على الألفاظ. فرغم كل شيء أعطى القانون حول الأرض، الذي أقر في ٢٦ تشرين الأول ١٩١٧، هذه الأرض للفلاحين لأجل غير مسمى. إلا أنها ما لبثت ان انتزعت منهم بعد اثنتي عشرة سنة عندما ارغموا على الدخول في الكولخوز. وهكذا فإن الديمومة لم تدم!

ولكن رفض الاجارة الدائمة يسمح مضافاً الى عدوانية غورباتشيوف الدائمة تجاه الملكية الفردية بالحديث عن الطابع الملتبس والهجين الذي لا ينفك عن الاصلاح الزراعي.

ويتبين أن نص القرار حول الاجارة هو نوع من التسوية التي تهدف من جهة، الى إرضاء هؤلاء الذين يريدون تحويل الزراعة السوفياتية بأكملها الى مزارع من النمط الغربي والكولخوزيين الى «مزارعين»[٣٦]. ومن جهة أخرى، الى الابقاء على النسق القديم مع بعض التعديلات التفصيلية. وكما عهدناه دائماً يبقى غورباتشيوف في الوسط، لاعباً على الحبلين. فهو يسعى من جانب الى القضاء على «إغتراب» الفلاحين وإيقاف عملية تدمير الريف وتحويل الكولخوزيين ليعودوا فلاحين حقيقيين وذلك من خلال اعطاءهم «إمكانيات واسعة على صعيد الاستقلال الذاتي وانشاء المؤسسات واتخاذ المبادرات»[٣٧] أما الجانب الثاني فهو الارتكاز الى الاجارة «لاظهار ما للكولخوز والسوفخوز من طاقة كامنة»[٣٨]. وسوف يكرر غورباتشيوف هذه الفكرة بعد خمسة أشهر: فالسبيل الأمثل هو تحويل الكولخوز والسوفخوز الى نظام الايجارة، وذلك داخل نطاق الاستثمار»[٣٩].

ويعتبر أن وجهة النظر القائلة بإلغاء السوفخوز والكولخوز وعطاء ما يعود لها من أراضٍ ووسائل إنتاج للمؤجرّين لا تقوم على أي أساس، سواء من الناحية العلمية أو من الناحية العملية»[٤٠].

إن ميخائيل غورباتشيوف رجل منطقي. إنه يدرك أصل الأزمة التي يتخبط فيها القطاع الزراعي. فهذا الأصل لا يكمن في الكولخوزات بذاتها، بل بالعمل السيء الذي يقوم به الكولخوزيون كونه عملاً مضمون الأجر. في تشرين الأول ١٩٨٨ قدّر غورباتشيوف أن «المسألة الأهم تبقى في عدم الاستمرار بدفع المال الذي لا تكسبه فعلياً الكولخوزات والسوفخوزات». ثم إنه في آذار ١٩٨٩ عاد ليثير المشكلة الناجمة عن «هؤلاء الذين يتدبرون أمرهم لتقاضي مداخيل ثابتة بغض النظر عما يقدمونه بالمقابل». بعد أن انتزعت من الكولخوزيين والسوفخوزيين القدرة على كسب المال بالعمل كيفما اتفق، كان على المبادرة الاصلاحية أن تدعهم يأخذون الأرض بالاجارة دون أن يفصلوا مع ذلك عن الكولخوزات والسوفخوزات. في ١٩٢٩ قام ستالين باستعباد الفلاحين مراهناً هكذا على إخضاع آخر الطبقات التي تتمتع نسبياً ببعض الاستقلالية والحاقها بالدولة، وذلك لتأمين المنتجات الزراعية التي كانت البلاد بحاجة إليها. وبعد مضي ستين عاماً اتضح أن الكولخوزيين قد أعلنوا الاضراب مثل غيرهم من العمال، وأنه يتوجب تبعاً لذلك اكتشاف وزائع قسرية جديدة: الاجارة.

أما البرهان الأسطع على فساد نظام الإجارة كما ينص عليه مرسوم ٧ أيار ١٩٨٩ فيبقى الفتور الذي طبع تقبّل المواطنين السوفيات لهذه الهدية من البريسترويكا. «من يحتاج الى أرضكم؟» رد موجيك أصيل عندما اقترحت عليه الاجارة. هكذا رفض الاعلامي إيفان فاسيلييف، هذا العامل الشريف الذي يشهد له خبيرٌ من أفضل خبراء الريف السوفياتي، الأرض[٤١]. ومن بين خمسماية خبير وطالب ومسجل لمتابعة الدروس التي يعطيها المعهد الزراعي بالمراسلة أجاب عشرة فقط بنعم على السؤال: هل تقبل أنت شخصياً أرضاً بالاجارة؟ فيما ٢٥ بالمائة أجابوا بلا قاطعة. وعلى ١٧٦ من رؤساء الكولخوز الذين استجوبوا في منطقة كورسك ٢٠ بالمائة فقط أجابوا بنعم على السؤال: هل تعتبر أن علاقات الاجارة في الريف تشكل وسيلة حقيقية وصحيحة لتمويل الزراعة؟[٤٢].

أما أسباب هذا النقص في الحماس فكثيرة. وقد تبين المقارنة، بين هذه السياسة

الزراعية وما أقدم عليه من قبل بيوتر سوليبين من إصلاح، نقاط الاختلاف الواضح بينهما. في بداية القرن غادر الفلاح الروسي القرية الى العالم الرأسمالي حيث أصبح عنصراً طبيعياً، عادياً، من عناصره. أما «المزارع» السوفياتي فيرى نفسه وسط العالم الاشتراكي الذي يطوقه كعنصرٍ غريب.

كان الفلاح يشتري الأرض ويصبح مالكاً لها. أما الكولخوزي فيتسلّمها من الدولة لفترة معيّنة. ومهماشدّد غورباتشيوف على «أنه لا بد لنا من فتح الأبواب على مصراعيها أمام أشكال الاستثمار على اختلافها ـ كولخوز سوفخوز، منشآت زراعية، اتحادات زراعية، استثمارات فلاحية ملحقة وخاصة، مشاغل زراعية في إطار المؤسسات الصناعية منشآت بناء ومنشآت أخرى غير زراعية، إضافة الى أصناف الحرف الملحقة...»(٤٣). إلا أن كل مواطن سوفياتي يعلم جيداً، أن المزارع سيصبح، ضمن الشروط الراهنة، «ساندريون» الزراعة. فبدون تجارة جملة، وبدون سوق، وحصر التصرف بأرض الاجارة، ومحروماً من أية إمكانية للحصول على الآلات الضرورية والأسمدة، سوف يحتاج «الخاص» بصورة دائمة الى دعم من الكولخوزات والسوفخوزات. وهذه ستحمله كما الحبل يحمل المشنوق!

وهناك سبب آخر يتمثل بالريبة من السلطة التي تعطي اليوم بيد لتأخذه غداً بالاخرى. أحد الصحافيين مندهشاً من أن القلة القليلة فقط ترغب في جمهوريات البلطيك في المباشرة باستثمار عائلي، فَهِمَ سريعاً مرد هذا الأمر: «يحتفظ الفلاحون ليس فقط بتجربة الاستثمار، بل أيضاً بتجربة القضاء على الكولاك؛ فالجروحات القديمة ما تزال تنزف ولم تختم النَدَبات بعد»(٤٤).

وفي مناطق البلطيق، الجروح ما تزال ندية أكثر، ذلك أن التأميم لا يعود الى الثلاثينات بل الى أواخر الاربعينات وبداية الخمسينات. فحيث تم التأميم بالحديد والدم منذ نصف قرن، ترك آثاراً مرعبة. وهذا ما يعتبر من الأسباب الرئيسية التي أدت الى فشل وصفة الإجارة.

ويعترف بوريس موجاييف اليوم ـ الكاتب «الريفي» المشهور، مؤلف قصة حيّة تصور موجيك روسي يسعى الى ترك الكولخوز ـ بما يلي: «تكمن المشكلة في ما حصل من تبديل للفلاحين. إذ نجد الآن في الكولخوزات والسوفخوزات موظفين وليس

فلاحين. إنهم لا يستجيبون لأي شيء وليس لهم ما للمزارعين من موقف تجاه الأرض والتقنيات والقطيع... ولا من أي باب! كل شيء يبدو غريباً لهم وعنهم لأن كل شيء يعود للدولة»[٤٥]. والمقصود هنا هو بالضبط هذا التدمير لنسق الفلاحين الذي يثيره غورباتشيوف، والذي أراد أن يعالجه بالاجارة.

ويعلم بوريس موجاييف أنه «بدون نهضة الفلاحين ـ والواقع أنها مستحيلة دون الاجارة وأشكال الاستثمار العائلي ـ فإننا نقود البلاد الى الهلاك وهو يعلم أيضاً أن الفلاحين لا يريدون اليوم أن «يخلقوا من جديد» مفضلين نيراً يعرفونه على آخر يكون أدهى وأعقد. فالآن ودون أية مسؤولية وهو يؤدي عمله على طريقة الى «حيث أسوقك» يقبض الفلاح أجراً مضموناً. أنه لا يريد أن يصبح مزارعاً «لأن أشكال العمل الجديدة... ليست جدية تماماً. والمشكلة أن الانسان لا يمكنه أن يفلح في أرضين معاً في الكولخوز وأمام بيته»[٤٦]، هذا ما كتبه أحد أعضاء الكولخوز الى الكاتب فاسيلي بيلوف. وكثرٌ هم الذين يضيفون أنهم ليسوا بحاجة الى المال إذ ليس هناك، في كل الأحوال، ما يمكن شراؤه.

في ٢٨ شباط ١٩٩٠ صدق السوفيات الأعلى على مشروع قانون جديد بشأن الأرض الزراعية، معترفاً بذلك بفشل المحاولات السابقة شبه الاصلاحية، وهذه المرة يلحظ القانون حق المواطنين بحيازة قطعة أرض (أو قطع) يكون له حق الانتفاع منها لمدى الحياةوكذلك حق تركها لورثته. «إلا أن هذه الأرض تبقى غير قابلة للبيع أو للاجارة. إنها تعطى من قبل السوفياتات المحلية أو بمعنى آخر فإن كمية ونوعية الأرض التي يستفيد منها الفلاح تبقيان مرتبطتين بها.

ها هنا إذن خطوة قسرية إضافية على طريق الاصلاح الزراعي الذي ما يزال في الوقت الحاضر بعيداً وراء الأفق. والمسألة الرئيسية تكمن في أن الأرض التي تمتلكها الدولة لا تحوز عليها أو تتملكها في واقع الأمر، فللكولخوز حق الانتفاع منها «على الدوام» وللسوفخوزات أيضاً نوع من السيادة عليها. فهي التي تقرر اعطاء الأرض «للأفراد» أو عدم اعطائها. وهكذا يُرشح الاستمرار بجعل الكولخوزات والسوفيتات قاعدة للزراعة، الاصلاح الجديد للفشل، مثل كل الاصلاحات التي سبقته. إن بنية العلاقات القائمة بين الدولة وهؤلاء الذين يستخدمون الأرض على جميع الأصعدة ـ

كولخوز، سوفخوز، مستأجرون مدى الحياة ـ بقيت ثابتة، ولم يمسها أي تغيير.

وكما أن الطلبات على الاجارة لم تتدفق فإن الاصلاح الجديد لم يثر الحماس. وقد بيَّن استقصاءٌ للرأي قامت به الازفستيا أن ١٢ بالمائة فقط من الأشخاص المستجوبين ينوون القبول بأرض «ينتفعون منها طوال حياتهم ويورثونها لذريتهم»(٤٧). وقد أعلن الصحافي ونائب الشعب يوري تشيرنيتشنكو، أحد أفضل الخبراء في شؤون الزراعة السوفياتية، أنَّ ٧٠ بالمائة من السكان في الريف كانوا يعتقدون بإمكانية حصول ضربة جديدة ضد «الكولاك» فيما أكثر من ٣٠ بالمائة من المستخدمين في جهاز الحزب والدولة لم يشكوا من العودة الى الاجراءات التي وضعت موضع التنفيذ في الثلاثينات، ويستنتج الصحافي النائب في ختام حديثه قائلاً: «هذا يعني أن هذه الوسائل التي يستخدمها قادة الحزب الشيوعي لعموم روسيا (البلشفي) لأكل لحوم البشر لا تنفك تعمل، سواء تكوينياً أو وراثياً من خلال النظام. . . »(٤٨).

ويظهر أيضاً الالتباس الكامن في القانون الجديد والرغبة المميزة لدى غورباتشيوف في تأمين الدعاية لنفسه عبر اتخاذ القرارات البراقة، من واقع أن المسألة الكبرى ـ مسألة أسعار المنتجات الزراعية ـ قد تركت معلقة بين قوسين. فقد قرر غورباتشيوف، من جانبه، «عدم المساس بالأسعار الحالية»(٤٩). وإننا نجد أنفسنا من جديد أمام الحلقة المفرغة: فبدون إصلاح للأسعار لا يبدو أي إصلاح اقتصادي ممكناً ناهيك عن الاصلاح الزراعي. وهكذا جرى تأجيل إصلاح الأسعار على أمل أن تحدث معجزة تسوّي جميع الأوضاع: يطلب الكولخوزيون حيازة الأرض بالإجارة، أو يطلبون حق الانتفاع منها لمدى الحياة ويورثونها الى ذريتهم، وهكذا سيتحولون الى مزارعين ويبدأون أخيراً بالعمل بكل ما بوسعهم. أما الذين بقوا في الكولخوزات سوف يعملون، راغبين في أن يتخطاهم المزارعون، بأقصى طاقتهم. وهكذا سوف يستطيع الاقتصاد السوفياتي بعد أن يخرج من المأزق، التقدم سريعاً الى الامام. . . ».

الفصل الخامس عشر
المافيا: لقد وثب الأسد

«في موقع السلطة، لم يتحلل الحزب، ولم ينهار. «السلطة تفسد» يدّعي المثقف البرجوازي والبورجوازي الصغير. إن هنا عدم فهم عضوي لجوهر سلطتنا السوفياتية».

فورونسكي، كانون الثاني ١٩٢١

«ليست المافيا صورة جميلة، إنها واقع، إنها مرض كنا نفكر منذ عهد قريب وبخفة أنه من غير الممكن أن يهدد مجتمعنا».

«ليتيراتورنايا غازيتا، ٢٠ تموز ١٩٨٩»

كان ذلك منذ سنين، حين قتل رجل المليشيا ألكسندر غوروف وسط موسكو أسداً هارباً من حديقة الحيوان. هذا الحادث الذي برز على الصفحات الأولى للجرائد السوفياتية، أثاره منذ زمن قريب الصحافي يوري شتسكوتشيخين، الذي أجرى مقابلة مع غوروف الذي أصبح رجل قانون وخبيراً بالجريمة المنظمة. «سأل ألكسندر ايفانوفيتش الصحافي: إذا قارنا الأمر بوضع المافيا فهل تعتبر والحال هذه أن الأسد يستعد للوثوب أم قد وثب؟ . . . ـ الأسد قد وثب»[1].

«مافيا»، «إبتزاز»، «تبييض عملة»، «عصابات» ـ كلمات لم تكن منذ زمن قصير تنطبق، إلا على العالم الرأسمالي المتحلّل. وها أنها في عصر الغلاسنوست قد اكتسبت فعلياً مكانها في المعجم السوفياتي ـ إن القاموس السياسي المختصر قد أعطى في طبعاته لعام ١٩٦٩، ١٩٧٨ و١٩٨٣، تعريفاً ثابتاً للمافيا بوصفها «منظمة ارهابية من

اللصوص في جزيرة صقلية (إيطاليا)، وهي فعلياً في خدمة الدوائر البورجوازية وكبار الملوك العقاريين. . . »[٢] ويضيف القاموس أن المافيا كانت قد أقامت علاقات مع تنظيمات أخرى في عالم الجريمة، بما في ذلك، منظمات العصابات في الولايات المتحدة. وفي طبعة ١٩٨٧ يكمل «المختصر» تعريفه بهذه الجملة الفصيحة: «لقد تحولت المافيا الى مفهوم شائع يستخدم للدلالة على الضغوطات غير الشرعية الاجرامية التي تمارس على الأفراد أو التنظيمات لأغراض سياسية». أما احتمال ظهور المافيا في بلد الاشتراكية فلم يكن بعد قد أثير مباشرة، غير أن الاشارة هنا تبدو واضحة بالنسبة للقارىء السوفياتي.

في عام ١٩٨١، انعقدت في فارصوفيا، هيئة تابعة للجنة المركزية للحزب لإجراء تحقيق حول نشاط السكرتير الأول أدوار جيريك، الذي كان قد فُصل منذ تلك الآونة. وقد أوضح جيريك في شهادته ومن بين أشياء أخرى أن «مافيا بأكملها قد تشكلت داخل اللجنة المركزية»[٣] وقد ترددت هذه الكلمة في تصريحات القادة البولونيين الآخرين الى حد دفع برئيس اللجنة، ولخشيته من أن تقع نسخ تقارير الجلسات السرية في يد «التضامن» (وهذا ما حصل في الواقع) إلى إقتراح يستبدل «مافيا» «عصابات لصوص» و «عصابات مجرمين» بعبارة «جماعات لا شكلية (غير مشرعة) داخل المكتب السياسي»[٤].

ما إن بدأت «البريسترويكا» حتى غزت المافيا اللغة السياسية السوفياتية بوصفها كلمة ومفهوماً وتهمة خطيرة. وسرت إشاعات منذ فترة حول هذا الأمر، غالباً ما كانت مصطنعة ومركبة وتطال بشكل أساسي جمهوريات الجنوب. ومرت فترة حيث جرى الكلام عن الفساد في آذربيجان وجورجيا، حيث استبدل الأمناء الأول. وقد حل مكانهم، في آذربيجان الرئيس السابق للـ. كا. جي. بي غيدار علييف، الذي عُيّن في ١٩٦٩، وفي جورجيا، الوزير السابق للداخلية أدوار شيفرنادزه الذي عيّن في ١٩٧٢. وفي ١٩٨١ فتح تحقيق حول قضية «أوزبيك». ومن طشقند، كانت الخيوط تقود بشكل واضح الى موسكو، الى محيط بريجنيف الذي دخل مرحلة النزع الأخير. ما من أحد إذن بات يندهش عندما يقدم الصحافيون على إيضاح أن المجازر الدامية في وادي فرغانا (صيف ١٩٨٩) هي من صنع المافيا. كما أنه تبيّن أيضاً دور هذه الأخيرة في مجازر الأرمن في الكاراباخ العليا، إضافة الى مجازر باكو. وقد باتت الحرب ضد المافيا الشعار

الانتخابي لتالمان غدليان، ونيكولاي ايفانوف، وهما قاضيا تحقيق كانا وراء الاعترافات حول مافيا «أوزبيك». وعندما انتقدت أساليبها في التحقيق بوصفها غير شرعية وأحيلا خارج الملاك مع الاستمرار بتقاضي راتبهما. تفجرت فضيحة سياسية كبرى. مما دفع الى تشكيل لجنة دعم لصالح غدليان وايفانوف. وقد عيّن مجلس رئاسة السوفيات الأعلى لجنة خاصة لدراسة القضية(٥)، كما أن وزير العدل في الاتحاد السوفياتي أعطى بعض الايضاحات من خلال البرافدا(٦). ثم أن غدليان انتخب مظفراً نائباً للشعب في موسكو، وكذلك أحرز ايفانوف انتصاراً انتخابياً أعظم في لينتغراد، وذلك بعد أن أعلن من على الشاشة الصغيرة، في ١٢ أيار ١٩٨٩ ان ابناء المافيا الذين يمنع الكشف عنهم يقودون حتى القمة، وان بعض أعضاء المكتب السياسي متورطون في هذه القضية مثل سولومانتسيف ليغاتشيف، والرئيس السابق لمحكمة الاتحاد السوفياتي العليا تيربيلوف»(٧). هذا الكلام قاد عمال أكبر المصانع في لينتغراد الى الاقدام، وكأنهم رجل واحد، على الادلاء بأصواتهم لصالح قاضي التحقيق نيكولاي ايفانوف. وتُبيّن قضية غدليان ـ ايفانوف المكانة التي تحتلها المافيا كأسطورة وواقعة في وعي معاصري «البريسترويكا». فلقد جمعت أولغاتشا تشايكوفسكايا الصحافية السوفياتية المشهورة، التي أثارت طوال عشرات السنين (وبقدر ما تيسّر لها ذلك) عيوب العدالة السوفياتية ـ وهو جعل منها اليوم أحد المراجع المعنوية الخلقية النادرة ـ ملفاً ضخماً يُبيّن الطرق غير المشروعة التي كان يستخدمها فريق غدليان ـ ايفانوف: تعذيب المتهمين وسجنهم احتياطياً طوال عدة سنوات. (أحياناً سبع سنوات) «وقد كتبت أولغا تشايكوفسكايا «أن قضاة التحقيق من نمط غدليان، الذين أعدوا أنفسهم، وتركوا لأنفسهم، يشكلون جزءاً من هذا النظام الاداري القيادي الذي يؤكدون على محاربتهم له»(٨).

وفي نيسان ١٩٩٠، قدمت اللجنة نتائج أعمالها الى السوفيات الأعلى. وقد أثبتت أن غدليان وايفانوف قد انتهكا الشرعية وأقدما على اشكال من الضغط وطرق من التحقيق يمكن اعتبارها ببساطة نوعاً من التعذيب. حتى أن التقرير يُعيّن من بين أشكال الضغط المستخدمة من قبل المتهمين ما يقارب نصف أساليب التحقيق التي أوردها سولجنيستين في «أرخبيل الغولاغ». ويتضح من التقرير أيضاً أن هذه الطرق والأساليب تعتبر أمراً عادياً سائداً بالنسبة لقضاة التحقيق، وأن غدليان وايفانوف كانا يحظيان بتغطية رؤوساء على أعلى المستويات. وأخيراً يتبيّن أن المحققين الذين أرسلوا الى

مكافحة المافيا في أوزبيك، كانوا فعلياً أدوات في الصراع على السلطة الذي كان دائراً في موسكو. فالحكام في أوزبيك كانوا من جماعة بريجنيف، أي أن ضربهم كان يعني ضرب السكرتير العام.

لقد اقترحت لجنة التحقيق رفع الحصانة البرلمانية عن غدليان وايفانوف وأن يمثلا أمام المحكمة لاستجوابهم، غير أن السوفيات الأعلى رفض هذا الاقتراح. وخلال فترة قياسية تم تحويل «المافيا» الى عدو رقم واحد توجّه «نقمة الشعب» ضده. وكان التعطش الى العدالة قد بلغ من القوة، والوضع الاقتصادي من الرداءة، ما جعل أي وعد بالتطهير مهما قل شأنه، خاصة التطهير «من القمة» قادراً على إثارة نوع من الحماس الغريب وسط الجماهير. وقد نقلت أولغا تشايكوفسكايا حديثاً مع امرأة شابة من لينغراد كانت شككت في إطار لقاء انتخابي بصحة ترشيح ايفانوف «كان الدم يسيل منها شلالاً اثر لكمة رهيبة على وجهها وهي تقف في مواجهة هيجان الحشد الذي كان يصيح: «هذا لا شيء. يجب أن تغرقي بدمك»[١٠].

لا يخلو تحويل «المافيا» الى عدو رقم واحد من فوائد سياسية أكيدة. إنه سلاح للصراع على السلطة. ولقد نَفى إيغور ليغاتشيف عضو المكتب السياسي وأمين اللجنة المركزية، أمام المدعي العام للاتحاد السوفياتي، ثم أمام اللجنة المركزية بأن يكون متورطاً بأي شكل من الأشكال «بجريمة الرشاوى في أوز بيكستان»[١١] وقد رأى الخبراء الغربيون ولفترة طويلة، في ليغاتشيف الرجل الثاني، فيما كان يعتبر في الاتحاد السوفياتي بمثابة زعيم «المحافظين» ولقد سعى ليغاتشيف الى تبرير نفسه رافضاً جميع الاتهامات الموجهة إليه: «ما يحصل هو تحديداً محاولة لزعزعة الثقة بقيادة الحزب الحالية والاستفادة من ذلك للاحتراف السياسي. وكذلك لتلافي الرد على الاتهامات الخطيرة الموجهة ضد ايفانوف من قبل العديد من المواطنين الذين اشتكوا في رسائلهم من طريقته في إدارة التحقيق»[١٢]. وإذا كان القسم الثاني من التقرير لا يستأهل أي تعليق فالأول لا يبدو مقنعاً بأي شكل من الأشكال. فالعبارة «زعزعة الثقة بقيادة الحزب الحالية «تبدو غائمة جداً. ذلك أنها كانت، قبل أي شيء موجهة ضد ليغاتشيف. وذلك رغم أنَّ ايفانوف قام بتوريط ميخائيل سولومانتسيف وهو أيضاً عضو في المكتب السياسي بهذه القضية. وقد أعلن أحد الخطباء في المؤتمر التاسع عشر للحزب. في حزيران ١٩٨٨، أنه لا يمكن «للذين قادوا بفعالية سياسة الركود» أن يعملوا، في عصر

البريسترويكا، داخل الأجهزة المركزية. وبإيعاز من غورباتشيوف، أقدم على اعطاء بعض الأسماء وكان سولومنتسيف على رأس القائمة(١٣). في نيسان ١٩٨٩ وإثر مداخلة ايفانوف طلب سولومانتسيف ومعه ما يقارب المئة من «قادة الركود» الآخرين من تلقاء ذاتهم إحالتهم على التقاعد. وكان سولومانتسيف قد أدين بتهمة إقامة العلاقات مع المافيا.

تكمن وراء أسطورة المافيا واقعة حقيقية. فبعد أن أجرى تحقيقاً حول «المافيا الاوزبكية» (كثرٌ هم الذين يعتقدون أن القضية لم تنته فصولاً بعد)، قام القاضي غدليان بتنظيم عرض في موسكو، يمكن الذهاب إليه أو مشاهدته في التلفاز: في قاعة كبيرة امتلأت الطاولات بأكداس من العملة، وبالذهب والجواهر، التي ضبطت مع المتهمين. إنها الدليل القاطع على وجود «المافيا». غير أن كل شيء، في الواقع هو أرهب وأعقد بكثير. ويتبين تعقيد الوضعية من الظهور المفاجىء لكلمة «مافيا» في المعجم السياسي السوفياتي. لا بد من تعليل الأزمة، لا بد من «كبش محرقة» من عدو: وقد جرى تبني الكلمة. وكما لو أن الأمر كان بالصدفة، عرض التلفاز السوفياتي مسلسلاً ايطالياً عن المافيا في صقلية. الكلمة موجودة. ولكن على ماذا تشتمل بالضبط؟ فعالم الجريمة قد وجد دائماً في الاتحاد السوفياتي، ومجرمو الحق العام عاشوا في الدولة الاشتراكية الأولى في العالم تقريباً، في ظل القوانين التي تنطبق على المجرمين في أي بلد من بلدان العالم. غير أن للاتحاد السوفياتي خصوصية معينة وهي أنه يحتوي على شكلين من الملكية: الملكية الاشتراكية أو ملكية الدولة والملكية الخاصة التي تعود للمواطنين أنفسهم. وفي جميع المراحل انزلت العقوبات الأشد بالاعتداءات على الملكية الاشتراكية، لأن المسؤولين عنها كانوا من موظفي الدولة. وهي كانت تعني غالبية السكان العظمى، ذلك أن جميع المواطنين السوفيات يعملون لصالح الدولة. وفي مؤسسات الدولة. أما جرائم القانون العام فكانت تستدعي عقوبات أخف وذلك لأنها لا تطال إلا الملكية الخاصة التي لا تعتبرها الدولة بالقيمة نفسها.

وتفسر خصوصيات القانون الجزائي السوفياتي. الى جانب ما تفسره، عدد الموقوفين، الذي يبدو مرتفعاً في الاتحاد السوفياتي أكثر من أي بلد آخر. والأمر يتعدى ضحايا القمع السياسي من الذين حكم عليهم بموجب المادة ٥٨ من القانون اللينيني - الستاليني أو المادتين ٧٠ و ١٩٠ من قانون العقوبات الساري المفعول. وقد حكم على

ملايين الناس (وهو ما يحصل الآن قبل رميهم في المعتقلات) بناء على المواد الموصوفة «اقتصادية». أي غالباً لأنهم انتهكوا القانون السوفياتي الذي يهدف بصورة كلية الى حماية الملكية الاشتراكية.

يعتبر الوجود المزمن في البلاد لملايين المعتقلين والتجربة المباشرة للسجن والمعتقل التي يعانيها قسم مهم من السكان كنتيجة للطابع الاجرامي الذي يميز القانون السوفياتي، ولهذا النسق الذي يحتاج دائماً الى موقوفين ويولّد كمية من المجرمين لم يعرفها التاريخ من قبل كان المثل الروسي، «لا ترفض الفقر، لا ترفض السجن» يعبِّر عن قبول قدري بالمصيبة اما انتصار ثورة أكتوبر فحوّل هذا المثل الى مبدأ الزامي وقد ولّد هذا القبول بقدرية السجن احتقاراً للقانون لدى المواطنين السوفيات ورفضاً مسبقاً للالتزام به. لقد ميزت الجريمة المنظمة عصر الـ N.E.P وتبدو اليوم رواية ايلف بيتروف الهجائية «العجل الذهبي»، ذات راهينية لا تصدق، وذلك لأنها تصف وضعية ـ الأحداث تجري أواخر العشرينات ـ تسترعي الآن، بشكل مضاعف، انتباه الصحافيين والمحققين ورجال الاعلام. ينطلق بطل الرواية، «أوشاب بندر» رجل المصلحة الذي يميل الى اللصوصية، من استنتاج منطقي: فاذا كانت الأوراق المالية تروج في البلاد فلا بد من وجود أحدٍ يَلمّها. ويكتشف أوستاب أن المليونير كوريكو سبق أن «لمّها» وبقدر ما يعمل كوريكو خارج القانون يجد أوستاب الوسيلة لنهبه دون حساب أو عقاب. ويجمع كوريكو الملايين بشطارة من القحط وما يسمى اليوم «اقتصاد الظل». ويبين مؤلفو «العجل المذهب» بصورة مقنعة أن فساد جهاز الدولة هو أحد العناصر الرئيسية في ثروة كوريكو.

يعيد الكسندر غوروف وهو الذي يعتبر أن «الأسد قد وثب»، ولادة «الجريمة المنظمة» و «المافيا» الى عصر الركود وهو يقدر، كما رأينا، إن هذه «المافيا» يستحيل وجودها في ظل النظام الستاليني الكلّياني، أو في ظل هيتلر أو موسوليني، إلا أن الخبير السوفياتي يرتكب، بالنسبة لألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية خطأً كبيراً، وذلك، دون شك، لأنه لم يهتم أبداً بهذا الموضوع عن قرب. ولكن المدهش فعلاً هو أن يرتكب هذا الخطأ بالنسبة للمرحلة الستالينية. والقانوني غينادي خوخرياكوف يرى أيضاً في هذا النوع من التأكيد «عدم معرفة بالتاريخ». وهو يشير من باب الأمثال، الى وجود وحدة عسكرية وهمية في نهاية الحرب، وإبان النزاع، وهي حالة تجار الأدوية المفقودة(١٤).

ويمكننا أن نعدد الأمثلة. فليس هناك أي شك في أن الجريمة المنظمة كانت موجودة إبان حكم ستالين ومتحركة في الاطار الذي يصفه مؤلفو العجل المذهب: قحط ـ فساد ـ اقتصاد ظل ـ أرباح طائلة. وفي هذه الآونة كانت تشن الحرب على الأعداء السياسيين، أما الجرائم «الاقتصادية» فلم تكن رغم العقوبات القاسية التي كانت تستدعيها، تثير إهتمام الاعلام والدعاية. في عام ١٩٣٩ أنشىء قسم لمكافحة نهب الملكية الاشتراكية، ضمن ملاك وزارة الداخلية، وهو معروف جداً لدى المواطنين السوفيات باسم ـ oBKhss ـ . وسوف يتحول هذا القسم فيما بعد الى مديرية رئيسية، مضى الآن على اهتمامها بالجريمة المنظمة ما يقارب النصف قرن.

لقد شكلت الجرائم الاقتصادية «جبهة صراع» مهمة في سنوات «إزالة الجليد». ففي ١٩٦١ ـ ١٩٦٢، صدرت قوانين تهدف الى تشديد العقوبات التي تطالها. وقد نظمت سلسلة من المحاكمات النموذجية التي غالباً ما كانت تنتهي الى إصدار أحكام بالاعدام في حالات الاختلاسات الضخمة أو الرشاوي. وتميزت هذه الحملة، فيما تميزت به، بالتشديد على دور اليهود في انتهاك القانون السوفياتي.

تشير المحامية ايفغينيا إيفلسون في مذكراتها، الى أربعماية دعوى «اقتصادية» تعود الى مرحلة خروتشيوف. وتتصل، جميعها، بشكل ما «بالجريمة المنظمة»، ويرتبط معظمها «باقتصاد الظل» وتظهر، بشكل عام، فساد جهاز الدولة والحزب. «لا وجود لاقتصاد رديف مزدهر، كتبت ايفغينيا افيلسون، إلا بفضل الانتقال غير المشروع لمخزون المواد الأولية والتجهيزات من دائرة الاقتصاد الموجه الى الاقتصاد الرديف وهو انتقال يتم دائماً بشكل سري ومن أجل المال ومقابل رشاوى»[١٥].

وفي عهد بريجنيف، استمر «اقتصاد الظل» بالتطور والازدهار، وبدورها أيضاً الجرائم الاقتصادية (انتهاكات القانون السوفياتي)، الافساد، والجريمة المنظمة. وبدأت إشاعات تروج في بداية الثمانينات حول ضخامة جرائم الفساد، ولكن الصحافة اكتفت ببعض الحالات المعزولة ولم تتناولها إلا بشيء من الخجل. ولم تتوالَ الفضائح إلا بعد انتخاب ميخائيل غورباتشيوف. وقد أعطت البرافدا إشارة البدء عندما نشرت مقالة بعنوان: «كوبرا فوق الذهب» وفي كانون الثاني ١٩٨٨ رميت الكلمة للمرة الأولى رسمياً: «المافيا». «لا تستهين المافيا بأية وسيلة. بما في ذلك الاتفاقات

السرية لتقوية الاسلام. . .»[١٦] والمقصود هنا المافيا الأوزبكية تحديداً، إلا أن جميع الأبواب تبدو الآن قد فتحت: الجرائد والمجلات تنشر مقالات عن المافيا إضافة الى الأحاديث الاذاعية والبرامج التلفزيونية. وتتسع جغرافية الوباء. وهذا ما يحصل في الجنوب بالطبع، فهو «الغلونديك» Klondike العائد لنا، كما بات يُسمّى، فجميع أعضاء قيادة جمهورية أوزبيكستان «منباعين»، بمن فيهم السكرتير الأول للجنة المركزية. والوضع يبدو نفسه في كازاخستان. أما في أوكرانيا فالمدن الأشد إصابة بالوباء هي كييف، ليفوف أوديسا، دونتسك. دنيبروبتروفسك. راسماً خريطة المافيا، يدقق غوروف قائلاً: «حالياً إنه من باب الحظوة والنفوذ في عالم الجريمة أن يجري التحكم بالمدن الصغيرة. في منطقة موسكو نجد مثلاً بالاشيخا، ليوبيرتسي، بوشكين، أوريخوفو ـ زوييغو»[١٧]. وتبقى أهمية مدنية ما مفهوماً نسبياً: فكييف تعد أكثر من ٢,٧٥٠,٠٠٠ نسمة، وأوديسا أكثر من مليون، أوريخوفو ـ زوييغو ما يقارب ١٥٠,٠٠٠ فيما لا تصل بوشكين إلا الى حدود ٨٠,٠٠٠. غير أن كييف نفسها ليست مدينة كبرى بالمقارنة مع موسكو. ويروي الصحافي الموسكوبي ميخائيل بولتورانين الذي شغل فترة ستةاشهر موقع رئاسة التحرير في موسكوفسكايا برافدا حين كان بوريس يلتسين سكرتيراً أولاً للجنة الحزب في موسكو. «تسير الأمور في المدينة الآن، لأن الرشوة والفساد يزدهران على كل الأصعدة، إن المافيا في موسكو قد تكون في الأصل متفرعة عن المافيا الصقلية». مثل هذا التصريح قد يكون مرده المرارة: حيث فقد محرر الموسكوفسكايا برافدا موقعه بالتزامن مع يلتسين. ويمكننا أيضاً أن نتصور، أن هناك من جانب الصحافي نوعاً من التفاخر المقلوب: ألم يعتبر من فترة ليست ببعيدة إن كل ما هو سوفياتي هو «الأعلى» والأفضل ولكن الأمر يظل على ما هو عليه. فلتمديد الوضعية في موسكو خلال عشرات السنين من حكم غريشين تم اختيار مفرد جديد: «المافيا».

كيف يمكننا أن نفسر هذا الاختيار؟ وما هو التعريف الذي نعطيه لهذا المفرد؟ بأي شيء تتميّز المافيا عن الجريمة المنظمة في العصور السابقة؟ الأجوبة الأولى عن هذه الأسئلة قد أعطيت من قبل الصحافيين والمنظرين ورجال القانون. ومن المؤكد أن هذه الأجوبة ما تزال بعيدة عن أن تكون شاملة أو حتى عميقة بما يكفي.

وهناك إجماع على القول إن من الدلائل الكبرى على وجود المافيا «ارساء العلاقات

بين ممثلي السلطة وعنصر الاجرام»(١٩) وليس هنا أيضاً تباين في الرأي حول أسباب ظهور المافيا: «تضرب جريمتنا المنظمة جذورها في النظام الاداري وفي نظام التحكم الشامل وما لا ينفك عنه من طرق إدارية(٢٠).

ولكن إذا كان «النظام الاداري ونظام التحكم الشامل» قد ظهرا استناداً الى ما يقر به القادة السوفيات اليوم، قبل عشرات السنين (لم يحدد التاريخ الرسمي بعد)، فإننا نتساءل لماذا لم تبرز المافيا إلا في ظل بريجنيف وفي عصر «الركود». أما الفساد ـ وهو شرط لا بد من توفره لولادة المافيا ـ فليس جديداً هو الآخر. في ١٩٢٧، أبدى رجل قانون سوفياتي الملاحظة الآتية: «منذ ١٩١٨ ولغاية اليوم ما تزال الرشاوى مزدهرة في المؤسسات السوفياتية»(٢١) وهي ستستمر في ازدهارها طوال عشرات من السنين المقبلة. ويشهد على ذلك العدد الهائل من الدعاوى القائمة في هذا الموضوع، رغم الحرب التي تخاض لمكافحتها دون شفقة ـ وهي حرب لم تزل مستمرة ـ في ١٩٢٦ وجهت اللجنة المركزية دعوة لجميع تنظيمات الحزب: «سنستأصل بالحديد والنار السرقة والابتزاز واللاشرعية والتعسف»(٢٢) ويبقى اليوم هذا الشعار راهناً.

إن القحط المزمن الذي لا ينفك عن النسق السوفياتي واقتصاد الظل الذي يتفرع عنه يشكلان الأرض الخصبة التي تترعرع عليها الجريمة المنظمة. فالمافيا هي إذن خاصة جديدة لظاهرة طبيعية بالنسبة للدولة. وذلك اثر الأزمة التي أصابت سلطة البلاشفة. في ١٩٢٧ لحظ رجل قانون أنه «من بين الأشخاص الذين استجوبوا أمام المحاكم وأدينوا بتهمة الاختلاس، في الفترة التي تتراوح بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٥ بما في ذلك الدعاوى الكبرى، ٧٠ بالمائة اخضعوا لتحقيق من الدرجة الأولى أو المتوسطة أو في منزلهم. ومن الناحية المهنية يغلب بين الشخصيات البارزة المدعى عليها المهندسون والتقنيون، ومن ناحية الأصل الاجتماعي فالغلبة تبقى للانتليجنسيا البرجوازية»(٢٣) وقد عرف هذا الأصل الاجتماعي الخاص «بالشخصيات البارزة المدعى عليها» تحسناً كبيراً وكذلك المستوى الثقافي الذي يتمتع به المجرمون. ومن الصعب الاتفاق مع يوري تشوربانوف، نائب وزير الداخلية بالوكالة والذي كان يؤكد أنَّ «معظم المجرمين الخطرين (ويبدو أنه من موقعه على اطلاع تام بما يقول) كانوا من الأشخاص ذوي التفكير البدائي والذكاء المحدود ويميلون الى السكر والطفيلية والتسكع»(٢٤). إلا أن تشوربانون قد غيّر رأيه على الأرجح، عندما وجد نفسه بعد ثماني سنوات، في قفص

الاتهام أمام المحكمة. والواقع أنه تكفي قراءة عناوين الصحف، ففي مولدافيا القي القبض على السكرتير الثاني للجنة المركزية وعلى نائب ـ رئيس مجلس وزراء الجمهورية. وفي موسكو مثل أمام المحكمة العمال المسؤولون في وزارة الصناعة الخفيفة في (R.S.F.S.R) الذين، من (١٩٧٠) الى ١٩٨٢)، قدموا رشاوى الى بروفين سكرتير بريجنيف. وفي الجمهورية التركمانية أُدين وزير صناعة القطن. وأخيراً في أوزبكستان أوقف (بين أشخاص آخرين) ٩٨٪ من مسؤولي الادارات الاقليمية في الداخلية، إضافة الى معاوني وزير الداخلية والوزير نفسه.

وحده الانتحار أنقذ وزير داخلية الاتحاد السوفياتي شتشولوكوف من المثول أمام المحكمة. الواقع أن المحاكمة «الوحيدة» التي حصلت، وأثارت العديد من التساؤلات التي ظلت مُربكة: إنها محاكمة شوربانوف. وأخيراً، حضر في المؤتمر التاسع عشر للحزب أربعة مندوبين متورطين في «قضية أوزبيك» وقد ألقي القبض عليهم ما إن ختمت الجلسات. ويمكننا أن نعدد الأمثلة... أما الآراء بشأن درجة التحقيق القضائي ونمط تفكير «المجرمين الخطرين» الذين أوقفوا وأدينوا فيمكن أن تكون متعارضة. ولكن غالب الظن أن أصلهم الاجتماعي كان يروق كلياً لأقسام الكوادر وإلا لكانوا وأجهوا بعض المصاعب في إنجاز احترافهم.

وهناك، على أية حال، شيء أكيد: جميع أعضاء الحزب هؤلاء ينتمون ـ بالمعنى الواسع للكلمة ـ الى جهاز الحزب أي أن كلهم كانوا من أصحاب «النومانكلاتورا». ويكاد أن يكون توقيف أحد المفسدين الأربعة في ختام مؤتمر الحزب، سميرنوف، وهو مسؤول قطاع في قسم العمل التنظيمي والحزبي التابع للجنة المركزية نموذجاً في نوعه. ويعتبر هذا القسم (الذي سمّي من جديد «لجنة» في إطار «الاصلاح السياسي») دماغ النومانكلاتورا. وهو يتحكم بالتعيينات في جميع المواقع المهمة في البلاد. ويبيّن تاريخ الاجرام في الاتحاد السوفياتي أن القطاع الأشد قابلية للجريمة إنما هو الحزب الشيوعي، وقبل ذلك جهاز هذا الحزب.

ويسهم موقع الحزب في دورة البلاد الحياتية والدور القيادي الذي يضطلع به والمحدد (حتى ١٩٩٠) في الدستور، الى حد بعيد، بتحويل البلاد الى منطقة يسودها التوحش، وحيث يولّد العدد الهائل من القوانين، الحاجة الى انتهاكها. ولا يرتبط

الطابع الاجرامي الذي يميز الجهاز بمزاج تركيبته. فمما لا شك فيه أن طريقة الانتقاء «الطبيعي» تؤمن إستمرار حياة الأشد تكيّفاً مع النظام. ولقد كان لمرحلة بريجنيف هذه الميزة وهي أن الفساد قد وصل خلالها الى رأس قمة السلطة. لقد كان لينين، ستالين وخروتشيوف متعطشين الى السلطة غير أنهم لم يسعوا رغم ذلك الى لوازمها الخارجية، إضافة الى أنه كان زمنٌ حيث المتعصبون للفكرة يدعون الى الزهد. أما ليونيد ايليتش بريجنيف ، فقد كان دائماً وعلى العكس من ذلك، بحاجة دائمة الى لوازم السلطة والثروة التي تؤمن الجاه لبطانته. وهناك نادرة شاعت بعيد صعود السكرتير الأول الى العرش وهي تصف بدقة روحية العصر الجديد. يصطحب بريجنيف والدته العجوز التي أتت لزيارته في جولة على شققه الفخمة ثم يريها ما يملك من ذهب وأحجار كريمة وأوانٍ صينية وفرو. وما كان من والدته إلا أن قالت له: ولكن ليونيا ماذا لو عاد البلاشفة؟!» وهناك العديد من القصص الحقيقية التي رسخت في أذهان الناس، وهي أشبه بالنوادر قصص عن الهدايا خلال رحلاته الى الخارج (يقوم السكرتير العام بجمعها: إنها هوايته) وعن «الرولكس» الذهبية التي رآها في معصم أحد مستشاري كيسنجر فأخذها مقابل ساعة سوفياتية من معدن أقل ثمناً. أي كما يقول اللصوص «لقد عرف كيف ينهب (يلطش)» ولقد غيّر تذوق السكرتير العام المرضي للثروة، الأجواء داخل جهاز الحزب. لم يعط بريجنيف المثل فحسب، أي أنه لم يكتف بأن يجعل من الترف موضة، بل فرض على رجال الجهاز الاثراء فرضاً. فليس لأحد أن يتخلّى عن «اللعبة» كما أنه لا يمكن لأعضاء العصابة أن يخرجوا دون قصاص عن «هدفها المشترك». وقد أرغم، تأمين الهدايا الثمينة لبريجنيف بمناسبة أعياد ميلاده وأعياد أخرى، أمناء المناطق على فرض إتاوة جديدة في اقطاعاتهم.

وقد روى مسؤولو الحزب، الذين أوقفوا في أوزبكستان لمراسلي البرافدا كيف كانت تجري هذه الأمور عملياً: «كان رشيدوف يجول مع زوجته مرة أو مرتين كل عام في أنحاء الجمهورية، ويقوما، من بين أشياء أخرى، بسحب اتاوة من عندنا، نحن أمناء الأقاليم، وهذا ما كان يبدو من الأمور الطبيعية. وعنون هؤلاء الصحافيون مقالتهم: وهم يقصدون هذا الرتل من المرتشين الذي يشير إليه أحد الموقوفين: «المهم هو هذه الركيزة في جهاز الحزب والسوفيات فأنا لم أكن أقبل اية رشوة إلا من الأشخاص الموثوقين. وهكذا كان يتصرف أمين اللجنة الاقليمية دون الحديث عن مندوب اللجنة

المركزية. وها إننا نصل الى نقطة جوهرية إنه يمكننا أن نحطم الركيزة إلا أن النظام «سيبقى»[٢٥].

لقد تم في منطقة واحدة، الاوزبكستان توقيف ١٢٢ مسؤول من مختلف الرتب، أدين منهم ١١٥.

كما جرت مصادرة أكثر من خمسة ملايين روبل. ولا يعتبر قاضي التحقيق فلاديمير كالينيتشانكو المكلف عادة بالقضايا الخطيرة من قبل مدعي عام الاتحاد السوفياتي، إن أعمال التوقيف هذه (أو ما يشبهها) تشكل نصراً كبيراً: «ذلك لأنه لا بد أيضاً من توقيف الذين حلوا مكانهم». وبناءً لرأيه فإن العديد من أعمال التوقيف التي طالت بعض القادة سواء في كازاخستان أو في أوزبيكستان «لم تدخل أي تعديل على الوضعية الاجرامية»[٢٦] وتدفعنا المحاكمة المهزلة التي جرت ليوري تشوربانوف، صهر بريجنيف ومعاون رجل الميليشيا الأول في البلاد، وأدانته السخيفة بالارتشاء بمبلغ ٩٠٩٦٠ روبل الى الظن بأنَّ المتهم ربما كان يعرف أكثر مما يجب، حول نوعية الهدايا لتي كان الأمين العام المقبل غورباتشيوف يقدمها لبريجنيف، يوم كان أمين منطقة ستافروبول وحين كانت ألسنة السوء تطلق عليه مازحة لقب: «ميشكا ـ الظرف الصغير». إذاً، جاء انضمام القائد الى هرم الفساد كتتويج للنظام. فالمزايا الشخصية لكل «برغي» في الجهاز لم تعد مهمة: فالآلة تقوم بالفرز، قاذفة، ساحقة كل من يقف في طريقها، ويرفض الانصياع. إن الاشتراك في الفساد العام ـ كل في مستواه ـ قد أصبح السنّة الاخلاقية «الوحيدة». ولجهاز الدولة الكلي القدرة والدائم الحضور، يدٌ في الأرباح غير المشروعة أياً كان مصدرها تجد الجريمة المنظمة في البلدان الغربية «المهترئة» مصادر تمويلها من خلال تشجيع الرذيلة: التحكم بشبكات تهريب المخدرات، والميسر. . . أما في الاتحاد السوفياتي فإن الجريمة المنظمة تخلق ثروتها محاولة تلبية حاجات المواطنين الأساسية. «فمن المؤكد أن اقتصاد الظل» يجلب المال لمنظمي المنشآت غير الشرعية التي تنتج ما لا يتوفر في الأسواق (منسوجات بأكياس البلاستيك) إلا أنه يُغذي أيضاً جهاز الحزب. فهو مصدر خطير للثروة: يقدر الاقتصاديون رواج البضائع في دورة «اقتصاد الظل» بين ٧٠ و٩٠ مليار روبل[٢٧].

تعطي السلطة غير المحدودة، إمكانيات غير محدودة للاثراء. وقد أكد المحققون

الذين يعملون في أوزبيكستان، التي أصبحت واجهة الفساد وذلك من أجل المواطنين السوفيات ولاشباع رغباتهم والسهر على مصلحتهم المعنوية، أن عملية معالجة القطن وتحويله، تكفي لسرقة ١,٥ الى ٣ مليارات روبل. ويعطي طابع الرقم التقريبي فكرة عن مدى اتساع عملية النهب. في كل جمهورية من الجمهوريات يجد «المعلمون» ـ من مسؤولي الحزب ـ الوسائل للاثراء وكل بما لديه من وسائل يزيد الى الفساد فساداً. في سنوات الصدمة النفطية، جنى الاتحاد السوفياتي أرباحاً لا تقل عن ١٧٠ مليار روبل من السوق العالمية. وقد قرر البروفسور فلاديمير شاستيتكو انه لو أديرت هذه الثروة بطريقة جيدة لسمحت بتسوية مشكلة صرف الروبل التي بقيت دون حل[٢٨].

ويروي الصحافي قسطنطين لاغوتين بأية طريقة بربرية لصوصية تم استخراج النفط في سيبيريا الغربية وهو يعطي الأرقام التالية: في ١٩٧٠ في تيومن. بلغ الانتاج ١٠٠,٠٠٠ طن في اليوم. وقد بلغ في ١٩٨٣ المليون. ويضيف الصحافي أن الأرباح التي جنيت من نفط تيومين «أدت سريعاً، بعد افساد قمة السلطة الى افساد المراتب الأدنى»[٢٩].

لا يمكن أن توجد الجريمة المنظمة على مستوى بلد معين ما لم تجد أرضاً صالحة لها، أي ما لم تكن جزءاً لا يتجزأ من النسق، وهي لا يمكن أن تعمل عملها إذا ما وضعت الأجهزة القانونية العوائق في وجهها. والحال أن الميلشيا ومفتشيات الشرطة لا تقوم، بمكافحة المجرمين كما يشهد على ذلك العديد من المقالات والمقابلات والمحاكمات، لا بل أنها، وعلى العكس من ذلك، تساعدهم بشكل فعال، مساهمة بنشاط في عملية نهب الملكيات الاشتراكية، والتعاونية والخاصة. فبعد خمس سنوات على «البريسترويكا» فقدت الفضائح حول قابلية الرشوة لدى حماة القانون قدرتها على الإثارة.

كما ان تصريحات وزير داخلية الجمهورية التركمانية (المعيّن حديثاً) حول «الحرب بلا هوادة» ضد هؤلاء «الخونة» هؤلاء الذين لطخوا ثياب الميليشيا لم تعد تحدث أية ردة فعل، ذلك أنه سبق أن عددت جرائم وزير داخلية الاتحاد الأسبق، ومثل نائبه أمام المحكمة. لقد خصص جهاز يعتبر من أهم الأجهزة القانونية في الاتحاد السوفياتي أو بمثابة «سيف الثورة ودرعها»، بمكانة متميزة جداً: أنه جهاز (لجنة) أمن الدولة. ومنذ

انشائها في كانون الأول ١٩١٧ ، كانت الشرطة السياسية التابعة للينين كلية الوجود واعتبرت نفسها كلية العلم. وهاتان الميزتان تجعلان من<NKVD-KGB> سلاحاً ماضياً في يد الحزب. وتبعاً لذلك تبرز بعض الأسئلة. فاذا كان رجال المافيا قد توصلوا كما تشير البرافدا الى الاستيلاء في عصر بريجنيف على أعلى المراكز في هرم السلطة مؤثرين هكذا ليس على النمو الاقتصادي فقط بل أيضاً على التشريع الذي استطاعوا توجيهه بحسب مصالحهم»[٣١]، فهل كان باستطاعة لجنة أمن الدولة أن تتجاهل مثل هذا الأمر؟ ان قاضي التحقيق المكلف بالقضايا فوق العادة، نيقولاي ايفانوف، الذي رافق غدليان في التحقيق بقضية الاوزبيك، يتذكر الأشياء من بدايتها: «هكذا. في تشرين الثاني ١٩٨٢ ، مات بريجنيف، وأصبح أندروبوف سكرتيراً عاماً. وعلينا أن لا ننسى أنه قاد الـ كا. جي. بي، طوال سنوات عدة، أي أنه كان مطلعاً بعمق على وضع البلاد على صعيد السياسة الداخلية، وانه يستحيل أن يكون غافلاً عن خطورة اللحظة التي يمر بها المجتمع. كان أندروبوف وطنياً مخلصاً ومن الطبيعي أن يتألم لآلام الشعب والدولة. وهذا ما انعكس سريعاً وبشكل ملموس على سياسته». ثم ان نيقولاي ايفانوف يضيف «إنه في السبعينات وبداية الثمانينات كانت القضايا الشديدة الخطورة المتعلقة بعصابات المجرمين المنظمين تثأر من قبل لجنة أمن الدولة وأجهزة وزارة الداخلية ولكن ضمن حرصها على عدم الكشف عن الأمور المهمة»[٣٢]. وهنا أمر أكيد: لقد تم الاعلان عن «قضية أوزبيك» اثر اكتشاف «مطار» في اوزبيكستان من قبل الـ. كا. جي. بي. ، أضف الى ذلك أن مجموعة غدليان شكلت لمتابعة التحقيق في أيلول ١٩٨٣ ، أي بعد تولي اندروبوف منصب الأمين العام.

والواقع ان الاعلان عن هذه القضية تم. كما يؤكد «المناضلون ضد المافيا» بمبادرة منه. وقد كتبت أولغا تشايكوفسكايا من جانبها: «اني أجهل من أمّن لغدليان وايفانوف مثل هذا الدعم الهائل على مستوى البلاد. . . » غير أن هذا السؤال غير مطروح في الواقع فعمليات التحقيق بالقوة، والرغبة في التوصل الى النتائج مهما بلغ الثمن، وعلى حساب القانون اذا اقتضى الأمر، والمهارة في إثارة «غضب الشعب» ضد «اعدائه» لم تكن إلا وسائل تقليدية في «ترسانة» مناضلي «السيف والترس».

إلا أنه لا يمكننا التغاضي، ولنستخدم هنا لغة قاضي التحقيق ايفانوف، عن أن يوري اندروبوف قد أصبح رئيساً للـ. كا. جي. بي سنة ١٩٦٧ ، أي تماماً في اللحظة

التي يعتبرها مدوّنو سيرة المافيا السوفياتية لحظة بدء تاريخها. كيف نقيم هذا الأمر؟ هل رأى أن الأمر يسير على هذا النحو ولم يفعل شيئاً لمنعه؟ أم أنه لم يرَ في البداية شيئاً ولم يفتح عينيه إلا بعد ذلك؟ أو أنه كان على اطلاع تام بالأمر وكان يحضر الملفات التي سيستخدمها فيما بعد؟ أو أنه هو نفسه كان عضواً في المافيا؟ إننا لا نعرف شيئاً عن أندروبوف إلا ما يحلو له أن نعرفه عنه. وهو من الذين يثنّى على صدقه وزهده. وفي هذا الدفق من الانكشافات والفضائح بشأن جميع أجهزة السلطة السوفياتية يبقى الكلام نادراً حول حالات الفساد داخل لجنة أمن الدولة. وعندما يحصل ذلك يبدو الصحافيون وكأنهم يعتذرون عن فعلتهم: «كان من المستحيل اكتشاف مصدر المال الذي كان الموظف السابق في الكا. جي. بي في منطقة أوديسا بوبوفسكي. . . المطرود من أجهزة أمن الدولة، يستخدمه لاقامة الولائم الكبرى. مع الكونياك والكافيار مباشرة في خليته»(٣٣) ويشدد الكاتب على «أنه «موظف سابق» مطرود من أجهزة. . . »

وفي ربيع ١٩٨٨ مبيناً الطابع المحتّم «للبريسترويكا» كخيارٍ وحيد لانقاذ البلاد، أقام أندريه ساخاروف بخاصة، جردة بنشاطات الـ. كا. جي. بي. مشيراً الى «الدعم الجديد لهذه المنظمة» في السبعينات والثمانينات يبيّن الاكاديمي أن للدور الذي يضطلع به أمن الدولة أوجه عدة: «فهو من جهة يمارس قمعاً رهيباً ضد كل من له تفكير مغاير. . لقد أُضطهد المنشقون في السبعينات والثمانينات بوحشية وأمضى الكثير منهم سنوات عديدة في السجن أو المعتقل أو المصح العقلي.

ويأتي ساخاروف على ذكر بعض الأسماء الواردة في القائمة الطويلة لضحايا الـ. كا. جي. بي، وهو يتكلم عن علاقات محتملة بين الـ كا. جي. بي و «الارهاب العالمي». وعن نشاطات هدّامة أخرى، مشدداً على أنه في إطار الغلاسنوست لا بد من القاء الضوء على هذه الاتهامات. إلا أن ساخاروف يكتب من جهة مقابلة، أن الـ كا. جي. بي كانت، بفضل طليعيتها، عملياً القوة الوحيدة التي يطالها الفساد والتي أقدمت تبعاً لذلك على التصدي للمافيا»(٣٤) وبالطبع فقد تمسكت الكا. جي. بي، بشهادة حسن السلوك هذه المعطاة من جانب سجين سابق على يد أجهزة أمن الدولة وذلك لدعايتها الخاصة. غير أن تصريحات أندريه ساخاروف تبدو موضع شك، وذلك لسببين: فمن جهة ما من أحد بعد أجرى تحقيقاً حول نشاطات الكا. جي. بي، وأنه ما يزال مبكراً جداً البت في مدى نظافة اللجنة، وإن لم تكن قد طالها

الفساد. هذا ناهيك عن أن التجاوزات الهائلة التي ارتكبتها أجهزة السلطة لا تقل قدرة على الافساد عن حب المال والولوع بالذهب. ومن جهة أخرى، من الصعب تحويل الكا. جي. بي الى مناضل أسطوري ضد المافيا بعد أن رأينا أن ظهور الأفعى الرهيبة كان بالضبط في فترة تولي «المعلم» أندروبوف رئاسة اللجنة.

يكشف تبني كلمة مافيا فجأة، وكأنما تم ذلك بناء على اشارة معينة (ما من شك أنه قد أعطيت مثل هذه الاشارة)، ان المسألة في الأساس هي ذات طابع سياسي. من المؤكد أن مشكلة الجريمة، مشكلة الجريمة المنظمة موجودة هي أيضاً، كما وجدت من قبل، طوال عشرات السنين. ولكننا اليوم نملك أدلة كافية تثبت أن ها هنا صلة وثيقة جداً أو نوعاً من التواطؤ، كما يقول الخبراء بن الجريمة المنظمة وجهاز السلطة. «المافيا»، كلمة تم اختيارها بمهارة، فهي لا تتطلب أية ترجمة، وتثير مباشرة عدة تداعيات سينمائية وتلفزيونية، ولا تدل إلا على ما يريد مطلقها أن يحمّلها من دلالة، وهي تتمتع بفعالية عظيمة أكبر بما لا يقاس من تلك التي تحملها عبارة «جريمة منظمة» المغمّة. وقد تحول هذا المصطلح الى سلاح جديد للصراع على السلطة، وأخذ مكانه في المعجم السياسي لعصر غورباتشيوف الى جانب كلمتي «بريسترويكا» و «غلاسنوست».

«مافيا» ـ الكلمة قد أطلقت. وتم تعيين العدو باسمه. والقائد الذي حل مكان إدارة «عصر الركود» الفاسدة، يلعب الآن دور المنظف الأكبر لاصطبلات أوجياس البريجنيفية. والرجل الذي يقاتل المافيا يمكنه أن يعتمد على دعم الشعب. ويعتبر انتخاب غدليان وايفانوف، مثلاً مقنعاً في هذا المجال. وفي سياق اجراءات تثبيت الوزراء في مهامهم، طرح السوفيات الأعلى على فاديم باكاتين المرشح لمنصب وزير الداخلية: لماذا لا تتصدى الميليشيا للمافيا؟ وقد أجاب المرشح مرتاحاً، من على كرسيه الذي تربّع عليها سريعاً، وقد كان، على أي حال، يحتلها من قبل: «إنها تتصدى لها، وقد أنشئت وحدات خاصة ويمكننا تعداد الاوكار التي تمت تصفيتها»(٣٥).

ولم تتأخر عملية إعلام الصحافيين بالنجاحات الأولى: في موسكو سمحت عملية ناجحة تماماً بوضع اليد على ترسانة، إضافة الى بضائع بقيمة ١,٣٠٠,٠٠٠ روبل،(٣٦) شكلت «مكافحة المافيا» وسيلة لذلك حصون منظمات السلطة المحلية التي

تم بناؤها طوال عشرات السنين، وذلك بإزالة بعض القطع المعزولة من الآلة ـ المفسدون من محاسيب الادارة القديمة ـ دون تغيير فعلي في البنى، إضافة الى أنها تقدم برهاناً على فعالية المعركة التي تخاض من أجل «العدالة الاجتماعية». فهكذا عندما افتتح في موسكو معرض الثروات والكنوز التي ضبطها فريق غدليان في أوزبكستان نقل التلفاز الى كل بيت سوفياتي صور الطاولة التي ترزح تحت ثروة تقدر بثمانية ملايين من الروبلات، فلا يشكنَّ أحدٌ: إنها مطاردة الأغنياء، انه إحقاق الحق وبسط العدل!

ونفهم في هذا الاطار المغازي التي تحملها ملحمة غدليان وإيفانوف المدهشة، بوصفهما قاضيين تحقيق استخدما الطرق السوفياتية التقليدية، إلا أنهما عرفا كيف يستفيدان من الوضع ويظهرا بصورة روبن هود الذي ينزل القصاص بأقوياء هذا العالم، ويحلم بتوزيع الثروة على الفقراء. إلا أن مدعي عام الاتحاد السوفياتي اكتشف في أفعالهما «مخالفات شنيعة ضد الشرعية الاشتراكية» . ولقد صدقّت اللجنة الخاصة المنبثقة عن السوفيات الأعلى على هذه الاتهامات. واقترحت رفع الحصانة البرلمانية عن المتهمين وملاحقتهما أمام المحاكم. غير أن السوفيات الأعلى لم يتقيد، كما رأينا سابقاً، بقرار لجنته مفضلاً الاصغاء الى صوت الجماهير التي إحتشدت في الساحة الحمراء في نيسان ١٩٩٠ لتحيي بحماس إنجازات روبين هود.

وقد كتب رئيس تحرير أخبار موسكو(٣٧). «عندما يتعلق الأمر بالمافيا، يقتنع الناس بأي شيء، حتى الاشاعات الأشد غرابة. وهذا عملي جداً: لأن من يصدق أي شيء، يمكنه أن يطلق أي إشاعة. وها هنا اختصاصيون في هذا المجال. وهكذا في سياق وصفها «للبروغروم» (المذبحة) ضد الميشكيت في وادي فرغانا خلال صيف ١٩٨٩، أعادت الكازاخستان سكايا برافدا الى الأذهان عملية ترحيلهم سنة ١٩٤٤: «لقد أعد الاطار النفسي (لعملية الترحيل) بأسلوب يعتمد الخبرة والدقة والتبصر، إذ كان لدى NKVD خبراء في جميع الميادين قادرون على التحدي والاثارة بصورة مركبة تطال عدة مستويات، إضافة الى كونه أسلوباً صلباً على الأقل من خلال الاشاعات التي يثيرها، ويدعِّم بشيء من الحنكة، ثقة الناس ويستحوذ على قناعاتهم أكثر من أي صِيغ رسمية!»(٣٨) ولا شيء يسمح لنا بالاعتقاد أن الـ كا. جي. بي قد نسيت تقاليد الـ NKVD . ومهما يكن الأمر تسري الأقاويل كما يحلو لها، ويُشاع أن التعاونيات هي تنظيمات تابعة للمافيا. وأثناء «بريفينغ» (اجتماع التعليمات الصحافية) يهدف الى تقييم

مكافحة الجريمة في موسكو، أعلن الجنرال بوغدانوف أنه يوجد بين موظفي وزارة الداخلية من هم على درجة من «السفالة» تجعله يتعاون مع المجرمين. وقد لجأت الميليشيا الى حملة تنظيف واسعة: ففي الستة أشهر الأولى من عام ١٩٨٩، طرد ٩٨٠ عنصراً. «٦٠٠ منهم على الأقل تم تفريغهم في التعاونيات، وهو رقم يثير قلق الكثيرين»[٣٩]. وهنا الإشارة ولا أوضح: فاسدين مكشوفين يوضبهم حماة النظام في التعاونيات، بوصفها مصدر أغواء وإثراء غير مشروع، وبؤرة للظلم الاجتماعي.

لقد شحذ النظام السوفياتي سلاحه لمحاربة الخطر الداهم قبل أن يشتد عود الحركة التعاونية وقبل أن يتشكل السوق، الذي يرى فيه علماء الاقتصاد الداعمين للاصلاح، أمراً لا مفر منه. وتبعاً لذلك فإن خطر «الجريمة المنظمة» قائم. واقعاً، بذاته. وقد حدد بعض خبراء علم الجريمة بنية هذا النوع من الجرائم ورأوا فيها مستويات ثلاثة[٤٠]. يحكى الآن عن وجود ١٢٠٠ عصابة على الأقل، إضافة الى أنه يخشى أيضاً من أن يأخذ «العرّابون» حجماً يسمح لهم وإن بعد حين بتعاطي السياسة بفعالية»[٤١]. ونفهم أن يكون هذا الأمر مقلقاً. ذلك أنَّ المافيا هي، في الوقت الحاضر، المجموعة غير المشرعة الوحيدة التي تستطيع فعلياً التأثير على الدورة الحياتية في البلاد وقد تخوف الشيوعيون دائماً من التنظيمات السرية أكثر من أي شيء آخر.

والحال أنه حتى هذه اللحظة ورغم ما تبذله الأجهزة العدلية من جهود، لم يَصر بعد الى اكتشاف «معلمي» «الجريمة المنظمة» الحقيقيين. فتشوربانوف أو كبار الموظفين الآخرين الذين ينهبون الدولة ليسوا في أحسن الحالات إلا «خناجر من الصنف الثاني» أي انهم، وإذا ما رجعنا الى هرمية المافيا، لا يحتلون إلا الطابق الأول حيث «مجموعة الحماية» و «مجموعة الأمن». ويقدر الخبراء أن هناك روابط تنعقد بين عصابات المدن المختلفة وربما لينبثق عنها تنظيم مركزي. إذن فها هنا خطر فعلي في أن يبرز حزب ـ قوي ـ ثاني. وهذا ما أشار إليه أحد الصحافيين حيث قال: «على أن لا تحل مكان فئة البيروقراط الشائخة فئة رجال العصابات، سلطة اللصوص» ثم أضاف: «وليس ما نقوله فرضية تقترب، كما قد يعتقد البعض، من المحال»[٤٢]. ومن السهل أن نتفق معه. إذ كيف يمكننا، رغم كل شيء، أن تحدد سلطة شخص مثل راشيدوف في أوزبيكيستان أو مثل كونييف في كازاخستان أو غريشين في موسكو؟ محاولاً تفسير «أحداث فرغانا» هذه المجازر الدامية، التي ذهب ضحيتها الأتراك ـ الميشكات الذين

يعيشون في كازاخستان، أشار قائد الوحدات الداخلية الى أنه «يوجد في هذه، ودون أدنى شك، مركز تنسيق إضافة الى تنظيم إجرامي قوي وجيّد التمويه». أما قائد الادارة المحلية في الكا. جي. بي، فقد أعلن من جهته أن فرغانا شهدت عشية المجزرة قدوم «سلسلة من المجرمين الشديدي الخطورة في RSFSR» وكذلك يلحظ حراس النظام أن «أياً من زعماء العصابات لم يُصب حتى الآن بالارق»[٤٣]. وتوجه ضد المافيا أيضاً تهمة تنظيم المجازر في سومغيت (كراباخ ـ العليا)، وباكو، ومناطق أخرى في البلاد. وكقاعدة عامة تلصق هذه الاضطرابات بالقيادة السابقة «الفاسدة» للحزب.

ويكاد يكشف الموقف من المافيا، نموذج «البريسترويكا»: بروز المصطلح، المقالات المثيرة في الصحافة، الفضائح التي غالباً ما تطال الافراد، أي كل ما يلزم من عناصر. ولقد باتت مسألة «المافيا» أساساً، وككل ما عداها من مسائل، بعداً من أبعاد الصراع السياسي. وتكشف طريقة مقاربة هذه المشكلة خاصة مهمة تتميز بها «البريسترويكا» وهي القدرة ـ كما في الجيوجيتسو ـ على تحويل الضعف الى قوة. أي على قلب الوضعية من خلال الدعاية. ما هو ملفت حقاً أن يقتصر الأمر على الكلام والاثارة، ونبش فضائح الماضي. وهذا ما يؤكده ايغور اياكوفليف حين يقول «ما تزال المافيا اليوم تمد أصابعها لتتدخل في جميع شؤوننا الحياتية»[٤٤]. وهكذا بتنا اليوم لا نستطيع التفكير بالحياة السوفياتية دون استحضار الجريمة المنظمة كظاهرة لا تنفك عنها. وفي الحقيقة لكل بلد المافيا التي يستحقها. والمافيا السوفياتية تسمّن من خلال تلبيتها الحاجات التي يعجز النظام عن أشباعها.

وختاماً نقول بشيء من السخرية، محرّفين قول الشاعر: الحزب والمافيا توأمان ـ مافيا سوفياتية وحزب شيوعي سوفياتي.

الجزء الخامس

بيضة كريستوف كولمبوس
حول الاصلاح السياسي

«كان الكسندر الاول ليعطي بإرادته الحرية للعالم أجمع، شرط ان يقبلوا الخضوع لارادته وحدها».

آدم كزار توريجسكي.

«انتم مدعوون لتجديد حزب بالٍ ومقرف بسبب ركوده»[1].

فيودور دوستويفسكي (المسحورون)

اذا كان السؤال حول من هو الأول، الدجاجة أم البيضة، قد وجد حلاً له. فإن السؤال حول الخطوات الأولى المفترض انجازها من أجل اصلاح نظام من النمط السوفياتي، يتوقف على اثارة النقاشات. بما نبدأ؟ فأمام غورباتشيوف خيارات عديدة. فهناك عدة نماذج من «البريسترويكا» التي تم إختيارها أمام ناظريه. النموذج الصيني: بدأ دنغ تسياوبنغ بالاقتصاد، مضفياً على نفسه صنعة المصلح، الليبرالي، الديموقراطي، محرراً بذلك حماس رجال السياسة ورجال الدولة الغربيين. وحدها بولونيا جيرك فضلت وصفة شعبية في الطب تعود لسنوات العشرين: طُعم غدد القرد، التي تعطي للمسنين القوة الجنسية. فقد استبدل جيرك هذا الطعم وببساطة بعملية حقن للاقتصاد البولوني المتزعزع ببضعة مليارات من القروض. اما ورثته فقد اختاروا من أجل ترميم بعض الأسس السياسية: الاتفاق مع «التضامن» وذلك للتمكن من سحقها لاحقاً. أما هنغاريا كادار فقد وضعت كامل رهانها في الاصلاح الاقتصادي. فيما بالنسبة ليوغوسلافيا، صاحبة الباع الطويلة في التجريب: فلقد أنجز تيتو اصلاحات اقتصادية وسياسية في الوقت نفسه. ثم اخيراً وليس آخراً كما يقول الانكليز، هناك رومانيا. فقد استخدم تشاوشيسكو وصفة المرآة السحرية، التي تظهره أمام الغرب بهيئة رجل الدولة المستقل، والمشغول أساساً بسيادة بلده.

وكان بإستطاعة غورباتشيوف أن يرى نتائج هذه التجارب في «المختبر». كتب غوركي في ١٠ كانون الأول ١٩١٧، في «افكار في غير زمنها» قائلاً: «ينظر مفوضو الشعب الى روسيا كما لو انها مادة اختبار، فالشعب الروسي بالنسبة لهم هو ذلك الحصان الذي يلحقه علماء البكتريا بمرض التيفوس بهدف ان ينتج دمه مصل مضاد للتيفوس. هذه هي بالضبط التجربة القاتلة وغير المؤهلة الا للفشل، التي يطبقها المفوضون على الشعب الروسي، دون التفكير بأن هذا الحصان المسكين، المنهك، ويضيف الجائع، يمكن ان ينفق»[٢]. واليوم وبعد سبعين عاماً، فإنه ثلث البشرية لعب دور الحيوان المخبري. ان حقل الرؤية قد اتسع كثيراً.

في كل مكان، كانت النتائج غير مشجعة. فما ان يبدأ الاقتصاد بالحركة، واعطاء

بعض الثمار، حتى يظهر ان العلاقات الاجتماعية مسمومة، وأن «القطار» عند حدٍ معين يتوقف من جديد. وإنه والحالة هذه، لم يبق الا الرجوع الى طريقة «بكين»، أو الاعتراف بضرورة اجراء اصلاح سياسي على الطريقة البولونية أو الهنغارية. كذلك بإمكاننا ان نستنتج انه من الأفضل اجراء اصلاحات، ولكن دون المس بالنموذج الستاليني المثالي، وعلى ضوء وجهة النظر هذه، فإن الصين تقدم درساً رائعاً. فخلال عشر سنوات، كان بنغ حبيب الجميع، لؤلؤة الاصلاحيين، والديموقراطيين، والليبراليين، ولكن عندما وجد ان سلطته مهددة، بعد عشر سنوات من الاصلاحات، أعاد الصين وبضربة واحدة الى زمن ما قبل الاصلاح. ففي المقابلة الاولى التي أجريت مع الصحافة السوفياتية، بعد إعلان حالة الطوارىء في الصين، أعلن أحد مسؤولي فدرالية النقابات الصينية ما يلي: «يرى عمالنا وبوضوح، أولاً، اننا لسنا بحاجة للديموقراطية على الطريقة الغربية، وثانياً، ان الديموقراطية يجب ان يحميها القانون»(٣).

في ضوء ما تقدم، بإستطاعة ميخائيل غورباتشيوف، استلهام التجربة السوفياتية التاريخية، فيغرف من احتياطي الوصفات الهائل من أجل معالجة الأمراض الدورية التي تصاب بها الدولة السوفياتية، ويبحث عن الأدوية المجربة، والمستخدمة من قبل لينين وستالين في حالات الأزمات الخطيرة. لقد اعتاد، اسلاف السكرتير السابع، اللجوء الى الاجراءات السياسية في المقام الأول. مما لا شك فيه، بالنسبة لغورباتشيوف انه لا بد من البدء من الاصلاح السياسي. فمن جهة، يتيح له ذلك الوصول الى ما هو اساسي: الامسك بالسلطة. ومن جهة ثانية، لأنه لا توجد في النظام السوفياتي الا المشاكل السياسية. السياسة هي كل شيء، وكل شيء هو سياسة. وأخيراً، لانه في ذهن الامين العام الجديد ومحازبيه، ان الأزمة الخطيرة التي تمر بها الدولة منذ أواخر السبعينات هي قبل أي شيء أزمة سياسية.

لقد بلغت التوتاليتارية مرحلة النضج. وفي الاتحاد السوفياتي، ما من احد يساوره الشك حول صحة هذا التشخيص: الجميع يعطون، انهم يعيشون في ظل دولة توتاليتارية. وعندما تسنح الظروف، فإن ذلك يعلن بشكل رسمي. يقبل البروفسور ماسلوف، الذي يرأس كرسي تاريخ الحزب في أكاديمية العلوم الاجتماعية، والمقرب من

اللجنة المركزية للحزب، بوجود «نوع من التوازي التاريخي بين الاشتراكية والفاشية حول سلسلة من النقاط».

ويقارن بين المانيا هتلر، واتحاد سوفيات ستالين[٤]. ويكتب الأكاديمي زخاروف قائلاً: «ان المغامرة الأفغانية تجسد، بمعنى ما، كل الخطر الناجم عن لا عقلانية المجتمع التوتاليتاري المغلق»[٥]. باختصار، هناك نقطة مشتركة بين الجميع: من ستالين الى بريجنيف، لقد عرف السوفيات التوتاليتارية.

ان التعريفات الكلاسيكية للتوتاليتارية، والتي صاغها حنّا أرندت وكارل فريديك، وزبغنيو بريجنسكي وآخرون، هي محصلة لدراسة ما يمكن تسميته بـ«شباب» النظام التوتاليتاري. أي السنوات التي تسعى ابانها السلطة الى بناء «رقابة مطلقة (شاملة) على كافة أوجه الحياة»[٦]، أو عصر الرعب الشامل، والخوف الشامل، وسطوة القائد الشاملة.

ليست الأزمة إلا محصلة لنجاح النظام التوتاليتاري. تروج في موسكو كلمة «ما فوق التنظيم». وهي تعني التنظيم الذي يقارب العبث. في عام ١٩٨٩، اكتشف بعض اطباء القلب ان القلب الذي ينبض بإنتظام كامل، لا يؤشر الى وضع صحي سليم بالضرورة. فهذه الحالة تشير الى خطر الموت الفجائي، فأهل العلم يدركون بأن القلب، كباقي الاعضاء والانظمة الفزيولوجية، بما في ذلك الدماغ، هي عرضة لبعض الفوضى. وكي نستعيد تعبير آري غولدبرغ: «القلب السليم يرقص، والعضو الذي يموت يكتفي بالمشي»[٧].

تتموضع المعارضة الرئيسة للشيوعية بين ردة الفعل العفوية والبدائية وردة الفعل الواعية، بين التنظيم والفوضى. وتعطي دائرة المعارف السوفياتية تعريفاً شاملاً: «إن تعبير القوة البدائية والعفوية، في مجال الظواهر الاجتماعية، يدل على الحركة الاجتماعية التي لا تخضع لتوجيه مركز أو لفعل توجيهي من أية نظرية؛ ويقصد من كلمة وعي، الفعل القائد الذي تمارسه نظرية الطبقة على حركة اجتماعية ما (نظرية الماركسية بالنسبة للطبقة العاملة)[٨].

تكمن عبقرية لينين في بنائه للحزب، الذي رأى فيه مركزاً موجهاً، «يجعل النضال العفوي للبروليتاريا واعياً». يتمثل ما هو أساسي في عمل لينين قبل الثورة، في محاربته

«للقوى البدائية» لصالح «التنظيم». وانقلاب أكتوبر هو في الوقت نفسه إنتصار التنظيم ـ حزب البلاشفة والطرف غير المنضبط ـ إنتفاضة الموجيك ضد السلطة. ان حذاقة البلاشفة في استخدام القوى الأولية لصالحهم وضبطها، كان من الضمانات الأساسية لأنتصارهم عندما واجهوا استحقاق الحرب الأهلية. أما بعد الانتصار، فقد بادر لينين لتأسيس دولة قوية ومركزية. ولكنه لم يتمكن إلا من ارساء قواعد النظام المقبل. ثم تعهدت السنوات الستالينية بإستكمال الدولة، التجسيد الكامل للتنظيم.

يلحظ ميخائيل غورباتشيوف، في معرض حديثه عن اصلاحه السياسي الوتيرة المتسارعة منذ بداية الثلاثينات، «لنظام الادارة والضبط» (والمقبول ان التعبيرين يرادفان مجتمعين، التوتاليتارية)؛ ويضيف ان هذا النظام «لم يستطع ان يشل الطاقة الشعبية بشكل كامل »، فهذه الطاقة، وعلى حساب النظام، حولت البلد «الى إحدى دول العالم الأكثر نمواً والأكثر تأثيراً، كما سمحت بالانتصار في الحرب الأكثر ضراوة التي عرفتها البشرية»[٩]. يقبل الامين العام اذاً بوجود «الطاقة الشعبية»، وبتعبير آخر القوة البدائية، هذا من جهة، وبالمقابل هناك النظام، وبتعبير آخر، التنظيم. مستهينة بالتاريخ، استطاعت هذه الطاقة ان تعمل رغماً عن التنظيم. ولكن الأمور في الواقع تبدو مختلفة قليلاً. ففي العهد الستاليني، عرف التنظيم كيف يخضع هذه الطاقة، ويحرك كافة الجهود ، دون النظر الى عدد الضحايا، من أجل إنجاز المشاريع الكبرى، ثم من أجل الحرب. فالانتصارات التي حصلت كانت بسبب النظام. وعملية التنظيم إخترقت كافة خلايا الدولة والمجتمع، وقادتها وفق مشيئتها، مجبرة إياها على انجاز كل ما تراه ضرورياً لبناء قوة النظام.

ان الاتجاه الطبيعي للنظام الاجتماعي، كما في الفيزياء، يفترض قانون قصور الطاقة، والانتظام المتصاعد. اذ كلما ازداد المجتمع تنظيماً، كلما إحتاج الى مزيد من الطاقة الاجتماعية من أجل تماسك الانتظام، ومن أجل الحصول على هذه الطاقة الاجتماعية تبرز الحاجة الى مزيد من الانتظام. وفي النظام التوتاليتاري، يرمي كل مكون وكل خلية الى إعادة انتاج النظام بمجمله، أي السلطة الشاملة. ولكن الطاقة الاجتماعية المستخدمة من اجل إحكام الانتظام داخل الخلية، لا تصل الى المركز. ففي سنوات «الركودالبريجنيفي»، كانت «الخلايا»، الوزراء، الامناء العامون للجمهوريات، أمناء لجان الأقاليم والمقاطعات، تضاعف من سلطتها. وبموازاة ذلك، كانت تتم

عملية مركزة للقيادة وإنحسار في مراقبة الاقطاعات. لقد استطاع بريجنيف، بقرار منفرد، ان يرسل الجيش السوفياتي الى افغانستان، ولكنه لم يكن يملك من السلطة ما يكفي لإجبار سكرتير محلي او وزير على تطبيق إحدى توجيهات المكتب السياسي. ان التوتاليتارية الناضجة تفضي الى اضعاف السلطة المركزية. فيصبح النظام اشبه بالدينا صور: فإندفاعات المركز يصعب عليها وبشكل متزايد زعزعة أعضاء الوحش القوية. وعت موسكو هذا الميل للـ«دنصرة» (من ديناصور)، منذ وقت قريب. ويمكننا ان نستشف من بعض تصريحات ستالين، أنه قد فهم في آخر حياته، بأنه لم يتوصل الى تنظيم كل شيء. هذا الشعور يفسر دون شك وبشكل جزئي بأنه قد حضر لحفلة جديدة من «الرعب الكبير». فهو يعلم بالتجربة أن حمام دم جديد وحده يصلح لاطلاق شعلة من الطاقة الاجتماعية. فهم ورثة ستالين في هذا الوضع، لذا سعوا للبحث عن طريقة لقيادة النظام الستاليني دون ستالين. ويذكر عالم السياسة فيودور بورلاتسكي، ان مالنكوف الذى كان بعد موت ستالين رئيساً للوزراء، قد طالب في إحدى خطبه الأولى، امام اجتماع لموظفي الحزب والدولة، بمضاعفة النضال ضد البيروقراطية حتى بلوغ مرحلة «سقوطها الكامل». كما اثار مالنكوف، الذي استطاع لوقت قصير ان يكون وريث ستالين، مسألة «اهتراء الحلقات المعزولة في جهاز الدولة» ،و«غياب رقابة الحزب لبعض الأجهزة الرسمية»، و«حالة الابتزاز والفساد الاخلاقي الذي أصاب الشيوعيين»(١٠). كما يسرد بورلاتسكي عدة وقائع تدور حول البحث عن أشكال جديدة للقيادة، تمت في سلسلة من شعب اللجنة المركزية، تحت اشراف بعض المنظرين مثال أوتوكيوسنين ويوري اندروبوف (الذي عمل مع جهاز اللجنة المركزية بين عامي ١٩٥٧و١٩٦٧). فعلى سبيل المثال، تم الاقرار بأن دكتاتورية البروليتاريا قد لعبت دورها وبأن «دولة الشعب بأكمله» قد ولدت. ويضيف بورلاتسكي قائلاً: «في ذلك العصر كان النقاش دائراً حول مشروع برنامج للحزب، الأمر الذي أثار شكوك (اندروبوف) من أن يتم تبني مبدأ دولة الشعب بأكمله. وعلى الأخص، التوصل الى استنتاجات عملية من أجل تطوير الديموقراطية»(١١).

في كانون الاول ١٩٦١ ، أقدم أناتولي غولتسين، عميل .K.G.B المقيم في هلسنكي، على طلب اللجوء الى السفارة الاميركية. ان تاريخ الرجل سوف يلهم كتاب روايات التجسس، ويعتمد كأساس لفيلم أخرجه هيتشكوك تحت عنوان «توباز».

حمل اناتولي غولتسين معه معلومات قيمة حول نشاط عملاء السوفيات السريين في الغرب. وكان من الممكن اعتباره مجرد عميل اضافي فر الى العدو، لو لم يكشف عن وجود خطة إستراتيجية لتشويه المعلومات، وضعت في موسكو في أواخر الخمسينات. وكان قد تم تصورها بشكل سري ضمن اطار اللجنة المركزية والـ K.G.B. في كانون الاول ١٩٥٨، واستهدفت الخطة تغيير صورة الاتحاد السوفياتي في الغرب، عن طريق بعض المظاهر «الليبرالية» المختلفة. على أن يتم تنفيذ الخطة خلال عدة عشرات من السنين.

ان فكرة وجود خطة سرية، أو مؤامرة تستهدف السيطرة على العالم، لازمت الانسانية منذ وقت بعيد، فالكل سمع عن «مؤامرات السحرة»، الذين يعملون بإشراف الشيطان، و«حكماء صهيون»، والماسونيين، واليسوعيين، الخ.. وعندما تكلم غولتسين عن «خطة شيليبين»، أثار الانتباه الى النموذج الذي أوحى بهذه الخطة: ان مخطط تشويه المعلومات الاستراتيجي وضع فعلياً عام ١٩٢١. فحتى عام ١٩٢٧، كانت الـ «فتشيكا أوغيبيو» تقود منظمة «معادية للسوفيات» خلقتها هي بنفسها وتحمل الاسم الرمزي «تروست». وخلال سبعة اعوام استطاع البوليس السياسي السوفياتي شرذمة المهاجرين الروس واسدال ستار من الدخان حول الاتحاد السوفياتي، يحجب نظر التجسس الغربي المضاد.

ان كلمة «خطة» من كلمة «تخطيط»، وهما كلمتان مرادفتان للنظام السوفياتي. ولا مبرر للدهشة عندما نعلم ان البرامج السياسية وأعمال التحريض هي ايضاً موضوع «خطة». فقد روت الصحف السوفياتية في أيلول ١٩٨٨، نجاح عملية «بومرنغ»، التي استهدفت محاربة منظمة أوكرانية وطنية خلال عشرين عاماً[١٢]. ان ضمانة الانتصار النهائي تسمح بعدم الارتباط بمواعيد محددة وقصيرة. بل بناء خطط استراتيجيةتغطي عشرات السنين. ففائدة المعلومات التي حملها أناتولي غولتسين، لا تكمن في كشفه لـ «خطة شيليبين» بل للأفكار التي كانت في أساسها.

في عام ١٩٦٨، كتب غولتسين مؤلفاً لم ينشر الا في عام ١٩٨٤. وفي بعض الفصول الاضافية التي حلل فيها الاحداث التي وقعت لاحقاً (بعد عام ١٩٦٨)، يزداد المؤلف ثقة بأنه يستخدم المنهجية السليمة في دراسته للاستراتيجية الشيوعية. ان اقوال

ضابط الـ K.G.B. القديم حول الأفكار المصطنعة في أواخر الخمسينات تستحضر أقوال بورلاتسكي، الذي كان يشارك في صياغة البرنامج السياسي الجديد للحزب الشيوعي السوفياتي. هذه الأقوال التي تؤكد العمل على خلق تصور لـ«دولة الشعب بأكمله». ويعلن نيكيتا خروتشيوف نهاية التجارب النووية. وتعرض الحكومة السوفياتية في الجمعية العامة للامم المتحدة مشروع نزع السلاح الشامل، كذلك الدعوة الى عقد مؤتمر عالمي حول التجارة. وتكتب صحيفة (النجم الأحمر- صحيفة الجيش) بأن الحرب «لم تعد وسيلة إجبارية للنضال الاقتصادي، والسياسي، والايديولوجي »[١٣]. كما تم التشريع لجعل الثقافة أكثر ليبرالية، إنه عصر «ذوبان الجليد». كما ان أجهزة الأمن بدأت تولي اهتماماً متزايداً بالعمل التربوي، «موسعة بذلك نشاطها الوقائي»[١٤].

من الواضح ان الرغبة في جعل البنية أكثر مرونة، والتخفيف من تصلب التنظيم، تستهدف جعلها أكثر كفاءة في مواجهة القوى البدائية. كذلك الامر بالنسبة للتأكيد على ضرورة استبدال الوحدة الجامدة، بنظام ديناميكي يتسع لتعدد وجهات النظر وللمواقف التي لا يجب بالضرورة ان تكون متشابهة حول كل المواضيع المطروحة، بل يكفي فقط ان تستند الى مبادىء الماركسية اللينينية بشكل كامل.

ان حقيقة الخطط يمكن التأكد منها عند انجازها، فقد كتب أناتولي غولتسين قبل موت بريجنيف قائلاً: «ان تكثيف السياسة القاسية، التي نرى أمثلة عنها في توقيف زخاروف واحتلال أفغانستان، ما هي الا تباشير للاعلان عن تحول نحو سياسة «الديمقراطية»، التي من الممكن ان تتبع غياب بريجنيف عن حلبة السياسة... فهكذا سوف تتم ادانة النظام البريجنيفي وأعماله الستالينية الجديدة ضد «المنشقين»، وفي افغانستان، وكذلك كما حصل في عام ١٩٦٨، مع نظام نوفوتني. كما أن المجال الاقتصادي سيشهد اصلاحات تهدف الى تقريب الممارسة السوفياتية من النموذج اليوغوسلافي، او من النماذج الاشتراكية الغربية، كما ستجري تصفية بعض الوزارات الاقتصادية: الرقابة تتجه نحو اللامركزية؛ والعديد من المصانع والفبارك قد يتم تحويلها الى مشاريع خاصة قائمة على التمويل الذاتي؛ كما سيعطى التكنوقراط مزيداً من الاستقلالية، ويتم انشاء مجالس عمالية ونقابات؛ واخيراً فإن رقابة الحزب على الاقتصاد سوف تتقلص - ظاهرياً -»[١٥].

بإمكان غولتسين ان يطلق نبوءته بثقة، بإعتبار ان كافة «الاصلاحات» الاقتصادية التي يذكرها ترتكز الى التجربة السوفياتية في سنوات العشرين والتجربة اليوغوسلافية. كما يتنبأ أناتولي غولتسين بالتوجهات الكبرى للـ «إصلاحات» السياسية: فعملية تحقيق الليبرالية سوف تتخذ طابعاً مشهدياً، مثيراً. وسيصبح بالامكان اعلان التصريحات الشكلية الداعية للحد من دور الحزب؛ فإحتكاره سوف يتقلص ـ ظاهرياً؛ كما سيتم العمل الجاد على فصل السلطات ـ التشريعية، التنفيذية، والقضائية. مما يتيح لمجلس السوفيات الأعلى الحصول على سلطة متزايدة، فالرئيس والنواب سيتمتعون بإستقلالية كبيرة ولو مشوهة. كما انه سيصبح بالامكان فصل صلاحيات رئيس الاتحاد السوفياتي عن صلاحيات الامين العام. وجهاز الـ K.G.B. سوف يتم «اصلاحه». والمنشقون» في الداخل سيتم العفو عنهم؛ أما المهاجرين فبإستطاعتهم العودة، أضف الى ذلك ان البعض منهم سيتبوأون مناصب هامة. ومن الممكن، بشكل او بآخر ربط زخاروف بالسلطة، أو السماح له بالتعليم في الخارج. كذلك فإن التنظيمات العلمية، والثقافية، والإبداعية، مثال إتحاد الكتاب أو أكاديمية العلوم سوف تحوز على إستقلال واسع؛ وهذا الوضع ينطبق ايضاً على النقابات. اما من هم «غير حزبيين» فبإمكانهم تأسيس الجمعيات السياسية. كذلك الامر بالنسبة لكبار المنشقين اذ بإستطاعتهم تأسيس أحزاب بديلة. اما الرقابة فسوف تنحسر؛ فالكتب، والمطبوعات، والافلام، والاعمال الفنية المعارضة، سوف يتم نشرها، أو تمثيلها، أو عرضها في المعارض وعلى الشاشات. كما أنه سيكون بإمكان العديد من الفنانين السوفيات المقيمين في الغرب، العودة الى الاتحاد السوفياتي ومتابعة أعمالهم. وسيشهد الدستور بعض التعديلات، بما يؤمن احترام اتفاقيات هلسنكي... وتقديم تسهيلات السفر للمواطنين السوفيات الذين يودون الذهاب الى الخارج. وأخيراً سوف يُدعى مراقبون غربيون ومن الأمم المتحدة ليشهدوا بأنفسهم الاصلاحات الجارية مع الاتحاد السوفياتي»(١٦).

لا يتوقف المراقبون الغربيون من رجال دولة، سياسيون، معلقون، عن الترداد: ان اي شخص لم يكن يتوقع سعة الـ «بريسترويكا» الغورباتشيوفية، كما ان أي مختص بشؤون السوفيات لم يكن ليحلم ولو للحظة بإمكانية ما يحصل، فالجميع لم يكن متأهباً لذلك. ان المشروع الذي أشار إليه غولتسين، يذكر حتى تفاصيل مشروع

غورباتشيوف. في العلم ان كتاب أناتولي غولتسين قد نشر في بداية عام ١٩٨٤، وأن ما هو أساسي قد كتب في مرحلة سابقة. وفي الصفحات الأخيرة من الكتاب يسجل الكاتب انتخاب اندروبوف لمنصب الامين العام ويعلّق قائلاً: «لا يمكننا ان نستبعد احتمال ان يلجأ مؤتمر الحزب المقبل، أو حتى قبل ذلك، الى استبدال اندروبوف بقائد شاب يتمتع بصورة أكثر ليبرالية، ويتابع بحماس أكبر، ما يسميه بعملية اللبرلة»[١٧]. اما اليوم فإن اسم هذا «القائد الشاب» لم يعد خافياً على أحد.

يدفع أناتولي غولتسين النتائج المنطقية لوجود «خطة» الى حدود تستدعي الرغبة في معارضته. فهو يضمن «الخطة» كافة الاحداث التي جرت خلال السنوات العشرون الماضية، ويفسرها بالعودة الى الخطة. ومما يثير الدهشة، قراءة ملخص أرشيف تاريخ نقابة «التضامن»: «بإمكاننا اعتبار تأسيس حركة «التضامن» ومرحلة نشاطها الاول كنقابة، بمثابة المرحلة التجريبية الأولى لـ «تجديد» بولونيا. أما تسمية جاروزلسكي، واعلان حالة الطوارىء، وحل «التضامن، فإنه يشكل المرحلة الثانية، بهدف التحكم الكامل بالحركة وتثبيت مرحلة من التماسك السياسي. وفي المرحلة الثالثة بإمكاننا ان نتوقع تشكيل حكومة إئتلافية، تضم ممثلين عن الحزب الشيوعي، وحركة «التضامن» بعد إحيائها، والكنيسة»[١٨].

عندما كتب أناتولي غولتسين، عام ١٩٨٣، : «الاستراتيجيون الشيوعيون يخططون لعودة «التضامن» وتشكيل حكومة اشتراكية ديمقراطية في بولونيا»[١٩]، لم يكن بمستطاعه ان يعلم برسالة وجهها الصحافي البولوني جيرزي أوربان، في ٣ كانون الثاني ١٩٨١، الى السكرتير الأول للحزب آنذاك ستانسلاو كانيا. هل كان هذا الصحافي مطلعاً على «خطة شيليبين»؟ من الصعب الاجابة على هذا السؤال. اياً يكمن الأمر، إقترح أوربان جواباً على السؤال الذي كان يُنغِّص آنذاك الحزب البولوني: ما العمل؟ اذ يكتب أوربان مؤكداً على ضرورة القبول بتشكيل حكومة إئتلافية، تضم عناصر كاثوليكية وقيادات معتدلة من «التضامن». ويشرح جيرزي أوربان معنى هذه الخطوة الجريئة قائلاً: «انني شخصياً شديد العداء للكاثوليك، ولبرنامجهم، وافكارهم. وعقليتهم؛ ولكن ، مهما بدا ذلك مفارقاً، فإني أرى في اقامة حكومة ائتلافية الفرصة الافضل لاعادة تأكيد أهمية وقوة الحزب العمالي الالباني، هذا الحزب الذي عليه ان يغير برنامجه ويتبنّى أسلوب عمل آخر»[٢٠].

يرى أناتولي غولتسين في «خطة شيليبين» برنامجاً لتشويه المعلومات. في حين ان جيرزي أوربان، يعرض خطته، بإعتبارها الوسيلة الوحيدة لانقاذ البلاد من حالة الفوضى التي غرقت فيها بسبب ضعف الحزب. ويؤكد على المخاطر التي يتضمنها إقتراحه ولكنه يقدر بأنه في حالة المرض القاتل لا بد من اللجوء الى الجراحة ، حتى لو كانت فرص النجاح لا تتجاوز نسبة ١٥٪. [٢١]. تتقاطع الخطتان اذن، حول نقطة مشتركة: الرغبة في إستخدام قوى «الفوضى»، أو القوى البدائية، من أجل تقوية التنظيم، ويشرح الجنرال أيون باسيبا، الذي أدار لسنين طويلة الأجهزة السرية في رومانيا، بالتفصيل «خطة تشاوشيسكو»، ذات التسمية الجميلة «آفاق حمراء»[٢٢] لقد عرفت «عبقرية الكاربات» باستخدامها الحاذق للهجرة، كيف تعطي للعالم الخارجي صورة من رومانيا ـ احدى الدول الاشد قمعاً ـ الفخورة، والمستقلة، والسيدة، والتي يرأسها قائد عاقل ومحبوب شعبياً.

مهما كانت درجة جودة الخطة وحبكتها، فإن ذلك لا يشكل ضمانة كافية لنجاحها. والاقتصاد السوفياتي خير شاهدٍ على ذلك. اذ لا بد من منقذ متميز. «ويستنتج الماركسي فيودور بورلاتسكي قائلاً: مهما قيل، فإن أية صيرورة تاريخية تفترض بداية وجود شخصية، وارادة سياسية قوية، والقدرة على ممارسة تأثير حاسم وسط الجماهير. ففي هذه الحالة فقط يصبح النجاح مؤكداً»[٢٣]. ويكتب جيرزي أوربان للسكرتير الأول قائلاً: «بكل أسف، تحتاج بولونيا، في الوضع المأساوي الراهن، الى زعيم ملهم، لأننا لا نملك ما يكفي من الثقافة السياسية، ولا من الوقت، كي ننتزع عن القيادة القوية الطابع الشخصي، بهدف البناء عبر وسائل أكثر ديمقراطية ونبلاً»[٢٤]. يستبدل أوربان تعبير «التأثير السحري» لبورلاتسكي بتعبير يستعيره من ماكس فبير، ولكن الاثنين يرميان الى الشيء نفسه: ضرورة الزعيم بالنسبة لبورلاتسكي. كان اندروبوف يجيد المثال، ولكنه يقبل دون صعوبة الامين العام الجديد، لأنه وكما يقول أوربان: بإستطاعة أي أمين عام جديد ان يصبح زعيماً ملهماً، ولكن بشرط واحد: ان يكون المبادر والمحدث لتغير مثير، ومن اجل تحقيق ذلك، عليه ان يتوجه للشعب.

كل هذا ، كان مكيافيلي يدركه كاملاً. بل انه كان أول من صاغ هذه الافكار، وبطريقة ما كان لينين يعرف جيداً الفلورنسي، الذي وصفه بإعتباره «كاتباً فطناً

بقضايا الدولة» . كما ان ستالين قد قرأ كتاباته واعاد قراءتها دون توقف . فكتاب الأمير الذي نشر في روسيا عام ١٩٦٨ ، أعيد طبعه في موسكو عام ١٩٣٤ . وأثناء محاكمات ١٩٣٦ ، أقدم وكيل النيابة فيشنسكي على إتهام كامنيف «بالمكيافلية» السياسية، بحجة أن هذا الأخير نشر كتاب الأمير إبان إشرافه على دار النشر.

يرى مكيافيلي بأن كل شخص يرغب في الحصول على شيء جديد، يجب ان يسأل نفسه بداية، ما إذا كان يعتمد على الصلوات أم على القوة. في الحالة الأولى، ستنتهي محاولته بالفشل المحتم، ولن يصل إلى أية نتيجة، وبالمقابل، اذا لم يعتمد إلا على نفسه مستخدماً الأسلحة ، فإن احتمال الفشل يتضائل. ويصوغ الفلورنسي الحكمة التالية والتي لا تحتاج اليوم الى برهان: «الانبياء المسلّحون إستطاعوا دائماً الانتصار، اما غير المسلّحين فمنيوا دائماً بالهزيمة»(٢٥).

أن اي فرد ملهم، يطمح الى السلطة في النظام السوفياتي، لن يعتبر إختيار الأسلحة مشكلة بالنسبة له. ففي مطلع القرن العشرين، توصل لينين الى تحقيق اكتشاف ثقيل النتائج: أعطوني حزب من الثوريين المتهنين، وسأقلب روسيا رأساً على عقب. وبعد انقلاب أكتوبر، أصبح لينين مقتنعاً بقدرته على قلب العالم.

اذاً تتلخص كل المشكلة في تحويل الحزب الى سلاح طيع بيد القائد. لقد صهر لينين سلاحه بعناد، عندما كان الحزب يعمل في الخفاء؛ واستمر بشحذه وإحتضانه بعد إستلام السلطة. وكان على ستالين، ان يبدأ من الصفر. كذلك الامر بالنسبة للأمناء العامين الذين خلفوه. ففي خلال السعي لنقل مركز السلطة، علينا ان نبحث عن سلاح جديد. فقد قر رأي غوركي مالينكوف، أحد ورثة ستالين المعروفين، على ان يحتفظ لنفسه بمنصب الوزير الأول، بإعتباره الأكثر اهمية، تاركاً لينكيتا خروتشيوف سكرتارية اللجنة المركزية. في حين كان بيريا يراهن على اجهزة الامن، التي رأى فيها سلاحاً فعالاً في سبيل الوصول للسلطة. في حزيران ١٩٥٧ ، وابان انعقاد جلسة مكتملة للجنة المركزية من أجل مناقشة الاقتراح القاضي بإقالة خروتشيوف، أقدم الجنرال جوكوف على رمي سلاحه في الميزان، معلناً دعم الجيش للسكرتير الاول، واستحالة تحريك عربة واحدة دون أمرٍ منه، وعندما تيقن خروتشيوف من انتصاره ، أقدم اثناء الجلسة المنعقدة على إحالة جوكوف على التقاعد.

في عام ١٩٥٣ ، وبعد مظاهرات عمال برلين في حزيران، عبرت حكومة المانيا الديمقراطية عن إستيائها من الشعب. فنصح برتولد برخت في قصيدة ساخرة، الحكومة بحل الشعب واختيار غيره. ويحفل التاريخ السوفياتي بالعديد من أمثلة «الحل»، التي يقدم عليها رئيس الحزب او الـ K.G.B او الجيش. بالمقابل، لم يحصل ذلك للحزب ابداً. ولكن الحزب لم يحافظ على تماسكه إلا بقوة التصفيات والجروح الدامية في صفوفه.

كان ميخائيل غورباتشيوف يدرك هذا الأمر بشكل كامل، عندما تسلم مسؤولية الامين العام. وهو قد أختار طريق الاصلاح السياسي، أي الطريق التي توصله الى السلطة المطلقة. إنها هوة لا بد من تجاوزها بنظر الامين العام. وفي سبيل ذلك، لم يرتكب أي خطأ، فقد وظف كافة جهوده من اجل التحضير للقفزة الكبرى. فهو يعرف ان ماتبقى من الطريق سوف يأتي لاحقاً. يرى مكيافيلي ان الطبيعة البشرية سريعة التقلب. فمن السهل ان نقنع الناس، ولكن من الصعب ان يحافظوا على هذه القناعة. لذا يصبح من المفيد إيجاد نوع من النظام، يتيح لنا، في حالة توقفهم عن الاعتقاد، إجبارهم بالقوة على الاعتقاد من جديد (٢٦).

اعلن غورباتشيوف في جلسة للجنة المركزية عقدت في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٨٧ : «اننا لا نملك وسيلة مضمونة إلا الحزب»(٢٧). وهو عندما يتفوه بكلمة «نحن» فإنه يفكر بكلمة «أنا». فالحزب هو الوسيلة التي يجب ان تتيح إنجاز الـ«بريسترويكا»، ولكن بشرط ان يكون سلاحاً مضموناً بيد القائد. قدر عدد اعضاء الحزب ، في صيف ١٩٨٩ ، بعشرين ميلون عضو تقريباً. وعلى غرار كل جيوش العالم، فإن للحزب قيادته الحزبية، أي «جسم الكوادر» كما تحلو التسمية لغورباتشيوف. ولا يعرف عديد هذا الجسم، مع العلم ان السؤال حول ضرورة تقليص هذا العديد داخل جهاز الحزب يطرح بإلحاح. كما لا نعلم ايضاً ما اذا كان «جسم الكوادر» يدخل ضمن جيش البيروقراط، الذين يصل عددهم وفقاً للاحصاءات الرسمية الى حدود ١٨ مليوناً.

ان مشكلة العلاقات بين الحزب وجهازه تطرح منذ ولادة «تنظيم الثوريين المحترفين». وفي عصر الـ «غلاسنوست»، يرمى كل ما هو سيء على ستالين. فهو يتهم بأنه «ما ان أمن السلطة المطلقة للجان الحزب ولجهازها، حتى دفع الجهاز

للاصطدام بجماهير الحزب». ويكتب احد موظفي الجهاز المركزي للحزب ان ستالين، ومنذ بداية العشرينات، قام بضربة مميتة«للفكرة اللينينة المتعلقة بالمبادىء الاجتماعية في بناء الحزب»، تاركاً للجهاز «مقاليد السلطة»[٢٨]. هذا التأكيد، ليس الا اسطورة جديدة حلت مكان القديمة: الا نقول دائماً بأن ستالين قد استوحى نظرية لينين وممارسته. ان الأساس الذي بنى عليه لينين حزبه ذا الطراز الجديد ـ المركزية الديموقراطية ـ هو الذي اعطى لستالين كافة العناصر اللازمة لبناء سلطته المطلقة وبناء الدولة التوتاليتارية. فالمركزية الديمقراطية ـ وهي إحدى التعبيرات الأكثر بعداً عن الحقيقة في القاموس السياسي للقرن العشرين ـ تبقى المبدأ الرئيس «لثورة» غورباتشيوف.

يجب ان نكون عادلين: هنا على الاقل لم يغير رأيه. عام ١٩٧٥، كان الامين الأول لمنطقة ستافروبول صريحاً بقوله: «إن النظام والتنظيم من الامور الملازمة للديمقراطية الاشتراكية، كذلك الامر بالنسبة لضرورة وجود قيادة دولة مركزية على مستوى الامة ككل، دون ذلك لا يستطيع النسق ان يعمل بشكل طبيعي»[٢٩]. وبعد اثني عشر عاماً، أي سنتين من انتخابه، يحدد غورباتشيوف الخصائص الكبرى للـ«بريسترويكا»، معلناً: «ان البريسترويكا هي إعادة تسيير وتطوير ادارة الاقتصاد بمقتضى المبادىء اللينينة حول المركزية الديمقراطية...»[٣٠]. ويؤكد قائلاً: «يجب ان نعيد التفكير بدور الحزب، والتنظيمات الاجتماعية، وادارة الاقتصاد»، الأمر الذي يتطلب «تعميق المركزية الديمقراطية وتطوير الحكم الذاتي...»[٣١].

الفصل السادس عشر
الكوادر

«يقرر الكوادر كل شيء».

ج. ستالين.

في البدء كان الفعل، الكلمة. وهذه الكلمة كانت «الكوادر». «ان مواجهة المشاكل الجديدة التي تطرح علينا اليوم، يوضح ميخائيل غورباتشيوف قليلاً بعد إنتخابه الى منصب، الأمين العام، تفرض اجراء بعض التصحيحات، في المضمون والشكل وفي أساليب عمل الحزب والدولة، وفي وضعية الكوادر سواء في المركز أو في الأطراف»[1]. وبعد أربع سنوات بالضبط في تموز ١٩٨٩، يعترف غورباتشيوف، ان ما انجز بالاجمال يبقى محدوداً: «نحن لا نستطيع اعادة اطلاق الحل لمشاكل الكوادر التي تفرض نفسها راهناً بشكل ملح.. اذ يلزمنا ان نبث في جسم الكوادر قوى خلاقة»[2]. ان ما يعلنه الامين العام ليس الا صياغة جديدة لما كان يعرفه أسلافه جيداً: «نحن بحاجة الى جهاز. ولكن جهاز جديد... وفي الأوقات المنصرمة، كنا نعمل على تشكيله»[3].

ليس الاصلاح السياسي لغورباتشيوف إلا عملية تهدف الى تشكيل جهاز جديد. في البداية، تبدو الامور سهلة: اذ يكفي القيام بتغيير الاشخاص على كافة مستويات الحزب، بدءاً من القمة، بإبعاد رجال الأمين العام السابق واستبدالهم برجال وريثه. في شباط ١٩٨٦، إبان انعقاد مؤتمر الحزب السابع والعشرين، الذي شارك فيه غورباتشيوف لأول مرة كأمين عام، تضمنت كلمته في الشق المتعلق بالحزب، ثلاثة محاور: «النعمل بطريقة جديدة؛ من اجل صورة نقية وصادقة لعضو الحزب، ومن اجل

سياسة كوادر صلبة» ؛ و«لنقوي الرابطة بين الايديولوجيا والحياة ، ولنغني العالم الروحي للانسان» . فالحزب وضعه جيد، ويكفي ان ننظف قليلاً الكوادر، وندفع الى الأمام كوادر جديدة ـ هذا هو حكم غورباتشيوف . في تموز ١٩٨٥ ، تم إبعاد غيوركي رومانوف، أحد الطامحين لمنصب الامين العام، واستبداله بليف زائيكوف، وفي المؤتمر اقدم غورباتشيوف على احداث تغيير في سكرتارية اللجنة المركزية عن طريق ادخال شخصيتين جديدتين الى المكتب السياسي . وقد تكلم الصحافيون الغربيون حينها عن «فريق للعام ٢٠٠٠ » . ولكن لم تمض ٤ سنوات، حتى إختفى بعض عناصر هذا الفريق(اناتولي دوبرنين، ويوري سولوفيف، على سبيل المثال)، وفقد آخرون من مكانتهم(في عام ١٩٨٦ ، إنتقل ليف زائيكوف الى المرتبة الثالثة)، وتمكن بعض آخر من تسلق القمة، حيث بدأ بتنفس هواء اعضاء المكتب السياسي الرقيق، محافظين في الوقت نفسه على موقعهم كأمناء في اللجنة المركزية(الكسندر إيكوفليف، وفاديم مدفديف) . وبعد خطاب القاه أمين الحزب في سفردلوفسك بوريس يلتسين، مطالباً بتصفية الامتيازات ، أثار الانتباه حوله، فإستدعي الى موسكو. وانتخب سكرتيراً في اللجنة المركزية، ثم أسندت اليه قيادة الحزب في موسكو، ولكن دون«ان يثبت صدقية ثقة» غورباتشيوف .

مهما إتصفت تعرجات سياسة الاشخاص بالغرابة، على مستوى المرتبة العاليا، فإن القرار النهائي يبقى بيد الأمين العام دون منازع . فكل من يحيط به لا يحتل موقعه إلا بعد موافقته . ويلاحظ شيخ الكرملين أندريه غروميكو، بدعابته المعروفة، ان القاعة التي يجتمع فيها المكتب السياسي تذكره بمثلث برمودا: حيث الاشخاص الذين يختفون، لا يعرف شيئاً عن مصيرهم. هذا ما جرى في زمن ستالين وخروتشيوف وبريجنيف. وهذا ما يحصل راهناً في زمن غورباتشيوف . فأندريه غروميكو، الذي كان يحتل منصب رئيس مجلس رئاسة السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي، تلقى إعلان إحالته على التقاعد، في الوقت الذي كان يتهيأ فيه للقيام بزيارة رسمية الى منغوليا .

وواضح ان الوضعية في البلد وبعد انقضاء عام على المؤتمر، وبالرغم من القرارات التي اتخذها الامين العام، والتغيرات التي طالت الاشخاص في اعلى سلم السلطة . لم تستقم، بل على العكس من ذلك فلقد قرر غورباتشيوف ان يصطدم وبقوة بالكوادر.

ففي٢٧ ـ ٢٨ كانون الثاني ١٩٨٧، ابان انعقاد جلسة مكتملة للجنة المركزية، قدم الامين العام تقريراً حول «البريسترويكا وسياسة الكوادر في الحزب».

حيث بدأ بالتنبيه الى ما يلي: «. . . مازلنا نلمس في المجتمع وفي الحزب أيضاً شيئاً من سؤ الفهم لمدى تعقيدات الوضع الذي تمر به البلاد»[٤]. قبل سنتين، عند استلامه للسلطة. تكلم غورباتشيوف عن «وضعية ما قبل الازمة». أما اليوم فإنه يشير الى «خطر تفاقم عناصر الأزمة في المجتمع»[٥]. اما الحلقة التي تسمح بجر السلسلة بكاملها، وفق نصيحة لينين، فتتكون من كوادر الحزب، كما يلحظ الامين العام. وكلامه جازم: فـ«المشاكل المتراكمة في المجتمع تتعلق الى حد كبير بعدم كفاية عمل الحزب نفسه، وفي سياسته للكوادر».

يعشق التاريخ المزاح، والذي غالباً ما يكون سيئاً. كما يميل الى الصدف الغريبة التي تضيء أحداث يوم جديد. فقبل نصف قرن من غورباتشيوف، أعلن ستالين في ٣ آذار ١٩٣٧ في تقرير له «عدم كفاية عمل الحزب». واليوم عندما نقرأ تقرير غورباتشيوف الذي أعلن في ٢٧ كانون الثاني ١٩٨٧، لا نستطيع التخلي عن فكرة اننا امام رقٍ قديم مسح ثم كتب عليه ثانية: فتحت المساحة الظاهرة، يلمع النص الأصلي. فقبل خمسين عاماً، كان ستالين ممتعضاً من كوادر الحزب، ومن أن ورقة الحزب تعطي القوة للمخربين والتروتسكيين[٦]. واليوم يرى الامين العام الجديد ان السبب الرئيس «للوضع المعقد والمتناقض» يكمن في «ان اللجنة المركزية للحزب، وقيادة البلاد(قبله، بالطبع)، ليستا على مستوى المسؤولية وذلك لأسباب ذاتية»[٧].

يذهب ستالين الى عمق المشكلة، ويطرح السؤال التالي: «ما هو حجم القيادات الحقيقية في حزبنا؟»، ويجيب بضرورة ادخال «قوى حية». ان غورباتشيوف يوافق بشكل كامل على هذه النقطة.

لقد مضى نصف قرن. وتغيرت الأساليب. فستالين الذي كان يستطيع ان يفعل ما يريد، «اقترح»على كافة مسؤولي الحزب، «من امناء الخلايا إلى أمناء المناطق والجمهوريات، ان يختاروا رجلين، أي موظفين من الحزب، قادرين على الحلول مكان أي منهم بشكل فعلي»[٨]. لقد استهلك ستالين باكراً ذخائره من المسؤولين، ثم من حل مكانهم؛ ولم يتوقف عن البحث عن«قوى حية»، ودم جديد. أما غورباتشيوف

فقد إختار أسلوب الانتخاب من أجل «تجديد» الحزب: «بإمكاننا ان نقبل بإنتخاب الامناء، بمن فيهم الامناء الأول، عن طريق الاقتراع السري في الجلسات المكتملة للجان الحزب الموازية»(٩). ثم يعدد لجان الحزب التي تشملها الانتخابات: لجان المقاطعة، والمدن، والمناطق من كل نوع، وصولاً الى اللجان المركزية لجمهوريات الاتحاد. في الجلسة المكتملة التي عقدت في شباط ـ آذار ١٩٣٧، أوضح ستالين ابعاد سياسته حول الكوادر، التي قضت بتبني حلٍ «يرمي وضع مبادىء الديمقراطية داخل الحزب موضع التنفيذ الكامل وغير المشروط»، الامر الذي يرتب، من بين أشياء أخرى، «انتخابات مغلقة(إقتراع سري)، لكافة أعضاء الحزب» ويضيف محدداً ضرورة ان تشمل الانتخابات كافة تنظيمات الحزب، «من لجان تنظيمات القاعدة، وصولاً الى لجان المناطق واللجان المركزية للقوميات»(١٠). ولكن في عام١٩٣٧، كما في عام ١٩٨٧، فإن الانتخابات عن طريق الاقتراع السري لا تشمل اللجنة المركزية للحزب، أو المكتب السياسي، او سكرتاريا اللجنة المركزية.

في نهاية١٩٨٧، ألقى غورباتشيوف بمناسبة الذكرى السبعون لأكتوبر، كلمة إستعاد فيها معضلته الاساسية: «ان تحسين أداء عمل تنظيمات الحزب، واعضائه وكوادره، أصبح مشكلة اليوم الكبرى». كما يعلن ان المرحلة الاولى من البريسترويكا قد أنجزت، ولكن بموازة ذلك «فإن بعض المدن، والمقاطعات، والمناطق، وحتى بعض الجمهوريات، لم تباشر بعد بعملية تطبيق البريسترويكا». والخطأ في ذلك يقع على عاتق «لجان الحزب وقيادييها»(١١).

فالدفعات التي يطلقها «رأس» الامين العام، لا يتم نقلها من قبل وحدات الاعصاب ـ لجان الحزب: ويبقى الكيان العضوي الكبير للدولة السوفياتية دون حراك. في شباط ١٩٨٨، عقدت جلسة مكتملة للجنة المركزية مخصصة لمسائل الايديولوجيا(حيث تم إبعاد بوريس يلتسين من موقع عضو احتياطي للمكتب السياسي)، يذكر غورباتشيوف بـ «ان الحزب بدأ البريسترويكا، معتمداً على نفسه، وعلى اعضائه»(١٢). كما يعلن ان إعادة إنتخاب مسؤولي الحزب سمحت بإستبدال قرابة ٨٩ ألف عضو. ولكن كل ذلك لم يؤد إلى ايجاد حل للمشكلة القائمة. وكان على المؤتمر التاسع عشر للحزب ان يشكل بداية مرحلة جديدة من الاصلاح السياسي.

لقد تم التحضير للمؤتمر منذ مدة طويلة، كما ان انتخاب المندوبين شكل إعادة

لنمط جديد من الانتخاب: السماح بعدة ترشيحات، «ديمقراطية»، ولكن منظمة؛ فبوريس يلتسين، الذي لم يستطع الحصول على عددٍ كافٍ من الأصوات في موسكو، تم إنتخابه في النهاية، في اليوم الاخير في كاريلي. لقد أصبح مندوباً، وفي العمق، كان هناك آخرون يودون له ذلك. وقبل ثلاثة اشهر من إنعقاد المؤتمر، نشرت صحيفة «سوفيتسكايا روسيا» «رسالة هي في الواقع مقالة كبيرة موقعة من قبل «نينا إندريفا»[١٣]. وتعريفها أنها «استاذ في المعهد التكنولوجي في لينينغراد: كيميائية». في ذلك اليوم، لم تتضح كافة «الأسرار» التي أحاطت بهذا المقال. كما ان العديد من القراء إفتراض ان نينا اندريفا المشهورة اسم غير موجود. ولكن عندما تم التأكد من وجود الشخص بلحمه وعظمه، وهي تعمل مدرسة في المعهد التكنولوجي في لينينغراد، وتتمتع بوضع مرتاح داخل النظام، برزت شكوك من نوع آخر. ولنستعيد كلمات السينمائي «الكسيس غيرمان»: «ان أستاذاً عادياً للكيمياء لا يستطيع ان يكتب هذا البيان المناهض للحزب»[١٤]. في الواقع، وعند قراءة «الرسالة» يصعب علينا ان نتصور ان أستاذة الكيمياء قد إطلعت فعلاً على تاريخ الحزب الشيوعي، وبأنها قرأت الكثير من الكتب التابعة في أعماق المكتبات، ومعظمها غير مترجم الى الروسية. ان نينا اندريفا في نقدها القاسي لمسرحية شاتروف حول لينين، تظهر ان الكاتب المسرحي لا يتمتع بالأصالة، وبأن «منطق حججه وبراهينه يعيد تذكيرنا بدوافع كتاب بـ. سوفارين، الذي نشر في باريس عام ١٩٣٥». ولكن اسم سوفارين لم يستخدم علانية الا من قبل ستالين شخصياً في ٣ آذار ١٩٣٧ حيث اعتبر ان «زمرة سوفارين في فرنسا»، كانت احتياطاً «للتروتسكيين، بأعمالها التخريبية والتجسسية الموجهة ضد الاتحاد السوفياتي». بالنسبة للعارفين ببواطن الامور، كانت المسألة واضحة. ففي مقابلة أجراها الصحافي الاميركي ديفيد رفيل في آب ١٩٨٩ مع نينا اندريفا يصفها قائلاً: «امرأة في الواحدة والخمسين، مشاكسة، ومتكلفة، تشبه رئيسة ممرضات». وفي الحديث الذي جرى معها، لم تظهر انها على دراية واسعة بالأمور، وتفسير كافة مآسي البلاد بدسائس اليهود[١٥].

عندما نشرت الرسالة، ظهرت في الاتحاد السوفياتي وكأنها إشارة تعلن نهاية الـ«بريسترويكا». وعندما بدأ الممثل المشهور ميخائيل أوليانوف بإلقاء خطابه في ٢٩ حزيران، في مؤتمر الحزب، أكد على ان البلاد مستعدة ودون انتظار للسير الى الوراء. ان

عدة صحف محلية كانت قد نشرت المقالة (برافدا غوكوفسكايا، أورالسكي رابوتشي، فوروشيلوفوغرادسكايا برافدا، فيتشرني دونتسك، نوفوغورودسكايا برافدا). وبعد مضي ١٦ يوماً على نشرها، ابلغت وكالة تاس الصحف المحلية، في٢٩ آذار «انه يجب البث بنشر مقالة نينا اندريفا بالاتفاق مع التنظيمات المحلية للحزب»، الأمر الذي يعني ان النشر لم يكن موجهاً، وأن إعادة نشر المقالة لم تجزه السلطات (١٦). لقد بقي الوضع ملتبساً، حتى ٥ نيسان أي بعد ثلاثة اسابيع من نشر «الرسالة»، حيث نشرت البرافدا مقالة لهيئة التحرير، عاكسة التوجه الفعلي للسلطة، وقد ورد فيها ما يلي: «ان مقالة. ن. اندريفا تترك انطباعاً لدى القراء، بأن هناك «موقفاً سياسياً جديداً يراد فرضه عليهم». ان تهمة «موقف سياسي» كانت على الدوام إحدى أخطر تعابير القاموس البلشفي: اذ تعني بذور إنشقاق وتهديد بالانفصال. كما وضعت البرافدا كلمة «جديد» بين مزدوجين، في ضوء ما تقدم كمثل نينا اندريفا، النموذج الستاليني المثالي للنظام السوفياتي، الذي يحذر من خطر الابتعاد عن هذا النموذج بأي شكلٍ من الاشكال.

يعبر نص «الرسالة» بشكل جيد من أفكار المحافظين والرجعيين، الى حد انها لو لم تكن موجودة لاقتضى الامر اختراعها. وأياً يكن الامر، فلقد خدمت نينا اندريفا مصالح ميخائيل غورباتشيوف بشكل جيد. فهذا البرنامج المضاد «للبريسترويكا» لايريد ولا يجرؤ أحد ممن يسمون بأعداء غورباتشيوف على صياغته. لقد سمحت الاسابيع الثلاثة الفاصلة بين النشرين، بمعرفة الـ«مع» والـ«ضد»، وخلقت جواً من الخطر، أدى الى إستنفار محازبي غورباتشيوف عشية المؤتمر.

لقد كان الرهان على المؤتمر كبيراً. ففي ٢٣ أيار أقرت اللجنة المركزية الأطروحات العشر التي قدمت للمؤتمر التاسع عشر اي المطالب العشر للبريسترويكا، وتوقعت مجلة التايم الاميركية، النصير المتحمس لغورباتشوف، ان المؤتمر سوف يتبنى سلسلة من الحلول رداً على المشاكل الهامة المطروحة من الاصلاح القضائي الـ المسألة القومية، والاستراتيجية السياسية. «ان الاطروحات، تكتب المجلة، تتضمن اعلان حرية، يدمج بين مشروع قانون الحقوق الاميركي و«الاشتراكية ذات الوجه الانساني» الذي عبر عنه دوبتشيك» (١٧).

ولكنه اتضح اثناء المؤتمر ان الامور لا تسير وفقاً للتصور الذي عرضته مجلة التايم،

فقراءة نصوص المؤتمر تترك انطباعاً مثيراً: لقد بدا المندوبون وغورباتشيوف وكأنهم من عالمين مختلفين، لا اتصال بينهما. فهم يتحدثون عن المشاكل الفعلية وعن نقائص النظام، وفشل الاصلاحات المطروحة ، في حين كان غورباتشيوف لا يتحدث الا عن السلطة، والكوادر.

لقد كانت الموضوعة الخامسة والسادسة تختص بمشكلات السلطة. ولقد صاغت القاعدة موقفها منذ البداية على النحو التالي: «ان نظام الحزب الواحد، الذي تكوّن تاريخياً وترسخ في بلدنا، يمتزج اليوم بشكل عضوي، بصيرورة الاتجاه نحو الديمقراطية. وهذا ما يشكل مسألة ذات أهمية حيوية»[١٨]. ان التأكيد على عدم المساس بنظام الحزب الواحد، جعل من السهل الانتقال، في الموضوعة الخامسة، الى دور هذا الحزب الواحد والقائد. وتبدأ الأطروحة بهذا الاعلان «في ضوء البريسترويكا، يظهر دور الحزب الشيوعي السوفياتي، كقوة قائدة ومنظمة للمجتمع السوفياتي، بكيفية جديدة». ثم تتلى حرفياً المادة السادسة من الدستور: «بالاستناد الى تعاليم الماركسية ـ اللينينة، ان الحزب مدعو لاعداد نظرية واستراتيجية للتطور الاجتماعي وللسياسة الداخلية والخارجية، ولفهم ايديولوجية التجديد الاشتراكي، وقيادة العمل السياسي والتنظيمي داخل الجماهير، كذلك الأمر بالنسبة لتربية الكوادر وإعادة توزيعهم». ولا ينسى كاتبو المادة الخامسة التذكير بضرورة «اعطاء كامل الاهتمام للشرح اللينيني للمركزية الديمقراطية، التي تعني ان حرية النقاش مصاغة في مرحلة معالجة المشاكل، ولكن بهدف الوصول الى وحدة العمل ، وذلك بعد ان تتخذ القرارات بالأغلبية».

تؤكد الاطروحة السادسة على ضرورة«اعطاء الاهمية الكاملة لدور وسلطات مجالس مندوبي الشعب الأعضاء الأعلون للتمثيل الشعبي». اي كما يجب أن نقول لاحقاً: «كل للسلطة للمجالس!»، ان المعضلة هنا ليست المعضلة الأولى ولن تكون الأخيرة في مجال الاصلاح السياسي الذي اطلقه غورباتشيوف ـ لا تكمن فقط في العودة الى شعار ١٩١٧ ، بعد سبعون سنة من «السلطة السوفياتية»، ولكن الصعوبة هي في التوفيق بين «سيادة» المجالس، وسيادة (دون مزدوجين) الحزب الواحد في السلطة.

يرى غورباتشيوف في التوزيع الدقيق للمسؤوليات التي ينهض بها اعضاء الحزب والدولة، «المشكلة المفتاح» للبريسترويكا، وأساس الاصلاح السياسي، وذلك بما

«يتطابق مع التصور اللينيني لدور الحزب الشيوعي، الطليعة السياسية للمجتمع، ولدور الدولة السوفياتية، آداة سلطة الشعب»[١٩]. قبل عدة أشهر من بداية اعمال المؤتمر، عرض الامين العام «المشكلة المفتاح»، واصبحت مسألة «فصل السلطات» موضوع الساعة. الامر الذي دفع العديد من علماء السياسة، والحقوقيين، والفلاسفة الى تخصيص العديد من المقالات حول الموضوع، اضف الى ذلك رسائل القراء العديدة. لقد بدا الموضوع وكأنه شيء جديد، وغير معتاد، يكشف الجرأة في الطرح. غير انه تبين ان الموضوع قد نوقش منذ ستين سنة خلت، ومع حالة الانفعال نفسها التي سادت عام ١٩٨٨ فقد ولد الموضوع مع السلطة السوفياتية التي تحولت على الفور الى سلطة للحزب. وهذا ما عرضه لينين في ٢٨ آذار ١٩٢٢، في المؤتمر الحادي عشر للحزب: «الجميع أعلن، أو قبل، وبالاجماع، بضرورة التمييز بين جهاز الحزب وجهاز السوفيات». ان غورباتشيوف هنا يقتفي بأمانة آثار مؤسس الدولة السوفياتية. وكلام لينين يعاد ذكره في عدة مناسبات؛ وأضحى الاساس النظري والعلمي لموضوعة «فصل السلطات». ولكن لينين، وبعد مضي سنة على مديحه للـ«فصل...»، كتب في ٤ آذار ١٩٢٣، مقالة مشهورة: «الأحسن أفضل من الأقل، ولكنه أحسن»، عرض فيها ضرورة دمج اللجنة المركزية للرقابة التابعة كلياً للحزب، والتي لا يجيزها أي قانون للدولة، مع مفوضية الشعب للرقابة العمالية والفلاحية، يسخر لينين من الرفاق الذين يتساءلون: «كيف يمكن ان نجمع بين مؤسسات الحزب ومؤسسات السوفيات؟ ألا يوجد في ذلك شيء من التعارض؟«ابداً، يجيب قائد الحزب والدولة. وبعد توبيخ شديد للـ «بيروقراط»، يضرب الحجة التالية: «لماذا لا نستطيع ان نجمع بين الأولى والثانية (مؤسسات المجالس والدولة)، اذا كانت مصلحة القضية تتطلب ذلك؟» في آذار ١٩٢٣، كانت «مصلحة القضية» تعني بداية المواجهة مع ستالين الذي كان يحتل منصب مفوض الشعب للرقابة العمالية والفلاحية، الى جانب مناصب أخرى. وفضلاً عن ذلك، كان لينين مقتنعاً بأن «الوحدة المرنة للمجالس والحزب تعطي قوة كبيرة لسياستنا».

ما هو اساسي اذن، ليس ان نختار بين الدمج أو الفصل. فالقوى الكبرى تتمثل في إمكانية الدمج والفصل، وفق إرادة القائد، «ومتطلبات القضية». في عام ١٩٢٣، تصدى أحد أقرب رفاق السلاح للينين وعضو المكتب السياسي، لـ. كامنيف، لهذه

المسألة واضعاً الحد للنقاش المتعلق بفصل جهاز المجالس عن الحزب: «. . ان الذي يتكلم ضد الحزب ، ويطالب بفصل مسؤوليات جهاز المجالس والحزب، يريد ان يفرض علينا مبدأ فصل السلطات الممارس في دولة أخرى. . . أي ان يحكم الجهاز السوفياتي الدولة، في حين ينصرف الحزب للتعبئة، والدعاية، وتعميق الوعي الشيوعي، الخ. . كلا، أيها الرفاق، هذا الامر لا يثير الا الفرح عند أعدائنا»[٢٠].
بعد خمسة وخمسين عاماً، يستعيد غورباتشيوف كلام كامنيف، كلمة تقريباً: «ان كل الذين يريدون اعادة النظر بدور الحزب واهميته، لهم منا رداً حاسماً. البعض يحاول ان يطرح ذلك بطريقة ملتوية، قائلاً ان الدرس المستفاد من تجربة الماضي يقضي بضرورة الحد من سلطة الحزب. كلا، ايها الرفاق، المشكلة ليست هنا اطلاقاً. فإذا كان فيروس الشك وانعدام الثقة برسالة حزبنا قد أصابنا، فإن في ذلك هدية جميلة لأعداء البريسترويكا»[٢١]. بإستطاعتنا ان نتهم مستشاري غورباتشيوف الذين كتبوا تقريره، بالسرقة. ولكن الأكثر إثارة، ان الأجوبة التي تعطي ، في مواجهة الاوضاع المتكررة منذ سبعين عاماً، تتكرر هي ايضاً. من الممكن ان تتغير الاجوبة وفق «مصلحة القضية»، ولكنها قبل ذلك تبقى محفورة في ذاكرة الحزب. وجميعها يستهدف تقوية سلطة الحزب، او بتعبير آخر سلطة القائد.

ان التحضيرات للمؤتمر التاسع عشر للحزب كانت تتبع بدقة السيناريو المرسوم من قبل أساتذة الدعاية: فقد تم تصوير المؤتمر وكأنه معركة بين «الحمامة البيضاء» غورباتشيوف و«الصقر الأسود» ليغاتشيف؛ أما بالنسبة لانتخاب المندوبين التقدميين، الذين يرمي امامهم الجهاز المحافظ «قشور الموز» لزحلقتهم، فإنهم يبرزون في صورة «التمثيل النفساني» الحقيقي. ويتم التركيز على دور قائد الحزب وشعبة التنظيم القوية في اللجنة المركزية التي تشرف على الانتخابات، في توفير الحرية الكاملة أمام اعضاء الحزب. والمناقشة الجادة للأطروحات العشرة. كما يلحظ السماح لصحافيي العالم، بمتابعة المشهد بحرارة. وبقلق، خوفاً من عدم إنتخاب بعض انصار الامين العام الاوفياء.

تجدر الاشارة الى نقطة أساسية في الاصلاح السياسي، أثارها غورباتشيوف في تقريره الى مؤتمر الحزب، ولكنها لم تظهر في الموضوعات العشر. ففي مداخلة على التلفزيون، أعلنت الأكاديمية زاسلافسكايا، بعد المؤتمر وضمن برنامج «نحو المزيد من

الديمراطية في الحياة الاجتماعية »، أنها اصيبت بصدمة وهي تستمع الى اقتراح غورباتشيوف. وتضيف بأن الجميع قد أصيبوا بالصدمة نفسها . فقد بدأ غورباتشيوف الحديث مبرراً ضرورة «التحديد الدقيق لمسؤوليات اعضاء الحزب والدولة، بما يتفق مع التصور اللينيني حول دور الحزب الشيوعي، الطليعة السياسية للمجتمع، ودور الدولة السوفياتية، آداة سلطة الشعب»[٢٢]. ثم بادر ، وبطريقة غير متوقعة أبداً، الى اقتراح إنتخاب الامناء الأول للجان الحزب لمنصب رؤساء المجالس الموازية.

هذا الاقتراح الداعي الى جمع المناصب من أجل الفصل جيداً بين الديالكتيك، فمن العروف ان وصفة لينين تقول: قبل ان نتحد ومن أجل ان نتحد، يجب ان نتمايز جيداً. ويدافع غورباتشوف عن موقفه بالرغبة في «إعلاء سلطة المجالس»: هذا الجمع بين منصب الامين الأول/ رئيس سوفيات، على مستوى شخص واحد، يجب ان يؤدي من جهة الى تقوية رقابة الحزب على المجالس، ومن جهة ثانية تحرير الحزب من بعض المهام التي يمكن ان تسند للمجالس.

ان المغزى الحقيقي «لمعضلة غورباتشيوف» سوف يتضح بسرعة، فبعد استماعه بهدوء لبعض الملاحظات النقدية حول «المعضلة»، تبنى المؤتمر إقتراح الامين العام، وأمن غورباتشيوف بذلك انتخابه لمنصب رئيس مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي، الذي أعيد خلقه مجدداً (والتصحيحات الضرورية اضيفت بعجل الى الدستور). ان هذه«الوحدة التي يمثلها شخص واحد» لأول مرة قد تحققت: فقد أصبح غورباتشيوف رئيس الدولة، مع إحتفاظه برئاسة الحزب. بعدها لم يعد من الملح تصميم هذا النموذج على مستوى المراتب الأدنى. فإنتخاب الامناء الأول لمناصب رئاسات المجالس من مختلف الرتب، لم يعد على جدول الاعمال.

ان الهدف الأكبر «للاصلاح السياسي» يتمثل في تدعيم سلطة غورباتشيوف الى حدود لم يعرفها التاريخ السوفياتي. ولكن هناك ايضاً هدفاً آخر. فضرورة اضعاف السلطة المركزية، كنتيجة للرغبة في الادارة المباشرة لمختلف شؤون الحياة مع البلاد، من الامور الواضحة بالنسبة لبعض المسؤولين وعلماء السياسة السوفيات منذ عهد بريجنيف. في عام١٩٨٧، وفي ملاحظة تقدم بها غورباتشيوف الى اللجنة المركزية، أقر بأن «المبدأ المركز لعمل اعضاء الحكومة... يسمح بإستخدام امكانيات نظامنا

السوفياتي»، ولكن هذا الامر يدفعنا للتفكير «بمسألة طرحت في المؤتمر الخامس عشر للحزب: «يجب ان نطور المبادىء الديمقراطية، والمبادرة المحلية، وان نعفي المراتب العليا من سلطة المهام الصغيرة. . .»(٢٣). وكان المؤتمر الخامس عشر قد عقد في عام ١٩٧٦، اي المرحلة الذهبية للعصر البريجنيفي. ان فكرة إمكانية، وليس ضرورة «اعفاء» قيادة الحزب من «المهام الصغيرة»، كانت تغري القائد الشاب غورباتشيوف. وها هو يستعيدها، عندما أصبح رئيساً للحزب. ويعمل على تطويرها. في عام١٩٧٦، لم يكن طرح تحرير المراتب العليا من سلطتها، سوى أمنية. أما غورباتشيوف فيقترح، ، اعضاء كافة مراتب سلطة الحزب من عبء «التفاصيل» ففي تقريره المرفوع للمؤتمر، يكشف «خلفية» اعادة البناء السياسية: «يجب ان نحرر جهاز الحزب بالكامل من المهام الادارية والحكومية، من اجل تركيز عمله حول التوجهات المفصلية في السياسة الداخلية والخارجية، أي ان ننقل مركز الثقل الى اساليب السياسة القائدة»(٢٤).

وبعدمضي عام على ذلك، وفي اجتماع للجنة المركزية مخصص لـ«بريسترويكا عمل الحزب»، يعرض الامين العام برنامجه بشكل أكثر تفصيلاً، وكما هي العادة، بأسلوب مبهم، ولكن الهدف يبقى هو نفسه: الفصل والجمع، التمييز او الذوبان. يرتكز غورباتشيوف الى هذه المسلمة: «ان حزبنا هو حزب قائد»(٢٥). ويعيد التذكير بأسس السياسة قائلاً: «لقد وجدت الاحزاب، في كل مكان وعلى الدوام، كي تخدم كوسائل للنضال من أجل السلطة». ويضيف موضحاً المهام الرئيسة للحزب الشيوعي، التي تدور حول: «التطوير، والاغناء الراسخ للفكر الاجتماعي، والعمل انطلاقاً من اساس علمي، ماركسي ـ لينيني، على بلورة أسس السياسة الداخلية والخارجية، والعمل الايديولوجي والتنظيمي. . . أخيراً، يبقى ان الكوادر كانوا وما زالوا الهم الاساسي للحزب». مبلوراً «على اساس. . . أسس»الايديولوجيا ، والسياسة الداخلية والخارجية، وحاملاً هم الكوادر في كافة ميادين الحياة، كذلك الأمر فإن الحزب «لا ينوب عنه احد فيما يخص الاقتصاد». لانه«يسلح المجتمع بسياسة اقتصادية مبنية على أسس علمية وموجهة اجتماعياً».

الكل يعلم، بمن فيهم غورباتشيوف (ومجلداته الست تشهد على ذلك ، من بين أشياء أخرى)، ان الحزب قد نهض بكافة المسؤوليات المشار إليها اعلاه، بشكل نشط، خلال سبعين عاماً . كما أنه تولى القيادة العملية في كافة ميادين الحياة، وهو أمر، لا

غنى عنه من الآن فصاعداً. يركز غورباتشيوف على ضرورة «الفصل الصريح بين مسؤوليات الطليعة السياسية للمجتمع، وبين مسؤوليات الحكومة والادارة التي انتقلت الى ايدي السوفيات». لذا تبرز ضرورة «خلق آلية جديدة للتفاعل بين الحزب والسوفيات. . .» كما يرى الامين العام. فصل سلطات صريح، ولكنه متفاعل. حزب قائد، ولكنه لا يتولى اعطاء «التوجيهات والتعليمات مباشرة». وبالمحصلة التخفيف من عبء العمل التفصيلي، الملموس، واليومي، ولكن العمل على خلق آلية «تأثير سياسي» في الحياة، «بواسطة الشيوعيين كافة». فالحزب يرسم الخط السياسي، والتوجهات الكبرى، في حين يعمل الشيوعيون، في ضوء هذه التوجيهات، وتحت نظر الخط بشكل دقيق.

في تموز ١٩٨٨، أجرى غورباتشيوف جردة حساب حول مؤتمر الحزب، مظهراً تفاؤله: «يبدو ان الحزب قد استطاع رفع رأسه من جديد، بل استطاع ان يرفع هامته كلها، متكلماً بصوت مسموع، وبثقة، وبطريقة مبتكرة، مفعم بالعاطفة التي تسببها مسؤوليته الكبيرة تجاه الشعب»(٢٦). وبعد عام من ذلك، نراه مجبراً على التساؤل: «ما الذي حصل؟ هل الحزب في أزمة؟»(٢٧). ويجيب غورباتشيوف على هذا السؤال بالنفي. ليست المشكلة في الحزب، بل في مهامه القديمة، وأساليب عمله، التي اضحت بالية اليوم. ويصوغ فكرته على النحو التالي: هناك أزمة في جهاز الحزب.

يكتب عالم السياسة أندرنيك فيغرنيان حول الصعوبات التي يواجهها اليوم النظام السياسي السوفياتي مبيناً أنها نتيجة «لعدم ايلاء مؤسسي الماركسية الاهتمام الضروري للمشاكل الناجمة عن تشكل آليات السلطة السياسية في المجتمع الاشتراكي بعد الثورة»(٢٨). هذا الكلام صحيح، اذا كان المقصود بعبارة «مؤسسي الماركسية، ماركس وانجلز فقط. فبإعتبارهما منظرين وطوباويين، عاشا في القرن التاسع عشر، كان من الصعب عليهما معرفة «المجتمع الاشتراكي ما بعد الثورة»؟ فهما قد اكتفيا بإطلاق «الفكرة». ان الصعوبات التي يشير إليها عالم السياسة، متأتية من كون «الفكرة» قد تحققت. يكتب أحد المؤرخين السوفيات حول ولادة النظام السوفياتي قائلاً: «على أساس الانتخابات في الجمعية التأسيسية (فقط ٥٢٪ صوتوا لصالح البلاشفة)، ولكن لينين، وعلى ضوء انتصار الثورة وتجربة الحرب الأهلية، توصل الى بلورة اكتشاف له أهمية نظرية وسياسية كبيرة. إن البروليتاريا لا تستطيع أن تؤسس

حيازتها للسلطة على قاعدة الأكثرية الشكلية للأصوات، في ظل انتخابات تجري داخل دولة برجوازية. «يمكننا القول، بالاستناد الى تعاليم ماركس وتجربة الثورة الروسية، بأن على البروليتاريا ان تدعم البرجوازية وتضع يدها على سلطة الدولة، ثم تستخدم هذه السلطة، بتعبير آخر دكتاتورية البروليتاريا، كأداة لطبقتها، بهدف كسب عطف غالبية العمال»(٢٩).

بهذا المعنى يأخذ الحزب على عاتقه تولي مسؤولية ثقيلة تقضي بتطبيق دكتاتورية البروليتاريا، بإنتظار نضج البروليتاريا كي تصبح قادرة على حكم نفسها بنفسها. الحزب، أي جهاز الحزب، والكوادر القيادية. ولكن في عام ١٩٣٧، نفذ ستالين حملة تصفية شاملة لجسم القيادة في الحزب، تحت ستار الحاجة الى «قوة حية». كما كان قد أثار هذا الموضوع في ظل قيادة لينين، ففي عام ١٩٢٣ كتب قائلاً: «ان نواة اللجنة المركزية، التي نمت أبان ممارستها للسلطة، غدت مسنة، ويلزمها تغيير، وأنت لا تجهل الحالة الصحية لفلاديمير لينين؛ وكما يبدو فإن باقي أعضاء هذه النواة الذين يشكلون قاعدة اللجنة المركزية قد إستنفذوا قواهم. والمؤلم أننا لا نملك بعد فريقاً جديداً. وما زال الوقت مبكراً لصهر هذا الفريق الجديد. لهذا السبب هناك الوسيلة التالية: لندفع بعض الرجال الجدد الى العمل في اللجنة المركزية، وشيئاً فشيئاً وكلما أنجز هذا العمل، يتم ترفيع الأكثر قدرة منهم والأكثر استقلالية»(٣٠). هذا الهم المتصل بالرجال «المستقلين»، بقي شغله الشاغل، طيلة حياته، حتى أصبح يشكل إحدى خصال القائد: اذ ما ان يكتشف أحدا منهم، حتى يبادر الى تصفيته. ولكن ما توصل اليه حول ضرورة «القوى الحية» سيبقى مفيداً لجميع ورثته.

بعد عام على المؤتمر التاسع عشر للحزب، اجتمع في اللجنة المركزية الامناء الأول للجمهوريات، والمقاطعات والمناطق، اي الاسياد الحقيقيون للبلد، من اجل مناقشة «بعض مشاكل عمل الحزب في ظل البريسترويكا». فبادر الامين العام في تقرير له الى رسم الخط: «ان بريسترويكا عمل الحزب هي المهمة المفتاح، والمركزية، اليوم.»(٣١). ان غورباتشيوف يجري جردة حساب لاصلاحه السياسي، الذي وضعت ركائزه في الجلسة المكتملة للجنة المركزية التي عقدت في كانون الثاني ١٩٨٧، والمؤتمر التاسع عشر للحزب في أيار ـ حزيران ١٩٨٨. لقد مضى عامان ونصف على سياسة الكوادر المكثفة. كان فيها انتخاب نواب الشعب النقطة الذروة في تصفية الطبقة المخملية».

فبعد تأمينه لانتخاب مئة شخص دون اقتراع سري كان يحتاجهم ، وإختيروا من قبل الجهاز المركزي، رمى غورباتشيوف اصحاب الآلهة الآخرين امام محكمة الشعب.

وبالامكان اعتبار الانتخابات السوفياتية الأولى منذ بداية السنوات العشرون والتي تسمح ببعض عناصر الاختيار، مدرسة في الحياة السياسية، ونواة للبرلمانية، وهدية القائد للشعب، بل امكانية جزئية ولكن حقيقية تسمح للشعب بالتعبير الصريح عن استيائه من الظروف المعيشية غير ان نتيجته الكبرى كانت تصفية دون رحمة للمرتبة العليا من رجال السلطة. الأمر الذي كان يؤمن رضى غورباتشيوف. فقد اقدم مؤتمر نواب الشعب على انتخابه رئيساً لمجلس السوفيات الأعلى. كما ان سماحه لبعض الاصوات بالانتقاد، لم يحل دون إدخاله للأشخاص الذين يريدهم الى مجلس السوفيات الأعلى. وفي ضوء ما تقدم أصبح بإمكانه ان يعلن في لينينغراد وبإرتياح: «لقد أبعدنا انفسنا... عن حالة الابهام وازدواجية المسؤوليات التي تسم وضعية أعضاء الدولة، والاقتصاد، والمجالس والاجتماع»[٣٢]. لقد كان بإستطاعته القول «نحن ابعدنا انفسنا...» ولكن أنا، لا أتحرك.

في نيسان١٩٨٩ ، ومباشرة بعد الانتخابات وعلى ضوء النتائج التي ترتبت عليها، استطاع غورباتشيوف ان يرمى خارجاً مئة وعشرة اشخاص من اللجنة المركزية. وهذا ما لم يستطيع ستالين ان يفترسه في أي من وجباته دفعة واحدة. طبعاً هناك فارق: بشكل عام، كان ستالين يقتل المبعدين؛ في حين يكتفي غورباتشيوف بإحالتهم على التقاعد، حافظاً لهم«الصورة الانسانية» بما في ذلك حقهم في طلب الذهاب، أو النقد الصريح حتى لعمل الامين العام. لقد كان لينين يردد قول كلازوفيتس: الحرب هي استمرار للسياسة، بوسائل أخرى، اما غورباتشيوف فقد أثبت أن الانتخابات تقوم مقام التصفية ، ولكن بوسائل أخرى.

شكلت الجلسة المكتملة لنيسان مسرحاً لانتفاضة الأمناء الأول. رمى الامناء المدانون (سياسياً)، في وجه «قيصرهم» اتهامات تعكس معرفتهم الكاملة بالوضع على المستوى المحلي، واقتناعهم المطلق بخطأ سياسة غورباتشوف، وعدم فهمهم لخطط الامين العام، الناتج عن يقينهم. بأنه لا يمكن إستبدالهم. لقد اوضح الخطباء السقوط الكامل للاصلاح الاقتصادي، مستشهدين بفيض من التفاصيل، التي لا نجدها حتى في أكثر التقارير جرأة.

ليست المشاكل الاقتصادية الهم الأساسي للأمناء الأول. فهم يأخذون على غورباتشيوف سياسته التي أدت الى اضعاف الحزب ، فاقداً بذلك «دوره الطليعي»، وسلطته، ورصيد الثقة التي أولاه اياها الشعب، «ليتحول الى نادٍ للنقاش». فقد حذر الامين الاول لأذربيجان أ. فزيروف، من «السيدا الايديولوجية» التي تهدد بـ «فقدان الحزب لدوره القائد». اما إي. بولوزكوف، والذي يفضل الكلام الملموس، فقد اتهم «اللاشكلين» بـ«العمل على رمي جرائم ستالين على كاهل الحزب ككل، وتنظيم المظاهرات من اجل تمزيق الاتحاد السوفياتي وتصفية الحزب الشيوعي السوفياتي». وفي اجتماعاتهم «يطلقون الدعوات لشنق الشيوعيين، وعدم تطبيق القرارات الحكومية، والتخريب على القوانين السوفياتية، مع ذلك لا أحد يرد. . . »[٣٣] ويستنتج ان في ذلك ما يوضح «النقطة التي وصلنا إليها».

لقد أضحى النضال ضد البيروقراطية، نضالاً ضد الحزب، كما يرى الامناء الأول. فالامين الأول لمنطقة كيميروف أبعد في الانتخابات، والكسندر مالنكوف، الذي لا يعلم بعد ان الاضراب الأول لعمال المناجم سيبدأ في منطقته، يسأل: «لماذا ألقيت تهمة البيروقراطية على كاهل الحزب، وكوادره من أعلى السلم الى أدناه؟»[٣٤]. كما يصرح الامين الأول للحزب في جمهورية كوميس، فلاديمير مالنكوف بأنه «تروج دعوات «تدعو لتهشيم العمود الفقري لجهاز الحزب. والكل ممهور، ودون تمييز بخاتم البيروقراطية الشائن»[٣٥]. واذا كان ف. مالنكوف، قد سمى اربعة من«المحافظين»، في المؤتمر التاسع عشر للحزب وبناء لطلب غورباتشيوف، لأعلى سلم الحزب ، فإنه، في دورة نيسان، اقدم على رفع سيف الانتفاضة: «اليوم، نجد ان امناء المدن والمقاطعات يعلنون مجتمعين، بأنهم في ظل هذه الظروف، لن يذهبوا الى الانتخابات، لعلمهم الأكيد بأن أي منهم لن يعاد إنتخابه»[٣٦]. هذه الانتخابات التي لا يوجد الامناء المشاركة فيها، هي انتخابات المجالس المحلية. لقد أثار كلام مالنكوف تأييداً في القاعة: «هذا صحيح. . . » الامر الذي دفع غورباتشيوف الى الغضب: «هذا صحيح؟! إذاً على الحزب ان يمتنع عن المشاركة في القيادة والانتخابات؟».

في نيسان، وتحت ضغط الامناء، أعلن غورباتشيوف تأجيل موعد الانتخابات من خريف ١٩٨٩ الى ربيع ١٩٩٠. ولكن في تموز، استغل غورباتشيوف اضراب عمال المناجم، ليضع اللوم على السلطات المحلية، ويعود الى التمسك بقراره الأول بإجراء

الانتخابات بأقرب فرصة ، الامر الذي سمح بتصفية الجهاز. وقد رد غورباتشيوف على الامناء الذين يتهمونه بممارسة سياسة ضارة بالحزب بالقول: لم يحصل سابقاً، ان انتخب هذا العدو من الشيوعيين داخل الجهاز الأعلى للسلطة. فهناك ما نسبته ٨٧,٦ من اعضاء الحزب بين نواب الشعب يوافقون غورباتشيوف على قوله: «نعم، لقد صوت السوفيات بكثافة لصالح الشيوعيين. . » وقد رد نيكولاي ريجكوف معلناً: «لقد بالغنا في تقدير الاحصاءات، بإستنادنا الى واقعة ان٨٥٪(غورباتشيوف هو الذي اعطى الرقم) من النواب المنتخبين هم من الشيوعيين. ففي الواقع، لا تعني هذه الاغلبية العددية لاعضاء الحزب الشيء الكثير. فالعديد منهم لا يملكون موقفاً محدداً من السؤال الاساسي الذي يتردد في المداخلات والمتصل بالمحاولات الرامية الى الحد من دور الحزب القيادي في الحياة الاجتماعية، وإعادة النظر بمكانته المركزية في الحياة السياسية»[٣٧].

كشفت إنتفاضة الامناء التي تكررت في اجتماع تموز ١٩٨٩، الذي عقد إثر الاضرابات، من طبيعة الصراع المبدئي والعميق والتي تضع الامين العام في مواجهة أمناء الحزب. فبالنسبة لهم، سمحت سياسة غورباتشيوف، كما في مزيات السكرتير الاول لمنطقة موسكو: بـ«وضع فساد جهاز الحزب في المقدمة ، وما يسمى بوضعيته المميزة وجهله بالاوضاع المحلية، وعدم قدرته على ادارة الحكم»، الأمر الذي أدى الى ضربة للحزب . كما يرون ان سقوطهم في الانتخابات هو سقوط للحزب. الحزب هو نحن. هذا ما يؤكده الكوادر. أما بالنسبة للقائد العام ، فإن الحزب هو، أنا.

هذا الصراع اصبح تقليداً. فكل أمين عام يكوّن كوادر سياسته. ففي عام ١٩٢٣، في المؤتمر الثاني عشر، نرى أن ستالين يعود الى لينين الذي كان قد اعلن قبل عام من ذلك: «ان سياستنا صحيحة، ولكن جهازنا قد إعوج، لهذا السبب نجد ان آلة الحزب لا تسير في الوجهة السليمة، بل تنحرف». داحضاً بذلك ملاحظة أبداها أ. شليبنيكوف مفادها ان الآلة لا تسير في الوجهة السليمة لأن «السائق لا يقوم بعمله». يرفض ستالين ذلك بشكل قاطع: «هذا الامر غير صحيح قطعاً. فسياستنا صحيحة، والسائق مكتمل المواصفات، والآلة من صنع سوفياتي جيد، ولكن المشكلة في دواليب الآلة، بتعبير آخر هذا هذا المواظف أو ذاك من موظفي الدولة، الذين أصابهم الاهتراء». يستنتج ستالين ان الحاجة تبرز رافعة «من أجل انجاز بريسترويكا

دواليب الآلة، واستبدال القطع الفاسدة بأخرى جديدة. اذا كنا نريد فعلاً ان تتقدم الآلة في الواجهة المتوخاة». ويضيف بشكل حاسم: «هذا هو مضى تعبير الرفيق لينين»[٣٨]. والذي كان يعاني سكرات الموت، ويصعب حضوره لاعطاء رأيه. ولكن ستالين فهم بدقة مغزى هذه «البريسترويكا»، التي صاغها المؤسس بإبهام. وكان على ستالين ان ينتظر عشر سنوات من أجل تنفيذ فكرة لينين.

ليست «بريسترويكا» غورباتشيوف الا امتداداً لفكرة لينين، ضمن ظروف مختلفة. فالسكرتير السابع لا يراوده الشك أبداً حول صحة سياسته. فهو على اقتناع بأن السائق غورباتشيوف كفؤ. كذلك الامر بالنسبة للآلة فهي من صنع سوفياتي. «أنني اعتقد، يقول غورباتشيوف، بأن امكانيات الاشتراكية غير محدودة». ونحن مقتنعون، «بحيوية التعاليم الماركسية اللينينية، التي تطرح وبشكل علمي امكانية بناء مجتمع العدالة الاجتماعية، حضارة الناس الأحرار والمتساوون!». وكي تستطيع الآلة السير نحو الوجهة التي يختارها السائق البارع، يكفي «ان نستبدل القطع القديمة المهترئة، بأخرى جديدة» كما يقول الرفيق ستالين.

لغورباتشوف صياغة أكثر شاعرية: «في مجتمع يعرف التجديد، على الحزب فيه ان يتجدد بالتأكيد»[٣٩]. أما رافعة هذا التجديد فيجب ان تكون «سياسة كوادر شديدة الفعالية، مكيفة وملائمة لروح العصر». مرة جديدة، يؤكد السكرتير العام الجديد صحة قول ستالين: «الكوادر يقررون كل شيء». عندما يحلل علماء اللغة نصاً ما فإنهم يولون اهتماماً خاصاً للكلمات والتعابير التي تتردد، بإعتبار ان معنى النص متضمن فيها. ففي التقرير الذي قدمه غورباتشيوف الى اجتماع الكوادر في تموز١٩٨٩، وفي خطاب انتهاء الاجتماع، لم يتوقف عن تكرار: « من الآن فصاعداً، سيقترن نجاح البريسترويكا بالحلول الصحيحة لمشاكل الكوادر، حيث يتأمن دفق القوى الحية»[٤٠]؛ «إن القرارات الجديدة المتعلقة بالكوادر، لا يجب أن تقتصر على بعض المناقلات والمبادلة في المراكز فهذا يجعلنا مستمرين بالدوران داخل حلقة نفس الأشخاص الخالدين، دون السماح لظهور دفق من القوى الحية»[٤١] «يجب علينا ان نستكمل جسم الكوادر بواسطة سند من القوى الخلاقة»[٤٢]؛ «قوى حية، جديدة، تثبت في الحزب»[٤٣]؛ «ان الكوادر بحاجة الى التجديد، الى دفعة من القوى الحية»[٤٤]؛ «حيث تكون الاستفاقة ضرورية، فإن أناساً جدداً يجب ان يصلوا

ويشاركوا في العمل بهمة»(٤٥)، الخ. . . المطلوب اذاً، قوى جديدة، وحية، وهي موجودة، يؤكد غورباتشيوف، هذا المتفائل. فهي تقف منتظرة على أبواب مكاتب الحزب.

بداية، يقف وراء انتفاضة أمناء الحزب وهذا أمر طبيعي الخوف من خسارة موقع هام وما يرتبط به من إمتيازات. ولكن هناك سبباً آخر. فالكوادر لا يفهمون سياسة غورباتشيوف. أو على العكس من ذلك، يفهمونها بشكل جيد، فهم يرون مثلاً، ان الانتخابات، مجرد وسيلة عادية. «رافعة» ستالين للتخلص من الكوادر القديمة. فالسياسة المبهمة لغورباتشيوف لا تثير إلا غضب هؤلاء: ففي الوقت الذي يركز فيه على ضرورة صون الدور القائد للحزب، فإن غورباتشيوف يدعو الحزب الى التخلي من قيادة الحياة في كل يوم.

ان اللعبة اللغوية لغورباتشيوف تغذي استياء جسم الكوادر. اذ كيف يمكن التوفيق، في الواقع، بين الدعوة الى التحرر من المسؤوليات التي لا تتصل مباشرة بإهتمامات الحزب، وبين ضرورة «الحضور في شتى ميادين الحياة»؟ ثم كيف يمكن شرح مسألة «التمييز بين الطليعة السياسية للمجتمع من جهة، والحكومة والادارة، التي إنتقلت الى أيدي السوفيات من جهة أخرى»(٤٦)؟ يلاحظ نيكولاي ريجكوف: «ان الحزب، الذي يلعب دور المحرك في النظام الاداري يخسر، مع تحطيم هذا النظام، ما هو أساسي امكانية اعطاء توجيهات مباشرة، والاهتمام، وكما جرت العادة، بمسائل الحياة الاقتصادية والبناء السوفياتي والعديد من القضايا الأخرى أيضاً»(٤٧). يعتبر ريجكوف وهو عضو في المكتب السياسي والوزير الأول، أحد أقرب رفاق السلاح لغورباتشيوف. في العمق، هو موافق على ان مسألة» «اعطاء توجيهات مباشرة»، «كانت وعلى الدوام متناقضة مع طبيعة الانتظام السياسي». فالانحراف واقع بإعتبار ان حزب لينين قد إنبنى على أساس التدخل المباشر في شتى ميادين الحياة. لذا يبدو وكأن ريجكوف يميل «للفصل»بين الصلاحيات. ولكن يكتفي بالقول بأنه لم توجد بعد اساليب سياسية جديدة للتوجيه؛ وبأن «القوى الحية» التي يستند اليها غورباتشيوف، بما في ذلك «القوى الأقل حيوية»، لا تستطيع ان تمارس دورها إلا عن طريق «التوجيه المباشر». ان مقلاع الامناء الأول ناجم عن ان الطلب إليهم التخلي عن «اساليب مدانة بحق»، ترافق مع اتهامهم بأنهم أرخوا «قياد التوجيه»(٤٨).

ان موضوعة «فصل السلطات»، والتي جعل منها غورباتشيوف نواة اصلاحه السياسي، لاقت المصير نفسه لباقي «تجديدات» البريسترويكا. يتم الطلب الى جهاز الحزب التخلي عن جزء من مسؤولياته لصالح السوفيات. ولكن مجالس السوفيات تنتظر القانون المحدد لمسؤولياتها، وسلطتها وامكانياتها الاقتصادية. فكما أعلن أيغور ليغاتشيف: «اليوم إبتدأ الفصل بين مسؤوليات الحزب والدولة. ولكن، وكما كانت الحال مع باقي الاصلاحات والتجديدات، ينقصنا الصبر، ونريد ان نصل مباشرة الى النتائج. في حين ان مجالس السوفيات لا تملك بعد الحقوق والوسائل التي تحتاجها، وفي العديد من الأماكن، تبنت لجان الحزب موقف عدم التدخل، والوقوف على الحياد، بحيث انها لم تعد تهتم، من الآن فصاعداً، بحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية»(٤٩).

ان إقدام غورباتشيوف على تحقيق اصلاحه السياسي، لم يغير في وضعه. الشيء الكثير. و«فصل السلطات» تم على عجل، وبإهمال، دون تحضير فعلي. أي كما حصل بباقي إصلاحات البريسترويكا. الشيء الوحيد الذي بلغ هدفه، بعناد، وبطريقة منتظمة، هو قسم الاصلاح السياسي المتعلق مباشرة بالقائد. فإنتفاضة الامناء، التي غدت كالعاصفة في تموز ١٩٨٩، في اجتماع اللجنة المركزية، كانت موجهة ضد غورباتشيوف. ولائحة الطعون التي صاغوها كانت أكثر جدية من تلك التي سببت اقالة خروتشيوف. لقد تحدث نيكولاي ريجكوف عن وضعية جديدة على مستوى قمة هرم السلطة، عن مثلث نظام الحكم: اللجنة المركزية للحزب، مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي، ومجلس الوزراء. في ضوء ذلك طرح ريجكوف سؤالاً منطقياً: في شروط ممارسة مجلس السوفيات الأعلى لعمله بشكل دائم، ما هي مسؤوليات اللجنة المركزية المكتملة والمكتسب السياسي. اللذين كانا، حتى الوقت الراهن، يعملان على بلورة التصورات المختصة بالتطور الاقتصادي للبلاد، والخطط الخمسية والسنوية، ويتوليان إتخاذ القرارات المتصلة ببرامج الدولة، الخ...؟ يستنتج: لم نعد نستطيع، كما في السابق، أن ننتظر ببساطة التعليمات المباشرة من الحزب فيما يتصل بالمشاكل الاقتصادية، والاصلاح الاقتصادي، والسياسية العملية والتقنية، ومسائل أخرى.

فمسؤوليات الحزب، على المستوى الأعلى، اضحت برأي ريجكوف، «مهمة»(٥٠).

بالنسبة لأمناء الحزب، من الواضح، ان زاويتين من المثلث تتبعان الامين العام ورئيس مجلس السوفيات الأعلى، ميخائيل غورباتشيوف. أما الزاوية الثالثة، أي مجلس الوزراء، فالكل يعلم انها الأقل أهمية، وهي وتبقى على أي حال فرعاً من أصل. اما سخط الكوادر فمرده الى ادراكهم بأن تقليص صلاحيات الامناء سوف يتيح للقائد التصرف بمجال واسع من السلطة. وسيجد هذا السخط لاحقاً تعبيراته العلنية. يرى الأمين الأول لمنطقة سفردلوفسك، لـ. بوبيكين: «في الأوقات الأخيرة، ضعف دور سكرتارية اللجنة المركزية»، ويقترح من أجل معالجة هذه المسألة تسمية «أمين ثانٍ، أياً يكن الاسم الذي سيطلق عليه»[٥١]. ويرد ريجكوف، الكرة الى ملعب غورباتشيوف في دعوته الى تحرير الحزب من «المهمات الصغيرة»، قائلاً: «علينا السعي، وبكافة الوسائل، كي نمكن الامين العام، ميخائيل سرغيفتش غورباتشيوف، من ايلاء الإهتمام اللازم لمسؤولياته تجاه الحزب. يجب ان نحرره من المهام الصغيرة التي تغرقه. موفرين له امكانية الانصراف الى معالجة المسائل المبدئية، التي يتوقف عليها حاضر الحزب ومستقبله: . فمن المفروض ان يقود هو شخصياً قضية البريسترويكا في الاتحاد السوفياتي»[٥٢].

يدرك غورباتشيوف، كما يدرك الامناء الأول، ان السلطة ليست في معالجة «المسائل المبدئية»، ولكن في إدارة التفاصيل، وايجاد الحلول «للمشاكل الصغيرة». لذلك فإن الامناء الأول لا يستطيعون ان يتحملوا الاعتداء على سلطتهم الفعلية، عن طريق مركزة الجزء الاعظم منها بيد الامين العام.

في صيف ١٩٨٩، تم انجاز المرحلة الاولى من الاصلاح السياسي الخاص بغورباتشيوف. فقد تمت أعجوبة «دمج المسؤوليات». وتمكن القائد من احتلال المنصبين الرئيسين. وهذا الوضع أصبح من الصلابة، بحيث يستطيع ان ينظر الى معارضة الامناء بإعتبارها تمثل مرحلة دون اي وزن في مواجهة صعوده نحو قمة السلطة. ان دروس المؤامرة ضد خروتشيوف لم تذهب سدى.

بقيت المرحلة الثانية من الاصلاح السياسي. والتي تقضي بضرورة بناء جهاز خاضع كلية للقائد. ان الاستراتيجية التي تبناها غورباتشيوف، بتعبير المنظر العسكري البريطاني ليدل هارت، استراتيجية غير مباشرة، تقوم على مبدأ مواجهة

العدو بشكل مباشر. فهكذا أجاب على انتفاضة الامناء، الذين يؤكدون بأن الاصلاح كان مدخلاً لاحداث ازمة في الحزب «وانحسار الثقة الشعبية»، بالتعجيل بإنعقاد مؤتمر الحزب في صيف ١٩٩٠ . «لانه بحاجة الى «جهاز» ، ولكن «جهاز جديد». وفي ذلك إدانة حاسمة للجهاز القديم، ولدواليب الآلة ـ هذه الآلة التي يحاول كل امين عام ان يجعلها أكثر فاعلية، عن طريق إصلاحها او إحداث «بريسترويكا».

الجزء السادس

الى الأوج

«ان من يبني نظاماً جديداً من الحكم يجعل من كل تمتعوا بالامتيازات، في ظل النظام القديم، أعداءً له، ولا يجد إلا دعماً فاتراً من الذين سيربحهم. هذا الفتور يفسر جزئياً بالخوف من الاعداء، وجزئياً أيضاً بنقص الايمان بالأشياء الجديدة، طالما انها لم توضع بعد موضع التجربة».

مكيافلي

الفصل السابع عشر
مستشارية شخصية

يتضمن مجيء قائد جديد على الدوام نوعاً من الانتظام الجديد، حتى لو بقيت بنية النظام ثابتة. فعندما انتخب غورباتشيوف أميناً عاماً، لم يكن من المبتدئين في الكرملين. ولكنه لم يكن أيضاً محترفاً للمكائد التي تعقد فيه. ببساطة، وخلال سبع سنوات من العمل كسكرتير للجنة المركزية، عرف كيف ينسج حوله مجموعة علاقات، ويألف آليات السلطة العليا. ولكن الأمين العام الجديد كان يتملكه نزوع لتكوين مكتبه الخاص. ثم ألم تشكل سكرتارية اللجنة المركزية وسيلة أساسية لسلطة ستالين؟ ففي آب ١٩٢٣، سمى المكتب التنظيمي للجنة المركزية بشكل رسمي الرفيق باجنوف «مساعداً لسكرتير اللجنة المركزية، الرفيق ستالين»[١]. ففي ذلك الوقت، كان لستالين مساعدين، غير أن الوثائق المتعلقة بتسميتهما تبقى، في الظاهر، في طي الأرشيف، والمعروف فقط أن أعضاء المكتب الشخصي لستالين يطلق عليهم اسم مساعدين. وهذا الأمر مستمر حتى اليوم. لكن أسماء وأنشطة هذه «الدواليب» الأساسية في آلة القيادة تبقى في الظل. فالمذكرات المنشورة لا تشير إلا عاماً لهذا الموضوع، كتولي ليبيديف مثلاً لمنصب مساعد خروتشيوف، الذي نقل إليه «يوم من حياة إيفان دنيسوفيتش». وألكسندروف أغنتوف الذي تولى أيضاً مسؤولية مساعد خروتشيوف للشؤون الخارجية، وبقي في مسؤوليته هذه في ظل بريجنيف، وأندربوف، وتشيرنينكو، وظهر في بعض الصور بشكل سريع.

كذلك فإن فريق غورباتشيوف غير معروف بأكثرية أعضائه. ففي زيارة الى يوغوسلافيا، أتى الأمين العام على ذكر إسم مساعده، غيورغي شاخنازروف الذي كان يرافقه. كما عُرِف إسمي مساعدين آخرين: أناتولي تشرنيائيف وإيفان خرولوف. إن المظهر المهني لهؤلاء الثلاثة له دلالته الخاصة، فهو يعكس خاصية السياسة

الغورباتشيوفية. فمساعدوه من المختصين بميدان «العلوم الانسانية والاجتماعية»: تشرينابيف مؤرخ، وفرولوف فيلسوف، وشاخنازروف عالم سياسة. كما انهم شغلوا ولمدة طويلة وظائف في جهاز اللجنة المركزية، منها العمل في الشعبة العلمية وشعبة الأخبار العالمية.

في أواخر ١٩٨٩، دفع ميخائيل غورباتشيوف مساعده ايفان خرولوف الى منصب رئيس تحرير البرافدا، مؤمناً انتخابه لمسؤوليات سكرتير اللجنة المركزية، بهدف تقوية سلطة الجهاز المركزي للحزب الشيوعي السوفياتي. وفي كانون الثاني ١٩٩٠، إنضم الاقتصادي نيكولاي بيتركوف الى المستشارية الشخصية لغورباتشيوف. ومنذ أواخر ١٩٨٩، حمل فاديم زغليادين عنوان «مساعد»؛ الذي عمل، لمدة عشرات السنين في الشعبة الدولية للجنة المركزية، يداً يمنى لبوريس بونوماريف المنفذ الأمين لسياسة ستالين الخارجية، منظم وقائد الحركة الشيوعية العالمية.

أما غيوركي شاخنازاروف وهو كاتب غزير الإنتاج نشر مقالات وأعمال تتصل بمسائل العلوم الاجتماعية، وسمحت له أعماله بتبؤ منصب عضو فخري في أكاديمية العلوم، هذا إضافة الى أنه شغل منصب رئيس الجمعية السوفياتية للعلوم السياسية، والنائب الأول لرئيس الجمعية الدولية للعلوم السياسية. وبموازاة ذلك، شغل منصباً هاماً في شعبة الأخبار الدولية في اللجنة المركزية. واهتم بكتابة روايات في ميدان الخيال العلمي. أما آراء مساعديه الآخرين فلا يمكننا التعرف إليها إلا عن طريق النصوص الرسمية التي تحضر بناء لرغبة غورباتشيوف. نشر غ. شاخنازاروف، في أواخر ١٩٨٣، كتاباً بلغ حجمه ٧٦٧ صفحة، جمع فيه أعماله من عام ١٩٧٨ الى عام ١٩٨١ تحت عنوان: الاشتراكية والمستقبل.

أنهى عالم المستقبليات والسياسة كتابه بنداء وجهه الى الأجيال القادمة: «من الممكن أن يرغب البعض في قراءة هذا العمل عام ٢٠٣٠. وسيجد فيه الكثير من المسائل التي تبدو هزلية بالنسبة لحكمة ذلك الوقت. كما ان بعض المسائل لن تبدو صحيحة تماماً، فيما أخرى لن تكون صحيحة مطلقاً. ولكن الأساسي يجب أن يتحقق. فالاشتراكية حتمية، ولن تكف عن التطور»(٢). بإستطاعة القارىء الذي يلقي نظرة على هذا المؤلف، بعد خمس سنوات، وليس بعد خمسين سنة من نشره، أن يكتشف فيه الكثير من المسائل «الهزلية»: التأكيد الجازم، على سبيل المثال، أن «مجتمعاً إشتراكياً

متطوراً قد بني في الإتحاد السوفياتي»[٣]؛ وأن كافة البلدان «التي إختارت طريق الاشتراكية»، من منغوليا إلى جمهورية المانيا الديمقراطية، مروراً بتشكوسلوفاكيا، وبولونيا وهنغاريا، «قد تطورت بوتيرة سريعة، تجاوزت بكثير وتيرة النمو الاقتصادي للبلدان الرأسمالية»[٤]؛ أضف الى ذلك إنجاز أعمال جبارة ـ في الزمن الجيد لسنوات بريجنيف ـ «بهدف تطوير سيادة الشعب وترسيخ الشرعية»[٥]؛ الخ. بموازاة ذلك، نجد في هذا المؤلف جميع مفردات «الفكر السياسي الجديد» لغورباتشيوف، ويكفي لذلك ببساطة أن نحرر المؤلف من غبار التأكيد على الموت المحتم للرأسمالية»[٦].

ومع ذلك فإن الكتاب يحمل ميزة لا بد من أن تثير انتباه الأمين العام. فالنص الأساسي كان قد كتب في السنوات المشرقة من عصر بريجنيف وظهر أثناء فترة حكم أندربوف القصيرة. ولكن إلقاء نظرة على كشاف الأسماء، يظهر العودة الى أندربوف ١١ مرة، في حين أن العودة لبريجنيف لا تتجاوز ٤ مرات. وفي حوار طويل بين الكاتب أ. أداموفيتش والعالم غ. شاخنازاروف، جرى في صيف ١٩٨٨، يستمر مساعد غورباتشيوف بالتأكيد على أن «الاشتراكية... ما زالت بعيدة عن إظهار جميع امكانياتها، ولكنها مع ذلك، أسهمت بقدر لا يُثمّن في تطوير الانسانية»؛ وبالرغم من إعترافه بحصول بعض «الأخطاء والحسابات المغلوطة في تنظيم وتطوير مختلف جوانب الحياة الاجتماعية». ومرد هذه التشويهات ـ برأيه ـ الى واقع «الابتعاد عن المبادىء اللينينية التي ترعى حياة الحزب والدولة»[٧]، ويستكمل غ. شاخنازاروف هذه النظرية البريجنفية ـ الأندروبوفية، وبعد خمس سنوات من نشرها، بالدعوة الى «الأخذ بعين الاعتبار للتداخل العالمي»[٨]، و «تعددية الخيارات الاشتراكية في العالم»[٩]. والتعددية كما يفهمها الكاتب، لا تعني التعايش على قاعدة ثبات الرأسمالية والاشتراكية، بل تتضمن امكانية أن تأخذ الاشتراكية ألواناً مختلفة، بإختلاف البلدان. ففي «السويد، مثلاً، عمل الاشتراكيون ـ الديمقراطيون على تحقيق العديد من المبادىء الاشتراكية»[١٠].

يمثل تكوين مستشارية شخصية للقائد الجديد، المهمة الأولى ولكنها الأكثر سهولة. فهو يختار بنفسه مساعديه، وإذا لم يرتاح إليهم، يستطيع استبدالهم بسهولة تامة، ولا تطل الصعوبة إلا عندما تطرح مسألة كوادر الحزب. وقبل أي شيء، مسألة الجهاز المركزي.

يستنتج فيودور بورلاتسكي في معرض تقويمه لأربع سنوات من عمر «البريسترويكا»، ان الانتصارات التي تحققت تقتصر على تلك المتعلقة بالوضع الدولي. ومرد ذلك الى سببين: «كون السياسة الخارجية لا تتطلب موارد إضافية، إذ يكفي توفر فكر جديد، نشط، وجريء، يطرح مبادرات محسوبة»؛ أضف الى ذلك، السبب الثاني وهو «ان لغورباتشيوف في هذا الميدان رفاق نضال ومستشارين مجربين»(١١).

يطرح إختيار «رفاق النضال والمستشارين، شيء من التعقيد، على المستوى الأعلى للسلطة، بإعتبار قِدم وجودهم وإختيارهم للعمل على هذا المستوى من قبل أسلاف السكرتير السابع. تذكر المكتب العديدة، المخصصة لغورباتشيوف ولمختلف أوجه نشاطه بالتفصيل، لائحة طويلة بحالات العزل والتعيين التي تروي التحولات الجارية داخل الجهاز المركزي: من غياب أسماء قديمة الى ظهور أخرى جديدة في المكتب السياسي أو سكرتارية اللجنة المركزية. وليس من الضروري التوقف طويلاً، أي أكثر مما تفرضه العادة، عند أسماء المبعدين، الذين أعيدت تسميتهم أولاً، مع ملاحظة، أنهم استمروا ويستمرون في لعب دور منفذي سياسة الأمين العام.

فما هو مهم، يتمثل بالتقنية المعتمدة لـ «تصفية» الجهاز القديم وتكوين الجهاز الجديد. فقد أثبتت السنوات المنصرمة، السيادة المطلقة للأمين العام على جهازه. ومن الممكن أن «غورباتشيوف» لم «يبعد» بعد كل من يود التضحية بهم. فما يشغله هو الثمن المتوجب دفعه في حالة أي استبعاد، وما إذا كان هناك من مصلحة راهنة للاحتفاظ بهذا الشخص أو ذاك في المكتب السياسي، بغض النظر عن درجة توافقه معه. يملك غورباتشيوف راهناً حرية عمل واسعة، كما يشهد على ذلك أمثلة عديدة، منها التسمية غير المقنعة لأناتولي كوكيانوف في منصب نائب رئيس مجلس السوفيات الأعلى. فإنتخاب لوكيانوف، الذي لم يكن يحلم به أحد، قد تم دون صعوبات تذكر.

الفصل الثامن عشر
«منتج الأفكار»

«ليس المداوي انساناً دون نظرية، إذ للمداوي نظريته، ولكنها خاطئة، وغالباً ما تكون مهترئة»

فيكتور شخلوفسكي

يستحق شخص واحد فقط ، من بين «رفاق سلاح» غورباتشيوف، هذا اللقب. على الأقل، هذا ما يقال في الاتحاد السوفياتي. فالسيرة الذاتية لالكسندر إياكوفليف تتصف بالتعرج. فقد ولد عام ١٩٢٣، وخدم في الجيش خلال الأعوام ١٩٤١ - ١٩٤٣. ثم أتم دروسه في معهد إياروسلافل التربوي، وعمل لمدة سبعة سنوات في لجنة الحزب الاقليمية لهذه المدينة.

وفي عام ١٩٥٣، تم نقل إياكوفليف الى موسكو للعمل داخل اللجنة المركزية، حيث ترقى من منصب الى آخر، وصولاً للعمل في شعبة الدعاية. وفي بداية ١٩٧١، تمت تسميته مسؤولاً لهذه الشعبة، وإبان عمله، كان قد أنهى دراسته في أكاديمية العلوم الاجتماعية، المصهر الحقيقي لكوادر الحزب، كما أمضى عدة أشهر عام ١٩٥٩، كأستاذ بديل في جامعة كولومبيا. أضف الى ذلك أنه من المؤلفين المكثرين. حيث سمحت له مؤلفاته بإنتخابه عضواً فخرياً في أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي. وتعطي عناوين أعماله فكرة دقيقة عن مضمونها وتوجهاتها: الفقر الايديولوجي عند مدّاحي «الحرب الباردة». الأدب الأميركي البرجوازي حول السياسة الخارجية لحكومة الولايات المتحدة خلال الأعوام ١٩٥٣ - ١٩٦٠ (١٩٦١)؛ الدعوة للقتل. الملفقون الاميركيون حول مشكلات الحرب والسلم (١٩٦٥)؛ ايديولوجية «الامبراطورية»

الاميركية. مشكلات الحرب والسلم والعلاقات الدولية في الأدب الأميركي البرجوازي بعد الحرب (١٩٦٧)؛ السلم الاميركي. الايديولوجية الامبريالية: الينابيع، المذاهب (١٩٦٩). كما نشرت تحت اشرافه وثائق للبنتاغون: درجات الحرب والخداع. وما تكشفه الوثائق السرية للبنتاغون (١٩٧١). أضف الى ذلك، أهمية المؤلَّف المشترك الذي ساهم فيه أ. إياكوفليف: أسس المعرفة السياسية. موجز المدارس السياسية لنظام التعليم في الحزب (١٩٧٢). حيث سحب منه في الطبعة الأولى ٢٥٠ ألف نسخة. ثم تمّت ترجمة هذا الموجز الأساسي بالنسبة لكوادر الحزب الى عدة لغات، بما في ذلك اللغات البنغالية، والهندية، والسنغالية.

ويتوقف المجرى الوظيفي لإياكوفليف في آواخر ١٩٧٢. حيث تظهر في ليتراتورنايا غازيتا، مقالة ـ على عامودين ـ، معنونة: «ضد أعداء التاريخانية» وموقعة ببساطة: أ. اياكوفليف، دكتور في العلوم التاريخية. تتناول المقالة بالتحليل المسألة القومية في الاتحاد السوفياتي، وتتوقف بشكل خاص عند الاتجاهات الروسية المتعصبة التي تحضر في أدب وأعمال الصحافيين بطريقة مدوية. يلفت أ. أياكوفليف الانتباه لخطر إنبعاث «الاتجاهات القومية»، معللاً ذلك بسببين: فمن جهة، تعمل هذه الاتجاهات على تقويض الايمان بالاشتراكية، الى إظهار «التغيرات التي أحدثتها الاشتراكية في بلادنا خلال نصف قرن، والممارسة الاشتراكية للمجتمع السوفياتي، وهي في أساس الأخلاق الشيوعية. . .، بدا كل ذلك وكأنه تجديدات مصطنعة ومفروضة. . . لا تبرر مطلقاً الكسر الذي أصاب نمط الحياة الاعتيادية»[1]. كما يشير أياكوفليف الى أن مؤلفي الأعمال والمقالات المعنية، «يخافون من استخدام كلمات وتعابير مثل، «سوفياتية»، و «اشتراكية»، و «كولخوزية»». أما من جهة أخرى، فإن انبعاث الاتجاه القومي الروسي يوقظ النزعات القومية لدى الشعوب الأخرى المكونة للاتحاد السوفياتي.

«ان العمل على جعل الماضي معطى مثالياً، بالاضافة الى ذلك الانطلاق من مواقع اجتماعية مهمة، يؤدي الى الدخول في مناظرة عبثية من أجل معرفة أي من القياصرة كان الأفضل. . .» وفي معرض الرد على جعل القياصرة والاستراتيجيين الروس رموزاً مثالية، يحق للجيورجيين العمل على وضع النصوص المقرظة «لمملكة تامار المشعة»، وكذلك الأمر بالنسبة للاوكرانيين في نظرتهم الى أمير كييف الأسطوري بوغدانو غاتيلو، الذي يغطي في الواقع على زعيم الهانس، أتيلا، والأوزبك مع تيمور، والكازال في علاقتهم

بحركة كينيساري كاسيموف، والمولداف في نظرتهم الى أبطالهم الكبار في القرن الأخير، الخ. . أضف الى ذلك، ان إستحضار الماضي البعيد، وما يخفيه، بشكل عام، من مراحل صراع ضد روسيا، يؤدي الى إثارة مسائل أكثر قرباً. يخلص اياكوفليف الى الاستنتاج بأن هذا السياق يؤدي الى «بروز محاولات لتلميع وتبييض صورة بعض ممثلي الاتجاهات القومية البرجوازية، وهذا ما نجده في سلسلة من المنشورات حول القوميين البرجوازيين الأوكرانيين، ومناشفة جيورجيا واشتراكيوها ـ الديمقراطيون، والأشناك (أعضاء الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الأرمني) الأرمن».

لقد اعتبرت مقالة اياكوفليف موجهة ضد الاتجاه القومي الروسي. وخضعت للمناقشة في إحدى جلسات المكتب السياسي. وكان المتهم الأول لهذه المقالة مسؤول الشعبة الثقافية في اللجنة المركزية، فاسيلي شاورو. وهذا الأخير، وهو من روسيا البيضاء دافع عن الفكرة القومية الروسية ضد الروسي أياكوفليف. لقد أدين المقال وتم إبعاد كاتبه بتعيينه سفيراً في كندا.

قليلون جداً هم الذين التقطوا نفاذ بصيرة أ. اياكوفليف وحكمته السياسية على مستوى مراتب السلطة العليا. فمقالته هي قبل أي شيء، تحذير منفصل لمنظّر سوفياتي تقليدي، ولمحافظ مقتنع بخطورة اللعب على وتر القومية. هذه الخطورة التي تمس النظام السوفياتي بشكل عام، والوحدة الوطنية للاتحاد بشكل خاص. فما يؤكده اياكوفليف ـ الشيء الوحيد المثير في نصه ـ ان المتغير الطبقي هو الأساس الوحيد للدولة السوفياتية المتعددة القوميات. في حين ان التصالح مع الاتجاهات القومية يؤدي، برأي المؤلف، الى الاعتراف بوجود مشاعر فوق الانتماء الطبقي على سبيل المثال، وجود أخلاق أبدية، أو مبادىء قيمية عليا. ويعيد التذكير بقول للينين غير قابل للدحض: «نحن لا نعتقد بوجود أخلاق أبدية، كما ندين الخداع الذي تسببه روايات المبادىء الخلقية العليا». ولا يكتفي الكاتب بهذا الاستشهاد، خوفاً من أن يكون غير كافٍ، فيضيف إليه إستشهاد آخر مأخوذ من رسالة وجهها لينين الى غوركي: «ان النتائج السياسية العملية المترتبة على أي موعظة أخلاقية، لا تقاس بالرغبة في «تعيين الجيد والحسن»، والتأكيد على «الحقيقة والعدالة»، ولكن بالمضمون الاجتماعي الموضوعي لوجهات النظر المعبر عنها، وبالظروف الواقعية للوجود الاجتماعي».

فقط الايديولوجيا السوفياتية ـ الأخلاقية بمبدئها، «التاريخية». بتعبير آخر لا تأخذ

بعين الاعتبار إلا «الظروف الواقعية للوجود»، وترفض الارتباط بما يسمى القيم الأبدية، التي تطرح نفسها فوق الطبقات، والأساطير التي «تحبها الايديولوجيات البرجوازية» - تستطيع أن تشكل قاعدة النظام السوفياتي. هذا هو مضمون نداء ألكسندر أياكوفليف. ولكن في عام ١٩٧٢، لم يكن مسموعاً، ووجد صاحبه نفسه منفياً الى كندا.

حدث، الانقلاب في مصير إياكوفليف في شهر أيار ١٩٨٣، إبان زيارة قام بها الى كندا سكرتير اللجنة المركزية وعضو المكتب السياسي، ميخائيل غورباتشيوف. وتريد «الأسطورة» أن يمضي الزائر وسفير الاتحاد السوفياتي في أوتاوا ليلة كاملة من المحادثة إنتهت بأن اكتشف كل منهم في الآخر ضالته. وفي حزيران، استقدم يوري أندروبوف، الأمين العام آنذاك، اياكوفليف الى موسكو ليسند إليه منصباً مرموقاً، وإن يكن محدود الأهمية: مدير معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية. ويترك للمؤرخين القول، في المستقبل، ما إذا كان أندروبوف قد أرسل غورباتشيوف للاتصال بإياكوفليف، أو أن غورباتشيوف قد أقنع أندروبوف بما يتسم به السفير السوفياتي في كندا من ميزات.

فتح انتخاب غورباتشيوف أمام إياكوفليف الطريق نحو موقع مشرق. فقد أصبح سكرتير اللجنة المركزية، ثم عضواً في المكتب السياسي. وأسندت إليه مهمة الاشراف على النشاط الايديولوجي. ولكن غورباتشيوف لم يتأخر في تعيين فاديم مدفديف لهذا الموقع، على أن توكل الى إياكوفليف الاشراف على السياسة الخارجية.

يفضل ميخائيل غورباتشيوف أن تكون كفاءات أمناء اللجنة المركزية وأعضاء المكتب السياسي غير محدودة بإطار معين، كيف يتمكن عدة أشخاص من الاهتمام بأي من المشاكل المطروحة. فالاقتصاد، مثلاً، هو من اختصاص نصف أعضاء المكتب السياسي، بمن فيهم رئيس الوزراء.. كذلك فإن أ. إياكوفليف يتابع السياسة الخارجية، التي يتولاها وزير الخارجية وعضو المكتب السياسي شفارنذزه. كما أن إنكباب إياكوفليف على رسم الاستراتيجيات، لا يدفعه الى احتقار الممارسة الدبلوماسية: بحيث يستقبل السفراء الأجانب المعتمدين في موسكو.

تتمثل المهمة الكبرى التي يتولاها ألكسندر إياكوفليف في العمل على إنجاز

«تصور مكتمل للـ «فكر الجديد» ». فهو بدون شك المولّد الرئيس لأفكار غورباتشيوف. فالأمين العام يستخدم بكثرة كلمات، وتعابير، وأفكار السفير السابق في كندا.

تعرضت أفكار ألكسندر إياكوفليف للتطور. وعند دراسته عن قرب، يتبين لنا تغير الأسلوب البلاغي والخطاب. في عام ١٩٨٥، لدى عودته الى موسكو، كتب في مقدمته لكتاب جديد ـ على حافة الهاوية: من ترومان الى ريغان ـ ان الرؤساء الثمانية لأميركا ما بعد الحرب، «قد استخدموا الأساليب ذاتها، من أجل زرع الخوف من التهديد الخارجي، وإثارة الشوفينية المتفلتة، وتبرير نمو الروح العسكرية والعدوانية، والقيام بعملية غسل دماغ الشعب، كي لا يتمكن من تغذية الأفكار غير المرغوب بها من قبل القوى المسيطرة». وفي نهاية ١٩٨٦، يعلن اياكوفليف المشرف على النشاط الايديولوجي، إدانته «لثقافة الجماهير الغربية» وتأثيرها المشؤوم على الشعب السوفياتي[٢].

بعد عام ١٩٨٧، بدأت تظهر تعبيرات جديدة في قاموس المنظر الأول: «نرى الماضي والحاضر بطريقة أكثر اكتمالاً وأكثر دقة، ونرى المستقبل بطريقة أكثر واقعية»[٣]. ويتابع قائلاً: «بين نيسان ١٩٨٥، وكانون الثاني من هذا العام (١٩٨٧)، قمنا بتحقيق عودة جماعية الى الحقيقة»[٤]. هنا لا يتم اكتشاف الحقيقة، بل العودة إليها بسحب «موضوعات نيسان»؛ إنها موجودة: فهي حقيقة لينين. ثم يأتي الرؤية: «ان مسألة المبدأ الخلقي تشكل المسألة الأساسية للبريسترويكا. فبدون العامل الروحي، لا وجود للبريسترويكا»[٥]. في هذه المرة نضع جانباً العودة الى لينين، الذي «يدين خداع كافة روايات المبادىء القيمية العليا». كما ان من الممكن إكتشاف نصوص عند القائد الكبير، تظهر فائدة الأخلاق.

إذاً، لقد تم إدخال تعابير، الروحي، والقيمي، والأخلاقي، في قاموس «الفكر السياسي الجديد»، الذي تولى صياغته أساساً اياكوفليف. فهو يشرف على تكوين «التصور الناجز»، ويبلور «خطط البريسترويكا»، ليس فقط «لكل مستوى من مستوياتها، بل أيضاً لوحدتها، ولتشابك مختلف دوائر نشاط وحياة المجتمع»[٦].

في نيسان ١٩٨٧، عرض الكسندر اياكوفليف الموضوعات الأساسية لايديولوجية

«البريسترويكا». ففي اجتماع للباحثين في العلوم الاجتماعية، عقد في أكاديمية العلوم، قدم اياكوفليف تقريره. الذي أعادت نشره البرافدا بشكل مكثف، واكتفت الكومنوست بنشر موجز عنه، ولم ينشر كاملاً إلا في مجلة الأكاديمية. وحسب التعبير الخاص المستخدم في الاتحاد السوفياتي، فإن ما عرضه اياكوفليف يمثل أساساً في الاتحاد السوفياتي، فإن ما عرضه اياكوفليف يمثل أساساً «تقرير خدمة»، لتثقيف المؤرخين، والفلاسفة، وغيرهم. والشيء الملفت في هذا البحث، صلته المباشرة مع مقالة كان قد نشرها اياكوفليف عام ١٩٧٢، يؤكد الكاتب: «تحتم الضرورة الاستمرار في تطوير المنهج التاريخي في العلوم الاجتماعية»[٧]. بتعبيرٍ آخر، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الظروف العيانية، من أجل تحليل الواقع. أي ينطلق المنظر الأول من مسلمة «نيسان» (يكتب اسم الشهر بأحرف كبيرة)، أو العصر الثوري للـ «تغييرات الجذرية»، كي يعلن أن «دورة نيسان، والمؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي، قد سلّحا الحزب بمعارف علمية محققة على ضوء السمات الأساسية للعصر، وللعالم المتناقض، ولكن في الوقت عينه المتداخل وبالنسبة للعديدين بشكل وحدة، وبفهم للطرق الأفضل، وللوسائل والمناهج التي تسمح بإيجاد الحلول للمسائل الهامة التي تتصل بمصائر الحضارة، في هذه المرحلة المفصلية من التاريخ العالمي»[٨].

يسمح سلاح المعرفة العلمية للعالم الذي يمتلكه اياكوفليف، واطلاعه على الطرق والمناهج والوسائل، بوضع تصور لاعادة بناء العالم، وتحقيق «البريسترويكا». وحتى نيسان ١٩٨٧، كان اياكوفليف ما يزال متمسكاً بمواقفه التي أعلنها في عام ١٩٧٢، مركزاً على مركزية الصراع الطبقي، بإعتباره التناقض الأساسي الذي يحكم العلاقة بين النسقين المتعارضين. عارضاً المثال التالي: «... تعارض وطنية لينين، الإبن النبيل لروسيا، مع وطنية ستوليبين موظف الأوتوقراطية الموهوب، تعارضاً جذرياً، فبين الرجال والعوالم هوة طبقية سحيقة»[٩] ثم يؤكد على ما يلي: «لقد فكّرنا... (ولمدة طويلة) بمقولات نفي الرأسمالية والتنافس معها»، وينتهي لى القول: «بأن ميزان العقل، يفترض صحة ذلك»[١٠]. في أساس تصور اياكوفليف، ان الرؤية الجدلية ـ المادية للعالم لا تتقبل «نفي سمة التعارض الأساسي من التشكيلتين القائمتين اليوم، أو إهمال الوحدة الأساسية للعالم المعاصر...»[١١] ويسمح له الديالكتيك بالتأكيد على أن «ضرورة تعاون البشرية جمعاء، لا يقلل من أهمية مسائل التناقض

الايديولوجي بين الاشتراكية والرأسمالية»[١٢].

يشتمل هذا التقرير على تأكيدات أخرى من نوع: «يمثل الانسان بالنسبة للإشتراكية، القيمة العليا»[١٣]، «ان مهمتنا تفترض الوصول الى تطوير منهجي للاقتصاد، وللمركزية الحقيقية وللديمقراطية الحقيقية أيضاً»[١٤]، كما يجب أن نرفض وبحزم كل المحاولات التي تهدف الى تصوير المسيحية «أم الثقافة الروسية»[١٥]. بالمحصلة لا يحتوي هذا التقرير على أشياء جديدة ضمن فيض انتاج ألكسندر إياكوفليف الايديولوجي. وتكمن فائدته الوحيدة في إشارته الى مرحلة من التطور الاجمالي للغة الايديولوجية المتصلة بمرحلة «البريسترويكا».

أتاحت الذكرى المئوية الثانية للاستيلاء على الباستيل، لاياكوفليف الفرصة للشروع بوضع تصور جديد للثورة: من الثورة الفرنسية وصولاً «للبريسترويكا». يشير الكاتب بداية الى ضرورة «إعادة التفكير الشامل بمبدأ قبول العنف وحدوده في التاريخ. ليس في الماضي فقط، بل راهناً وفي المستقبل أيضاً، حيث لن يكون هناك مكان للعنف». حتى أن فكر كارل ماركس يحتاج بدوره للمراجعة: «وفكرة أن العنف هو قابلة التاريخ قد مضى زمنها، تماماً كما ولّت فكرة سلطة الديكتاتورية التي ترتكز حصراً على العنف»[١٦]. ويؤكد منظر «البريسترويكا»، على أن كافة الحلول «يجب أن تكون انسانية، وتحافظ على الانسان». ويذكّر أن «الحضارة تفضي، عند كل منعطف من تطورها الى فكرة نبذ العنف». منذ «وصية» لا تقتل «التوراتية»، وصولاً الى عالم منزوع السلاح الثوري، لا مكان للعنف فيه. فالجرائم الأكثر بشاعة أضحت ممكنة عندما شرعت «اللاأخلاقية بإسم الأخلاق». ثم ينتقل بعد إبرازه للدور التقدمي الذي لعبته الثورة الفرنسية، الى كشف نقاط ضعفها ومحدوديتها، خاصة عندما أقدم الاقتصاديون الفيزيوقراط، أمثال كيناي وترغو، على «إدانة الميراث الكبير لأسلافهم: أرسطو، وسقراط، أفلاطون وتوما الأكويني، وآدم سميث وآخرون، لأنهم لم يستطيعوا رؤية الإقتصاد خارج الأخلاق».

تكمن الخصوصية الكبرى لـ «ثورة» غورباتشيوف، في أن الأشخاص الذين ساهموا في صنعها كانوا قد خدموا وبأمانة، الأمناء العامين السابقين. وقد أطلت مرحلة جديدة، دفعتهم لتدريس وجهات نظر جديدة. وقد شاعت رواية انجيلية في

أوساطهم، وهي تحوّل «سول» ليصبح القديس «بول». (بولس)، وإن فرقاً عديدة تابعة لـ «سول»، كانت قد قطعت خطوات هامة نحو الشيوعية، قامت فجأة بالانتقال الى معسكر «بولس»، سالكة الطريق الجديد الذي تقتضيه الضرورة. فإذا قارنا بين كتابات الكسندر اياكوفليف قبل تغيير هيئته وبين الكتابات اللاحقة، يتكون لدينا الانطباع بأن الكاتب يعمل على تشويه صورته. في عام ١٩٧٢، كان يؤكد «أن الدين الأكثر «ديمقراطية»، ليس في التحليل الأخير إلا فكراً رجعياً، لأنه يمثل إيديولوجية العبودية الروحية»[١٧]. وفي عام ١٩٨٧، لم يتجاوز الكاتب حدود قناعاته السابقة. أما اليوم، فلا يستطيع التفوه بكلمة دون العودة الى التوراة وإبراز الدور التقدمي للدين، كما أنه يعدد «التواريخ المهمة» التي حملتها السنوات الأخيرة. فيشير الى ألفية عمادة روسيا (في عام ١٩٨٧، حذر من خطر الاحتفال بهذه الذكرى)، والمئوية الثانية للثورة الفرنسية، ومئوية الاممية، متجاوزاً التذكير بالذكرى السبعين للأممية الثالثة. لقد أمضى الكاتب مدة خمسة وعشرين عاماً للتعبير، عن كراهيته للغرب بشكل عام، وللولايات المتحدة، قلعة الامبريالية بشكل خاص، عبر العديد من المقالات والكتب التي تفضح الايديولوجية البرجوازية، معتقداً بقوة، «ان نظام الملكية الخاصة هو في أساس إنقسام المجتمع الى طبقات متصارعة»[١٨]، أما اليوم فيعلن: «في الواقع، ان هدف الصراع الطبقي هو السلام والإنسجام»[١٩]. هذا العالم، الذي خضع منذ أكتوبر ١٩١٧، للقانون اللينيني: «من يسيطر على من؟»، أضحى في طوره الجديد منذوراً للنصر بواسطة القوانين العلمية للتاريخ، ومحققاً هزيمة كاملة للقديم، بغية اعادة تشكله «ككل». هذا «الكل»، «البيت المشترك»، الذي يسوده الانسجام، هو مادة الشعارات الجديدة للايديولوجية السوفياتية، التي يتم بناؤها بتوجيه من الكسندر اياكوفليف، بالاستعانة بأحجار صلبة، ومجربة، محفوظة في المستودعات.

يلجأ اياكوفليف من أجل تقوية برنامجه، الى الاستشهاد، كما في السابق، بأقوال للينين تشرح ضرورة النضال الدؤوب. مشيراً هذه المرة الى توجيه للقائد يطلب فيه من الثوري عدم فقدان موهبة، «اتخاذ القرار، ووزن الأمور، والتحقق من الظروف والزمن وميدان النشاط، من أجل التصرف كثوري، وفي أي لحظة من العمل عليه تبني سلوك الاصلاحي، بـدم بارد، وحكمة عالية». ولكنّا لو أن اياكوفليف سمح للينين بالاستمرار في الكلام، لكنّا قرأنا ما يلي: «علينا تحمل كافة أشكال التضحيات، وتجاوز

المصاعب الكبيرة، كي نتمكن من نشر دعايتنا وتعبئتنا في المؤسسات والمجتمعات، والاتحادات، بشكل منظم، وعنيد، وبإلحاح وصبر، حتى في أكثر الدوائر رجعية . . . علينا القبول بكافة التضحيات وأحياناً ـ عندما تقتضي الضرورة ـ إستخدام الحيلة، والأساليب الملتوية، وإخفاء بعض الأشياء بتبصر وإرادة، بما في ذلك اخفاء الحقيقة».

الفصل التاسع عشر
يمين ـ يسار

«إذهب إذاً، فأنت لا تعرف أين اليمين وأين اليسار»

نقولا غوغول

«للمعارضة حسنة، إذا لم تكن سيئة»

ميخائيل سلتيكوف ـ شتشدرين

يجدر بالأمين العام ان يحتل الموقع الوسط ـ هذا ما يؤكده الماضي بلا كلل ـ هكذا، وهكذا فقط، يستطيع تركيز كل السلطة التي يتيحها مركزه بيده. والحالة هذه، فإن الوسط لا وجود له بدون جناحي اليمين واليسار. وتوفر حالات الانحراف عن الوسط، الذي يطلق عليه منذ عهد ستالين «الخط العام للحزب»، الفرصة للأمين العام من أجل أظهار موهبته، وقيادة الحزب والبلاد. ولحالات الانحراف في تاريخ الحزب، تسميات مختلفة: تباين، تيار، انقسام، معارضة...

في عام ١٩٢١، وضع لينين هذا التمييز الدقيق: «لا يشكل التباين حركة مكتملة. لذا بالامكان تصحيحه»[1]. وفي المؤتمر نفسه توصل لينين الى تبني توصية «حول وحدة الحزب»، تمنع الانقسام. وعندما يغيب «التباين»، و «الانقسام» و «المعارضة» فإن الامناء العامين يسعون الى خلقها. ففي سرد لأحد المؤرخين السوفيات ـ غير مكتمل ومتحيز ـ لتاريخ «المعارضة العمالية»، يكتب، إن في عام ١٩٢٦، كانت مجموعة أ. شليبنيكوف وأ. كولونتايي قد أدينت منذ زمن بعيد، ولكن «الاغلبية» الستالينية، «كانت بحاجة، من أجل تقوية سلطتها الخاصة... الى معارضات، حتى

لو كانت وهمية»[٢]. ويعتبر ستالين المعلم الأكبر في اصطناع حالات الانحراف. والانقسام والمعارضة الوهمية. وحتى عندما تظهر أية مقاومة لسياسة الأمين العام، فإن برنامج المجموعة المعارضة يكون عادة ـ وبعد تفكيك المجموعة ـ من إختلاف المنتصر، أي الأمين العام. هذا ما حصل مع «المجموعة المعادية للحزب» التي صفيت على يد نيكيتا خروتشيوف، كذلك الأمر مع خروتشيوف نفسه، حيث للمرة الوحيدة في تاريخ الحزب، يزاح الأمين العام، وتلصق به مجموعة أخطاء بوصفها «خطأً»، نُعت «بالإرادوية».

يكتب مؤلف السيرة الذاتية السوفياتية الأولى لستالين، مع شيء من التجريح قائلاً: «لقد كان ستالين «وسطياً» في قرارة نفسه. . . ولكنه كان يعمل بطريقة تؤمن له عدة وضعيات، تسمح له، عند الضرورة، أن يلتحق بسرعة، وبإرتياح ودون مخاطر، بالطرف الأقوى. كما نجد في أرشيف «راديك»، وثيقة ملفتة ـ «حول الوسطية في حزبنا» ـ تصف ستالين بالناطق الرسمي للوسطية كما تصف الوسطية بأنها التعبير عن «الفقر الايديولوجي للرجل السياسي»[٣]. ويضيف مؤلف سوفياتي الصورة السياسية لغورباتشيوف معلناً بحماس، ومتناسياً في الظاهر التقييم الآنف الذكر حول الوسطية: «. . . يمثل غورباتشيوف النموذج الوسطي المثالي ـ وفي ذلك يكمن مفتاح سحره السياسي. فعندما يشتد التيار المحافظ، يبدو راديكالياً. وعندما ترتفع موجة الراديكالية، يبدو محافظاً، فالوسط هو الموضع الطبيعي لغورباتشيوف، ضمن مساحة سياسية أنشئت بالكامل بسبب النشاط الذي أطلقه»[٤].

تقصف تسمية أجنحة «اليمين» و «اليسار» ضمن المساحة السياسية السوفياتية بشيء من العسر والارباك، لأن الاختلافات داخل قيادة الحزب، ومنذ منتصف العشرينات، إتخذت وعلى الدوام الطابع الشخصي. وتقتصر المناظرات على مناقشة إيقاعات الحركة، ولا تتجاوز حدود التفاصيل. فالصراع ليس إلا صراعاً على السلطة. كما أن إنتصار ستالين النهائي، وضع حداً لذلك، ولم ينزاح إلا بعد موته.

ما إن تم انتخاب ميخائيل غورباتشيوف لمنصب الأمين العام، حتى بادر الى ادخال أمينين من أمناء اللجنة المركزية الى المكتب السياسي: إيغور ليغاتشيف، ونيكولاي ريجكوف، مكملاً بذلك المستوى القيادي الأعلى، أي جمعية «الأمناء الأُول».

شغل رِيجكوف بسرعة منصب الوزير الأول، أما ليغاتشيف فقد وضع يده على المحور الايديولوجي. يحتل أمين اللجنة المركزية للشؤون الايديولوجية «الموقع الثاني»، رغم أن الأمناء، على المستوى النظري، هم متساوون. ولكن المركز الأكثر قرباً من الأمين العام، ليس أقل خطورة من مثيله بالنسبة لسائق السيارة. فتاريخ «الموقع الثاني» يحتاج الى الكتابة: إذ أن كل من الأمناء العامين استهلك كمية كبيرة منهم. وتحتل لائحتهم، من بوخارين الى كيريلنكو، مساحة عامود في الجريدة. لم يستطع ايغور ليغاتشيف تجنب المصير المخصوص عادة «بالموقع الثاني». فقد وقع عليه دور «المحافظ»، و «الصقر»، و «العدو الرئيسي لصاحب الموقع الأول» فـ «الأمين الايديولوجي» يحمل كل الميزات الضرورية. وتشهد سيرته الذاتية على مدى التشابه مع باقي رفاق سلاح غورباتشيوف ومع الأمين العام نفسه.

لقد ولد ليغاتشيف عام ١٩٢٠، وأنجز دراسته في معهد الطيران في موسكو، ولكن مع دخوله الى الحزب عام ١٩٤٤، قرر إحتراف العمل الحزبي. فبدأ عمله في منطقة نوفوسيبيرسك، بصفة أمين لجنة الشبيبة الشيوعية. وفي عام ١٩٤٦، أصبح الأمين الأول للجنة المنطقة. وفي هذه المرحلة، وقعت له حادثة أدَّت الى كبح مجرى عمل الشاب المناضل. فقد اتهم «بالسلطوية»، وحب «الترأس»، مما أدّى الى استبداله ثم ارساله الى الشعبة المتصلة باللجنة المركزية للحزب عبر المدرسة العليا للحزب من أجل إعادة تأهيله. وهذه القصة رواها صحافي سوفياتي قديم ذهب الى الغرب، ويدعى أ. أشركان[٥]. كما تجد لها مصداقاً غير متوقع في التقرير الذي عرضه سكرتير اللجنة المركزية ج. رازوموفسكي، بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة بعد المائة لولادة لينين. ويكتب رازوموفسكي، وهو المسؤول عن الكوادر، مشيراً بشكل خاص، «بكل أسف، نجد اليوم ضمن دائرة الحزب، أناساً أصيبوا بعدوى استبدادية الرؤساء، ويروجون لعبادة وظيفتهم»[٦]. هذه الاشارة، تبدو في أعين الخبراء واضحة. وبعد «مسيرة الصحراء»، التي إستمرت عدة سنوات ـ عمل خلالها في جهاز اللجنة المركزية في موسكو ـ حصل ليغاتشيف على منصب الأمين الأول لمنطقة تومسك وذلك في عام ١٩٦٥. وبدءاً من عام ١٩٧٦، أصبح عضواً في اللجنة المركزية. وكان عليه فيما بعد أن ينتظر نيسان ١٩٨٣، حيث قام يوري أندروبوف بإختيار «كوادره»، مستدعياً إياه الى موسكو ليسلمه مسؤولية شعبة التنظيم، أي بتعبير آخر: الكوادر. وفي أواخر السنة

نفسها، إرتقى ليغاتشيف الى منصب سكرتير في اللجنة المركزية. ثم في نيسان ١٩٨٥، وفي الدورة الأولى بعد انتخاب غورباتشيوف، تم ادخاله الى المكتب السياسي. لقد أجمعت التعليقات على القول: إنه رجل الأمين العام الجديد. يبلغ ابنه البكر من العمر عشر سنوات ونصف. كما أن عمر ليغاتشيف هو أقل مما هو مطلوب عادة بالنسبة لسكرتير في اللجنة المركزية. أضف الى ذلك أن حياة. كلٍ من غورباتشيوف وليغاتشيف قد سارت بشكل متوازٍ: فالعمل داخل جهاز الحزب يشكل الجانب الأعظم من سيرتهما الذاتية. كما أن كلاً منهما، كان لسنوات عديدة، سيداً مطلقاً على مساحة واسعة وبعيداً عن موسكو: أحدهما في الجنوب، والآخر في سيبيريا.

بدأت آلية إختلاق «عدو من اليمين» تعمل باكراً. وقد القي دور أساسي في هذه العملية على عاتق الصحافة الأجنبية. ففي كانون الأول من عام ١٩٨٥، أشار مراسل الـ «نيويورك تايمز» في موسكو، وبناء على معلومات الدبلوماسيين الغربيين في العاصمة السوفياتية، الى تنامي دور ليغاتشيف وبأن من المرجح وجود ميل لديه نحو صياغة تصور شديد المحافظة في الاقتصاد. ويضيف الصحافي قائلاً: «لا تأخذ المجادلات السياسية السوفياتية طابعاً علنياً. إذ ما يدور بين القادة المسؤولين من اختلافات حول المسائل السياسية، لا يظهر الى العلن، ولذا فإن الآراء المنسوبة الى كل من أعضاء المكتب السياسي، غالباً ما تتخذ طابعاً تأملياً. فالدبلوماسيون الغربيون يقيّمون الاتجاهات عن طريق دراسة الخطابات والمعلومات الأخرى المعلنة»(٧). الى هذا التحديد الدقيق والصحيح للمصادر التي تسمح بتقويم وجهات نظر القادة السوفيات، يجب أن نضيف حكماً، الاشاعات، المنتجة بحذاقة من أجل الانتشار.

جرياً على عادة جميع أعضاء المكتب السياسي والسكرتارية، فإن مداخلات ايغور ليغاتشيف العلنية محدودة. فقط الأمين العام يستطيع الكلام بشكل دائم، وحول كل المواضيع. فقد تضاعف النتاج الشفوي للأمين العام، بعد انتخابه الى رئاسة مجلس السوفيات الأعلى، ثم الى رئاسة الاتحاد السوفياتي. ولكن تجدر الاشارة هنا، الى أن غورباتشيوف وقبل تسلمه للمناصب الجديدة، كان يتكلم أكثر من القادة السوفيات مجتمعين. والى ذلك تلحظ صعوبة التمييز بين خطاب ليغاتشيف وخطاب غورباتشيوف، ان لجهة القاموس المستخدم أو الأسلوب اللغوي لكل منهما. وقد لا يكون من المدهش أن يجري إعداد خطبهما من قبل محررين مشتركين. يقول ليغاتشيف:

«يلزمنا أقصى ما يمكن من الاشتراكية!»[٨]، ويقول غورباتشيوف: «نريد المزيد من الاشتراكية، ولهذا أيضاً، المزيد من الديمقراطية»[٩]. ونستطيع أن نضاعف الأمثلة التي تكشف تشابه الأفكار، وانماط التفكير، و «الكليشهات». ولكن هناك أيضاً بعض الفروقات، وهي من نوعين، فليغاتشيف، وإنطلاقاً من مسؤوليته كحارس للإيديولوجيا، عليه أن يظهر قلقه من أن يتم تجاوز حدود «الغلاسنوست». وهذا ما يعبر عنه بقوله: «لا حاجة لنا الى حقيقة متواطئة، بل إلى الحقيقة الممتلئة والكاملة»[١٠]. بعد هذا، وانطلاقاً من موقعه «الثاني»، لا يستطيع ليغاتشيف أن يتجاوز الأمين العام؛ بل يبقى وراءه بعدة خطوات، مردداً اليوم ما أعلنه غورباتشيوف في الأمس.

لا تشكل تصريحات ليغاتشيف برنامجاً أو مشروع عمل. فهي تعكس فقط رأي نصير للـ «بريسترويكا»، يدرك بأن تسرّع الأمين العام ـ الذي يريد قبل أي شيء تقوية سلطته ـ قد يؤدي الى مضايقات حقيقية. فالتباينات المحتملة، التي يسهل معاينتها في الخطب، تتصل بإيقاعات الـ «بريسترويكا» .

يؤدي غياب البرنامج عند ليغاتشيف الى تسهيل مهمة من يودون أن يجعلوا منه رأس خيط للـ «محافظين» والعقبة الرئيسية على طريق «البريسترويكا». ونشرت إشاعة بأنه في حال غياب غورباتشيوف، سيحل ليغاتشيف مكانه، وسوف يلجأ وبشكل محموم الى تعيين خاصته، من «المحافظين»، في مواقع هامة، وسيلغي القرارات «المساندة للبريسترويكا»، ويستبدلها بأخرى «معادية». في تشرين الثاني ١٩٨٧، عرض تلفزيون موسكو مسرحية تحت عنوان: محادثة بقلب مفتوح، اعتبرت هجوماً على «المحافظين»، بتعبير آخر على «الرقم الثاني». ويكتب صحافي أميركي قائلا: إن الشخصية السلبية في المسرحية، وهي محافظة، تكاد تذكر اسم ليغاتشيف. ان المحاولة الأدبية التي استندت إليها المسرحية، كانت قد نُشرت من قِبَل فيودور بورلاتسكي في تشرين الأول ١٩٨٦، وتطرح الأسئلة التي كانت تجري آنذاك في شتى أرجاء البلاد وفي جهاز الحزب بأكمله. وفي تشرين الثاني ١٩٨٧، أصبح ايغور ليغاتشيف يمثل رمزاً لأعداء الـ « بريسترويكا».

ولم تظهر الشكوك عند ليغاتشيف، لمدة ليست بالقصيرة، تجاه الحملة الموجهة

ضده، أو ربما أنه كان يمارس نوعاً من الخداع. وفي أثناء مشاركته بمؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي، بادر وبناءً على طلب منه الى اعطاء مقابلة لجريدة لوموند. وحاول أن يترك انطباعاً ما، بإعلانه أنه يترأس جلسات اللجنة المركزية، متناسياً الاشارة الى أن الأمور تجري على هذا النحو منذ زمنٍ بعيد، وبأن «الرقم واحد» لا يهتم أبداً بالمشاكل التقنية التي تطرح للمعالجة في هذا النوع من الجلسات. ويردد ليغاتشيف فكرة غورباتشيوف التالية: «لا يمكننا أن نحقق تقدماً إقتصادياً، دون ديمقراطية، ولا ديمقراطية، دون «غلاسنوست»».

كما يستعيد التعبير الذي أصبح بمثابة حقيقة بديهية: «البريسترويكا»، هي الثورة. ويشرح هدف ال «بريسترويكا» بأنه العمل على إيجاد مجتمع «سليم من جميع الأوجه». ويخلص الى القول: «أرى، أن هذا الهدف الانساني يستحق الدعم، وخاصة من قبلكم»[١١].

في آذار ١٩٨٨، ظهر «مشروع عمل» ليغاتشيف. فقد اعتبرت رسالة «نينا أندريغا»، بمثابة برنامج لـ «محافظين»، و «لأعداء البريسترويكا». كما يجب التركيز وبشدة على أن «الرسالة» قد نشرت أثناء وجود غورباتشيوف وإياكوفليف خارج البلاد. وفي المؤتمر التاسع عشر للحزب، وجد ليغاتشيف نفسه في قفص المتهمين، بإعتباره من المحرّضين على وضع برنامج «مضاد للبريستروكا». تمثلت الفترة الأكثر إثارة من المؤتمر في الصراع الشخصي الذي دار بين «الجناح اليميني» و «الجناح اليساري للبريسترويكا». فقد هاجم بوريس يلتسين في مداخلته ايغور ليغاتشيف بشكل مباشر، والذي رد بدوره مستخدماً النبرة نفسها. متصرفاً كرفيق، وكشيوعي حقيقي، أعطى ليغاتشيف الدرس التالي: «. . . أنت، بوريس، لم تستطيع استخلاص النتائج السياسية الصحيحة. . . فقد حافظت على صمتك بإنتظار أمرٍ ما، في جلسات المكتب السياسي. ... وعندما لم تنل دعم الحزب، توجهت الى الصحافة البرجوازية. . . »[١٢].

في ربيع ١٩٩٠، بدأت حركة التغيير، تتفلت تدريجاً من رقابة غورباتشيوف، دافعة بليغاتشيف الى تحديد مواقفه بشكل أكثر دقة. ففي حين كان الأمين العام، الذي أصبح رئيساً، لا يتوقف عن التذبذب كرقاص الساعة، مدفوعاً نحو المجهول في

صراعه من أجل السلطة، كان ليغاتشيف الذي ترك المسؤولية الايديولوجية من أجل الاشراف على الزراعة، يطالب بالعودة الى ماضٍ أليف. ففي مقابلة له مع مراسل «أرغومانتي أي فاكتي»، رفض بشكل جازم وصفات الاصلاحيين: «من المستحيل تحديث الاشتراكية، ومعالجة النقاط المؤلمة في اقتصادنا عن طريق مناهج الاقتصاد الرأسمالي»(١٣). عند هذه النقطة، كان لا بد من إفتراق رفيقي السلاح: الأمين العام ـ الرئيس، الذي يعتقد أن بالامكان تطوير الاشتراكية بواسطة الرأسمالية وليغاتشيف، بالمقابل، الذي يدرك أن ذلك من الموهومات.

وفي ١٦ آذار ١٩٩٠، أقدم ليغاتشيف بعد أن اطمأن الى أنه يسير في أرض صلبة، على إتهام غورباتشيوف في الجلسة المكتملة للجنة المركزية، «بإضعاف الحزب، والمساهمة في إسقاط النظام في البلدان الاشتراكية، بسبب رفضه دعم الأحزاب الشيوعية في هذه البلدان»(١٤).

يرى فيتالي ترتياكوف، كاتب السيرة السياسية لـ «رائد المحافظين»، أن ليغاتشيف يستطيع تأمين مستقبل سياسي، إذا حصل إنقسام داخل الحزب الشيوعي. وتعطي السيرة السياسية المرفقة بالمقالة، فكرة عن طبيعة هذا المستقبل المحتمل، حيث سيتمكن «المحافظ الكبير» من فرض السلم الفاشي.(١٥) هذا التجريح لا صحة له، وبالتالي فهو ليس أكثر من تعبير عن انفعالات سياسية. فمن الواضح أن ليغاتشيف ليس فاشياً؛ فهو شيوعي حقيقي، ويمثل نوعاً آخذاً بالآفول تحت أعيننا.

كان صعود نجم بوريس يلتسين كالسهم، وبطريقة غير متوقعة. لقد تم إستدعاءه الى موسكو من قبل غورباتشيوف، تاركاً وراءه سفردلوفسك التي شغل فيها ولمدة تسعة أعوام منصب السكرتير الأول للجنة المنطقة؛ وأوكل إليه بعد استدعائه هذا مركز السكرتير الأول للجنة المدينة، وفي مداخلته التي ألقاها في المؤتمر السابع عشر للحزب، دعا زملاءه القياديين الى التخلي عن إمتيازاتهم. هذه الدعوة لم تلاقِ الحماس نفسه الذي لاقته في فيكونت دي نوايي في ٤ آب ١٧٨٩. ولم يكن مندوبو المؤتمر قد واجهوا المسألة. ولكن جرأة المتكلم أثارت الانتباه. وفي هذا المؤتمر أيضاً أعرب يلتسين عن خوفه من الافصاح عن رأيه في مراحل سابقة. هذه الصراحة دفعت المندوبين للتصفيق له. والبعض يتذكر، أنَّ خروتشوف منذ ثلاثين سنة، كان يملك الجواب

نفسه. أما الفارق فيتمثل في أن خروتشوف كان يخاف ستالين، أما يلتسين فيخاف من بريجنيف. ويبقى الخوف المحرك الرئيسي لقيادة الحزب؛ وإذا كان الصراع مع ستالين ينتهي عادة بالموت، فإن الصراع مع بريجنيف، يُجبر «المعارض على الاكتفاء بأكل الكافيار الأحمر بدل الكافيار الأسود».

تشبه السيرة الذاتية لبوريس يلتسين سيرة غورباتشيوف، وكأنها المقارنة تقوم بين نقطتي ماء. ويشير يلتسين بنفسه الى هذه السيرة قائلاً: «ولدت في عام ١٩٣١، من عائلة فلاحية في منطقة سفردلوفسك. عملت في إحدى الورش، وتابعت دراستي في معهد البوليتكنيك في الأورال، كلية العمارة. ثم اشتغلت في أحد المصانع، ثم داخل الحزب: مسؤول شعبة، سكرتيراً، سكرتيراً أولاً للجنة المنطقة قبل أن أستدعى الى موسكو. . .»[١٦] وفي إطار عرضه لسير حياته أمام المدرسة العليا للشبيبة الشيوعية، أعلن يلتسين، مع شيء من التأنق: «لقد استدعيت الى موسكو. . . لأي هدف؟ أنني أجهله. . .»، يعلم يلتسين وهو رجل الحزب المجرب، أن الأمين العام يعتمد على الاخلاص المطلق لرجل الجهاز الذي كان قد «رفعه» الى موسكو.

بدأ بوريس يلتسين «البريسترويكا» في موسكو: وعلى طريقة هارون الرشيد، كان يلتسين يدور في الأسواق، محاولاً معرفة سبب غياب السلع، ويصعد الى سيارات النقل العامة كي يتأكد بنفسه من الوضع المأساوي للمواصلات. وفي ١١ نيسان ١٩٨٦، وصف يلتسين بصراحة غير معهودة، إبان اجتماع لاعلاميي موسكو، الظروف القاسية التي تلف كافة أوجه الحياة في العاصمة الى جانب فئات «النومونكلاتورا»، وأجاب يلتسين على الأسئلة المكتوبة ـ قرابة ٣٠٠ سؤال، ٩٠ ٪ منها دون توقيع ـ بشجاعة، ووضوح، محملاً القيادة القديمة مسؤولية ما ارتكب من أخطاء، وواعداً بإيجاد حلول سريعة لكافة المشاكل المطروحة. وفي معرض جوابه على سؤال مقلق حول الـ «ليميتشيكي»، هذه الجماعات التي يتم إحضارها الى موسكو من أجل القيام بالأعمال الشاقة، والتي لا تملك الحق في الاستقرار داخل المدينة، ولكنها مع ذلك تبقى فيها، أعلن يلتسين ما يلي: «لا يجب أن نستقدم أناساً جدداً، بل علينا أن ندفع سكان موسكو الى العمل. كما أن أعضاء الميليشيا سيتم تزويدهم بخطة عمل لمواجهة الفئات الطفيلية».

بدأ يلتسين يكتسب شهرة عالمية في ٦ آيار ١٩٨٧. ففي ذلك اليوم، اجتمعت

مظاهرة في وسط موسكو، رافعة الشعارات التالية: «من أجل إعطاء مكانة للجمعية التاريخية ـ الوطنية «باميات» !»، و «ليسقط مخربو البريسترويكا»، «لنفرض لقاءاً بين م. س. غورباتشيوف و ب. ن. يلتسين!»، لقد تولى المتظاهرون قيادة مجالس السوفيات في موسكو. ثم ظهر يلتسين، داعياً المتظاهرين للدخول، أما هم فقاموا بالترحيب به والهتاف له، الأمر الذي رفضه، معلناً: «هكذا ! المزيد من التصفيق! ألا نستطيع أن ننسى قليلاً «عبادة الرؤوساء»؟ لقد طلبتم مني اللقاء معكم، وها إني قد أتيت للتحدث إليكم من الند الى الند. ما هي أسئلتكم؟»[١٧].

هذا اللقاء مع السكرتير الأول لتنظيم الحزب في موسكو، والعضو الاحتياطي في المكتب السياسي، أعطى لـ «باميات» صفة الجدارة والاحترام، ووفر لها عملاً دعائياً. أما بالنسبة ليلتسين، فقد ربح شهرة القائد الشجاع والصريح، الذي يستطيع التحدث مع الشعب. وفي إطار حديثه مع أنصار «باميات» أكدّ على: «أن العديد من الأسئلة المطروحة لها مشروعيتها، والأفراد الذين يطرحونها تحركهم عواطف وطنية، مشاعر حب الوطن. هذه هي نقطة الانطلاق في تفكيرهم ولكن أجوبتهم ليست صحيحة دائماً»[١٨].

تبنى الأمين الأول مع جهاز الحزب في العاصمة، نبرة أشد قساوة. فخلال وقت قصير، قام بإستبدال ٢٣ من أصل ٣٣ أمين أول في لجان المقاطعة، واعداً بأن عملية التطهير ما زالت في بدايتها. وعندما خسر يلتسين موقعه، تكلم مبرراً موقفه من هذه العملية بالقول: «إن النسبة المئوية للأشخاص الذين تم استبدالهم، على هذا المستوى من المواقع، مرتفعة قليلاً في إطار البلد ككل»[١٩]. ولكن في موسكو، كان إجراء «الاستبدال» صارخاً. إن عادات يلتسين وحركاته كزعيم مقتدر قد جلبت له أيضاً الكثير من الملامة. ألا يعتبر هو نفسه أن «الكثيرين ممن فقدوا عادة التشدّد والحزم يرون في تصرفاته قساوة بالغة؟»[٢٠] غير أن أحد «مواطني» يلتسين، ف. فولكوف، الذي استدعي للشهادة في المؤتمر التاسع عشر للحزب حيث كانت «قضية يلتسين» قيد البحث، واتّسم كلامه ببعض العطف، شدّد على أنه «احتل مكانة كبيرة بين الناس البسطاء (في سفردلوفسك)»، ولكنه أقرّ أيضاً قائلاً: نعم، إنَّ ب. ن. يلتسين هو رجل صعب المراس، قاسٍ»[٢١].

إن عملية التطهير التي أجريت في قلب الجهاز في موسكو قد ولّدت صدامات بين

يلتسين وليغاتشيف: إذ يشكل أمناء سر لجان مناطق العاصمة جزءاً من نومنكلاتورا أمانة سر اللجنة المركزية. يعتبر ليغاتشيف أن يلتسين قد غالى في استعمال سلطته. وكذلك، يعتبر السكرتير الأول للجنة موسكو، أنه بتعيينه في منصبه من قبل غورباتشيوف، يستطيع أن يسمح لنفسه بكل شيء. وهنا مكمن الخطأ. أن يلتسين، الموالي للبريسترويكا التي يرى قبل كل شيء الاستبدال المباشر للجهاز القديم بآخر جديد، يعتقد أنه بإمكانه أن يصبح تلك القاطرة التي سوف تجر جميع الناس بمن فيهم غورباتشيوف، الذي يعتريه، بنظر سكرتير موسكو، ميل قوي للتذبذب. وقد بيّن غورباتشيوف عندئذ أنه لن يسمح لأحد بأن يملي عليه إيقاع البريسترويكا. وهكذا نجد أن «انتفاضة الأمناء» قد حبكت أساساً ضد يلتسين.

استمرت القضية لبضعة أشهر مشكلة نموذجاً للصراع على السلطة، صراع بلا رحمة دارت مجرياته على أعلى مستوى في الكرملين. في ١١ آب، نشرت صحيفة البرافدا مقالاً بعنوان: «مزيد من الفعالية»؟ وهو تقرير عن الجلسة المكتملة للجنة الحزب في موسكو. وهناك عدة عبارات تلفت الانتباه، وفي البداية جاءت إحدى المعلومات مفاجئة: «أن التقرير الأساسي» الذي قدمه السكرتير الأول، يلتسين، «قد قوطع بمناقشة حادة وحامية، وذلك بإجماع المشاركين، ولم يستكمل إلا بعد أن تكلم معظم الذين طلبوا الكلام». على أي مستوى كان، لا يقاطع تقرير «الرقم واحد» بأي شكل من الأشكال. ويلفت النظر أيضاً مقطع من مداخلة أحد أمناء المناطق حيث يقول: لا بد من التخلص، بأسرع ما يمكن، من أسلوب الإمرة في العمل... التخلص من رنة المعدن في الصوت».

إن مداخلات المشاركين، التي نشرتها صحيفة موسكوفسكايا برافدا، تبين أصل الصراع الذي يضع يلتسين في مواجهة مرؤوسيه. لقد قالها السكرتير الأول محذراً: أن عملية التطهير قد بدأت لتوها. ومبدأه السياسي هو التالي: «لا بد من مفوضين ومن مدربين سياسيين للبريسترويكا. يجب ألا نخشى استبدال أولئك العاجزين عن العمل مع الناس... أن الانتقاء والتوزيع وتربية الكوادر كانت دائماً وتبقى هي المضمون الأساسي لعمل الحزب»[٢٢]. وكان الرد عليه بانتقاده لأنه هو نفسه قد لجأ للأساليب القديمة. وقد أعادت البرافدا نشر الاستشهاد الذي كان أكثر حدة في تقرير صحيفة الموسكوفسكايا برافدا: «يبدو لي أن أسلوب «رنة المعدن في الصوت»، والقدرة

على «الزعزعة، في كل الاتجاهات» يجب أن يتركا المكان لمزيد من التعقل والثقافة وللقدرة على الاستماع والاقناع وتفهم الآخرين في العمق»(٢٣).

إن الفصل التالي من «ملحمة يلتسين» هو الجلسة المكتملة للجنة المركزية ـ في تشرين الأول ١٩٨٧ ـ، يدافع سكرتير موسكو عن نفسه بالهجوم على ليغاتشيف الذي يمنعه من تطهير الجهاز بشكل كامل، وبثورية فيها ما يكفي من الايضاح، يُظهر يلتسين، نفسه، هو الذي لا يخلو من المزاجية، وكأنه قد أهين من قبل الأمين العام الذي لم يؤيده. أعلنت الجلسة المكتملة، أن «مداخلة الرفيق يلتسين، في الجلسة المكتملة للجنة المركزية، هي مغلوطة سياسياً. وقررت إعفائه من وظائفه كسكرتير أول للجنة موسكو(٢٤). يقرّ المتهم بذنبه (أنا المخطىء) ويعترف في ختام خطابه بأنه قد أخطأ ويقدم نقداً ذاتياً.

لاحقاً، بعد بضعة أشهر فسر بوريس يلتسين فشله في موسكو «بسوء التقدير لتأثير المافيا على مختلف مجالات الحياة». وفي إعلانه عن توقيف ما يقرب من ألفي عامل في السوفيت وفي ال.ك ج ب وفي الميليشيا وفي التجارة، يصف الوضع في العاصمة بالتالي: «إنها رواسب حقيقية، دلو مليء بالوحل». قد يكون تصريح يلتسين الذي يؤكد أن النقد الذاتي الذي قام به كان بتأثير بعض العقاقير الخاصة، هو أفضل دليل على أخلاقيات «النخبة السياسية السوفياتية». يروي لطلاب المعهد العالي للشبيبة الشيوعية: «كنت مسمّراً في سريري عندما تلقيت الأمر بالحضور بعد ساعة ونصف الى الجلسة المكتملة، حينذاك أتخمني الأطباء بالعقاقير. بماذا حقنوني؟ . . . قلت للأطباء: «إنكم تحنثون بيمين ابقراط»، وقد أجابوني: «لدينا أبقراطنا». هناك أيضاً أشياء كثيرة لم أعد أتذكرها»(٢٥). إن أكثر ما يلفت في هذه الحادثة هو قناعة العضو الاحتياطي السابق في المكتب السياسي والسكرتير الأول للجنة العاصمة بأن استخدام الطب في المعركة السياسية هو ممارسة حقيقية فعلاً. بعد الجلسة المكتملة للجنة المركزية، لم تتأخر الجلسة المكتملة للجنة موسكو عن الانعقاد حيث أعفي يلتسين من وظائفه. وقد خلفه ليف زايكوف عضو المكتب السياسي وسكرتير اللجنة المركزية. إن طرد بوريس يلتسين قد فهم في الغرب، بالاجماع، على أنه ضربة موجهة الى غورباتشيوف. كتبت صحيفة التايمز اللندنية: «إن خسارة بوريس يلتسين لمركزه كمسؤول عن تنظيم الحزب في موسكو تؤكد التقديرات الأكثر تشاؤماً بالنسبة لدور غورباتشيوف القيادي»(٢٦).

وتسجّل صحيفة لوموند: «أنه تحذير للأمين العام»[٢٧]، ولقد «خرج غورباتشيوف ضعيفاً من قضية يلتسين»[٢٨]. وأعلنت الانترناشيونال هيرالدتريبيون أن طرد يلتسين يعني، وفق رأي أحد الدبلوماسيين الغربيين، فقدان غورباتشيوف لبعض من تأثيره»[٢٩]. الخ. . ان تالي الأحداث قد أثبت أن الأمين العام قد مكّن سلطته، وازداد قوة بتخلصه من يلتسين الذي تصوّر أنه يستطيع أن يؤثر على غورباتشيوف. وبعد أن حرم يلتسين من مركزه كسكرتير أول بسهولة خارقة، حافظ غورباتشيوف رغم ذلك على تابعه السابق في دائرة احتياطه وأصبح يلتسين نائب وزير في الاعمار وظل عضواً في اللجنة المركزية.

في تموز ١٩٨٨، في المؤتمر التاسع عشر للحزب، كانت المشادة بين يلتسين المنكوب وليغاتشيف، عضو المكتب السياسي، سكرتير اللجنة المركزية، الذي يعتبر من قبل الجميع «الرقم الثاني». وكانت الدهشة حين تلاقى الخصمان على قدم المساواة ولم تقع المواجهة بين البرامج (إذ الاثنان كانا مع «البريسترويكا») وإنما بين الرجلين. ثم أطلق ليغاتشيف حجته الكبرى: «ان المنطقة التي عملت فيها تتغذى بالكامل من إنتاجها كما أن المخصصات جيدة؛ أما أنت يا بوريس، فظللت تسع سنوات سكرتير منطقة وقد جعلت منطقتك تعيش مدة من الزمن على بطاقات التقنين»[٣٠]. وما كان من يلتسين إلا أن قال فيما بعد: «لقد اقتحمت منصة المؤتمر التاسع عشر عنوة، مثل «قصر الشتاء»[٣١]. لكنه حصل رغم ذلك على إذن بالكلام ونجح خاصة في أن يصبح مندوباً للمؤتمر. ولكن المسألة كانت لم تزل بعيدة المنال. وفي خطاب القاه في سفردلوفسك، أعلن يلتسين بنفسه أن الضغط الذي مورس على مصنعين مهمين في الأورال «قد أخاف البعض، وفي اليوم الأخير عندما لم يبقَ سوى منظمة واحدة بدون مندوب ـ منظمة كاريلي ـ أنزلت على اللائحة في آخرلحظة وانتخبت على الفور»[٣٢]. أما سرده للأحداث فيكشف عن تنظيم لا بأس به للانتخابات كان قد أمّنه سكرتير اللجنة المركزية رازوموفسكي، إلا أن العلاقة لم تكن مقنعة قط فيما يخص «هلع البعض». والأقرب للواقع هو أنه قد وجد لحظة اختيار يلتسين كنائب، المؤيد والمعارض له، في آن معاً. إلا أن الغلبة كانت ـ وبما لا يقاس ـ لأنصاره.

في آذار ١٩٨٩، جرى تمثيل فصل جديد من المسرحية. صعد يلتسين الى المنبر في الجلسة المكتملة للجنة المركزية المخصصة للمسألة الزراعية إلا أنه وبشكل غير متوقع

على الاطلاق، ما لبث أن أصبح هدفاً للهجوم. لقد اتهم بالنزعة البيروقراطية (ترك أحد أعضاء اللجنة المركزية ينتظر في قاعة الاستقبال في وزارته) وبأخطاء سياسية خطرة. وقد تم نقل اجتماعات الجلسة المكتملة بشكل شبه كامل عبر أقنية التلفزيون، ولكن المشاهد المتعلقة بيلتسين حذفت بما في ذلك الحوار الرائع الذي جرى بين غورباتشيوف ويلتسين، وإثر الاتهامات الموجهة الى سكرتير موسكو السابق، استدعي هذا الأخير الى المنصة من قبل غورباتشيوف.

ن. بوخارين، العامل في الأورال والذي يشارك في الجلسة المكتملة نقل الحوار في مقابلة له مع جريدة «نيتاغيلسكي رابوتشي» (العامل في نيتاغيل): غورباتشيوف: «بوريس نيقولايفيتش، أجب بصراحة، هل أنت مع تعدد الأحزاب؟». في هذه اللحظة، وقف أ. ك. ليغاتشيف وخرج ممتعضاً من القاعة. يلتسين: «أنا بكل بساطة مع إعطاء إمكانية التعبير للناس في هذه المسألة». عندها استشهد ميخائيل سرغيفيتش بمقتطفات من نص مختزل لمحضر اجتماع انتخابي في معهد الماركسية ـ اللينينية، مبيناً أن جواب يلتسين لم يكن صادقاً تماماً. ثم سأل غورباتشيوف «هل لك علاقة ما بالاتحاد الديموقراطي؟» ـ يلتسين: «لا علاقة لي البتة».

«لماذا تركت الرفيق تيخوميروف على بابك ساعة قبل أن تستقبله؟».

« لقد حصل تأخير في اعلامي بزيارته». واستعلم غورباتشيوف متحققاً: «ألم يزل هؤلاء الناس، الذين أعلموك متأخرين، في عملهم في الغوستروي؟»[٣٣].

إن نبرة هذا الحوار، وخشونة قاضي الاتهام التي تميز بها غورباتشيوف ومهانة السكرتير السابق لموسكو المدعو الى الاقرار بذنبه، تبين بوضوح نوع العلاقات القائمة بين الرفاق في الحزب على مستوى «القمة»، وتعطي فكرة عن طبع أبطال القضايا الكبرى. وبما أن ترشيح يلتسين لمؤتمر نواب الشعب كان باقتراح من قبل عدة دوائر، فإنه اختار العاصمة، وقد شرح الأمر «لمواطنيه» قائلاً أنه كان يتمنى من «كل قلبه وبكل جوارحه» أن يتقدم عن سفردلوفسك ولكن «سياسياً موسكو هي الأهم»[٣٤]. فاجأت حملة بوريس يلتسين الانتخابية، بسعة انتشارها وبمشاركة تيارات مختلفة جذرياً («باميات» والاتحاد الديموقراطي، دعيا للتصويت لسكرتير موسكو السابق)، وباستخدام الوسائل البصرية على نطاق واسع.

إن ظهور آلاف الملصقات (قياس متر x متر) التي زينت جدران العاصمة، في ظل رقابة مطلقة للدولة على المطابع، تتركنا حالمين. وبوريس يلتسين الذي لا تبدو عليه علائم البلاغة بالتخصيص، والذي لا يخوله وجهه الشاحب ليكون نجماً تلفزيونياً، حقق انتصاراً ساحقاً في عاصمة الاتحاد السوفياتي، بنسبة ٩٢ بالمئة من الاقتراعات.

وتوالت المعجزات في «المؤتمر». فلم ينتخب مثلاً النائب الأكثر شعبية، في السوفيات الأعلى، مركز السلطة الجديد. وإنما ترك له المقعد، نائب مجهول من الريف. وفي تموز ١٩٨٩، عندما شكلت «المجموعة ما ـ بين ـ المناطق» والتي تجمع أنصاراً للبريسترويكا، يناضلون من أجل أن تتحقق بشكل أسرع وأشد تماسكاً ويطمحون الى دور المعارضة المشروعة، انتُخب بوريس يلتسين في اللجنة القيادية الى جانب أ. ساخاروف، والمؤرخ أي. أفاناسييف، والاقتصادي ج. بوبوف، والأكاديمي الأستوني أ. بالم. وبذلك تجمعت لدى بوريس يلتسين كل الفرص لأن يصبح «زعيماً بديلاً» فهو المحترف الوحيد للسياسة وهو النائب الأكثر شعبية بلا منازع، والذي يناضل ضد امتيازات النومونكلاتورا. أن نجاحه الحاسم في انتخابات نواب الشعب في RSFSR يقوي بالتالي موقعه.

شكا يلتسين، في سفردلفوسك، من أنهم بدأوا «يفكرون بإضعافي كصورة بديلة للرفيق غورباتشيوف». محتجاً على هذا النوع من التأملات، أكد يلتسين أنه لن يكون «بأي حال» بذلك الوضع. وهكذا صرّح نائب الشعب الفائق الشعبية: «أؤيد وبما يتعلق بالمسائل الاستراتيجية وفي مسائل السياسة الخارجية والداخلية، بالكامل الرفيق غورباتشيوف، وليس لدي أبداً النية في معارضته»[٣٥]. ولا يجهل أحدٌ أن مثل تلك التصريحات تطلق بالضبط، عندما تكون هناك رغبة في «معارضة» شخصٍ ما.

مستذكراً دوره في «البريسترويكا»، أدلى سكرتير موسكو السابق بهذه الملاحظة: «لدي شعور بأنه لو لم يكن لدى غورباتشيوف يلتسين، لكان اخترعه»[٣٦]. أثناء زيارته لـ سفردلوفسك خلال شهر نيسان ١٩٩٠، أجاب الرئيس غورباتشيوف عن أسئلة عمال من الأورال، بشأن بوريس يلتسين، المفضل لديهم. مذكِّراً بأنه هو نفسه قد أتى بيلتسين الى موسكو وبأنه قد منحه دعمه، رأى الرئيس، أن «إمكانيات يلتسين، كزعيم سياسي، ليست رغم كل شيء كبيرة جداً. . . أن برنامجه وتصريحاته

معروفة لديّ. إنها تستحضر أسطوانة بالية، مجموعة من الموضوعات: استنفدت القيادة جميع الوسائل، و.. استهلكت نفسها و.. انقطعت عن الشعب.. إلخ، إلخ» ويختتم غورباتشيوف قائلاً: ان بوريس نيقولايفيتش يتفكر في الصعوبات، في الضغوطات الاقتصادية والاجتماعية، أعتقد أن بوريس نيقولايفيتش قد أطلق لنفسه العنان ولن يستطيع الخروج من هذا المأزق المدمِّر»(٣٧).

يمثل ايغور ليغاتشيف وبوريس يلتسين ضمن جهاز الحزب الجناحين الاقصيين من البريسترويكا، اللذين يسمحان للأمين العام بأن يثبت في الوسط. يقف ليغاتشيف ضد نفي كل الماضي السوفياتي، وضد تحويل كوادر الحزب الى أهداف للنقد؛ ويعتبر أنه لا بد من أن تبقى الكولخوزات والسوفخوزات أساساً للزراعة السوفياتية، كما أنه يعترض على إلغاء مبدأ المركزية الديمقراطية في الحزب. أما بوريس يلتسين، فإنه يضع في المقدمة ضرورة إشباع حاجات السكان المادية؛ وذلك خاصة بواسطة نزع ملكية «الأثرياء المترفين». وهنا، يشير أناتولي سترلياتي الى «الاشتراكية الطفولية عند يلتسين»(٣٨). والمقصود بشكل واضح الاشتراكية الشعبوية».

في ٢٩ أيار ١٩٩٠، انتخب بوريس يلتسين رئيساً للسوفيت الأعلى ل RSFSR وأن المجرى الذي اتخذته الانتخابات يوحي بحصول مفاوضات في الكواليس، فقد سحب في البداية الترشيح المواجه ليلتسين ثم قدِّم بعدها من جديد. بعد أن قدم بوريس يلتسين خطة عمل «يسارية»، وعد بأن يضم الى «وزارته» بعض «المحافظين». وهكذا يتم مرة أخرى، انتخاب السكرتير السابق لموسكو في اللحظة الأخيرة، وعلى الأرجح، بمساندة «عدوه» الرئيسي.

ان النفور الشخصي الموجود بين بطلي البريسترويكا الأكثر شهرة لا يمنعهما، على الأرجح، من التعاون مع انتخاب يلتسين، يستطيع غورباتشيوف أن يتذبذب بين خطتي العمل المقدمتين من قبل يلتسين وليغاتشيف. أي أن يتكلم عن خطر «اليسار» ليحصل على مساندة «اليمين» أو عن خطر «اليمين» ليحصل على مساندة «اليسار». اعتبر المعلقون انتصار يلتسين هزيمة لغورباتشيوف وقد شددوا على أن هذا الانتصار بديل «عن الأب الروحي للبريسترويكا وإن في ذلك حقيقة مؤكدة». ولكن غورباتشيوف أمَّن لنفسه من جهة مركز رئيس الاتحاد السوفييتي لمدة خمس سنوات

قادمة. ومن جهة أخرى، كان لا بد ليلتسين أن يفرض قانوناً جديداً يسمح له في حال انتخابه من أن يصبح رئيساً لروسيا. أما استبدال غورباتشيوف، بطريقة شرعية، «بالقيصر الروسي»، كما عمدت الصحف الغربية على وصف الرئيس الجديد للسوفيت الأعلى ل RSFSR ، فيبقى مسألة مستحيلة على المدى القصير. ومن جهة أخرى، بنى غورباتشيوف نمط إدائه للسلطة على أساس دعم الغرب، فهو يستمد من شعبيته في الغرب مصدراً لقوته في البلاد. فيما يبني يلتسين بالمقابل استراتيجية على أساس شعبيته في الداخل.

يعتبر الأمين العام ـ الرئيس أن لشعبيته في الخارج صدىً في الداخل، فيما يسعى منافسه المحتمل إلى أن يكون لشعبيته في الداخل اثر على الخارج.

لم تكن زيارة يلتسين للولايات المتحدة، زيارة ناجحة إذ قُدِّم في الأوساط الحكومية على أنه «وزن خفيف، ديماغوجي، مهرّج، ثرثار». ووصفه الرئيس بوش، الذي منح دقيقة واحدة لزائره، بأنه «مرح خال البال»[٣٩]. لا شك أن غورباتشيوف قد أخذ بعين الاعتبار هذا النقص عند يلتسين.

إذا نظرنا عن قرب الى تصريحات زعماء أجنحة «اليمين» و «اليسار»، يظهر لنا بسرعة أنها لا تشكل برنامجاً متماسكاً، وإنها لا تختلف عن تصريحات غورباتشيوف، وإذا درسناها على مدى الخمس سنوات السابقة، نجد أن الأمين العام ـ والرئيس قد اتخذ هو نفسه تلك المواقف ومن ثم ابتعد عنها، ليعد إليها مرة أخرى ثم نفاها من جديد، وهكذا دواليك. إن خصوم غورباتشيوف هم رجال سياسيون يقبلون بتكرار آرائه بعد أن يتخلى هو نفسه عنها.

ويضع النقاش الحاصل وجهاً لوجه أولئك الذين يعتبرون أن دينوصور المرحلة الستالينية قد أثبت تفوقه خلال السنوات التي شهدت تحوّل روسيا الى قوة صناعية أثناء الحرب، وبقيت اليوم وإلى الأبد قوة عظيمة. وبين أولئك الذين يريدون أن يصنعوا «صانتوراً»، وذلك بأن يطعّموا هذا الحيوان ما قبل التاريخي بعناصر من إقتصاد السوق وعادات ديمقراطية. إلا أن العلم قد أثبت أن «الديناصورات» قد وجدت، وبأنها كانت المخلوقات الأقوى على الأرض، ولكنها إنقرضت لأسباب مجهولة. ولكن العلم أثبت أيضاً أن «الصانتور» لم يوجد قط، إلا في الخيال البشري وفي الأساطير. تتمثل

سياسة غورباتشيوف في التلوي بين وحوش إنقرضت منذ زمن بعيد، وحيوانات لم يكن لها وجود.

شكل مؤتمر الحزب في صيف ١٩٩٠، مسرحاً للمشادة الأخيرة بين قائدي جناحا اليمين واليسار في البريسترويكا. فقد تقاعد ليغاتشيف، الذي ضرب بعد انتخاب السكرتير الثاني. وأعلن يلتسين تركه للحزب، الأمر الذي دفع غورباتشيوف للبحث عن قواد جدد لجناحي اليمين واليسار كي يستطيع أن يستمر في الجلوس ضمن دائرة الوسط، ملبياً حاجته المستمرة للتلوّي.

الفصل العشرون
السيف والترس

«دون مؤسسة من هذا النوع، لما كان لسلطة العمال وجودٌ»

لينين، ٢٣ كانون الأول ١٩٢١

يقصد لينين بـ «مؤسسة من هذا النوع»، الـ «فيتشيكا» أو البوليس السياسي، الذي أسسه بعد استلامه للسلطة مباشرة. ويؤكد قائد الدولة السوفياتية ضرورة الـ «فيتشيكا» في مرحلة تعتبر الأكثر «ليبرالية» في تاريخ الاتحاد السوفياتي: مرحلة الـ NEP. ثم يضيف بأنه لا يستطيع تجاوز «هذه المؤسسة»، «طالما أن في العالم مستغلين(١). . .».

إن كافة تقلبات السياسة السوفياتية تنعكس في مرآة «الأجهزة» بشكل حتمي. فمتغيرات «الخط العام» تجد ترجمة لها في تغيير الأسماء. في شباط ١٩٢٢، تم تبني قرار يقضي «بإلغاء» الفيتشيكا ولجانها. الأمر الذي قوبل بالحماس، خاصة في الغرب، الذي رأى فيه الدليل على حصول تغير جذري في النظام. ولكنه تم الحاق كافة فروع الفيتشيكا بالقيادة السياسية للدولة، الـ «غيبيو». ولم يمضِ وقت قصير، حتى أصبحت الـ غيبيو أو الـ أوغيبيو، تثير الرعب نفسه الذي كانت تمثله سابقاً الـ تشيكا أو الـ فيتشيكا. لقد تغير الإسم، ولكن الوظائف بقيت هي نفسها، وبعضها قد تم توسيعه، أما الاستمرارية فقد مثلها الرئيس، دزرجينسكي، إضافة الى الرمز المتمثل بالسيف والترس. وفي عام ١٩٣٤، قام ستالين «بحملة تطهير كبيرة في البلاد»، ومرة أخرى جرى تغيير الاسم. حيث أصبح ذكر الأحرف الأولى مثيراً للرعب: الـ NKVD، ثم الـ MVD. وبعد موت ستالين، تحولت وزارة أمن الدولة الى لجنة، وقد ارتبطت بداية

بمجلس الوزراء، وعندما هدأت المشاعر المعادية «لعبادة الشخص»، تحولت الى لجنة أمن الدولة (KGB) التابعة لمجلس الوزراء.

ومن الواضح أيضاً أن تقلبات السياسة السوفياتية تجد إنعكاساً لها على مستوى مركز رئاسة البوليس السياسي. فالـ «رؤساء» الثلاثة الأوائل، دزرجينسكي، ومنجنسكي، وإياغودا، هم من محترفي أعمال البوليس، الذين اكتسبوا خبرتهم داخل الفيتشيكا. وعندما قرر ستالين توسيع صلاحيات «الأجهزة» عشية حملة «التطهير الكبيرة»، عين على رأس هذه الأجهزة أمناء من اللجنة المركزية: ايجوف بداية، ثم بيريا. أما بعد موت ستالين. فقد جرى تقليص مهام البوليس السياسي، وأوكلت قيادتها لشخص محترف هو سيروف، ولكن، وبمناسبة حصول تحول جديد في سياسة الحزب، توسع دور «الأجهزة»، وتم تسليم «البيت الكبير» في ساحة دزرجنسكي الى موظفين من الجهاز المركزي: سميتشتني، شيليبين، أندروبوف.

شهدت حقبة حكم بريجنيف تقارباً بين أجهزة اللجنة المركزية والـ KGB. فقد انتقل أندروبوف من اللجنة المركزية الى ـ KGB. ثم رجع الى اللجنة المركزية، بمهام جديدة، أما فيكتور تشبريكوف فقد سلك الطريق ذاته. ويفاخر فلاديمير كريوتشكوف، الذي يرأس الـ KGB منذ شهر أكتوبر ١٩٨٨، بسيرة حياته التي تبدو مثالية بالنسبة لقائد سوفياتي عصري: بدأ بدراسة الحقوق، ثم شغل منصب قاضي تحقيق، فوكيل نيابة، وبعدها دخل مدرسة الدبلوماسيين، وفي عام ١٩٥٦ تم تعيينه في سفارة بودابست (حيث كان أندروبوف سفيراً)، ثم انتقل الى جهاز اللجنة المركزية، ومنها الى الـ KGB، ليتولى خلال أربع عشرة سنة مسؤولية مكافحة التجسس على الاتحاد السوفياتي، هذه السيرة تظهر أنه محترف أعمال البوليس السياسي. ولكنه في الحقيقة، كان يحترف أعمال جهاز الحزب.

كانت الفيتشيكا، جهاز البوليس السياسي في مرحلة لينين. وتحت أسماء مختلفة، بقيت هي نفسها من زمن ستالين إلى زمن الأمناء العامين اللاحقين. ويمارس الأمين العام إشرافه الشخصي على نشاط الـ KGB. وتُظهر واقعة إزاحة خروتشيوف، إذا كان لذلك ضرورة، أنَّ أي تراخ في عملية الاشراف هذه قد تؤدي الى كارثة نهائية تصيب الرقم الأول. وتتقاطع جميع المعلومات التي ظهرت في الصحافة، رغم اختلافها حول

التفاصيل، حول الصورة التالية: لقد تم إعداد المؤامرة ضد خروتشيوف من قبل أقرب رفاق السلاح، ومن بينهم بريجنيف في رأس اللائحة، ولكن لم يكن مقدراً لها النجاح، دون التحاق قيادة الـ KGB بالمتآمرين.

يولي كل أمين عام، بهدف تدعيم سلطته، اهتماماً خاصاً بالـ KGB: فيعمل بدقة على اختيار الرئيس المناسب، ثم إنه قد يدخله الى المكتب السياسي أو لا يدخله، وذلك وفقاً لتوجهاته السياسية، ويضاعف أو يخفف من الدعاية «للأجهزة». ولكن مشكلة البوليس السياسي تزداد تعقيداً في فترة العمل على إبراز «ليبرالية» النظام. وهذا ما حصل إبان تبني سياسة الـ NEP، وبعد موت ستالين أي في عهد خروتشيوف. فأمام كل انعطافة «ليبرالية»، يطرح السؤال التالي: كيف نستطيع في الوقت نفسه، تقوية «الأجهزة» ـ ضرورة حيوية للسلطة، حسب تعبير لينين ـ وإظهارها بحلة جديدة في الداخل والخارج، جاعلين منها «المدافعَ ذا الوجه الانساني عن حقوق وكرامة المواطنين».

وتزداد المشكلة تعقيداً مع سياسة «الغلاسنوست». فللمرة الأولى يطرح السؤال بشكل علني: كيف نوفق بين «الغلاسنوست»، أي السماح بالكلام الصريح عن المشاكل الأساسية، وبين الصفة السرية للبوليس السياسي؟ والجواب على ذلك شديد البساطة: علينا تغيير «صورة» الـ KGB؛ كي تبرز كمؤسسة لا تستعمل السيف إلا من أجل حماية السوفيات من الشر، نتاج التأثير القاتل للغرب. «راهناً، يؤكد تشبريكوف، وكان رئيس الـ KGB، في خطاب القاه بمناسبة الذكرى العاشرة بعد المائة لولادة الشفيع ـ الرئيس «للأجهزة»، دزرجينسكي، تعتبر أجهزة الأمن أن إحدى مهامها الأساسية تقديم الدعم لتطور مسارات البريسترويكا في البلاد». ويشرح ضباط الـ KGB لمعتقليهم من المتظاهرين قائلين: لقد أوكلت الـ «غلاسنوست» إلينا نحن!

يحول الماضي، دون تغيير صورة «الأجهزة». فإدانة الستالينية، التي أضحت سياسة الدولة، ساهمت في كشف بعض الجرائم، التي بلغت من الضخامة ما يتجاوز ما عرفه هذا القرن أو يكاد من جرائم. فالمقابر الجماعية التي اكتشفت في الغابة بالقرب من ـ منسك، وفي كوروباتي حيث أعدم رمياً بالرصاص ما بين ٢٥٠ الى ٣٠٠ ألف شخص، والمقابر الجماعية في بيكوفنيا، بالقرب من كييف، وفي فينتسا، ومقابر ضحايا

NKVD في مقابر دونسكوي، وكاليتنيكوفسكي، ورروغوجسكي في موسكو، أو بالقرب من كولباشيف في منطقة كومسك، وفي أماكن أخرى عديدة، أضف إلى ذلك معسكرات إعادة التأهيل الستالينية، كل هذا يؤكد ما يعرفه السوفيات، أو ما يخافون من معرفته. يعلن الكاتب أليس أداموفيتش دهشته، مما أشار إليه المؤرخ البريطاني روبير كونكست، في دراسته «للرعب الكبير» ولمذابح الفلاحين في أوكرانيا في بداية أعوام الثلاثينات، «إنه يقلل على الدوام من عدد ضحايا القمع». ويفسر اداموفيتش خلفية كتاب المؤرخ (المتهم من قبل زملائه بـ «تضخيم» الأرقام) قائلاً: «لم يستطع (المؤرخ) الاعتقاد بحقيقة هذه الأرقام الكبيرة، ولا الاعتقاد بأن بإستطاعة حكومة ما أن تقوم على إفناء شعبها». ويخلص الكاتب الى القول مفاخراً: «نستطيع اليوم أن نذكر أرقاماً أشد هولاً بجرأة وتصميم»[٢].

لم يستطع المؤرخون السوفيات أن يكتبوا بعد «بجرأة وتصميم». ولكن العديد من الدلائل المتصلة بجرائم «الأجهزة» قد كشفت. إلا أن هذه الأخيرة تحاول «تبييض» صفحتها، مدعية أن ما يقارب «عشرين الفاً من أفراد التشيكا» قد سقطوا ضحايا للقمع الستاليني، (هذا ما يحصل عندما يتم إستبدال مجموعة من التشيكا بمجموعة أخرى) وبأن مشاهير التشيكا السوفياتية لم يقتصر عملهم على تصفية شعبهم، بل أنشأوا شبكات المعلومات في الغرب، كي يستطيعوا استباق أي ضربة موجهة من العدو. أضف الى ذلك، أن العديد من الجواسيس السوفيات في الخارج، ماتوا في بلدهم، بعد أن تم استدعاؤهم من قبل المركز، أو كانوا ضحايا «الفرق الطائرة» للـ NKVD ، التي أقدمت على تصفية كل من تجاسر، وانتقد ستالين، قد أعيد لهم الاعتبار. فقد أعيد الاعتبار، وبشكل غير متوقع، لكل من إغناس رايس، الذي قتل في جنيف عام ١٩٣٧، ودولتي كريفيتسكي، أحد مسؤولي التجسس السوفياتي في أوروبا الغربية والذي قتل في واشنطن عام ١٩٤١، وأصبحوا «أبطال الأجهزة» السوفياتية». كما نشرت رسائلهم، بناء على معلومات في بعض المنشورات الغربية ـ، خاصة تلك التي تدين ستالين وتعري لينين. كما يتم تمجيد نشاط ريشار سورج وكيم فيلبي وجواسيس آخرين، ممن كثر الحديث عنهم في العقود الماضية.

في عام ١٩٨٧، تم نشر ٢٣٥ كتاب، وعشرة أفلام طويلة وثائقية، و٤٠ فيلماً قصيراً للتلفزيون، و٧٥٠٠ مقالة تدور جميعها حول «مواضيع تشيكيسية»، كما يؤكد

فيكتور تشبريكوف[٣]. كما أن أفضل الأفلام والكتب التي تنشر، تمنح «جائزة الـ KGB في الاتحاد السوفياتي».

تتجنب عملية الموازنة ـ من جهة «خرق المبادىء اللينينية» ، ومن جهة أخرى، أعمال بطولية لأفراد التشيكا في الخارج ـ وبدقة السؤال المتعلق بالمسؤولية. ففي حالة واحدة، في كوروباتي، أجرت لجنة حكومية تحقيقاً حول الاعدامات الجماعية للمواطنين السوفيات. أما النتيجة فكانت تقليص عدد الضحايا، والاعلان بأن «أية وثيقة تتصل بأحداث كوروباتي، لم يعثر عليها في أرشيف وزارة العدل، أو الـ KGB، أو وزارة الداخلية، من قبل وكالة النيابة في بيلوروسيا أو أجهزة الاتحاد». أما من شاركوا في عملية الاعدامات، تفيد لجنة التحقيق، فقد تمت تصفيتهم بالرصاص. مشيرة الى أربعة أسماء منهم[٤]، قد يكونوا من بين أعضاء التشيكا الذين صفاهم ستالين.

يكتب ألان غيران، أحد صحافيي الأومانتيه، عن مقابلات أجراها مع متعانين مع الـ KGB قائلاً: «. . . كانت محادثاتنا مريحة، رغم ميلهم الى تبسيط التاريخ، إذ يقولون بأن المرحلة السابقة على اياغودا، ضمت تشيكست حقيقيين. . ثم أتت مرحلة مظلمة. . . ولكن راهناً، ومنذ أندروبوف، فإننا نحمل بفخر اسم التشيكست. . . » ويضيف الصحافي الفرنسي معلقاً: «لعب دزرجنسكي وأندروبوف دور شخصيتين مثيرتين للاعجاب»[٥]. ويستعيد ألان غيران صورة التاريخ الرسمي للأجهزة كما هي: حتى بداية الثلاثينات، كل شيء كان يسير بشكل جيد، ثم بدأت «الأخطاء»، و «تشويه المبادىء اللينينية»، ولكن منذ عام ١٩٦٧ ، استلم أندروبوف مسؤولية الـ KGB، حيث سار كل شيء من جديد نحو الأحسن. إن وجهة النظر هذه لا تتطابق مع التاريخ الرسمي للبلاد: فأندروبوف قاد الأجهزة إبان المرحلة، المدانة اليوم، «بالركود». غير أن المنطق يتراجع أمام الحاجة الى قائد للبوليس السياسي له صورته الايجابية. فأندروبوف الذي استثار إعجاب الصحافي الفرنسي، يتطابق تماماً مع الدور المطلوب، لأنه يتبنى وسائل جديدة في الصراع مع الأعداء: مستشفيات التحليل النفسي «للمنشقين»، والإبعاد. فوق ذلك، فإن تشبريكوف والرئيس الحالي للـ KGB، كريوتشكوف، يشكلان جزءاً لا يتجزأ من الفريق الأندروبوفي.

يوصف غورباتشيوف غالباً، بإعتباره الوريث للأمين العام أندروبوف. ولكن في

ظروف الـ «غلاسنوست» والصراع الضاري من أجل السلطة، تسنح الفرصة لفضح أندروبوف «الودود». وهذا ما تولاه فلاديمير سميتشستني، الذي تسلم مقاليد الـ KGB بين عام ١٩٦١ و١٩٦٧، بإظهاره موقفاً شديد القساوة تجاه سلفه. يذكر: «إنني أتكلم من موقع الخبير بالقضية»، ويؤكد على واقعة أن أندروبوف لا يستطيع أن يتجاهل وجود «مافيا اكوزبيك، أو النشاط الاجرامي لوزير الداخلية شتشيلكوف»، صديق بريجنيف. «وإذا لم يكن رئيس الـ KGB يملك من الشجاعة ما يكفي لمقابلة الأمين العام أو أعضاء المكتب السياسي لاعلامهم بالوضع الآخذ بالتشكل، فما الفائدة من تسميته لهذا الموقع؟» ويضيف سميتشستني بأن «أندروبوف، الرجل المثقف، الخ، يتحمل مسؤولية ما كان يجري»(٦). ويشير إ. كاربوفيتش، الكولونيل المتقاعد في الـ KGB، معلناً ندمه على ما شارك فيه من أعمال «دنيئة» (وهو التعبير الذي يستخدمه)، الى تحطيم معرض للرسوم التجريدية بواسطة «البلدوزير»، وتعذيب سولجنتسين وساخاروف، وأعمال أخرى للـ KGB، تم تنفيذها تحت إشراف أندروبوف(٧). كما يوضح موظف الحزب ب. روديونوف، أن أندروبوف «عمل الكثير»، أثناء شغله لهذا المنصب، « من أجل تحسين صورة الـ KGB » ولكنه يضيف وبأسف عميق، «ان هذه الحقبة نفسها قد شهدت انطلاق حملة في البلاد ضد «السحر والسحرة»، إضافة الى العمل بلا انقطاع، على اختلاق الاعداء، والى ما اعتمد من وسائل بالغة القساوة الى حد الفظافة ضد الانتلجنسيا المنشقة»(٨).

تركت المداخلة التي ألقاها الكاتب يوري فلاسوف، وهو بطل أولمبي سابق في رفع الأثقال، في مؤتمر نواب الشعب وقعاً عميقاً. فلأول مرة يقال علانية: «ليست الـ KGB جهاز خدمات، بل امبراطورية حقيقية تحت الأرض لم نكشف بعد عن أسرارها، بإستثناء القبور التي اكتشفت. ورغم هذا الماضي، فإن هذه الادارة تحتفظ بوضعها الخاص، والاستثنائي». ثم يضيف مشيراً الى ما يعتبر أساسياً في مداخلته: «إنها (هذه الادارة) بمثابة السلاح الأقوى، من بين الأسلحة التي يملكها الجهاز. سواء لجهة الفاعلية أو تفلتها من أي عقاب، هي شيء لا مثيل له»(٩).

لا يستطيع أهالي موسكو أو المسافرون الذين يمرون بهذه المدينة، أن يتغافلوا عن رؤية المجمع السكني الجديد التي تتوزع بين أبنيته الأنشطة العديدة للـ KGB، مجمع من الأبنية، شديد الضخامة، والفخامة، وكأنه يسأل لمن السلطة الحقيقية في

البلاد؟[١٠]. ووفق قانون باركنسون، فإن الادارة تتمدد كي تحتل ما تستطيعه من مساحة. أما اليوم، فإن مقر الـ KGB، يمثل البلاد بأكملها وما يوجد خارج حدودها.

نبّه بوريس يلتسين في المؤتمر، الى الشبكة الضخمة من «مخبري» الـ KGB في شتى أرجاء البلاد. هذا الوضع الذي كان قائماً في الماضي وما زال مستمراً الى يومنا هذا. فمن المعلوم أن «الأجهزة» تمارس وصاية كاملة على الكنيسة. ويورد ضابط قديم في الـ KGB، لجأ الى الولايات المتحدة، كمية من المعلومات التفصيلية حول التقنية المستخدمة من قبل الأجهزة: الاختراق والتحكم. إذ يتم استخدام مخبرين وضباط، وبنسب معينة، وتوكل إليهم مهمة حضور الندوات في الأكاديمية الروحية، ثم يتولون وظائف عالية في الكنيسة. وتتم مراقبة الكنيسة، من قبل الدائرة الخامسة (الايديولوجيا)، وتدعمها الثانية (التجسس المضاد)؛ كما تشارك في هذه المهمة الدائرة الأولى، الموكلة تخصيصاً بالتجسس الخارجي[١١]. هذه المعلومات التي صرَّح بها الضابط القديم، عزّزها ك. كارتشيف الذي شغل لسنين طويلة، مركز رئيس المجلس المولج بالشؤون الدينية. ففي محاضرة له أمام طلاب المدرسة العليا للحزب، بدا فيها شديد الصراحة، أعترف بخطأ السياسة القديمة المعادية للدين، التي أدّت الى ولادة نوع من الصحراء الروحية، ثم طرح التساؤل التالي: «ما هو أكثر مردودية للحزب: فرد دون روحية، أو مؤمن صريح؟» ثم أجاب مؤكداً: المؤمن، لأن «الفرد دون روحية يصعب اخضاعه»، ولا يساوره أي شك حول هذه النقطة، لأن «الدين هو شيء جدي وموجود منذ زمن بعيد»، «ومن الأسهل بالنسبة للحزب كسب مؤمن صريح للإيمان بالشيوعية». ولكننا، وكما يحصل دائماً في النظام السوفياتي، نصطدم بمعضلة الكوادر. «فهناك مهمة تواجهنا، يقول كارتشيف: تربية نمط جديد من الكهنة: فإنتقاء الكهنة وتوزيعهم هو من مهمات الحزب»[١٢]. ما يركز عليه ك. كارتشيف يتصل أساساً بإختراق ومراقبة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. إلا أن هذا لا يعني أن بقية الأديان متروكة وشأنها. فقد استنتج الكاردينال فانستاس سلادكجافيسيوس في معرض وصفه لوضع الكنيسة الكاثوليكية في ليتوانيا قائلاً: «إن الأسقفية مشلولة. وهي تبقى مربوطة بهذا التنظيم المشرف على المسائل الدينية. ونحن لا نعلم ما هو قراره النهائي، ولكن هذا القرار يعود إليه بالكامل»[١٣]. إن المجلس المكلف بمتابعة المسائل الدينية، هو الذي يرسم سياسة الحزب، ولكن تطبيقها يتم بواسطة رجال الـ KGB.

يلعب «الصبية الصغار في ساحة دزرجنسكي»، كما اعتاد أن يسميهم الصحافيون الأميركيون، دوراً أساسياً في إقتصاد البلاد، مما يبذلونه من جهود من أجل الحصول على التقنيات والعلوم الغربية الأكثر تطوراً. كما سمحت «الغلاسنوست» بتوسيع امكانيات العملاء السوفيات في الخارج: فعدد المتعاونين مع الـ KGB الذين يقبض عليهم بالجرم المشهود، ويوقفون ثم يطردون، في ازدياد مستمر منذ وصول غورباتشيوف الى السلطة. هذا الازدياد يفسر بإرتفاع فاعلية الـ KGB، أكثر منه بالفاعلية العالية لأجهزة التجسس المضاد الغربية. ويضيف وليم وبستر، مدير الـ C.I.A، بعض المعلومات حول هذا الموضوع: «نلاحظ أن العملاء السوفيات، أصبحوا أكثر عدوانية، وأقوى مما في السابق». كما أن عدد العملاء في الولايات المتحدة وفي أوروبا، أكثر حجماً(١٤).

وهناك إمكانيات مهمة جداً تتوفر للـ KGB لتمارس أحد نشاطاتها التقليدية الأخرى: إفساد عملية الإبلاغ. إذ تسمح «الغلاسنوست»، وتحسن آداء المراقبة التي تمارس «بوسائل الاعلام أخرى». على وسائل الاعلام السوفياتية، بنشر خبر «موجه» في العالم، بطريقة أفضل مما في السابق.

كما تجد الـ KGBراهناً إنها موكلة بمهام جديدة فقد أعلن فلاديمير كريوتشكوف، في أول مقابلة له من مكتبه بما يلي: «في المرحلة الراهنة، تعتبر مقاومة الجريمة المنظمة من المهام الجديدة للـ KGB»، كما يعلن عن إلغاء «الادارة الخامسة» المكلفة بمكافحة التخريب الايديولوجي، ويضيف كريوتشكوف «إن إعادة تقسيم للعمل هي قيد التطبيق، وذلك بهدف الدفاع عن الحقوق الدستورية». والظاهر، أن ذلك سيتم بواسطة الكوادر السابقة نفسها.

أخيراً ـ وهذا ما يفتح آفاق جديدة ـ «فإننا نقوم بدور المبادر في رسم هذه الخطوة أو تلك في ميدان السياسة الخارجية». ولا يوضح كريوتشكوف ماهية هذا النشاط «الجهازي» في مجال السياسة الخارجية، ولكنه يقبل أن يتولى وزير الخارجية مهمة «حكم الرشاقة» في هذا المجال. ولكن لقاء رئيس الـ KGB مع سفير الولايات المتحدة، أو زيارته المفاجئة الى فرصوفيا، بعد تسمية تادوس مازوسكي على رأس الحكومة البولونية الجديدة، يبقى أمراً ملفتاً للانتباه، من بين أشياء أخرى.

هناك واقعة أكيدة: ففي سنوات البريسترويكا، لم تخسر الـ KGB شيئاً من

أهميتها، بل على العكس من ذلك وسعت مسؤولياتها ونشاطها. فهل هناك إدارة تستطيع في الوقت نفسه، أن تحرس السكان، وتراقب المعلومات، والحياة الروحية والدينية، وتلعب دوراً كبيراً في اقتصاد البلاد (فالصراع ضد «الجريمة المنظمة يتيح لها أن تراقب الاقتصاد بشكل أوسع)، وتتدخل في السياسة الخارجية؟ بلا شك، كان يوري فلاسوف محقاً عندما تكلم عن «امبراطورية تحت الأرض».

في عصر البريسترويكا، قايض رجال الـ KGB، حسب تعبير مراقب غربي، قبعاتهم السوداء بأخرى بيضاء. فالجميع، في الظاهر، لا يخضع لهم. فالسمة الكبرى لعهد غورباتشيوف تكمن في التحليل الأخير، في تعدد الأصوات. فمن جهة يفسح في المجال للتعبير عن الآراء المختلفة، وتقلص سيطرة السلطة المركزية؛ وبالمقابل نحاول استخدام هذا الكورس المتعدد الأصوات لأهداف سياسية. بهذه المعنى يشكل جهاز الـ KGBنموذجاً مكتملاً للالتباس. فوجهه الليبرالي يجد ترجمة له في سلسلة من المقابلات التي يعطيها مسؤولو لجان بعض الجمهوريات ثم يتم تتويجها بمقابلة مع كريوتشكوف، سبقت الاشارة إليها، وفي سيل من المقالات التي تطلقها ساحة دزرجنسكي، وبعض الملاحظات النقدية حول «السيف والترس»، تنشر في الاعلام؛ أما الوجه الثاني فيتمثل بالصوت المهدد، والعنيد، صوت فيكتور تشبريكوف. هذا الأخير ترك قيادة الـ KGB لينتقل الى سكرتارية اللجنة المركزية، حيث يرأس اللجنة الحقوقية. وبوصفه عضواً في المكتب السياسي، وسكرتيراً للجنة المركزية، وترأس الـ KGB حتى وقت قريب، بعد أن كان اليد اليمنى لأندروبوف، ورئيساً للبوليس السياسي في أوكرانيا لعدة سنوات، حيث اشتهر بقمعه الذي لا يعرف الشفقة، كل ذلك يجعل منه الصوت الآخر «للأجهزة». فموقعه «كحقوقي رقم واحد» في البلاد وخطابه الثابت الذي لا يعرف أي تغير، يعطي فكرة عن أهمية دوره ووزنه.

في آذار ١٩٨٦، حذر تشبريكوف من الخطر المتمثل «بالدور الهدام للايديولوجية»، بما هي سلاح تستخدمه الامبريالية في مواجهة الاشتراكية. ويرسم خطاً فاصلاً بين «الصراع الايديولوجي»، الذي يرى فيه أمراً «مقبولاً في العلاقات بين الدول»، و «التخريب الايديولوجي»، بما هو أحد أشكال «العمل التهديمي الذي تنهض به الامبريالية» عبر «الأجهزة المختصة»(١٥). ثم يعود في تشرين الثاني ١٩٨٧، الى التحذير من «التخريب الايديولوجي»، وعدم تناسي «وجود أفراد عندنا، يحملون

أفكاراً وآراءً أجنبية، حاقدة على الاشتراكية» وبأن «العناصر المتطرفة. . .» تتسم بخطورة شديدة. ثم يتوقف ليطلق هذا الانذار: «ان كافة شرائح الشعب مستهدفة من قبل الأجهزة الامبريالية»(١٦). ولا ينس تشبريكوف في أيلول ١٩٨٨، وفي مقابلة مفصلة مع البرافدا، أن يستعيد موضوعه المفضل ـ «التخريب الايديولوجي»، الذي يرمي الى «تمزيق التصور الاشتراكي للعالم عند السوفيات. . .»، و «دفعهم للقيام بأعمال معادية للسوفيات». ثم يركز على الواقع الراهن «للأجهزة الأمنية المختصة، مراكز الهدم الايديولوجي، التي تحاول أن تجعل البريسترويكا في وضع معقد، دافعة بلادنا نحو تشكيل أطر تحرك غير شرعية أو نصف شرعية وأحياناً شرعية، تعمل جميعها وفق توجيهات هذه الأجهزة»(١٧).

في حزيران ١٩٨٩، يستأنف فيكتور تشبريكوف الكلام في مجلة كومنست، ولكن ليس من موقع مسؤوليته السابقة كرئيس للـ KGB، بل كمسؤول عن اللجنة الحقوقية، دون أدنى تعديل في أفكاره ومفرداته. فبعد أن يرفض الاقتراح الداعي الى الغاء عقوبة الاعدام، معتبراً أن مناصري هذا الاقتراح «يبالغون في انسانيتهم تجاه المجرمين»؛ يؤكد رفضه أيضاً لإلغاء جوازات السفر الداخلية وبطاقات الاقامة، معللاً ذلك بواقعة أن السكان في الغرب مراقبون بطريقة أشد من تلك الممارسة في الاتحاد السوفياتي. ففي الولايات المتحدة، يوضح تشبريكوف، «يتم العمل على رفع بصمات المواليد الجدد، من أجل توفير وسائل تحقق إضافية»(١٨). ثم يعود الى موضوعة «التخريب الايديولوجي»، فيلحظ الحقوقي ازدياد الفاعلية، في هذه الأيام، «للقوى التي لا تخفي عداءها للاشتراكية وتعمل على مواجهة الحزب الشيوعي السوفياتي» ؛ ويتمنى أن يسفر المرسوم الاشتراعي الرامي الى تعديل قانون «المسؤولية الجنائية المتعلق بالجرائم المرتكبة ضد الدولة»، عن إعادة «المتطرفين المسعورين، الى رشدهم»(١٩).

ترك تشبريكوف، بعد إحالته الى التقاعد مطلع عام ١٩٩٠، في قيادة الـ KGB أنصار فكره المخلصين. ففي آذار ١٩٩٠، بعثت مجموعة من موظفي الـ KGB برسالة دراماتيكية الى مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي ولرئيسه، ميخائيل غورباتشيوف، تطرح فيها ضرورة وضع حد للتشنيع في حق القوات المسلحة السوفياتية والـ KGB، والعمل على إعادة النظام الى البلاد. وقد وقعت الرسالة من قبل «أعضاء في اجتماع ممثلي دوائر الجهاز المركزي للـ KGB». واعتبر هذا العمل الأول من نوعه في تاريخ

«الأجهزة». ومن الواضح أن هذا الاجتماع وهذه الرسالة لم يتمّا دون موافقة رفيق الـ KGB.
وفي الثاني من نيسان، ركز فلاديمير كريوتشكوف، عبر البرنامج التلفزيوني المركزي في مبنى الـ KGB، وضمن برنامج «في خدمة الوطن»، على ضرورة وجود أجهزة أمن قوية. كما أوضح موقف الجهاز الذي يرأسه من المشاكل الأكثر أهمية في الحياة السياسية. «نحن لسنا ضد التعددية الحزبية» (كان قد تم التصويت على القانون القاضي بتعديل المادة السادسة)، ويعلن رئيس الـ KGB، أن في البلاد «بشكل اجمالي، قرابة ٧٠ الى ٨٠ تنظيم مختلف»، جميعها نشط. ويضيف: «تقديرنا أن لـ ٩٨٪ من هذه التنظيمات دوراً بناء وعلينا استخدامها، في حين أن نسبة ٥ , ١ ـ ٢٪ من بينها قد تؤدي، حسب رأيي، وإذا ما تطورت على قاعدة المبادىء التي تعتقد بها، الى نتائج سلبية ضارة بالمجتمع».

أعلن جهاز الـ KGB في الاتحاد السوفياتي، وإبان ذروة الأزمة في ليتوانيا، في نداء أطلقه، إدانته الصريحة لدعوة مجلس السوفيات في ليتوانيا في ٢٧ آذار ١٩٩٠ مواطني الجمهورية، الى «عدم تسهيل مهام أجهزة الأمن»، هذه الدعوة قادت جهاز الـ KGB الى «معارضة حازمة لتبني هذا الموقف المتعارض مع الدستور، ومعارضة كل المحاولات للنيل من سمعة المتعاملين مع الـ KGB والضغط المعنوي عليهم في الجمهورية الاشتراكية السوفياتية الليتوانية»[٢٠].

من النتائج الكبرى للعصر الجديد، السماح لأعضاء الـ KGB في المشاركة في الانتخابات. مع التركيز على طبيعة نشاطهم، ومسؤولياتهم التي ينهضون بها داخل «الأجهزة».

وتبعاً لذلك نحن أمام ثنائية: فمن جهة الصوت الفاتن، والهادىء والمغري لرئيس الـ KGB، وفي مقابله، صوت سلفه المهدد والمقلق، الذي أصبح «مصلحاً» في القانون، إضافة الى صوت أتباعه. والحالة هذه يعمل الصوت الثاني على تثبيت الحدود التي لا يستطيع تجاوزها الصوت الأول. ويستنتج يوري فلاسوف قائلاً: «لم يحدث التجديد الديمقراطي في البلاد أي تغيير في مكانة الـ KGB في النظام السياسي»، فاللجنة تستمر بممارسة «الرقابة على المجتمع في كافة الميادين وفي كل منها بشكل خاص»[٢١].

نشط الصحافي الجيورجي ايركلي غوتزريدز، الذي أمن له تشفردنادزه التسهيلات

للتحقيق بالمجزرة الدموية التي تمت في تبليسي في ليل ٧ و٨ نيسان ١٩٨٩، لمعرفة مصدر الأمر الذي طلب تفريق المظاهرة السلمية، بكافة الوسائل. سمح هذا التحقيق بكشف أحد الجوانب الخفية لأسرار النظام السوفياتي: آلية اتخاذ القرار. لقد أجاب الجنرال روديونوف، الذي قاد العملية، على السؤال: «من أعطى الأوامر؟» بسؤال آخر: «وماذا إذا قلت لكم انه الأمين العام؟». يرفض الصحافي هذا الاحتمال تحت غطاء من الحجج الداهية: أين هي الوثيقة التي تؤكد ذلك؟ ثم ان غورباتشيوف لم يرجع من انكلترا إلا عشية المجزرة. ولكن الجنرال يلاحظ، دون أن يناقش: «بالمقابل، فإن عضو المكتب السياسي المولج بحفظ النظام الشرعي كان في مركزه» وهو يعني بذلك «الحقوقي الأول»، فيكتور تشبريكوف، الذي كان يتلقى الرسائل المرمزة الآتية من جيورجيا، ثم يحيلها مع أمور أخرى الى وزيري الدفاع والداخلية. وفي معرض إجابته على أسئلة الصحافي، لم يرفض تشبريكوف مسؤوليته عما حصل. بل أكد أن مسؤولية الخطأ كانت جماعية: من مسؤولي جيورجيا، الى العسكريين، الى بعض الأشخاص الذين لا يحملون صفة رسمية، بتعبير آخر، السكان المجتمعون في الساحة، كل هؤلاء مخطئون[٢٢]، الجلاد والضحية.

هذا التحقيق الذي يرمي الى «تبييض» صفحة غورباتشيوف[٢٣] ـ بشكل يبقى محدود القدرة على الاقناع ـ يؤكد الدور الهام الذي يتولاه تشبريكوف، مسؤول «النظام الشرعي»، الذي يتصرف بترسانة قوية من وسائل القمع، من بينها، جهاز الـ KGB.

في مناظرة غير متوقعة، جرت في الجلسة المكتملة للجنة المركزية، في شباط ١٩٩٠، ظهرت العديد من الشواهد التي يرفض المعجبون بالأمين العام الاقرار بها. فقد أقدم ايغور ليغاتشيف، الغاضب من الاتهامات الموجهة له والمحاولات الرامية الى اعتباره المسؤول الأول عن القرار القاضي بسحق مظاهرة تبليسي، (في هذا الوقت كان تشبريكوف قد أحيل الى التقاعد) على مجابهة شفاردنادزه، وكشف عن اجتماع لأعضاء المكتب السياسي في ٧ نيسان ١٩٨٩، وغورباتشيوف على رأسهم، صمموا فيه على إعادة الأوضاع في عاصمة جورجيا الى حالتها الطبيعية. وقد كان رد شيفاردنادزه، غير مقنع كفاية، إذ قال أن الجلسة كانت غير رسمية، وتمت في المطار في إطار توديع الأمين العام الذاهب الى انكلترا. بهذا المعنى كان لغورباتشيوف حجه: فهو لم يكن موجوداً في البيت[٢٤].

أن الخوف الذي تسببه الأحرف KGB، لم يغب بعد. ففي أيار ١٩٨٩، نشرت نتائج استطلاع للرأي العام حول السؤال التالي: كيف تنظر الى سير عمل مختلف الادارات السوفياتية؟ امتنع عن الاجابة ٥٣٪، والعديد ممن أجابوا، كانوا يتوقفون عن الكلام عند ذكر الـ KGB[٢٥]، أما في الاستطلاع الذي جرى عام ١٩٨٨ حول السؤال: كيف تقيم عمل الـ KGB؟» فإن ما نسبته ٤٦٪ من المستجوبين رفضوا الاجابة.

هذه «الأجهزة» المقتدرة، وما تشكله من قوة قمع ورقابة ودمج، تبقى مبدأ علة الوجود الأولى بالنسبة للأمين العام. وبدونها، لم يكن للسلطة السوفياتية من وجود، كما سبق وأشار لينين.

الفصل الحادي والعشرون
الجيش والـ «بريسترويكا»

«الدبلوماسية ليست اهتمامنا، فالبندقية الرشاشة هي منانا، القيادة والأوامر الواضحة رجانا، ثم القنابل، وكل زوج يساوي إثنانا»

أغنية الجندي

توضح مقالة «الجيش الاشتراكي» المنشورة في القاموس الموسوعي العسكري، في طبعته الأولى عام ١٩٨٣، والثانية عام ١٩٨٦ ما يلي: «لا يتوقف الجيش الاشتراكي المطلق، بعدها يقتصر دور الجيش على أداء وظيفته الخارجية». هذا الوضوح ليس إلا أمراً ظاهرياً، لأنه لم يتم التوصل بعد الى تحديد ماهية الانتصار «المطلق» للاشتراكية. وفي عصر الـ «غلاسنوست»، فتح النقاش فجأة حول ما هي الاشتراكية. كما أن من النتائج التي لا تقبل المعارضة للـ «بريسترويكا»، ضرورة استخدام «الجيش الاشتراكي» من أجل النهوض بأدوار «داخلية»: فمن أجل استتباب الأمن في المناطق التي تشهد صراعات قومية حادة، تتولى وحدات من الجيش النظامي مساعدة قوى الأمن الداخلي. والعمليات التي أنجزت على يد «الوحدات الخاصة» في تبليسي هي أفضل مثال.

إذاً هناك وظيفة «داخلية»، وأخرى «خارجية»، وثالثة: سياسية. ففي مرحلة التحول و «البريسترويكا»، وإجراء الاصلاحات الداخلية والصراع الحاد من أجل السلطة، تبرز فائدة الوظيفة الثالثة.

بعد تثبيت الجنرال يازوف في منصبه كوزير للدفاع[1]، من قبل مجلس السوفيات

الأعلى للاتحاد السوفياتي، طرح عليه أحد الصحافيين السوفيات السؤال الثاني: «هل سمعتم أن الغرب يتوقع إمكانية حصول انقلاب عسكري في بلدنا؟» أجاب الجنرال، بعد شكره للصحافي لأنه لم يطلب منه تحديد موعد إمكانية حصول إنقلاب[٢]. كما أن غورباتشيوف نفسه، في صيف ١٩٨٩، استهزأ بهذا النوع من الاشاعات.

وفي أيار ١٩٩٠، سرت غمغمة في الغرب تفيد بأن عسكريين ـ بعض المصادر تحدثت عن طلاب الاكاديمية العسكرية، ومصادر أخرى ذكرت أنهم ضباط وجنود من فرقة «تامان» ـ قاموا بعرض قوة في الوقت الذي كان يتجمع فيه ١٠٠ ألف موسكوبي في الساحة الحمراء مطالبين بتحويل النظام الى نظام ديمقراطي ـ وفي ٤ أيار، نفى الكسندر اياكوفليف هذه التأكيدات بكل قوة، وأكد «أن أية ضغوط لم تمارس على القيادة السياسية، وبالتالي لا مبرر للقول بأن غورباتشيوف قد غير سياسته تحت الضغط»[٣].

يتم الحديث دورياً عن «إزاحة غورباتشيوف»؛ وفي ذلك إحدى الظواهر الأكثر غرابة للـ «بريسترويكا». بشكل منتظم ـ بعد ذهاب الأمين العام في عطلة، أو عشية الجلسات المكتملة للجنة المركزية ـ تنتشر «معلومة» السقوط المتوقع لأب الاصلاحات، كإنتشار النار في الهشيم. كما يتم تداول هذه «المعلومة» من قبل الاعلام الدولي، وتعود الى الاتحاد السوفياتي مثبتة «الشرعية»، ثم تنطلق لتجوب العالم. ولكن بعد أي انتصار يحققه غورباتشيوف، تعود الأمور لتخمد، بانتظار «الانذار» المقبل. ولا نجد أمثلة مشابهة لذلك إلا في سنوات الحرب الأهلية، حيث تلجأ الصحافة الأجنبية الى الاعلان الصاخب بأن لينين أوقف تروتسكي، أو عكس ذلك.

خلال سبعين عاماً، كانت هذه الإشاعات تنبت بشكل عفوي، ويعود السبب في ذلك الى غياب المعلومات حول طبيعة الأوضاع في البلاد. أما اليوم، فإن بطريقة منهجية، تتم الاشارة الى ثلاثة مرشحين للعب دور المنظم للمؤامرة: قمة هرم الحزب، جهاز الـ KGB، والجيش. حتى بعد استلامه للسلطة، بقي الحزب الشيوعي لمدة طويلة غير مطمئن لانتصاره، حتى أن لينين إحتفل بمرور ٧٣ يوماً على ترأسه للدولة، لأنه ربح يوماً إضافياً بالنسبة لأنصار كومونة باريس عام ١٨٧١.

لم ينفك البلاشفة أبداً عن النظر الى أنفسهم عبر مرآة الثورة الفرنسية. فترميدور

وبونابرت يثيران فيهم الفتنة والخوف. فتهمة «البونابرتية» التي ألصقت بقائد الجيش الأحمر، هي طبيعية تماماً. وبدوره، اتهم تروتسكي ستالين، بأنه استعاد «تروميدور» على طريقته. كما أن المؤرخين السوفيات لسنوات الـ «غلاسنوست»، أعادوا استخدام هذا النوع من التبكيت، أثناء الحملة الجديدة لإدانة «العبادة الستالينية للشخص». وأتهم توخاتشيفسكي بدوره «بالبونابرتية» ومحاولة القيام بإنقلاب عسكري. كذلك، فإن ما حصل عام ١٩٥٧، من إقالة لجوكوف وإحالته الى التقاعد، قد تم تحت عنوان «البونابرتية». إلا أن لا شيء يثبت تورط تروتسكي، وتوخاتشيفسكي، وجوكوف، في أية محاولة للقيام بإنقلاب عسكري. فتصريح جوكوف إبان انعقاد الجلسة المكتملة للجنة المركزية عام ١٩٥٧ ـ «دون أمر مني، لن تتحرك أية عربة» ـ هو المناسبة الوحيدة التي عبر فيها الجيش عن رغبته في لعب دور سياسي. مع العلم أن جوكوف كان في قوله هذا يدعم وضعية السكرتير الأول. ولكن موقف خروتشيوف من وزير دفاعه، الذي يرغب في المشاركة في الصراع السياسي على السلطة، يظهر قلة حماس قيادة الحزب، عندما ترى بوادر ظهور شركاء من الخارج. ومن الملفت أن انتصار خروتشيوف على الجيش كان من السهولة بمكان تذكرنا بقصص الجنة: إذ كان يكفي النطق بكلمة واحدة، حتى يحال بطل الحرب العالمية الثانية الى التقاعد.

لم يشهد تاريخ الاتحاد السوفياتي، إلا حالة واحدة من التآمر الناجح. وهي التي نظمت المطالبين بإزاحة خروتشيوف، فيما بقي الجيش حذراً. ولكن الـ KGB والجيش، لعبا دوراً تقنياً بحتاً: فالانقلاب تم تحضيره على يد أقرب مقربين الأمين الأول. إنه أشبه بنموذج ثورة في القصر.

أدت تنحية خروتشيوف الى تغيير «المناخ»: فالجليد الجديد يأتي بعد ذوبان القديم. كما أن هناك نتيجة هامة أخرى إنطوى عليها العهد الجديد، وتتصل بالميل نحو نزع القدسية عن شخص القائد. ولهذا الميل سابقة. ومع ذلك، فإن أحداً لم يفكر، في أية لحظة، في قلب بريجنيف. حتى في السنوات الأخيرة من عهده، فالشائع أن بريجنيف سيقدم بملء إرادته على الاعتزال. والسبب في ذلك، تدهور حالته الصحية، التي كانت واضحة بالنسبة لمشاهدي التلفزيون، والمقاصد الانيسة للطامعين في العرش.

إن التفكر في الدور السياسي للجيش في النظام السوفياتي، هو من الهوايات

المفضلة لدى العلماء المختصين بشؤون الاتحاد. وفي الحقيقة، لم يلعب الجيش أي دور سياسي مستقل، في تاريخ الاتحاد السوفياتي. كما أنه خدم الحزب بأمانة وبشكل دائم. دون أن يعني ذلك، افتقاده لأية أهمية. بل أن دوره ودلالة هذا الدور، كانا دائماً منظمين بطريقة منهجية وما زالا، من قبل قيادة الحزب، وفقاً لتوجهاتها السياسية المعلنة في كل مرحلة.

في ٣٠ أيار ١٩٨٧، وبعد يومين على الهبوط المثير لطائرة ماسياس روست في الساحة الحمراء، وزعت وكالة تاس خبراً يفيد أن المكتب السياسي قد قرر عزل الجنرال كولدونوف من مهامه «وتدعيم قيادة وزارة الدفاع في الاتحاد السوفياتي». وفي اليوم نفسه تم عزل وزير الدفاع، المارشال سوكولوف. أي أن ميخائيل غورباتشيوف، قام على عكس عادته، بإنجاز عملية التطهير في القيادة العسكرية، بطريقة سريعة، واضحة وجذرية. فقد جرت العادة، أن يحضر طويلاً لأي من قراراته، مهما صغر شأنها، وأن يأخذ وقتاً أطول ليضع قراره موضع التنفيذ. ولكن في هذه المرة تدافعت الأحداث، الى حد يجعلنا نعتقد، أنه لو لم يكن لماسيوس روست من وجود، لكان المطلوب إختراعه. إنها فرصة مؤاتية وعلى غورباتشيوف أن يلتقطها. كما أن السهولة التي تمت بها عملية التطهير، تفسر بغياب كامل للمقاومة، سواء في الجيش أو في داخل المكتب السياسي. فغورباتشيوف يملك حجة قوية: طائرة أجنبية حطّت في قلب موسكو، فوفقاً لإتفاق، وقع عام ١٩٧٢ بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، يحق لكل منهما خلق حزامي أمن مضاد للصواريخ في مناطق حيوية. وفي عام ١٩٧٤، تم التراجع الى حدود حزام أمني واحد.

أختار الاميركيون قاعدة الصواريخ العابرة للقارات في غريت ـ فوركس، أما الاتحاد السوفياتي فقد آثر موسكو. وقد برر قائد وحدات الدفاع الجوي، الجنرال كرتياك، هذا الخيار بواقعة أن عاصمة الاتحاد السوفياتي «هي مركز للثقافة العالمية»[٤]. ويمكننا بأن هذا السبب ليس الوحيد فمن الطبيعي لأي دولة مركزية، أن تعمل بداية على حماية مركز السلطة، حيث يتركز الجسم القائد للبلاد.

سمحت «قضية روست» للحزب بتأكيد دوره المسيطر على الجيش. فقد انتقد بوريس يلتسين، السكرتير الأول لموسكو في تلك المرحلة، أمام أعضاء الحزب الموجلين

بالدفاع الجوي، بلا شفقة الطيارين والـ DCA، وركز على ضرورة مضاعفة «تأثير الحزب على الكوادر»(٥).

كما أن غورباتشيوف لم يلقَ أية معارضة عندما طالب بتخفيض عدد القوات المسلحة بحدود ٥٠٠ ألف رجل. وعندما أعلن هذا الخبر في نيويورك، إبان اجتماع هيئة الـ ONV، إستقبل كدليل أضافي يؤكد الأهداف السلمية، للاتحاد السوفياتي وللـ «فكر السياسي الجديد». وفي عام ١٩٥٩، عمد خروتشيوف الى تخفيض عدد القوات المسلحة، بما يقارب ١,٢ مليون رجل، أي ١/٣ الجيش (غورباتشيوف خفف العدد بنسبة ١/ ١٠). كما أعلن مسؤول الدائرة السياسية الرئيسية، في مؤتمر نواب الشعب، الجنرال ليزيتشيف، الغاء ١٤٠٠ مركز خاص بالجنرالات(٦). وكان الرد عليه أن الولايات المتحدة لا تملك أكثر من ١٠٧٣ مركز.

ويضيف صحافي سوفياتي، بأن الـ BunDeswehr تملك نصف مليون جندي وضابط، لا يقودهم أكثر من مئتي جنرال وأميرال. بهذا المعنى لم يكن غورباتشيوف يقوم بعمل مرهق عندما يسرح من الجيش السوفياتي عدداً من الجنرالات يفوق عددهم في أقوى جيشين في حلف الـ OTAN. ففي الولايات المتحدة، تصل النسبة الى جنرال واحد لكل ٣٤٠٠ رجل، وفي الـ Bundeswehr واحد لكل ٢٤٠٠، أما في القوى المسلحة السوفياتية فتصل النسبة الى واحد لكل ٧٠٠ رجل(٧).

تخدم عملية تصفية القيادة العليا، وتخفيض عدد الجيش، وانتقاء بعض أوجه الحياة العسكرية عبر الصحافة، والسماح بمناقشة ضرورة خلق جيش محترف، هدفاً واحداً: تقوية الرقابة على الجيش ومضاعفة فعاليته. أن العلاقات بين قيادة الحزب والجيش، في مرحلة الـ «بريسترويكا»، تحددها الهزيمة العسكرية في أفغانستان. فالنقاشات الدائرة حول أسباب وظروف التدخل السوفياتي في كانون الأول ١٩٧٩، تعتبر نموذجاً لعصر الـ «غلاسنوست»: إذ يدور الكلام، وتذكر أسماء، ولكن لا يتم صياغة أية وثيقة، ولا يتم التوصل الى أي استنتاج محدد. فمجرد السماح بمناقشة مواضيع كانت محظورة سابقاً، يعتبر عملاً مفيداً ويشبع حاجة معينة.

أتاحت الهزيمة في الحرب ضد «المجاهدين»، لغورباتشيوف بوضع حد «لزمن الماريشالات»، ويفسح مجال الصعود أمام جيلٍ جديد من المخططين، بينهم الضباط

الذين ترقوا الى رتبة جنرال في أفغانستان، فهؤلاء يصعدون بسرعة الى أعلى المراتب. فالجيش السوفياتي الذي لم يسمع صوت المدافع بين عام ١٩٤٥ و١٩٧٩ (بإستثناء حملة بودابست عام ١٩٥٦)، يقدم إمكانيات واسعة لهؤلاء الذين خاضوا تجربة الحرب. لقد كان للهزيمة تجربة جيدة، كشفت ثغرات التأهيل غير الكافي للضباط، الذين يخافون اتخاذ المبادرات، والتكوين السيء للجنود، فقط المظليون، المؤهلون بشكل جيد، و «الوحدات الخاصة»، كانوا أعداءً فعليين لمقاتلي الأفغان. كما كشفت حرب أفغانستان بطريقة مقنعة أهمية التقنية: فصواريخ الـ «ستنيفر» كانت عاملاً أساسياً في وقوع الهزيمة؛ لأنها قضت على الميزة العسكرية السوفياتية المتمثلة بطائرات الهليكوبتر.

لقد تم التأكيد على هزيمة العسكريين، عندما استطاع غورباتشيوف أن يحولها الى انتصار سياسي، عن طريق منعه لسقوط نظام نجيب الله بإستخدامه المناورات الدبلوماسية، وتقديم مساعدة عسكرية سخية له. في الواقع، لقد استطاع غورباتشيوف أن يدفع الولايات المتحدة للبحث عن حل للمشكلة الافغانية، التي ولدت بسبب التدخل السوفياتي. غالباً ما يحدث أن تكون الهزيمة أكثر مردودية من الانتصار بالنسبة للجيش المهزوم. فنقاط ضعف الجيش السوفياتي، غدت واضحة، ومنها العديد المبالغ به، والعبثي، ومدة الخدمة العسكرية التي تفرضها التقاليد العسكرية القديمة. بهذا المعنى تهدف «بريسترويكا» الجيش الى معالجة النواقص التي كشفتها المغامرة الافغانية. وهذا ما يتم تحت عنوان «تخفيض عدد القوات المسلحة من طرف واحد»، ونزع التسلح، وصياغة «استراتيجية دفاع» جديدة.

من الخصائص الكبرى للـ «بريسترويكا»، هذا البون الشاسع وغير الخفي بين الكلام والأفعال، بين الدعاية والحقيقة. فكل ما يتعلق بالجيش السوفياتي يبقى من الأسرار العميقة. وما يتم اليوم هو إزاحة أحد الأغطية. فعندما يقيم وزراء دفاع البلدان المشاركة في الـ OTAN في الاتحاد السوفياتي، يتم اطلاعهم على كل شيء تقريباً. كما تؤمن الخبراء الغربيين رحلات لزيارة المفاعلات النووية. وبذلك يستطيعون أن يتكلموا عن كل ما شاهدوه، لأن غورباتشيوف مقتنع بأن «الكلمة» هي في النهاية أقوى من الوقائع.

كشف وزير الدفاع الأميركي، فرانك كارلوتشي بعد إقامة له في موسكو في آب

١٩٨٨، عن الهوة القائمة بين «الصراحة» و «غياب السياسة الجديدة»: فالنفقات العسكرية السوفياتية هي على الأقل ستة أضعاف ما تعلنه الميزانية؛ وبعد مرور عشرين عاماً على «ربيع براغ»، فإن مجموع الفرق العسكرية السوفياتية في تشيكوسلوفاكيا يفوق ما تملكه أميركا من قوى عسكرية في أوروبا كلها، حتى أن عدد الفرق العسكرية السوفياتية في ألمانيا الشرقية يتجاوز مجموع الفرق الأميركية؛ وفي شبه جزيرة كولي، تتجمع ثلاث فرق سوفياتية، وأسطول وفرقة من مشاة البحرية، بمواجهة ثلاثة كتائب نروجية من المشاة. يرى فرانك كارلوتشي، أن القوى المسلحة السوفياتية، يستمر تنظيمها وتجهيزها بهدف القيام بهجومات كبرى، بغية احتلال أراض والثبات فيها[٨]، وفي عودة لوزير الدفاع الفرنسي، فإن بيار شغنهان، الى نابليون يعلن: «يجب أن لا نحاكم العدو، على أساس نواياه بل على أساس إمكانياته»[٩]. فبالرغم من الأزمة الاقتصادية المتفاقمة، فإن الامكانيات العسكرية السوفياتية لا تنِ تتزايد. ويؤكد الجنرال جون غافان وهو قائد سابق لقوات الـ OTAN في أوروبا، ان الصناعة السوفياتية، أنتجت بين عام ١٩٨٥ و ١٩٨٨، من الآليات والأسلحة أكثر مما بحوزة الجيش الفرنسي والألماني مجتمعين. وحتى وقت قريب جداً، كان الاتحاد السوفياتي ينتج سنوياً قرابة ٧٠٠ طائرة مقاتلة، وغواصة نووية كل ٣٧ يوماً. كما أن الانتاج السنوي من دبابات ت ـ ٨٠ يساوي ٣٤٠٠: أي ما يكفي لتسليح فرقة عسكرية في الشهر. فلو أغلقت كافة مصانع الدبابات في الاتحاد السوفياتي فجأة، وتضاعف إنتاج بلدان الـ OTAN ثلاث مرات، لوجب الانتظار لمدة عشر سنوات كي يتم بلوغ مستوى المعسكر الاشتراكي[١٠]. واستناداً الى أرقام أميركية، بلغت كلفة الامدادات العسكرية السوفياتية الى الحكومة الأفغانية، بعد انسحاب «وحدة محددة» من الجيش السوفياتي، قرابة ٢٠٠ ـ ٣٠٠ مليون دولار في الشهر، في النصف الأول من عام ١٩٨٩. الأمر الذي يعني الرغبة في إبقاء الهيمنة على أفغانستان عبر «وسائل أخرى». ويرى ممثل مكتب الرئاسة، أنه «لا يمكن إيجاد تفسير» لتزايد إمدادات الأسلحة لنيكاراغوا من قبل «الكتلة الشرقية»، في الوقت الذي تتم فيه محادثات من أجل وقف العمليات العسكرية.

ففي عام ١٩٨٩، تسلمت حكومة نيكاراغوا أعلى نسبة من الأسلحة حصلت عليها إبان حربها مع «الكونترا»[١١]. لقد صاغ االرومان هذا القانون: إذا كنت تريد

السلام، فتحضر للحرب. فقط هذا المنطق يبرر تزايد عدد الغواصات السوفياتية في شمالي الأطلسي. كما أن تلبية اجتياحهم للمياه الاقليمية النروجية والسويدية، أضحت أكثر سهولة، منذ أن تمكن الاتحاد السوفياتي من الحصول سراً على التكنولوجيا الغربية، التي تسمح بجعل هذه الغواصات صامتة كلية. كما لاحظ الخبراء، أن عدد الغواصات السوفياتية من النموذج القديم، المجهزة بالصواريخ والتي تملك مدى رؤية متدنٍ عن مثيله في الولايات المتحدة ولكنه مناسب لأوروبا، قد تزايد في المياه الأوروبية[١٢]. ان منطق هذه العمليات يندرج تحت حيثيات المذهب العسكري الذي صاغه أب أسطول المحيطات السوفياتي، الأميرال غورشكوف: «اعتبر فن الأسطول الحربي السوفياتي دائماً أن التفوق في البحار ليس هدفاً بحد ذاته، بل وسيلة لخلق معطيات تسمح لقوى الأسطول وطاقته أن يعالجوا بطريقة مناسبة أية مشكلة في أي مكان من مسرح العمليات، وخلال مدة زمنية محددة»[١٣].

تبرز من بين المعضلات الكثيرة للـ «بريسترويكا»، معضلة التزايد الدائم للتسلح. يجزم فرانسوا هايسبورغ، مدير المعهد الدولي للأبحاث الاستراتيجية، : «بأن الطاقة العسكرية السوفياتية، خاصة في مجال التسلح التقليدي، لم تكن في أي وقت على هذه الدرجة من الرعب. . . »[١٤] لماذا تضاعف القوى العسكرية السوفياتية من قوتها، في حين أن اقتصاد البلاد يمر بأزمة عميقة، هذا ما يثيره، بعد خمس سنوات من عمر «بريسترويكا»، كافة الاقتصاديين والقادة السوفيات؟ كيف يمكننا التوفيق بين نمو القدرة العسكرية وبين السياسة المعنونة «بالسلم الشامل»، و «البيت الأوروبي»، ونزع السلاح الكامل لجميع الأطراف؟ ثم كيف يمكننا التوفيق بين الخوف من «انقلاب عسكري» و «تقوية الجيش».

إن البحث عن أجوبة لهذه الأسئلة المعضلة، نجده في النموذج الذي لا يمس للنظام السوفياتي، والمرتكز الى القوة العسكرية، السمة الوحيدة للقوى العظمى التي بلغها. والأمر المقدس أيضاً، سلطة الحزب في فوهة «البندقية»، كما كان يقال سابقاً، والصواريخ البلاستيكية، كما يقال اليوم.

في خريف ١٩٨٩، وبعد أن عدّلت مرة أخيرة تركيبة المكتب السياسي قبل مؤتمر الحزب، أدخل غورباتشيوف ـ الذي يتابع هدفه بثبات نحو مركزة السلطة بيده ـ الى

المركز الأعلى للقرار رئيس الـ KGB، تاركاً وزير الدفاع على الباب. لقد أصبح يوري ماسليبوكوف، الذي يمثل القدرة العسكرية للبلاد، عضواً جديداً في المكتب السياسي. وبإعتباره أحد مسؤولي الصناعة العسكرية، ترأس بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٨ اللجنة العسكرية ـ الصناعية (VPK)، التي من بين اهتماماتها، تلبية طلب وزارات الجيش من التقنيات والتكنولوجيا، الأمر الذي يتطلب مساعدة الأجهزة السرية[١٥]. في شباط ١٩٨٨، تولى رئيس اللجنة (VPK)، مركز رئيس «الغوسبلان» وأصبح المساعد الأول لرئيس مجلس الوزراء. وسوف يزيد الاتجاه نحو الحد جزئياً من مركزة الاقتصاد، بإعتباره أحد أهداف الـ «بريسترويكا»، من إمكانيات التخطيط في الصناعة العسكرية، الممركزة الى الحد الأقصى، وبتعبير آخر، مركزة الجهود بغية تأمين القوة العسكرية للاتحاد السوفياتي. أن «ربيع الأمم» في «المعسكر الاشتراكي» الآتي في خريف ١٩٨٩. قد عكّر أجواء تلك الترتيبات. إذ أن فرقاً من الجيش السوفياتي قد بقيت في البلدان المسماة حتى وقت قريب «إشتراكية»، والتي اتخذت اليوم من تسمية «حلفاء» صفة رسمية لها. لكن تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا طالبت برحيل القوات السوفياتية وفق جدول زمني، بحجة غياب الإستعداد لاستقبال الفرق السوفياتية العائدة، دفعة واحدة الى البلاد. أما بولونيا فلم تلح كثيراً على هذه النقطة حتى الآن بإنتظار وضوح الموقف في ألمانيا الموحدة. أن بعض الفرق السوفياتية سوف تبقى في ألمانيا الشرقية حتى عام ١٩٩٤. وقد قبلت الحكومة الألمانية بدفع عشرة مليارات مارك من أجل إعادتهم الى الوطن وتأمين المساكن لهم.

إن غياب الجيش من ألمانيا الشرقية والتغيرات الحاصلة في طبيعة السلطة في البلدان «الحليفة» قد وجّه ضربة حاسمة للقوات المسلحة في حلف وارسو. في كانون الثاني ١٩٩٠، أعلن مدير ال C.I.A. في الكونغرس الأميركي، أن التهديد العسكري السوفياتي قد تراجع، بلحاظ المعطيات الجديدة. ويتابع: «نستطيع بلا شك أن نتوقع أستمرار هذا التراجع، دون أن يعني ذلك زوال التهديدات التي يسببها الاتحاد السوفياتي للمصالح الأميركية»[١٦]. أن وجهة نظر المهتمين بمكافحة الجاسوسية في الولايات المتحدة، تستحق بالتأكيد أن نتوقف عندها، دون أن نمنحها صدقية مطلقة. ففي نيسان ١٩٩٠، وأثناء انعقاد المؤتمر الذي أشرف على تنظيمه معهداً أميركياً للأبحاث، دحض اقتصاديون سوفيات إستنتاجات الـ C.I.A، بشكل قاطع. أعلن أوليغ

يوغومولوف، وهو مدير معهد المشكلات الاقتصادية للنظام الاشتراكي العالمي، ونائب للشعب، أن الاتحاد السوفياتي يخصص للانفاق العسكري ما نسبته ٢٠ ـ ٢٥٪ من الدخل القومي. فيما تتحدث الـ C.I.A عن نسبة ١٦٪ ومن جهته يعلن الاقتصادي فيكتور بلكين، أن الناتج القومي السوفياتي يعادل ربع الناتج القومي الأميركي، في حين أن تقديرات الـC.I.A لا تصل إلا الى حوالي النصف.

يدعو المنطق القيادة السوفياتية الى تقليص الاتفاق العسكري من أجل إيجاد حل نهائي للأزمة الاقتصادية التي تزداد تفاقماً. ولكن لم يحدث أبداً، أن انقاذ النظام السوفياتي لمنطق حاجات الفرد، وبقي منطق السلطة هو السائد.

الجزء السابع

أفول الإمبراطورية؟

الفصل الثاني والعشرون
شقوق في الجدران

«ان روسيا الكبرى لحمت جمهوريات حرة وإلى الأبد في إتحاد خالد»

نشيد الاتحاد السوفياتي

«لقد سوَّينا المسألة القومية»

ميخائيل غورباتشيوف، ٢ تشرين الثاني ١٩٨٧

لم يمض على عمر «البريسترويكا» خمس سنوات، حتى أضحت كل كلمة من المقطع الأول للنشيد السوفياتي عرضة للمراجعة. فقد أعيد النظر بطبيعة «الاتحاد»، وبـ «خلوده»، وبموقع «الجمهوريات» داخله، وبالصفة «الأبدية» لهذه التشكيلة، وبموقع ودور «الأولى بين متساويين»: روسيا. يصعب تجنب هذه المسائل، لأن الشروع في تحقيق «البريسترويكا» على مستوى نظام القيادة، أجبر غورباتشيوف على إعادة فتح جروح قديمة، بقي العديد منها حياً منذ عشرات السنين.

شكل التعامي المطلق عن المشاكل القومية في المراحل الأولى من «البريسترويكا»، إحدى المعضلات الأكثر غرابة. ويمكننا تفسير هذا التعامي بالرفض المكابر في النظر للواقع المواجَه، والثقة المبالغ بها بالقدرة على تكييف الواقع وفق الحاجات والرغبات.

«عندما أُطلقت البريسترويكا في نيسان ١٩٨٥، هل كان بإستطاعتنا أن نتوقع ولو للحظة حدوث أشياء شبيهة بما يحدث اليوم؟ كلا، وبكل تأكيد كلا»[1]. هذا الذهول تم التعبير عنه في صيف ١٩٨٩، على لسان صحافيي البرافدا. في زمنٍ كانت الأخبار التي تنشرها الصحافة، مقلقة الى حد الاعتقاد بأننا في ظل حرب: «سومغيت،

تبيليسي، وادي فرغانا، نوفي أوزن. . .»[٢] والعديد من الأسماء والأمكنة، التي حصلت فيها مذابح دامية، تم فيها حرق، وإغتصاب، وقتل مواطنين سوفيات. وفي بعض أماكن القفقاس، اتخذت الصدامات طابع الصراعات الفعلية، فحسب الأرقام الرسمية، تم إحصاء ٢٩٩ قتيل «إبان اضطرابات إتنية» في عام ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩، و٥٢٠٠ جريح، وعدة آلاف من البيوت التي حرقت ونهبت. هذا الى جانب تهجير قرابة ٣٦٠ ألف أرمني، وأذربيجاني، وتركي، الخ[٣]. من أماكن سكنهم.

أطلق الصحافيون السوفيات على هذه الأمكنة التي أصبحت مسرحاً للصراعات الدامية، تسمية «عناوين قلقنا». وكان العنوان الأول الذي ظهر على بطاقة «الاتحاد الخالد»، في كانون الأول ١٩٨٦؛ عاصمة كازاخستان: ألما ـ أتا. لم تكن الملابسات التي أحاطت بحوادث ألما ـ أتا قد إتضحت بالكامل. فما عرف (آنذاك، أنه بعد قرار الجلسة المكتملة للجنة المركزية، بإبعاد السكرتير الأول دينمحمد كوناييف، وهو صديق قديم لبريجنيف، وإستبداله بأحد مناصري غورباتشيوف، غينادي كولبين، أقدم «شبان غير مجرّبين وغير مثقفين سياسياً» على النزول الى الشوارع والساحات، «يضربون المواطنين ويشتمونهم، يقلبون السيارات ويحرقونها، يحطمون واجهات المحلات، والأندية، والأماكن العامة»؛ وذلك لمدة يومين، ١٧ و١٨ كانون الأول. يصف الكاتب كازاك أنور اليمجانوف، ما حصل بحرارة قائلاً: «يقف وراء الانفجار تشجيع وخداع أحدٍ ما»، مع العلم أن «قرارات الجلسة المكتملة قد صوتت عليها الأغلبية الساحقة من الشيوعيين، وعمال الجمهورية، الذين رأوا فيها قرارات شرعية ومبررة»[٤]. وبعد مضي ثلاث سنوات، أقر ووريث كولبين في منصب السكرتير الأول لجمهورية كازاخستان، نزار باييف، أن «هذه المظاهرات المتطرفة كانت مفتعلة»، وأضاف مدققاً بأن عملية انتخاب كولبين، التي لم تتجاوز حدود ١٨ دقيقة، هي «نوع من الإهانة لمناضلي الحزب، بسبب إستهتارها بالرأي العام»[٥]. لقد كان غورباتشيوف، الذي لم تتجاوز مدة سلطته بعد سنة ونصف، يستعيد الأساليب القديمة التي أظهرت فعاليتها: العمل على إقالة السكرتير الأول، وإستبداله بآخر مرسل من موسكو. والجواب على ذلك يأخذ شكل حالات من الشغب. ولكنها لم تكن مقلقة: ألم تقمع الحالة المذكورة خلال يومين؟.

أُطلقت صفارات الإنذار الأولى قبل حوادث ألما ـ أتا. فقد تحدث العديد من

الكتاب، والمدرسين بشكل صريح عن الخطر المتمثل بإنذار اللغات القومية، ومن بينها، الأوكرانية والروسية البيضاء. ففي عام ١٩٦٨، أوضح إيفان دزيوبا، في كتاب له تحت عنوان: أممية أو «تَرْويس»، النتائج المدمرة التي أصابت أوكرانيا من جراء السياسة القومية السوفياتية. وبالرغم من أن دزيوبا يستند في رؤيته الى ضرورة العودة الى السياسة اللينينية، وأن يقتصر توزيع كتابه على «ساميزدات»، فقد جرى توقيفه. وفي أواخر عام ١٩٨٥، ارتفعت بعض الأصوات في الصحف، لتعلن وقوفها الى جانب اللغات القومية. في أكتوبر ١٩٨٦، نشرت صحيفة أدبية أسبوعية تصدر في روسيا البيضاء، عدة رسائل من القراء، يصفون فيها الوضعية السائدة. فقد كتبت مجموعة من المدرسين في منسك، على سبيل المثال، أن الأساتذة والطلاب الذين يتحدثون لغة روسيا البيضاء أثناء مجالس تربوية، يواجهون تهمة النزعة القومية(٦). كما ظهرت مقالات ورسائل من هذا النوع في الصحافة الأوكرانية، والمولدافية، والاستونية، والأوزبكية، وفي صحف ومجلات جمهوريات أخرى.

هذه الاشارات لم تكن مسموعة. فقد أكد مشروع البرنامج الجديد للحزب الشيوعي، الذي عرضه غورباتشيوف في شهر أكتوبر ١٩٨٥ أمام الجلسة المكتملة للجنة المركزية، والذي تم تبنيه في المؤتمر السابع والعشرين للحزب، بكل حزم في الفقرة المختصة بـ «إستمرارية إنطلاقة وتقارب الأمم والإتنيات الاشتراكية»: «تفرض نتائج المسار الذي سلك، الاقتناع بأن المسألة القومية، بما هي راسب من الماضي، قد وجدت لها حلاً ناجحاً في الاتحاد السوفياتي»(٧). ثم يضيف معترفاً، بأن صيرورة العمل والحياة المشتركة لأكثر من مئة أمة وقومية، تطرح مهام جديدة»، ضمن هذا الإطار يقترح برنامج الحزب «ضرورة تطوير العلاقات بين القوميات». وبعد أربع سنوات على هذا الطرح وجد غورباتشيوف نفسه مجبراً، في أيلول ١٩٨٩، تاريخ إنعقاد الجلسة المكتملة للجنة المركزية والمخصصة «للسياسة القومية للحزب في ظل الظروف الراهنة»، على القبول بأن وضعية العلاقات فيما بين الإتنيات «ليست من البساطة بشيء»(٨). كما أن الخطباء الذين تعاقبوا بعده على الكلام، الأمناء الأول للجمهوريات أو المناطق، تكلموا بدورهم عن وجود أزمة عميقة.

تم وعي الوضع المتأزم ببطء: من المشاكل المتفجرة في كراباخ، واليقظة القومية لبلدان البلطيق، الى مذابح وادي فرغانا، ونوفي أوذن، والصدامات الدامية بين شعب

جيورجيا وشعب الأبخاذ، أضف الى ذلك التأكيد على هوية أذربيجان، ومولدافيا، وروسيا البيضاء، وولادة حركة شعبية: «الروخ» في أوكرانيا. ولم يكن ذلك إلا إشارة الى المعالم الكبرى للوضع، الذي إستوقف غورباتشيوف ليعلن نادماً: «لم ندرك في الوقت المناسب، ضرورة التغييرات العميقة، في شتى الميادين»، وذلك في إطار حديثه عن «السياسة القومية الجديدة». أن لكل جمهورية أسباب استيائها التي تجد تعبيرها، في كل مرة، بطريقة خاصة. فمشكلة كارباخ، العليا، ذات الأغلبية السكانية الأرمنية، والتي ضمت عام ١٩٢٣ الى أذربيجان، تحولت بسبب غياب القرار في موسكو، ومشاعر التعاطف التي يحملها غورباتشيوف تجاه أذربيجان، الى صدام دام بين الجمهوريتين. كذلك الأمر في جمهوريات البلطيق، فإن حالة عدم الرضى الّتي تُثيرها السياسة المركزية المعيقة للتطور، أدّت الى ولادة «الجبهات الشعبية» الأولى في الاتحاد السوفياتي. كما أن الاعتراف، بالطبيعة الاجرامية للمعاهدة الجرمانية ـ السوفياتية، يؤدي الى ضرورة القبول بلا شرعية الحاق أستونيا وليتونيا وليتوانيا بالاتحاد السوفياتي. ولكن غورباتشيوف يرفض ذلك؛ ويتبنى موقفاً «بين كرسيين»: المعاهدة ذات سمة اجرامية، ولكن القرار بدخول الاتحاد، والمتخذ من قبل برلمانات جمهوريات البلطيق عام ١٩٤٠، في الوقت الذي كان فيه الجيش الأحمر داخل أراضيه، يبقى الأساس الشرعي الذي يبرر تحولها إلى جمهوريات سوفياتية. ولكن الحركة الوطنية في بلدان البلطيق، كانت قد نالت الاجماع، الأمر الذي سمح لليتوانيا، ومن ثم لأستونيا، ولليتونيا بإعلان الاستقلال بين شهري آذار وأيار من العام ١٩٩٠، أما في حالات الجمهوريات الأخرى، فقد كان لمشاكل البيئة، ومسائل اللغة الوطنية، والشعور بالغبن والتبعية الكاملة للمركز، إسهامها في انطلاقة الوعي الوطني والانفجار.

أشارت توقعات بعض الباحثين الغربيين الى قابلية الامبراطورية السوفياتية للعطب، وإلى ضعفها الداخلي، ولكن هذه التوقعات أخطأت في تعيينها للبؤر الرئيسية المولدة للهزات الداخلية. فقد كان يتوقع أن يبدأ الانهيار في آسيا الوسطى، في إطار الجمهوريات «المسلمة». ولكن في الواقع، بدأ ظهور الحركات القومية في المناطق الأكثر غنى وتطوراً في البلاد: مناطق البلطيق والقفقاس.

يردد غورباتشيوف دون كلل، أن الاتحاد السوفياتي يمثل تشكيلة دولة فريدة في نوعها. وبدورنا نستطيع موافقته على هذه النقطة. فالميزة الأساسية للامبراطورية الأخيرة

في القرن العشرين، كان من الممكن، إجمالاً، أن تصبح نموذجاً للتناقضات المستعصية الحل. فالتصور الذي يرى في الاتحاد السوفياتي نواة الجمهورية العالمية للسوفيات مستقبلاً، يحاول أن يقتحم المستقبل، إلا أنه يبقى فعلياً في الماضي. يعلن لينين: «نريد أن نسقط وبشكل كامل الحدود بين الدول»، في حين أن دستور الاتحاد السوفياتي يعين بدقة عالية حدود الجمهوريات، والمناطق، والمقاطعات. كما يعتبر سكان الاتحاد السوفياتي، مواطنين سوفيات، ولكن جوازات سفرهم، التي أعطيت عام ١٩٣٢، تشير بوضوح الى انتماءاتهم القومية. كانت الامبراطورية الرومانية لا تعرف إلا «مواطني» روما و «غير المواطنين». أما مواطنو الاتحاد السوفياتي فينقسمون الى أكثر من مئة قومية. وإذا كانت قد وضعت أبجديات للاتنيات التي لا تعرف الكتابة، وغدت الروسية اللغة الرئيسية. غير أن اللغة الامبراطورية، لغة الادارة والجيش، لم تستطع أن تكون فوق باقي اللغات. هكذا كانت الأمور تجري في الامبراطورية الرومانية. ولكن اللجوء المتكرر الى الأساليب الادارية من أجل فرض اللغة الامبراطورية، أطلق في الاتحاد السوفياتي تيار الثقافات الوطنية المقاومة، وهي التي أصبحت مصدر الصدامات والصراعات.

كان من المفترض أن يأخذ الاتحاد السوفياتي شكل الدولة ذات الطراز الفدرالي، ولكنه تحول الى نظام ذي نمط إتحادي. وهكذا فإن لائحة العناصر المتنافرة التي يتكون منها الاتحاد السوفياتي لا حدود لها.

تتعدد دوافع الأزمة القومية التي إنفجرت في أواخر الثمانينات: اقتصادية، وبيئوية، وأخرى مرتبطة بالاحقاد فيما بين الاتنيات. يتكلم القادة السوفيات كثيراً عن تحريض المتطرفين، والمافيا، فغورباتشيوف يرى وراء «الصدامات بين الاتنيات»، «مجموعات متطرفة»، كذلك الأمر فيما يتصل «بأحداث ما وراء القفقاس، ومنطقة فرغانا، ونوفي أوزن»(١١). والواقع أن كل من الأسباب المثارة ساهمت بتأجيج نار الصراعات القومية، التي اشتعلت في مناطق متفرقة من الاتحاد السوفياتي. ويمكننا القبول بدور معين «للمتطرفين»، إذا كان المقصود به الأعمال التي تقدم عليها قيادات الحزب في الجمهوريات، من أجل الحفاظ على مراكزها. فليس من الصدفة، كما يجب أن يقول الرفيق ستالين، أن تنفجر الاضطرابات الأولى في المناطق التي إستبدل فيها غورباتشيوف مسؤولي الجمهوريات: في ألما ـ أتا، ويريغان، وباكو. فهناك العديد من الشواهد التي تشير الى أن هذه الاضطرابات كانت موجهة من موسكو؛ خاصة في باكو،

حيث جرى التحضير بدقة لإشاعة الفوضى، ما سمح بإرسال الجيش في كانون الثاني ١٩٩٠، لإعادة المسعورين، «الى صوابهم».

تعتبر الأزمة العميقة التي أصابت نظام القيادة، أحد العوامل الأساسية المفسرة للأزمة الوطنية. في ١٩٦٩، ظهر كتاب لأندريه أَمَلْريك تحت عنوان: هل سيستمر الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٨٤؟. هذا الكتاب أظهر فائدة خاصة، ثم جرى وضعه في الظل، يتوقع فيه الكاتب المستقبل الآتي للاتحاد السوفياتي: «تتجه التنظيمات المتطرفة... للعب دور متعاظم. وبموازاة ذلك، سوف نشهد تعاظم قوة الاتجاهات القومية، لدى الشعوب غير الروسية في الاتحاد السوفياتي، خاصة في بلدان البلطيق، والقفقاس، وأكرانيا، ثم في آسيا الوسطى وعلى ضفاف الفولغا». ثم يضيف قائلاً: «في العديد من الحالات، ستنهض الكوادر القومية في الحزب بدور قيادي في هذه الاتجاهات، وذلك إنطلاقاً من قناعتهم التالية: لنترك ايفان الروسي يتخلص من مصاعبه. أضف الى ذلك أن إلتحاقهم بالانعزالية القومية يهدف، الى تجنب الفوضى العامة الآخذة بالتشكل، مع الحفاظ على وضعية إمتيازاتهم»[١٢]. يتسم هذا التشخيص بدقة مذهلة، بإستثناء نقطة انطلاقه: إذ أن أماليك يرى في أساس هذه الأزمة واقع الصراع مع الصين؛ ففي عام ١٩٦٩، كان العديد من المحللين يرون في هذا الصراع أمراً لا يمكن تجنبه. هذا التمثيل يقع تحت العنوان التالي: أن الثورتين الروسيتين في القرن العشرين إقترنتا بحربين ـ ضد اليابان عام ١٩٠٥، وضد المانيا ١٩١٤ ـ ١٩١٧. ولكن الواقع، سوف يثبت إنعدام الحاجة الى الحرب كمعامل مفجر. فمضي ٢٠ سنة من الهدوء الداخلي، قد ترك في النظام أثراً مدمراً. وقد أدّى ضعف المركز الذي ينظر بعين الارتياح الى ظهور عصابات المافيا والحزب في الجمهوريات، مع الحفاظ على نظام قيادة شديد التمركز، الى خلق آلية معاكسة. «فمقود» غورباتشيوف، بدأ بإستعادة حركته، ولكن في غير الاتجاه الذي يتمناه الأمين العام.

أسهم استخدام الصراعات القومية من أجل الوصول الى السلطة، الى جانب تحيز غورباتشيوف وتردده، في تفاقم الأزمة. ولكن هذه الأزمة كشفت السبب الأول لما تواجهه الامبراطورية اليوم من مصاعب: بداية الشك بشرعيتها. ففي عام ١٩١٧ ـ ١٩١٨، وفي الوقت الذي كانت فيه ثلاث امبراطوريات تنهار في القارة، تحولت الامبراطورية الروسية الى امبراطورية سوفياتية. لقد استطاعت الايديولوجية الجديدة أن

تضفي الشرعية على الامبراطورية الجديدة التي ولدت من بين ركام الثورة. كما أن هذه الايديولوجيا كانت بعد الحرب العالمية الثانية من القوة، بحيث استطاعت في ظل أفول العصر الاستعماري للامبراطوريات الغربية، أن تخلق «معسكراً اشتراكياً»، لتضيف إليها في السبعينات «حلقة» ثالثة من البلدان «الشقيقة» في آسيا، وأفريقيا، وأميركا اللاتينية.

أدّت سياسة «تطوير» الاشتراكية التي أطلقها غورباتشيوف، الى توجيه ضربة قوية للعقيدة. كما أن منطق عمله من أجل مركزة السلطة دفع الأمين العام الى انتقاد أعمال أسلافه. ومثلما يؤدي قذف حجر في مياه هادئة الى ولادة الدوائر، فإن النقد الذي باشره امتد ليطاول كافة الأمناء العامين السابقين: من بريجنيف الى خروتشيوف، ومن خروتشيوف الى ستالين، وبشكل يزداد الحاحاً رغم العقبات، من ستالين الى لينين. تركت المحصلة المأساوية لسبعين سنة من التاريخ السوفياتي، الشك حول «عملية» الماركسية اللينينية. تتمثل قوة وضعف الايديولوجيا السوفياتية بتلك العلاقة التي لا تنفصم بين تأثيرها وبين نجاحها: فهي وحدها الصحيحة لأنها تنتصر، وهي تنتصر لأنها الصحيحة. ولكن سبعين سنة من التاريخ السوفياتي، وفي الواقع سبعون سنة من الرعب، والجرائم، والتخلع الاقتصادي، قد أثبتت بشكل ساطع الطابع «غير العلمي» للنظام الذي أنشىء.

الفصل الثالث والعشرون
شقوق في الأسس :

«هو، يجد الله تحت كل حجر، أما أنا، اليتيم المسكين فمن يدافع عني؟»

أغنية الـ «أفغان»

لم يكن الجنود السوفيات يدركون ما يفعلونه في أفغانستان. فالتفسيرات التي كانت تعطى لهم لم تكن مقنعة، ليس فقط بسبب تغيرها الدائم، بل أيضاً لأن الواقع كان يدحضها عند كل خطوة. ثم أن أي تفسير يمكن أن يكون مقنعاً، بشرط الايمان به. أما، الجنود السوفيات فقد كان شعورهم أنهم «أيتام»، وبأن الايمان قد هجرهم.

لم يكن الجنود السوفيات الوحيدون الذين يشعرون بأنهم أيتام، وبأنهم قد أهملوا، فالنقاش كان قائماً حول «الايمان الشيوعي». أما اليوم، فيدور الكلام حول غيابه، الذي يبدو واضحاً إذا ما قارنا بين حالة الشك والنفور التي تطبع عهد بريجنيف، وبين حالة الحماس التي كانت سائدة في العشرينات والثلاثينات. ويشير البعض الى خصوصية معينة تطبع كل دين، وتتمثل بالانتقال من زمن الأنبياء الى زمن الكنيسة. ولقد أدرك ستالين، الذي كان قد درس تاريخ الكنيسة، ما يمثل الايمان الخالص من خطورة عالية على النظام الذي كان يبنيه وفقاً لمخططات لينين. لقد قضى ستالين على المتحمسين دون رحمة. فمنذ عشرات السنين، لم تعد الايديولوجية السوفياتية تنتج الأنبياء أو متعصبي الايمان، مكتفية بالتعلق الشديد بالشعائر، والطقس. هذا الشعائري كان الرباط الذي جمع بين مختلف أجزاء الامبراطورية.

ساهم منطق «البريسترويكا»، والقوانين العنيدة للصراع من أجل السلطة، في إثارة الشكوك، ليس فقط حول العقيدة نفسها، بل أيضاً حول طقوسها. فالنقد القاسي

للأسلاف ـ بريجنيف، خروتشيوف، ستالين ـ ، وسمعتهم السيئة، وتحطيم تماثيلهم، وصورهم، والادانة ـ المتأخرة ـ لجرائمهم، كل ذلك طرح التساؤلات حول لينين. ان النقطة الذروة لهذا النشاط «المعادي للإيقونات»، تمثلت في الاقتراح الذي قدم الى مؤتمر نواب الشعب، والداعي الى حرق جثمان لينين وإغلاق ضريحه. في عام ١٩٦١، اقترح البلشفي العتيق لازوركينا سحب جثمان ستالين من الضريح، مبرراً اقتراحه هذا بحلم مر به، مفاده أن لينين ظهر عليه، راجياً إياه تخليصه من جاره الثقيل. لقد قبل الاقتراح: .ولم يبقَ في النعش الزجاجي إلا مؤسس الحزب والدولة. أما في عام ١٩٨٩، فقد قوبل اقتراح النائب يوري كورياكين بالرفض كما لو أنه نوع من التجديف، بإعتبار أن نعش الايديولوجيا سيصبح فارغاً دون جثمان لينين.

إن الفكرة، التي تم التعبير عنها علانية، والداعية الى إغلاق الضريح، أطلقت موجة من الرياح المرعبة، فبدون صور القديسين، والفاصل الايقوني، وبدون طقوس ـ مثبتة منذ عشرات السنين ـ المهرجانات، والاجتماعات، والادانات، والاحتفالات، ستنفتح الرؤية على هاوية مرعبة.

وعندما أقدم خروتشيوف عام ١٩٥٦، في المؤتمر العشرين، على تقديم «تقريره السري»، مزعزعاً بنيان الاشتراكية للمرة الأولى، تم تسويق الأمر بإعتباره يتعلق بـ «أب صغير للشعوب، وبموهبة كبرى لم تشهد الأزمان نظيراً لها». وكان كافياً التصريح، كما في حالة رئيس فرقة أغنية «دي غاليتش»، بأن «أبانا الصغير، لم يكن في النهاية أباً حقيقياً، بل بغيّاً»، كي نتابع الطريق الذي رسمه لينين. أما السؤال المطروح بعد عشرين عاماً، فيتصل بالطريق نفسه وبالهدف. فإذا كان هدف «البريسترويكا»، «المزيد من الاشتراكية»، كما صيغ في الأصل على يد صانعها. فإن المشكلة تتلخص في أن الجميع لا يعرفون ما هي «الاشتراكية» بالضبط. على الطريق نحو الهدف، تتعدد المراحل المتوجب قطعها: في البداية هناك المرحلة الأولى من الاشتراكية؛ ثم الاشتراكية المكتملة البناء؛ ثم الناضجة؛ ثم المتطورة. . . في فيلم مشهور لأبولادز تحت عنوان: «ندم»، يعالج تاريخ «البريسترويكا» في جوابها الأخير، تجيب بطلة الفيلم رداً عن سؤال من مجهولة قائلة: «كلا، إن هذا الطريق لا يؤدي الى المعبد». ثم تعلق المجهولة: «ما فائدة طريق لا يؤدي الى المعبد؟».

يظهر الفيلم الطريق الذي لا يؤدي الى المعبد. والمعنى الخفي: إن الطريق الموصل يوجد في مكان ما. ولكن تبقى المشكلة الكبرى في أن أحداً لا يدرك مواصفات المعبد. فـ «كلما تقدمت البريسترويكا، يكتب الاقتصادي س. منشيكوف، يزداد السؤال إلحاحاً حول ماهية الاشتراكية ـ إقتصادياً، وإجتماعياً، وسياسياً»[1]. كما أن برنامج الحزب الشيوعي، الذي أقر في المؤتمر السادس والعشرين برئاسة غورباتشيوف عام ١٩٨٥، لم يشكل فريسة للشك. ففي الفصل الأول نجد التأكيد على أن: «المجتمع الاشتراكي، قد تم بناؤه في الاتحاد السوفياتي، على الأقل فيما يتصل بالأسس». وإننا نلحظ بين السمات التسع لهذا المجتمع المثالي، التي يحملها عَلَمه بفخر: «كل شيء في خدمة الانسان، وكل شيء من أجل خير الانسان»، تلك القائمة على «تفوق الايديولوجية الماركسية ـ اللينينية، الانسانوية الأصيلة»[2]. حتى الآن، لم تساور غورباتشيوف أية شكوك، ففي عرضه عام ١٩٨٥لمشروع برنامج الحزب تكلم عن «تفوق الاشتراكية، بما هي مرتبة في تقدم البشرية، على الرأسمالية». فمن الواضح بالنسبة له «ان الاتجاه الأساسي للتطور العالمي» يدفع بإتجاه «تدعيم الاشتراكية الحقيقية»[3]. وفي عام ١٩٨٧، يكتب أحد أبرز منظري غورباتشيوف، الأكاديمي س. سميرنوف، مدير معهد الماركسية ـ اللينينية، مؤكداً قناعته الراسخة بأن «البريسترويكا» تستهدف «إنجاز بناء الاشتراكية وتحسينها، عن طريق تحويل المجتمع السوفياتي نحو إشتراكية متطورة حقاً»[4]. وفي الوقت نفسه يعلن ألكسندر إياكوفليف أن الاشتراكية يجب أن تُدرك وتعي نفسها[5]. ولا تمضي سنتان حتى تظهر الضرورة «الطارئة» لوضع «تصور حديث للاشتراكية، يستجيب لحقائق نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين»[6].

كان التصور السوفياتي للاشتراكية، يتحدد دائماً بنقيضه. ويترجم جواب «الراديو الأرمني» ـ الرأسمالية، هي استغلال الانسان للانسان، أما الاشتراكية، فهي نقيض ذلك ـ بوضوح إرادة منظري الماركسية ـ اللينينية في أن يكونوا النقيض، وأن يجدوا أنفسهم في «المرتبة الأعلى». ولكن ها نحن مرة أخرى نطرح كل شيء بطريقة «مقلوبة»: الاشتراكية تتجه نحو الديمقراطية، والانسانوية، والتسامح. ويعلن الفيلسوف الأكاديمي إيفان فرولوف، مستشار غورباتشيوف، أن «الماركسية هي مذهب إنسانوي حقيقي»[7]. وهكذا فجأة، وبقرار من السلطة العليا، وفي ظل دهشة الجميع، يذوب

الهدف كقطعة ثلج تحت شمس محرقة. ويطلب من سكان الامبراطورية التحلي بالصبر وإنتظار ولادة أخرى جديدة هي قيد التحضير.

وفي أول أيار ١٩٨٩، سمع المواطنون السوفيات النداء الطقسيَ للجنة المركزية: «لتحيا وتتطور تعاليم الماركسية ـ اللينينية، الأساس الايديولوجي للتجديد الثوري الاشتراكي»[٨]. وبعد مضي عام على هذا النداء، سمع السوفيات، عشية الأول من أيار ١٩٩٠، دعوة اللجنة المركزية: «لنوجه جهودنا، من أجل بناء اشتراكية انسانية النزعة، وديمقراطية»[٩]. لقد ولدت الصيغة الجديدة. ويشرح غورباتشيوف، معللاً الدعوة إلى انعقاد مؤتمر إستثنائي للحزب، فيقول: «إننا بصدد إيجاد طرق لتجديد الاشتراكية...»[١٠]، وفي اليوم نفسه، يعلن، في معرض حديثه عن السياسة القومية الجديدة للحزب، «إن التجديد الثوري للمجتمع الاشتراكي السوفياتي هو الحجة الرئيسية الدافعة بإتجاه تدعيم وحدتنا»[١١].

يتبّدا منطق الصيغة الجديدة على النحو التالي: أن الاتحاد السوفياتي قد بنى المجتمع الاشتراكي؛ أما في الوقت الحاضر، فإن المطلوب، حسب تعبير إيوسيف برودسكي، التوقف في الصحراء والمباشرة بأعمال الترميم، أو ربما إعادة بناء كاملة. بتعبير آخر، المطلوب «بريسترويكا». إذاً المرحلة اللاحقة في تطور الاشتراكية تتمثل في: التجديد. ويكفي أن تحذف «تشوهات» الاشتراكية، العائدة الى ستالين، كي يفتح الطريق المؤدي الى «المعبد». بشكل مستقيم. إن برنامج الحزب الشيوعي، لا يساوره الشك، حتى للحظة واحدة، «فالشيوعيون السوفيات مقتنعون بأن المستقبل للاشتراكية». حتى أن المؤتمر الثامن والعشرين، المنعقد قبل أوانه، لم يتبنَّ البرنامج الجديد، وأكتفى بالموافقة على برنامج عمل سياسي للحزب، ذي طابع ظرفي، أو يعكس «رؤية مباشرة» حسب تعبير غورباتشيوف. بقي اليقين بأن المستقبل للاشتراكية، القانون الأكبر للشيوعيين. أما المهمة الراهنة، التي فرضتها على المنظرين الأزمة العامة للشيوعية، بإيجاد قاموس جديد يسمح بالتعبير عن هذه القناعة التي لا تمس. وما نراه الآن في الاتحاد السوفياتي لا يحدث للمرة الأولى. ففي عام ١٩٢١، إتجه لينين بكل قوته نحو سياسة الـ NEP، رامياً كافة الشعارات الداعية للشروع فوراً في بناء الشيوعية. تخلص ستالين، إبان صعوده الى السلطة من القاموس الثوري دون أية شفقة، مستبدلاً إياه بقاموس الدولة. وفي تشرين الثاني ١٩٤١، تكلم ستالين في

الساحة الحمراء، في حين كانت الدبابات الالمانية لا تبعد عن وسط العاصمة أكثر من عشرين كيلومتراً، ليضيف الى الفاصل الايقوني، والى جانب كبار الاستراتيجيين الروس، ألكسندر نيفسكي، دمتري دونسكوي، سوفروف، وكونوزوف.

تهدف كافة التقلبات الايديولوجية إلى ضمان إستمرار الامبراطورية. فقد كتب الناطق الرسمي بإسم الأعداء القدامى لثورة أكتوبر، نيكولاي أوستريالوف، وقد حركته الوطنية الروسية، في عام ١٩٢٠ ما يلي: «يجب أن تبقى روسيا قوة عظمى، ودولة كبيرة... وبما أن سلطة الثورة - وحدها راهناً - هي القادرة على إعادة بناء القوة الروسية، وفرض احترامها على الصعيد العالمي، فإن من واجبنا، باسم الثقافة الروسية، الاعتراف بسلطة الثورة السياسية[١٢]. ومن الواضح بالنسبة لأوستريالوف أن «السلطة السوفياتية تحاول بكل الوسائل ربط التخوم بالمركز، بإسم الثورة العالمية. ان الوطنيين الروس يناضلون من أجل الهدف نفسه، ولكن باسم روسيا الكبرى الموحّدة. وبالرغم من الاختلافات اللامحدودة بين الايديولوجيات، فليس هناك إلا طريق واحد فقط»[١٣]. إذاً، فالاختلافات الايديولوجية تعتبر شأناً ثانوياً، ويؤكد اوستريالوف قائلاً: «من أجل إنقاذ السوفيات، تضحي موسكو بالشيوعيين»[١٤]. ان مُنظّر «تغيير المعالم» يصف السياسة الاقتصادية الجديدة (NEP)، بـ«برست اقتصادي للبولشفية».

يشير الصحافي البلشفي ألكسندر فورونسكي، في معرض نقده لتصريحات اوستريالوف ومحبذي أفكاره، الى الخطأ الذي يرتكبونه: «انهم لا يدركون أن السياسة الاقتصادية الجديدة، لا تعمل إلا على تصحيح أخطاء الماضي، وبأنها لا تنفيها... إنهم يتحدثون عن انهيار الشيوعية، فيما يتضح أن ما يجري ليس إلا أحد أساليب العمل الشيوعي، وهو أسلوب عمل يبقى شيوعياً». رغم تمايزه[١٥].

لم يتوصل نيكولاي اوستريالوف الى معرفة الجواب على السؤال الثاني: «هل الراية الحمراء هي التي تُزيّن قصر الشتاء أم الأمر على العكس من ذلك، أي أن قصر الشتاء هو الذي يرفع الراية الحمراء؟» ولكنه عرف بالمقابل، بأنهما يتساندان لتحقيق هدف واحد ألا وهو الحفاظ على القوة العظمى. الشيوعية والسوفيات، السوفيات والشيوعية. لذا كان الجهد المنصب على توفير الأوزان المناسبة والمزاج المناسب لهما، الهم الأكبر للقيادة السوفياتية: إذ أن أية زيادة تطرأ على احداهما تنعكس سلباً على العنصر

الآخر. وفي المرحلة التي تلي، أي عشية أزمة جديدة، تنجز عملية معاكسة، مع الحرص فقط على الحفاظ على مقومات التركيبة. أقدم لينين على شعشعة الأممية ببعض قطرات من القومية. أما ستالين، فقد زاد الجرعة بشكل ملفت. لذا كان أوستريالوف يعتبر: «أن البلشفية، بتأثيرها الدولي، وعلاقاتها القابضة، تمثل وسيلة فعالة لسياسة روسيا الدولية. . .»(١٦) والامكانية الوحيدة لإنقاذ الامبراطورية. وبعد نصف قرن على هذا الكلام، كتب أندريه أماليك «أن العقيدة الماركسية عملت على تأخير إنهيار الامبراطورية الروسية»، مضيفاً: «ولكن ليس بإستطاعتها أن تمنع ذلك»(١٧).

لم تأتِ المحاولة الجديدة لانقاذ الامبراطورية ومنع انهيارها، بأي شيء جديد في ميدان الأفكار والوسائل. لقد ظهرت شعارات جديدة. وعلى غرار محبي الشعوب السلافية في القرن التاسع عشر، لم يتوقف منظرو «البريسترويكا» عن الحديث عن «السلم والوفاق». ويكرر ألكسندر إياكوفليف ذلك قائلاً: «ان الصراع القائم يهدف الى الوفاق»، «إذ أن أي نظام، بما في ذلك النظام الكوني، هو قبل كل شيء نظام تناقضات تترابط بشكل متناسق»(١٨). ويطيب لغورباتشيوف الكلام عن التناسق. لأن ذلك يقوده مباشرة الى الحديث عن «التداخل»، و «الكل المكتمل»(١٩).

من المعروف، أن الجديد هو دائماً القديم المنسي. ففي ١٩٢٦، كتب أندريه بلاتونوف في قصة نقدية، يقول «في الحقيقة، ولأول مرة، يحتفل عقل الإنتظام الكوني المتناغم بإنتصاره في روسيا ١٩١٧!». ويسجل بطل الرواية وهو بيروقراطي متنور بعض الملاحظات حول الموضوع: «إن عملية تأسيس «السوفيات» ما هي إلا بداية لعالم متناغم»(٢٠). أما شعارات الأول من أيار ١٩٩٠ فتعلن: «لتنتصر القيم المشتركة للانسانية جمعاء!».

لقد جف «الصمغ» الايديولوجي، ولم يعد قادراً على حفظ القِطع كوحدة متماسكة. وإذا كان برنامج الحزب الشيوعي المعمول به، والذي تم تبنيه في عام ١٩٨٦، قد أكد على أن المسألة القومية قد سويت في الاتحاد السوفياتي، فإن الأحداث اللاحقة أثبتت بطلان هذا التأكيد. في أيلول ١٩٨٩، يعترف غورباتشيوف: «بكل تأكيد، نحن ندرك وجود مشاكل قومية غير سهلة. . . ولكن، ضخامة التحولات التي بلغت مرحلة النضوج، لم تظهر هنا إلا في وقت متأخر. . .»(٢١) وخلال عام ونيف،

كان الأمين العام يعد، ثم يؤجل وعده لأكثر من مرة، بعقد جلسة مكتملة للجنة المركزية تخصص لمعالجة المسألة القومية، وإيجاد الحلول لهذه المشاكل «غير السهلة»، على حد تعبير غورباتشيوف، والتي تركت آثاراً دامية في القفقاس، وآسيا الوسطى، ومناطق أخرى من البلاد. تثبت تصريحات قيادة الحزب في الجلسة المكتملة، وجود الأزمة القومية.

أما السياسة القومية الجديدة لغورباتشيوف، والتي ينتظرها الاتحاد بفارغ الصبر، فتعد بإصلاح جديد، ولكنه لا يصلح شيئاً. فالكلمة المفتاح لبرنامج العمل الجديد للاتحاد السوفياتي هي: «إملأ بمضمون جديد». ورفض شعار: «أتلفْ حتى الجذور»، كذلك رفض المطالبة بإجراء «بريسترويكا للحدود وتغيير صورة التوجهات القومية»، فما يعد به برنامج العمل هو «إعطاء مضمون جديد للفدرالية السوفياتية»، و «إعطاء مضمون واقعي جديد للحق بالتوجهات القومية»[٢٢]. ولكن الانجيل أشار منذ زمن بعيد إلى إستحالة ملء الجرار القديمة بخمر جديد. هذا هو الجوهر الحقيقي للسياسة القومية لغورباتشيوف. ويلخص السكرتير الأول للحزب في باشكيري الوضع قائلاً: إن برنامج العمل «لا يظهر أية محاولة مهما قل قدرها، للقطع مع وجهات النظر السائدة، وقد أبقى البنية الهرمية لنظام الدولة ـ القومية دون أي تعديل»[٢٣].

تسمح السياسة القومية الجديدة ـ حسب غورباتشيوف ـ للحزب الشيوعي السوفياتي، بتوظيف ايجابي للامكانيات، التي ينطوي عليها المستوى الفدرالي: غياب ـ حتى الآن ـ ، أية حركات ذات شأن في غالبية الجمهوريات، ترمي الى تحقيق الانفصال عن الاتحاد؛ كذلك تبرز طبيعة الروابط بي الجمهورية وضعفها الاقتصادي، والمرتبطة بالمركز. وتعمل «البريسترويكا» القومية على اطلاق عدة آواليات للجم الاتجاهات النابذة للتمركز. فبالامكان اللعب على التناقضات الداخلية للجمهوريات عن طريق إبراز «العوارض المرضية للأخ الأكبر». فرغبة الأنجاز في توسيع حقوقهم يترك الانطباع لدى الجيورجي بأن كل واحد قد يجد نفسه في وضعية «الأخ الأكبر». وفي ايستونيا تظهر مشكلة الروس، وفي مولدانيا مشكلة الفاغاو، وفي أوزبكستان مشكلة المشكت، وفي ليتوانيا مشكلة الأقلية البولونية، إلخ. ويذكر غورباتشيوف في معرض كلامه في الجلسة المكتملة بأن الاتحاد السوفياتي يضم قرابة ٦٠ مليوناً من «المهاجرين»، بتعبير آخر مواطنين لا يقنطون في جمهورياتهم «الأصلية». ولا يجدون ملجأ لهم إلا في موسكو.

إن الحركة الاستقلالية قد ولدت، وهي مستمرة بالنمو والاتساع في الجمهوريات السوفياتية. أما الأقاليم التي تتمتع بالاستقلال الذاتي - أنجازي، وكاراكلباكي، وأوسيتي، ونوفا: : : وأقاليم أخرى -، فإن خوفها من النزعة القومية الفتية الناشئة في جمهورياتها والداعية للخروج من الاتحاد، يدفعها الى التمسك بسلطة مركزية وقوية تضمن لها أمنها. تسلك عملية إخماد الحرائق الاتنية المسار نفسه: تتيح السلطات الفرصة للعواطف الثائرة بالاشتعال، وذلك قبل أن تلجأ الى اتخاذ الاجراءات المناسبة لوضع حد للنهب والسرقة، والاغتيالات. الأبرز لهذا المخطط في قبول السلطة للطوق الذي ضربته أذربيجان حول أرمينيا لمدة خمسة أسابيع، بقرار من الجبهة الشعبية في أذربيجان. أما المركز فلم يتدخل، تاركاً إحدى جمهوريات الاتحاد تواجه قدرها، ومعطياً الانطباع بأن الاتحاد يدعم أذربيجان في مواجهة أرمينيا. وقد تم تنفيذ السيناريو نفسه في باكو: لم تدخل القوات العسكرية للاتحاد الى المدينة إلا بعد مرور أيام من المذابح.

أظهر النظام السوفياتي على الدوام قدرة عالية على التعامل مع ظروف الأزمة. فهو يملك كفاءة عالية في إيجاد الحلول للمشاكل، عن طريق أساليبه الارادوية والقمعية. فمن وجهة نظر السلطة، تنطوي الصراعات القومية على عنصر إيجابي: إذ تخلق مناخاً من انعدام الأمن، والتهديد، والفوضى، الأمر الذي يستدعي الحاجة الى مركز، الى أب قوي وعاقل يستطيع فرض النظام.

مع مرور خمسة أعوام على الغورباتشيوفية، ما يزال السؤال حول مصير الامبراطورية يطرح نفسه بكل أبعاده. وهناك طريقتان لمواجهته: كيف نحافظ على الامبراطورية؟ وكيف نخرج منها؟ يعترف غورباتشيوف بخطورة الوضع ويسعى الى إيجاد العلاج المناسب، ففي ٣ نيسان ١٩٩٠، أشار الى القانون المتصل «بطريقة حل المسائل المتعلقة بخروج جمهورية حليفة من الاتحاد». هذه الطريقة تبدو معقدة وكثيرة الالتواءات، الأمر الذي يسمح لموسكو برسم العديد من الخيارات التي تعيق، أو تمنع الانفصال: مع الاقرار بوجود المشكلة. والعمل على تهدئة اللعبة.

في ربيع ١٩٩٠، سعت جمهوريات البلطيق الى إيجاد مختلف الوسائل التي تؤمن لها «الذهاب». وتثبت تجربتها من جهة، إرادة موسكو في المراقبة الحازمة للوضع، ومن جهة ثانية دعم الغرب لسياسة غورباتشيوف.

وكما يفعل فريق المنطاد، يلجأ المنظرون السوفيات الى رمي الأثقال من أجل إستئناف الصعود. هذا ما يدعو إليه ألكسندر اياكوفليف بقوله: «علينا أن نرمي المومياءات المهترئة من العقائد الجافة والأساطير والصيغ الجامدة»(٢٤). لم يبق من الايديولوجيا، إلا معطى واحداً: الحزب. وعلينا ـ يقول غورباتشيوف ـ لن نعمل على تصليب الحزب، تلك هي المهمة الأساسية للسلطات. وهو يؤكد على جدلية السياسة الجديدة للحزب الشيوعي في مواجهة المسألة القومية: إننا ننطلق في عملنا من أجل توسيع الحقوق السياسية والاقتصادية للجمهوريات، وتدعيم استقلالها الذاتي، وإطلاق مبادرات الإستقلال عن المركز بهدف تحفيز حركة الناس، «من فكرة أن الحزب يجب أن يلعب، وبحدود واسعة، دوره في تدعيم وحدة الشعوب حول البريسترويكا»(٢٥). التوسيع والتصليب، الاستقلال والتوحيد، هذا هو دور الحزب. في عام ١٩٢٣، أخذ شيوعيو الجمهوريات، إبان مؤتمر الحزب، على دستور الاتحاد السوفياتي بأنه يتبنى موضوعة «روسيا الواحدة التي لا تتجزأ». عندها شاع الرد التالي: ليست روسيا، بل «الحزب الواحد الذي لا يتجزأ».

يبقى الحزب الشيوعي القوة الكبرى، والرباط الأول «للاتحاد الخالد». ولكن هل ترفض السياسة القومية الجديدة إمكانية حصول إتحاد فدرالي للحزب: أي وجود أحزاب شيوعية مستقلة لها سيادتها ضمن إطار الجمهوريات وما يشكله ذلك من إسهام في تفكك الاتحاد الفدرالي بصورته القائمة.

في هذا الميدان يدافع غورباتشيوف عن مواقف ثابتة: مستنداً بلا شك الى لينين. ففي إطار تحديد موقف الحزب من المسألة القومية، يؤكد تروتسكي على «الطابع الجدلي»: يطبق البلاشفة في نضالهم من أجل ممارسة الشعوب حقها في تقرير المصير، «ضمن إطار الحزب ومجموعة التنظيمات العمالية، سياسة المركزة بدقة عالية». ويضيف تروتسكي ـ الذي أعيد له الاعتبار ـ أن لينين «يرفض بشكل قاطع المبدأ القومي ـ الفدرالي في تنظيم الحزب. فالتنظيم الثوري ليس النموذج البدائي الذي تحتذي به الدولة المستقبلية، بل أنه مجرد آداة لتحقيقها». ويجترح مؤسس الجيش الأحمر هذه الحكمة: «ان الوسيلة تستخدم من أجل تحقيق الانتاج، ولكنها لا تتضمنه في داخلها»(٢٦).

يعتبر الحزب بالنسبة لنبي الفكرة الشيوعية، الوسيلة الأهم والأكثر قدرة، بل

السلاح الأقوى. فهذه الفكرة تكون مسلحة، عندما يتوفر الحزب الذي يؤمن لها إمكانية الانتصار. لذا نرى من الطبيعي أن يكون الحزب ذا «الطراز الجديد»، والذي أسسه لينين وطوره ستالين، محور السياسة الغورباتشيوفية.

إبان السنوات الأولى من «البريسترويكا»، إتبع غورباتشيوف النهج السياسي التقليدي لأسلافه في إستلام السلطة: تغيير الكوادر، بناء جهازه «الخاص». ليتضح بعد ذلك شيئاً فشيئاً أن تصور «حزب الجماهير» قد أضحى عتيقاً. فالعديد من الخبراء العسكريين يقترحون تحويل الجيش السوفياتي الى جيش محترف. كما أن هناك فكرة مشابهة حول الحزب تغري مستشاري غورباتشيوف. ففي نهاية القرن العشرين، وفي ظل ظروف مغايرة لتلك التي كانت السائدة في عصر التحضير «للثورة البروليتارية»، إبان فترة «بناء الاشتراكية في بلد واحد»، يصبح الحزب الذي يضم في صفوفه قرابة الـ ٢٠ مليون عضو، معطى لا ضرورة له. كما أن تجربة البلدان الاشتراكية السابقة، أثبتت أن الأحزاب الجماهيرية تنهار كبيوت من الورق، وبأن العدد لا يضمن بالضرورة قوة الحزب الشيوعي. فملايين الأعضاء الحزبيين في بولونيا، وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا، وغيرها، لم يقدموا على أية حركة بغية الدفاع عن «سلطتها».

تدفع هذه الشواهد خلال سنوات الـ «بريسترويكا» هذه، للقول أن موسكو تعمل على بلورة نموذج «حزب الثوريين المحترفين»، كما قال لينين في مطلع القرن العشرين، ومن الممكن أن يتخلى الحزب عن المادة السادسة من الدستور، التي تضمن له احتكار السلطة، إلا أنه وسيبقى ممسكاً بناصية السلطة، وذلك كونه سيبقى أكبر قوة منظمة في البلاد.

ان فكرة «الحزب المحترف» تفسر السهولة التي تم بها تسجيل العديد من الأحزاب، والتجمعات والحركات المختلفة في الاتحاد السوفياتي. إضافة الى أنَّ هناك شعوراً بأن قوى «خفية» تشجع على خلق المزيد من الأحزاب الجديدة والتنظيمات. وبشكل عام، فإن عدد أعضاء كلٍ من هذه الأحزاب والتجمعات، لا يزيد عن العشرات، وأحياناً عن المئات، ولتقلّ ألفين أو ثلاثة آلاف عضو في بعض الأحيان.

يأمل غورباتشيوف، أثناء التحضير للمؤتمر الثامن والعشرين للحزب الشيوعي، أن يترك جزءاً هاماً من الأعضاء غير المنضبطين الاطار الحزبي قبل انعقاد المؤتمر، وأن

يترك أعضاء آخرون أثناء المؤتمر. وبذلك يبقى غورباتشيوف مع «حزبه»، الخفيف الوزن، «المزال دسمه»، القوي العضلات، والذي يمتلك إمكانيات مادية هامة ويمسك برافعات آلة الدولة. ولقد اتضحت أهداف الحزب من خلال النداءات التي أطلقتها اللجنة المركزية في مناسبة الأول من أيار ١٩٩٠: «أيها الشيوعيون، أكدوا بأعمالكم الملموسة الدور الطليعي للحزب الشيوعي السوفياتي!». ولم يتوقف غورباتشيوف عن الترداد: «... يحتاج المجتمع لحزب طليعي له هويته الاشتراكية»[٢٧].

إن الحزب «الجديد»، حزب غورباتشيوف، سوف يبني بواسطة نمط جديد من «التطهير»: فإذا كان ستالين قد لجأ الى التصفية الجسدية لأعضاء الحزب «القديم»، بهدف تحرير مساحة لجماعته، فإن السكرتير السابع، يخيرهم بين الوقوف الى جانبه أو ترك الحزب بذريعة فقدانهم لسلطتهم. لقد تبنى الحزب «الجديد» كأساس نظري «ايديولوجية التجديد»، التي تحتفظ بكافة أدوات الحزب المتمثلة بالعقائد الجامدة الشديدة القدم.

«ان اللجنة المركزية، تعلن تبنيها الكامل للفكر الخلاق الذي يتضمنه التصور المادي للعالم والمنهجية الجدلية لماركس، وأنجلز، ولينين»[٢٨]. ويثبت المنظر المميز، فاديم مدنديف، هذه القناعة قائلاً: «ان المحاولات الرامية الى إعادة النظر بتعاليم ماركس، وأنجلز ولينين... لا تستند الى أي أساس، وهي عقيمة»[٢٩]. ويكتب غورباتشيوف بحماس قائلاً: «يبقى لينين بالنسبة لنا المفكر الأكبر للقرن العشرين، الذي استطاع سبر أغوار الكائن الاجتماعي، نظراً لتمكنه من الترسانة الواسعة لمعارف عصره»[٣٠].

المادية التاريخية، والمادية الجدلية، وتعاليم ماركس، وأنجلز، ولينين: قاموس أصبح أليفاً لا يُقاوم، قاموساً لا يقدم غورباتشيوف على رفضه. وهذا ما يفهم من حديثه مع عمال الأورال: «علينا أن نغير ونحذف العديد من الأشياء. ولكن دون المساس بالأسس»[٣١].

بتعبير آخر، علينا تغيير الديكور، وبعض التفاصيل، مع السعي الى الحفاظ على الأسس المتجسدة بالاشتراكية و «التعاليم». ويبقى الديالكتيك الذي كان في أساس

استراتيجيةو وتكتيك آباء النظام الاشتراكي، السلاح المفضل عند غورباتشيوف: «يرى غورباتشيوف «أن الماركسية لم تكن يوماً ذات طابع دوغمائي بالنسبة للينين». هذا الأمر صحيح. وستالين، بدوره، أكد ذلك بدقة ومن خلال هذه الحكمة: «أن الماركسية ليست دوغمائية. إنها دليل عمل»[1].

بهذا المعنى ليست «إيديولوجية التجديد»، وهي التصور الوحيد للعالم بالنسبة للـ «بريسترويكا، إلا نسخة جديدة ـ ديالكتيكية ـ عن الايديولوجية السوفياتية المعروفة. تلك هي حالة حرس نابليون، الذين ماتوا دون أن يستسلموا. مع فارق وهو أن حرس نابليون كان يدرك أن أيامه باتت معدودة، في حين أن «ايديولوجية التجديد» لا تريد أن تقتنع بأنها دخلت مرحلة النزع الأخير.

الفصل الرابع والعشرون
المسألة الروسية

«توجه شعوب بلدنا تحية إكبار عميقة وعرفاناً بالجميل للشعب الروسي الكبير، بسبب ترفعه وأمميته الصريحة، وإسهامه الذي لا يحد في تأسيس وتطوير وتصليب الاتحاد الاشتراكي للجمهوريات الحرة والمتساوية في حقوقها...»

غورباتشيوف، ٢ تشرين الثاني، ١٩٨٧

«...من الجائز أن تعمل روسيا على مغادرة الاتحاد، لأنكم تتهمونها بكافة الأخطاء، وبأن نموها البطيء وثقل حركتها يعيقا تطلعاتكم التقدمية؟»

فالنتين راسبوتين، ٦ حزيران، ١٩٨٩

عام ونصف يفصل بين إكبار غورباتشيوف المتفائل، والذي يستعيد كلمة قول ستالين: «في صحة الشعب الروسي، لأنه الأمة الأعلى بين الأمم المكونة للاتحاد السوفياتي»(١)، وبين الصرخة اليائسة، والصادرة من أعماق القلب، لفالنتين راسبوتين في مؤتمر نواب الشعب. يرى غورباتشيوف أن من الضروري مدح الشعب الروسي باسم كافة شعوب الاتحاد السوفياتي، بمناسبة إحياء الذكرى السبعين لثورة أكتوبر، «لاحظاً الانجازات الهامة التي حققتها السياسة القومية للينين». في حين نرى فالنتين راسبوتين يسخر بمرارة من حالة نكران الجميل التي تظهرها هذه الشعوب، عبر اتهام نوابها لروسيا وللمواطنين الروس بأنهم مسؤولون عن المصائب التي حصلت طوال السبعين السنة المنصرمة.

يثير ظهور التشققات في جدران الامبراطورية، والهبوط العميق للأساس الايديولوجي، الاحساس بأن الانهيار وشيك الوقوع. أن متوسط عمر الامبراطوريات الكبرى يتراوح بين ٣٠٠ ـ ٥٠٠ عام، مع وجود بعض الامبراطوريات التي تقاوم لمدة أطول. في حين أن الامبراطورية الروسية قد ولدت منذ ثلاثمئة عام تقريباً. ونستطيع القول اليوم، وبعد سبعين عاماً على وجودها كإتحاد سوفياتي، انها قاربت الانهيار؟ ان أية محاولة لاستشراف المستقبل تبدو عقيمة. فقط الأنبياء وكبار المبدعين يستطيعون ذلك. لقد كان بإستطاعة آدم مكيويسز أن يسبح بعيداً في بحر الزمن، ليتوقع السقوط المتتالي لثلاثة امبراطوريات كانت تتقاسم بولونيا. من كان يتوقع ذلك، في عام ١٩١٧ ـ ١٩١٨؟ لا أحد، لأن أي شخص لم يكن ليتوقع جنون الحرب العالمية الأولى.

فالحركات القومية، الآخذة بالانتشار منذ أواخر عام ١٩٨٦، ستصبح مع مرور عقد من الزمن، قوة نابذة للتمركز مما يشكل خطراً مباشراً على الاتحاد. في آذار ١٩٩٠، أعلنت ليتوانيا استقلالها، وسوف تتبعها أستونيا وليتونيا. أضف الى ذلك أن مشكلة الخروج من الاتحاد بالنسبة لدول البلطيق، لا تطرح نفسها بالعنوان القومي فقط، بل أيضاً بالعنوان الحقوقي: فالجمهوريات الثلاث، التي صودرت سيادتها إثر معاهدة ستالين ـ هتلر، قد قررت إعادة الأمور الى نصابها الطبيعي. فيما كانت موسكو تتصدى بقوة لهذا الوجه، عبر تطبيق الحظر الاقتصادي على ليتوانيا. ويعلن غورباتشيوف تخوفه من أن يؤدي هذا الخروج «غير المنظم»، و «غير المسموح به»، الى عدوى متسلسلة، تدمر الامبراطورية. ولكن في الواقع، فإن مناطق البلطيق، التي ربطت بالاتحاد السوفياتي في عام ١٩٤٠، كانت تعتبر دائماً مناطق أجنبية الى حدٍ ما. ولكن احتمال توسيع حكمها الذاتي يبدو وكأنه خطوة جديدة نحو «إعطاء الاتحاد الفدرالي مضموناً جديداً». الأمر الذي قد يترتب عليه تحويل هذه الجمهوريات الى واجهات للاتحاد السوفياتي، أو هونغ كونغ سوفياتية. ولكن السلوك غير المراقب لليتوانيا، ثم للجمهوريتين الأخريين، يثير غضب الأمين العام ـ الرئيس.

أما بالنسبة للحركات القومية في القفقاس، فإنها لا تثير انتباه موسكو، التي تراهن على تصفية هذه الحركات لبعضها البعض. كما أن الأسلوب القمعي الذي استخدم من أجل إعادة الهدوء الى تبليسي وباكو، يظهر طبيعة الوسائل التي يملكها المركز. فالصراعات الداخلية ذا الطابع الدموي، والتي يغض النظر عنها، هي مثال صارخ

للسلبيات التي ترافق حالة «الفوضى». فما يحويه إقليم القفقاس من تعدد للأقوام التي تعيش فيه، يسمح لغورباتشيوف بالمناورة. بتعبير آخر، فإن الاضطرابات في المحيط لم تصل بعد الى تهديد وحدة الامبراطورية.

تمثل جمهوريات آسيا الوسطى مناخاً ملائماً لنشوء الحركات القومية. ولكن، وبإستثناء بعض الحركات المحلية ذات الطابع الدموي (وادي فرغانا، نوفي أوزن)، فإن الحركة القومية لم تستطع بعد، أن تتخذ شكلاً منظماً، يشبه ما يحصل في بعض الجمهوريات. وتعبر النزعة القومية عن نفسها بشكل عفوي. وهي في الغالب ذات أسباب اجتماعية ـ فمن بين هذه الأسباب وقبل كل شيء، البطالة المتصاعدة. إن السمة الضعيفة نسبياً للحركات القومية في آسيا الوسطى، متأتية من تبعيتها الكاملة للمركز على المستوى الاقتصادي، أضف الى ذلك المراكز التي تتبوأها النخب المحلية، ونظام الفساد الذي يضمن الإستقرار.

طالب السكرتير الأول للجنة المركزية في كازاخستان نور سلطان نازاربايف، الذي حل في عام ١٩٨٩، مكان غينادي كولبين حيث أدّت تسميته لهذا المنصب الى حصول اضطرابات ألما ـ أتا عام ١٩٨٦، في مداخلة له أمام اللجنة المركزية حول المسألة القومية، ببعض المطالب المحددة من المركز: الاستقلال الاقتصادي الكامل ضمن إطار الاتحاد الفدرالي؛ الاستقلال السياسي ضمن الحدود المرسومة ودون أي إبهام في الدستور. ثم يضيف قائلاً: «من المهم أن لا نذهب بعيداً في الضغط على السدادة، وأن لا نذهب في إضعاف المركزية الى الحد الذي تبدأ بعده الفوضى». وهو يعلن أيضاً تمسكه الحاسم بوحدة الحزب معتبراً أن الحفاظ على تماسك الحزب «هو بمثابة ضمانة لقوة الدولة الاشتراكية المتعددة القوميات»[٢]. بالمقابل، يلحظ ن. نازاربايف أن ما تشكل «في موسكو، يكشف احتكار إحدى القوميات للقيادة». ويطرح السؤال: «كم يبلغ عدد ممثلي الجمهوريات القومية بين وزراء الحكومة؟ وبين ممثلي الشعب في اللجنة المركزية، وهل سبق ولمحتم أوزبكياً أو كازاخي في هذه المناصب؟ أو في قيادة وزارة الدفاع، والـ KGB ، أو وزارة الداخلية في الاتحاد السوفياتي؟»[٣]. لا يمكن الطعن بمشروعية هذه المطالب، ولكنها تتجاوز في الحقيقة إمكانيات النظام الفدرالي السوفياتي.

تعتبر أوكرانيا الاقليم الثاني الذي يمتلك من الامكانيات ـ مجال جغرافي، طاقات

بشرية، ثروات طبيعية، صناعة، زراعة ـ ما يكفي لتفجير الامبراطورية. لم تأخذ الحركة القومية الأوكرانية أشكالاً منظمة وإمتداداً سياسياً إلا في عام ١٩٨٩. أدركت موسكو هذا الوضع عند عزلها لفلاديمير شتشربيتسكي، الذي أسهم في «تجميد» أوكرانيا في عصر ال «بريسترويكا». وعندما بدأت أساليبه تفقد من فعاليتها، ودّع مركزه كسكرتير أول للجمهورية. أما من خلفه فقد كان يشبهه تشابه نقطتي ماء، لولا أنه شخص أكثر فتوة منه.

يلحظ إ. إلتشنكو، سكرتير اللجنة المركزية للجمهورية، في معرض تشخيصه للوضع في أوكرانيا، «النمو المتسارع للوعي الوطني»، دون أن يمنعه ذلك من تبني السياسة «الجديدة» المتعلقة بهذه النقطة، لأنه لا يرى أي مخرج إلا في «إقرار المبدأ اللينيني حول حق الشعوب في تقرير مصيرها». ولكنه مع ذلك يتقبل ظهور «حركات عفوية»، يطرح بعضها «برنامج عمل في ظاهره معادٍ للاشتراكية، ويرتكز في الغالب الى الاتجاه القومي البرجوازي». وينبه سكرتير الحزب في أوكرانيا الى أن «القوى الهدامة» يتم «تحريكها بشكل مكشوف»، خاصة في لغوف، وترنوبول، وايفانوفو ـ فرانكوفسك، أي بتعبير آخر في هذا الجزء الغربي من أوكرانيا التي ألحقت بالاتحاد السوفياتي بعد معاهدة هتلر وستالين. غير أن «القوى الهدامة»، بدأت بالتحرك داخل العاصمة، كييف. عندها أطلق إ. التشنكو صفارة الانذار: ذلك أنه إذا ما جرت الانتخابات، فسوف تضع هذه القوى يدها على السلطة. لذا يسارع الى الموافقة على اقتراح القانون الذي يحدد الشروط التي تسمح بتفكيك أو منع «المجموعات القومية أو الشوفينية»(٤).

عام ١٩٨٩، تطور الوضع في أوكرانيا بسرعة كبيرة. فقد تم تأسيس الـ «روخ» ـ الحركة الشعبية في أوكرانيا من أجل «البريسترويكا» ـ على يد لجنة الحزب في شعبة كييف لاتحاد الكتاب، وسرعان ما تحولت هذه الحركة الى قوة فاعلة وتغيّرت طبيعتها. فقد بدأت قيادة الـ «روخ» بترك الحزب، وطرح شعارات ذات طابع راديكالي متصاعد. وفي انتخابات نواب الشعب في أوكرانيا، توصلت الـ «روخ» الى إيصال عدد هام من مرشحيها، بلغ ١١٥ من أصل ٤٥٠ نائب، الأمر الذي أمّن لها موقعاً معارضاً ذا شأن. لقد كشفت الانتخابات واقع التنوع داخل أوكرانيا. فقد صوتت أوكرانيا الغربية لصالح ممثلي الكتلة الديمقراطية: مرشحو الـ «روخ». ففي منطقة «لغوف»، بلغ عدد

منتخبي الديمقراطية أكثر من مجموع ما فازت به في الدوائر الـ ٢٤ الأخرى. أما أوكرانيا الشرقية فقد صوتت أساساً لصالح مرشحي الحزب، خاصة في المناطق الأكثر ريفية: الدونباس، وكاركوف.

يرى أحد مسؤولي الـ «روخ»، ميخائيلو غوريون، أن خط سير الحركة الوطنية الأوكرانية «يذكرنا بخط السير الذي سلكته «ساجودي»، والتي بدأت عملها بطرح السؤال حول مكانتها داخل الائتلاف، ثم ومع الوقت، أنجزت الاستقلال الكامل لليتوانيا»(٥).

أدت انتخابات ربيع ١٩٩٠ للمجالس المحلية إلى إيجاد وضعية جديدة تماماً: فقد إستطاعت الـ «روخ» تحقيق الغلبة في لغوف وترنوبول وكييف. وتم انتخاب فياتشسلاي تشورنوفل، أحد المنشقين الذي أُدخل السجن لثلاث مرات، رئيساً لمجلس السوفيات الاقليمي، وتم رفع العلم الاوكراني بلونيْه الأصفر والأزرق مكان العلم الأحمر على فندق المدينة. وبذلك إنتقلت السلطة الشيوعية إلى موقع المعارضة، باحثة عن إتفاق مع حركة الـ «روخ».

تميزت الوضعية الجديدة بتأسيس حزب (نيسان ١٩٩٠) ـ مرتبط بحركة «الروخ»، وذلك على يد «مجموعة هلسنكي» الأوكرانية من أجل الدفاع عن حقوق الانسان، وبالتأثير المتعاظم «لاتحاد الشبيبة» الأوكرانية المستقلة في أوكرانيا الغربية. ومن المسائل المستجدة أيضاً، في أوكرانيا الشرقية، انتقال السلطة في عدد من المقاطعات (خاصة الدونباس)، الى يد لجان الأضراب التي شكلت إبان صيف ١٩٩٠، ويعترف ليونيد كرافتشكوك، سكرتير اللجنة المركزية للحزب في أوكرانيا قائلاً: «ان كافة المسؤوليات، الاقتصادية منها أو السياسية، قد أصبحت بيد لجان الإضراب»(٦).

يحاول الحزب الشيوعي أن يستغل الفروقات المناطقية، والدينية، والقومية، عن طريق السعي الى إختراق البنى الجديدة.

يبقى أن «العقدة» الكبرى في «المسألة القومية» في الاتحاد السوفياتي، والمشكلة الرئيسية للامبراطورية السوفياتية، هي مشكلة الشعب الامبراطوري، المسيطر: الشعب الروسي. ويؤكد تاريخ الامبراطوريات أنَّ حركات الانهيار، والتيارات التدميرية التي تنطلق من الأطراف والأقاليم، غير ممكنة إلا عندما يضعف المركز.

يلحظ يوري أفاناسييف، أحد مسؤولي «فريق ما بين الاقاليم» ومن نواب الشعب، الذي يشكل نواة المعارضة ـ كانون الأول ١٩٨٩ ـ «شلل السلطة المركزية»، الذي «يقترن بطريقة مخيفة بتوجه الجلسة المكتملة للجنة المركزية المخصصة للمسألة القومية، نحو بناء مركز قوي». هذه الوضعية، تشبه الوضع الذي أشار الى مخاطرة فاسيلي شولغين، والذي مرّت به روسيا في الحرب العالمية الأولى: «حكم استبدادي دون مستبدين»(٧).

ان كشف ضخامة الكارثة ـ وهي محصلة سبعين عاماً من القيادة الشيوعية ـ لا يبقي أدنى شك بأن الشعب صاحب السيادة الغالبة قد تلقى الضربة الأقوى. وهذه ظاهرة لا مثيل لها في تاريخ الامبراطوريات: الشعب الامبراطوري يعيش وضعاً أكثر مأساوية من باقي شعوب البلد. من المستوى المعيشي المتدني، الى الهبوط الكبير في معدل الولادات، الى الإدمان، وتدمير الأقاليم المركزية في روسيا وسيبيريا، الى الأزمة الايكولوجية ـ إنَّ الكتاب، والاعلاميين، والاقتصاديين، ومهندسي الزراعة يرسمون صورة مخيفة عن الوضع. ووفقاً للأرقام الرسمية، فإن سبع وثلاثين مدينة في جمهورية روسيا قد تجاوزت العتبة التي يبدأ بعدها النمط على حياة السكان(٨).

ان تدمير المركز، نواة الامبراطورية، أضحى علنياً في عصر الـ «غلاسنوست» ولكن كان قد بدأ مع الأيام الأولى للثورة: فقد تحمل الشعب الروسي العبء الأساسي في بناء العالم الجديد، وفي مقاومة تحقيق الطوبى. فقد أفنيت خيرة قواه في الثورات، والحروب، والتصفيات؛ وكتعويض عن ذلك، اعترف له ومن باب الاشباع الأخلاقي بأنه القوة الكبرى. هذا الشعور الذي يجعل الشعب الروسي يرتضي البؤس، ويتحمل تدمير الأرض، يفسده عن طريق تنمية الاحساس بالعظمة. وقد جاءت الـ «غلاسنوست» وأطلقت صيحة اليقظة. ويكشف أ. فلاسوف، عندما كان رئيس لمجلس وزراء ال (RSFSR)، بمرارة عن «أن الكثيرين من الناس» يماثلون بين السلطة المركزية «المتهمة بإرتكاب الأخطاء، والانحرافات السياسية، وحوادث القمع» وبين روسيا التي «عانت مثلما عانت باقي الجمهوريات من النظام الاداري والحكومي». هذا صحيح، فروسيا قد عانت مثل الآخرين، إن لم يكن أكثر منهم. ولكن كيف نستطيع أن نمنع المماثلة بينها وبين السلطة المركزية، إذا كانت عاصمة الدولة هي موسكو، العاصمة الروسية بإمتياز، واللغة الرسمية الوحيدة هي اللغة الروسية، وإذا كان تاريخ

روسيا يعتبر إضافة الى تقاليدها من الأسس السوفياتية، في حين يوصف الآخرون بالنزوع نحو القومية، ناهيك عن وضعية، «الأخ الأكبر» أو الأول بين متساوين، والتي تحتل حجر الزاوية في السياسة القومية؟

يجد تنامي الوعي الوطني لدى الشعوب المكونة للاتحاد السوفياتي، تعبيره في إزدياد الشعور المعادي للروس. وكذلك تسمح الاعتراضات الموجهة ضد اللغة الروسية، وضد الهيمنة الروسية، والاستغلال الروسي، بالكشف عن وجهات نظر معادية للسوفيات، وإن كانت أحياناً غير واعية. والى جانب ذلك فإن صعوبة الوضع في روسيا، وبؤسها، وتأخرها الاقتصادي يقوي الاتجاه نحو اتخاذ مواقف معادية «للأول بين المتساوين». لقد بدأ الاعلاميون الروس برثاء روسيا «المهانة» وما تتهم به من تسبب «مرض الرهاب». وتحتل المسألة الروسية بعد خمس سنوات من «البريسترويكا»، موقعاً مركزياً في السياسة الامبراطورية. ففي صيف ٤٣٠ ق.م، أُجبر أهالي أثينا على توقيع معاهدة صلح مع اسبارطة، اثر هزيمة أَلَّمت بهم. وقد صارحهم بركليس مشيراً الى أن الهزيمة تعني خسارة الامبراطورية وإثارة حقد الذين خضعوا لسيطرة أثينا؛ وأضاف: انكم لا تستطيعون رفض السلطة، لأنها كانت ذات طابع استبدادي. ويخلص الى القول: ان الحفاظ على الامبراطورية عمل يبدو غير عادل، ولكن التخلي عنها خطوة في غاية الخطورة(٩).

تم تقديم عدة أجوبة على هذا السؤال الأبدي ـ ما العمل؟ ـ. وتنقسم هذه الأجوبة الى مجموعتين: أجوبة السلطة المركزية، وأجوبة الشعب الامبراطوري. فالسلطة المركزية تبحث عن وسيلة توفق عبرها بين النزعة القومية الروسية، وبين النزعة القومية لدى الشعوب الأخرى، ضمن إطار الاتحاد السوفياتي. وإننا نجد أن التماثل بين السلطات الروسية والسوفياتية لم يكن وليد الصدفة، فقد استلم الحزب الشيوعي السلطة في الامبراطورية الروسية القديمة، وكان هذا الأمر محصلة سياسة قومية ناضجة. ويبقى الدليل الأبرز على ذلك عدم وجود أي حزب شيوعي روسي (حتى عام ١٩٩٠)، في حين أن كافة الجمهوريات الأخرى تملك أحزابها الشيوعية، هذا إضافة الى غياب الكثير من مؤسسات الدولة الروسية، وذوبانها ضمن إطار المؤسسات الروسية. في السنوات الأولى من عمر السلطة السوفياتية، كان هدف هذه السياسة جذب الاقليات القومية الى جانب البلاشفة؛ لذا كان الموقف يصر على أدانة النزعة القومية الروسية، بإعتبارها حجر الزاوية للثورة المضادة. ولكن دروس الحرب ضد

بولونيا في عام ۱۹۲۰، أظهرت أن بالإمكان استخدام النزعة القومية الروسية من أجل الدفاع عن النظام السوفياتي. ففي المرحلة الأولى من الحرب، كان الجيش البولوني في موقع الهجوم بحيث استطاع أن يضع يده على كييف، وفي هذه الحالة كانت التعبئة تتم تحت شعار مقاومة مخططات البولونيين، الأعداء الدائمين للشعب الروسي. ثم في المرحلة الثانية انقلب الوضع: فلقد أصبح الجيش الأحمر على أبواب فرصوفيا، وباتت التعبئة تتم تحت شعار الثورة العالمية، التي تحملها الى أوروبا الغربية الحراب الحمراء.

في عام ۱۹۲۰، صاغ نيكولاي أوستريالوف تصوره «لتغيير المعالم»، وهو الذي اتخذ أيضاً تسمية «الوطنية ـ البلشفية». فمن مركزه كحقوقي، وكاتب سياسي موهوب، وفاعل في الحركة البيضاء، عمد أوستريالوف الى إستخلاص دروس هزيمة الثورة المضادة إبان الحرب الأهلية: «لقد خدعنا أنفسنا، عندما صورنا البلاشفة كقوة تزرع الفوضى في البلد، مطلقة العنان لقوى بدائية مجنونة، أتت من الخارج، من أجل تدمير روسيا. في الواقع، أن البلاشفة هم القوة الوحيدة القادرة على ضبط العناصر التي أطلقتها الثورة والحرب الأهلية، وهم وحدهم يملكون الارادة والقبضة الحديدية الضروريتين لاخضاع الشعب الروسي. أضف الى ذلك، أن البلاشفة هم القادرون على حفظ الامبراطورية الروسية، وإن كان تحت اسم آخر»[١٠].

يستخدم نيكولاي أوستريالوف من أجل بناء تصوره، تعبيراً رائجاً في ألمانيا: الوطنية ـ البلشفية. ففي عام ۱۹۱۹، توصلت مجموعة من الوطنيين الألمان الراديكاليين الى الاستنتاج بأن ألمانيا المهزومة، مادياً وروحياً، تستطيع أن تنهض من تحت الرماد لتعود دولة قوية، وذلك اذا استلهمت تجربة الثورة الروسية. لقد تم استخدام هذا المزيج من الوطنية والبلشفية، وفق مقادير واتجاهات مختلفة، في كل من ألمانيا (مع الاشتراكية ـ القومية) والاتحاد السوفياتي. ففي مطلع العشرينات، شكلت «الاشتراكية ـ القومية» في نسختها «تغيير المعالم»، وسيلة أساسية لجذب الانتلجنسيا الروسية الى جانب الحزب الشيوعي. كذلك لجأ ستالين إبّان الحرب العالمية الثانية، الى استخدام النزعة الوطنية الروسية بهدف تسليح الاشتراكية وبالطريقة نفسها، في عصر البريسترويكا، تستخدم «الفكرة القومية». كما الماء السحري في الحكايات، يرش بها الجسم الميت للماركسية ـ اللينينية.

يعتبر ألكسندر إياكوفليف، المنظر الرسمي الأول لـ «الوطنية ـ البلشفية»، رغم

عدم استخدامه لهذا التعبير. وقد ساهم الكتاب والاعلاميون في إعادة سحبه من دائرة التعتيم الرسمي. وفي رواية من جزئين بعنوان «بعد العاصفة»، يصف سرغاي زاليغين الأوقات السعيدة للتعاون بين القوميين الروس والبلاشفة المتنورين خلال العشرينات في سبيريا. ويذكر يوري كليامكين في مقالة نشرتها مجلة نوفي مير [١١] تحت عنوان: «ما هي الطريق المؤدية الى الهيكل؟»، وللمرة الأولى بعد عقود من الصمت، قصة «تغيّر المعالم».

تتمثل الميزة الأبرز للـ «الوطنية ـ البلشفية» في «أمميتها». ألم يبتدعها بعض الألمان والروس الحالمين ببناء دول كبرى ذات رسالة تاريخية؟ هذه الفكرة تم تبنّيها أيضاً من قبل زعماء شيوعيين لشعوب أخرى، وفي النصف الأول من االعشرينات ظهرت عدة تلاوين للشيوعية ـ «القومية»: بنشر هيكولا سكريبنيك بفكرة الشيوعية الأوكرانية، وبلور سلطان ـ غالييف فكرة الاشتراكية ـ «الاسلامية». إلا أن ستالين أقدم على تصفية هذه «السيناريوهات» وكل ما يحمل شبهة «الشيوعية ـ القومية»، متهماً إياها «بالانحرافات القومية».

في عصر «البريسترويكا»، درجت العادة على استحضار «بدائل» السياسة الستالينية التي لم تطبق، و «منها الحلول التي أقترحها س. راكوفسكي، ب. مدفاني، وب. مخاردز، وم. سكربنيك، وم. سلطان ـ غلييف...»[١٢] ويدعم أوستريالوف موقفه تجاه البلشفية بواقعة «أن الراية الحمراء تتفتح حاملة الألوان الوطنية»[١٣]. وفي محاولة أخيرة للحفاظ على السلطة، ابتدع الشيوعيون الأفغان صورة شاعرية جميلة، إذ لجأوا الى تطريز العلم الأحمر بأشرطة خضراء، ترمز الى راية النبي.

إن الصياغة الشهيرة لثقافة سوفياتية ـ قومية الشكل، اشتراكية المضمون ـ تعرّف بشكل كامل السياسة القومية الجديدة لغورباتشيوف فتكتيك «القومية ـ البلشفية»، يشكل وسيلة فعالة تستجيب للمطالب الآخذة بالتوسع في الجمهوريات السوفياتية، وتسهم في تجديد العلاقات بين الاتحاد السوفياتي وبين باقي البلدان الاشتراكية ـ سابقاً.

لهذا التكتيك فائدة عظمى في معالجة «المسألة الروسية». ففي برنامج عمل الحزب الشيوعي المخصص للسياسة القومية، فإن الجمهورية الوحيدة التي أشير إليها بشكل خاص هي الـRSFSR، حيث تم التأكيد على سلسلة من الاجراءات العملية الهادفة الى

تعميق سيادة هذه الجمهورية، إضافة الى إيجاد بنية روسية داخل الحزب (مكتب اللجنة المركزية المسؤول عن ال RSFSR)، والنقابات، والشبيبة الشوعية، وإيجاد وزارة داخلية للجمهورية، وأكاديمية العلوم الروسية، وأجهزة الاعلام (راديو، تلفزيون)، الخ . . .
وتنتمي هذه الاجراءات الى النماذج الاصلاحية الملطفة التي حفلت بها «البريسترويكا».
ولكن الاقتراحات الداعية الى تأسيس حزب شيوعي روسي رُفضت دون نقاش (ولكن بعد عدة أشهر تم تأسيس هذا الحزب). وفي الوقت نفسه، يتم التأكيد على توسيع إطار حقوق التشكيلات المستقلة داخل الـ RSFSR. كما جرى التحضير لانشاء مجلس سوفيات أعلى حيث تُؤخذ بعين الاعتبار، مصالح كافة الشعوب التي تعيش في روسيا، الأمر الذي يسمح بموازنة أو بتوزين النمو المبالغ به لتأثير البعد الروسي. وتؤدي كافة القضايا المطروحة هنا الى احداث تضخم جديد في الجهاز البيروقراطي، دون أي تعديل في وضعية البنى القائمة.

تعتبر مسألة اللغة الروسية من البراهين الساطعة، التي تكشف نوعاً من العظمة في القبول بالتغييرات التي لا تغيّر شيئاً. في عام ١٩٨٨، تبنت جمهوريات البلطيق مجموعة قوانين تعتبر بموجبها اللغة القومية لغة الدولة. وهناك جمهوريات أخرى تتبع الطريق نفسها: بوضوح، تتجه اللغات القومية في كل مكان لتصبح لغة الدولة، وذلك دون أن يتصدّى المركز لهذه القرارات. ولكن في الجلسة المكتملة التي خصصت للمسألة القومية، رأى غورباتشيوف أن من المفيد والمعقول «إعطاء اللغة الروسية مركز لغة ما فوق الدولة، على صعيد الاتحاد السوفياتي». بهذا المعنى يصبح لكل جمهورية لغتين رسميتين، لغتها القومية ولغة الاتحاد. ولكن لما كان دستور الاتحاد السوفياتي يعطي الأفضلية لقوانين الاتحاد بالمقارنة مع قوانين الجمهوريات، فإن مركز اللغة الروسية يبقى والحالة هذه ثابتاً من وجهة النظر الادارية.

وجدت فكرة غورباتشيوف تعبيرها الحقوقي في القانون المتعلق بـ «لغات شعوب الاتحاد السوفياتي». الذي وقع عليه الرئيس في ٢٤ نيسان ١٩٩٠. «أخذاً بعين الاعتبار مجموعة الظروف التي تكونت عبر التاريخ، وبهدف ضمان إنجاز المهام المشتركة على مستوى الاتحاد ككل، تعتمد اللغة الروسية لغة رسمية في الاتحاد السوفياتي على كافة الأراضي وتعتمد أيضاً كوسيلة اتصال ما بين الاتنيات»(١٤).

إن ضرورة اللجوء الى التشريع من أجل الدفاع عن اللغة الامبراطورية، لأمر بالغ

الدلالة بالنسبة للأزمة التي تمر بها هذه الامبراطورية نفسها فالتاريخ لا يعرف مثالاً آخر فرض فيه احترام شعب عن طريق الاجراءات الادارية.

في ١٩٧٣، كتب ألكسندر سولجينتسين، «دون تمويه أو تشويه»، موضحاً طبيعة الاتجاه السائد: «يمتلك الشعب الروسي، جملة من الصفات، تجعله الأكثر نبلاً في العالم؛ فتاريخه، القديم والمعاصر لا تشوبه شائبة، ومن غير المسموح ولأي سبب كان، أن تلصق أية تهمة بالقيصرية أو بالبلشفية؛ ولم ترتكب أي خطيئة أو خطأ على مستوى الوطن لا قبل عام ١٧ ولا بعده؛ ولم نواجه أي انحطاط أخلاقي يجعلنا نشعر بالحاجة الى تطوير أنفسنا؛ اليوم، كما البارحة، لا وجود لأية مشكلة قومية مع الجمهوريات الطرفية، فالحل اللينيني ـ الستاليني يبقى مثالياً بالنسبة لذلك؛ أما آفاق روسيا ـ الاتحاد السوفياتي فهي مشرقة؛ كذلك فإن صلة الدم هي المعيار الحصري في تعيين الانتماء للروس أو عدمه، أما فيما يتصل بالفكر، فإن كافة الخيارات تبقى ممكنة: فالارثوذكسية لا تحمل الصفة الروسية أكثر من الماركسية، أو الالحاد، أو الرؤية العلمية للعالم أو، على سبيل المثال، الهندوسية؛ ولا توجد أية ضرورة لكتابة حرف البداية في كلمة الله، وبخط كبير، بل علينا أن نفعل ذلك مع كلمة سلطة». ويخلص الكسندر سولجينتسين الى القول: «انهم يطلقون على مجموع ذلك «الفكرة الروسية» (اتجاه تنطبق عليه تسمية القومية ـ البلشفية)»[١٥]. وتكمن إحدى ميزات هذا التحديد في أنه يظهر خاصية الابهام لهذا المزيج من العناصر الرسمية، أو كما نقول اليوم، الطابع «اللاشكلي» «للفكرة».

وقد أثبتت السنوات الخمس عشرة المنصرمة صحة التحليل الذي قدمه سولجينتسين. أوضح مؤلف كتاب أرخبيل الغولاك، أن العناصر المتصلة بـ «الفكرة الروسية»، وهي مرادفة «للقومية الاشتراكية» على الطراز الذي ترسمه الـ «بريسترويكا»، قد عرفت مصائر مختلفة، إذ البعض منها كان أكثر ازدهاراً من غيره. ولكنها جميعها، وجدت مكاناً لها في اللوحة المتعددة الألوان للحركة القومية الروسية الآخذة بالتشكل.

أن السمة الطبيعية لتكون الوعي القومي الروسي، وشرعيته، ليسا موضعاً للشك، كما أن خصوصيته تبقى هي أيضاً واضحة؛ إننا أمام ظاهرة مفردة في الاتحاد السوفياتي: فالقومية الروسية هي قومية الشعب الامبراطوري، أي قومية دَولية. فهذا الشعب، كما

يصفه الكتاب والفلاسفة الروس، ومنظرو القومية، يعيش معضلة خاصة تتمثل بطموحه لأن يكون هو نفسه وان يحافظ على الامبراطورية في الوقت عينه. لقد كان ألكسندر سولجينتسين الوحيد الذي عبر عن رأيه بوضوح قائلاً: «فيما يتعلق بشعوب التخوم وما بعدها، التي ألحقت عنوة بمدارتنا، لن تكون توبتنا خالصة إلا إذا أعطينا هذه الشعوب الحرية الحقيقية في تقرير مصيرها بنفسها»[١٦]. يوضح سولجينتسين بشكل جيد: «لكل الشعوب»، «الحرية الحقيقية»...

لم يتجاسر أي من الكتاب الكثر الذين استحضروا ضرورة تكون الوعي القومي الروسي، مستعيدين نتفاً من فكر سولجينتسين، ان يجاريه في موقفه المتخلي عن الامبراطورية. ويمكننا عن طريق دراسة إيديولوجية الحركة القومية الروسية، ممثلة بالعديد من المجموعات، والتنظيمات والتيارات أن نتوقف قليلاً عند الاختلافات القائمة فيما بينها. وهي التي تؤكدها المناظرات اللامتناهية بين مختلف عناصر «الفكرة الروسية». وبالمقابل، فإنه من المفيد أيضاً أن نوضح ما يجمع بينها، من «باميات ـ ١» و «باميات ـ ٢»، وصولاً الى «رودينا» (الوطن)، و «أوتيتشستفو» (الوطن)، ومروراً ب «الاتحاد من أجل النهضة الروحية للوطن» الذي تأسس في آذار ١٩٨٩، أو «الجبهة الشعبية الروسية»، التي تأسست في تشرين الأول من العام نفسه. وبالرغم من اختلاف الخطاب، فإننا نلحظ أن أعلاميي ناش سوفريمنيك (حاضرنا)، ومولوديايا غفارديا (الحارس الشاب)، وموسكفا (موسكو)، وسلوفو (الكلام)، وجريدة سوفتسكايا روسيا (روسيا السوفياتية)، متفقون في العمق، وحول ما هو أساسي، وهذا ما تؤكده مؤلفات لكتّاب من أمثال فالانتان راسبوتين، وفيكتور أستافيف، وفاسيلي بيلوف، وعالم الرياضيات ايغور شافاريفتش، والاعلامي ميخائيل انطونوف، وآخرين، أقل شهرة، ولكنهم ليسوا أقل تألقاً.

ونجد في أساس الفكرة الروسية حول النهضة القومية، تصوراً للأصالة العميقة لروسيا ولرسالتها الخاصة في العالم. هذه الفكرة ليست جديدة، ولكنها شهدت على مر القرون، عدة تحولات. ويمكننا العودة الى قول مأثور للأسقف فيلوتيه الذي قال في القرن الخامس عشر: أن روسيا هي روما الثالثة. وفي ثلاثينات القرن التاسع عشر، أبرز محبو «السلافية» وحدة مصير روسيا، المرتبطة بالبعد الروحي العميق للشعب الروسي. وفي آب ١٩٦٣، أعلن ستالين: «ليس من المستبعد أن تنهض روسيا بدور البلد الذي

يفتح الطريق نحو الاشتراكية»[١٧]. وفي عام ١٩٦٣، كتب إيفان افريموف في روايته «حد الموس»، بأن على روسيا أن تجد طريقها، الضيق كحد الموس بين مادية الغرب وروحانية الشرق، بهدف انجاز الخطوات الأولى نحو المجتمع المثالي. وفي تموز ١٩٨٩، كتب ايغور شفاريفيتش في مقالة تحت عنوان: «طريقان نحو هوة واحدة»، موضحاً أن اختيار طريق العودة الى الوراء، أي الى «نظام التحكم»، أو «الاقتراب من النموذج الغربي»، ليس «الاختيار السليم». ويضيف موضحاً «أن الغرب يعاني من نوع آخر من المرض نفسه الذي نسعى للشفاء منه». لذا فهو يشدد على «أن كلا الطريقين يؤديان الى الكارثة نفسها، اجتماعياً، وبيئوياً، بل إنهما في هذا المجال متساندان»[١٨].

ويكتب ميخائيل أنطونوف في أيلول ١٩٨٩، جازماً: «... ان الاشتراكيين وأخصامهم المباشرين (ممثلي «حكومة الأثرياء») يتبادلون الدعم...»[١٩].

يتمثل الطريق الثالث، أي طريق روسيا الأصيل، في رفض الرأسمالية. لأنه من غير المقبول أن يتم التخلص من «نظام التحكم» من أجل الاقتراب من الرأسمالية. ويؤكد ميخائيل انطونوف بأن «الفردانية قد عاشت»؛ وبأن الغرب «ما زال في مرحلة اكتشاف الفوائد التي يجنيها من نمط الحياة الجماعي (أو كما يقال، الشيوعي)، أي بتعبير آخر، ما اعتبر في روسيا ومنذ قرون طويلة، الأساس الأول للتنظيم الاجتماعي»؛ «الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، وحرية المشروع يعتبرا من المفارقات التاريخية في ظل ظروف العالم المعاصر، حيث الاقتصاد يتخذ أبعاداً كونية بشكل متزايد»[٢٠]. ان الفكرة المغلوطة التي يحملها منظرو «الطريق الثالث» من الغرب، تسمح لهم بأن يتجاوزوا بسهولة «المفارقات»، بغية الانفتاح، عند شافارفيتش، على «تجارب كافة أشكال الحياة الأكثر تماسكاً: ما قبل الرأسمالية، «العالم الثالث»، وحتى المجتمعات البدائية...» فبالنسبة لروسيا، «تعتبر الحضارة الفلاحية، وهي الحضارة الأقرب والأسهل فهماً، الاطار الذي إحتضن حياة أجدادنا حتى وقت قريب». وإذا كان شافاريفيتش يرفض العودة الى الوراء، إلا أنه مقتنع بأن هذه الحضارة «تشكل بالنسبة لنا النموذج والدال على نمط من الحياة تطور نظامياً، ويمكننا أن نأخذ منه الشيء الكثير، خاصة سمة المركزية الكونية ـ أي العيش في ظل حالة من التوازن الاجتماعي، والاقتصادي، والبيئوي الراسخ»[٢١]. وهكذا يتم هنا استبدال اليوتوبيا التقنية، و «العلمية»، بيوتوبيا فلاحية.

تنتصب في مواجهة طريق «التوازن»، و «الأصالة عدة معيقات ـ أو أعداء: الرأسمالية، المدينة، الثقافة الاجنبية. إن كافة الايديولوجيات القومية التي تحلم بخيار «أصيل» ومتميز، تصارع «أعداء» معينين. فهكذا ارتكزت الايديولوجية النازية الى أفكار معادية للرأسمالية، والبرجوازية، والغرب، كانت قد ولدت قبل وصول هتلر الى السلطة، معتبرة الفلاح الألماني كائناً أعلى، والمدينة بالمقابل، كمستنقع آسن»، يشيع الانحلال الخلقي.

ينظر أصحاب «اليوتوبيا الفلاحية» الى العالم بإعتباره مسرحاً للقتال بين «الوطنيين» و «العالميين»، أو ولكي نُسمّي الأشياء بأسمائها بين الروس واليهود.

تتشعب المسألة القومية في الامبراطورية السوفياتية، الى قسمين متساويين تقريباً. القسم الأول ويتعلق بكافة الشعوب غيرّ الروسية، والتي يصل عددها إلى نصف سكان البلد؛ وبالنسبة لهؤلاء، فإن تعبير «الروس» هو مرادف لكلمة إمبراطورية، أو إضطهاد قومي. أما القسم الثاني فيتعلق بالروس، الذين يستغربون تصنيفهم في خانة الامبراطورية، في حين أنهم يعيشون في وضع أشد بؤساً من الآخرين. «تحتل روسيا، ضمن عائلة شعوب الاتحاد السوفياتي، موقع البطلة سندرلا»، هذا ما يؤكده مبتدعو روسيا في المؤتمر التاسع عشر للحزب. فبالنسبة لهم، اليهود هم تجسيد الشر.

في زمن البريسترويكا، لا تبلغ نزعة معاداة السامية في الاتحاد السوفياتي حدها الأعلى فقط، بل تكتسب صفة جديدة: إذ تتحول الى حركة شعبية رسمية. وقبل مرحلة الـ «غلاسنوست» إتخذت نزعة معاداة السامية منحيين: يومي و «أكاديمي». إذ يتعرض اليهود لمضايقات مختلفة في مراكز السكن، والشارع، وفي العمل؛ وبموازاة ذلك، نشرت أعمال «علمية»، تحت غطاء معاهد مختصة في أكاديمية العلوم، غايتها تنظيم «النضال ضد الصهيونية». ولكن بعد عام ١٩٨٥، تم توحيد الاتجاهين؛ حيث يلحظ نشوء اتحادات «غير رسمية»، من بينها «باميات» التي تعتبر الأكثر شهرة؛ كما أن بعض المجلات (ناش سوفرمنيك، ومولودايا عفارديا...) جعلت من صراعها ضد اليهود حظاً عاماً لافتتاحياتها. وكذلك يتم تنظيم مهرجانات جماهيرية، يدان فيها النشاط العلني والسري لليهود، الذين يظهرون أحياناً مناصرتهم القوية للـ «بريسترويكا»، وأحياناً أخرى يمارسون العدائية تجاهها، أو يقدمون أنفسهم طوراً

أنصاراً للثورة، وطوراً آخر أعداءً لها. ان منظري نزعة المعاداة للسامية يظهرون على شاشات التلفزيون. حيث يتم تصوير اليهود بإعتبارهم قوة الشر، التي تعمل منذ القدم على الاضرار بالشعب الروسي. لقد جمع ايغور شافاريفيتش كافة هذه الاتهامات في كتاب تحت عنوان: «الرهاب الروسي»؛ أبرز فيه بدايات النشاط اليهودي المعادي للروس، منذ القرن العاشر. كما نشر أحد المؤرخين كتاباً حول حرب ١٨١٢، يظهر فيها نابليون مدفوعاً الى احتلال روسيا «من قبل أخطبوط مصارف روتشيلد، الذي يسيطر على أوروبا. . . وأميركا». فهي وحدها لم تكن قد خضعت بعد لسيطرة «رساميل المصارف العالمية»؛ لهذا السبب تم «تدبير هذه المؤامرة العالمية ضد روسيا»، بهدف «اخضاعها، ووضع اقتصادها تحت سيطرة النمط الرأسمالي البرجوازي. . .، والقضاء على الروح الوطنية لدى الشعب وتشريبه المبادىء الكونية وضياع الجذور. . .»(٢٣).

يتم اليوم استعادة تعابير الحملة المشؤومة التي أطلقها ستالين ضد «الكوسموبوليتية»، ويتم تدعيمها بقاموس النازية في معاداته للسامية. يستحضر ايغور شافاريفيتش تعبير «الشعب الصغير»، مشيراً الى القوة الحاقدة على «الشعب الكبير». كما يدعو الناقد الأدبي فلاديمير بوندارنكو الى التخلص من كافة «المحرمات بهدف تأمين شروط النقاش حول القوى الأولية المكوّنة للقومية الروسية، وحول القوى اليهودية». ويشدد قائلاً: «من الطبيعي ألا نتجنب الحديث عن مشكلة الدم، أو كما يقال بلغة العصر، الذاكرة الوراثية لأي شعب»(٢٤). ويستحضر فالانتان راسبوتين موضوع لقاء مع قرائه حول «عبدة الشيطان الذين ينشطون بهدف إفساد روح الشعب»(٢٥). أثناء مقابلة أجراها مع الصحافي الأميركي بيل كيلر، يعطي الكاتب المشهور، ونائب الشعب وعضو المجلس الرئاسي لغورباتشيوف، انطباعه ومشاعره حيال اليهود، مشيراً الى ارتكابهم لخطيئتين أساسيتين: «لا بد من أن يشعر اليهود اليوم أنهم مسؤولون عن خطيئة الثورة، التي قاموا بها، وعن الشكل الذي اتخذته. . . وبإعتبار الدور الكبير الذي قاموا به فإن خطيئتهم عظيمة. فهم يتحملون وزر هذه الخطيئة الى جانب تحملهم مسؤولية «قتل الله». ويضيف فالانتان راسبوتين قائلاً: إذا كانت خطيئة «قتل الله» قديمة، وبالتالي لا يمكننا تحميل يهود اليوم المسؤولية عنها. فإن «جريمة الشيوعية لا يمكننا تناسيها بسرعة»(٢٦).

تترك كتابات الاعلاميين القوميين، الانطباع بأن «المسألة الروسية»، غدت بالنسبة

لمفكري القومية الأكثر تطرفاً، «قضية يهودية». ولكن تجدر الملاحظة أن شعارات النضال ضد «النفوذ اليهودي»، و «الشر اليهودي»، لم تؤدِ الى كسب أصوات الناخبين. فإبان انتخابات نواب الشعب في الاتحاد السوفياتي لم يستطع أي من المنادين بالحرب ضد الطائفة اليهودية «الوصول الى الفوز. كما لم تتمكن تنظيمات من نمط «باميات» من إيصال عدد هام من مرشحيها.

ان موجة معاداة السامية، والتي بلغت اليوم الذروة، ليست فقط نتاجاً لضعف الهيمنة، وسقوط سلسلة من الحواجز؛ فهي قبل أي شيء محصلة لتحريك قوى من أجل خدمة «أغراض الدولة»، وليس هذه المرة الأولى على كل حال. في عصر «البريسترويكا» حيث تحتل معاداة السامية مكانة خاصة في عبادة اللامعقول الذي يلاقي في البلد نجاحاً غير اعتيادي. يسمي «المحقق الكبير» لدوستويفسكي، ثلاث قوى قادرة على الانتصار النهائي وإخضاع وعي «المتمردين الضعفاء» أي الناس، وهي: الاعجوبة، السر، والسلطة. هذه القوى قد استخدمت بطريقة ذكية ومتماسكة من قبل الحزب الشيوعي من أجل تكوين الانسان السوفياتي(٢٧). ولكن هزال «السلطة»، في عصر الـ «غلاسنوست»، يتم التعويض عنه بتضخم دور السر والأعجوبة بما هما أدوات سلطة.

ان الايديولوجية السوفياتية التي تعتبر أنها وحدها الصحيحة، بإعتبار امتلاكها لسر التاريخ العالمي، أفردت على الدوام، مكاناً للأعاجيب، والخيال، بشرط أن تقدر على فرضها كظواهر «علمية». لهذا أصبحت الـ «غلاسنوست»، العصر الذهبي للترحال بين «النجوم». فجلسات الطبيب النفسي، الكسيس كاشبيروفسكي التي يعاد عرضها على شاشة التلفزيون المركزي، لا شبيه لها في العالم. فتلفزيونات المبشرين في أمريكا، يقتصر بثها على قنوات خاصة. أما الكسيس كاشبيروفسكي - وبعض تلامذته الأقل شهرة - ، فيظهرون على شاشة تلفزيون الدولة. ثم يعاد بث حلقات التلفزيون المركزي ثانية، من خلال مراكز البث الاقليمية في شتى أنحاء البلاد. ويؤكد أ. كاشبيروفسكي، قدرته على شفاء جميع الأمراض، أمام ٢٠٠ مليون من مشاهديه. أي أن الملايين من المواطنين السوفيات يشاهدون صانع المعجزات الذي يسكن أوجاع المرض في بلد تنقصه الأدوية، والمستشفيات والأطباء، وهم يشاهدون أيضاً في القاعة مداواة بتحضير الأرواح وشفاءات عجيبة لمرضى ينهضون كاشفين عن جروحهم.

وهكذا تؤكد جلسات كاشبيروفسكي بما لا يقبل الجدل، على انه ايجاد حلول لكافة مشاكل البلد، يتطلب صانع أعاجيب.

لقد أذهلت الوكالة الرسمية للأنباء (تاس)، العالم بإعلانها عن ظهور كائنات أتت من العالم الخارجي في منطقة فورونيج. لم يحدث منذ عصر غريغوري راسبوتين، ان كانت البلاد متعطشة الى هذا الحد للأعاجيب. وفي هذا الجو، يصبح من السهل تفسير كل سيئات العالم بواسطة الألاعيب السرية للماسونية، واليهود المخادعون.

منذ قرابة القرن، وكما يشهد دوستويفسكي، كان الاعتقاد بوجود الشيطان، يعتبر موقفاً رجعياً. وبعد ٧٢ سنة من قيام السلطة السوفياتية، أضحى هذا الاعتقاد موقفاً تقدمياً. فالدم، والأرض، واليهود، والماسونية، وعبدة الشيطان، والقدر الشيطاني، والمافيا، و «الكومبرادور»، كل هذا أصبح الأفيون الجديد للشعب. به تفسر المأساة، وتعلل، وبواسطته يتم الهروب من معالجة المشاكل الفعلية.

غدت أفكار الكسندر سولجينتسين النقطة الأكثر وضوحاً في البرنامج القومي الروسي. «نحن متعبون من هذه المشاكل العالمية التي لا حاجة لنا بها!... علينا أن نتوقف عن الركض في الشارع عند حدوث أي شجار، لنرجع بتعقل إلى بيتنا، طالما نحن نعيش هذه الفوضى، وانعدام النظام»، هذا ما كتبه سولجينتسين عام ١٩٧٣[٢٨]. «علينا أخيراً أن نهتم بمشاكلنا الخاصة، وأن ننظم بيتنا ونديره...»، وهذا ما كتبه رئيس المجلس المركزي للاتحاد من أجل نهضة الوطن، ميخائيل انطونوف عام ١٩٨٩[٢٩]. ولنشر أيضاً الى هذه المذكرة التي كتبها وزير الخارجية غوتشاكوف، بعد حرب القرم، حيث يؤكد على ضرورة انصراف روسيا من الآن فصاعداً الى معالجة مشاكلها الخاصة، والأساسية، وتتوقف عن الاهتمام بالمشاكل الأوروبية. على «روسيا أن تنكمش» هذا ما أشار إليه غورتشاكوف[٣٠].

خلافاً لسولجينتسين، يرى ميخائيل أنطونوف في الحاجة الى «إنكماش» تكتيكاً ظرفياً، يفرضه واقع «الشيوعية التي وعد بها رومانسيو الثورة، والتي لم تكن إلا وهماً، ولم تتوصل بعد الى بلورة صورة السلف المناسب لهذا الحلم المضيء»[٣١]. إن غياب «فكرة جديدة تسمو بها الروح»، في ظل ظروف لإزاحة «الستار الحديدي»، تُعرِّض للخطر، الصحة الروحية للشعب، على حد قول رئيس «الاتحاد من أجل النهضة الروحية

للوطن». لقد مضى زمن حيث استطاع الاتحاد السوفياتي في ظل «الستار الحديدي» ان يواجه «قوى الكوسمبوليت»، التي تسعى الى تحويل الشعب الى دهماء. ولكننا، «أزحنا الستار، دون أن نسلح الشعب... بفكرة تسمو بها الروح»(٣٢). وروسيا، دون دفاعات، ستجد نفسها وجهاً لوجه أمام قوى الشر المرعبة.

تعتبر سياسة «الانكماش»، والانقطاع عن العالم، والإنكفاء الى داخل «المنزل» من أجل معالجة الجراح، الشرط الأول لبرنامج الخلاص والنهضة الروحية. أما الشرط الثاني فيتمثل «بالفكرة» الجديدة. بشكل عام، تبدو «الأفكار» المقترحة ذات طابع تركيبي، فهي تتكون من عناصر أضحت شائعة بحكم التجربة أو الكتب المنشورة. ففي أساس هذه «الأفكار» تعابير وكلمات غدت منذ زمن بعيد شعارات معروفة. يدعو أحد قادة «باميات»، د. فاسيليف الى محاربة اليهود الصهاينة، معتمداً على نصوص كتبها لينين. أما يوري أفاناسييف، فينطلق من «ان الفكرة الاشتراكية تستطيع ويجب أن تبقى الخيط الهادي لعملنا الراهن، غير أنه يرفض «الجوهر الروسي، والبلشفي، والدهمائي، والثوروي». بهذا المعنى تغدو رؤيته للفكرة الاشتراكية ذات طابع شمولي، وتشبه الى حد بعيد رؤية سكرتير اللجنة المركزية وعضو المكتب السياسي الكسندر اياكوفليف؛ هذه الرؤية التي تلحظ «أقوال يسوع المسيح حول الأخوة والعدالة، وصولاً الى الدراسات الأكثر جدة حول الاشتراكية ـ الديمقراطية الحديثة، مروراً بعذابات لينين التي عاشها قبيل وفاته، عندما شرع في البحث عن مخرج للوضع المتأزم»(٣٣). ويرفض ميخائيل انطونوف في صياغته لبرنامج «الاتحاد من أجل النهضة الروحية للوطن»، الاتجاهات «الليبرالية»، لأنها لا تقود «الى الحرية بشكل عام، بل الى حرية المالكين»، وهي في المحصلة تحول البلد الى «مستعمرة للشركات المتعددة الجنسية»، كما أنه يرفض أيضاً وجهة النظر التي تعيد جميع المشاكل الى سيطرة «الأجانب». فبرنامج الاتحاد يستند الى «التمسك بأفكار الاشتراكية، ولكنها الاشتراكية التي تهتم بالحاجات الحقيقية للشعب»(٣٤). هذا الأمر، يعني على المستوى الايديولوجي، إغناء الماركسية ـ اللينينية بالتراث الفلسفي الروسي. ذلك أن الماركسية ـ اللينينية لا تفي موضوعة «طبيعة الانسان» حقها؛ فروسيا الفترة المفصلية بين القرن التاسع عشر والعشرين، كما يرى م. انطونوف، «كانت القوة الكبرى الوحيدة التي تمتلك نظاماً أخلاقياً وعالمياً، له وجهة نظره الخاصة فيما يتعلق بالفلسفة الاقتصادية، وهي وجهة تضرب جذورها في مرحلة

بعيدة في التاريخ ـ في القرن السادس عشر (محاولات إرمولاي ـ إراسم) وقبل ذلك عند أسلافهم، معلمينا البيزنطيين»[٣٥]. وفي رسالة موجهة الى المؤتمر التاسع عشر للحزب أعلنت مجموعة من الكتاب، من بينهم عدد مهم من كتاب إيركوتسك، ان «الرهاب الروسي، الموجَّه بحذاقة من قبل قوى الرجعية العالمية وعلى رأسها الصهيونية، حجر الأساس في العدوان الامبريالي، يطال قبل كل شيء روسيا بما هي سارية عَلم الشيوعية». فمن الواضح إذن بالنسبة لهم انه «تقع على عاتق فديرالية روسيا وهي اللحمة الأساسية للاتحاد السوفياتي وبالتالي لكل المعسكر الاشتراكي، الرسالة التاريخية الكبرى المتمثلة باستيعاب ضغط الرجعية المتفلتة من عقالها وبحفظ الصحة الجسدية والأخلاقية للشعب»[٣٦].

لقد جرت في القرن العشرين، ولمرّتين، تجربة توليف القومية مع الاشتراكية، وذلك في الاتحاد السوفياتي وألمانيا. عام ١٩٣٤ أوضح هتلر ل «هانز يوست»، كاتب العبارة الشهيرة: «عندما أسمع كلمة ثقافة، أُشهر مسدسي»، ان القومية ـ الاشتراكية تستعير من الأحزاب الماركسية والبورجوازية ـ أفكارها الأكثر تميزاً: «الوعي القومي من التراث البورجوازي، والاشتراكية الحية والمبدعة من الماركسيين». لقد طرح هتلر على نفسه مهمة خلق «دولة كل الشعب، ومجتمع العمال، واتحاد لكل المصالح، إضافة الى إزالة الفرادنية، وتشكيل كتلة جماهيرية دينامية، موحدة ومنظَّمة»[٣٧].

الخوف من الفردانية، من الفرد المنفصل عن الجماهير، عن الجمعي، هو الذي يحدد برامج الحركة القومية الروسية. ويرى مؤلفو تلك البرامج في الأفضلية المعطاة للجماعية على الفردانية، خصوصية السمة القومية الروسية أو الرمز الكبير «للفرادة» الروسية وكذلك يؤكد مؤرخ عصر النهضة الألماني جاكوب بوركخاردت انه في العصر الوسيط، «لم يكن الانسان يرى نفسه إلا عضواً في جماعة عرقية، أو في شعب أو في حزب أو في عائلة أو في جماعة حرفية أي بما هو جزء في فئة عامة وكلية»[٣٨]. موسِّعاً تلك الفكرة، يلحَظ أريك فروم في مجتمع القرون الوسطى، بالمقارنة مع المجتمعات الحديثة، سمة أساسية، ألا وهي غياب الحرية الفردية. ولكنه يعود ليؤكد على أن انسان القرون الوسطى، وإن لم يكن حراً بالمعنى الحديث للكلمة، فإنه لم يكن وحيداً ولا معزولاً بل كان له موقعه في المجتمع: كان فلاحاً أو حرفياً أو فارساً أي ان النظام الاجتماعي، يؤمِّن، بوصفه نظاماً طبيعياً، شعوراً بالامان والانتماء»[٣٩] ويظهر الخوف

من الحرية ـ الذي يحلله فروم ـ يظهر في اللحظة التي يجب أن نترك فيها الشرنقة المريحة لما هو جماعي لنخرج الى العالم المنفتح على رياح الحرية الفردية بشتى أنواعها.

ومهما كان تنوعها، فإن برامج الحركة القومية الروسية تبدي الخوف نفسه الخوف من الفردانية، الخوف نفسه من عالم منفتح على كل الجهات. لذلك، وبحثاً عن الأمان، تقترح «التمركز» والانسحاب الى داخل «البيت» (مع الحذر، عادة، من تحديد حدوده). وهي تلقي دائماً على هذا الطريق، القومية ـ البلشفية وذلك بغض النظر عن الاسم الذي يطلق عليها اليوم وهي توليف بين القومية التي تُؤمِّن أمان الجماعة، وبين الاشتراكية، التي تَعِد بأمان المساواة المطلقة.

إن شعباً عظيماً لا يمكن أن ينسحب من العالم وان يسجن نفسه في دير من أجل متعة التأمل وخلاص الروح. ان زمن جدار الصين قد ولّى الى الأبد ولذلك فإن برامج الحركة القومية الروسية تتسم بطابع طوباوي يشوبه الحنين، إلا أنها لا تخلو رغم ذلك من عناصر تسمح باكتشاف وراء هذا الحنين الى «الهروب» تناذر أعراض برست ـ ليتوفسك. ذلك أن هذا الهروب ليس إلا مؤقتاً. انه نوع من «التركز» من أجل عودة أفضل، عودة تتم بقوى جديدة وأفكار جديدة وقيادات جديدة. فهل تنتظر الامبراطورية؟.

يعكس برنامج «سيادة» روسيا، الذي قدمه بوريس يلتسين بعد انتخابه رئيساً للسوفيات الأعلى ل RSFSR، تلك الرغبة «بالتمركز»، أي بالاهتمام بالشؤون الخاصة، الروسية حصراً. وتبقى من مآثره الأساسية الامساك بزمام قيادة الحركة القومية الروسية، التي يخشى أن يقع قسم كبير منها في أيدي زعماء من «نمط قومي ـ بلشفي». وذلك حتى في حال استبدلت، على طريقة يلتسين، كلمة «بلشفية» «باشتراكية على النسق الاسكندينافي».

مع بداية العقد الأخير للقرن العشرين، تبدو فكرة الدولة الروسية ذات السيادة، فكرة طوباوية إذ سوف يشكل تحقيقها ـ على أي شكلٍ كان ـ ضربة لن تقوم بعدها الامبراطورية السوفياتية. ذلك أن «روسيا ذات سيادة» تستدعي خلق «أوكرانيا ذات سيادة»، بعدها الانهيار النهائي لآخر امبراطورية في هذا القرن.

الجزء الثامن

مخطط لرسم وجه القائد

«لقد بلغتُ أعلى مقامات السلطة»

أ. بوشكين، بوريس غودونوف

هذه الأعوام الخمسة من «البريسترويكا» هي فعلياً أعوام غورباتشيوف. إن جميع المبادرات تعود إليه، وله كلمة الفصل في كل شيء، والى جانب صورته العملاقة يبدو الرجال وكأنهم أقزام، خطبه وتصريحاته تغطي صفحات الجرائد وتملأ شاشات التلفزيون. هو «البريسترويكا» والبريسترويكا هو. الكل يفكر هكذا: فبدونه كانت الأمور لتذهب في اتجاه مغاير. ويكاد أن يعتبر الجميع أن من دونه تعم الفوضى، وتنهار البلاد، وتعود الى الماضي الكريه. ويمكننا أن نفهم عنوان مجموعة المقالات التي نشرها عام ١٩٨٨، أبرز مناصري الاصلاحات «اينوكو ني دانو»، وهو حرفياً «لم نحصل على غير هذا»، حيث ترجمت الى الفرنسية «لا يوجد مخرج آخر»، بمعنى أنه لا يوجد سبيل آخر أو: ليس لنا قائد آخر.

والأمر كان دائماً على هذا النحو. يطبع الأمين العام القائد المرشد بطابعه العصر الذي يُعطى له. فجميع أسلاف غورباتشيوف فعلوا هكذا كل على طريقته. تحدد شخصية القائد، سيئاته ومحاسنه (إذا استطاع المؤرخون أن يعيّنوها في المستقبل) الى حد بعيد، الطراز السائد في البلاد، في لحظة تاريخية معينة، إضافة الى شروط الحياة التي يعيشها السكان.

وخمس سنوات تمثل فترة قصيرة نسبياً: فقد حافظ ستالين مثلاً على السلطة المطلقة طوال أكثر من ربع قرن. غير أن هذه الفترة ليست قصيرة الى هذا الحد: فلينين لم يبق في الحكم إلا خمس سنوات، وهو الوقت الذي لزم لورثة لينين كي يركّزوا السلطة بين أيديهم، ولتفعيل كل القوة الكامنة في موقع الأمانة العامة. أما ميخائيل غورباتشيوف فقد عرف كيف يستخدم هذه القوة بمهارة: فمما لا شك فيه أنه قد وصل الى السلطة العليا بصورة أسرع من سلفه. وبعد خمس سنوات على انتخابه الى الموقع الأول في الحزب، احتفظ بجميع الامكانيات التي يعطيها له موقع الأمين العام وأضاف إليها تلك المتعلقة برئاسة السوفيات الأعلى. وفي آذار ١٩٩٠ انتخب غورباتشيوف رئيساً للاتحاد السوفياتي، وهو موقع لم يكن موجوداً حتى اليوم. فمن الناحية الشكلية القانونية يتمتع غورباتشيوف بسلطة أهم من تلك التي كانت تعود لستالين. فهو من

الناحية القانونية رئيس الحزب والدولة. ولم يسبق أبداً منذ ستالين أن حظي أي زعيم سوفياتي بمثل هذه الشعبية التي يتمتع بها غورباتشيوف في الخارج.

وفي ١٩٨٩ و١٩٩٠، أعطته البلدان الغربية الأفضلية على رئيس الولايات المتحدة. وقد ردد المتظاهرون اسمه في براغ وبرلين الشرقية وفارصوفيا، عاقدين عليه الآمال للتخلص من قادتهم الشيوعيين. إن صعود غورباتشيوف نحو السلطة العليا لا يقاوم، على الفور عرف كيف يقدم نفسه بوصفه الحل الوحيد مقابل «ركود» العصر البريجنيفي «وارادوية» العصر الخروتشيوفي، أي المخلص الوحيد الممكن، القادر على إخراج البلاد من الأزمة. كما ان مهندس «البريسترويكا» لا يواجه أخصاماً جديين. ليس له سوى منافسين «وزملاء» ينظرون بشيء من البرودة الى أفكار السكرتير العام. وهم يُطردون دون رحمة من جهاز الدولة. وتمشياً مع التقاليد التي أرساها خروتشيوف تجري عملية «التطهير» دون إراقة دماء: الذين يزعجون غورباتشيوف يحالون الى التقاعد. والأمين العام يوجه عادة ضرباته بشكل مفاجيء. فالعديد من الذين لا بد لهم من «مواجهة نهايتهم» ينتظرون دورهم طويلاً، وهم يتعرضون للرصاصات الحمراء من قبل الصحافة ويستخدمون كانذار للآخرين. وفي خريف ١٩٨٩ وبعد أن غادر ١١٠ من أعضاء «برلمان» الحزب، غير النافعين للأمين العام، «ارادياً» اللجنة المركزية وبعد إحالة الأمين الأول للجنة المركزية في أوكرانيا شتشربيتسكي على التقاعد، والأمين الأول في مولدافيا غروس، كان يمكن لغورباتشيوف القول إن الهدف الأساسي من هذه المرحلة الأولى من «البريسترويكا» قد تحقق: لقد وقعت السلطة كلها بين يديه. ولو كان لديه متسع من الوقت لاستطاع القائد أن يتأمل ممتلكاته ابتداءً من قمة السلطة. غير انه كثير المشاغل. وفي نيسان ١٩٨٥ عندما قدم الأمين العام الجديد مشروعه للمرة الأولى، لم يكن الأمر قد تخطى بعد الحديث عن حالة «ما ـ قبل ـ الأزمة»، التي يبدو من السهل ايجاد علاج سريع لها. يكفي ببساطة «إطلاق الدولاب». ولكن بعد مضي خمس سنوات لم يعد أحد يشك في خطورة الأزمة التي تجتازها الامبراطورية، والايديولوجيا التي تقوم عليها، والناس المقيمون فيها. وها هنا مفارقة تميّز هذه السنوات الغورباتشيوفية الخمس: كلما تسلق القائد سلم السلطة تفلت هذه الأخيرة من بين يديه، لتتفتت وتتشظى الى صراعات اقتصادية واجتماعية وصدامات دامية بين الاتنيات وجهود ميؤوسة لتحريك جهاز الحزب. ورغم ذلك يبقى غورباتشيوف، في

قمة السلطة المعلم الأكبر، أي المرجع الذي له كلمة الفصل على جميع المستويات.

إن مكانة غورباتشيوف وموقعه في ما حصل من أحداث خلال السنوات الخمس الأخيرة لا يمكن إلا أن يلفتا الانتباه الى شخصية القائد والى أقواله وأفعاله. وربما كانت السيّر العديدة التي نُشرت بعيد انتخاب غورباتشيوف الى الأمانة العامة تعبّر عن أمل بايجاد شيوعي «صالح»، وهو أمل تغذّى تقليدياً من هذا اليقين بأنه لا ريب آتٍ. ومما لا شك فيه أن الأسئلة حول القائد الجديد تدور في إطار البلد نفسه. وجميع المقارنات مع أسلافه تصب في صالحه: إنه شاب أو حتى «مراهق» في مقابل بريجنيف، وأندروبوف، أو تشيرنينكو. وقد وعد بارجاع كل شيء الى نصابه، وأعلن الحرب على الادمان جاذباً الانتليجنسيا نحوه. غير أن المشاكل لم تتأخر في البروز. وبقدر ما كان غورباتشيوف يصعد نحو السلطة كانت المشاكل تزيد وتتشعب وتصبح مقلقة.

أما المشاكل فلا ترتبط فقط بالاستياء الذي تثيره الاصلاحات. إذ من صفات المواطن السوفياتي الطبيعية الرضى بالحياة البائسة ـ شرط أن تكون مضمونة ـ والخوف من أي تغيير. والواقع أن هذه المشاكل لا تنفك تؤثر على مستويات مختلفة ـ على طبيعة أي انسان. ألم يفتتح تاسيت «حياة اغريكولا»، وهو سرد لما حصل من أحداث في القرن الأول من عصرنا، بهذه الكلمات: «ان ضعف طبيعتنا يفسر لماذا يأتي فعل الدواء أبطأ من الداء وان يكون القضاء على روح المبادرة أسهل من احيائها. ألا يعطي الخمول بعض الشعور بالغبطة. . . »؟ تلك هي الاسئلة التي يطرحها دعاة الاصلاح.

في آب ١٩٨٧، روى الكاتب الهجائي الموسكوبي آركادي آركانوف قصة كوكب صغير جداً يقع في دائرة تحكم الأرض، وحيث احد عشر مسؤولاً تعاقبوا عليه لم يستطيعوا حل المشاكل. وأخيراً عينّت الأرض قائداً الكترونياً، زوّد ببرنامج يؤمّن له الحكمة المطلقة في جميع الميادين ومنطقاً خارقاً حارقاً وقدرة هائلة على التحليل والتركيب، وأعطي له الاسم التوراتي: سليمان. وهكذا أرسل سليمان الى الكوكب الصغير. وقد رأى «ان الجوهري يكمن في إثارة روح المبادرة ويقظة الوعي. ويجب لذلك منعهم من أن يتفقوا معي على جميع المواضيع المطروحة». وتبيّن الرواية لاحقاً كيف حاول سليمان أن يجعل من سكان الكوكب شخصيات مستقلة غير انه فشل رغم قدراته الالكترونية[١].

وفي الفترة نفسها تقريباً حظي الكاتب الفرنسي كلود سيمون الذي دعي، بوصفه حائزاً على جائزة نوبل، الى معرض ايسيك ـ كول لمشاهدة الأمين العام والاستماع إليه. . والانطباع الذي أخذه عنه هو أنه «الولد الأخير من سلالة رجال عصابات، قد يكون نشأ في مدرسة في سويسرا (مع هذا الفارق انه لم ينشأ في سويسرا بل أنشأ نفسه بنفسه معتمداً على قواه الذاتية وسط غابة لا قوانين لها إلا الحيلة والعنف ـ وهذا يستتبع احتياطات جدية للتعامل بواسطة هذه أو ذاك)، وعمل بعد عودته الى البلاد، ودراسته في معهد فوروا حيث أصحاب الملايين ورجال العصابات يرسلون ابناءهم، على اعادة توجيه مصالح العائلة في ميادين التجارة المعتبرة شريفة، أي الأقل عرضة للتزعزع، والتي لا تستدعي هذا المستوى من العنف الساذج، وتكون أعلى مردودية من عمليات الاغتيال على أبواب البارات أو النفي الجماعي. . . »[٢]. ويُبيّن بدقة تطور الحكم الذي أعطاه أندريه ساخاروف بشأن غورباتشيوف تقلبات الموقف تجاه القائد تبعاً لأفعاله وسلوكه. فما ان تحرر ساخاروف من منفاه بتدخل من قبل غورباتشيوف في كانون الأول ١٩٨٦، ولم يكن بعد يمتلك حق التعبير في الصحافة السوفياتية، حتى أسّر إلى محاوره الأميركي بأن الحياة قد أصبحت بها لا يقاس أكثر حرية وأقل ضبطاً. وإننا نتعجب كل يوم مما نقرأ. . . »[٣].

في آذار ١٩٨٧، وفي كلمة ألقاها في المعرض المقام في موسكو «من أجل عالم خال من السلاح النووي وبقاء الانسانية» دافع الأكاديمي ساخاروف عن مقترحات نزع السلاح مشيراً، إلى أنه «رغم الآليات التقدمية لبسط الديمقراطية وتوسيع الغلاسنوست التي تجري الآن في البلاد يبقى الوضع متناقضاً ودون اتجاه واضح. . . » أما البرافدا التي نشرت وثائق المعرض «الفوروم» فأشارت الى مشاركة ساخاروف إلا أنها لم تأخذ من مداخلته إلا مقطعاً حيث يعتبر أن موقف أنصار IDS[٤] متهافت». وفي مقابلة لمجلة تايم أعلن الأكاديمي ساخاروف «إن غورباتشيوف وأنصاره الذين يخوضون معركة صعبة ضد القوى المتحجرة الدوغمائية والأنانية يهتمون بنزع السلاح. . . » ويضيف ان مصلحة الغرب والعالم أجمع ان تكلل الاصلاحات في الاتحاد السوفياتي بالنجاح. «إن الاتحاد السوفياتي القوي اقتصادياً الديمقراطي والمنفتح سيكون ضمانة هامة للاستقرار العالمي وشريكاً صلباً في المشاكل الشاملة»[٥].

في ١٩٨٨، بدأ حكم أندريه ساخاروف على مجريات الأمور في البلاد وعلى دور

غورباتشيوف ونمطه، يتغيّر. ففي مؤتمر صحفي في وزارة الخارجية، في حزيران، وصف ساخاروف الأمين العام «برجل الدولة البارز» إلا أنه اعتبر أن «البريسترويكا» لا تذهب بعيداً كما يجب[٦]. وفي أيلول بدأ ساخاروف يتكلم عن اخفاقات البريسترويكا وخاصة عن مشكلة كاراباخ ـ العليا وعن رفض إدانة تدخل عام ١٩٦٨ في تشيكوسلوفاكيا والعوائق التي اصطدمت بها الصحف والمجلات لما تحمله من وجهة نظر نقدية. ووصف ليغاتشيف «بالقوة الرجعية الشديدة الخطورة»، التي تحول دون التقدم الى الامام[٧]. وفي كانون الأول ١٩٨٨ وفي كلمة ألقاها في السفارة السوفياتية في باريس أعلن ساخاروف للمرة الأولى: «أن غورباتشيوف يستحق ثقتنا. . . إنه سياسي بارز صادق لا مثيل له. ولكن رغم ذلك فإن بعض معالم شخصيته تزعجني. . . مثلاً ميله الى التسوية اللاديموقراطية وحبه للسلطة الشخصية»[٨].

وبعد أن أحرز انتصاراً عظيماً في انتخابه كنائب للشعب، اصطدم الأكاديمي ساخاروف علناً بالأمين العام أثناء جلسات المؤتمر، ورفض الاقتراع لصالح غورباتشيوف لرئاسة السوفيات الأعلى مقتنعاً انه لا بد من انتخاب رئيس البلاد بالاقتراع العام. وفي اليوم الأخير من المؤتمر اقترح ساخاروف الغاء المادة ٦ من الدستور التي تعطي الحزب السلطة المطلقة في البلاد، وأعلن أن ميخائيل غورباتشيوف ركز بين يديه سلطة تكاد تكون غير محدودة. وقد حاول غورباتشيوف الذي يترأس الجلسة تكراراً مقاطعة خطاب النائب ساخاروف، إلا أنه أكمل حديثه بكل هدوء. حينها عُطِّل المذياع. وهكذا كان الناس في البلاد يشاهدون الخطيب دون أن يسمعوا الخطاب. وفي خطابه الختامي رأى غورباتشيوف أنه من الضروري «الرد على التلميحات التي توحي بأني حصرت كل السلطة بين يديّ». ان هذا يتعارض، كما أكد الأمين العام ورئيس السوفيات الأعلى مع «أفكاري ورؤيتي للعالم وحتى مع مزاجي الشخصي».

في أيلول ١٩٨٩، وفي مقابلة مع صحيفة الموند، أجاب ساخاروف عن السؤال: «ما هو رأيك بميخائيل غورباتشيوف؟»: «من جهة أفهم أنه المبادر الى البريسترويكا، وانه كان ضرورة تاريخية. أما من جهة أخرى فلا أرى أن لديه موقفاً ثابتاً. . . حتى إنه لدينا انطباع أنَّ التغيير الواقعي الوحيد هو وصوله الى السلطة. ربما لا يخلو هذا من مبالغة، إلا انه يوجد شيء من هذا النوع». وفي تشرين الثاني وخلال حوار هاتفي مع ممثل عمال المناجم المضربين ففي فوركوتا أعطى أندريه ساخاروف جردة عن

«البريسترويكا»: «يبقى في نظامنا الاقتصادي والاداري شيئاً من الستالينية، ستالينية بحلة جديدة أكثر انسانية، ولكنه يبقى من الستالينية، أي نظاماً ضد الشعب، بنية ضد الشعب وعلينا أن نناضل لتصفية هذا الارث الستاليني»(١٠).

لقد قدمت الانتقادات «اليمينية» التي أطلقها كبار «التقليديين» و «الصقور» و «الرجعيين» ضد السياسة الغورباتشيوفية، خاصة في الصحافة الغربية بوصفها ضمانة على ثورية التغييرات التي أقدم عليها الأمين العام. وابتداءً من النصف الثاني من ١٩٨٨ بادر أنصار غورباتشيوف الأشد ولاءً له الى انتقاده بحدّة مطردة وبتركيز متزايد على شخصه. فالمؤرخ يوري أفاناسييف بات يتكلم عن «رجل دولة يجمع جميع المناصب التي استطاعت البشرية أن تخترعها من خلال تجربتها» ويكمل قائلاً: «انه على ما أعتقد، الرجل الوحيد في العالم الذي يجمع مهام الرئيس والقائد العام، والناطق باسم البرلمان، والكاهن الأكبر، فوق البيعة! انه حقيقةً ظاهرة فريدة»(١١). وفي مقابلة معه يورد ساخاروف عبارة أخرى، لأفاناسييف: «على غورباتشيوف أن يختار بين أن يكون قائد البريسترويكا أو قائد النومنكلاتورا. أما الخبير السياسي ميغرانيان فيختار مقارنة أخرى: «ان غورباتشيوف يلعب دورين في آن معاً: دور لوثر ودور البابا. فمن جهة يتحدّى النومنكلاتورا، يريد تدميرها أو تغييرها، ومن جهة أخرى فانه يجسد بنظر الرأي العام نظامها بالذات. وتوضح رغبة غورباتشيوف بلعب جميع الأدوار الكبرى في آن معاً تعاظم الاستياء العام الذي تثيره سياسته. إذ تنهال على الأمين العام ـ الرئيس ـ الزعيم ـ القائد العام ـ الكاهن الأكبر والناطق الرسمي، التهم بالتردد والضعف وفقدان السيطرة. هذه التهم تأتي من نينا أندرييفا، من أمناء لجان المناطق في الحزب، من أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي الذين يعتبرون عادة من التقليديين، ولكن أيضاً من أولئك الذين يوصفون «بالليبراليين». وفي غضون صيف ١٩٨٩، إتخذ يوري أفاناسييف موقفاً قاطعاً: . . . «إننا وسط الفراغ السياسي الكامل. لقد طال الانهيار أصل بنية السلطة ونواتها القاعدية، ولم يعد للمكتب السياسي أية صلاحية. السلطة المحلية أصيبت بالشلل خوفاً من الانتخابات المقبلة، فيما أصيبت السلطة العليا بفقدان الرؤية». أما أندريه ساخاروف فقد صرّح: «أرى أن سلوكه مترجّح»، وكذلك ذكّر الفيلسوف ايغور كليامكين أن نابليون أرسى «بقبضته الحديدية» شروط الوفاق، شروط تسوية الوضع وتناسقه»(١٢). وهكذا كانت فكرة الانتقال من الكلّيانية الى

الديموقراطية من خلال المرور بفترة من الاستبداد تتعاظم في الأوساط الليبرالية. وقد أكد ميغرانيان: «اننا لم نرَ أبداً في أي بلد آخر تحولاً مباشراً من الكليانية الى الديموقراطية. أي أن مرحلة «انتقالية» من الاستبداد كانت دائماً ضرورية»(١٣) وهذا ما نوه إليه سولجينيستين حتى منذ عام ١٩٧٣: «فالأكثر إرهاباً ليس الأنظمة المستبدة بل تلك التي لا يضمنها أي شيء أو أي شخص»(١٤).

شكّل التشهير «بعبادة الشخصية» إحدى الوسائل الأشد فعالية في سياق الصراع على السلطة الذي احتدم اثر وفاة ستالين. ثم ان موجة التشهير بدأت تتلاشى، لتعرف البلاد مراسم العبادة نفسها وإن ملطفة في عهد خروتشيوف ومن بعده بريجنيف»(١٥). ولم يُخفِ الذين صاغوا المقالة حول «عبادة الزعيم» التي نشرت في ربيع ١٩٨٩، ان زمنها لم ينتهِ بعد.

وقد رأوا أن العلّة الكامنة وراء حيوية هذه العبادة والذهنية التي لا تنفك عنها تتمثل برغبة « الجهاز الحاكم بالابقاء على هذه الذهنية» ولتدعيم أطروحتهم استحضروا الشخصية الوحيدة التي ما تزال محافظة على هيبتها: لينين، وذلك بوصفه، كما قيل، ضد هذه العبادة. ويكفي أن ننظر الى مجموعة مقالات وخطب وتصريحات لينين، وهي بعنوان «سطوة القائد»(١٦) ليتبدد أي شكٍ: فمؤسس الحزب وقائد الثورة هو الذي كان في أصل عبادة الزعيم. ذلك انه لم يكن يتصور الدولة التي أسسها «دون مركزية صارمة»، أو دون قائد يتمتع بسلطة لا حدود لها ويكون كل شيء خاضعاً له.

وخلال هذه السنة الخامسة من البريسترويكا برزت حاجة ملحة ليس للعبادة بل لشخصية قادرة. كما برزت مفارقة: تمركزٌ للسلطة في يد القائد لم يُرَ مثيل له من قبل، واستحالة ـ أو رفض ـ لاستخدامها. يعتبر التهديد باللجوء الى القوة من الثوابت التي تميز سلوك غورباتشيوف. وهو لم ينِ يردد: يمكننا اللجوء الى القوة إلا انه يضيف عادة: ولكنني لا أريد. وفي المؤتمر التاسع عشر للحزب، ومجيباً على مداخلة أحد المندوبين الذي دعاه الى «الضرب بقبضة يده على الطاولة» أعلن غورباتشيوف يمكننا أن نفعل ذلك أيها الرفاق، بالتأكيد. وإذا كنتم متفقين على هذا الأمر، لنبادر به منذ الآن» وهذا ما جلب له التصفيق. إلا انه أضاف مباشرة «ولكن ما نحتاجه هو غير ذلك... علينا أن نتخلى عن الأساليب القديمة...» وقد جلب له ذلك التصفيق أيضاً(١٧).

وفي مقابلة مع الماغازين تايم في حزيران ١٩٩٠ ذكر ميخائيل غورباتشيوف: «لقد وُجِّهت إليَّ الانتقادات لأني كنت مائعاً أو ديموقراطياً أكثر مما يلزم. . . وأُخذ علي أيضاً ترددي» ومشدداً أن جوابه لا يهم الأميركيين فقط بل أيضاً الشعب السوفياتي، ردد فعل ايمانه المعتاد: البقاء في الوسط لأن الخطر الرئيسي يأتي من المتطرفين من على «اليمين» و «اليسار»(١٨).

ما من أحد يمتلك الجواب الحاسم: هل أن غورباتشيوف لا يريد استخدام القوة أم انه غير قادر على استخدامها؟ ربما يمكنه ذلك ولا يريد؟ أو العكس. هناك حجة تعطى في صالح هذا التفسير أو ذاك: ابتداء من ميول غورباتشيوف الديموقراطية، وصولاً الى عدد الفرق الداخلية الضئيل.

ويسمح سلوك غورباتشيوف خلال هذه السنوات الخمس بتبيان بعض معالم تركيبته: «من هو؟ يتساءل الصحافي نيقولاي شولغين. زعيم أنيق على النمط الأوروبي؟ بطل التقدم في بلد المحافظين؟ عجينة جيدة؟ الأندي؟ بطرس الأكبر؟ . . . نحن عرفنا غورباتشيوف كداعية الى ثورة جديدة. عرفناه وهو يصوّت على قرارات السماح بالمظاهرات (الاجتماعات واللقاءات. . .) وعلى الحقوق الداخلية». ويمكننا أن نضيف العديد من الأمثلة على هذه اللائحة وهي لن تزيدها إلا تناقضاً والتباساً. أن صاحب مقاله: «من هو» يعرف الجواب: غورباتشيوف هو زعيم، رجل ديموقراطي أطلق آلية تسمح بتغيير الكوادر من تحت. «عشر سنوات في ظل غورباتشيوف وسوف نجد ازدهارنا السياسي مُؤمّناً». وأخيراً هذا الاستنتاج: «غورباتشيوف هو رجل الوسط النموذجي»(١٩).

ولقد رأينا أن ستالين تمتع بهذه الصفة لغاية عام ١٩٣٤، فالوسطية هي السياسة الأسهل بالنسبة لأي قائد في مرحلة مراكمة القوة. غير أن التكتيك الذي يتبعه غورباتشيوف يبدو أقرب الى الحَيرة منه الى الوسطية، انه تكتيك متعرج، متردد يعمل بالمفرّق. أما أنصاره فيقولون أنه ليّن. وهذا ما يردنا الى تعريف اسحاق بابل: «إنحناء الخط المستقيم العجيب عند لينين»(٢٠) أي بتعبير آخر الديالكتيك الماركسي ـ اللينيني، الذي يثمّنه غورباتشيوف عالياً جداً.

تظهر حنكة غورباتشيوف السياسية من عدم تسرعه في المبادرة والحسم. فهو

يفضل التمهل منتظراً نضوج المسائل أو تعفنها أو حتى زوالها. وغالباً ما يسمح الانتظار لغورباتشيوف بقلب وضعية ما لا تكون في صالحه. فهو مثلاً انتظر اثني عشر يوماً قبل التوجه الى الشعب اثر كارثة تشرنوبيل. ولكنه يتفنن فيما بعد بلعب دور ضحية التسابق على التسلح النووي وهذا ما سوف يكسبه عطف العالم أجمع والواقع انه في هذه الحالة المحددة تلقى دعماً قوياً من الخبراء الأميركيين لادارة الحملات الاعلامية، التي أطلقها الكرملين. وكذلك انتظرت نينا أندرنييفا ١٢ يوماً قبل أن تلقى جواباً على رسالتها التي قدمت بوضعها برنامج عمل المعارضة المحافظة، مما دفع الى بثّ الشك في نفوس المواطنين السوفيات الذين اعتقدوا أن البريسترويكا قد انتهت. وفي المؤتمر التاسع عشر الذي تلا ذلك مباشرة حصل غورباتشيوف دون أي مقاومة على ضمانة بانتخابه الى رئاسة السوفيات الأعلى. وكذلك رافضاً إيجاد حل فوري للصراع بين الأرمن والاذربيجانيين بشأن كاراباخ ـ العليا اختيار غورباتشيوف بعد أن التهب الصراع معاقبة الأرمن، ملبياً هكذا رغبات الاذربيجانيين متلافياً الصدام مع المسلمين الشيعة، ومبرهناً أن موسكو تبقى ضمانة لأمن «الأخوة ـ الأعداء» من شعوب الاتحاد السوفياتي. غير انه يحصل أحياناً ـ ولكن نادراً ـ أن يتصرف الأمين العام بردة فعل سريعة ودون أي لبس. فبعد أن حطت الطائرة الألمانية في الساحة الحمراء رأينا كيف أنه طرد وزير الدفاع أثناء انعقاد مجلس الوزراء. وهكذا تحول ضعف نظام الدفاع الجوي السوفياتي في نهاية الأمر الى مكسب سياسي لصالح غورباتشيوف. العمل بطيئاً على مراكمة القوة لتسديد ضربة حاسمة فيما بعد تلك هي ميزة الأمين العام الذي لم ينِ يُطهر الجهاز المركزي في الحزب. لقد قال هوغو في روبسبيار، إنّ فيه قوة الخط اليميني. أما قوة غورباتشيوف فتتمثل بالخط «اللينيني»، خط ملتوي متعرج: جدلي، «ديالكتيك».

ويشكل الخوف سلاحاً مهماً في ترسانة ميخائيل غورباتشيوف السياسية. فما ان أخذ السلطة حتى نشر الذعر ملمحاً الى انه من الممكن أن يفقدها. لم يلجأ أحد من أسلاف غورباتشيوف الى هذه الوسيلة بمثل هذا الاصرار رغم أنها ظلت دائماً سلاحاً احتياطياً. فمثلاً في الثلاثينات والأربعينات ساد الخوف من زوال ستالين خشيةً أن يحل «الصقور» مكانه ثم إنَّ الخبراء الغربيين في الشؤون السوفياتية، وهم أساساً من الأميركيين، رسموا لوحة مخيفة عما يمكن أن ينتج عن ذهاب بريجنيف بالنسبة للسعي الى عالم أفضل. كما أننا نذكر أيضاً التعاطف الذي أثاره يوري أندروبوف أينما كان.

وتعرف هذه المشاعر التي تطلقها بحنكة الأجهزة المتخصصة بالداخل لدى المواطنين السوفيات رواجاً خاصاً في الغرب.

إن غورباتشيوف يستخدم هذا «الهوس التخويفي» بوضعه محترفاً أصيلاً. ففي اللحظة المناسبة وبشكل منتظم تطلق الصحافة العالمية انذار الخطر. خلال صيف ١٩٨٧، إختفى غورباتشيوف فجأة، مما سمح بطرح عدد كبير من الفرضيات، كل واحدة منها أشد إثارة من الأخرى. ثم عاود ظهوره من جديد بعد ٥٢ يوماً على غيابه ليهدّأ النفوس. وفي عام ١٩٨٨، باتت نوبات القلق تزداد وتنقص بحسب الشائعات الآتية من موسكو وبحسب الجردة التي تعد يومياً في الغرب بأنصار وأخصام الأمين العام من أعضاء المكتب السياسي. «غورباتشيوف في خطر» كان ذاك عنوان «Frankfurter Allgemeine Zeitung»[٢١]، الذي تردد كالصدى في جميع لغات العالم. وبعد عام، أي في خريف ١٩٨٩، نشرت الواشنطن بوست مقالة تحت عنوان ظهر وكأنه لا مفر منه: «غورباتشيوف، مهدد وبحاجة الى دعم سريع من قبل الغرب»[٢٢] إلا أن غورباتشيوف لم يكتف بها لعبته الصحافة الغربية من دور الوسيط لحسابه. إذ بادر شخصياً الى الكلام عن الأخطار التي تحيط به. مباشرة من على تلفزيون موسكو، أو من خلال ذلك الحوار الهاتفي مع الرئيس الفرنسي، حيث استناداً الى صحافي فرنسي حذّر غورباتشيوف ميتران قائلاً: «يوم سيعلن إعادة توحيد ألمانيا سوف تُكرّس الصحف سطرين لتنشر نبأ مفاده أن ماريشالاً سوفياتياً استولى على كرسيي»[٢٣]. لا يوجد في الاتحاد السوفياتي سوى ماريشال فعّال واحد، وهو وزير الدفاع ايازوف، وهو من أعوان غورباتشيوف المخلصين. ولكن مهما يكن فالرسالة واضحة «أمنوا لي الحماية».

تسمح خمس سنوات من البريسترويكا بإجراء حساب واضح: فشل الاصلاحات الزراعية، تفاقم الأزمة الزراعية، صراعات بين الاتنيات ترتفع حدتها مع الوقت، ظهور ميول انفصالية، استياء اجتماعي... أي أن سياسة غورباتشيوف الداخلية تشكل كارثة حقيقية. فجميع ما حقق من نجاحات ينحصر في السياسة الخارجية. إن التاريخ السوفياتي لم يشهد أبداً من قبل مثل هذا القائد الذي يحظى بشعبية في الخارج أكبر من تلك التي يحظى بها في بلاده. ولكن هناك بعض التشابهات التي تبقى، في أحسن حال، غير متوقعة: سوكارنو في أندونيسيا، ونكروما في غانا.

يمكننا تفسير نجاحات غورباتشيوف الخارجية التي تنعكس على الجاه الذي يتمتع به والثقة الممنوحة لسياسته، والدعم الشديد للبريسترويكا بطرق متعددة: قبل أي شيء يتوجه منظمو طقوس عبادة غورباتشيوف في المقام الأول الى الغرب. وبمصطلح عسكري يمكننا القول أن وسائل الاعلام السوفياتية تضع في احداثياتها وسائل الاعلام الغربية، وهي تنجح بصورة باهرة بتنظيمها وضبطها واستخدامها. ثم أن عدة بدائل من السياسات الخارجية تمت صياغتها منذ زمن بعيد من جانب السوفيات، وقد جرى التحقق منها من قبل أسلاف غورباتشيوف تحت أسماء مختلفة، منها «التعايش السلمي»، و «الانفراج»... وإضافة الى ذلك يمكننا القول أن هذا النجاح يعود الى سبب رئيسي يكمن وراء شعبيته الهائلة في الخارج، وهو أنه قد عرف كيف يتكيّف مع الصورة التي كان متوقعاً منه أن يتلبسها. ذلك أنه بالضبط الزعيم الشيوعي الذي كان يتمنى الغرب بروزه منذ ثورة أوكتوبر: مسالم، ديموقراطي، ليبرالي ومخلص في الوقت نفسه للاشتراكية. وعندما كان غورباتشيوف يتخذ قراراً باللجوء الى شيء من القسوة والعنف كان ما يستثيره من محبة يتحول الى عاطفة جامحة. فما يعتبر في بلد الأمين العام سياسة مترددة يظهر في الغرب الحكمة السياسية بعينها ـ سياسة حكيمة على النمط الغربي ـ أي سياسة تقوم على التسوية.

ويحق للغرب أن يكون ممتناً من غورباتشيوف وله في ذلك أسباب. إذ لم يجلب الأمين العام الى بلاده شيئاً سوى امكانية الكلام عن المآسي التي تعاني منها. أما في المقابل فقد أعطى للغرب «الانفراج» ضمن أحجام لم تُعرف حتى الآن، واسترخاء كبيراً في العلاقات الدولية. ومهما قيل: انه لا يتصرف على هذا النحو إلا لمصلحة شخصية، فإن ذلك لن يعدّل شيئاً في صورة غورباتشيوف الداعية الى السلام. إن أسطورة ستالين محرر الشعوب لم تزل قائمة حتى الآن، وكذلك الفكرة التي صوّرت الحرب ضد هيتلر كصراع من أجل بقاء الاتحاد السوفياتي، وتلك التي أظهرت أن شعوب أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى قد «حُررت» عام ١٩٤٥ قبل أن تُضم الى الامبراطورية السوفياتية.

وقد اتخذت صورة «غورباتشيوف المسالم» أبعاداً تجاوزت أي حد، عندما انهار المعسكر الاشتراكي في خريف ١٩٨٩ الذي تجري مقارنته عادة «بربيع الأمم». فها إننا نشهد في بلدان أوروبا الوسطى والشرقية ـ التي أسميت «ديموقراطيات شعبية» بعد أن

دخلتها القوات السوفياتية في ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥، و «بلدان اشتراكية» بقدر ما كانت تترسخ السلطة الشيوعية فيها ـ تغييراً يطال الأنظمة.

كانت بولونيا في الطليعة. إن الانفجار الذي أحدثته «التضامن» في ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ كان مؤشراً على نهوض المجتمع وكشف، وسط الذهول العام، هشاسة النظام القائم. إلا أن إعلان «حالة الطوارىء» جمد الوضع، الذي لن يبدأ بالتفلت من جديد إلا بعد صعود غورباتشيوف الى السلطة في الاتحاد السوفياتي. وتحولت بولونيا الى حقل إختبار: أقيم نوع من المشاركة بين المعارضة والسلطة في البلاد، التي ظلت في يد الحزب الشيوعي. وقد تم في إطار «طاولة مستديرة» نظمت في ١٩٨٨ تحديد عالم البِنية الجديدة: لقد اتفق ممثلو الحزب و «التضامن» من خلال وساطة فعالة بادرت إليها الكنيسة الكاثوليكية على إجراء انتخابات لممثلين في البرلمان بحيث يكون للمعارضة ٣٥٪ من المقاعد. غير أن هذه الانتخابات سوف تؤدي الى انهيار جميع الاتفاقات السابقة التي توصلت إليها اللجنة المصغرة في إطار «الطاولة المستديرة»: ونجحت التضامن في نيل أغلبية ساحقة من الأصوات. غير أن هذا لم يمنعها من فعل كل شيء لكي يحافظ الشيوعيون على عدد من المقاعد في «الدييت». وفي ١٩٨٩ تشكلت حكومة برئاسة تادوز مازوويكي. وقد ضمت، طبقاً لمقرارات «الطاولة المستديرة» التي لم تتوقف المعارضة القديمة عن تطبيقها أربعة وزراء شيوعيين. وقد انتخب الجنرال جاروزيلسكي رئيساً بمساعدة نواب التضامن. وفي خلال صيف ١٩٩٠ تعرض الشيوعيون الى اقصائهم من الحكومة. وهذا ما أدى الى تفكك الحزب العمالي المتحد لبولونيا بشكل كامل، وهو الحزب الذي تولى السلطة منذ قدوم القوات السوفياتية.

أما في تشيكوسلوفاكيا، فقد «كنّست» «الثورة المخملية» السلطة الاشتراكية بصورة فورية، وأحلت مكانها حكومة مؤلفة من المعارضين القدامى. وقد تردد السيناريو نفسه في هنغاريا وبلغاريا ورومانيا.

وقد شكلت الثورة «الرومانية» التي تابع أحداثها العالم أجمع من على الشاشة الصغيرة وأثارت الحماس العام ـ هل يمكننا أن نتخيل شعباً يواجه هذه الآلة الأمنية التي لا ترحم في ارتكابها للمجازر الجماعية بمثل هذه الشجاعة؟ النموذج الثاني لوضع مخططات موسكو موضع التنفيذ. لم يعد اليوم موضع شك (والوثائق تشهد على ذلك)

في أن المخابرات السوفياتية والتشيكوسلوفاكية تآمرت معاً للإطاحة بالمحافظين واستبدالهم بالليبراليين على رأس الحزب الشيوعي. ولكن من الواضح أن المخطط قد فشل. غير انه بالمقابل نجح تماماً في رومانيا حيث لم تكن الثورة، كما نعلم، سوى مسرحية هزلية، أو نتيجة مؤامرة استخدمت موسكو لتنفيذها الجيش والمخابرات الرومانية. وبالمقابل فإن المخطط الهادف الى الحفاظ على السلطة الشيوعية من خلال تبديل القادة، لم ينجح إلا جزئياً في بلغاريا. فيما لم يتحقق مثل هذا الأمر، في ألمانيا الديموقراطية حيث كانت المخابرات سلاحاً ماضياً بيد موسكو.

إن المؤرخين سوف يحاولون في المستقبل في معرض تحليلهم «لخريف الشعوب» عام ١٩٨٩، استعراض أسباب التفكك الصاعق الذي أصاب «المعسكر الاشتراكي» في صيغته الستالينية. ويمكننا منذ الآن أن نلحظ أنه لم يتواجد في البلدان الاشتراكية زعيم واحد يتمتع برصيد ما، وإن هذه البلدان لم تعرف كقادة لها إلا شيوخاً يتشبثون بالسلطة حتى الرمق الأخير، (نشير هنا الى أن شواشيسكوَ كان الوحيد الذي حوكم على أفعاله)، ولا بد من الاشارة هنا، وفي معرض الحديث عن أسباب التفكك، الى أن الارادة الغورباتشيوفية، بأحداثها تغييرات اعتبرت ضرورية على مستوى القمة، لم تنفذ إلا عبر المؤامرات والدسائس السرية. غير أن التفسير الأرجح يبقى في أن الأنظمة الشيوعية في بلدان المعسكر الاشتراكي ماتت ميتة طبيعية بعد أربعين عاماً على وجودها. والواقع أنها كانت قد فقدت القدرة على الاستمرار بدون دعم من موسكو. فما إن توقف هذا الدعم بصورته المباشرة، حتى تناثرت المومياءات كالغبار. حتى أن المخابرات التي اشتهرت بفعاليتها وكانت مرادفاً للرعب والإرهاب بدت عاجزة عن الدفاع عن نفسها أو عن النظام، وذلك عندما فقدت التعليمات التي تبثها موسكو خصائصها التوجيهية الصريحة.

وقد اتضح أنه كان من السهل جداً التخلص من الحكومات الشيوعية أو من الأحزاب الشيوعية نفسها. إلا أن الحياة بدت «بعد ذلك» أشد تعقيداً. فكل من هذه البلدان الاشتراكية سابقاً عرفت مصاعب خاصة. لقد سبق لليون تولستوي أن أشار، في زمانه، إلى أن لكل عائلة بائسة طريقتها في البؤس إلا أننا نجد بعض النقاط المشتركة التي تجمع بين المشاكل التي تواجهها اليوم الشعوب بعد عشرات من السنين على خضوعها للشيوعية. وقد قدّم النهج الرأسمالي الذي انخرطت في سياقه جميع بلدان

أوروبا الوسطى والشرقية بمثابة الترياق القادر خلال فترة قياسية على تحسين شروط الحياة وإرساء قواعد سليمة لها. إلا أن هذه البلدان لا تملك الرساميل ولا الكوادر من مدراء الأعمال، وهي ترفض بإصرار تفكيك المعايير الشيوعية وغالباً ما تحافظ على المراتب الدنيا والوسطى في جهاز الدولة. لقد فقد الناس هنا في جميع هذه البلدان، تذوّق العمل وذلك لما نعموا به من هذه الحسنة الوحيدة في الاشتراكية: إمكانية عدم القيام بأي عمل.

تُنبىء الوضعية التي تعرفها اليوم «البلدان الاشتراكية» سابقاً، بما سوف يحصل في الاتحاد السوفياتي، حيث بدأ التسابق نحو الرأسمالية، مع هذا الفارق وهو أن الأمور في أول بلد إشتراكي في العالم ستكون أصعب وأعقد بألف مرة.

أما «هدايا» غورباتشيوف الى الغرب، فيبدو أن هناك مبالغة بشأنها: فاقتراحاته ومشاريعه وخططه قد أدت الى قلب تصورات الديبلوماسية السوفياتية القديمة والى زرع البلبلة. ويبين كاتب المقالة بعنوان «غورباتشيوف اللغز» أن الأمين العام غالباً ما «كان في الداخل يضفي أشكالاً قديمة يألفها غالبية الناس، على ما كان يقترحه من تجديدات»(٢٥). أي كما لو أنه كان ينجز ثورته بهدوء دون أن يلحظ ذلك الذين يشاركون فيها. وبالعكس يمكننا القول أن غورباتشيوف كان في ميدان السياسة الخارجية غالباً ما يُلبّس ثوباً جديداً لما يستخدمه من وسائل قديمة. وهذا ما كان يناسبه كلياً. وقد أشار كيسنجر الى أن زعماء الدول الغربية عندما لا يفهمون ما يجري في العالم من أحداث يسارعون الى شكر غورباتشيوف. وهذا ما يفسر قدرة هذا الأخير على أن يقلب لصالحه أي حركة تراجعية من تحركاته، ليجعل منها انتصاراً.

تحتل عبارة «الفكر السياسي الجديد» في معجم غورباتشيوف السياسي موقعاً مركزياً. وهي تعني، كما يشير في كتابه «بريسترويكا» أن نفهم العالم بطريقة جديدة، وأن نقارب الكرة الأرضية وكأنها وحدة متكاملة. لقد صرح أندريه غراتشيف، المكلف بمتابعة الشؤون الفرنسية من قبل اللجنة المركزية، للتلفزيون الفرنسي: بأن الاشتراكية تبدّل جلدها. وهذا قد يصلح دون أي شك كتعريف دقيق لمضمون عبارة «تفكّر سياسي جديد». تمثل المكسب الأساسي لعصر بريجنيف، كما أشار غورباتشيوف في تشرين الثاني ١٩٨٧، «في تأمين التوازن العسكري الاستراتيجي مع الولايات المتحدة»(٢٦).

وإذا ما عدنا الى ثبت الموضوعات في كتاب الأمين العام «مختارات من الخطب والمقالات» نجد في الأجزاء الستة عبارة «التوازن العسكري الاستراتيجي، وسعي الولايات المتحدة والحلف الأطلسي الى كسره»، إضافة الى لائحة بالصفحات حيث تذكر وسائل مقاومة محاولات ضرب مثل هذا التوازن.

وقد صرّح غورباتشيوف مثلاً بعيد انتخابه: «إنه لا بد من الابقاء على هذا التوازن بكل الوسائل الممكنة وذلك لصالح السلام، إذ أنه الوحيد القادر فعلياً على احتواء نزعات الغرب الامبريالي وشهيته العدوانية» ويؤكد مؤلف «غورباتشيوف اللغز» «أنه من العبث أن نبحث، كما يفعل البعض، عن التناقضات في تصريحات الأمين العام».

لجأ تروتسكي عام ١٩٣٣، وهو يُحدد مفهوم «اللينينية»، الى تعظيم قدرته التي لا مثيل لها على «التغيير الفوري للتكتيك» أي الى اتباع «سياسة الانعطافات العنيفة». أما سالومون لوزوفسكي رئيس البروفينترن، فقد نشر في عام ١٩٢٤، مباشرة بعد وفاة القائد الأكبر، كتيباً بعنوان: «الاستراتيجي الكبير المختص بصراع الطبقات». وقد أشار فيه الى أننا عندما نقارب لينين من وجهة نظر المنطق، لا يصعب علينا أن نجد بعض التناقضات في فكره. إلا أنه يكفي أن نعتمد المقاربة الجدلية لنتبين أن ليس ها هنا أي تناقض. ببساطة كان لينين يطبق سياسته القائمة على «الانعطافات العنيفة». ويورد الكاتب بعض الأمثلة: «مثنياً على الدعوة الفورية التي وجهت للجمعية التأسيسية في نيسان ١٩١٧، لجأ لينين ما ان استولى، على السلطة، الى حلها فوراً، فمناصراً للشيوعية الحربية، اختار لينين السياسة الاقتصادية الجديدة. ومناصراً للحرب الثورية، وقع عام ١٩١٨، معاهدة برست ـ ليتوفسك للسلام، ودخل عام ١٩٢٠ في حرب ثورية ضد بولونيا» ألا تجعل كل هذه الأمور من سياسة لينين سياسة متناقضة؟ سؤال يطرحه لوزوفسكي، ليجيب: «لا يمكن أن تبدو على هذا النحو إلا بنظر بعض رجال الأعمال القابعين بأمان في مكاتبهم وبعض أنصار ما يسمى بالمنطق وبالعقلانية»(٢٨).

في ٢٦ نيسان ١٩٩٠، تلقى ميخائيل غورباتشيوف أثناء لقائه مع عمال تروست البناء «أورال ماش» سؤالاً مكتوباً، ورد فيه أنه يتضح عدم اشتراكه في صياغة «الكتاب المفتوح الى اللجنة المركزية حول الدعم» (١١ نيسان)، وذلك لأن ما يحمله من معنى

يتناقض مع كلام الأمين العام ـ الرئيس في «كلمة حول لينين» (٢٠ نيسان). وقد أجاب غورباتشيوف بأنه شارك بصياغة الكتاب وأنه ليس ها هنا أي تناقض، بل أسلوب ديالكتيكي. (جدلي).

أحياناً يضطر رئيس الدولة الى تعديل رأيه بأن يتكيّف مع تطور الظرف. وها هنا شيء أكيد، وهو أن هذه التبدلات بالآراء تعكس تعديلات في التكتيك أو الاستراتيجية. وابتداءً من ١٩٨٧، نلحظ أكثر فأكثر الى جانب عبارة «توازن عسكري ـ استراتيجي» عبارة أخرى «البيت الأوروبي» التي تحل مكانها تدريجياً، ثم في نهاية المطاف يختفي «التوازن» من مصطلحات غورباتشيوف ليسود مصطلح «البيت الأوروبي» دون أي منازع.

تفتح الاستراتيجية الجديدة آفاقاً غير متوقعة، فلا شيء هنا يثبت وجود مخطط دقيق، مكتمل يهدف الى القضاء على الأسرة الأوروبية والحلف الأطلسي أي على وحدة الغرب التي نشأت عام ١٩٤٥. يمكننا أن نفرح لكون «أوروبا الوسطى والشرقية قد تحررتا من الشيوعية، ولقيام حكومات ائتلافية (على النمط البولوني) ولكون المادة التي تنص عن الدور القيادي للحزب الشيوعي قد أسقطت من الدستور. يمكننا أيضاً، وكما سنفعل على الأرجح، أكثر فأكثر، أن نطرح السؤال حول نتائج السياسة الغورباتشيوفية. فقد بات عبثياً أو مضحكاً، أن نستمر ببذل كل هذه الطاقة لخلق أسرة أوروبية والذي ربما أدّى التوحيد المحتمل للدول الاشتراكية «المحررة» الى تفجيرها. إن التواجد الأميركي في أوروبا من بحر الادرياتيك الى المحيط الهادىء، لن يعود لاستمراره علة فعلية، ذلك أن الاتحاد السوفياتي سوف يطالب (وهو يطالب منذ الآن) والحال هذه، بجناح في «البيت الأوروبي».

يسمح تصور «البيت الأوروبي» بالتعويض بصورة كاملة عما كانت تتخذه موسكو من مواقف في المعسكر الاشتراكي السابق. ولا يغيب عن بالنا أن هناك إضافة الى العلاقات السياسية صلات إقتصادية وثيقة جداً تربط هذه البلدان «الحليفة»، كما يطلق عليها اليوم، أو تشدها الى موسكو. ولا بد من وقت طويل (ومال كثير) لتنعقد صلات جديدة بين هذه البلدان «المحررة» والغرب. آخذين كل هذه الأمور في الاعتبار، يمكننا أن نفهم لماذا أوعز ميخائيل غورباتشيوف الى القادة الشيوعيين في البلدان

الاشتراكية بعدم الصمود. ذلك أن أي صمود كان يتعارض مع مخططات ـ مخطط؟ ـ غورباتشيوف.

تحتل ألمانيا في استراتيجية غورباتشيوف الموقع المركزي. ورغم أن ستالين قد لحظ أن «المقارنات التاريخية لا تخلو أبداً من مخاطرة» فإن بعض الثوابت المتصلة بالتاريخ والجغرافيا تبقى فوق أي جدل. والعلاقات الألمانية ـ الروسية هي من تلك الثوابت. ودون الرجوع الى القرن الثالث عشر أي إلى تشكل «الهانس»، أو الى بطرس الأكبر في الثامن عشر الذي أنشأ الضاحية الألمانية في موسكو، أو إلى كاترين الثانية التي دعت الى شاطىء الفولغا ألمان ميكلانبورغ (وان أحفادهم الذين طردهم ستالين الى كازاخستان، عادوا بعد مئتي سنة الى «موطنهم التاريخي»)، يمكننا التذكير بمحاولات التقارب في القرن التاسع عشر والأخص بسياسة بيسمارك. بعيداً عن إلغاء هذه الثوابت قامت الثورة البلشفية بتدعيمها.

وتمثّل أهمُ حدثين ديبلوماسيين في مرحلة لينين، بتوقيع معاهدتين مع ألمانيا، في برست ـ ليتوفسك ورابولو، وذلك بانتظار الثورة العالمية. أما ستالين فقد قال عام ١٩٣١: «إننا نحترم الفعالية الأميركية التي تبرز في كل الميادين: الصناعة، التقنية، الأدب الحياة» إلا أنه استطرد: «ولكن حين يدور الكلام على التعاطف مع أمة معينة أو تحديداً الجزء الأكبر من هذه الأمة، فإن عاطفتنا تتجه دون تردد نحو الألمان. وحين ذاك لا يمكننا مقارنة مشاعرنا نحو الأميركيين بها»[٢٩]. ثم تلي بعد ذلك معاهدة هيتلر ـ ستالين والحرب. وها أن السياسة الخارجية السوفياتية ما تزال بعد خمسة وأربعين عاماً في الوضعية التي وصفها ستالين: الاحترام للأميركيين والتعاطف مع الألمان. وربما قادت المقارنة التمثيلية هنا الى نوع من المخاطرة، ولكن يمكننا إفتراض إنبعاث المشروع البيسماركي (١٨٧٢): الحلف بين الأباطرة الثلاثة: الأمين العام والرئيس الأميركي ومستشار ألمانيا الموحدة.

يقول الأميركيون «إن لم تكن قادراً على إحراز النصر، إلتحق به». منطلقاً من عدم إمكانية إحراز النصر في ظرف معيّن، يحقق المخطط الغورباتشيوفي في السياسة الخارجية نجاحات باهرة، تصب في صالح الأمين العام. في كانون الأول ١٩٨٩ أعلن الرئيسان غورباتشيوف وبوش في مالطا، نهاية «الحرب الباردة»، وبدء عصر جديد. وقد اعتبر

لقاء بوش ـ غورباتشيوف رسمياً في حزيران ١٩٩٠ في واشنطن آخر «لقاء قمة». وهذا يعني أن اللقاءات اللاحقة سوف تكون عادية جداً ـ لقاءات «طبيعية» بين دول «سوية». ودفع لقاء بوش ـ غورباتشيوف في أيلول ١٩٩٠ بالعلاقات بين القوتين الى مستوى التحالف. ويمكننا القول إنه لو لم يندلع «النزاع العراقي» لكان على غورباتشيوف أن يخترعه. في حزيران ١٩٤١، وبعد اجتياح الجيش النازي للاتحاد السوفياتي، أعلن تشرشل في خطاب ألقاه في مجلس العموم أن بريطانيا العظمى باتت تساند المقاومة السوفياتية ضد الجيش الهتلري. وقد برر رئيس الوزراء الانكليزي الذي كان قد حارب الشيوعية منذ ثورة أوكتوبر، هذا التغيير في الموقف بحكم الضرورة وقد أضاف أنه لو كان الشيطان بنفسه هو الذي أعلن الحرب ضد هتلر لَذكره بالخير أمام مجلس العموم. وفي ١٩٩٠ لم تكن الولايات المتحدة في الوضعية البائسة التي تتخبط فيها بريطانيا وهي تخوض، مستفردة، الحرب ضد ألمانيا النازية. وتبعاً لما تقدم فإن كلمات الثناء والمديح الموجهة لغورباتشيوف تبدو مفرطة جداً إضافة الى كونها تأتي قبل أوانها.

في تموز ١٩٩٠، جمع غورباتشيوف في الكرملين مجموعة من الاقتصاديين، وهم من دعاة اقتصاد السوق. وقد شرح لهم خاصة، حيثيات سياسته الخارجية: إننا بحاجة الى القروض الغربية؛ نحتاج الى عشرين مليار دولار وهذا ما لا يمثل بالنسبة للأميركيين واليابان والألمان مبلغاً هائلاً. «إن المسألة، يقول غورباتشيوف، ليست في أنهم يشتكون من هذا المبلغ بل في أننا لم نفلح بكسب ثقتهم». ولقد تمت هذه المقابلة مع الخبراء الاقتصاديين بعيد مؤتمر السبعة الأغنى في العالم في هيوستن. أما بوش فأبدى تحفظاً شديداً حيال المشاريع السخية المعروضة من قبل أوروبا الغربية. فما كان من غورباتشيوف إلا أن اتصل به هاتفياً لاعباً ورقة التخويف: يمكننا الاستغناء عنك، غير أن ذلك يقتضي شد الفرامل لنبطيء «البريسترويكا» (أنظر: الفكر الروسي في ١٠ آب ١٩٩٠).

وفي هيلسنكي حيث جاء غورباتشيوف حاملاً وعداً بدعم السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، أبدى بوش بعد طول انتظار ثقته به. وهذا يعني أن الدنيا ستمطر ذهباً، وسوف تُبث الحيوية من جديد في خطط البريسترويكا، بعد أن جفت إثر الأزمة المالية. لقد حظيت البريسترويكا بموافقة رسمية من قبل الولايات المتحدة. علينا أن

نشكر الغرب، كتب مؤلف غورباتشيوف اللغز، «الذي عرف بلياقة وصبر أن ينتظر الاصلاحات في الشرق، وكيف يستجيب بعطف لمحاولات الغلاسنوست الأولى، والذي رفع من شأن هذه الكلمات التي قيلت عرضاً في القيم المشتركة بين الانسانية جمعاء. وأوضح لنا بفم أفضل رجاله ما لسياسة غورباتشيوف من فضائل لم نكن نلحظها أو خفنا أن نراها»(٣٠). ومما لا شك فيه أن غورباتشيوف كان محقاً عندما راهن على الغرب. ومن جانبه فإن الغرب، قد اختار غورباتشيوف ووضع كل ما لديه من بيض في سلة واحدة، مولياً ثقته في ميوله الديموقراطية ورغبته في تحويل الاتحاد السوفياتي. وقد تحول «ربيع الأمم» الذي أغرق العالم بالغبطة في أواخر ١٩٨٩ الى حجة قاطعة في صالح الزعيم السوفياتي.

يختلف المراقبون في تعريف اللعبة السياسية التي يلعبها غورباتشيوف. فبعضهم يتكلم عن «البوكر»، ولكن غالباً ما يفضل هؤلاء إستحضار لعبة ذات قيمة وطنية في روسيا: الشطرنج. وفي هذه الحال يمكننا القول إن الأمين العام لاعب شطرنج من النوع الذي لا يحضر نقلاته سلفاً. إنه يكتفي بحركتين أو ثلاث، محتفظاً بحق تخريب اللعبة والانتقال الى «جولة جديدة»، ما أن يشعر بأنه بدأ يخسر. فقد منح نفسه على الفور «حق ارتكاب الخطأ»: «علينا الاّ نصاب بالخشية من أن يقترف أحدهم خطأ ما. ذلك إننا نحظى بسيادة وبسلطة قوية، وثقة الشعب الهائلة تمكننا من تصحيح هذا الخطأ أو ذاك باستخلاص العبر للمستقبل»(٣١). هذا ما صرّح به غورباتشيوف بثقة بالنفس في خلال العام الأول من توليه السلطة. ولم يتخلَ عن هذا «الحق بالخطأ» طوال الخمس سنوات من حكمه، وذلك بحجة أنه يقود البلاد في طريق غير مكتشفة بعد.

وفي خلال هذه السنوات الخمس لم يخسر مباراته مع الغرب. وقد وازنت نجاحاته في الخارج خيباته في السياسة الداخلية. إن للدعم الغربي أهمية أكيدة، ذلك أن الغرب تحديداً، هو الذي يرى في غورباتشيوف الزعيم السوفياتي الوحيد الممكن والذي لا بديل له، معطياً إياه ما لديه من صلاحية ومُغدقاً عليه البركات التي بات يفتقد إليها في بلاده نفسها.

إضافة الى أن غورباتشيوف حصل على دعم هائل في محاولاته لصون الامبراطورية السوفياتية. فهكذا لم تقدم أي دولة غربية على تأييد ليتوانيا عندما أعلنت هذه الأخيرة استقلالها.

الفصل الخامس والعشرون
رئيس الاتحاد السوفياتي

في آذار ١٩٩٠ وصل ميخائيل غورباتشيوف الى مقام السلطة العليا. لقد انتخب رئيساً للاتحاد السوفياتي، وهو منصب لم يكن موجوداً حتى ذلك الحين. من قبل كان قد لجأ الى تثمير كل امكانيات النظام السوفياتي كما صممه لينين، متخطياً عائق «ثنائية الرأس» (الحزب والدولة) بطريقة تقليدية. ويعتبر ابتداع موقع الرئاسة اصلاحاً مهماً في البنية السياسية.

لقد كفّ الامين العام عن كونه «معلم» الدولة، وهذا ما كانت عليه الحال بحكم الواقع إن لم يكن بحكم الدستور، مع العلم انه غالباً ما كان ينتخب رئيساً للوزراء او رئيساً للسوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي.

وقد عملت هذه الخطوة خاصة على الغاء ما كان يعتري النظام السوفياتي من وهن عضوي: فالامين العام المقبل لن يكون مضطراً الى الاستيلاء على السلطة الفعلية او الى «غزوها». ويمكننا ان نتخيل واقعاً انه سوف ينتخب، في الوقت نفسه، رئيساً وان مهامه ستكون محددة في الدستور. ومن الممكن ايضاً ان يفقد منصب الامين العام ما كان له من اهمية. وفي هذه الحال سوف يكون الامين السابع الامين الاخير.

لقد انتخب غورباتشيوف رئيساً وإن في ذلك ميزة معبرة من ميزات «البريسترويكا» من خلال خرق قانون سبق له ان وقعه بنفسه. اذ لم يأتِ هذا الانتخاب، وبصورة استثنائية. كتعبير عن ارادة الشعب كله، بل انه تم في مؤتمر نواب الشعب حيث تقدم الامين العام كمرشح وحيد. والواقع ان ترشيحه قد جاء من طرف الحزب.

كان رئيس الاتحاد السوفياتي لم يزل في بداية ولايته، انه يخطو خطواته الاولى. ولكن تجدر الاشارة الى انه يخطوها على ايقاع الامين العام، وبنفس حركته ونمط تصرفه.

هكذا نص احد اول القوانين المعتمدة على «الدفاع عن شرف وكرامة رئيس الاتحاد السوفياتي». فقد يجلب التهجم العلني او القدح بشخص الرئيس عقوبة السجن لمدة سنتين وغرامة تصل الى ثلاثة الاف روبل. وقد تعاقب هذه الجرائم نفسها، اذا ارتكبت في حقل الصحافة بست سنوات سجن وخمسة وعشرين الف روبل غرامة. ثم أصدرت بعد ذلك القوانين التي ترعى مقر اقامة الرئيس(الكرملين)، وأجره (الفا روبل)، وبيته الريفي...

وما أن أصبح غورباتشيوف رئيس الاتحاد السوفياتي حتى شكل لنفسه «مستشارية» ثانية: المجلس الرئاسي. ويبقى عمل هذا المجلس مبهماً بقدر ما هي عليه نشاطات المكتب السياسي. وبعد مؤتمر الحزب الشيوعي الثامن والعشرين اختار غورباتشيوف ١٦ شخصاً كاعضاء في مجلسه، بينهم ١٠ من اعضاء اللجنة المركزية (٧ اعضاء دائمين او بالنيابة (رديفين)في المكتب السياسي، و٧ هم موظفون في أجهزة الحزب والشبيبة الشيوعية، و ٦ اعضاء في الحكومة. و ١٥ منهم هم اعضاء في الحزب الشيوعي. و ١١ روس. وقد نقل غورباتشيوف الى المجلس، الكسندر اياكوفليف، ورئيسي الكا. جي. بي. فلاديمير كريوتشكوف، ورئيس الغوسبلان يوري ماسليوكوف، ورئيس مجلس الوزراء ريجكوف، والمنظّر الأول السابق فاديم ميدفيديف، والعضوين السابقين الرديفين إيفغيني بريما كوف، وديمتري يازوف. اضافة الى رؤساء السوفييتات العليا في الجمهوريات الخمس عشرة. اما الاعضاء السابقين في المكتب السياسي الذين اصبحوا اليوم اعضاءً في المجلس الرئاسي فقد تم اختيارهم من قبل غورباتشيوف شخصياً، ولم يكن انتخابهم الى المكتب السياسي من قبل اللجنة المركزية الا صوريا.

آخذاً من المكتب السياسي من يحتاج اليهم من الرجال، اقدم غورباتشيوف على تجديد هذا الاخير، مدخلاً، اليه أناساً يدينون له كلياً باحترافهم. وفي ظل اندهاش الجميع وبناء على اقتراح شديد الالحاح من غورباتشيوف، انتخب فلاديمير ايفاشكو، الذي لم يصبح اميناً اولاً للجنة المركزية في اوكرانيا الا حديثاً جداً، انتخب معاوناً للسكرتير العام.

وعلى غرار ما يحصل في المكتب السياسي، فإننا نجد داخل مجلس الرئاسة «ممثلين عن الشعب الكادح». من ابرزهم: الكتاب جنكيز أيتماتوف وفالانتين راسبوتين،

والعامل فنيامين ايارين، والفيزيائي يوري أوسيبيان. وهكذا بات الامين العام ـ الرئيس يمسك بجميع زمام السلطة. وفقد المكتب السياسي من أهميته، دون ان يكتب المجلس الرئاسي شيئاً منها بالمقابل. وحده، الذي يدير المؤسستين، وازدادت سلطته.

إلا ان ما يحمله تشكيل المجلس الرئاسي من دلالة، يكمن في ان الحزب قد قبل التخلي عن احتكار السلطة الذي كانت تؤمنه له المادة ٦ من الدستور بصيغتها القديمة، غير انه تدبر الامر ليجعل من المجموعة المتحلقة حول الرئيس القوة الوحيدة التي تمسك السلطة السياسية في البلاد. وبعبارة أخرى فقد تم استبدال جميع أحجار الشطرنج ولكن دون أي تغيير في صورة مواقعها. وبكلمة: تؤخذ المواقع نفسها وتبدأ المباراة من جديد.

وها ان غورباتشيوف يتربع الآن على القمة. وقد روى بوريس يلتسين الذي يعرفه جيداً: «تدريجاً... استسلم لحبه للسلطة، لتعطشه الى القيادة. فهذه السلطة التي يمسكها كان يسعى الى التحقق منها في كل لحظة، وبشكل ثابت. وكان لا بد لتنفيذ اوامره من أن يستقر على الرأي الاخير وان يحسم رأيه. وهو وحده الرأي الصحيح[1].

الفصل السادس والعشرون
كلمات، كلمات، كلمات...

«إن جميع الثورات الكبرى تدين بتحققها ونجاحها للخطاب الشفهي، ولاشخاص استطاعوا بفضل موهبتهم الخطابية جذب المناصرين...»

هيتلر

اكتشف المستشار كول ـ في لحظة قاسية بالنسبة له ـ نوعاً من التوازي بين موهبة غورباتشيوف وموهبة غوبلز. «يجب ان لا نصنف غورباتشيوف كليبرالي، فأمين عام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي هو قائد شيوعي حديث. وهو لم يتواجد ابداً في كاليفورنيا أو في هوليود ولكنه يتدبر امره من خلال علم النفس الاجتماعي. اما «رجل العلاقات العامة» غوبلز فكان هو ايضاً منسجماً مع هذا العلم. ولا بد من تسمية الاشياء باسمائها».

وقد اجبرت العاصفة التي اندلعت في موسكو إثر هذه المقارنة غير المستحبة، هلموت كول على نفي تصريحه. غير ان ذلك لا يمنع من ان تكون هذه الكلمات قد قيلت فعلاً[1].

ولا بد لهذه المقارنة بين خبيرين في ميدان علم النفس الاجتماعي، من ان تأخذ في الحسبان ما يقوم بينهما من اختلاف في الجوهر: لا يعتبر غورباتشيوف خطيباً بارعاً، بل انه يثير الملل. اضافة الى انه يطنب في الكلام اكثر من جميع اسلافه، ربما باستثناء لينين. وقد لا تكون ثغرات الخط العام الذي اعتمده غورباتشيوف خلال السنوات الخمس من حكمه ـ تناقضاته اضافة الى إقدامه على الغاء بعض القرارات واستبدالها

سريعاً بقرارات نقيضة ـ سوى عوامل مؤقتة، تسمح له بتحقيق هدفه الاكبر: الاستيلاء على السلطة.

اما في المقابل فيبدو خطاب غورباتشيوف عاملاً ثابتاً: فشكله يبقى، اضافة الى كلماته ـ المفتاح، دون اي تغيير.

يفاجأ المعلق الاميركي روزنتال بان أحداً لا يصدق غورباتشيوف رغم أنه لا يكف عن الترداد بان لا نية لديه بإعدام الشيوعية في بلاده. «ومن الطريف فعلاً ان يرفض الغرب تصديقه بما يتعلق بهذه النقطة فقط»[٢]. متشدداً بموقفه، يعلن غورباتشيوف مرة اخرى ايضاً، في سياق مقابلة مع التايم في حزيران ١٩٩٠: «لقد كنت دائماً شيوعياً وسوف أبقى».

تتمثل إحدى أهم خصائص الخطابة لدى غورباتشيوف بدعوة الى السلام. وهناك نوع من الاجماع لدى الذين رسموا شخصيته، من السوفيات: انه «داعية الى السلم السياسي»[٣] «ولقد تبنى سياسة تعتمد على التسامح والتهدئة...»[٤] ولا يمكننا عندما نسمع او نقرأ خطاب غورباتشيوف الا ان نلحظ سعيه الى اقناع مستمعيه ومشاهديه وقرائه. وإن لقب «المقنع الكبير» الذي يعود لكيرنكسي في ١٩١٧ يلبسه لبساً.

يتوجه الخطاب الغورباتشيوفي قبل اي شيء الى الغرب المعتاد على التسويات السياسية. اما في الاتحاد السوفياتي، حيث تبقى غير مألوفة فانها لا تثير الا الازعاج وتبقى دون اي فعالية، خاصة وان غورباتشيوف يبالغ في استخدامها وانها تبدو غير ملائمة مع النزاعات الشديدة الخطورة التي تطل برأسها في البلاد. ومع ذلك فان الامين العام لا يتخلى عنها لما تؤمنه في الخارج من نتائج باهرة، ولأنه لثقة مفرطة بالنفس، يحسب انه في النهاية سيكسب «حصة الاسد» في اية تسوية.

«اني متفائل، يعلن غورباتشيوف، وان تفاؤلي هذا يرتكز الى معرفة عميقة»[٥]. وعدا هذه «المعرفة العميقة» فاننا نجد في اصل الخطابة الغورباتشيوفية احتقاراً عميقاً للمستمعين. وقد روى كلود سيمون ان احد اعضاء البعثة المدعوة الى الفوروم (وهو اميركي ولم يكن الزوج الثاني لاجمل فتاة في العالم، فحسب بل مؤلفاً لمسرحيات ناجحة

جداً حول موضوعات ناجحة جداً) أعلن ، بعد ان شعر بنفسه غارقاً في لجج من الكلمات تحت وطأة تهتك خطابي عظيم: «إنه يحتقرنا. . . »(٦).

إن القادة السوفيات لطالما احتقروا محاوريهم. واصفاً احدى محادثاته مع غورباتشيوف، اشار ساخاروف الى انه لم تظهر على وجه القائد ولو لمرة واحدة تلك «الابتسامة نصف ـ العطوفة نصف المتسامحة» التي كان يبرزها عادة تجاه الاكاديمي(٧). فهكذا خلال هذه المقابلة التي لم تخل بالنسبة له من قبح، لم يشأ غورباتشيوف ان يضع قناعه المعتاد.

واحياناً يلجأ غورباتشيوف ليس دون تبصر، وعندما يكون امام كاميرا التلفاز اومترئساً جلسات مؤتمر نواب الشعب او السوفيات الاعلى، الى الافصاح عن استيائه وازدرائه او الى مقاطعة الخطباء.

وهكذا يلعب دور «القبضة الحديدية» من وراء قفاز الحرير. وعلى هذا الاساس يمكننا تفسير غضبه في الساحة الحمراء في الاول من ايار١٩٩٠ ومغادرته الضريح ساخطاً. يقسَّم الفن الخطابي الغورباتشيوفي كما هي عليه عصا قيصر الى اقسام ثلاثة: خطابات، مناظرات (حوارات مباشرة مع الشعب)؛ ومقالات. تعتبر خطابات غورباتشيوف بشكل عام من المطولات ولا تخلو من إطناب مضجر ومن تفكك في بنيتها. اما مفرداتها ففي غاية الضحالة، فيما تلوي لغتها ، التي لا تشذ عن النموذج الحزبي، النحو وتنتهك قواعد الروسية. وليس لخطب غورباتشيوف ما كان لخطب ستالين من لباقة من حيث مبانيها التي كانت تتقيد رغم بساطة البناء الخطابي ومدوديته، بقواعد البلاغة الكلاسيكية والوعظ. اضافة الى انها لا تحتوي على تلك الشحنة العاطفية التي كانت تحملها كلمات خروتشيوف. وهي ايضاً لا تتضمن مثل خطب ستالين او خروتشيوف وإن بنسبة اقل، استشهادات او صيغ من المأثورات الادبية. مائعة، رتيبة دون مفاصل او عضلات، فإنها لاتأتي بتلك العبارات القاطعة القوية التي تصلح لأن تتحول الى شعارات. وعلى غرار الاقتصاد السوفياتي الذي اعتمد دائماً الكم كمعيار للفعالية، يستبدل غورباتشيوف مواصفات الفن الخطابي بغزارة الكلمات. وهو غالباً ما يستعيد تكراراً نفس الخطابات ودون اي تعديل. وهكذا تكمل البنية البلاغية الغورباتشيوفية بصورة رديئة خطاب عصر بريجنيف. تحتل «الحوارات مع

الشعب» موقعاً مهماً في تكتيك غورباتشيوف. في الروايات حول ستالين التي كتبت على حياة الاب والمعلم (روايات بيوتر بافلينكو، ميخائيل بوبينوف. .) كان من المستحب اظهار الرفيق ستالين، وهو يدردش بعطف وتفهم وأبوة مع البسطاء من العمال او مع الجنود في المستشفى العسكري. ولم يكن ذلك الأمر محض الخيال، ذلك ان «خروج» ستالين الأخير «وسط الشعب» يرجع الى ١٩٢٨ وكان ذلك بهدف ارغام الموجيك السيبيريين على إعطاء قمحهم، وقد ترك له ذكريات سيئة. اما ميخائيل غورباتشيوف فيبدو انه يحقق اسطورة ستالين واحتكاكه بالشعب. كان نيكيتا خروتشيوف يحب، بالمناسبات، المباشرة بحوار مع «الشعب» في الكولخوز او المصنع. الا ان غورباتشيوف حول هذا النوع من «الحوار» الى ممارسة منتظمة.

يجري الحوار على الطريقة الغورباتشيوفية، اما من خلال المقابلة ـ وما من زعيم سوفياتي أعطى مقابلات بقدر ما اعطى الامين ـ الرئيس ـ واما في صيغة حديث حوار بين الشعب والقائد. ويبقى روتين هذه الحوارات مضبوطاً تماماً. فاذا جرت في الشارع (كما يحدث غالباً)، فان الصور التي تخلد هذه اللحظة التاريخية تظهر دائماً المشهد نفسه: في الوسط هو، وحوله بعيداً قليلاً، تترك مساحة فارغة ترمز الى المسافة بين القائد والشعب: الجماهير. وقد تبين من خلال نشر مجلد (او عدة بعد خمس سنوات) يضم هذه الحوارات، ان المسائل المطروحة وبغض النظر عن اختلاف الاماكن الجغرافية لا تتغير ابداً. حتى انه ينتابنا شعور عند قراءة هذه «الحوارات» بوجود إخراج مسبق، وبأن هناك بين الحشد عدد من «طارحي الاسئلة» الذين يواكبون غورباتشيوف في جميع تجوالاته.

يأسف بوريس يلتسين، الذي يعرف جيداً «المطبخ السياسي» السوفياتي شخصياً «لكون غورباتشيوف لا ينظم ابداً اللقاءات. اذ قد يكون لذلك فائدة كبرى له، أي افضل من ان يتوجه الى اشخاص يجلبون له بشاحنات الركاب ويفرضون على الناس بوصفهم يمثلون الجماهير الكادحة. . . [(٨)]. تتعلق موضوعات الاسئلة بالشؤون الراهنة كان النصّاب أوستاب باندر ينتخب لكونه مضطراً الى التنكر بمظهر مرزبان هندي لانه كان يسأل دائماً الاسئلة نفسها: هل صحيح ان المسيح كان يهودياً؟ ولماذا نفتقد الى الزبدة؟ اما غورباتشيوف فكان يتملص من الاجابة عن السؤال حول المسيح، علماً بانه سئل في لينيغراد عن فهمه للدين او حتى مباشرة: «هل تؤمن شخصياً بالله» وكان

جوابه عن السؤال بسيطاً: «اني اتقيد بالمواقف التي يمليها دستورنا». اما جوابه عن السؤال الثاني فكان قاطعاً: «كلا، بالطبع! أعرف فقط أني عمدت وانه قد جرى تبديل اسمي بهذه المناسبة»[٩]. واجمالاً تدور الاسئلة دول المسائل التي تؤرق الناس: طوابير الانتظار، القحط، أزمة السكن، التعاونيات التي تستشير الاستنكار. أصناف المنتجات الرديئة... اما الاجوبة فلا تأتي باي جديد ولا تضيف شيئاً على ما يقال في الخطب والمقالات. وقد اشار نورا بوهكس الخبير بالاعلام السوفياتي الى ان الحوار قد تحول الى ميزة هامة لا تنفك عن التقنية الصحافية الخاصة بالغلاسنوست.

فالحوار «يفترض تكافؤ الأصوات المشاركة به، وتلافي الآجوبة او الأحكام القاطعة وهو يخلق جواً من المشاركة، ويؤمن نوعاً من التوجه المباشر الشخصي الى الذي يتلقى الرسالة»[١٠] ويضيف نورا بوهكس ان الحوار يكشف غلبة «الوظيفة التوسطية العلائقية التي يضطلع بها الاعلام على وظيفته الإبلاغية؟.

اتاح أسلوب «الحوار» لغورباتشيوف بان يثبت«صدقه» و«انسانيته» واهتمامه بالناس، وبان يكون ديموقراطياً اكثر بقليل مما هو عليه في مداخلاته الرسمية، دون ان يتخلى عن صورة الاب الذي يعطي درساً لاولاده الطائشين، فهكذا شرح مثلاً للكولخوزيين ان «المهمة رقم واحد هي أن نحصد في الوقت المناسب كل ما نبت من زرع...»[١١]. وعندما ذهب الى مخزن جرى تموينه لهذه المناسبة، استعلم باهتمام: «توجد دائماً مثل هذه الكمية من الاشياء؟»[١٢]. او ايضاً، قالها وكأنما ينطق بالحكم: «السكن شيء مهم جداً خاصة بالنسبة لعائلة فتية»[١٣]»وكذلك فانه يسمح بالقاء نظرة على عالمه الخاص «في فترة، رايسا ماكسيموفنا وانا، قرأنا دوستويفسكي...[١٤]. ثم انه يتكلم عن ذوقه الفني: «بالفعل الطبيعة هنا رائعة. او اكاد اقول «طبيعة جذابة»[١٥].

وفي كل لقاءاته بالشعب يطرح ميخائيل غورباتشيوف بشكل ثابت سؤاله الكبير: «أريد أن أطرح عليكم هذا السؤال: هل تريدون فعلاً بريسترويكا حقيقية؟ أو تفضلون ان تجري الامور بهدوء؟» ودائماً تتعالى الاصوات «نريد البريسترويكا!»[١٦] انه حوار مبتور. وفي ريفا يقول غورباتشيوف: «هل لديكم شكوك حول سياستنا» - الاصوات: «كلا...» - غورباتشيوف: اذن انتم تؤيدونني» الاصوات: كلياً»[١٧].

في نورمانسك ـ صوت: «هنا عندنا الجميع يؤيدون البريسترويكا»، غورباتشيوف «نعم ألحظ ذلك. اني ألحظ ما تقومون به. وهذا ما هو مطلوب الآن.»[١٨].

في موسكو ـ غورباتشيوف: «إن آراءكم كعمال مهمة جداً بالنسبة لنا. اعتقد اني فهمت من كلامكم ان البريسترويكا قد تجذرت في الوسط العمالي»[١٩]. في سيبيريا ـ اصوات «نريد ان تقود شخصياً البريسترويكا الى هدفها. نحن نؤمن بها».

غورباتشيوف «الرأي العام؟»

الاصوات: «بالاجماع!»

يؤدي الحوار ولعبة الديموقراطية الى تنامي شعبية القائد، ويؤمنان له دعم الشعب كله، وهو ضمانة على استقلاليته التامة. زعيم الحزب، رئيس الدولة، «وفوق البيعة» خطيب وحبيب الجماهير. واحد في ثلاثة، هذا هو السكرتير السابع، او على الاقل هذا ما يود ان يكون. وها هنا بالذات الهدف الذي يتوخاه من بلوغه اعلى مقام في السلطة.

محللاً عشية قمة مالطا مصطلحات الرئيس بوش، اشار صحافي سوفياتي الى ان كلماته المفضلة هي: «التبصر» و«الحذر».

وغورباتشيوف من ناحيته لا يمتلك معجماً ثرياً فإذا استثنينا بعض الكلمات «الشخصية» الصغيرة مثل هذا «الدولاب» الذي يعد «باطلاقه» عام١٩٨٥ والذي يعلق عليه دائماً الآمال الكبيرة لما سوف يحققه بعد خمس سنوات، او هذه العبارة: «زيادة الفعالية»، فالامين العام يتقيد بمجموعة من المفردات القديمة المجربة. فحتى الكلمات المفاتيح في «الفكر السياسي الجديد» تبدو معروفة منذ سالف العصر والأوان وقد استهلكت كثيراً: «بريسترويكا»، «غلاسنوست»... تظهر الكلمات تتقدم على المسرح ثم تعاد الى الكواليس، لتقدم من جديد عند الاقتضاء. اما المفرد الآخر من الثلاثية التي ترمز الى ولادة البريسترويكا ـ التسريع فقد غاب اثر الفشل الذريع الذي لاقته الاستراتيجية الهادفة الى زيادة الانتاج. ثم انه عاد ليطفو على السطح في خريف ١٩٨٨، من خلال الوعد بتحسين سريع للوضعية التموينية، ولكنه ما لبث ان غاب مرة اخرى في بداية ١٩٩٠، بعد محادثة جديدة فاشلة لاجراء «اصلاح جذري».

وفي معجم غورباتشيوف تسترعي الكلمات التي تحدد تكتيكه ـ الذي يميل الى

الهروب والتعرج والانعطافات العنيفة ـ الانتباه بشكل مخصوص. فهو مثلاً يميل الى استخدام كلمة محاولة/ مبادرة بصيغة الجمع كمرادف لكلمة سبيل او طريقة لحل المشاكل. وعندما يعلن: «إن كل شيء لا يسير كما يجب» علينا ان نفهم بذلك ان «لا شيء يسير كما يجب» وعبارة «عدم الفهم» تتحول في مصطلحة الى «فهم غير كافٍ».

ونجد عدا الثلاثية الجديدة، وبمثابة لوازم تصف إستراتيجية العبارات: «الفكر السياسي الجديد»، «العامل الانساني»، «الاشتراكية الانسانية» «الحضارة». ومن مأثر هذه الكلمات انها غائمة الى حد بعيد الى حد انها تقول كل شيء ولا شيء في آن معاً.

ككل اسلافه يلجأ غورباتشيوف الى اسلوب اساسي من اساليب البلاغة السوفياتية: النعت الذي يغير، وكما يحلو للخطيب، دلالة الاسم. فهكذا بعد الاشتراكية «المتطورة» «الناضجة» الخاصة بعصر بريجنيف، اتى زمن الاشتراكية «الانسانية». «اننا نبني اشتراكية انسانية»، اعلن الامين العام في مقالة نظرية توجيهية مشيراً الى ان «الفكر الاجتماعي لم يتخط اجمالاً الفكرة الماركسية القائمة على بناء «مملكة الحرية»[٢١]. الا ان الاشتراكية الانسانية القائمة على قاعدة الماركسية ـ اللينينية التي يقترحها غورباتشيوف كهدف «البريسترويكا» كانت دائماً الغاية التي يسعى اليها القادة السوفيات. وفي عام ١٩٨٣ ألم يشدد «مختصر القاموس السياسي» على ان «الانسانوية الحقيقية هي الانسانوية الاشتراكية التي تجد أصلها في الماركسية اللينينية»[٢٢].

يبقى التراداد في نصوص غورباتشيوف عنصراً تصعب الاحاطة به فهنا ايضاً يظهر كتلميذ مخلص للمدرسة البلاغية اللينينية ـ الستالينية. مع فارق وهو ان التراداد في بناء الخطاب اللينيني تسمح برسم مربع لتكثيف الانتباه ثم لحصر الفكر في دائرة ذات مخرج وحيد. كان لينين يستخدم مثلاً الافعال في الازمان الثلاثة: كان ، يكون، ستكون. وقد كان لكلام ستالين الذي نسجه على منوال قائد الثورة أثر التنويم المغناطيسي او المخدر، حين جاء تردداداً دون ككل لبناء لغوي واحد. مثلاً: لم نعمل. . . عملنا الآن على . . . لم نعمل. . . عملنا الآن على. . .»[٢٣]. فيما لغورباتشيوف أساليبه المختلفة. فهو يحاول ان يعطي انطباعاً بالانفتاح «والتعددية» من خلال تردداده لكلمة واحدة في مزاجات لغوية مختلفة دون ان يطرأ اي تغيير على دلالتها. فهو يستخدم في مقالته «الفكرة الاشتراكية والبريسترويكا الثورية»، كلمة «حضارة» عشر مرات: «في

اطار المرحلة الراهنة من تطور الحضارة الانسانية»، «لقد قدم ماركس وانجلز الاشتراكية العلمية بوصفها النتاج الشرعي لتقدم الحضارة ولعملية الابداع التاريخية التي انجزها الشعب»؛ «على المستوى العام للحضارة ما نزال تقريباً في العصر التقني السابق». ؛ «الآلية العامة للحضارة »؛ «إن الشعاع الموجه لمبدأ صراع الطبقات يتناسب مع إتجاه تقدم الحضارة على طريق الحرية والسلام»؛ «الشروط الطبيعية للحياة الضرورية لاي حالة حضارية»؛ «يتطور العالم الاشتراكي باتجاه الاهداف المشتركة الخاصة بالإنسانية جمعاء وذلك في اطار حضارة واحدة ، ودون ان يتنكر ، رغم ذلك، لقيمه ومفاضلاته المخصوصة»(٢٤). ان فكرة المؤلف واضحة: الحضارة تبدو بنظره بمثابة الانضمام الى الانسانية (فعبارتا انسانية، المشتركة الخاصة بالإنسانية جمعاء، غالباً ما تترددان في المقالة بوصفهما مرادفين لكلمة «حضارة») الذي لابد للنسق السوفياتي من ان يقدم عليه، ذلك ان هذه الانسانية تمثل مرساه الطبيعي؛ حتى وإن احتفظ «بقيمه ومفاضلاته المخصوصة» اي، بعبارة اخرى، بالماركسية ـ اللينينية بوصفها «فهم للعالم ومجموعة من التوجيهات الثمينة».

أما الحزب الشيوعي «كطليعة سياسية للمجتمع السوفياتي»، فتتعين مهمته «بتفسير المجريات الراهنة وبتحديد واقتراح السياسة المطلوبة، اي بالقيام بنشاط ريادي.!! وذلك حتى وإن لم يتخل عن «الفكرة الجماعية اي عن الافضلية التي يعطيها للملكية الجماعية» او عن «الفوائد الجماعية من المركزية والتخطيط على نطاق واسع»(٢٥).

مما قيل واعيد قوله: الانسان هو الأسلوب أو أيضاً أرني كيف تكتب اقول لك من أنت. باهت، مسطح، رمادي، هو اسلوب خطب غورباتشيوف، اضافة الى حواراته ومقالاته، يخدم هدفه بصورة رائعة: انه يموه افكار صاحبها ومآربه الحقيقية من ورائها، علماً بان هذه المآرب ربما لم تكن واضحة تماماً بالنسبة له. ويكشف أسلوب غورباتشيوف أوجهه المختلفة التي بتبدل من يتوجه اليه. مشاهداً، في موسكو، في الحادي عشر من كانون الاول ١٩٨٩ من على الشاشة الصغيرة، غورباتشيوف في دور رئيس مؤتمر نواب الشعب، وهو يعامل اندريه ساخاروف، الذي سيموت بعد يومين بقساوة واحتقار ودون شفقة. ستصيب الدهشة احد الصحافيين الاميركيين من ان يكون هذا الشخص هو نفسه الرئيس غورباتشيوف الذي لم تفارقه الابتسامة في مالطا

معبرة عن عطفه نحو الانسانية جمعاء. إن في غورباتشيوف شيئاً ما من الممثلين: انه يضع عدة أقنعة واحداً تلو الآخر، وقد صرح المخرج الشهير سيرغي بارادجانوف، وهو حاذق في التقاط المفارقات، في اثناء زيارة له الى فرنسا، بانه سوف يأخذ غورباتشيوف بيده، ما ان يخسر موقعه في الكرملين، ليلعبه دور هاملت، على المسرح، اذ يرى المخرج ان هذا الدور «يلبس» غورباتشيوف «لبساً»، وبشكل رائع، حيث نعلم ان امير الدانمارك قد صفى رغم تردده عدداً كبيراً من شخصيات المأساة الشكسبيرية.

يأتي الانطباع بان الخطاب الغورباتشيوفي قناع ، وان اللغة السوفياتية تستخدم لحجب الواقع من الازدواجية بين نمط التعبير التقليدي وسراب التغيرات الجذرية التي تفتتح عصراً تاريخياً جديداً. إن بعض الكلمات الاليفة ـ ديموقراطية، بريسترويكا، غلاسنوست ـ قد عرفت نوعاً من التضخم على حساب كلمات أخرى لا تقل عنها ألفة. فالآن مثلاً لم تعد تُغنّى الا نادراً اغنيات مثل« موسكو أعدل مدنية في العالم». . كما باتت تثير الضحك شعارات مثل :«المجد للشعب السوفياتي العظيم باني الشيوعية». أو «تقبل منّا يا وطن حامضنا الكبريتي»، او «ثورة اوكتوبر أعظم حدث في هذا القرن» الا ان هذه الشعارات التي هزئت دون رحمة من قبل زينوفياف، وهو ما جلب له الشتائم من كل حدب وصوب، ما تزال تزين جدران بعض المدن والقرى السوفياتية. وكذلك لم يزل غورباتشيوف نفسه يردد ان ثورة اوكتوبر هي أعظم حدث في هذا القرن.

هذه الازدواجية بين الكلمة والمشروع، ولّدت بعد أن جرت مقاربتها بوصفها قناعاً، السؤال الشهير الاتي: هل يعتبر غورباتشيوف صادقاً؟ سؤال لم يطرح ابداً بالنسبة للينين وورثته، اذ كل شيء يتعلق بهم كان واضحاً. كان ستالين يبدو حيناً ليبراليا واحياناً لصاً واخرى ثورياً. وما من احد شكك بارادة خروتشيوف في الاصلاح او بدعوة بريجنيف الى السلام بوصفه المبادر «بالانفراج».

اما غورباتشيوف فمن المتعذر الامساك به. انه يقول ويفعل شيئاً آخر ثم يعلن عن شيء ثالث. اثناء رحلته الى فرنسا أدهش باجابته الصادقة، مدير الاومانتيه الذي سأله: «هل ما يزال هناك طوابير انتظار؟» اجاب: «نعم» واوضح: «خاصة بالنسبة للمنتجات الكمالية الفاخرة، وهي التي لم يلب الطلب عليها بعد»[٢٦]. انه النموذج

المثالي المعبر عن اسلوب غورباتشيوف، صراحة كاذبة وكذبة حقيقية. يروي بعض المسافرين الذين اقامو في مدينة بورجومي الجيورجية ان عملية الغاء الستالينية جرت بالاسلوب الغورباتشيوفي الصرف: على نصب لستالين استبدل اسم الاب الصغير للشعوب باسم سيرغي كيروف. فهكذا اختفى ستالين دون اي كلفة! تعويذة حقيقية: إنها كلمة تتردد في كل خطب الامين العام اضافة الى مقالات ومداخلات انصار البريسترويكا «عدم الارتداد»: (لاعودة عن . . .) لقد باتت «البريسترويكا» اضافة الى تجدد حياة المجتمع على اساس الاشتراكية الانسانية الديموقراطية من الامور التي لا عودة عنها (عدم الارتداد). هذه الصيغة السحرية التي نجدها في هذا التصريح لغورباتشيوف امام المؤتمر الثاني لنواب الشعب[٢٧]. هي تنويعة من الشعار الاشد شهرة وذيوعاً في المرحلة السابقة: «الشيوعية أمر محتوم».

لقد زودت الاجزاء الستة (حتى الآن) من «مختارات من خطب ومقالات غورباتشيوف» بفهرس تحليلي. انها «العودة الى لينين». اذ ان مؤلفات الامناء العامين من ستالين وحتى تشيرنينكو لم تكن تحتوي على مثل هذا الفهرس. غير انها عودة ناقصة، ذلك اننا نجد في مؤلفات لينين ايضاً فهرس بالاسماء. وهذا ما يغيب مع غورباتشيوف، وكأنما كتبه الستة غابة جرداء يطوف فيها خيال فلاديمير ايليتش وحيث لا يظهر شبح ماركس الا نادراً. وبالمقابل يطفح الفهرس بالعبارات والمصطلحات والشعارات الاليفة: دور الشيوعيين الطليعي، رفاهية الشعب السوفياتي، التربية الايديولوجية السياسية، في العمل، في الاخلاق؛ الشيوعية؛ بناء الشيوعية؛ الصداقة بين الدول الاشتراكية؛ ادارة الاقتصاد؛ البريسترويكا الاقتصادية الجذرية؛ السعر، تحديد الاسعار، اصلاح الاسعار. . . تلكم هي العناوين التي تملاء الاجزاء الستة من اولها الى آخرها.

فالحقل الدلالي للبلاغة الغورباتشيوفية لا يعرف التغيير.

الخلاصة

«الاعتراف بالاستبداد، في هذا البلد، يكاد أن يكون تقدماً».

كوستين.

«يتمثل هدف البريسترويكا في تحويل زريبة الى شقة فاخرة من ثلاث غرف، دون ترحيل الخنازير».

قصة تشيكية.

اشتكى الصحافيون في أواخر عام ١٩٨٩، من عجزهم عن متابعة وضعية متقلبة ومتغيرة. ويرددون: التاريخ يسير. وباستطاعتهم، اليوم، ان يؤكدوا بأنه يركض. لقد عرف التاريخ أمثلة متشابهة. ألم يوصف عام ١٨٤٨، بـ «ربيع الأمم»: بدءاً بالانتفاضات الشعبية في المقاطعات الايطالية التابعة للنمسا في كانون الثاني، التي تبعتها في شباط المظاهرات الجماهيرية في باريس، التي أجبرت اسرة بوربون على ترك العرش؛ ثم تلتها اضطرابات فيينا، التي أزاحت مترنيخ عن سدة السلطة في شهر آذار؛ اما شهر نيسان، فقد مكّن هنغاريا من اعلان دستورها؛ ولم يطلّ شهر أيار على مدينة برلين، حتى كانت الجيوش النمساوية قد طُردت منها تحت ضغط المظاهرات، مفسحة المجال امام حكومة ليبرالية؛ وفي الشهر ذاته، شهدت براغ حملة جمع تواقيع واسعة مطالبة بحقوقها الوطنية؛ فيما كان البرلمان الالماني يناقش وحدة البلاد؛ وفي تموز، تمكنت الشعوب المنضوية تحت لواء الامبراطورية النمساوية من تأسيس برلماناتها عن طريق الانتخابات. ضمن هذا المناخ، ظهر كتاب، «بيان الحزب الشيوعي» الذي عرف مجداً عظيماً، مفتتحاً الكلام بما يلي: «إن طيفاً يلاحق أوروبا، هو طيف الشيوعية». ثم تأتي الثورة المضادة، التي تمكنت مع نهاية عام ١٨٤٩، من استرجاع كافة المكتسبات الليبرالية، معلنة انتصار الرجعية.

شكل ربيع ١٩٤٥، محطة جديدة في التاريخ، شهدت انقلابات كبرى للأمال، وحالات جارحة من فقدان الأمل. فقد تمكن الجيش السوفياتي، بعد تحطيم الجيوش

النازية في اوروبا الوسطى والشرقية، من تأسيس أنظمة شيوعية في فرصوفيا، وبراغ، وبرلين، وبودابست، وبوخارست. . . لقد استوطن شبح الشيوعية اللحم - هذا اللحم الذي سيستمر نازفاً لعدة عقود من الزمن.

يغري خريف ١٩٨٩، بعقد مقارنة مع «ربيع الأمم». فقد أجبرت المظاهرات الشعبية، التي انفجرت في عواصم المعسكر الاشتراكي، الشيوعيين على التخلي عن احتكارهم للسلطة، وقبولهم بإقتسامها مع المعارضة، هذه المعارضة التي انتصرت حتى قبل ان يترسخ وجودها فعلياً. وفي الايام الأخيرة من عام ١٩٨٩، رفع المتظاهرون في بوخارست الشعارات التالية: عشر سنوات في بولونيا، عشرة اشهر في هنغاريا، عشرة اسابيع في المانيا الشرقية، وعشرة أيام في براغ. كذلك فإن ايام تشاوشيسكو، عبقري الكاربات، قد أصبحت معدودة. غير أن هذه المقارنة، مهما بدت مغرية، فإنها تطرح جملة اسئلة. فهناك نقطة هامة تستدعي الانتباه: لما هذا التشابه بين السيناريوهات في كل من بودابست، وبراغ، وبرلين، وبوخارست (بولونيا هنا تشكل الاستثناء)، حيث تمكن المتظاهرون من تكنيس المسؤولين الشيوعيين في كل المناطق، الذين بدوا في السابق وكأنهم مستمرون الى الأبد. هذا الأمر يسمح بالافتراض بأن مفجر التغييرات قد اتخذ قراره في موسكو بإيقاف الدعم لهونيكر، وهوساك والآخرين.

أمِل غورباتشيوف، عند قبوله «بالبريسترويكا» في المعسكر الاشتراكي، بأن تتحمل المعارضة عبء الاصلاحات السياسية. مراهناً في الوقت عينه، على غياب البرنامج عند المعارضة، العاجزة عن بلورة خطة تغيير للمجتمع بعد عشرات السنين من الحكم الشيوعي، وعلى الانقسامات داخل المعارضة نفسها. ويظهر المثال البولوني، الذي يصفه غورباتشيوف «حقل اختبار»، ان هذه الحسابات لها ما يبررها. كتب الاعلامي البولوني «ويتولد شارلامب»، في أواخر عام ١٩٨٩ قائلاً: «يصعب تحمل معرفة نصف الحقيقة، حول وضعية البلد. فبعد كل حساب، نشهد رجالنا يسيرون يداً بيد، مع الذين دمّروا البلاد؛ إنهم يمشون بخطوات راقصة، وإتفاقهم يزداد صلابة كلما ازداد وضع البلد تدهوراً»(١). ويراهن غورباتشيوف، على عامل الوقت من اجل عملية ترميم اقتصاد البلدان الاشتراكية. وبالتالي فإن النتائج المترتبة على دخول عناصر رأسمالية وما سيرافق ذلك من ردود فعل لدى السكان، هو من الأمور غير المتوقعة. وبانتظار عامل الوقت، فإن غورباتشيوف يسعى للحصول على

مساعدة الغرب مقابل ليبراليته. وبذلك أضحى الدعم الغربي، وبشكل متزايد، الرافعة الكبرى لسلطته.

يعبر جيمس رستون عن قناعة مفادها، ان في السياسة، كما في الحب، لا بد من ان يأتي الوقت الذي يقضي بضرورة تقبيل الفتاة. ولم يتوقف غورباتشيوف عن «التمسك بها وعد به»، على مستوى سياسته الخارجية، خاصة فيما يتصل بالعلاقات مع البلدان الاشتراكية السابقة. وتجد فتاة الاصلاحات الحقيقية في الاتحاد السوفياتي، بأنها وحدها هي المهجورة.

في كانون الثاني ١٩٨٩، رفض المؤتمر الثاني لنواب الشعب، وتحت ضغط غورباتشيوف، مناقشة المسائل الأكثر أهمية والحاحاً. وقد جاء في النداء الذي وجهه أندريه ساخاروف وأربعة نواب آخرون، مطالبين فيه بإعلان الاضراب في ١١ كانون الثاني، أي عشية المؤتمر، ما يلي: «انهم يرفضون تبني قوانين اقتصادية اساسية»، «حول الملكية»، و«المشروع الخاص»، وبشكل اساسي «حول الأرض»، الامر الذي يؤمن للفلاح الحق بأن يكون سيد نفسه. أضف الى ذلك، أن مجلس السوفيات الأعلى لم يضع على جدول أعماله البند المتعلق بالمادة السادسة من الدستور»[٢]. وبالإمكان اضافة عناوين اخرى الى هذه اللائحة، مثال التشريع الجنائي الذي ينتظر الاصلاح منذ زمن بعيد.

فقد اكتفى المؤتمر الثاني لنواب الشعب بالمصادقة على الخطة الخمسية الثالثة عشرة، معيداً البلاد الى وضعية ما قبل «البريسترويكا».

وكتب الاقتصادي المعروف، غافرييل بوبوف، معلقاً على ما اعلنه رئيس الوزراء ريجكوف، الذي يمثل التوجهات الاقتصادية الجديدة، قائلاً: «نحن لا نحتاج لخطة خمسية تحتل الرقم الثالث عشر. إن ما نحن بحاجة إليه فعلاً يتمثل بخطة خمسية اولى للاصلاحات: ترفض هذا النمط من الاصلاح ذا الطابع الاداري والتحكمي، وتقضي على المركزية، وتوفر الاستقلال للمؤسسات والجمهوريات[٣].

اقدم اندريه ساخاروف، في لقاء شخصي مع غورباتشيوف، بعد انعقاد المؤتمر الأول لنواب الشعب، في صيف ١٩٨٩، على وضعه في جو المخاطر المحدقة: «ميخائيل سرغيفيتش!» ليس مطلوبا مني ان اشرح لك الوضع المأساوي الذي تمر به

البلاد ودرجة السخط التي يشعر بها الشعب، ولا توقعاتهم بأن الأمور تسير نحو الأسوأ، إن البلاد تمر بمرحلة من انعدام الثقة بالقيادة والحزب. كما أنَّ سلطتك وشعبيتك تدنت الى الحضيض، ولم يعد بمقدور الشعب ان يصبر ويكتفي بالوعود. لذا يغدو من الصعب في ظل هذه الأوضاع، التمسك بالخط الوسط»[٤]. بعد مضي ستة أشهر، تكلم ساخاروف في اجتماع لفريق ما ـ بين ـ الأقاليم، وذلك قبل موته بعدة ساعات، ليصوغ مبادىء المعارضة السياسية، أي مرتكزات حزب سياسي جديد. يكشف المسار الذي سلكه ساخاروف، من خصم للسلاح النووي، إلى مدافع عن حقوق الانسان، الى بطل النضال ضد القمع، وصولاً الى زعيم سياسي يعمل على تأسيس حزب جديد، بعد ان راهن لفترة قصيرة على امكانية ان تسهم سياسة غورباتشيوف في تحقيق الآمال بتحويل النظام السوفياتي؛ هذا المسار يكشف أن الـ «بيرسترويكا» الغورباتشيوفية قد واجهت الفشل. يكتب ساخاروف قائلاً: «ان القيادة تدفع بالبلاد نحو الكارثة، عن طريق ربط تنفيذ سياسة البريسترويكا بهذا المدى من السنين... الأمر الذي يضاعف من حالة الشعور بفقدان الأمل، وبالتالي يقطع الطريق على أي نمو ايجابي. ولكن الأمل يبقى بطريق وحيد، بإمكانية واحدة، تتمثل في تجذير البريسترويكا»[٥].

رفض ميخائيل غورباتشيوف، هذه الوجهة بشكل قاطع اثناء لقائه الشخصي مع ساخاروف. فقد رد عليه قائلاً: «تؤدي كل القفزات المتصّنعة، أياً كانت، الى التراجع. لن أخضع لأي ابتزاز، لا من اليسار ولا من اليمين، بل سأسلك الخط الذي أراه ضرورياً، أياً كانت الضغوط»[٦]. أدّت مركزية الرئيس السوفياتي الى تراجع حقيقي. هذا ما يؤكده الاقتصادي فاسيلي سليونين في معرض تقويمه للاستراتيجية الاقتصادية، التي صاغتها الخطة الثالثة عشرة، والتي تنطلق من قرار يقضي بتثبيت الوضع القائم، ثم الشروع في إحداث اصلاحات جذرية، بتعبير آخر، الاقدام على إستبدال الاصلاحات، بإجراءات غير عادية ضمن إطار النظام القديم. ويضيف سليونين مقارناً هذا التوجه، بما أقدم عليه ستالين، في الاعوام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣، من اجراءات بغية «اصلاح» النظام المالي، عن طريق مصادرة اموال الشعب: ارتفاع الأسعار، الرقابة الصارمة على الأجور. وفي عام ١٩٤٧، استعيدت هذه السياسة، التي لم تتعدَّ كونها نظاماً نقدياً يعتمد مبدأ النهب بشكل واضح وبسيط.

يوضح الكاتب المشهور اسحاق عظيموف، وهو عالم فيزيائي، ان فهم الكون، يقضي بتبسيط المشكلة الى أقصى حد ممكن، بحيث لا نأخذ بعين الاعتبار إلا العناصر والسمات الضرورية من أجل إتمام عملية الفهم. «اذا أردت معرفة سبب سقوط جسم ما، يجب أن لا تسأل هل هو، جديد ام قديم، أحمر أو أخضر، هل له رائحة أم لا. . . هذا التبسيط يمكن تسميته بالنموذج. . .»(٨) وتدفعنا ملاحظة مختلف أوجه سياسة غورباتشيوف، سواء لجهة المبدأ الذي ترتكز اليه «البريسترويكا» أو لجهة المحرك الرئيسي لها، الى طرح السؤال: لماذا؟ لماذا أقدم غورباتشيوف بعد وصوله الى السلطة في آذار ١٩٨٥، على تدشين سياسة جديدة، أدّت نتائجها، بعد مضي خمس سنوات، الى وضع الجميع في جو من الحيرة والارتباك. ففي بلدان المعسكر الاشتراكي السابق أُبعد قدامى الزعماء الشيوعيين عن السلطة، افساحاً في المجال أمام المعارضة لتشارك الشيوعيين في تحمل مسؤولية مختلف جوانب الحياة في البلاد. لا شك ان موسكو قد اسهمت في توفير ظروف تكّون هذا الوضع، بطرق عدة: بدءاً من ممارسة تأثيرها العام، وتحريك «جماعتها» داخل أجهزة الأمن، والجيش، وكافة مراكز السلطة. ودون ان ننسى للحظة واحدة، عامل غضب الشعب، المتراكم منذ الأيام الأولى لقيام الانظمة الشيوعية، فإننا لا نستطيع، ونحن نحلل الأحداث الجارية، أن ننسى دور موسكو. أي دور غورباتشيوف. إذاً لماذا؟يمكننا الافتراض (بإنتظار الوصول الى الوثائق) بأن «مذهب غورباتشيوف»، الذي خلف مذهب بريجنيف، يستهدف المحافظة على علاقات التحالف مع بلدان المعسكر الاشتراكي القديم، على أسس جديدة. انطلاقاً من وجهة النظر هذه، فإن دور «المحرر» الذي لعبه غورباتشيوف، سيضمن له ثقة الغرب الدائمة به، ناهيك عن دعمه الذي هو بأمس الحاجة اليه.

تتتابع النكسات منذ خمسة أعوام في بلد الأمين العام ـ الرئيس. وبات واضحاً، اليوم، ان مصدر قوة النظام السوفياتي ـ صلابته ـ هي مصدر ضعفه: فقد اظهرت الأحداث التي تتالت، مدى السرعة في انهيار هذا النظام. ولكن بشرط ـ يعيه غورباتشيوف جيداً ـ إفتقار قمة هرم السلطة الى رئيس فعلي.

اما غورباتشيوف الذي كان يهوى ترداد انه يبحث عند لينين عن حلول للمسائل المطروحة، فربما رأى الملاحظة التي خربشها زعيم حزب الثورة، على هامش كتاب «في الحرب» لكلوزفيتز: «الزعيم الجيد. . . الذي يرتاب من الناس».

«الزعيم الجيد». هل تنطبق هذه الصفة على ميخائيل غورباتشيوف؟ لقد وصل الى اعلى مقام في السلطة، وسمحت له موهبته السياسية العجيبة، بان يضع كلياً تحت سيطرته ما يعتبر الانجاز الاهم في «الاصلاح السياسي»، اي مؤتمر نواب الشعب، حيث بات يفعل ما يحلو له. ولقد اشرنا سابقاً الى شعبيته العجيبة في الغرب، والى الاحكام الشديدة الاطراء التي يُطلقها عليه رجال السياسة والدين وزعماء الدول على مختلف مشاربهم. ولقد قال فيه الرئيس ميتران: «إن غورباتشيوف رجل بعيد النظر»(٩). وقد دعَّم هذا الرأي زعيم طائفة «المون»، الذي كان لفترة قصيرة من الدّ اعداء الشوعية، وذلك في خلال مقابلة مع مجلة «زاروبجوم» (في الخارج) السوفياتية حيث اعطى هذا التقويم: «إن الرئيس غورباتشيوف رجل مقدام فائق الشجاعة راسخ القناعة(١٠). اما مجلة تايمز التي سبق ان انتخبت غورباتشيوف «رجل العام» فقد قدّمته في كانون الأول ١٩٨٩ بمثابة «رجل العقد». غير أننا نقرأ في هذه الفترة نفسها نتائج استطلاعات للرأي حول شعبية الرئيس في بلاده، تكشف عن كارثة حقيقية. اما استطلاع أرغومانتي اي فاكتي Argumenty iFakty الذي سبقت الإشارة إليه، فقد أتى مُذَيلاً بهذا التقييم لاحد القراء: «إن اسلوبه في فرض آرائه على النواب، وتعليقاته على العديد من المداخلات، وانتخابه دون تناوب، وما يمارسه من ضغوط على عمليات التصويت وتذبذبه بين «اليمين» و «اليسار» قد ادّى جدياً الى زعزعة ما كان يتمتع به سابقاً من سلطة»(١١).

في ربيع ١٩٩٠ اجري استطلاع عقب انتخاب غورباتشيوف الى الرئاسة. وعلى السؤال «هل تعتبر أن الرئيس الحالي للاتحاد السوفياتي قادر على استعادة النظام وصون وحدة البلاد؟» جاءت الاجوبة على الشكل الآتي: ٤٠ بالمائة اعتبروا انه قادر، ٣١ بالمائة أنه كان من الانسب أن ينتخب لهذا الموقع رجل أصلب واشد حزماً، فيما رأي ١١ بالمائة أن الافضل لهذا الموقع رجل اقرب الى التسامح والديموقراطية. وامتنع ١٨٪ عن الإجابة(١٢). وفي خلال انتخابات لمؤتمر الحزب نال غورباتشيوف في منطقة من موسكو ٦١٪ من الاصوات.

ومرد ضعف غورباتشيوف المطرد الى أنه عندما استولى على السلطة المطلقة، تعثر اكثر فاكثر في عملية ممارستها، ولا يوازي اضطرابه التشريعي الا عدم حماسه لمواجهة المسائل الكبرى. وفي الاول من كانون الثاني ١٩١٩ اشار المؤرخ الروسي يوري غوتيه في

جريدته الى هذين البيتين اللذين كتبا على حائط منزل في موسكو: «السوفيات حديث الساعة طوال اليوم/ والسماء تمطر مراسيمها كل يوم. أما من أجل الخبز. فاركض إلى الأبد»(١٣) وهمايصفا بدقة ما يجري في الاتحاد السوفياتي بعد خمس سنوات من «البيريسترويكا».

لقد أُطلقت البريسترويكا بعد ان ادركت الادارة اواخر عصر بريجنيف، ان السلطة في ازمة، غير ان ما قام به غورباتشيوف طوال هذه السنين الخمس لم يؤدِ الا الى تعميق الازمة. إن صرح آخر امبراطورية في القرن العشرين مليء بالشقوق. ولكن الامين العام وبما يميزه من حنكة سياسية يعرف كيف يستفيد من ضعفه، وفي هذا السياق بدأت سيناريوهات الكوارث التي تهدد العالم في حال انهيار الامبراطورية الروسية تتوالى وكأنها جُرفٌ ثلجي، واستعيدت ذكرى الحروب العديدة التي جعلت من البلقان خزان بارود هدد اوروبا في كل لحظة اثر انهيار الامبراطورية العثمانية، فاتحة المرحلة على الحرب العالمية الاولى. وكذلك افول الامبراطورية النمساوية الهنغارية، واستفادة هتلر من الفراغ السياسي، وهو ما مهّد للحرب العالمية الثانية. واثناء مقابلة مع بوش في واشنطن في حزيران ١٩٩٠، بلغ الامر بمسشاري غورباتشيوف حد استخدام عبارة «روسيا ويمار»، إلماحاً الى مصير المانيا بُعَيْد فرساي. وقد لجأ البعض ايضاً الى التحذير من الخطر الناجم عن انهيار الامبراطورية السوفياتية، وذلك لأن تشكيلات جديدة من الدولة الناشئة على حطامها قد تمتلك السلاح النووي. وليس لكل هذه السيناريوهات الا هدف واحد: اثبات ان الاتحاد السوفياتي يبقى من الضرورات، وانه ضمانة للسلام والاستقرار.

على السؤال لماذا «البريسترويكا»؟ يمكننا ان نجيب: لقد قبل غورباتشيوف بـ «برست» جديدة كبرى، قبل ان يضحي بالارض من اجل السلطة.

متوخياً اقناع رفاقه بالقبول «بالسلم المذل» اوضح لينين: لو ان الالمان فرضوا ايضاً قلب السلطة السوفياتية، كان لا بد لنا والحالة هذه من القتال. التضحية بكل شيء من اجل المحافظة على السلطة ـ هذا هو شعار لينين، الشعار الذي اتبعه جميع خلفائه. وفي كلمة حول لينين يعود غورباتشيوف مرات ومرات الى الدروس العبقرية التي تستخلص من سياسة لينين القائمة على التغيير العنيف. وهو يستحضر «برست» وال

N.E.P، مضيفاً للمرة الاولى «انه كان لا بد للينين من مخاصمة زملائه لفرض قرار إلزامي ضد رأي الاغلبية، وتشكل «برست» نموذجاً كلاسيكياً عن مثل هذا القرار». (١٤)

سوف يلحظ المؤرخون، الذين سينكبون مستقبلاً على دراسة مرحلة غورباتشيوف بعد أن يكون الزبد قد انحسر عن أعماق ماحدث، سوف يلحظون بصورة أفضل ما كان لغورباتشيوف ـ دون وعي أو إرادة، على ما يبدو لي ـ من إسهام أساسي في الآلية التي دفعت بالنسق السوفياتي نحو الهاوية.

عام ١٩٢٢ أشار بوريس بيلنياك الى خاصية أساسية تميز «العالم الجديد» الذي ولد أثر انقلاب أكتوبر: «تعيش روسيا على إرادتها في التركيز على الفعل الارادي من جهة ومن جهة اخرى على ارادتها في ان لا ترى. واني اعتبر هذه الكذبة بمثابة ظاهرة بالغة الايجابية وفريدة من نوعها في العالم». (١٥)

شكلت هذه الكذبة التي سمحت بالاعتقاد بإمكانية تحقيق الطوبى، قوة تضاهي بأهميتها أشد أنواع القمع. لقد كشف غورباتشيوف عن وجود مثل هذه الكذبة. كما سمح بإدخال عناصر عقلانية في هذا النظام السوفياتي السحري واللاعقلاني القائم على صيغة تذهل ببساطتها ـ قائد، وحزب، وشعب، وان لم تكن هذه العناصر قد عبّرت عن نفسها من خلال تجدد في المفردات وثقوب في جدار الكذب. ان التوحد بين اللاعقلاني والعقلاني يظل ممتنعاً، اذ لا بد من ان يلفظ الجسم الحي الجسم الغريب، والا سوف يموت.

في ذروة انتصار نابليون، اكد مترنيخ ان النظام النابليوني يقوم برمته على قاعدة فاسدة، وانه لذلك لا بد من ان ينهار حتماً. فكل المسألة، اضاف رجل الدولة النمساوي، في معرفة متى وكيف.

وعلى السؤال: لماذا التزم غورباتشيوف «بالبريسترويكا» لا نجد الا جواباً واحداً: تأجيل انهيار النظام السوفياتي الى ابعد حدٍ ممكن.

باريس، آب ١٩٩٠

حواشي

الجزء الأول

الفصل الأول

1. V. I. Lenin, *Polnoe sobr. sočinenij*, t. 36. p. 200.

الفصل الثاني

1. Aleksej Adžubej, « Te desjat' let », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 84.
2. Le terme russe employé alors est *rekonstrukcija*.
3. A. A. Gromyko, *Pamjatnoe*, t. 2, Moscou, 1988, p. 393.
4. Mot à mot : « d'une seule voix ».
5. Mot à mot : « d'une seule âme », « d'un seul cœur ».
6. A. A. Gromyko, *Pamjatnoe*, *op. cit.*, p. 393.
7. Cf. *Kommunist*, n° 5, 1985, pp. 6-7.
8. A. A. Gromyko, *op. cit.*, pp. 392-393.
9. *Pravda*, 24 octobre 1989.

الفصل الثالث

١ ـ الغيت امتحانات التاريخ للمرة الأولى، لسنة واحدة، في ١٩٥٦، بعد تقرير خروتشيوف أمام المؤتمر العشرين حول عبادة الشخصية.

2. Robert Conquest, *The Harvest of Sorrow. Soviet Collectivisation and Terror-Famine*, Londres, 1986, p. 215.
3. M.S. Gorbačev, « Stranicy biografii », *Izvestija CK KPSS*, n° 5, 1989.
4. Vasilij Grosman, *Vse tečet*, Francfort-sur-le-Main, 1970, p. 129.
5. *Malaja Sovetskaja enciklopedija*, Moscou, 1930, t. 7, p. 117.
6. Robert Conquest, *op. cit.*, p. 306.
7. Cf. Aleksandr Nekrič, *Nakazannye narody*, New York, 1978.
8. *Knižka partijnogo rabotnika*, Moscou, 1980, p. 17.
9. *Izvestija CK KPSS*, n° 5, 1989.

١٠ ـ رحلة غورباتشيوف في منطقة كراسنويارسك، برافدا ١٦ تشرين الأول ١٩٨٨.

١١ ـ في الاتحاد السوفياتي، العلاقة القصوى هي خمسة.
12. *Pravda*, 20 mai 1987.
13. Zhores Medvedev, *Gorbachev*, Oxford, 1986, p. 26.
14. Zdenek Mlynar, « Mon camarade Mikhaïl Gorbatchev », *L'Autre Europe*, n° 7-8, Paris, 1985, p. 182.
15. Zdenek Mlynar, *op. cit.*, p. 182.
16. *New York Times*, 6 mai 1962.

١٧ ـ عام ١٩٢١ سعّر لينين الصراع ضد «الأعداء الايديولوجيين» وأمر بتوقيف جميع أفراد عائلة مارتوف: أخويه اخته ابن عمه وبنت عمه وابنتها، وهذا ما لم يُشر إليه كازاكيفيتش. ولذا استمر غورباتشيوف وملينار تجاهلهما له.

18. Zdenek Mlynar, *Holodom veet ot Kremlja*, New York, 1983, p. 16.
19. *Ibid.*, p. 21.
20. *Ibid.*, p. 11.
21. *Ibid.*, p. 22.
22. *Ibid.*, p. 23.
23. Cf. *Posev*, n° 4, 1985.
24. *Mikhail Gorbachev. An intimate Biography*. By the editors of *Time Magazine*, New York, 1988, p. 69.
25. Zhores Medvedev, *Gorbachev*, *op. cit.*, p. 43.
26. *Izvestija CK KPSS*, n° 5, 1989.

الفصل الرابع

1. *Pravda*, 27 juillet 1986.
2. Anatolij Ivanskij, *Molodoj Lenin*, Moscou, 1964, p. 623.
3. *Izvestija CK KPSS*, n° 5, 1989.
4. *Knižka partijnogo aktivista*, Moscou, 1980, p. 17.
5. « Ja by spravilsja s ljuboj rabotoj », Entretien avec V. S. Semitchastny. *Ogonek*, n° 24, 1989.
6. Baron B.E. Nolde, *Dalekoe i blizkoe*, Paris, 1930, p. 122.
7. *Ežegodnik Bol'šoj sovetskoj enciklopedii*, Moscou, 1962, p. 602.
8. Zhores Medvedev, *op. cit.*, p. 50.
9. Roj Medvedev, *Hruščev*, Benson, 1986, p. 240.
10. Zhores Medvedev, *op. cit.*, p. 59.
11. Michel Tatu, *Gorbatchev. L'URSS va-t-elle changer?*, Paris, 1987, p. 75.
12. Ju. Černičenko, « Dve tajny ». *Esli po sovesti*, sbornik statej, Moscou, 1988, pp. 326-327.
13. *Kraj* signifie « le bout », « l'extrémité ».
14. Jerry F. Hough and Merle Fainsod, *How the Soviet Union is governed*, Harvard, 1979, p. 497.
15. Michel Tatu, *op. cit.*, p. 82.
16. *Mikhail Gorbachev. An intimate biography*, *op. cit.*, p. 94.

١٧ ـ لم يكن لجمهورية روسيا حزب ولا لجنة مركزية وذلك حتى تموز ١٩٩٠. كان خروتشيوف قد أنشأ مكتباً لإعمال RSFSR. غير انه الغي بعد اقالته. وهذا ما يفسر بسهولة: فوجود لجنتين مركزيتين في موسكو ربما أدى إلى التنازع. وفي خريف ١٩٨٩ رافضاً الاقتراح القاضي بانشاء «حزب شيوعي روسي» أعاد غورباتشيوف العمل بهذا المكتب والحقه باللجنة المركزية.

18. Constitution de l'URSS, article 6.
19. M. S. Gorbačev, « Doklad na XIX konferencii KPSS », *Pravda*, 29 juin 1988.
20. Zhores Medvedev, *op. cit.*, pp. 83-84.

الفصل الخامس

1. Michel Tatu, *op. cit.*, p. 81.
2. Michel Heller, Aleksandr Nekrich, *L'Utopie au pouvoir*, Paris, 1982, p. 110.
3. K.M. Bogoljubov, *Prodovolstvennaja programma SSSR : soderžanie i puti realisacii*, Moscou, 1983, p. 33.
4. T. Zaslavskaja, « O strategii social'nogo upravlenija perestrojkoj », *Inogo ne dano*, Moscou, 1988, pp. 32-33.
5. T. Zaslavskaja, *op. cit.*, p. 32.
6. V.I. Lenin, *Polnoe sobranie sočinenij*, Moscou, t. 24, p. 441.
7. يشير ميشال تاتو إلى عدوم وجود إثر لهذه الرحلة في أرشيف الحزب الشيوعي الفرنسي، فيما أكد غورباتشيوف للصحافيين أنه أقام في فرنسا خلال هذه المرحلة، قاطعاً ٥ آلاف كيلومتر في سيارة كان يقودها بنفسه.
8. *M. Gorbachev. An Intimate Biography, op. cit.*, p. 126.
9. *Ibid.*, p. 129.
10. *Time*, 31 décembre 1984.
11. *Der Spiegel*, n° 46, 11 novembre 1985.
12. La publication de ce « résumé » (les grandes lignes de la thèse) est obligatoire avant la soutenance.
13. Christian Schmidt-Hänsen, *Gorbachev. The Path of Power*, Londres, 1986, p. 57.
14. Cf. Michel Tatu, *op. cit.*, p. 48.
15. *M. Gorbachev. An Intimate Biography, op. cit.*, p. 126.
16. *Ibid.*, p. 121.
17. *Junost'*, n° 5, 1988, p. 53.
18. Denis Healy, « Gorbachev face to face », *Newsweek*, 25 mars 1985.
19. *Kommunist*, n° 5, 1985, p. 7.
20. *Ibid.*, p. 11.
21. I. Stalin, *Sočinenija*, Moscou, 1948, t. 8, pp. 174-175.
22. *Kommunist*, n° 5, 1985, p. 6.

الجزء الثاني

1. M. S. Gorbačev, *Perestrojka i novoe myšlenie*, Moscou, 1987, p. 11.
2. *Kommunist*, n° 5, 1985, p. 7.
3. *Pravda*, 24 avril 1985.
4. *Time*, 11 février 1985.
5. *Pravda*, 9 mai 1985.
6. V. Iachtchenko, chef de la direction géodésique et cartographique près le Conseil des ministres d'URSS, devait reconnaître qu'à partir de la fin des années trente, toutes les cartes soviétiques étaient falsifiées. *Izvestija*, 2 septembre 1985.
7. Cf. Walter Laqueur, « Glasnost and its limits », *Commentary*, juillet 1988.
8. Alain Besançon, *Anatomie d'un spectre. L'Économie soviétique du socialisme réel*, Paris, 1981.

الفصل السادس

1. Vasilij Seljunin, « Istoki », *Novyj mir*, n° 8, 1988.
2. *Pravda*, 24 avril 1985.
3. *Pravda*, 16 juin 1986.
4. *Pravda*, 28 janvier 1987.

5. *Pravda*, 2 novembre 1987.
6. M. S. Gorbačev, *Perestrojka i novoe myšlenie dlja našej strany i dlja vsego mira*, Moscou, 1987, p. 5.
7. C'est l'euphémisme préféré de Gorbatchev; au lieu de dire « complexe », « difficile », il dit « pas simple ».
8. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 13.
9. *Pravda*, 18 septembre 1988.
10. *Pravda*, 27 novembre 1986.
11. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 11.
12. *Ibid.*, p. 13.
13. *Ibid.*, p 18.
14. Odinadcatyj s'ezd RKP(b). Stenografičeskij otčet. Moscou, 1922, p. 7-38.
15. Vasilij Maklakov, « Tragičeskoe položenie », *Russkie vedomosti*, 2 septembre 1915.
16. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 13.
17. *Pravda*, 27 juillet 1986.
18. *Krasnaja zvezda*, 1er octobre 1987.
19. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 61.
20. *Pravda*, 7 mars 1988.
21. Mihail Antonov, « O hlebe nasuščnom i pišče duhovnoj », *Pravda*, 28 août 1988.
22. *Pravda*, 29 juillet 1988.
23. *Novoe vremja*, n° 18, 1988.
24. *Pravda*, 12 juin 1985.
25. *Pravda*, 6 novembre 1986.
26. *Pravda*, 18 mai 1985
27. *Pravda*, 29 juin 1988.
28. *Ibid*
29. *International Herald Tribune*, 3 novembre 1988.
30. Cf. Michel Heller, *La Machine et les rouages*, Paris, 1985, p. 156.
31. Vasilij Seljunin, « Reforma ili revanš bjurokratii », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 16.
32. *The Economist*, 18 novembre 1989.
33. A. Kovalev, « Rubim proseku na zvezdu? », *Pravda*, 14 juillet 1989.
34. *Moskovskie novosti*, 29 octobre 1989.
35. Nikolaj Šmelev, « Avansy i dolgi », *Novyj mir*, n° 6, 1987, p. 144.
36. V. Ginzburg, « Protiv bjurokratii, perestrahovki i nekompetencii », *Inogo ne dano*, p. 243.
37. V. Seljunin, « Revanš bjurokratii », *Inogo ne dano*, p. 195.
38. Nikolaj Šmelev, « Avansy i dolgi », p. 158.
39. *Pravda*, 3 novembre 1987.
40. Prodovol'stvennaja programma SSSR, Moscou, 1983, p. 36.
41. *Pravda*, 26 juin 1987.
42. Ju. Černičenko, « Dve tajny », *Esli po sovesti*, Moscou, 1988, p. 360.

الفصل الثالث

1 *Pravda*, 2 août 1986.
2. *Ibid.*
3. *Pravda*, 2 octobre 1986.
4. *Pravda*, 1er octobre 1987.
5. *Pravda*, 26 juin 1987.
6. *Pravda*, 2 novembre 1987.
7. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 46.
8. *Ibid.*, p. 71.
9. *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1969, p. 313.
10. *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1983, p. 291.

11. M.S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 49.
12. E. A. Ambarcumov, « Analiz V. I. Leninym pričin krizisa 1921 i putej vyhoda iz nego », *Voprosy istorii*, n° 4, 1984.
13. V. Bugaev, « Strannaja pozicija », *Kommunist*, n° 14, 1984.
14. *Kommunist*, n° 17, 1984.
15. M.S. Gorbačev, *Perestrojka*, p. 48.
16. *Ibid.*, p. 52.
17. Nikolaj Šmelev, « Novye trevogi », *Novyj mir*, n° 4, 1988, p. 175.
(18) *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1987, p. 285.

١٨ ـ في الطبعة السابقة (يعاد طبع مختصر القاموس السياسي، بانتظام، وفي كل مرة يُعمل على ابراز وجهة نظر الأمين العام) كانت مقالة «الوضعية الثورية» تتضمن جملة حول «تفاقم أزمة الرأسمالية العامة» وازدياد إمكانية «نضوج وضعية ثورية في البلدان الرأسمالية» وقد حذفت هذه الجملة من طبعة ١٩٨٧.

19. James H. Billington, « Russia's Future : Alternative for a modern Identity », *International Herald Tribune*, 25 janvier 1990.

الفصل السابع

1. Fedor Burlackij, « Kakoj socializm narodu nužen », *Esli po sovesti, op. cit.*, p. 74.
2. M. Kapustin, « Obratnoj dorogi net », *Sovestskaja kul'tura*, 30 juillet 1988.
3. A. Butenko, « O revoljucionnoj perestrojke gosudarstvenno-administrativnogo socializma », *Inogo ne dano, op. cit.*, p. 553.
4. T. Zaslavskaja, « O strategii social'nogo upravlenija perestrojkoj », *Inogo ne dano, op. cit.*, p. 498.
5. Cf. Elem Klimov, « Vlast' – vot v čem vopros! » *Moskovskie novosti*, 19 juin 1988.
6. A. Krasikov, lettre à *Ogonek*, n° 29, 1988.
7. L. Batkin, « Vozobnovlenie istorii », *Inogo ne dano, op. cit.*, p. 181.
8. A. Migranjan, « Mehanizm tormoženija v političeskoj sisteme i puti ego preodolenija », *Inogo ne dano, op. cit.*, p. 107.
9. Vjačeslav Karpov, « Evangelie ot dogmatika », *Ogonek*, n° 31, 1988, p. 15.
10. E. Ambarcumov, « O putjah soveršestvovanija političeskoj sistemy socializma, *Inogo ne dano, op. cit.*, p. 81.
11. Ju. Afanas'ev, « Perestrojka i istoričeskoe znanie », *Inogo ne dano, op. cit.*, p. 498.
12. Jurij Ščekočihin, Aleksandr Gurov, « Lev prygnul », *Literaturnaja gazeta*, 20 juillet 1988.
13. *Ibid.*
14. *Russkaja mysl'*, 22 décembre 1989.
15. Déclaration de V. Afanassiev, membre du Comité central et rédacteur en chef de la *Pravda* à la télévision de Moscou, le 26 juin 1988.
16. Cf. Michel Heller, *La Machine et les rouages, op. cit.*, pp. 97-107.
17. Vittorio Strada, « Rossija, SSSR i Evropa », communication au symposium international de Barcelone, octobre 1988. *Russkaja mysl'*, 25 novembre 1988.
18. A. Gel'man, « Vremja sobiranija sil », *Esli po sovesti, op. cit.*, p. 102.
19. *Pravda*, 1er juillet 1986.
20. *Pravda*, 2 novembre 1988.
21. *Ibid.*
22. L. Batkin, « Vozobnovlenie istorii », *Inogo ne dano, op. cit.*, p. 180.
23. *Pravda*, 14 juin 1988.
24. *Ibid.*
25. D. Furman, « Naš put' k normal'noj kul'ture », *Inogo ne dano, op. cit.*, p. 579.

26. T. Zaslavskaja, « O Strategii social'nogo upravlenija perestrojkoj », *Inogo ne dano*, p. 31.
27. *Pravda*, 28 janvier 1987.
28. I. Stalin, « O nedostatkah partijnoj raboty i merah likvidacii trockistskih i inyh dvurušnikov », *Pravda*, 29 mars 1937.
29. *Pravda*, 28 janvier 1987 (les citations suivantes sont extraites du même article).
30. *Pravda*, 29 mars 1987 (les citations suivantes sont extraites du même article).
31. *Junost'*, n° 10, pp. 35-37.
32. A. Bek, *Novoe naznačenie*, Francfort, 1971, p. 53.
33. *Ibid.*, p. 77.
34. *Ibid.*, p. 105.
35. G. Popov, « S tŏcki zrenija ekonomista (O romane Aleksandra Beka *Novoe naznačenie*), *Nauka i žizn'*, n° 4, 1987, p. 58.
36. Mihail Romm, « Četyre vstreči s N.S. Hruščevym », *Ogonek*, n° 28, 1988, p. 7.
37. Vjačeslav Karpov, « Evangelie ot dogmatika », *Ogonek*, n° 31, 1988, p. 15.
38. « Parti et perestroïka », table ronde organisée à l'institut du marxisme-léninisme près le Comité central du PCUS, *Pravda*, 14 juin 1988.
39. Pavel Lebedev, « Čto my znaem o ministrah? *Ogonek*, n° 31, 1988, pp. 6-7.
40. A. Migranjan, *op. cit.*, p. 97.
41. *Pravda*, 14 juin 1988.
42. N. N. Sljun'kov, « Razvernut' sozidatel'nye sily socializma ». Communication à la séance solennelle organisée pour le soixante et onzième anniversaire de la révolution, *Pravda*, 6 novembre 1988.

الفصل الثامن

1. Aleksandr Prohanov, « Šest'sot let posle bitvy », *Oktjabr'*, n° 8, 1988, p. 64.
2. *Izvestija*, 1er juillet 1988.
3. T. Zaslavskaja, *op. cit.*, p. 17.
4. Lenin, *Polnoe sobr. sočinenij*, tome 39, p. 21.
5. A. Aganbegjan, communication à une conférence sur les problèmes du progrès scientifique et technique, *Eko*, n° 8, 1986, p. 5.
6. *Izvestija*, 7 juillet 1988.
7. *Pravda*, 11 mars 1987.
8. *Pravda*, 17 mai 1986.
9. *Izvestija*, 18 juin 1988.
10. « Inside the USSR ». Numéro spécial de *Time*, 23 juin 1980.
11. Boris Souvarine, « Aveux à Moscou », *La Vie intellectuelle*, 10 avril 1944; in : Boris Souvarine, *A contre-courant, Écrits 1925-1939*, Paris, 1945, p. 339.
12. *Moskovskaja pravda*, 17 juin 1987.
13. *Moskovskie novosti*, 21 août 1988.
14. *Ogonek*, n° 29, 1988, p. 4.
15. *Argumenty i Fakty*, n° 31, 1989.
16. *Literaturnaja gazeta*, 9 novembre 1988.
17. *Izvestija*, 21 août 1989 et 2 septembre 1989.
18. *International Herald Tribune*, 1er novembre 1988.
19. A. Levin, « O teh, kto živet "niže srednego" », *Trud*, 26 juin 1988.
20. *Moskovskie novosti*, 21 août 1988.
21. 1965.
22. Discours de Krasnoïarsk, *Pravda*, 18 septembre 1988.
23. *Moskovskie novosti*, 25 septembre 1988. Résumé d'un rapport tiré à soixante exemplaires.

24. *Sovetskaja Rossija*, 23 décembre 1988.
25. *Pravda*, 6 juin 1988.
26. *Literaturnaja gazeta*, 20 avril 1988.
27. *Pravda*, 18 septembre 1988.
28. *Literaturnaja gazeta*, 9 novembre 1988.
29. Vjačeslav Karpov, « Evangelie ot dogmatika », *Ogonek*, n° 31, 1988, p. 15.
30. T. Zaslavskaja, « O strategii social'nogo upravlenija perestrojkoj », *op. cit.*, p. 17.
31. *Ibid.*, p. 20.
32. *Ibid.*, p. 22.
33. *Ibid.*, p. 23.
34. *Ibid.*, p. 25.
35. *Ibid.*, p. 28.
36. *Ibid.*
37. *Ibid.*, p. 29.
38. *Ibid.*, p. 30.
39. *Ibid.*, p. 32.
40. *Ibid.*, p. 33.
41. *Ibid.*, p. 31.
42. *Pravda*, 7 mars 1988.
43. *Literaturnaja gazeta*, 9 novembre 1988.
44. *Pravda*, 24 avril 1985.
45. *Moskovskie novosti*, 28 juin 1987.
46. *Literaturnaja gazeta*, 8 mai 1987.
47. *Ibid.*
48. *Pravda*, 13 avril 1987.
49. *Moskovskie novosti*, 21 août 1988.
50. Aleksandr Belikin, « Sanitar », *Znamja*, n° 6, 1988, p. 41.
51. *Moskovskie novosti*, 28 juin 1987.
52. *Sovestskaja Moldavija*, 13 septembre 1987.
53. Christopher Davis, « Reviewing Soviet Health Care Problems », *The Wall Street Journal*, 31 octobre 1986.
54. *Naselenie SSSR 1987. Statističeskij sbornik*, Moscou, 1988, p. 345.
55. Larisa Remennik, « Žizn', ubitaja v tebe... » *Nedelja*, n° 38, 1987, p. 12.
56. *Naselenie SSSR 1987, op. cit.*, p. 319.
57. Rencontre avec les auditeurs de l'École Supérieure des Jeunesses communistes, le 20 novembre 1988, *Russkaja mysl'*, 6 janvier 1989.
58. Communication de l'historien Ovseï Chkaratan au club de discussion inter-scientifique, le 29 mai 1987. « Documents du Samizdat », Radio-Liberté, Bulletin n° 32, 11 septembre 1987.
59. *Moskovskie novosti*, 28 août 1988.
60. *Le Monde*, 23-24 octobre 1988.
61. On appelait « Allemands » (*Nemtsy*, du russe *nemoï*, muet) tous les étrangers qui ne parlaient pas le russe.
62. *Pravda*, 13 avril 1987.
63. *Naselenie SSSR 1987, op. cit.*, p. 43.
64. *Literaturnaja gazeta*, 30 juillet 1986.
65. *Russkaja mysl'*, 6 janvier 1989.
66. Vasilij Seljunin, « Glubokaja reforma ili revanš bjurokratii ? », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 164.
67. *Pravda*, 3 septembre 1988.
68. *Izvestija*, 7 juillet 1988.
69. *Plan*, n° 16, 1936, p. 10.
70. *Za industrializaciju*, 5 juillet 1936.
71. *Literaturnaja gazeta*, 9 novembre 1988.
72. Pour plus de détails sur l'idéologisation du travail, voir : Michel Heller, *La Machine et les rouages*, *op. cit.*
73. Aleksandr Zajčenko, « O hlebe nasuščnom », *Moskovskie novosti*, 21 juillet 1988.

74. T. I. Zaslavskaja, « O strategii », *Izvestija*, 1er juin 1985.
75. *Izvestija*, 1er janvier 1936.
76. *Trudy I Vserossijskogo s'ezda sovnarkhozov*, Moscou, 1918, p. 380.
77. Anatolij Streljanyj, « Prihod i rashod », *Esli po sovesti*, p. 333.
78. Archives du Samizdat. Club de discussion, 29 mai 1987, n° 32, 1987.
79. Robert Roždestvenskij, « Ne dlja vida », *Esli po sovesti*, p. 241.
80. En 1789, Louis Marie de Noailles proposait de renoncer aux privilèges.
81. Alla Bossart, « Železnyj zanaves naloga ». Entretien avec Boris Ivanovitch Gostev, ministre des Finances d'URSS, *Ogonek* n° 29, 1988.
82. Cf. *Russkaja mysl'*, 8 décembre 1989.
83. Anatolij Streljanyj, « Radioputešestvija v glubinku », Radio-Liberté, 21 octobre 1989.
84. *Sovetskaja Rossija*, 22 octobre 1989.
85. Anatolij Streljanyj, *ibid.*, 14 octobre 1989.
86. L'appel est également signé par certains membres du Groupe interrégional tels que V. Tikhonov, G. Popov, A. Mourachov, I. Afanassiev. I. Tchernichenko devait se dédire par la suite. *Izvestia*, 5 décembre 1989.

الجزء الرابع

1. M. Gorbačev, « Naraščivat' intellektual'nyj potencial perestrojki », *Literaturnaja gazeta*, 1r janvier 1989.
2. Fedor Burlackij, « Posle Stalina », *Novy mir*, n° 10, 1988, p. 194.
3. Sergej Hruščev, « Pensioner sojuznogo značenija », *Ogonek*, n° 40-41, 1988.
4. M. Heller, A. Nekrich, *L'Utopie au pouvoir*, Paris, 1982, pp. 455-456.
5. E. Lebedev, « Koe-čto ob ošibkah serdca », *Novyj mir*, n° 10, 1988, p. 240.

الفصل التاسع

1. Jacques Séguéla, *Demain il sera trop star*, Paris, 1989, p. 125.
2. Cf. Vadim Baranov, « " Da " i " net " Maksima Gor'kogo », *Sovetskaja kul'tura*, 1er avril 1989.
3. *New York Times*, 30 décembre 1986.
4. Vassili Grossman, *Vie et Destin*, Paris, 1980, p. 721.
5. *Argumenty i Fakty*, n° 36, 1989.
6. Enregistrement magnétique réalisé durant une rencontre entre la rédaction des *Nouvelles de Moscou* et les écrivains de la capitale, en juin 1987. Cf. *Russkaja mysl'*, 4 septembre 1987.
7. Konstantin Simonov, « Glazami čeloveka moego pokolenija », *Znamja*, n° 3, 1988, p. 62.
8. Cité d'après : A.I. Ovčarenko, « Sovetskaja dejstvitel'nost' v publicistike Gor'kogo (1928-1946) ». « Naučnye doklady Vysšej Školy ». *Filologičeskie nauki*, 2, 1959, p. 12.
9. I. Stalin, *Sočinenija*, Moscou, 1949, t. 12, p. 174.
10. G. K. Ašin, « Pis'mo v redakciju », *Argumenty i Fakty*, n° 12, 1989.
11. *I.S. Aksakov v ego pis'mah*, Moscou 1982, première partie, t. III, p. 180.
12. Mih. Lemke, *Očerki po istorii russkoj cenzury i žurnalistiki XIX stoletija*, Saint-Pétersbourg, 1904, p. 19.
13. *Sobranie materialov o napravlenii različnyh otraslej russkoj slovesnosti za poslednee desjatiletie otečestvennoj žurnalistiki za 1863 i 1864*, Saint-Pétersbourg, 1865, pp. 184-185.
14. Aleksej Adžubej, « Te desjat' let », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 101.
15. Nikita Hruščev, *Vospominanija*, New York, 1979, p. 275.

16. *Naš sovremennik*, n° 7, 1985.
17. *Oktjabr'*, n° 1, 1986.
18. *Pravda*, 12 février 1989.
19. *Le Monde*, 20 avril 1989.
20. *Sovetskaja kul'tura*, 12 août 1989.
21. Aleksej Adžubej, « Te desjat' let », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 104.
22. Lev Timofeev, « Čto budet posle glasnosti ? », *Referendum*, n° 29, cité d'après : *Russkaja mysl'*, 31 mars 1989.
23. *Izvestija*, 6 avril 1988.
24. *Moskovskie novosti*, 15 janvier 1989.
25. *International Herald Tribune*, 13 mars 1989.
26. Enregistrement magnétique d'une communication de A. Sakharov, lors d'une conférence de presse à Paris, le 3 novembre 1988. Cf. *Russkaja mysl'*, 11 novembre 1988.
27. *Pravda*, 4 septembre 1985.
28. *Literaturnaja gazeta*, 11 janvier 1989.
29. *Moskovskie novosti*, 11 janvier 1989.
30. Cf. *International Herald Tribune*, 17 février 1989.
31. *The Wall Street Journal*, 20 décembre 1988.
32. *Komsomol'skaja pravda*, 2 avril 1989.
33. Vladimir Nabokov, *Drugie Berega*, Ardis, Ann Arbor, 1978, p. 233. Comparer avec l'édition de *Družba narodov*, n° 6, 1988, p. 122 et suiv.
34. Roj Medvedev, « Ob istokah terrora i represii ». Tiré d'une intervention lors d'un débat sur le film *Vlast' Soloveckaja*, à la Maison du Cinéma. *SSSR. Vnutrennie protivorečija*, n° 22, 1988, p. 108.
35. Moscou, 1988, p. 385.
36. Les *Nouvelles* (en russe : *Izvestia*) du VTSIK : Comité exécutif panrusse des Soviets.
37. *Argumenty i Fakty*, n° 17, 1987.
38. Lettre ouverte..., *Moskovskie novosti*, 1er janvier 1989.
39. Nora Buhks, *Le Journalisme de la perestroika : la technique du renouveau* », Presses de l'université de Paris-Sorbonne, 1988.
40. *Pravda*, 25 septembre 1988.
41. *Pravda*, 20 août 1988.
42. *Pravda*, 11 janvier 1989.
43. *Argumenty i Fakty*, n° 40, 7-13 octobre 1989.
44. *Pravda*, 2 mars 1988.
45. V. Ramm, « Bumaga », *Neva*, n° 3, 1989, p. 163.
46. V. Ramm, « Bumaga », *op. cit.*, p. 165.
47. A. Cipko, « Istoki stalinizma », *Nauka i žizn'*, n° 11, 1988, p. 46.
48. Igor' Kljamkin, « Počemu trudno govorit' pravdu. Vybrannye mesta iz odnoj bolezni », *Novyj mir*, n° 2, 1988, p. 205.
49. A. Cipko, *op. cit.*, p. 46.
50. Igor' Kljamkin, *op. cit.*, p. 205.
51. Witold Gombrowicz, *Dziennik (1953-1956)*, Instytut Literacki, Paris, 1987.
52. Vladimir Lakšin, « Ot glasnosti k svobode slova », *Moskovskie novosti*, 9 avril 1989.
53. Lev Timofeev, « Čto budet posle glasnosti ? », *Referendum*, n° 29, cité d'après *Russkaja mysl'*, 31 mars 1989.
54. *Pravda*, 16 septembre 1988.
55. L. Batkin, « Vozobnovlenie istorii », *Inogo ne dano, op. cit.*, p. 161.
56. *Pravda*, 11 avril 1989.
57. *Komsomol'skaja pravda*, 12 avril 1989.
58. *Vek XX i mir*, n° 3, 1989.
59. « Zaščiščaja perestrojku. Aktual' noe interv'ju, *Pravda*, 16 avril 1989.
60. Al'bert Plužnik, « O pol'ze govorit' pravdu », *Ivestija*, 12 mars 1989.
61. *Russkaja mysl'*, 5 janvier 1990.

الفصل العاشر

1. *Slovar' russkogo jazyka*, S.I. Ožegov, Moscou, 1953, p. 462.
2. *Slovar' russkogo jazyka v četyreh tomah*, t. III, Moscou, 1983, p. 98.
3. Cité d'après : Nick Eberstadt, *The Poverty of Communism*, New Brunswick (États-Unis) et Oxford (Grande-Bretagne), 1988, p. 14.
4. Information du *Frankfurter Allgemeine Zeitung*, reprise par la *Russkaja mysl'*, 9 août 1985.
5. I. Stalin, *op. cit.*, t. 9, p. 192.
6. *Naš sovremennik*, n° 7, 1987.
7. Vasilij Belov, *Vse vperedi*, Moscou, 1987, p. 203. Dans les griefs formulés à l'encontre du président Kennedy, on retiendra la certitude que si celui-ci avait permis aux journalistes américains de dénoncer l'alcoolisme en URSS, les gens auraient cessé de boire.
8. *Pravda*, 19 septembre 1985.
9. I. Stalin, *Sočinenija*, t. 12, p. 194.
10. *Izvestija*, 3 mars 1988.
11. *Ibid.*
12. *Pravda*, 6 février 1989.

الفصل الحادي عشر

1. *Pravda*, 21 septembre 1985.
2. *Pravda*, 22 novembre 1935.
3. *Ibid.*
4. *Komsomol'skaja pravda*, 15 octobre 1988.

الفصل الثاني عشر

1. *Ogonek*, n° 29, 1987, p. 3.
2. « Novosibirskij dokument », *Posev*, n° 10, 1983, p. 36.
3. « Novosibirskij dokument », *op. cit.*, p. 38.
4. *Ibid.*, p. 35.
5. *Ibid.*, p. 37.
6. *Izvestija*, 12 avril 1985.
7. *Pravda*, 12 juin 1985.
8. *Ibid.*
9. *Pravda*, 23 novembre 1985.
10. *Pravda*, 20 novembre 1986.
11. *Izvestija*, 12 mai 1986.
12. *Izvestija*, 3 août 1986.
13. *Izvestija*, 13 janvier 1988.
14. *Izvestija*, 23 novembre 1986.
15. *Izvestija*, 16 décembre 1987.
16. *Pravda*, 4 avril 1989.
17. *Pravda*, 27 avril 1989.
18. V.P. Kabaidze, « Vystradat' perestrojku », *Sovetskaja Rossija*, 22 octobre 1989.
19. *Pravda*, 23 avril 1989.
20. *Pravda*, 7 mars 1988.
21. *Pravda*, 29 mai 1988.
22. Cité d'après : S. Andreev, « Struktura vlasti i zadači obščestva », *Neva*, n° 1, 1989, p. 147.
23. *Pravda*, 27 avril 1989.
24. *Argumenty i Fakty*, n° 35, 1989.
25. *Pravda*, 27 avril 1989.

26. Exclu du Politburo et du Comité central, I. Soloviev l'est également du parti, pour corruption, au début de 1990.
27. *Pravda*, 2 octobre 1987.
28. S. Andreev, *op. cit.*, p. 158.
29. *Pravda*, 27 avril 1989.
30. Il'ja Erenburg, *Burnaja žizn' Lazika Rojtšvaneca*, Berlin, 1929, p. 77.
31. *Pravda*, 18 février 1989.
32. *Pravda*, 27 avril 1989.
33. *Pravda*, 30 juin 1988.
34. *Pravda*, 1er juillet 1988.
35. Vasilij Seljunin, « Glubokaja reforma ili revanš bjurokratii? » *Znamja*, n° 7, 1988, p. 156.
36. *Ibid.*, p. 160.
37. *Ibid.* p. 167.
38. Gavriil Popov, « Celi i mehanizm », *Znamja*, n° 7, 1988, p. 169.
39. Vasilij Seljunin, *op. cit.*, p. 163.
40. *Ibid.*, p. 166.
41. Nikolaj Šmelev, « Avansy i dolgi », Novyj mir, n° 6, 1987.
42. Nikolaj Šmelev, « Libo sila, libo rubl' », *Znamja*, n° 1, 1989, p. 132.
43. *Ibid.*, p. 146.
44. *Pravda*, 27 avril 1989.
45. Nikolaj Šmelev, *op. cit.*, p. 135.
46. *Pravda*, 6 février 1989.
47. Nikolaj Šmelev, *op. cit.*, p. 143.
48. *The New York Time Book Review*, 5 février 1989.
49. *Izvestija*, 21 avril 1987.
50. Rencontre, le 12 janvier 1989, à la maison de la culture des travailleurs de la santé. Cf. *Russkaja mysl'*, 27 janvier 1989.
51. « Lunnyj landšaft », entretien de L. Abalkin avec le correspondant de la *Komsomol'skaja pravda*, 8 février 1989.
52. *Pravda*, 27 avril 1989.
53. *Ibid.*
54. *Argumenty i Fakty*, n° 41, 1989.
55. « Lunnyj landšaft », *Komsomol'skaja pravda*, 8 février 1989.

الفصل الثالث عشر

1. *Pravda*, 29 novembre 1988.
2. *Političeskij slovar'*, Moscou, 1987, p. 407.
3. *Pravda*, 29 novembre 1989.

٤ ـ هناك أحكام قانونية عدة تنظم الاصلاح الزراعي: قرار مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي المتعلق «بتحسين تموين المواد الغذائية الخاصة بالسكان على قاعدة زيادة جذرية للمردودية والمثابرة في انماء الانتاج الزراعي الصناعي. في ٥ نيسان ١٩٨٩؛ قرار صادر عن مجلس رئاسة السوفيات الأعلى «حول

5. *Političeskij slovar'*, *op. cit.*, p. 426.
6. *Izvestija*, 8 juin 1988.
7. Ancien quartier central de Moscou, regorgeant d'échoppes et de boutiques.
8. A. Makarov, « Častnik? », *Nedelja*, 10-18 novembre 1986.
9. *Pravda*, 26 juin 1987.
10. *Argumenty i Fakty*, 28 mai 1988.
11. *Ogonek*, n° 29, juillet 1988.
12. *Izvestija*, 30 décembre 1988.
13. G. Lisičkin, « Ljudi i vešči », *Družba narodov*, n° 1, 1988, p. 161.
14. *Sovetskaja kul'tura*, 4 octobre 1988.

15. *Pravda*, 23 septembre 1988.
16. *Literaturnaja gazeta*, 21 mai 1986.
17. « Kriminal'nyj pomidor », *Literaturnaja gazeta*, n° 33, 1987.
18. « Ogni kooperacii », *Moskovskie novosti*, n° 30, 1988.
19. *Sovetskaja kul'tura*, 15 avril 1989.
20. *Argumenty i Fakty*, n° 1, 1989.
21. *Sovetskaja kul'tura*, 15 avril 1989.
22. Anatolij Streljanyj, « Putešestvija v glubinku », émissions diffusées par Radio-Liberté, 14-15 octobre 1989.
23. *Izvestija*, 3 octobre 1987.
24. Mihail Antonov, « Na perelome », *Moskva*, n° 3, 1988, p. 26.
25. Rapport de M. S. Gorbatchev au plénum du Comité central du PCUS, le 25 juin 1987.
26. *Ibid.*
27. *Pravda*, 27 avril 1989.
28. *Ibid.*
29. Gavriil Popov, « Dorogoe udovol'svtie », *Ogonek*, n° 3, 1er avril 1989.
30. *Ekonomičeskaja gazeta*, n° 34, 1988.
31. Aleksandr Zajčenko, « Togda ščitat' my stali... » *Moskovskie novosti*, n° 4, 28 janvier 1990.
32. G. Faktor, « Net, beda », *Literaturnaja gazeta*, 11 janvier 1989.
33. Anatolij Streljanyj, *op.cit.*
34. A. Kazarina, « Vina? », *Literaturnaja gazeta*, 11 janvier 1989.
35. *Pravda*, 18 mai 1989.
36. *Pravda*, 30 mars 1989.

الفصل الرابع عشر

1. Mihail Gorbačev, « Oktjabr' i perestrojka : revoljucija prodolžaetsja », Rapport à la séance solennelle consacrée au soixante-dixième anniversaire de la Grande Révolution socialiste d'Octobre, le 2 novembre 1987; *Pravda*, 3 novembre 1987.
2. *Pravda*, 18 mars 1989.
3. *Pravda*, 3 novembre 1987.
4. Ju. Černičenko, « Torgsin », *Znamja*, n° 1, 1989, p. 154.
5. *Pravda*, 16 mars 1989.
6. *Izvestija CK KPSS*, n° 5, 1989, p. 77.
7. M. S. Gorbačev, *Izbrannye stat'i i reči*, Moscou, 1987, t. I, p. 163.
8. *Ibid.*, p. 306.
9. *Ibid.*, p. 273.
10. *Ibid*
11. *Ibid.*, p. 347-348.
12. *Ibid.*
13. *Ibid.*, t. 2, p. 407.
14. *Ibid.*, t. 1, p. 184.
15. *Ibid.*, p. 239.
16. *Ibid.*, t. 2, p. 412.
17. *Ibid.*, t. 1, p. 341.
18. *Ibid*, p. 387.
19. *Pravda*, 3 mars 1986.
20. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 5, p. 144.
21. Jurij Černičenko, « Dve tajny », *Esli po sovesti*, Moscou, 1988, p. 361.
22. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 1, p. 277.
23. *Pravda*, 13 mars 1935.
24. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 1, p. 414.
25. M. S. Gorbačev, « Ob agrarnoj politike KPSS v sovremennyh uslovijah » *Pravda*, 16 mars, 1989.
26. *Pravda*, 3 novembre 1987.

27. *Pravda*, 16 mars 1989.
28. *Pravda*, 16 mars 1987.
29. V. I. Lenin, *Polnoe sobranie sočinenij*, t. 36, p. 529.
30. *Pravda*, 16 mars 1989.
31. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 1, p. 356.
32. *Političeskij slovar'*, *op. cit.*, p. 25.
33. *Pravda*, 14 octobre 1988.
34. *Ibid.*
35. *Pravda*, 9 mai 1989.
36. Le mot « fermier » (en russe : *fermer*) est actuellement extrêmement populaire; il succède à « exploitant individuel » (en russe : *edinolitchnik*), « liquidé » dans les années trente.
37. *Pravda*, 16 mars 1989.
38. *Pravda*, 14 octobre 1988.
39. *Pravda*, 16 mars 1989.
40. *Ibid.*
41. Ivan Vasiljev, « Prigovor zemli », *Sovetskaja Rossija*, 10 mars 1989.
42. *Pravda*, 18 avril 1989.
43. *Pravda*, 16 mars 1989.
44. Gelij Šmelev, « Kuda vedet arenda », *Moskovskie novosti*, 23 octobre 1988.
45. Boris Možaev, « Orientir – tol'ko pravda! », *Literaturnaja gazeta*, 2 novembre 1988.
46. *Pravda*, 22 octobre 1988.
47. *Izvestija*, 6 mars 1990.
48. Jurij Černičenko, « My grabim nagrablennoe... », *Literaturnaja gazeta*, 9 mai 1990.
49. M.S. Gorbačev, Discours de conclusion au plénum du Comité central, le 16 mars 1989; *Pravda*, 18 mars 1989.

الفصل الخامس عشر

1. Jurij Ščekočihin, Aleksandr Gurov, « Lev prygnul », *Literaturnaja gazeta*, 20 juillet 1989.
2. *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1969, p. 206.
3. *Protokoly tzw. Komisji gzalskiego. Tayne dokumenty PZPR*, Paris, 1986, p. 83.
4. *Protkoly...*, *op. cit.*, p. 190.
5. *Pravda*, 20 mai 1989.
6. *Pravda*, 21 mai 1989.
7. *Pravda*, 20 mai 1989.
8. Ol'ga Čajkovskaja, « Mif », *Literaturnaja gazeta*, 24 mai 1989.
9. *Sovetskaja Rossija*, 18 avril 1990.
10. Ol'ga Čajkovskaja, « Mif », *Literaturnaja gazeta*, 24 mai 1989.
11. *Pravda*, 23 mai 1989.
12. *Ibid.*
13. « Discours du camarade Mel'nikov, V.I. », *Izvestija*, 1er juillet 1988.
14. Gennadij Hohrjakov, « Mafija v SSSR : vymysly, domysly, fakty », *Junost'*, n° 3, 1989.
15. Evgenija Evel'son, *Sudebnye processy po ekonomičeskim delam v SSSR*, OPI, Londres, 1986, p. 29.
16. G. Ovčarenko, « Kobry nad zolotom », *Pravda*, 23 janvier 1988.
17. *Literaturnaja gazeta*, 20 juillet 1988.
18. *Corriere della Sera*, 12 mai 1988.
19. « Kto ostanovit prestupnost'? », *Literaturnaja gazeta*, 7 juin 1989.
20. Gennadij Hohrjakov, *op. cit.*, p. 86.
21. I. S. Konduruškin, *Častnyj kapital pered sovetskim sudom*, Moscou, 1927, p. 124.

22. *Pravda*, 18 avril 1926.
23. I. S. Konduruškin, *op. cit.*, p. 190.
24. Ju. Čurbanov, « Gerojamı ne roždajutsja. Hudožestvennoe tvorčestvo i pravovoe vospitanie », *Pravda*, 29 décembre 1981.
25. G. Ovčarenko, A. Černenko, « Kolonna. Interv'ju v sledstvennom izoljatore MVD SSSR », *Pravda*, 17 juillet 1988.
26. Vladımir Kalıničenko, Jurij Ščekočihin, « Komandirovka po vysokomu vyzovu », *Literaturnaja gazeta*, 12 avril 1989.
27. Gennadıj Hohrjakov, *op. cit.*, p. 87.
28. « Konvertıruemyj rubl' : začem? korga? » *Literaturnaja gazeta*, 5 avril 1989.
29. Konstantin Lagutin, « Posle nas... », *Naš sovremennik*, n° 5, 1989, pp. 99, 100.
30. *Pravda*, 7 mars 1988.
31. *Pravda*, 17 juillet 1988.
32. T. Holod, « Očiščenie », *Sovetskaja Belorussija*, 17 décembre 1988.
33. Sergeg Kiselev, « Storm-2 », *Lıteraturnaja gazeta*, 10 mai 1989.
34. Andrej Saharov, « Neizbežnost' perestrojki », *Inogo ne dano*, *op. cit.*, p. 125.
35. *Izvestija*, 10 juillet 1989.
36. *Krasnaja zvezda*, 6 juillet 1989.
37. Egor Jakovlev, « Gdljan ı mnogie drugie », *Moskovskie novosti*, 21 mai 1989.
38. L. Vajdman, « Deportacija », *Kazahstanskaja pravda*, 13 juin 1989.
39. *Krasnaja zvezda*, 6 juillet 1989.
40. Cf. Gennadyj Hohrjakov, *op. cit.*, p. 87.
41. Vladimir Sokolov, « Moral' i pravo », *Literaturnaja gazeta*, 23 août 1988.
42. Vladimir Sokolov, « Moral' i pravo », *op. cit.*
43. « Čto stoit za sobytıjamı v Fergane? », *Literaturnaja gazeta*, 14 juin 1989.
44. *Moskovskie novosti*, 21 maı 1989.

الجزء الخامس

١ ـ نجد في الطبعة الروسية : «انكم مدعوون لاحياء قضية بالية تثير الاشمئزاز لما أصابها من ركود».
بهذه الكلمات توجه فرخوفانسكي إلى «خاصتنا»، اثر اغتيال شاتوف.

2. Maksim Gorkij, *Nesvoevremennye mysli*, Paris, 1971, pp. 130-131.
3. *Trud*, 8 juillet 1989.
4. « Problemy istorii i sovremennost' », *Voprosy istorii KPSS*, n° 2, 1989, pp. 60-61.
5. Andrej Saharov, « Neizbežnost perestrojki », *Inogo ne dano*, p. 126.
6. *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1987, p. 455.
7. *International Herald Tribune*, 19 janvier 1989.
8. *Malaja sovetskaja enciklopedija*, Moscou, 1930, p. 462.
9. *Pravda*, 30 novembre 1988.
10. Fedor Burlackij, « Posle Stalina », *Novyj mir*, n° 10, 1988, p. 156.
11. Fedor Burlackij, *op. cit.*, p. 196.
12. *Izvestija*, 12 septembre 1988.
13. *Krasnaja zvezda*, 18 juillet 1963.
14. *Kommunist*, n° 5, 1960.
15. Anatoly Golitsyn, *New lies for old*, New York, 1984, p. 348.
16. *Ibid.*, p. 339.
17. *Ibid.*, p. 350.
18. *Ibid.*, p. 334.
19. *Ibid.*, p. 348.
20. *Kultura*, p. 54; *Commentaire*, p. 56. La lettre de Jerzy Urban fut

d'abord publiée par la revue polonaise non officielle *Most*, puis de nouveau en polonais par *Kultura*, Paris, n° 6, 1989, et en français par *Commentaire*, n° 45, 1989.

21. *Kultura*, p. 55, *Commentaire*, p. 53.
22. Ion Pacepa, *Horizons rouges*, Paris, 1988.
23. Fedor Burlackij, « Posle Stalina », *op. cit.*, p. 186.
24. Jerzy Urban, *op. cit.*, p. 57 (pol.), p. 54 (franç.).
25. Nicolas Machiavel, *Le Prince*, chap. VI, Paris, p. 305.
26. Nicolas Machiavel, *op. cit.*
27. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 5, p. 466.
28. L. Onikov, « Počemu otstaet avangard? », *Pravda*, 10 juillet 1989.
29. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 1, p. 114.
30. *Ibid.*, t. 4, p. 309.
31. *Ibid.*, t. 4, p. 321.

الفصل السادس عشر

1. *Pravda*, 16 mai 1985.
2. *Pravda*, 10 juillet 1989.
3. *Ibid.*
4. *Pravda*, 28 janvier 1987.
5. *Pravda*, 27 janvier 1987.
6. *Pravda*, 29 mars 1987.
7. *Pravda*, 27 janvier 1987.
8. *Pravda*, 29 mars 1937.
9. *Pravda*, 27 janvier 1987.
10. *Istorija VKP (b). Kratkij kurs*, Moscou, 1950, p. 334.
11. *Pravda*, 3 novembre 1987.
12. *Pravda*, 20 février 1988.
13. Nina Andreeva, « Ne mogu postupat'sja principami », *Sovetskaja Rossija*, 13 mars 1988.
14. *Sovetskaja kul'tura*, 5 mai 1988.
15. *International Herald Tribune*, 2 août 1989.
16. Pavel Demidov, « Ne nado zabluždat'sja », *Žurnalist*, n° 5, 1988.
17. *Time*, 27 juin 1988.
18. *Pravda*, 26 mai 1988.
19. *Izvestija*, 29 juillet 1988.
20. *XII s'ezd VKP (b). Stenografičeskij otčet*, Moscou, 1923, pp. 144-145.
21. *Pravda*, 1er juillet 1988.
22. *Pravda*, 29 juin 1988.
23. M. S. Gorbačev, *op. cit.*, t. 1, p. 200.
24. *Pravda*, 30 juillet 1988.
25. *Pravda*, 19 juillet 1989. Les citations suivantes sont extraites du même texte.
26. *Pravda*, 30 juillet 1988.
27. *Pravda*, 19 juillet 1989.
28. A. Migranjan, « Mehanizm tormoženija v političeskoj sisteme i puti ego preodolenija », *Inogo ne dano*, *op. cit.*, p. 97.
29. L. M. Spirin, *Klassy i partii v graždanskoj vojne v Rossii*, Moscou, 1968, p. 60.
30. I. Staline, *op. cit.*, t. 5, p. 219.
31. *Pravda*, 7 juin 1989.
32. *Pravda*, 14 juillet 1989.
33. *Pravda*, 21 juillet 1989.
34. *Pravda*, 27 avril 1989.
35. *Ibid.*
36. *Ibid.*
37. *Pravda*, 21 juillet 1989.

38. I. Stalin, *op. cit.*, t. 5, pp. 207-208.
39. *Pravda*, 19 juillet 1989.
40. *Ibid.*
41. *Ibid.*
42. *Ibid.*
43. *Pravda*, 21 juillet 1989.
44. *Ibid.*
45. *Ibid.*
46. *Pravda*, 8 août 1989.
47. *Pravda*, 21 juillet 1989.
48. *Pravda*, 1er août 1989.
49. *Pravda*, 21 juillet 1989.
50. *Pravda*, 21 juillet 1989.
51. *Ibid.*
52. *Ibid.*

الجزء السادس

الفصل السابع عشر

1. Boris Bažanov, *Vospominanija byvšego sekretarja Stalina*, Paris, 1980, p. 47.
2. G. H. Šahnazarov, *Socializm i buduščee*, Moscou, 1988, p. 759.
3. *Ibid.*, p. 48.
4. *Ibid.*, p. 131.
5. *Ibid.*, p. 105.
6. *Ibid.*, p. 547.
7. Ales' Adamovič, Georgij Sahnazarov, « Novoe myšlenie i inercija progressa. Dialog pisatelja i učenogo », *Družba narodov*, n° 6, 1988, p. 193.
8. *Ibid.*, p. 188.
9. *Ibid.*, p. 193.
10. *Ibid.*, p. 194.
11. Fedor Burlakij, « Nadeždy i trevogi vesny našej », *Literaturnaja gazeta*, 24 mai 1989.

الفصل الثامن عشر

1. A. Jakovlev, « Protiv antiistorizma », *Literturnaja gazeta*, 15 novembre 1972. Les citations suivantes sont extraites du même article.
2. *Sovetskaja kul'tura*, 23 novembre 1986.
3. *Pravda*, 10 avril 1987.
4. *Pravda*, 16 juillet 1987.
5. *Sovetskaja kul'tura*, 15 décembre 1987.
6. *Pravda*, 10 avril 1987.
7. A.N. Jakovlev, « Dostiženie kačestvenno novogo sostojanija sovetskogo obščestva i obščestvennye nauki », *Vestnik AN SSSR*, n° 6, 1987, p. 61.
8. A. N. Jakovlev, *op. cit.*, p. 52.
9. *Ibid.*, p. 68.
10. *Ibid.*, p. 73.
11. *Ibid.*, p. 75.
12. *Ibid.*, p. 76.
13. *Ibid.*, p. 70.
14. *Ibid.*, p. 62.
15. *Ibid.*, p. 69.
16. A. N. Jakovlev, « Velikaja francuzskaja revoljucija i sovremennost' », rapport, *Sovestskaja kul'tura*, 15 juillet 1989.
17. A. N. Jakovlev, « Protiv antiistorizma », *op. cit.*

18. *Ibid.*
19. A. N. Jakovlev, « Francuzskaja revoljucija i sovremennost' », *op. cit.*

الفصل التاسع عشر

1. V. I. Lenin, *Polnoe sobranie sočinenij*, t. 43, p. 101.
2. A. V. Dmitriev, L. Kurin, « " Rabočaja oppozicija " : kto byl kto », *Pravda*, 4 août 1989.
3. Dmitrij Volkogonov, « Triumf i tragedija. Političeskij portret I. V. Stalina », t. 2, *Oktjabr'*, n° 7, 1989, p. 59.
4. Nikolaj Šul'gin, « Kto on? », *XX vek i mir*, juin 1989, p. 21.
5. Cf. le Bulletin de Radio-Liberté, 5 juin 1985.
6. *Pravda*, 23 avril 1988.
7. Philip Taubman, « Soviet Leaders divided on Policy, Envoys say », *International Herald Tribune*, 24-25 décembre 1985.
8. E. K. Ligačev, « Nam nužna polnaja pravda », *Teatr*, n° 8, 1986, p. 3.
9. M. S. Gorbačev, *Perestrojka*, *op. cit.*, p. 32.
10. E. K. Ligačev, *op. cit.*, p. 3.
11. *Le Monde*, 4 décembre 1987.
12. *Pravda*, 9 juin 1988.
13. *Argumenty i Fakty*, n° 42, 21-27 octobre 1989.
14. *Pravda*, 18 mars 1990.
15. Vitalij Tret'jakov, « Egor Ligačev i drugie », *Moskovskie novosti*, n° 5, 4 février 1990.
16. Première publication dans *Le Monde*, 16 juillet 1986. Cité d'après le texte russe. Cf. *Russkaja mysl'*, 25 juillet 1986.
17. *Moskovskie novosti*, 17 mai 1987.
18. *Ibid.*
19. *Russkaja mysl'*, 25 juillet 1987.
20. *Russkaja mysl'*, 25 juillet 1986.
21. *Pravda*, 2 juillet 1988.
22. *Moskovskaja pravda*, 9 août 1987.
23. *Ibid.*
24. *Pravda*, 13 novembre 1987.
25. Boris Eltsine, rencontre avec les auditeurs de l'École supérieure des Jeunesses communistes, le 20 novembre 1988. Cf. *Russkaja mysl'*, 6 janvier 1989. Eltsine reprend cette accusation dans son autobiographie parue dans divers pays en mars 1990.
26. *Times*, 14-15 novembre 1987.
27. *Le Monde*, 15 novembre 1987.
28. *Le Monde*, 15-16 novembre 1987.
29. *International Herald Tribune*, 14-15 novembre 1987.
30. Cf. *Russkaja mysl'*, 6 janvier 1989.
31. *Pravda*, 2 juillet 1988.
32. « Za industrial'nye kadry ». Supplément au journal *Vestnik NTTM*, 3-15 mars 1989.
33. *Nižnetagil'skij rabočij*, 22 mars 1989.
34. *Ibid.*
35. « Za industrial'nye kadry », *op. cit.*
36. Boris Eltsine, *Jusqu'au bout!*, Paris, 1990, p. 214.
37. *Komsomol'skaja pravda*, 27 avril 1990.
38. *Russkaja mysl'*, 14 juillet 1989.
39. S. Talbott, « For He's a jolly Fellow », *Time*, 11 juin 1990, p. 20.

الفصل العشرون

1. V.I. Lenin, *Polnoe sobr. soč.*, t. 44, p. 328.
2. *Literaturnaja gazeta*, 9 août 1989.

3. *Pravda*, 2 novembre 1988.
4. *Sovetskaja Belorussija*, 22 janvier 1989.
5. *Novoe vremja*, 2 septembre 1988.
6. « Ją by spravılsja s ljuboj rabotoj », interview de V.E. Semitchastny, *Ogonek*, n° 24, juın 1989.
7. Ja. Karpovič, « Stydno molčat' », *Ogonek*, n° 29, 1989.
8. P.A. Rodıonov, *Ibıd.*, p. 203.
9. *Pravda*, 2 juın 1989.
10. *Ibid.*
11. Victor Orlov, « Putting the KGB in a Cassok : why Moscow infiltrating the Soviet Orthodox Church, *Washington post*, 15 juın 1988.
12. L'enregıstrement de cette conférence est paru dans *Russkaja mysl'*, 20 mai 1988.
13. *Glasnost'*, journal politıque et social indépendant, n° 28, Moscou, avril 1989, p. 8.
14. *Time*, 23 avrıl 1990.
15. *Pravda*, 1er mars 1986.
16. *Pravda*, 11 septembre 1987.
17. *Pravda*, 2 septembre 1988.
18. V. Čebrikov, « Pravovaja polıtıka – aktivnoe zveno perestrojki », *Kommunıst*, n° 8, 1989, p. 8.
19. *Ibid.*, p. 11.
20. *Sovetskaja Rossija*, 31 mars 1990.
21. *Literaturnaja gazeta*, 7 juin 1989.
22. *Moskovskıe novosti*, 10 septembre 1989.

٢٣ ـ كان لا بد، بعد ان نشر في أيلول ١٩٨٩ أعلان بغاية الجفاف صادر عن اللجنة المركزية حول الوضع في جمهوريات البالطيك، من إحراء تحقيق خاص لتبيان أن غورباتشيوف كان قد وافق على هذا النص، فيما أصر الجميع على الاعتقاد انه لم يكن للزعيم أي شأن في ذلك وأن المسألة كانت من صنع «المحافظين».

24. *Pravda*, 8 févrıer 1990.
25. *Moskovskie novostı*, 7 mai 1989.

الفصل الواحد والعشرون

1. En avril 1990, le ministre de la Défense devient maréchal. Il est le premier depuis la venue au pouvoır de Gorbatchev.
2. *Moskovskıe novosti*, 16 juillet 1989.
3. *Pravda*, 5 mai 1990.
4. *Moskovskıe novosti*, 21 février 1988.
5. *Krasnaja zvezda*, 17 juin 1987.
6. *Pravda*, 7 juin 1989.
7. *Moskovskie novosti*, 23 juin 1989.
8. *The Wall Street Journal*, 18 août 1989.
9. *Le Monde*, 8 septembre 1989.
10. *International Herald Tribune*, 3-4 décembre 1988.
11. *Internatıonal Herald Tribune*, 20 septembre 1989.
12. *Internatıonal Herald Tribune*, 18 septembre 1989.
13. S.G. Gorškov, *Morskaja mošč' gosudarstva*, 2e édıtion complétée, Moscou, 1979, p. 342.
14. François Heisbourg, « Europe's own NATO pillar », *Times*, 8 juillet 1988
15. Thierry Wolton, *Le KGB en France*, Paris, 1986, p. 249.
16. *International Herald Tribune*, 24 janvıer 1990.

الفصل الثاني والعشرون

1. Andrej Černenko, Viktor Širokov, « " 16-ja respublika " ». O nacional'nyh otnošenijah i parlamentskih debatah », *Pravda*, 8 juillet 1989.
2. *Izvestija*, 3 juillet 1989.
3. Extrait du discours du ministre de l'Intérieur V. Bakatin, *Izvestija*, 22 septembre 1989.
4. *Literaturnaja gazeta*, 1er janvier 1987.
5. *Pravda*, 21 septembre 1989.
6. *Literatura i mastactva*, Minsk, 24 octobre 1986.
7. *Izvestija*, 26 octobre 1985.
8. *Pravda*, 20 septembre 1989.
9. Interview d'Andreï Sakharov, *Le Monde*, 30 septembre 1989.
10. V. I. Lenin, *Polnoe sobr. soč*, t. 40, p. 43.
11. *Pravda*, 20 septembre 1989.
12. Andrej Amal'rik, *Prosuščestvuet li Sovetskij Sojuz do 1984?*, Amsterdam, 1969, p. 62.

الفصل الثالث والعشرون

1. S. Men'šikov, « Ekonomičeskaja struktura socializma : čto vperedi? », *Novyj mir*, n° 3, 1989, p. 160.
2. *Pravda*, 26 octobre 1985.
3. *Ibid.*
4. *Pravda*, 13 février 1987.
5. *Pravda*, 18 avril 1987.
6. *Pravda*, 22 avril 1989.
7. *Komsomol'skaja pravda*, 27 juillet 1989.
8. *Pravda*, 16 avril 1989.
9. *Pravda*, 18 avril 1989.
10. *Pravda*, 20 septembre 1989.
11. *Ibid.*
12. *Smena veh*, Recueil d'articles, juillet 1921, Prague, p. 57.
13. *Ibid.*, p. 59.
14. *Ibid.*, p. 63.
15. A. Voronskij, *Na styke*, recueil d'articles, Moscou-Petrograd, 1923, pp. 210-211.
16. *Smena veh, op. cit.*, p. 59.
17. A. Amal'rik, *op. cit.*, p. 40.
18. A. N. Jakovlev, « Francuzskaja revoljucija i sovremennost' », *Sovetskaja kul'tura*, 15 juillet 1989.
19. M. S. Gorbačev, *Perestrojka, op. cit.*, pp. 6-7.
20. Andrej Platonov, « Gorod gradov », *Izbrannye proizvedenija*, t. 1, Moscou, 1978, p. 289.
21. *Pravda*, 20 septembre 1989.
22. *Pravda*, 22 septembre 1989.
23. *Pravda*, 21 septembre 1989.
24. *Sovetskaja kul'tura*, 15 juillet 1989.
25. *Pravda*, 22 septembre 1989.
26. L. Trockij, *Istorija russkoj revoljucii*, Berlin, 1931, t. 2, deuxième partie, pp. 42-43.
27. Mihail Gorbačev, « Slovo o Lenine », *Pravda*, 21 avril 1990.
28. « Ideologija obnovlenija », *Pravda*, 20 avril 1990.

29. *Komsomol'skaja pravda*, 29 avril 1990.
30. Mihail Gorbačev, « Slovo o Lenine », *op. cit.*
31. *Komsomol'skaja pravda*, 27 avril 1990.
32. Mihail Gorbačev, « Slovo o Lenine », *op. cit.*

الفصل الرابع العشرون

1. I. V. Stalin, Discours prononcé à la réception organisée au Kremlin en l'honneur des commandants de l'Armée Rouge, *Pravda*, 25 mai 1945.
2. Intervention au plénum du Comité central le 20 septembre 1989, *Pravda*, 21 septembre 1989.
3. « Vybor celi », interview parue dans les *Izvestija*, 25 août 1989.
4. *Pravda*, 21 septembre 1989.
5. Mihajlo Gorjun', « Za čto boretsja " Ruh " », *Literaturnaja gazeta*, 9 mai 1990.
6. Leonid Kravčuk, « Svobodnaja, suverennaja », *Literaturnaja gazeta*, 9 mai 1990.
7. V. Šul'gin, *Dni*, Belgrade, 1925, p. 61.
8. *Izvestija*, 1er septembre 1989.
9. Thukydides, *Geschichte des Peloponnesischen Krieges*, Rowohlt, 1962, p. 88.
10. Pour plus de détails, voir : M. Heller, A. Nekrich, *L'Utopie au pouvoir*, *op. cit.*
11. Dont le rédacteur en chef est également Sergueï Zalygume.
12. *Moskovskie novosti*, 8 octobre 1989.
13. N. Ustrjalov, *Pod znakom revoljucii*, Kharbine, 1927, p. 72.
14. *Izvestija*, 4 mai 1990.
15. Aleksandr Solženicyn, « Raskajanie i samoograničenie kak kategorii nacional'noj žizni, *Iz-pod glyb*, recueil d'articles, Paris, 1974, pp. 129-130.
16. Aleksandr Solženicyn, *op cit.*, p. 143.
17. I. Stalin, *Sočinenija*, tome 3, p. 186.
18. I. Šafarevič, « Dve dorogi k odnomu obryvu », *Novyj mir*, n° 7, 1989, p. 164.
19. Mihail Antonov, « Vyhod est'! Kogda i čem zakončitsja perestrojka », *Naš sovremennik*, n° 9, 1989, p. 147.
20. *Ibid.*, p. 142.
21. Šafarevič, *op. cit.*, p. 164.
22. Cf. *Russkaja mysl'*, 28 avril 1989.
23. Cf. *Voprosy istorii*, n° 2, 1989, p. 186.
24. Vladimir Bondarenko, « Obretenie rodstva », *Slovo*, n° 7, 1989, p. 12.
25. Rencontre des lecteurs avec les membres de la rédaction et les auteurs de la revue *Naš sovremennik*, le 18 décembre 1987, *Russkaja mysl'*, 12 novembre 1988.
26. Bill Keller, « Yearning for an Iron Hand », *The New York Times Magazine*, 28 janvier 1990, p. 48.
27. Cf. Michel Heller, *La Machine et les rouages*, *op. cit.*
28. Aleksandr Solženicyn, « Raskajanie i samoograničenie », *op. cit.*, pp. 147-148.
29. Mihail Antonov, « Vyhod est'! », *op cit.*, p. 151.
30. *Ibid*
31. Mihail Antonov, « Vernut' zabytye istiny », *Slovo*, n° 7, 1989, pp. 1-2.
32. Mihail Antonov, « Vyhod est'! », *op. cit.*, p. 145.
33. J.N. Afanas'ev, intervention à l'assemblée du Groupe interrégional des députés du peuple d'URSS, le 29 juillet 1989, *Russkaja mysl'*, 8 septembre 1989.
34. Mihail Antonov, « Vernut' zabytye istiny » *op. cit.*, p. 2.
35. Mihail Antonov, « Vernut' zabytye istiny », *op. cit.*, p. 2.
36. *Russkaja mysl'*, 28 avril 1989.

37. Cité d'après David Schoenbaum, *La Révolution brune. La société allemande sous le IIIe Reich*, Paris, 1979, p. 87.
38. Jacob Burckhardt, *The Civilisation of the Renaissance in Italy*, Londres, 1921, p. 129.
39. Erich Fromm, *Fear of Freedom*, Londres, 1966, p. 34.

الجزء الثامن

1. Ark. Arkanov, « " Solomon " i soznanie. Nenaučnaja fantastika », *Literaturnaja gazeta*, 8 août 1987.
2. Claude Simon, *L'Invitation*, Paris, 1987, p. 39.
3. *The Boston Sunday*, 2 août 1987.
4. *Russkaja mysl'*, 20 mars 1987.
5. *Time*, 16 mars 1987.
6. *International Herald Tribune*, 4-5 juin 1988.
7. *Le Monde*, 11-12 décembre 1988.
8. *Pravda*, 10 juin 1989.
9. *Russkaja mysl'*, 6 octobre 1989; *Le Monde*, 30 septembre 1989.
10. *Russkaja mysl'*, 17 novembre 1989.
11. Compte rendu de l'intervention de I.N. Afanasiev lors d'une réunion du Groupe interrégional des députés du peuple d'URSS, le 29 juillet 1989; *Russkaja mysl'*, 8 décembre 1989.
12. « Nužna " železnaja ruka " ? », *Literaturnaja gazeta*, 16 septembre 1989.
13. *Ibid.*
14. A. Solženicyn, « Na vozvrate dyhanija i soznanija », *Iz-pod glyb*, *op. cit.*, p. 26.
15. Ju. Baskin, V. Plahov, « Načala Sokrata ili ukaz bjurokrata », *Neva*, n° 5, 1989, p. 167.
16. V. I. Lenin, *Ob avtoritete rukovoditelja*, Moscou, 1963.
17. *Pravda*, 1er juillet, 1988.
18. *Time*, 4 juin 1990.
19. Nikolaj Šul'gin, « Kto on ? », *XX vek i mir*, n° 6, 1989, p. 21.
20. I. Babel', « Moj pervyj gus' » *Izbrannoe*, Moscou, 1966, p. 56.
21. *Frankfurter Allgemeine Zeitung*, 26 septembre 1988.
22. Holart Rowen, « Gorbachev in Trouble, Needs western Help quickly », cité d'après : *International Herald Tribune*, 28-29 novembre 1989.
23. *Le Quotidien de Paris*, 22 novembre 1989.
24. *Le Monde*, 1er juin 1990.
25. Vitalij Tret'jakov, « Zagadka Gorbačeva », *Moskovskie novosti*, 26 novembre 1989.
26. *Pravda*, 3 novembre 1987.
27. *Pravda*, 24 avril 1985.
28. Solomon Lozovski, *Le Grand Stratège de la lutte des classes*, Moscou, 1924, p. 18.
29. I. V. Stalin, *Sočinenija*, t. 13, p. 115.
30. Vasilij Tret'jakov, « Zagadka Gorbačeva », *op. cit.*
31. *Pravda*, 9 avril 1986,

الفصل الخامس والعشرون

1. Boris Eltsine, *op cit.*, p. 176.

الفصل السادس والعشرون

1. Cette interview du chancelier Kohl est parue dans le magazine américain *Newsweek*, le 6 novembre 1986; cité d'après *Le Monde*, 8 novembre 1986.

2. A. M. Rosenthal, « Gorbachev didn't start this Revolt », *International Herald Tribune*, 22 novembre 1989.
3. Nikolaj Šul'gin, « Kto on? », *op. cit.*, p. 21.
4. Vitalij Tret'jakov, « Zagadka Gorbačeva », *op. cit.* », p. 9.
5. *Komsomol'skaja pravda*, 23 novembre 1989.
6. Claude Simon, *L'Invitation*, *op. cit.*, p. 65.
7. *International Herald Tribune*, 4 décembre 1989.
8. Boris Eltsine, *op. cit.*, pp. 128-129.
9. *Pravda*, 20 août 1989.
10. Nora Buhks, *Le Journalisme de la perestroïka...*, *op. cit.*, p. 42.
11. *Pravda*, 12 juillet 1985.
12. *Pravda*, 28 juillet 1986.
13. *Pravda*, 9 avril 1985.
14. *Pravda*, 19 octobre 1986.
15. *Pravda*, 1er octobre 1987.
16. *Pravda*, 19 octobre 1986.
17. *Večernjaja Moskva*, 18 novembre 1987.
18. *Pravda*, 3 octobre 1987.
19. *Pravda*, 7 mars 1988.
20. *Sovetskaja Rossija*, 13 septembre 1988.
21. M. Gorbačev, « Socialističeskaja ideja i revoljucionnaja perestrojka », *Pravda*, 26 novembre 1989.
22. *Kratkij političeskij slovar'*, Moscou, 1983. La phrase est restée inchangée dans l'édition de 1987.
23. Pour plus de détails sur ce point, voir le chapitre consacré à « La Langue », *in* Michel Heller, *La Machine et les rouages*, *op. cit.*
24. *Pravda*, 26 novembre 1989.
25. *Ibid.*
26. M.S. Gorbačev, « Otvety na voprosy gazety *Jumanite* », 4 février 1986, *Izbrannye reči i stat'i*, t. 3, p. 157.
27. *Pravda*, 13 décembre 1989.

خلاصة

1. Witold Charlamp, « Dziennik zewnetrzny », *Kultura*, n° 12, 1989, p. 84.
2. *Russkaja mysl'*, 8 décembre 1989.
3. *Pravda*, 14 décembre 1989.
4. *International Herald Tribune*, 4 décembre 1989.
5. *Russkaja mysl'*, 22 décembre 1989.
6. *Ibid.*
7. Vasilij Seljunin, « Černye dyry ekonomiki », *Novyj mir*, n° 10, 1989.
8. Isaac Asimov, *Prelude to Foundation*, Bantam Books, 1989, p. 87.
9. *Le Monde*, 12 décembre 1989.
10. *International Herald Tribune*, 14 décembre 1989.
11. *Argumenty i Fakty*, n° 40, 7-13 octobre 1989.
12. *Kommersant*, n° 16, avril 1990.
13. Jurij Vladimirovich Got'e, *Time of Trouble*, Londres, 1988, p. 95.
14. *Pravda*, 21 avril 1990.
15. Boris Pil'njak, « Mat'-Mačeha », *Sobr. soč.*, t. IV, Moscou-Leningrad, 1929, p. 219.

الفهرس

«السكرتير السابع والأخير» كتاب حدث ولا شك، فالصعود الذي لا يقاوم لغورباتشيف، والأيام التي تبعت الألفين من حياة البريسترويكا، لم يتم وصفها ولا تحليلها من قبل بمثل هذه الدقة بالتفاصيل، وبمثل هذه المعرفة العميقة بالعالم الذي كان سوفياتياً.

هذا الكتاب رواية مذهلة للصراع الدموي في سبيل السلطة، صراع مخفي ومشوّه داخل الخلية الوراثية للنظام. من خلال تسلسل الفصول ندخل إلى قلب الحزب والمخابرات والجيش و[illegible] ونرى كيف يعمل الممثلون الكبار.

لقد كتب ميشيل هيلر منذ عام ١٩٨٤: «إن التاريخ لا يفتقد إلى أمثلة عن الأمبراطوريات الهائلة القوة والتي أصبحت أثراً بعد عين، بالرغم من أنها كانت حتى الأمس تبدو وكأنها خالدة. فدائماً هناك أسباب مختلفة داخلية وخارجية تنبؤنا بسقوط هذه الدول "الخالدة"».

إن المواجهة التي خاضها غورباتشيف مع البنية البيروقراطية التي منعته من إرساء سلطته المطلقة، قادت السكرتير السابع أكثر فأكثر نحو المضيّ في إصلاحات قوّضت أسس النظام الشيوعي، بالرغم من أن هدفه لم يكن أبعد من أن يجعل هذا النظام أكثر فعالية، أكثر مرونة، وقادراً على التأقلم مع متطلبات القرن الواحد والعشرين.

ومع بداية عام ١٩٩٢، حيث زال الاتحاد السوفياتي مبدئياً من الوجود، يقدم لنا هذا الكتاب كل المفاتيح ويفتح أمامنا كل الأبواب، لرؤية الأسباب العميقة لهذا الزلزال المؤهل لإعادة تشكيل مستقبل الكرة الأرضية.

ميشيل هيلر، مؤرخ ومؤلف لكتابين مشهورين ترجما إلى لغات عدة هما:

- اليوطوبيا في السلطة

- الآلة والدواليب